موسوعة

الخطب المنبرية

سلسلة تحكى سيرة الرسول وقصص الأنبياء و الصحابة و التابعين

مواقف مؤثرة ... وعظات بالغة ... ودروس مستفادة

لا غنى عنه للوعاظ و الدعاة و الخطباء



لتحميل أنواع الكتب راجع: (مُنتَدى إقْرَأ الثقافِي)

براي دانلود كتابهاى مختلف مراجعه: (منتدى اقرأ الثقافى)

بۆدابەزاندنی جۆرەها كتيب:سەردانی: (مُنتَدى إقْرَأ الثقافِي)

www. Iqra.ahlamontada.com



www.iqra.ahlamontada.com

للكتب (كوردى ,عربي ,فارسي)

موسوعة



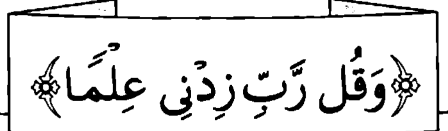
سلسلة تحكى سيرة الرسول وقصص الأنبياء والصحابة والتابعين
مواقف مؤثره . . . وعظات بالغة . . . ودروس مستفادة
لا غنى عنه للوعاظ والدعاة والخطباء

سعد يوسف أبو عزيز

المجلد الثاني

دار التوفيقية للتراث

بسم الله الرحمن الرحيم



حقوق الطبع محفوظة
لدار التوفيقية للتراث
للطبع والنشر والتوزيع

الكتـــاب: **موسوعة الخطب المنبرية**
(الجزء الثاني)

المؤلـــف: **سعد يوسف أبو عزيز**

النـــاشر: **دار التوفيقية للتراث**

رقم الإيداع: **١٥١٨٥/٢٠٠٩**

دار التوفيقية للتراث

---

١ درب الأتراك خلف الجامع الأزهر - القاهرة

تليفون: ٢٥١٠٥٦٦٢

الخطبة الرابعة والخمسون:

فوائد معرفة السيرة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد أكَّد السَّلف الأوائل على أهمية دراسة السيرة النبوية، وحثوا على تَعَلُّمها وتعليمها، وبينوا فضلها وفوائدها، ومن أقوالهم في ذَلِكَ: ما قاله علي بن الحسن ابن علي بن أبي طالب: «كُنَّا نُعلِّم مغازي النبي ﷺ كما نُعلِّم السورة من القُرآن».

ويقول الزُّهري - رحمه الله -: «في علم المغازي علم الآخرة والدنيا».

ويقول إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص: «كان أبي يعلمنا مغازي رسول الله ﷺ يعدُّها علينا ويقول: هذه مآثر آبائكم فلا تضيعوا ذكرها»[1].

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٤٢).

عباد الله...

إن سيرة رسول الله ﷺ وسيرة صحابته الطاهرين من رجالات الرعيل الأول الذي عايشوا الرسول ﷺ وتلقّوا تعاليمه وتوجيهاته لَهِيَ المُعين الذي لا يَنضب مهما توالت القرون والأزمان.

وفي تلك الأيام التي يعيشها المسلمون لم يبق أمامهم - وقد تفرقت كلمتهم وهوت منزلتُهم بين العالمين وتكالب عليهم أعدائهم - سوى العَود الحميد إلى ذَلِكَ النبع الصافي المتمثل في عصر الرسالة الخاتمة، خاصة أنهم جربوا ما حلا لهم من مذاهب وضعيّة متهرِّئة، باءوا بعدها بالفشل الذريع والخُسران المبين.

ومن ثَمَّ وجب على المسلمين المعاصرين أن يُمعنوا النظر في مراحل السِّيرة النبويّة، وأحداثها وتطوراتها على المستويات الثلاثة الكبرى: الدعوية، والجهادية، والحاضرية. مدركين مراميها وأغراضها، آخذين ما فيها من خير بقوة وسرعة، دونها تردد أو إبطاء، لإصلاح حاضرهم، وبلوغ المكانة التي يستحقون في مستقبلهم القريب والبعيد على سواء، وصدق الله القائل: ﴿**وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ [النحل: ٤٤]. ا.هـ[(١)].

عباد الله...

ولعلم السيرة فوائد:

الفائدة الأولى:

إن دراسة السِّيرة تُمكِّننا من اتباع النبيّ ﷺ والاقتداء به.

ذَلِكَ أَنَّهُ بدراسة علم السِّيرة يستطيع الإنسان أن يعرف منهجه ﷺ الذي سار عليه فيستطيع الاتباع والاقتداء.

قَالَ تعالى: ﴿**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا**﴾ [الأحزاب: ٢١].

---

(١) «المسلمون في عصر الرسالة» د. عبد الفتاح فتحي (ص٧).

وقال تعالى: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّـهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّـهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ٣١، ٣٢].

وسيرته ﷺ شاملة نواحي الحياة، ولقد لاحظ أعداء الإسلام وأحبائه عموم منهجه ﷺ.

فانظروا إلى حديث سلمان الفارسي، وقد قَالَ له مشرك: قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ حَتَّى الخِرَاءَةَ؟ فَقَالَ سلمان: أَجَلْ[١] لَقَدْ نَهَانَا أَنْ نَسْتَقْبِلَ القِبْلَةَ لِغَائِطٍ أَوْ بَوْلٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِاليَمِينِ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِأَقَلَّ مِنْ ثَلاثَةِ أَحْجَارٍ، أَوْ أَنْ نَسْتَنْجِيَ بِرَجِيعٍ أَوْ بِعَظْمٍ[٢].

ومن قول هَذَا المشرك: «قَدْ عَلَّمَكُمْ نَبِيُّكُمْ ﷺ كُلَّ شَيْءٍ» يتضح مدى مراقبة هؤلاء للمنهج النبوي ومعرفتهم بشموله.

الفائدة الثانية:

إن دراسة السِّيرة النبوية تأخذ بأيدينا إلى طاعة الله تعالى ورضوانه، ذَلِكَ أن دارس السِّيرة يتعرف على طريقة النبي ﷺ ومنهجه، ومن ثَمَّ يعرف المثالية في العبادة، فيحرص على بلوغها ما استطاع إلى ذَلِكَ سبيلًا.

وفي عصرنا الحاضر نحن في أشد الحاجة لدراسة السِّيرة من أجل هذه الفائدة، من أجل أن نعرف المثالية الإسلامية، ومن أجل أن نعيش مع هديه ﷺ، نتعلم ونعمل.

إنَّ غَرَقَ مجتمع اليوم في الماديات غيَّر القيم والموازين عندهم، فهم بحاجة إلى دراسة السِّيرة لتأخذ بيدهم إلى معرفة الصراط المستقيم، وتعرفهم الكمال، فإن مَن يجهل الكمال الإسلامي يحسب النقص كمالًا.

الفائدة الثالثة:

إن دراسة السِّيرة تعرفنا الكمال الإنساني، ومعرفة الكمال متعة، والقراءة عن

---

(١) أي: نعم.
(٢) أخرجه مسلم (١/ ٥٤٦).

الأخلاق الكريمة فيها متعة وإثراء للمثالية، وسيرتُه ﷺ هي مكارم الأخلاق، فيها المثالية الحقّة والكمال الإنساني، إن مَن يقرأ عن حبِّه ﷺ لربّه وحرصه على طاعته، وتفانيه في ذَلِكَ، يسعد كثيرًا، ومَن يقرأ عن أخلاقه يسعد ويسعد، لأن أخلاقه هي أسمى ما يتمنى البشر.

فانظروا إليه في حلمه وصفحه كما يوضحه حديث جابر بن عبد الله - رَضِي الله عَنْهُما -:

«أَنَّهُ غَزَا مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ غَزْوَةً قِبَلَ نَجْدٍ، فَأَدْرَكَتْهُمُ القَائِلَةُ[١] يَوْمًا فِي وَادٍ كَثِيرِ العِضَاهِ[٢] فَنَزَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَتَفَرَّقَ النَّاسُ فِي العِضَاهِ يَسْتَظِلُّونَ بِالشَّجَرِ، وَنَزَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَسْتَظِلُّ تَحْتَ شَجَرَةٍ فَعَلَّقَ بِهَا سَيْفَهُ.

قَالَ جَابِرٌ: فَنِمْنَا بِهَا نَوْمَةً، ثُمَّ إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ يَدْعُونَا فَأَتَيْنَاهُ، فَإِذَا عِنْدَهُ أَعْرَابِيٌّ جَالِسٌ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**إِنَّ هَذَا اخْتَرَطَ سَيْفَهُ وَأَنَا نَائِمٌ فَاسْتَيْقَظْتُ وَهُوَ فِي يَدِهِ صَلْتًا فَقَالَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي فَقُلْتُ اللَّهُ فَقَالَ مَنْ يَمْنَعُكَ مِنِّي فَقُلْتُ اللَّهُ فَشَامَ السَّيْفَ**[٣]»، وَجَلَسَ فَلَمْ يُعَاقِبْهُ النَّبِيُّ ﷺ[٤].

وفي رواية[٥]: أن هَذَا المشرك اسمه «غورث بن الحارث».

وفي رواية[٦]: أن جبريل دفع في صدره فوقع السيفُ من يده فأخذه النبيُّ ﷺ وقال: «**مَنْ يَمْنَعُك مِنِّي؟**». قَالَ: لا أحد. قَالَ: «**قُم فاذهب لشأنك**». فلما ولَّى قَالَ: أنت خيرٌ منّي.

وفي رواية[٧]: أن الرجل أسلم ورجع إلى قومه فاهتدى به خلقٌ كثير.

---

(١) أي: القيولة.
(٢) مكان به شجر ملتف الأغصان.
(٣) **شام السيف**: أغمده، أي: وضعه في جرابه.
(٤) أخرجه البخاري (٢٩١٣).
(٥) عند البخاري (٤٤٣٦).
(٦) عند ابن إسحاق كما في «الفتح» (٧/ ٤٢٧).
(٧) عند الواقدي كما في «الفتح» (٧/ ٤٢٨).

الفائدة الرابعة:

أن السِّيرة تأخذ بأيدينا إلى حُسْن الخُلُق مع مَن نتعامل معهم من المخلوقات، من الآدميين وغيرهم، أي أنها تُحسِّن خُلُق دارسها مع نفسه، ومع أهله وأولاده، ومع جيرانه ومعارفه، إنها تُحسِّن خُلُقه مع الحيوان والطير، ومع المخلوقات الصغيرة، وكل ذَلِكَ سُمُوٌّ بالأخلاق، ورحمة بالمخلوقين، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

فانظروا إليه ﷺ في تعامله مع أهل بيته، ومَن يقوم بخدمته:

فعَنْ عَائِشَةَ رضي الله عنها قَالَتْ: «مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِيَدِهِ شيئًا قطُّ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَلَا ضَرَبَ خَادِمًا وَلَا امْرَأَةً»[١].

وَعَنْ أَنَس بن مالك - رَضِي الله عَنْهُ - قَالَ: «خَدَمْتُ النَّبِيَّ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ فَمَا قَالَ لِي أُفٍّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِشَيْءٍ صَنَعْتُهُ لِمَ صَنَعْتَهُ، وَلَا لِشَيْءٍ تَرَكْتُهُ لِمَ تَرَكْتَهُ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ أَحْسَنِ النَّاسِ خُلُقًا، وَلَا مَسَسْتُ خَزًّا قَطُّ وَلَا حَرِيرًا وَلَا شَيْئًا كَانَ أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا شَمَمْتُ مِسْكًا قَطُّ وَلَا عِطْرًا كَانَ أَطْيَبَ مِنْ عَرَقِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ»[٢].

وفي كُتب السِّيرة وكُتب السُّنة الكثير والكثير من كريم خُلقه ﷺ مع أهله، ومع جميع النَّاس، بل مع الحيوانات ومع الطيور، ومع جميع المخلوقات[٣].

الفائدة الخامسة:

إن معرفة سيرته ﷺ تورث القلب طمأنينة:

١- تورث القلب طمأنينة بوجود الله سبحانه، وبقدرته على كل شيء، وبعلمه عَزَّ وَجَلَّ بكل شيء، وبعنايته ورعايته للمؤمنين في كل مكان وزمان.

٢- وتورث القلب طمأنينة بأنه ﷺ رسول الله، وأنه إمام الهدى وشفيع الأُمّة.

---

(١) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٣٣١).

(٢) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٣٢٨)، وهو في الصحيحين.

(٣) وسيأتي المزيد - إن شاء الله - في صفاته الخَلقية والخُلقية.

٣- وتُورث القلب طمأنينة بأن الله تعالى ينصر عباده الموحدين، وأنه سبحانه يؤيد الحق وأهله، وليس الأمر مبنيًّا على الكثرة العددية، ولا موكولًا للقوّة العُدَدية، وإنما ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

٤- وتُورث القلب طمأنينة بالرزق والأجل، فالرَّزاق هو الله، ولا يستطيع مخلوق أن يؤثر في أجل مخلوق آخر أو في رزقه.

وإذا قرأنا حدثًا واحدًا من سيرته ﷺ كحدث هجرته ﷺ من مكَّة إلى المدينة، أو غزوة من غزواته، اتضح لنا الكثير مما ذُكر وما لم يُذكر.

وإذا كانت أنباء الرُّسل السابقين تثبت فؤاده ﷺ وتورثه الطمأنينة، كما قَالَ تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ﴾ [هود: ١٢٠]، فإن أنباءه - التي هي سيرته ﷺ - تثبت فؤاد المؤمنين به، وما مِن مؤمن إلَّا ويحرص على ما يُثبت فؤاده ويطمئن قلبَه.

وسيرته ﷺ فيها الكثير من المعجزات الحسِّية مثل نبع الماء من بين أصابعه ﷺ، ومثل تكثير الطعام حتى أكل الجيش من صاع شعير وِجدْى صغير، ومثل ردّ عَين قتادة التي كانت قد فُقئت فردّها له ﷺ فكان أحسن عينيه، ولم يَشْكُ منها قطّ.

وفيها الكثير أيضًا من تأييد الله تعالى له ﷺ وللمسلمين، كالتأييد بالملائكة والريح.

الفائدة السادسة:

أن الدارس للسِّيرة يستفيد الكثير من العبر والعظّات، يستفيد أن العاقل مَن اتبع الحق وسار عَلَى نَهج الله المستقيم، فكم من أُناسٍ غرتهم قوّتُهم، وأغراهم جاههم وسوّل الشيطان لهم سوء أعمالهم، فتجبّروا وتكبّروا، فأنزل الله بهم بأسه الذي لا يُردّ عن القوم المجرمين.

وكم من إنسان تجبّر، ومقابله لجأ إلى الله سبحانه، فكانَ الله للمتجبر مهلكًا، ولمن لجأ إليه سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ناصرًا.

قَالَ تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّـهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

وسيأتي المزيد من هَذَا التأييد - إن شاء الله - في أثناء تناولنا للغزوات والسرايا.

الفائدة السابعة:

في علم السِّيرة أصول المعارف الصحيحة، فأصول النفسيات فيها، وما أُخذ من السِّيرة في هذا المجال فهو أصح ما فيه، فانظر إلى قوله ﷺ: «**وتبسُّمك في وجه أخيك صدقة**» (١)، ويصف هند بن أبي هالة رسولَ الله ﷺ بصفات هي أساس مراعاة نفسيات النَّاس، إذ يقول: «... ويكرم كريم كل قوم ويولِّيه عليهم، ويتفقد أصحابه، ويسأل النَّاس عما في النَّاس، وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس، ويأمر بذلك، يعطي كل جلسائه بنصيبه، لا يحسبُ جليسه أن أحدًا أكرم عليه منه، من جالسه، أو فاوضه في حاجة صابره حَتَّى يكون هُوَ المنصرف عنه، ومن سأله حاجة لم يردَّه إلا بها أو بميسورٍ من القول، قَدْ وسع النَّاسَ بسطُه وخُلُقه، فصار لهم أبًا، وصاروا عنده في الحق سواء...» الحديث(٢).

أرأيت هذه النفسيات الصادقة والتي خلت عن كل تعقيد، ولو صدق دارسوا النفسيات في أخذ علومهم من سيرته ﷺ لأفادت دراستهم البشرية خيرًا كثيرًا.

وكذلك أصول التربية، فانظر كيف ربَّى ﷺ أُمَّةً كان القوي فيها يأكل الضعيف، وجعل منها أُمَّة منهجها «**اللَّهُ فِي عَوْنِ العَبْدِ مَا كَانَ العَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ**» (٣)، حدث هذا في فترة وجيزة، نقلهم من عالم التصارع إلى عالم: «**لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ**» (٤)، أما كان الأجدر بعلماء التربية أن يدرسوا سيرته ﷺ،

---

(١) أخرجه الترمذي، وابن حبان، وصححه الألباني في «السلسلة الصحيحة» برقم (٥٧٢).
(٢) أخرجه الترمذي في «الشمائل» (٢٦٥)، ٢٦٧).
(٣) أخرجه مسلم، وغيره.
(٤) أخرجه البخاري.

ويأخذوا منها الجانب التربويّ؟ إنهم لو فعلوا ذلك لأفادوا البشرية كثيرًا.

وكذلك أصول العسكرية، فكيف كوَّن ﷺ جيشًا قضى عَلَى الإمبراطوريات الضخمة القوّية؟ وما منهجه في مغازيه وجيشه؟ أليس هذا جديرًا ببحث العسكريين؟

وكذلك منهج الدَّعوة، فالأئمة هم أحوج النَّاس لدراسة منهجه ﷺ في الدَّعوة، وكيف عامل النَّاس حَتَّى أحبوه أكثر من أنفسهم، وكيف دعاهم حَتَّى أصبح دينهم أعز شيء عندهم؟ إنهم بحاجة لمعرفة منهجه في معاملة مَنْ حوله، ومنهجه في توصيل دعوته إلى البعيد، إنهم بحاجة لمعرفة منهجه ﷺ إزاء كلّ نوعيات البشر، وكيف عامل كل نوع.

بل إن الدعاة بحاجة لمعرفة منهجه العلمي ﷺ، بمعنى منهجه في الإلقاء، ومنهجه في النطق، وأنه لا يتكلم إلا في حالة هدوء منهم، وصمت جميعهم، فإذا تكلَّم كان كلامه فصلًا، لو أراد العادُّ أن يَعُدَّهُ لعدَّه، إنهم بحاجة لمعرفة منهجه ﷺ في تثبيت المعلومات، وكيف أَنَّهُ استعان بضرب المثل، وطرح السؤال، وانتظار الجواب.

إنهم بحاجة لمعرفة منهجه ﷺ في الإقناع، فها هُوَ ذا رجل يأتيه فيقول له: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ امْرَأَتِي وَلَدَتْ غُلَامًا أَسْوَدَ (أي: وأنا أبيض فكيف يكون مني؟) فَقَالَ ﷺ: «**هَلْ لَكَ مِنْ إِبِلٍ؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**مَا أَلْوَانُهَا؟**» قَالَ: حُمْرٌ، قَالَ: «**هَلْ فِيهَا مِنْ أَوْرَقَ**[١]**؟**» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «**فَأَنَّى كَانَ ذَلِكَ؟**[٢]» قَالَ: أُرَاهُ عِرْقٌ نَزَعَهُ[٣]، قَالَ: «**فَلَعَلَّ ابْنَكَ هَذَا نَزَعَهُ عِرْقٌ**»[٤].

أرأيت منهجه ﷺ في الإقناع، إِنَّهُ لم يتكلم كثيرًا، وأنطق الرجل بالجواب، والفكرة واضحة، وضرب المثل زادها وضوحًا.

---

(١) **البعير الأورق**: هو الذي فيه سواد ليس بحالك، وإنما يميل إلى الغبرة.
(٢) من أين أتاها هَذَا اللون المخالف؟
(٣) قد يكون في أصولها ما هو أورق فجاءت على لونه.
(٤) أخرجه البخاري (٥٣٠٥)، وأخرجه مسلم وغيره.

إن الدعاة بحاجة لمعرفة منهجه ﷺ في مراعاة أحوال السامع، فهو ﷺ لم يكثر عليهم الكلام خشية السآمة، وأحاديثه ﷺ بين أيدينا في مجموعها لا تتعدى السطرين أو الثلاثة، وكثير منها في سطر، وكثير منها في نصف سطر[١].

عباد الله...

هذه بعض فوائد السِّيرة، فأديموا النَّظر فيها، وأكثر من الاستماع إليها، ففيها المناعة الإيمانية، والاهتمام بها دليلٌ عَلَى الإيمان.

قَالَ تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وخلاصة ما سبق: «إن دراسة الهدي النبوي له أهميته لكل مسلم، فهو يحقق عدة أهداف، من أهمها:

١- الاقتداء برسول الله ﷺ من خلال معرفة شخصيته ﷺ وأعماله وأقواله وتقريراته.

٢- وتكسب المسلم محبّة الرسول ﷺ وتُنَميِّه وتُباركه.

٣- ويتعرّف عَلَى حياة الصَّحابة الكرام الذين جاهدوا مع رسول الله ﷺ، فتدعوه تلك الدراسة لمحبتهم والسير عَلَى نهجهم واتباع سبيلهم.

٤- كما أن السِّيرة النبوية توضح للمسلم حياة الرسول ﷺ بدقائقها وتفاصيلها منذ ولادته وحتى موته مرورًا بطفولته وشبابه، ودعوته وجهاده وصبره، وانتصاره عَلَى عدوه.

---

(١) «السِّيرة النبوية - دراسة موثقة وتحليلية» د. عبد المهدي عبد القادر، و«محاضرت في السيرة النبوية - الفترة المكيّة» د. طه عبد المقصود أبو عُبية، بتصرف واختصار.

٥- وتُظهر بوضوح أَنَّهُ كان زوجًا وأبًا وقائدًا، ومحاربًا، وحاكمًا، وسياسيًّا، ومربيًّا، وداعية، وزاهدًا، وقاضيًا وعلى هذا فكل مسلم يجد بغيته فيها.

فالداعية يجد له في سيرة رسول الله ﷺ أساليب الدَّعوة، ومراحلها المتسلسلة ويتعرف عَلَى الوسائل المناسبة لكل مرحلة من مراحلها، فيستفيد منها في اتصاله بالناس ودعوتهم للإسلام، ويستشعر الجهد العظيم الذي بذله رسول الله ﷺ من أجل إعلاء كلمة الله، وكيف التصرف أمام العوائق والعقبات والصعوبات، وما هُوَ الموقف الصحيح أمام الشدائد والفتن.

والمربي يجد في سيرته ﷺ دروسًا نبويّة في التربية والتأثير عَلَى النَّاس بشكل عام، وعلى أصحابه الذين ربّاهم عَلَى يده وكلأهم بعنايته، فأخرج منهم جيلًا قرآنيًّا فريدًا وكوَّن منهم أمة هي خير أُمّة أُخرجت للناس، تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وتؤمن بالله، وأقام بهم دولةً نشرت العدل في مشارق الأرض ومغاربها.

والقائد المحارب يجد في سيرته ﷺ نظامًا محكمًا، ومنهجًا دقيقًا في فنون قيادة الجيوش والقبائل والشعوب والأُمّة، فيجد نماذج في التخطيط واضحة، ودقة في التنفيذ بينة، وحرصًا عَلَى تجسيد مبادئ العدل وإقامة قواعد الشورى بين الجند والأمراء والراعي والرعيّة.

والسياسي يتعلم منها كيف كان ﷺ يتعامل مع أشد خصومه السياسيين المنحرفين، كرئيس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سلول الذي أظهر الإسلام وأبطن الكفر والبغض لرسول الله ﷺ، وكيف كان يحوك المؤامرات وينشر الإشاعات التي تسيئ إلى رسول الله ﷺ لإضعافه وتنفير النَّاس منه، وكيف عامله رسول الله ﷺ وصبر عليه وعلى حقده حَتَّى ظهرت حقيقته للناس، فنبذوه جميعًا حَتَّى أقرب النَّاس له، وكرهوه والتفوا حول قيادة النبي ﷺ.

والعلماء يجدون فيها ما يُعينهم عَلَى فهم كتاب الله تعالى، لأنها هي المفسرة للقرآن الكريم في الجانب العملي، ففيها أسباب النزول، وتفسير لكثير من الآيات، فتُعينُهم عَلَى فهمها والاستنباط منها ومعايشة أحداثها، فيستخرجون أحكامها الشرعية، وأصول السياسة الشرعيّة، ويحصلون منها عَلَى المعارف

الصحيحة في علوم الإسلام المختلفة، وبها يدركون الناسخ والمنسوخ وغيرها من العلوم، وبذلك يتذوقون روح الإسلام ومقاصده السامية.

والزُّهاد يجدون فيها معاني الزهد وحقيقته ومقصده، ويستقي منها التجار مقاصد التجارة وأنظمتها وطرقها، ويتعلم منها المبتلون أسمى درجات الصبر والثبات، فتقوى عزائمهم عَلَى السير في طريق دعوة الإسلام، وتعظم ثقتهم بالله عَزَّ وَجَلَّ ويوقنوا أن العاقبة للمتقين.

وعلى الجملة: فإن دراسة الهدي النبوي في تربية الأُمَّة وإقامة الدولة يساعد العلماء والقادة والفقهاء والحكام عَلَى معرفة الطريق إلى عز الإسلام والمسلمين من خلال معرفة عوامل النهوض، وأسباب السقوط، ويتعرفون عَلَى فقه النبي ﷺ في تربية الأفراد، وبناء الأُمّة المسلمة، وإحياء المجتمع، وإقامة الدولة.

ونحن عَلَى قناعة بأن التمكين لهذه الأُمّة وإعادة مجدها وعزتها منوط بمتابعة الهدي النبوي، قَالَ تعالى: ﴿**قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُم مَّا حُمِّلْتُمْ وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ**﴾ [النور: ٥٤].

وقد بيَّنت الآية الكريمة أن طريق التمكين إنما يكون في متابعة النبيّ ﷺ، وقد جاءت الآيات التي بعدها تتحدث عن التمكين وتوضيح شروطه، قَالَ تعالى: ﴿**وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [النور: ٥٥، ٥٦][(١)].

اللَّهُمَّ اهدِ حيارى الأبصار إلى نورك، وضلّال المناهج إلى صراطك، والزّائغين عن السّبيل إلى هُداك.

آمين... آمين... آمين.

---

(١) «السِّيرة النبوية» د. الصّلابي، بواسطة «محاضرات في السيرة» (١١ - ١٣).

الخطبة الخامسة والخمسون:

إطلالة على حالة العالم قبل الرسالة الخاتمة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فهذه إطلالة مهمة على حالة العالم قبل الرسالة الخاتمة، لنعرف مدى حاجة البشرية إلى رسولٌ يردّها إلى الفطرة النقيّة، والصراط المستقيم، الذي لا يرى الإنسان فيه عوجًا ولا أَمْتًا.

ومن ناحية أخرى: نعرف المناخ الذي ولدت فيه الدعوة الإسلامية، والصعوبات التي واجهت رسولَ الإسلام الخاتم ﷺ ومن آمن معه.

عباد الله...

أما عن اليهودية:

فقد كانت في القرنين السادس والسابع ديانة مجموعة من البشر، يجوز لنا أن نسميها المجموعة المتسلّقة، إذ أنها لا تعتمد عَلَى نفسها، وإنما تعتمد عَلَى غيرها، كما قَالَ تعالى: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا ثُقِفُوا إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٢].

- **واليهود قومٌ بينهم وبين الوثنيةجاذبية خاصّة.**

قالوا لموسى: ﴿اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ﴾ [الأعراف: ١٣٨].

وعبدوا العجل، وقالوا لهارون: ﴿لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾ [طه: ٩١].

- **أساءوا الأدب مع الله:**

اسمعوا إليهم وهم يقولون - كما حكى القرآن -: ﴿يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾ [المائدة: ٦٤].

ويقولون: ﴿عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠].

- **وكذّبوا رسلهم، وقتلوا منهم خلقًا:**

قَالَ تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة: ٨٧].

- **حرّفوا الكُتب المنزلة من السماء:**

قَالَ تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا يَكْسِبُونَ﴾ [البقرة: ٧٩].

وجرائمهم تفوق الحصر.

أما عن النصرانيّة (ديانة الروم):

فأصابها ما أصاب اليهودية، وبين مصيبتها بأهلها ومصيبة اليهودية شبه كبير.

فعقيدتهم عمّها التثليث، وعمّها أن المسيح ابن الله كما قَالَ الحق سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢].

وقال سبحانه: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وبيَّن القرآن الكريم أنهم يشاركون اليهود في عبادة الأشخاص.

قَالَ تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

روى الإمام أحمد والترمذي وابن جرير من طريق عديّ بن حاتم - رَضِي الله عَنْهُ -: «أَنَّهُ لَـمَّا بلغته دعوة رسول الله ﷺ فرّ إلى الشَّام وكان قَدْ تنصّر في الجاهلية، فأُسرت أخته وجماعة من قومه، ثُمَّ منَّ رسول الله ﷺ عَلَى أخته وأعطاها فرجعت إلى أخيها فرغبته في الإسلام وفي القدوم عَلَى رسول الله ﷺ، يقول عديّ بن حاتم - رَضِي الله عَنْهُ -: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَفِي عُنُقِي صَلِيبٌ مِنْ ذَهَبٍ، فَقَالَ: «يَا عَدِيُّ اطْرَحْ هَذَا الوَثَنَ مِنْ عُنُقِكَ»، فَطَرَحْتُهُ، فَانْتَهَيْتُ إِلَيْهِ وَهُوَ يَقْرَأُ سُورَةَ بَرَاءَةٌ، فَقَرَأَ هَذِهِ الآيَةَ: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [ص: ٣١] حَتَّى فَرَغَ مِنْهَا، فَقُلْتُ: إِنَّا لَسْنَا نَعْبُدُهُمْ، فَقَالَ: «أَلَيْسَ يُحَرِّمُونَ مَا أَحَلَّ اللَّهُ فَتُحَرِّمُونَهُ وَيُحِلُّونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ، فَتَسْتَحِلُّونَهُ؟»قُلْتُ: بَلَى، قَالَ: «فَتِلْكَ عِبَادَتُهُمْ».

فَقَالَ لَهُ رسول الله ﷺ: «يَا عَدِيُّ بْنَ حَاتِمٍ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ؟ فَهَلْ مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ اللَّهُ؟ مَا أَفَرَّكَ أَنْ يُقَالَ اللَّهُ أَكْبَرُ؟ فَهَلْ شَيْءٌ هُوَ أَكْبَرُ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ؟».

قَالَ عديّ: فَأَسْلَمْتُ فَرَأَيْتُ وَجْهَهُ اسْتَبْشَرَ».

ولقد بلغ الجهل بهذه الديانة حدًّا أصبح معه أتباع النّصرانيّة فريقين متصارعين متخاصمين في حقيقة المسيح وطبيعته، وأصبحت الحرب عَلَى قدم وساق بين نصارى الشَّام والعراق، ونصارى مصر، وتحولت المدارس والكنائس والبيوت معسكرات متنافسة، يُكفِّر بعضها بعضًا، ويقتل بعضها بعضًا، كأنها حرب بين دينين متنافسين، أو أُمَّتين متحاربتين.

أما عن الفرس:

فديانتهم المجوسيّة، والتي تقوم من قديم الزمان عَلَى عبادة العناصر الطبيعية،

وهي: الماء، والنار، والشمس، والقمر، والمعادن.

وأعظمها النار، وأهلها أغلب الفرس.

هذه هي العقيدة وبديهي أن عقيدة مثل هذه يستحيل عليها أن توجد أخلاقًا ثابتة، فضلًا عن مجتمع فاضل، من ثَمَّ ظهر فيهم من المذاهب الخلقية ما عجز عن إصلاح مجتمعهم، والعجيب أنهم قدسوا هذه المذاهب، وجعلوها دينًا مع أنهم يعلمون أنها من وضع البشر، إلا أن العجب يتبدد عند تذكر وثنيتهم، وأنهم عُبَّاد شمس وعُبَّاد معن.

فكانت **الزرادشتية** والتي اعتنقها أصحاب النفوذ والسلطان، وتقوم عَلَى أن للوجود إلهين، إله الخير وإله الشر، وكلاهما يتنازع النفس البشرية والكون وما فيه، والصراع بينهما دائم مستمر.

وكان من فلسفة الزرادشتية تفضيل زواج الرجل بأمه أو ابنته أو أخته، وكذلك الإيمان بالقوة وعدم الإيمان بالضعف، فالقوة هي الحق، ولا عبرة بالضعفاء، وهم لا يصلحون للبقاء، فالحق مع القوّة دائمًا، والباطل مع الضعيف دائمًا.

وكانت **المانوية**، وهي مذهب يحسب أن الوجود الإنساني كله شر يجب أن لا يبقى، ويجب العمل عَلَى إفناء الإنسان، ولذلك يمنع الزواج استعجالا لإفناء البشرية.

وكانت **المزدكية** وهي مذهب يقوم عَلَى الإباحية المطلقة، فليفعل الإنسان ما يشاء، فالأموال لا جرمة لها، ومن حق الإنسان أن يستولى عَلَى ما يشاء، لا يقيده إلا قوة غيره، والنساء مباحة كالماء والهواء، فلا زواج ولا ارتباط.

وهذا المذهب ظن واضعه «مزدك» أَنَّهُ بذلك قَدْ حلّ مشاكل البشرية؛ لأن الخصام لا يأتي إلا من اختصاص الأفراد بزوجات أو مال!!

وأما عن الهند:

فكان دين الهند الشائع في هذه الفترة هُوَ «البرهمية» نسبة لإلههم «براهما» وهذه

وثنية متعددة، تقوم عَلَى فكرة تعدد الآلهة، ويميلون إلى التفاضل بين الآلهة المختلفة، والتفكير في كل منها بدوره كأنه أسمى من غيره.

ولقد بلغ عدد الأوثان في القرن السادس - من جرَّاء فكرة تعدد الآلهة هذه - ثلاثين وثلاثمائة مليون وثن!! حَتَّى ارتفعت صناعة التماثيل، وتأنّق فيها المتأنقون، وشملت صورة كل ما هُوَ نافع، وشكل ما هُوَ رائع، ورسم ما هُوَ هائل.

ومن مبادئ هذه الديانة: التفرقة بين طبقات الإنسانية، فالناس خمس طبقات من حيث العبادة والزلفى لـ«براهما»، وكل طبقة لها مهنة تتوارث، وليس من حق شخص أن يرتقي من طبقة إلى التي أعلى منها، فابن الثالثة لا يرتقي إلى الثانية، كما أَنَّهُ مهما أساء شخص لا ينزل عن طبقته، فمهما أساء ابن الثالثة لا ينزل إلى الرابعة، وأقصى ما يحققه الإنسان بطاعته وامتثاله أن يكون من أهل الخير.

وأما عن الصين:

ففي الصين انتشرت ثلاثة أديان، هي:

(١) **البوذية**: نسبة إلى «بوذا»، وهذا الشخص أسس مذهبًا يقوم عَلَى السلب لا الإيجاب، فينهى عن كثير من الأشياء، لكنه لا يأمر بأي شيء من الأشياء، حَتَّى العقيدة في وجود إله خالق كان بوذا يُنكرها، وأنكر كذلك ما كان في ديانة الصين القديمة مما يشبه الصلاة.

(٢) **الكونفوشيوسية**: نسبة إلى الفيلسوف كونج فوتسي، والذي حرّف اسمه في لغة الفرنجة إلى كونفوشيوس، وكونفوشيوس هذا سياسي، أديب، فيلسوف، موسيقي، متعبد، لم يَدَّعِ النبوّة، وإنما دعا إلى مذهب خُلقي يمكن أن نقول أَنَّهُ البوذية بشيء من التعديل.

(٣) **التاوزمية**: نسبة إلى الفيلسوف «لاوتز» وهذه الديانة قريبة الشبة بمذهب وحدة الوجود، فهي تقوم عَلَى مبدئين:

الأول: القانون السماوي الأعظم، وهو أصل الموجودات، لكنه ليس متعاليًا عليها، وإنما هُوَ فيها نفسها.

الثاني: الاستقبال: إن الأشياء تستقبل حياتها ونشاطها وشكلها بفضل الاستقبال.

وهذه الديانة تتجه اتجاهًا سلبيًا، فالفضيلة عندهم عدم العمل، والتدخل في شئون الأفراد رذيلة، والثراء الفاحش مذموم.

أما عن اليونان:

ففيها شاعت الفلسفة التي تعتمد عَلَى العقل المجرّد، فراحت تبحث عما وراء الطبيعة طورًا، ثُمَّ نزلت إلى الإنسان، فتاهت في معرفة مقياس الفضيلة، فمن قائل: هُوَ المعرفة، ومن قائل: هُوَ الحكمة، والعدالة، والشجاعة والعفّة، ومن قائل: هُوَ اللّذة، أو المنفعة، ومن قائل: الخير وسط بين رذيلتين.

وفوق هذا، فإن الفلسفة عجزت تمامًا عن معرفة العقيدة الصحيحة، ولم تهتدِ إلى إدراك سِرَّ الوجود.

أما عن إفريقية:

فكانت في معظمها مجاهيل، لا تسير عَلَى هدي ولا تتبع دينًا، وإنما يعيش من فيها دون منهج مرسوم ودون مسلك معلوم.

يستثنى من ذلك بعض مناطق منها، كانت فيها نوع حياة معلومة المنهج، وهذه كانت تحت سيطرة الروم، وقد تقدّم بيان حال هذه الإمبراطورية.

وأما عن أوروبا:

كانت أوروبا في الفترة ما بين القرن الخامس إلى العاشر في ظلام الجهل والأُميّة والحروب الدامية، كانت بعيدة عن قافلة الحضارة الإنسانيّة والعلوم والآداب، لا شأن لها بالعالم ولا شأن للعالم بها، أجسامهم قذرة، ورءوسهم مملوءة بالأوهام، يغالون في تعذيب الأجسام، والفرار من الإنسان، يبحثون في أن المرأة حيوان أم إنسان؟ وهل لها روح خالدة أو لا؟ وهل لها حق الملكية والبيع والشراء أم لا؟

وإذا كانت أوروبا تملك حضارة قديمة قبل هذه الفترة أشهرها ما كان في

فرنسا وإيطاليا، فإن هذه الحضارة لم تنفعهم، ولم تؤثر عَلَى ما وصلوا إليه من جهل بل إنها انطمست تمامًا، وأصبحت أوروبا لا تعرف عن الأخلاق شيئًا، وهي بمنأى عن الدِّين، شأنها في ذلك شأن مجاهيل إفريقية. ا.هـ[1].

عباد الله...

كانت هذه إطلالة سريعة عَلَى حالة العالم قبل الرسالة الخاتمة، لنعلم قَدْر نعمة الإسلام.

فالحمد لله عَلَى نعمة الإسلام، وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسَلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فكم سلخت الدنيا من عمرها قبل أن يظهر مُحمَّد ﷺ، لقد مرت عليها قرون طوال أفادت فيها علمًا كثيرًا، ووعت تجارب خطيرة، ونمت آداب وفنون، وشاعت فلسفات وأفكار.

ومع ذلك فقد غلب الطيش واستحكم، وسقطت أُممٌ شتى دون المكانة المنشودة لها، فماذا كان مصير الحضارات في مصر واليونان، وفي الهند، والصين، وفي فارس، وروما؟ لا أقصد مصيرها من ناحية السياسة والحكم، بل من ناحية العاطفة والعقل.

إن الوثنية الوضعية اغتالتها، وفرضت عليها السقوط في هذه الوهدة الزرية، فأمسى الإنسان الذي استخلفه الله ليكون ملكًا في السموات والأرض، أمسى عبدًا مسخرًا لأدنى شيء في السموات والأرض.

وماذا بعد أن تقدّس العجول والأبقار، وتُعْبَد الأخشاب والأحجار، وتطبق

---

(١) «السِّيرة النبوية» د. عبد المهدي عبد القادر (٨٥ - ٩٢) باختصار.

شعوب بأسرها عَلَى هذه الخرافة[١]؟

ثُمَّ ماذا؟

ثُمَّ جاء مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ.

جاء بالتوحيد الذي طارد الوثنيّة.

وبالنور الذي محا الجهالة.

وبالعدل الذي قاوم الظلم.

وبالنظام الذي أطاح بالفوضى.

﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

اللَّهُمَّ أحينا عَلَى سُنَّته، وتوفّنا عَلَى ملّته، واحشرنا تحت لوائه، وأوردنا حوضه، واسقنا من يده الشريفة شربة هنيئة لا نظمأ بعدها أبدًا.

آمين... آمين... آمين.

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (١٦، ١٧).

الخطبة السادسة والخمسون:

حالة جزيرة العرب قبل البعثة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد كان معظم العرب اتبعوا دعوة إسماعيل عليه السلام حين دعاهم إلى دين أبيه إبراهيم عليه السلام، فكانت تعبد الله وتوحّده وتدين بدينه، حَتَّى طال عليهم الأمد ونسوا حظًّا مما ذُكروا به، إلا أنهم بقي فيهم التوحيد وعدة شعائر من دين إبراهيم، حَتَّى جاء عمرو بن لحي رئيس خُزاعة، وكان قد نشأ على أمر عظيم من المعروف والصدقة، والحرص على أمور الدين، فأحبه الناس ودانوا له لأجل ذلك، حتى مَلّكوه عليهم، وصار ملك مكّة وولاية البيت بيده، وظنوا أنه من أكابر العلماء، وأفاضل الأولياء. ثم إنه سافر إلى الشام، فرآهم يعبدون الأوثان،

فاستحسن ذلك وظنه حقًّا. لأن الشام محل الرسل والكتب، فرجع إلى مكة، وقدم معه بهُبَل، وجعله في جوف الكعبة، ودعا أهل مكَّة إلى الشرك بالله، فأجابوه، ثُمَّ لم يلبث أهل الحجاز أن اتبعوا أهل مكَّة؛ لأنهم ولاة البيت وأهل الحرم[١].

ومن أقدم أصنامهم «مناة»، كانت بالمشلل على ساحل البحر الأحمر بالقرب من قديد، ثم اتخذوا «اللّات» في الطائف، ثم اتخذوا «العُزَّى» بوادي نخلة، هذه الثلاث أكبر أوثانهم، ثم كثر الشرك، وكثرت الأوثان في كل بقعة من الحجاز، ويُذكر أن عمرو بن لحي كان له رئي من الجن، فأخبره بأن أصنام قوم نوح «ودًّا»، و«سُواعًا»، و«يَغوث» و«نَسرا» مدفونة بجدة، فأتاها فاستثارها، ثم أوردها إلى تُهامة، فلما جاء الحج دفعها إلى القبائل، فذهبت بها إلى أوطانها، حتى صار لكل قبيلة ثم في كل بيت صنم، وقد ملأوا المسجد الحرام بالأصنام، ولما فتح رسول الله ﷺ مكَّة وجد حول البيت ثلاثمائة وستين صنمًا، فجعل يطعنها حتى تساقطت، ثم أمر بها فأُخرجت من المسجد وحُرقت[٢].

وهكذا صار الشرك وعبادة الأصنام أكبر مظهر من مظاهر دين أهل الجاهلية، الذين كانوا يزعمون أنهم على دين إبراهيم.

وكانت لهم تقاليد ومراسم في عبادة الأصنام، ابتدع أكثرها عمرو بن لحي، وكانوا يظنون أن ما أحدثه عمرو بن لحي بدعة حسنة، وليس بتغيير لدين إبراهيم، فكان من مراسم عبادتهم للأصنام أنهم:

١- كانوا يعكفون عليها، ويلتجئون إليها، ويهتفون بها، ويستغيثونها في الشدائد، ويدعونها لحاجتهم، معتقدين أنها تشفع عند الله، وتحقق ما يريدون.

٢- وكانوا يحجّون إليها ويطوفون حولها، ويتذللون عندها، ويسجدون لها.

٣- وكانوا يتقربون إليها بأنواع من القرابين، فكانوا يذبحون وينحرون لها وبأسمائها.

---

(١) «مختصر سيرة الرسول ﷺ» للشيخ محمد بن عبد الوهاب (ص١٢).
(٢) المصدر السابق (ص١٣).

وهذان النوعان من الذبح ذكرهما الله تعالى في قوله: ﴿وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾ [المائدة: ٣]، وفي قوله: ﴿وَلاَ تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٢١].

٤- وكان من أنواع التقرّب: أنهم كانوا يخصصون للأصنام شيئًا من مآكلهم ومشاربهم حسبما يبدو لهم، وكذلك كانوا يخصصون لها نصيبًا من حرثهم وأنعامهم، ومن الطرائف أنهم كانوا يخصصون من ذَلِكَ جزءًا لله أيضًا، وكانت عندهم أسباب كثيرًا ما كانوا ينقلون لأجلها إلى الأصنام ما كان لله، ولكن لم يكونوا ينقلون إلى الله ما كان لأصنامهم بحالٍ، قَالَ تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الحَرْثِ وَالأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلاَ يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾ [الأنعام: ١٣٦].

٥- وكان من أنواع التقرّب إلى الأصنام النذر في الحرث والأنعام، قَالَ تعالى: ﴿وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَن نَّشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لاَ يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ﴾ [الأنعام: ١٣٨].

٦- وكانت منها البَحيرة والسائبة والوصيلة والحامي.

قَالَ ابنُ إسحَاقَ: البَحِيرَةُ: هِيَ بِنتُ السّائِبَةِ، وَالسّائِبَةُ: النّاقَةُ إذَا تَابَعَت بَينَ عَشرِ إنَاثٍ لَيسَ بَينَهُنّ ذَكَرٌ سُيِّبَت فَلَم يُركَب ظَهرُهَا، وَلَم يُجَزّ وَبَرُهَا، وَلَم يَشرَب لَبَنَهَا إلّا ضَيفٌ فَمَا نُتِجَت بَعدَ ذَلِكَ مِن أُنثَى شُقّت أُذُنُهَا، ثُمّ خُلِّيَ سَبِيلُهَا مَعَ أُمّهَا فَلَم يُركَب ظَهرُهَا، وَلَم يُجَزّ وَبَرُهَا، وَلَم يَشرَب لَبَنَهَا إلّا ضَيفٌ كَمَا فُعِلَ بِأُمّهَا، فَهِيَ البَحِيرَةُ بِنتُ السّائِبَةِ.

وَالوَصِيلَةُ: الشّاةُ إذَا أَتأَمَت عَشرَ إنَاثٍ مُتَتَابِعَاتٍ فِي خَمسَةِ أَبطُنٍ لَيسَ بَينَهُنّ ذَكَرٌ جُعِلَت وَصِيلَةً. قَالُوا: قَد وَصَلَت فَكَانَ مَا وَلَدَت بَعدَ ذَلِكَ لِلذّكُورِ مِنهُم دُونَ إنَاثِهِم إلّا أَن يَمُوت مِنهَا شَيءٌ فَيَشتَرِكُوا فِي أَكلِهِ ذُكُورُهُم وَإِنَاثُهُم.

وَالحَامِي: الفَحلُ إذَا نُتِجَ لَهُ عَشرُ إنَاثٍ مُتَتَابِعَاتٍ لَيسَ بَينَهُنّ ذَكَرٌ حُمِيَ ظَهرُهُ فَلَم يُركَب وَلَم يُجَزّ وَبَرُهُ وَخُلّيَ فِي إبِلِهِ يَضرِبُ فِيهَا، لَا يُنتَفَعُ مِنهُ بِغَيرِ ذَلِكَ.

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَلَمَّا بَعَثَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ أَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلَا سَائِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَكِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٣]، وَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٣٩]. وَأَنْزَلَ عَلَيْهِ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى الله تَفْتَرُونَ﴾ [يونس: ٥٩]. وقيل في تفسير هذه الأنعام غير ذلك[١].

وقد صرَّح سعيد بن المسيّب أن هذه الأنعام كانت لطواغيتهم[٢] وفي الصحيح مرفوعًا: أن عمرو بن لحي أول من سيّب السوائب[٣].

كانت العرب تفعل كل ذَلِكَ بأصنامهم، معتقدين أنها تقرّبهم إلى الله وتوصلهم إليه، وتشفع لديه، كما في القرآن ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣]. وقوله: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لاَ يَضُرُّهُمْ وَلاَ يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾ [يونس: ١٨].

وكانت العرب تستقسم بالأزلام، والزلم: القدح الذي لا ريش عليه، وكانت الأزلام ثلاثة أنواع:

النوع الأول: فيه ثلاثة أسهم، أحدها: [نعم]، وثانيها: [لا]، وثالثها:[غُفْل]، كانوا يستقسمون بها فيما يريدون من العمل؛ من نحو السفر والنكاح وأمثالهما. فإن خرج [نعم] عملوا به، وإن خرج [لا] أخروه عامه ذلك حتى يأتوه مرة أخرى، وإن طلع [غُفْل] أعادوا الضرب حتى يخرج واحد من الأولين.

الثاني: نوعٌ فيه المياه والديّة.

الثالث: نوعٌ فيه «منكم» أو «من غيركم» أو «ملصق» فكانوا إذا شكّوا في نسب

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٨٩، ٩٠).

(٢) «صحيح البخاري» (١/ ٤٩٩).

(٣) نفس المصدر.

أحدهم ذهبوا به إلى هُبل، وبمائة جزور، فأعطوها صاحب القداح، فإن خرج «منكم» كان منهم وسيطًا، وإن خرج عليه «من غيركم» كان حليفًا، وإن خرج عليه «ملصق» كان على منزلته فيهم، لا نَسَب ولا حِلْف (١).

ويقرب من هذا الميسر والقداح، وهو ضرب من القمار، كانوا يقتسمون به لحم الجزور التي يتقامرون عليها؛ بحسب القداح.

وكانوا يؤمنون بأخبار الكهنة والعرافين والمنجمين.

والكاهن: هو من يتعاطى الإخبار عن الكوائن في المستقبل، ويدعى معرفة الأسرار، ومن الكهنة من يزعم أن له تابعًا من الجن، ومنهم من يدعى إدراك الغيب بفهم أعطيه، ومنهم من يدعى معرفة الأمور بمقدمات وأسباب يستدل بها على مواقعها من كلام من يسأله أو فعله أو حاله، وهذا القسم يسمى عرافًا، كمن يدعى معرفة المسروق ومكان السرقة والضالة ونحوهما.

والمنجِّم: من ينظر في النجوم أي الكواكب، ويحسب سيرها ومواقيتها، ليعلم بها أحوال العالم وحوادثه التي تقع في المستقبل (٢).

والتصديق بأخبار المنجمين هو في الحقيقة إيمان بالنجوم، وكان من إيمانهم بالنجوم الإيمان بالأنواء، فكانوا يقولون: مطرنا بنوء كذا وكذا (٣).

وكانت فيهم الطيرة [بكسر ففتح] وهي التشاؤم بالشيء، وأصله أنهم كانوا يأتون الطير أو الظبى فينفرونه، فإن أخذ ذات اليمين مضوا إلى ما قصدوا وعدوه حسنًا، وإن أخذ ذات الشمال انتهوا عن ذلك وتشاءموا، وكانوا يتشاءمون كذلك إن عرض الطير أو الحيوان في طريقهم.

ويقرب من هذا تعليقهم كعب الأرنب، والتشاؤم ببعض الأيام والشهور والحيوانات والدور والنساء، والاعتقاد بالعدوى والهامة، فكانوا يعتقدون أن

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٥٢، ١٥٣)، و«محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية» للخضري (١/ ٥٦).
(٢) «مرقاة المفاتيح» (٢/ ٢، ٣).
(٣) «صحيح مسلم» كتاب الإيمان (١/ ٥٩).

المقتول لا يسكن جأشه ما لم يؤخذ بثأره، وتصير روحه هامة أي بومة تطير في الفلوات، وتقول: صدى صدى أو اسقونى اسقونى، فإذا أخذ بثأره سكن واستراح[١].

كان أهل الجاهلية على ذلك وفيهم بقايا مـن ديـن إبراهيم، لم يكونوا قد تركوه كلـه ـ مثـل تعظيم البيت، والطـواف بـه، والحـج، والعمـرة، والـوقوف بعرفة والمزدلفة، وإهداء البدن ـ وإنما كانوا قد ابتدعوا في ذلك بدعًا:

منها: أن قريشًا كانوا يقولون: نحن بنو إبراهيم وأهل الحرم، وولاة البيت وقاطنو مكة، وليس لأحد من العرب مثل حقنا ومنزلتنا ـ وكانوا يسمون أنفسهم الحُمْس ـ فلا ينبغى لنا أن نخرج من الحرم إلى الحل، فكانوا لا يقفون بعرفة، ولا يفيضون منها، وإنما كانوا يفيضون من المزدلفة وفيهم أنزل الله تعالى: ﴿**ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ**﴾ [البقرة: ١٩٩] [٢].

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغي للحُمس أن يأقِطوا الأقِط ولا يسلئوا السمن وهم حرم، ولا يدخلوا بيتًا من شعر، ولا يستظلوا إن استظلوا إلا في بيوت الأدم ما داموا حرمًا.

ومنها: أنهم قالوا: لا ينبغي لأهل الحِلِّ أن يأكلوا من طعام جاءوا به من الحل إلى الحرم، إذا جاءوا حجاجا أو عمارًا.

ومنها: أنهم أمروا أهل الحل ألا يطوفوا بالبيت إذا قدموا أول طوافهم إلا في ثياب الحمس، وكانت الحمس يحتسبون على الناس، يعطى الرجـل الرجـل الثياب يطـوف فيها، وتعطى المرأة المرأة الثياب، تطوف فيها، فإن لم يجدوا شيئًا فكان الرجال يطوفون عراة، وكانت المرأة تضع ثيابها كلها إلا درعًا مفرجًا ثم تطوف فيه، وتقول:

اليوم يبدو بعضه أو كله ... وما بدا منه فلا أحله

(١) «صحيح البخاري» (٢/ ٨٥١، ٨٥٧)، مع حواشيه للشيخ أحمد علي الهارنفوري.
(٢) «سيرة ابن هشام» (١/ ١٩٩)، و«صحيح البخاري» (١/ ٢٢٦).

وأنزل الله في ذلك: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف:٣١] فإن تكرم أحد من الرجل والمرأة فطاف في ثيابه التي جاء بها من الحل ألقاها بعد الطواف ولا ينتفع بها هو ولا أحد غيره[١].

ومنها: أنهم كانوا لا يأتون بيوتهم من أبوابها في حال الإحرام، بل كانوا ينقبون في ظهور البيوت نقبًا يدخلون ويخرجون منه، وكانوا يحسبون ذلك الجفاء برًا، وقد نهي عنه القرآن، قال الله تعالى: ﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَـكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [البقرة:١٨٩][٢].

عباد الله...

كانت هذه ديانة معظم العرب قبل البعثة المحمديّة.

أمَّا أحوالهم الاجتماعية والخُلُقِيّة، فيمكننا إجمالها فيما يلي:

الحالة الاجتماعية:

كانت في العرب أوساط متنوعة تختلف أحوال بعضها عن بعض، فكانت علاقة الرجل مع أهله في الأشراف على درجة كبيرة من الرقى والتقدم، وكان لها من حرية الإرادة ونفاذ القول القسط الأوفر، وكانت محترمة مصونة تُسَلُّ دونها السيوف، وتراق الدماء، وكان الرجل إذا أراد أن يمتدح بما له في نظر العرب المقام السامي من الكرم والشجاعة لم يكن يخاطب في معظم أوقاته إلا المرأة، وربما كانت المرأة إذا شاءت جمعت القبائل للسلام، وإن شاءت أشعلت بينهم نار الحرب والقتال، ومع هذا كله فقد كان الرجل يعتبر بلا نزاع رئيس الأسرة وصاحب الكلمة فيها، وكان ارتباط الرجل بالمرأة بعقد الزواج تحت إشراف أوليائها، ولم يكن من حقها أن تفتات عليهم.

بينما هذه حال الأشراف، كان هناك في الأوساط الأخرى أنواع من الاختلاط بين الرجل والمرأة، لا نستطيع أن نعبر عنه إلا بالدعارة والمجون والسفاح والفاحشة.

---

(١) «سيرة ابن هشام» (١/ ٢٠٢، ٢٠٣)، و«صحيح البخاري» (١/ ٢٢٦).
(٢) «الرحيق المختوم» لصفي الرحمن المباركفوري (٢٧ - ٣١).

روى البخاري وغيره عن عَائِشَةَ زَوجَ النَّبِيِّ ﷺ أَخبَرَتهُ: «أَنَّ النِّكَاحَ فِي الجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَلَى أَربَعَةِ أَنحَاءٍ: فَنِكَاحٌ مِنهَا نِكَاحُ النَّاسِ اليَومَ، يَخطُبُ الرَّجُلُ إِلَى الرَّجُلِ وَلِيَّتَهُ أَو ابنَتَهُ فَيُصدِقُهَا ثُمَّ يَنكِحُهَا.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: كَانَ الرَّجُلُ يَقُولُ لِامرَأَتِهِ إِذَا طَهُرَت مِن طَمثِهَا: أَرسِلِي إِلَى فُلَانٍ فَاستَبضِعِي مِنهُ، وَيَعتَزِلُهَا زَوجُهَا وَلَا يَمَسُّهَا أَبَدًا حَتَّى يَتَبَيَّنَ حَملُهَا مِن ذَلِكَ الرَّجُلِ الَّذِي تَستَبضِعُ مِنهُ، فَإِذَا تَبَيَّنَ حَملُهَا أَصَابَهَا زَوجُهَا إِذَا أَحَبَّ، وَإِنَّمَا يَفعَلُ ذَلِكَ رَغبَةً فِي نَجَابَةِ الوَلَدِ فَكَانَ هَذَا النِّكَاحُ يُسَمى نِكَاحَ الِاستِبضَاعِ.

وَنِكَاحٌ آخَرُ: يَجتَمِعُ الرَّهطُ مَا دُونَ العَشَرَةِ فَيَدخُلُونَ عَلَى المَرأَةِ كُلُّهُم يُصِيبُهَا، فَإِذَا حَمَلَت وَوَضَعَت وَمَرَّ عَلَيهَا لَيَالٍ بَعدَ أَن تَضَعَ حَملَهَا أَرسَلَت إِلَيهِم فَلَم يَستَطِع رَجُلٌ مِنهُم أَن يَمتَنِعَ حَتَّى يَجتَمِعُوا عِندَهَا، فتَقُولُ لَهُم: قَد عَرَفتُم الَّذِي كَانَ مِن أَمرِكُم وَقَد وَلَدتُ فَهُوَ ابنُكَ يَا فُلَانُ تُسَمِّي مَن أَحَبَّت بِاسمِهِ، فَيَلحَقُ بِهِ وَلَدُهَا لَا يَستَطِيعُ أَن يَمتَنِعَ بِهِ الرَّجُلُ.

وَنِكَاحُ الرَّابِعِ: يَجتَمِعُ النَّاسُ الكَثِيرُ فَيَدخُلُونَ عَلَى المَرأَةِ لَا تَمتَنِعُ مِمَّن جَاءَهَا وَهُنَّ البَغَايَا كُنَّ يَنصِبنَ عَلَى أَبوَابِهِنَّ رَايَاتٍ، تَكُونُ عَلَمًا، فَمَن أَرَادَهُنَّ دَخَلَ عَلَيهِنَّ، فَإِذَا حَمَلَت إِحدَاهُنَّ وَوَضَعَت حَملَهَا، جُمِعُوا لَهَا وَدَعَوا لَهُم القَافَةَ، ثُمَّ أَلحَقُوا وَلَدَهَا بِالَّذِي يَرَونَ، فَالتَاطَ به وَدُعِيَ ابنَهُ، لَا يَمتَنِعُ مِن ذَلِكَ، فَلَمَّا بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ بِالحَقِّ هَدَمَ نِكَاحَ الجَاهِلِيَّةِ كُلَّهُ إِلَّا نِكَاحَ النَّاسِ اليَومَ»(١).

وكانت عندهم اجتماعات بين الرجل والمرأة تعقدها شفار السيوف، وأسنة الرماح، فكان المتغلب في حروب القبائل يسبي نساء المقهور فيستحلها، ولكن الأولاد الذين تكون هذه أمهم يلحقهم العار مدة حياتهم.

وكان من المعروف في أهل الجاهلية أنهم كانوا يعددون بين الزوجات من غير حد معروف ينتهي إليه، حتى حددها القرآن في أربع. وكانوا يجمعون بين الأختين، وكانوا يتزوجون بزوجة آبائهم إذا طلقوها أو ماتوا عنها، حتى نهى

---

(١) أخرجه البخاري، وأبو داود.

عنهما القرآن ﴿وَلاَ تَنكِحُواْ مَا نَكَحَ آبَاؤُكُم مِّنَ النِّسَاء إِلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاء سَبِيلًا حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالاَتُكُمْ وَبَنَاتُ الأَخِ وَبَنَاتُ الأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللاَّتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُم مِّنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللاَّتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ اللاَّتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُواْ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلاَئِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلاَبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُواْ بَيْنَ الأُخْتَيْنِ إَلاَّ مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [سورة : ٢٢، ٢٣]، وكان الطلاق والرجعة بيد الرجال، ولم يكن لهما حد معين حتى حددهما الإسلام.

وكانت علاقة الرجل مع أولاده على أنواع شتى، فمنهم من يقول:

إنمـــا أولادنـــا بينـــنا أكـــبادنا تمـــشي علـــى الأرض

ومنهم من كان يئد البنات خشية العار والإنفاق، ويقتل الأولاد خشية الفقر والإملاق، ولكن لا يمكن لنا أن نعد هذا من الأخلاق المنتشرة السائدة، فقد كانوا أشد الناس احتياجًا إلى البنين ليتقوا بهم العدو.

أما معاملة الرجل مع أخيه وأبناء عمه وعشيرته فقد كانت موطدة قوية، فقد كانوا يحيون للعصبية القبلية ويموتون لها، وكانت روح الاجتماع سائدة بين القبيلة الواحدة تزيدها العصبية، وكان أساس النظام الاجتماعي هو العصبية الجنسية والرحم، وكانوا يسيرون على المثل السائر: (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا) على المعنى الحقيقي من غير التعديل الذي جاء به الإسلام؛ من أن نصر الظالم كفه عن ظلمه، إلا أن التنافس في الشرف والسؤدد كثيرًا ما كان يفضي إلى الحروب بين القبائل التي كان يجمعها أب واحد، كما نرى ذلك بين الأوس والخزرج، وعَبْس وذُبْيان، وبَكْر وتَغْلِب وغيرها.

وقصارى الكلام أن الحالة الاجتماعية كانت في الحضيض من الضعف والعماية، فالجهل ضارب أطنابه، والخرافات لها جولة وصولة، والناس يعيشون كالأنعام، والمرأة تباع وتشترى وتعامل كالجمادات أحيانا[1]، والعلاقة بين الأمة

(١) قَالَ عمر بن الخطاب - رَضِي الله عَنْهُ -: «والله ما كُنَّا في الجاهلية نَعُدُّ النِّساءَ شيئًا حتى أنزل =

داهية مبتوتة، وما كان من الحكومات فجُلُّ همتها ملء الخزائن من رعيتها أو جر حروب على مناوئيها.

الأخــلاق:

لا نُنكر أن أهل الجاهلية كانت فيهم دنايا ورذائل وأمور ينكرها العقل السليم ويأباها الوجدان، ولكن كانت فيهم من الأخلاق الفاضلة المحمودة ما يروع الإنسان ويفضي به إلى الدهشة والعجب، **فمن تلك الأخلاق**:

١ - **الكرم**: وكانوا يتبارون في ذلك ويفتخرون به، وقد استنفدوا فيه نصف أشعارهم بين ممتدح به ومُثْنٍ على غيره، كان الرجل يأتيه الضيف في شدة البرد والجوع وليس عنده من المال إلا ناقته التي هي حياته وحياة أسرته، فتأخذه هزة الكرم فيقوم إليها، فيذبحها لضيفه. ومن آثار كرمهم أنهم كانوا يتحملون الديات الهائلة والحمالات المدهشة، يكفون بذلك سفك الدماء، وضياع الإنسان، ويمتدحون بها مفتخرين على غيرهم من الرؤساء والسادات.

وكان من نتائج كرمهم أنهم كانوا يتمدحون بشرب الخمور، لا لأنها مفخرة في ذاتها؛ بل لأنها سبيل من سبل الكرم، ومما يسهل السَّرَف على النفس، ولأجل ذلك كانوا يسمون شَجَرَ العنب بالكَرْم، وخَمْرَه بِبِنْتِ الكرم[1].

ومن نتائج كرمهم اشتغالهم بالميسر، فإنهم كانوا يرون أنه سبيل من سبل الكرم؛ لأنهم كانوا يطعمون المساكين ما ربحوه أو ما كان يفضل عن سهام الرابحين[2]؛ ولذلك ترى القرآن لا ينكر نفع الخمر والميسر وإنما يقول: ﴿وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: ٢١٩].

٢-**الوفاء بالعهد**: فقد كان العهد عندهم دينًا يتمسكون به، ويستهينون في سبيله قتل أولادهم، وتخريب ديارهم، وتكفي في معرفة ذلك قصة هانئ بن

= الله فيهنّ ما أَنْزَلَ و قَسَم لهنَّ ما قَسَم».

(١) وقد جاء النَّهي عن ذَلِكَ، قَالَ ﷺ: «لا تُسَمُّوا العنب الكَرم» رواه البخاري ومسلم.

(٢) المتصدِّق بالمال الحرام كمن يُطهِّر الثوب بالبول، والغاية لا تبرر الوسيلة.

مسعود الشيباني، والسَّمَوْأل بن عاديا، وحاجب بن زرارة التميمي.

٣- **ومنها عزة النفس والإباء عن قبول الخسف والضيم**: وكان من نتائج هذا فرط الشجاعة وشدة الغيرة، وسرعة الانفعال، فكانوا لا يسمعون كلمة يشمون منها رائحة الذل والهوان إلا قاموا إلى السيف والسنان، وأثاروا الحروب العوان، وكانوا لا يبالون بتضحية أنفسهم في هذا السبيل.

٤- **ومنها المضي في العزائم**: فإذا عزموا على شيء يرون فيه المجد والافتخار، لا يصرفهم عنه صارف، بل كانوا يخاطرون بأنفسهم في سبيله.

٥- **ومنها الحلم، والأناة، والتؤدة**: كانوا يتمدحون بها إلا أنها كانت فيهم عزيزة الوجود؛ لفرط شجاعتهم وسرعة إقدامهم على القتال.

٦- **ومنها السذاجة البدوية، وعدم التلوث بلوثات الحضارة ومكائدها**: وكان من نتائجها الصدق والأمانة، والنفور عن الخداع والغدر.

نرى أن هذه الأخلاق الثمينة ـ مع ما كان لجزيرة العرب من الموقع الجغرافي بالنسبة إلى العالم ـ كانت سببًا في اختيار الله عز وجل إياهم لحمل عبء الرسالة العامة، وقيادة الأمة الإنسانية، وإصلاح المجتمع البشري؛ لأن هذه الأخلاق وإن كان بعضها يفضي إلى الشر، ويجلب الحوادث المؤلمة إلا أنها كانت في نفسها أخلاقًا ثمينة، تدر بالمنافع العامة للمجتمع البشرى بعد شيء من الإصلاح، وهذا الذي فعله الإسلام.

ولعل أغلى ما عندهم من هذه الأخلاق وأعظمها نفعًا ـ بعد الوفاء بالعهد ـ هو عزة النفس والمضي في العزائم؛ إذ لا يمكن قمع الشر والفساد وإقامة نظام العدل والخير إلا بهذه القوة القاهرة وبهذا العزم الصميم. ا.هـ[1].

ولكن هذه الأخلاق الفاضلة لا تُقيم مجتمعًا فاضلًا متماسكًا، وأهلها مشركون.

وأيُّ خيرٌ يُرجى في أحضان وثنية كفرت بالعقل، ونسيت الله، ولانت في

(١) «الرحيق المختوم» (٣٤ - ٣٨) باختصار.

يدي الدجالين.

لا غرابة إذا رفع الله عنها يده كما جاء في الحديث: «**إن الله نظر إلى أهل الأرض فمقتهم، عربهم وعجمهم، إلا بقايا من أهل الكتاب**»[١].

هذه البقايا هي التي ظلت مستعصية على الشرك، برغم طوفان الكفر الذي عم البقاع والتلاع.

عباد الله...

لقد عمَّت الدنيا قبل بعثة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حيرة وبؤس، ناءت بها الكواهل.

أتيت والناس فوضى لا تمر بهم إلا عَلَى صنم قَدْ هام في صنم
فعاهل الروم يطغي في رعيته وعاهل الفرس من كبر أصم عمي

حتى ساق الله تعالى هدايته الكبرى إلى الأنام، فأرسل إليهم مُحمدًا عليه الصلاة والسلام[٢].

فالحمد لله على نعمة الإسلام وكفى بها نعمة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فهذا وصفٌ موجز لحال العالم قبل البعثة المحمديّة، يتضح منه أن العالم كان ينتحر، لما ساده من اضطراب عقدي، وهمجية خلقية، فما أودعه الله في الإنسان من قوى قد استُخدم في الشر، وما فطره عليه قد تبدل وتغيّر، فالحق هو القوّة

(١) جزء من حديث طويل رواه مسلم.
(٢) «فقه السيرة» للغزالي (١٩، ٢٠).

والقوّة هي الحق، والعقل مطيّة تبرير الباطل لا مناصرة الحق، والحاجة إلى الدِّين قد أشبعت بعبادة غير الله، فعبدت الأحجار والأشجار، والأبقار، والنار، والأشخاص، واستعبد الإنسان الإنسان، حتى باع المستعبَدُ ابنه لأداء ما يطلب المستعبِدَ، وقامر الرجل على امرأته، وتزوج ما شاء من النساء، وتبنى ما ليس من نسله، وأصبحت الديانات لعبة في يد المنحرفين، ونتاج أهواء المتلاعبين.

والإنسان هو الإنسان، في كل عصر ومِصر، يُحب الاستقرار ويحرص على معرفة العقيدة، ويسعد بالسمو الخُلقي.

من هنا اشتدّت حاجة المجتمع إلى رسالة تأخذ بيد العقل الحائر إلى الحقيقة، وتخلصه مما هو فيه من حيرة واضطراب[١].

فجاءت رسالة النبيّ الخاتم صلوات الله وسلامه عليه، وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨].

اللَّهمَّ يا وليَّ الإسلام وأهله، مَسِّكْنا بالإسلام حتى نَلْقاك

آمين... آمين... آمين.



(١) «السِّيرة النبوية» د. عبد المهدي عبد القادر (٩٦، ٩٧).

الخطبة السابعة والخمسون:

قصة أصحاب الفيل

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الفِيلِ * أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ * وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ * تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ * فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [الفيل: ١ - ٥]

قَالَ الحافظ الناقد المحقّق/ ابن كثير - رحمه الله تعالى - عند تفسيره لهذه السورة الكريمة (سورة الفيل).

«هَذِهِ مِن النِّعم الَّتي امتنَّ الله بِها عَلَى قُرَيش، فِيما صَرَفَ عَنهُم مِن أصحَابِ

الفِيل، الذين كَانوا قَدْ عَزمُوا عَلَى هَدم الكَعبةِ ومَحوِ أثَرِهَا مِن الوُجُودِ، فَأبَادهُمُ الله، وأرغَمَ آنافَهُم، وخَيَّب سَعيَهُم، وأضَلَّ عَمَلهُم، وَرَدَّهُم بِشَرِّ خَيبةٍ. وَكَانُوا قَومًا نَصَارى، وكان دِينُهُم إذْ ذَاكَ أقرَبُ حَالًا مِمَّا كان عَليهِ قُرَيشٌ مِن عِبادةِ الأوثَانِ. ولكن كان هَذَا مِن بَابِ الإرْهَاصِ والتَّوطِئَةِ لِمَبعثِ رَسُول الله ﷺ، فإنَّهُ في ذلك العِامِ وُلِدَ عَلَى أشْهَرِ الأقْوَال، ولِسَان حَالِ القُدرَةِ يقول: لَمْ نَنْصُركُم - يَا مَعشَرَ قُرَيشٍ- عَلَى الحَبَشةِ لِخَيرِيَّتِكُم عَلَيهم، ولَكِن صِيانَةً للبَيتِ العَتيقِ الَّذي سَنُشَرِّفُهُ ونُعَظِّمهُ ونُوقِّرُهُ بِبعثَةِ النَّبيِّ الأُمِّيِّ مُحَمَّد ﷺ خَاتَمِ الأنبياءِ.

وهَذِهِ قِصَّة أصحَاب الفِيل عَلَى وَجهِ الإيجَازِ والاختِصَارِ والتَّقرِيب:

نَعلم أنَّهُ في قصَّة أصحَاب الأُخدُود أنَّ ذَا نُوَاس -وَكَان آخِرُ مُلُوك حِميَرَ، وكَانَ مُشرِكًا - هُوَ الذي قَتَل أصحَابَ الأُخْدُودِ، وكَانُوا نَصَارَى، وكَانُوا قَرِيبًا مِنْ عِشرِينَ ألفًا، فَلَم يَفلِت مِنهُم إلَّا دَوسُ ذُو ثُعلُبَانَ، فَذَهبَ فَاستغَاثَ بِقَيصَرَ مِلكِ الشَّام -وكان نَصْرَانيًا- فَكَتَبَ لَهُ إلى النَّجَاشِيِّ مَلِكِ الحَبشَة؛ لِكونِهِ أقرَبُ إلَيهِم، فَبَعَثَ مَعهُ أمِيرَينِ: أَرْيَاطُ وأَبْرَهةُ بن الصَّبَّاح أبَا يَكسُومَ في جَيشٍ كَثيفٍ، فَدَخَلُوا اليَمَن فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ، وأسْلَبُوا المُلكَ مِنْ حِميَرَ، وَهَلكَ ذَا نُوَاس غِرِيقًا فِي البَحْرِ. واستَقَلَّ الحَبَشةُ بِمُلكِ اليَمَن وَعَليهِم هَذَانِ الأَمِيرَان: أريَاطُ وأبرَهَةُ، فَاخْتَلَفَا في أمرِهِمَا وَتَصَاوَلَا وَتَقَاتَلا وتَصَافَّا، فَقَالَ أحدُهُما لِلآخرِ: إنَّهُ لا حَاجةَ بِنَا إلى اصْطِدَام الجَيشَين بَيْنَنا، وَلَكِن أُبرُزْ إليَّ وأَبرُزُ إليك، فَأيُّنَا قَتَل الآخَرَ، استَقَلَّ بَعْدَهُ بِالمُلكِ. فَأجَابَهُ إلى ذَلكِ فَتبَارَزَا، وخَلَفَ كُلُّ واحدٍ مِنهُما قَنَاةٌ، فَحَملَ أَرْيَاطُ عَلَى أَبرهَةُ فَضَربَهُ بِالسَّيفِ، فَشَرمَ أنفَهُ وَفَمَهُ وشَقَّ وَجهَهُ، وَحَمَل عَتَوْدَةُ مَولَى أَبرهَةَ على أَريَاطُ فَقَتَلَهُ، ورَجَعَ أَبرهَةُ جَرِيحًا، فَداوَى جُرحَهُ فَبَرأ، واستَقلَّ بِتدبيرِ جَيشِ الحَبشةِ بِاليمَن.

فَكَتب إليهِ النَّجَاشِيُّ يَلومُهُ عَلَى مَا كان مِنهُ، وَيَتوَعَّدُهُ ويَحلِفُ لَيطأنَّ بِلادَهُ ويَجُزَّنَّ نَاصِيتَهَ. فَأَرسَل إليه أبرهَةَ يَتَرقَّق لَهُ ويُصانِعُهُ، وبَعثَ مَعَ رَسُولِهِ بِهَدايَا وَتُحفٍ، وَبِجرابٍ فيهِ مِن تُرابِ اليَمَن، وَجَزَّ نَاصيَتَهُ فَأرسَلَهَا مَعَهُ، ويَقُولُ في كِتابِهِ: لِيَطَأْ المَلِكُ عَلَى هَذَا الجِرابِ فَيَبَرَّ قَسَمَهُ، وَهَذهِ نَاصِيَتِي قَدْ بَعثْتُ بِهَا إلَيْكَ.

فلمَّا وَصَلَ ذَلِكَ إِلَيهِ أَعْجَبَهُ مِنهُ، ورَضِيَ عَنهُ، وأَقرَّهُ عَلَى عَمَلِهِ. وأرسَلَ أَبرهَةُ يقول للنَّجاشيِّ: إنِّي سَأَبْنِي لَكَ كَنِيسةً بَأرضِ اليَمَن لَم يُبْنَ قَبلَهَا مِثْلُهَا. فَشَرعَ في بناءِ كَنيسَةٍ هَائلةٍ بِصنعَاء، رَفِيعةَ البِنَاء، عَاليَةَ الفِنَاءِ، مُزَخرَفَةَ الأَرْجَاء، سَمَّتهَا العَرَب «القُلَّيسُ» لارتفاعِهَا؛ لأنَّ النَّاظِرَ إِلَيْهَا تَكَادُ تَسقُطُ قَلَنسُوتُهُ عَن رَأسِهِ مِن ارتِفَاعِ بنَائِهَا. وعَزَمَ أَبرهَةُ الأَشْرَمُ عَلَى أن يَصرِفَ حَجَّ العَرَب إلَيهَا كَمَا يُحَج إلى الكَعبَةِ بمكَّة، ونَادَى بِذَلِكَ في مَملَكَتِهِ، فَكَرِهتِ العَرَب العَدنَانيَّة والقَحطانيَّةُ ذَلِكَ، وَغَضِبَت قُرَيشٌ لِذَلكَ غَضبًا شَدِيدًا، حَتَّى قَصَدَها بَعضُهُم، وتَوَصَّلَ إلى أَنْ دَخَلَهَا لَيلًا. فَأحدَثَ فِيهَا وَكَرَّ رَاجِعًا. فلَمَّا رَأى السَّدنَةُ ذَلِكَ الحَدثَ، رَفعُوا أَمْرَهُ إلى مَلِكِهِم أَبرهَةَ، وَقَالوا لَهُ: إِنَّما صَنَعَ هَذَا بَعضُ قُرَيشٍ غَضَبًا لِبَيتِهِم الذي ضَاهَيتَ هَذَا بِهِ، فَأَقسَمَ أبرهَةُ لَيَسِيرنَّ إلى بَيتِ مَكَّة، وَلَيُخَرِّبَنَّهُ حَجَرًا حَجرًا.

وذَكَرَ مُقَاتِلُ بنُ سُلَيمَانَ: أنَّ فِتيةً مِن قُريشٍ دَخَلُوها فَأَجَّجُوا فِيها نَارًا، وَكَان يَومًا فيه هَواءٌ شَديدٌ فَاحتَرَقَت، وسَقَطَت إلى الأَرض.

فَتَأَهَّب أَبرهَةُ لِذَلكَ، وَصَارَ فِي جَيشٍ كَثيفٍ عَرَمرمٍ؛ لِئَلَّا يَصُدَّهُ أَحدٌ عَنهُ، واستَصحَبَ مَعهُ فِيلًا عَظيمًا كَبير الجُثَّة لم يُرَ مِثلُهُ، يُقَالُ لَهُ «مَحمُودٌ»، وكَانَ قَدْ بَعَثَهُ إِليهِ النَّجَاشِيُّ مَلكُ الحَبشةِ لِذَلك. ويُقَالُ: كَانَ مَعَهُ أيضًا ثَمَانيةُ أَفيَالٍ. وقيل: اثنا عَشَرَ فِيلًا. وقيل غيره، والله أعْلَمُ. يَعنِي لِيهدِمَ بِهِ الكَعبَةَ، بِأَن يَجعَلَ السَّلَاسِلَ فِي الأَرْكَانِ، وتُوضَعُ في عُنُقِ الفِيلِ، ثُمَّ يُزجَرُ لِيُلقيَ الحَائِط جُملَةً واحدةً.

فلمَّا سَمِعَت العَرَبُ بِمَسِيرِهِ أعظَمُوا ذَلِكِ جدًّا، ورَأَوْا أنَّ حَقًّا عَلَيهِم المُحَاجَبَةَ دُونَ البَيتِ، وَرَدَّ مَنْ أَرَادَهُ بِكَيدٍ. فَخرَجَ إليه رجُلٌ مِنْ أَشْرَافِ أَهْلِ اليَمَن ومُلُوكِهم، يُقَال لَهَ «ذُو نَفرٍ» فَدَعَا قَومَهُ ومَنْ أَجَابَهُ مِنْ سَائِرِ العَرَبِ إلى حَربِ أَبرهَةُ، وَجِهادِهِ عَنْ بَيْتِ الله، ومَا يُرِيدُهُ مِنْ هَدْمِهِ وَخَرَابِهِ. فَأَجَابُوهُ وقَاتَلُوا أَبرهَةَ، فَهَزَمَهُم لِمَا يُريدُهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، مِن كَرَامَةِ البَيتِ وَتَعْظِيمِهِ، وأُسِرَ «ذُو نَفْرٍ» فَاسْتَصحَبَهُ مَعَهُ. ثُمَّ مَضَى لِوجْهِهِ حَتَّى إذا كان بأَرْض خَثعَمَ، اعتَرَضَ لَهُ نُفَيلُ بن حَبيبٍ الخَثْعميُّ فِي قَومِهِ شَهْرَان ونَاهِس، فَقَاتَلُوهُ، فَهَزَمَهُم أَبرهَةُ، وَأَسَرَ نُفَيل بن حَبيب، فَأَرادَ قَتلَهُ ثُمَّ عَفَا عَنهُ، واسْتَصحَبَهُ مَعَهُ لِيَدُلَّه فِي بِلاد الحِجاز.

فلمَّا اقْتَرَبَ مِن أرضِ الطَّائِفِ، خَرَجَ إلَيهِ أَهْلُهَا ثَقِيفٌ وَصَانَعُوهُ خِيفَةً عَلَى بَيتِهِمُ الذي عِندهُم، الذِي يُسَمُّونَهُ اللَّاتَ. فأَكرَمَهُم وَبَعثُوا مَعَهُ «أبَا رِغَالٍ» دَليلًا. فَلَمَّا انْتَهَى أَبرَهَةُ إلى المُغَمِّسِ - وَهُوَ قَرِيبٌ مِن مَكَّةَ- نَزَلَ بِهِ، وَأَغَارَ جَيشُهُ عَلَى سَرْحِ أَهْلِ مَكَّة مِنَ الإبِلِ وَغَيرهَا، فَأَخَذُوهُ، وَكَانَ فِي السَّرحِ مِائَتَا بَعِيرٍ لِعَبدِ المُطَّلِبِ. وَكَان الذي أغَارَ عَلَى السَّرحِ بِأمْرِ أَبرَهَةَ أَمِيرُ المُقَدِّمَةِ، وَكَان يُقَالُ لَهُ: «الأَسْوَدُ بنُ مَقصُودٍ» فَهَجَاهُ بَعضُ العَرَبِ - فِيمَا ذَكَرَهُ ابن إسحَاقَ - وَبَعثَ أَبْرَهَةُ حَنَاطَةَ الحِميرِيَّ إلى مَكَّة، وَأَمَرَه أَنْ يَأتِيَهُ بِأَشرَفِ قُرَيشٍ، وَأنْ يُخْبِرَهُ أَنَّ المَلِكَ لَم يَجِئْ لِقِتَالِكُم إلَّا أنْ تَصُدُّوهُ عن البَيتِ. فَجَاءَ حَنَاطَةُ فَدُلَّ عَلَى عَبدِ المُطلبِ بنِ هَاشِم، وَبَلَّغَهُ عَنْ أبرهَةُ مَا قَالَ، فَقَال لَهُ عَبدُ المُطَّلِبِ: والله مَا نُرِيدُ حَرْبَهُ، وَمَا لَنَا بِذَلِكَ مِنْ طَاقَةٍ، هَذَا بَيتُ الله الحَرامُ، وبَيتُ خَليلِهِ إبْرَاهِيمَ، فَإن يَمنَعْهُ مِنْهُ فَهُوَ بَيتُهُ وَحَرَمُهُ، وإنْ يُخَلِّ بَينَهُ وَبَيْنَهُ، فوالله مَا عِندَنَا دَفْعٌ عَنْهُ. فَقَال لَهُ حَنَاطَةُ: فَاذهَب مَعِي إليْهِ. فَذَهَبَ مَعَهُ، فلمَّا رَآهُ أبرهَةُ أَجَلَّهُ، وَكَانَ عَبدُ المُطَّلِبِ رَجُلًا جَسِيمًا حَسَنَ المَنظَرِ، ونَزَلَ أَبرهَةُ عَن سَريرِهِ، وجَلسَ مَعَهُ على البِسَاطِ، وقَالَ لِتَرجُمَانِهِ: قُل لَهُ مَا حَاجَتُك؟ فَقَالَ لِلتُّرجمان: إنَّ حَاجَتِي أنْ يَرُدَّ عَلَيَّ المَلك مِائتَي بَعِيرٍ أَصَابَهَا لِي. فَقالَ أَبرهَةُ لِتُرجُمانهُ: قُل لَهُ: لَقَد كُنتَ أَعْجَبتنِي حِينَ رَأَيتُكَ، ثُمَّ قَدْ زَهِدت فِيك حِينَ كَلَّمتني، أَتُكَلِّمُنِي فِي مِائَتَي بَعِيرٍ أصبتُها لَكَ، وتَتْرُكُ بَيتًا هُوَ دِينُكَ وَدِينُ آبَائِكَ قَدْ جِئتُ لِهَدمِهِ، لا تُكَلِّمني فيه؟! فَقَال لَهُ عَبدُ المُطلب: إنِّي أنا رَبُّ الإبِلِ، وإنَّ لِلبَيتِ رَبًّا سَيَمنَعُهُ. قَالَ: مَا كَان لِيمتَنِعَ مِنِّي! قَالَ: أنتَ وذَاكَ.

ويُقَالُ: إنَّهُ ذَهَبَ مَعَ عَبدِ المُطَّلِب جَمَاعةٌ مِن أَشْرَافِ العَرَبِ فَعَرَضُوا عَلَى أَبرهَةَ ثُلُثَ أموَالِ تِهَامَةَ عَلَى أن يَرجِعَ عَن البَيتِ، فَأبَى عَليهِم، ورَدَّ أَبرهَةُ عَلَى عَبد المُطَّلب إبلَهُ، ورَجع عَبْدُ المُطَّلِبِ إلَى قُرَيْشٍ، فَأَخْبَرَهُمْ الخَبَرَ، وَأَمَرَهُمْ بالخُرُوجِ مِنْ مَكَّةَ، والتَّحصُّنَ فِي رءُوس الجِبَالِ تَخَوّفًا عَلَيْهِمْ مِنْ مَعَرّةِ الجَيْشِ، ثُمّ قَامَ عَبْدُ المُطّلِبِ، فَأَخَذَ بِحَلْقَةِ بَابِ الكَعْبَةِ، وَقَامَ مَعَهُ نَفَرٌ مِنْ قُرَيْشٍ يَدْعُونَ الله ويستنصرونه عَلَى أَبْرَهَةَ وَجُنْدِهِ، فَقَالَ عَبْدُ المُطّلِبِ وَهُوَ آخِذٌ بِحَلْقَةِ بَابِ الكَعْبَةِ:

لا هُـــمَّ إنّ العَـــبْدَ يَمْـــنَعُ   رَحْلَـــهُ فامْـــنَعْ حِلالَـــكْ

لا يَغْلِبَنَّ صَلِيبُهُمْ ... وَمِحَالُهُمْ غَدْوًا مِحَالَكْ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: ثُمّ أَرْسَلَ عَبْدُ الْمُطّلِبِ حَلْقَةَ بَابِ الكَعْبَةِ، ثُمّ خَرَجُوا إِلى رُءُوسِ الجِبَالِ وذُكِرَ عن ابنِ سُليمان: أَنّهُم تَركُوا عِندَ البَيتِ مِائةَ بَدَنةٍ مُقَلّدةً، لَعلَّ بَعضَ الجَيش يَنَالُ مِنها شَيئًا بغَير حَقٍّ، فَيَنتقِمُ الله مِنهُم.

فَلَمّا أَصْبَحَ أَبْرَهَةُ تَهَيّأَ لِدُخُولِ مَكّةَ، وَهَيّأَ فِيلَهُ (وكَان اسمهُ مَحْمُودًا) وَعَبّأَ جَيْشَهُ، فَلَمّا وَجّهُوا الفِيلَ إِلَى مَكّةَ، أَقْبَلَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ حَتّى قَامَ إِلَى جَنْبِ الفِيلِ ثُمّ أَخَذَ بِأُذُنِهِ. فَقَالَ: أُبْرُكْ مَحْمُودُ أَوْ ارْجِعْ رَاشِدًا مِنْ حَيْثُ جِئْت، فَإِنّك فِي بَلَدِ الله الحَرَامِ، ثُمّ أَرْسَلَ أُذُنَهُ، فَبَرَكَ الفِيلُ، وَخَرَجَ نُفَيْلُ بْنُ حَبِيبٍ يَشْتَدّ حَتّى أَصْعَدَ فِي الجَبَلِ، وَضَرَبُوا الفِيلَ لِيَقُومَ فَأَبَى، فَضَرَبُوا فِي رَأْسِهِ بالطّبَرْزِين لِيَقُومَ فَأَبَى، فَأَدْخَلُوا مَحَاجِنَ لَهُمْ فِي مَرَاقّهِ فَنَزَعُوهُ بِهَا لِيَقُومَ فَأَبَى، فَوَجّهُوهُ رَاجِعًا إِلَى اليَمَنِ، فَقَامَ، يُهَرْوِلُ وَوَجّهُوهُ إِلَى الشّام فَفَعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجّهُوهُ إِلَى المَشْرِقِ فَفعَلَ مِثْلَ ذَلِكَ، وَوَجّهُوهُ إِلَى مَكّةَ فَبَرَكَ، وأَرسَلَ الله عَلَيهم طَيرًا من البَحرِ أمثال الخَطَاطِيفِ وَالبَلَسَانِ مَع كُلّ طَائِرٍ مِنْهَا ثَلاثَةُ أَحْجَارٍ يَحْمِلُهَا: حَجَرٌ فِي مِنْقَارِهِ، وَحَجَرَانِ فِي رِجْلَيْهِ، أَمْثَالُ الحِمّصِ وَالعَدَسِ، لَا تُصِيبُ مِنْهُمْ أَحَدًا إلّا هَلَكَ، وَلَيْسَ كُلّهُمْ أَصَابَتْ.

وَخَرَجُوا هَارِبِينَ يَبْتَدِرُونَ الطّرِيقَ الّذِي مِنْهُ جَاءُوا، وَيَسْأَلُونَ عَنْ نُفَيْلِ بْنِ حَبِيبٍ لِيَدُلّهُمْ عَلَى الطّرِيقِ إِلَى اليَمَنِ، هذا ونُفَيلٌ عَلَى رأسِ الجَبَلِ مَعَ قُرَيشٍ وَعَربِ الحِجَازِ يَنْظُرُون مَاذَا أَنزَلَ الله بِأصحابِ الفِيلِ مِنَ النّقِمَةِ، وجَعَلَ نُفَيلٌ يَقُولُ:

أَيْنَ المَفَرّ وَالإِلَهُ الطّالِبُ ... وَالأَشْرَمُ المَغْلُوبُ لَيْسَ الغَالِبُ

قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: وَقَالَ نُفَيْلٌ أَيْضًا:

أَلا حُيّيت عَنّا يَا رُدَيْنَا ... نَعِمْنَاكُمْ مَعَ الإِصْبَاحِ عَيْنَا

رُدَيْنَةُ لَوْ رَأَيْتِ - وَلا تَرَيْهِ ... لَدَى جَنْبِ الْمُحَصّبِ مَا رَأَيْنَا

إذًا لَعَذَرْتِنِي وَحَمِدْتِ أَمْرِي وَلَمْ تَأْسَيْ عَلَى مَا فَاتَ بَيْنَا

حَمِدْتُ اللَّهَ إِذْ أَبْصَرْتُ طَيْرًا وَخِفْتُ حِجَارَةً تُلْقَى عَلَيْنَا

وَكُلّ القَوْمِ يَسْأَلُ عَنْ نُفَيْلِ كَأَنَّ عَلَيَّ لِلْحُبْشَانِ دَيْنَا

قَالَ ابْنُ هِشَام: الأَبَابِيلُ الجَمَاعَاتُ، وَأَمَّا السّجّيلُ: الشّدِيدُ الصّلْبُ.

﴿طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: الفِرَقُ، وقال: أَبابِيلُ يَتبَعُ بَعضُها بَعضًا، وقِيلَ: الأبَابِيلُ: الكَثِيرَةُ. وقَالَ مُجَاهد: أبَابِيلُ: شَتَّى مُتَتَابِعَةٌ مُجْتَمِعَةٌ، وقِيلَ: الأَبَابِيلُ: المُختلِفَةُ، تَأتِي مِنْ هَهُنَا ومِن هَهُنَا، أَتَتْهُمْ مِن كُلِّ مَكَانٍ.

عَن ابْنِ عَبَّاس: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ قال: لَهَا خَرَاطِيمُ كَخَرَاطِيمِ الطَّيرِ، وأكُفٌّ كَأَكُفِّ الكِلَابِ.

﴿تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ﴾ طِينٍ في حِجَارَةٍ، وقَدْ قَدَّمنا بيان ذَلِكَ بِما أغنَى عن إِعَادَتِهِ هَهُنَا.

وقَوله تَعَالى: ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ قال سَعيدُ بن جُبَيرٍ: يَعنِي: التِّبنَ الذِي تُسَمِّيهِ العَامَّةُ: هَبُّورٌ، والمأكُولُ: القَصِيلُ يُجَزُّ للدَّوابِّ، والمعنى: أنَّ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أهلَكَهُ ودَمَّرَهُم ورَدَّهُم بِكيدِهِم وغَيظِهِم لَم يَنَالُوا خيرًا، وأهْلَكَ عَامَّتُهم وَلَم يَرجِع مِنهُم مُخبِرٌ إلَّا وَهُو جَرِيحٌ، كَمَا جَرَى لِمَلِكِهِم أَبرهَةَ.

وفي الصَّحِيحَيْنِ أنَّ رَسُول الله ﷺ قَال يَومَ فَتح مكَّة: «**إِنَّ اللَّهَ حَبَسَ عَنْ مَكَّةَ الفِيلَ وَسَلَّطَ عَلَيْهِمْ رَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ....**»، وقال: «**وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الغَائِبَ**»(١).

وهذا تهديدٌ أكيد لكل مَن سَوّلت له نَفسه انتهاك بيت الله الحرام.

فالحمد لله ناصر المستضعفين، وكاسر الظالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) رواه البخاري (١١٢)، ومسلم (١٣٥٥).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الدروس والعِبر والفوائد من حادثة الفيل[١]:

١- **بيان شرف الكعبة**: أوّل بيتٍ وُضع للناس، وكيف أن مشركي العرب كانت تعظمه وتقدسه ولا يُقدمون عليه شيئًا، وتعود هذه المنزلة إلى بقايا ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام.

٢- **حسد النَّصارى وحقدهم عَلَى مكَّة، وعلى العرب الذي يعظمون هذا البيت**، ولذلك أراد أبرهة أن يصرف العرب عن تعظيم بيت الله ببناء كنيسة القُلَّيس، وعلى الرغم من استعماله أساليب الترغيب والترهيب إلا أن العرب امتنعوا، ووصل الأمر إلى مداه بأن أحدث في كنيسة القُلَّيس أحد الأعراب.

قَالَ الرازي - رحمه الله - في تفسيره في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾: «اعلم أن الكيد هُوَ إرادة مضرّة بالغير عَلَى الحقيقة.

إن قيل: لِمَ سماه كيدًا وأمره كان ظاهرًا، فإن أبرهة كان يُصرح أن يهدم البيت؟

قلنا: نعم، لكن الذي كان في قلبه شرًّا مما أظهر كما قَالَ تعالى: ﴿قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران: ١١٨]. لأَنَّهُ كان يضمر الحسد للعرب، وكان يريدصرف الشرف الحاصل لهم بسبب الكعبة منهم ومن بلدهم إلى نفسه وإلى بلدته»[٢].

٣- **الدفاع عن المقدسات**: قام ملك حِمْيَرَ في وجه جيش أبرهة، وهو في طريقه إلى مكَّة، ووقع الملك أسيرًا، وقام النفيل بن حبيب الخثعمي ومن اجتمع معه من

---

(١) راجع «السِّيرة النبوية» د. الصلابي (١/ ٥١ - ٥٧).

(٢) «مفاتيح الغيب» للفخر الرازي (٣٢/ ٩٤).

قبائل اليمن فقاتلوا أبرهة إلا أنهم انهزموا أمام الجيش العرَمْرَم، وبذلوا دماءهم دفاعًا عن مقدساتهم.

إن الدفاع عن المقدسات والتضحية في سبيلها شيء غريزي في فطرة الإنسان.

٤- **خونة الأُمّة مخذولون**:فهؤلاء العملاء الذين تعاونوا مع أبرهة وصاروا عيونًا له وجواسيس، وأرشدوه إلى بيت الله العتيق ليهدمه، لُعنوا في الدنيا والآخرة، لعنهم النَّاس ولعنهم الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وأصبح قبر أبي رغال - المتعاون مع أبرّهة - رمزًا للخيانة، وصار ذاك الرجل مبغوضًا في قلوب النَّاس، وكان كلما مرَّ أحدٍ عَلَى قبره رجمه.

٥- **حقيقة المعركة بين الله وأعدائه**: في قول عبد المطلب زعيم مكَّة: «سنخلِّي بينه وبين البيت، فإن خلى الله بيننا وبينه، فوالله ما لنا به قوة»، هذا تقرير دقيق لحقيقة المعركة بين الله وأعدائه فمهما كانت قوّة العدو وحشوده، فإنها لا تستطيع الوقوف لحظة أمام قدرة الله وبطشه ونقمته، فهو سبحانه واهب الحياة وسالبها في أي وقت شاء[(١)].

قَالَ القاسمي - رحمه الله - في «تفسيره»، قَالَ القاشاني - رحمه الله -: «قصة أصحاب الفيل مشهورة، وواقعتهم قريبة من عهد رسول الله ﷺ وهي إحدى آيات قدرة الله، وأثر من سخطه عَلَى من اجترأ عليه بهتك حَرمه»[(٢)].

٦- **تعظيم النَّاس للبيت وأهله**: ازداد تعظيم العرب لبيت الله الحرام الذي تكفّل بحفظه وحمايته من عبث المفسدين، وكيد الكائدين، وأعظمت العرب قريشًا، وقالوا: هم أهل الله، قاتل الله عنهم وكفاهم العدو، وكان ذلك آية من الله، ومقدمة لبعثة نبي يُبعث من مكَّة، ويطهِّر الكعبة من الأوثان، ويعيد لها ما كان لها من رِفعة وشأن[(٣)].

---

(١) «السِّيرة النبوية» لأبي فارس (١١٢).

(٢) «محاسن التأويل» (١٧/ ٢٦٢).

(٣) «السِّيرة النبوية» للندوي (٩٢).

١- **قصة الفيل من دلائل النبوّة:** قَالَ بعض العلماء: إن حادثة الفيل من شواهد النبوّة ودلالاتها، ومن هؤلاء: الماوردي - رحمه الله - قَالَ: «آيات الملك باهرة، وشواهد النبوّة ظاهرة، تشهد مباديها بالعواقب فلا يلتبس فيها كذب بصدق، ولا منتحل بحق، وبحسب قوتها وانتشارها يكون بشائرها وإنذارها، ولما دنا مولد رسول الله ﷺ تعاطرت آيات نبوته، وظهرت آيات بركته، فكان من أعظمها شأنًا وأشهرها عيانًا وبيانًا أصحاب الفيل...» إلى أن قَالَ: «وآية الرسول في قصة الفيل أَنَّهُ كان في زمانه حَمْلًا في بطن أُمّه بمكة، لأَنَّهُ وُلد بعد خمسين يومًا من وقعة الفيل، وبعد موت أبيه، في يوم الاثنين الثاني عشر من شهر ربيع الأول، فكانت آية في ذلك من وجهين:

الأول: أنهم لو ظفروا لسبوا واسترقوا، فأهلكهم الله تعالى لصيانة رسوله ﷺ أن يجري عليه السّبي حملًا ووليدًا.

والثاني: أَنَّهُ لم يكن لقريش من التألُّه ما يستحقون به رفع أصحاب الفيل عنهم، وما هم أهل كتاب، لأنهم كانوا بين عابد صنم، أو متدين وثن، أو قائل بالزندقة، أو مانع من الرجعة، ولكن لَـمَّا أراد الله تعالى من ظهور الإسلام، تأسيًا للنبوة، وتعظيمًا للكعبة...، ولما انتشر في العرب ما صنع الله تعالى في جيش الفيل تهيبوا الحرم وأعظموه، وزادت حرمته في النفوس، ودانت لقريش بالطاعة، وقالوا: أهل الله قاتل عنهم وكفاهم كيد عدوهم، فزادوهم تشريفًا وتعظيمًا، وقامت قريش لهم بالوفادة والسدانة والسقاية، (والوفادة مال تخرجه قريش في كل عام من أموالهم يصنعون به طعامًا للناس أيام منى) فصاروا أئمة ديَّانين، وقادة متبوعين، وصار أصحاب الفيل مثلًا في الغابرين[١]».

وقال ابن تيميّة - رحمه الله -: «وكان ذلك - أي حادث الفيل - عام مولد النبي ﷺ وكان جيران البيت مشركين يعبدون الأوثان، ودين النصارى خيرٌ

(١) «أعلام النبوة» للماوردي (١٨٥ - ١٨٩).

منهم، فعُلِم بذلك أن هذه الآية لم تكن لأجل جيران البيت حينئذٍ، بل كان لأجل البيت، أو لأجل النبي ﷺ الذي وُلد في ذلك العام عند البيت أو لمجموعهما، وأي ذلك كان فهو من دلائل نبوته»(١).

وقال ابن كثير - رحمه الله -في كلامه عن حادثة الفيل: «... كان هذا من باب الإرهاص والتوطئة لمبعث رسول الله ﷺ، فإنه في ذلك العام ولد عَلَى أشهر الأقوال، ولسان حال القدرة يقول: لم ينصركم يا معشر قريش عَلَى الحبشة لخيرتكم عليهم، ولكن صيانةً للبيت العتيق، الذي سنشرفه ونوقره ببعثة النبي الأُمي مُحمَّد صلوات الله وسلامه عليه خاتم الأنبياء»(٢).

٨- **حِفظُ الله للبيت العتيق**: حيث أن الله لم يقدر لأهل الكتاب - أبرهة وجنوده - أن يدمروا البيت الحرام أو يسيطروا عَلَى الأرض المقدسة، حَتَّى والشرك يُدنسه، والمشركون هم سدنته ليبقى هذا البيت عتيقًا من سلطان المتسلطين، مصونًا من كيد الكائدين، وليحفظ لهذه الأرض حريتها حَتَّى تنبت فيها العقيدة الجديدة حُرة طليقة، لا يهيمن عليها سلطان، ولا يطغى فيها طاغية، ولا يُهَيمن عَلَى هذا الدّين الذي جاء ليهيمن عَلَى الأديان، وعلى العباد، ويقود البشرية ولا يُقاد، وكان هذا من تدبير الله لبيته ولدينه قبل أن يعلم أحد أن نبي هذا الدين قَدْ وُلد في هذا العام(٣).

٩- **جَعْلُ الحادثة تاريخٌ للعرب**: استعظم العرب ما حدث لأصحاب الفيل، فأرخوا به، وقالوا: وقع هذا عام الفيل، وولد فلان عام الفيل، ووقع هذا بعد عام الفيل بكذا من السنين، وعام الفيل صادف عام ٥٧٠م(٤).

---

(١) «الجواب الصحيح» لابن تيمية (٤/ ١٢٢).
(٢) «تفسير ابن كثير» (٤/٥٤٨، ٥٤٩).
(٣) «السِّيرة النبوية» لأبي فارس (١١٣).
(٤) «السِّيرة النبوية» للندوي (٩٢).

عباد الله...

هذه بعض الدروس والعظات والفوائد المستفادة من حادث الفيل، وفي جمعة التالية نلتقي مع مولد المصطفى ﷺ - إن شاء الله - فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ أحْسِن عاقبتنا في الأمور كلِّها، وأجِرْنا مِنْ خِزي الدنيا، وعذاب الآخرة.

آمين... آمين... آمين.

الخطبة الثامنة والخمسون:

مولد المصطفى ﷺ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فإن النبيّ ﷺ وُلد يوم الاثنين، وهذا هُوَ الصحيح، خلافًا لمن قَالَ إِنَّهُ وُلد يوم الجُمعة.

فقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث غَيْلَانُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَعْبَدٍ الزِّمَّانِيِّ عَنْ أَبِي قَتَادَةَ: قَالَ سُئِلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ صَوْمِ يَوْمِ الِاثْنَيْنِ، فَقَالَ: «**ذَاكَ يَوْمٌ وُلِدْتُ فِيهِ، وَأُنْزِلَ عَلَيَّ فِيهِ**».

وفي أيِّ شهرٍ وُلِدَ رسول الله ﷺ؟

الجمهور عَلَى أَنَّهُ في شهر ربيع الأول، واختلفوا في أي يوم منه.

ذكر الحافظ ابن حجر خمسة أقوال:

١ - لليلتين خَلَونَ منه، وهو قول ابن حزم.

٢- لثمانٍ خلون منه.

٣- لعشرٍ خلون منه.

٤- لاثنتي عشرة خلون منه، وهو قول ابن عباس - رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا - وهذا هُوَ المشهور عند الجمهور.

٥- وقيل: لسبع خَلَونَ منه.

ورجَّح ابن كثير أَنَّهُ ﷺ وُلد لثمان خَلَون من ربيع الأول، وقال: وهذا هُوَ الصحيح، وهو أثبت.

عبد الله...

وظهرت علامات نبوّته ﷺ في يوم مولده.

من هذه العلامات:

أن أمّه ﷺ رأت نورًا يخرج منها أضاءت منه قصور الشَّام.

فعن أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ مَا كَانَ أَوَّلُ بَدْءِ أَمْرِكَ؟ قَالَ: «أنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ، وَبُشْرَى عِيسَى، وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ» (١).

قوله: «أنا دَعْوَةُ أَبِي إِبْرَاهِيمَ» هي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ وَالحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [البقرة: ١٢٩].

وقوله: «وَبُشْرَى عِيسَى» أو «وكان آخر من بشَّر بي عيسى ابن مريم» جاءت في كتاب ربنا سبحانه عَلَى لسان عيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي

(١) إسناده حسن: رواه أحمد (٥/ ٢٦٢)، والحاكم (٢/ ٦٠٠)، وقال: صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وحسّن إسناده الهيثمي.

إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ [الصف: ٦].

وقوله: «وَرَأَتْ أُمِّي أَنَّهُ يَخْرُجُ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَتْ مِنْهَا قُصُورُ الشَّامِ» علّق عليه كل من ابن رجب وابن كثير، وبيَّنا الحِكمة من خروج هذا النور، فقال ابن رجب - رحمه الله -: «وخروج هذا النور عند وضعه إشارة إلى ما يجيء به من النور الذي اهتدى به أهل الأرض، وزالت به ظلمة الشرك منها، كما قَالَ تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦]»[١].

وقال الحافظ ابن كثير: وتخصيص الشَّام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه وثبوته ببلاد الشَّام، ولهذا تكون الشَّام في آخر الزمان معقلًا للإسلام وأهله، وبها ينزل عيسى ابن مريم بدمشق بالمنارة البيضاء الشرقيّة منها، ولهذا جاء في الصَّحيحَيْنِ قوله ﷺ: «لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي ظَاهِرِينَ عَلَى الْحَقِّ لَا يَضُرُّهُمْ مَنْ خَذَلَهُمْ حَتَّى يَأْتِيَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَذَلِكَ». ا.هـ[٢].

وقال الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - في «الفتح»: «ومما ظهر من علامات نبوته عند مولده: ما أخرجه الطبراني عن عثمان بن أبي العاص الثقفي عن أُمّه أنها حضرت آمنةَ أُمَّ النبيّ ﷺ، فلمّا ضربها المخاض قالت: «فجعلتُ أنظر إلى النجوم تدلَّى حَتَّى أقول: لتقعنَّ عليَّ، فلمّا وَلَدت خرج منها نورٌ أضاء له البيتُ والدَّار»».

ثُمَّ قَالَ ابن حجر: وَشَاهِده حَدِيث العِرْبَاض بْن سَارِيَة قَالَ: سَمِعْت رَسُول اللَّه ﷺ يَقُول: «إِنِّي عَبْد اللَّه وَخَاتَم النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَم لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَته، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ: إِنِّي دَعْوَة أَبِي إِبْرَاهِيم، وَبِشَارَة عِيسَى بِي، وَرُؤْيَا أُمِّي الَّتِي رَأَتْ، وَكَذَلِكَ أُمَّهَات النَّبِيِّينَ يَرَيْنَ»، وَإِنَّ أُمّ رَسُول اللَّه ﷺ رَأَتْ حِين وَضَعَتْهُ نُورًا أَضَاءَتْ لَهُ

(١) «لطائف المعارف» لابن رجب (٨٩).
(٢) رواه البخاري (٧٣١١)، ومسلم (١٧٣١).

قُصُور الشَّام»[١]. ا.هـ[٢].

وروى يعقوب بن سفيان بإسنادٍ حسن، ورواه ابن إسحاق كما قَالَ الحافظ ابن كثير (١/ ٦٩٩) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «كان يهودي قَدْ سكن مكَّة يتَّجر بها، فلمَّا كانت الليلة التي وُلد فيها النبيّ ﷺ قَالَ: يا معشر قريش هل ولد فيكم الليلة مولود؟ فقال القوم: والله ما نعلمه، قَالَ: فإنه ولد هذه الليلة نبي هذه الأمة بين كتفيه علامة، لا يرضع ليلتين، وذلك أن عفريتا من الجن أدخل أصبعه في فمه فمنعه الرضاع، فسألوا فقيل لهم: قد والله ولد لعبد الله بن عبد المطلب غلام، فذهب اليهودي معهم إلى أمه فأخرجته لهم، فلمَّا رأى اليهودي العلامة خرّ مغشيًّا عليه، فلما أفاق قالوا له: ما لك ويلك؟ قَالَ: قد ذهبت والله النبوة من بني إسرائيل، يا معشر قريش أما والله ليسطُونَّ بكم سطوةً يخرج خبرها من المشرق والمغرب».

عباد الله...

وهناك علامات ذكرها أهل السِّير والتاريخ لم تصح، منها:

قولهم: أَنَّهُ ﷺ وُلد مختونًا مسرورًا[٣] وأنه لم ير أحدٌ سوأته !!

قَالَ ابن القيم – رحمه الله –: «ليس في خَتنه وهو مولود حديث ثابت»[٤].

وقال ابن كثير: «الحديث الوارد في ذلك في صحته نظر»[٥].

وقال ابن القيّم:

فَصْلٌ فِي خِتَانِهِ ﷺ :

وَقَد اُختُلِفَ فِيهِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقوَالٍ:

أَحَدُهَا: أَنَهُ وُلِدَ مَختُونًا مَسرُورًا، وَرُوِيَ فِي ذَلِكَ حَدِيثٌ لَا يَصِحّ ذَكَرَهُ أَبُو الفَرَجِ

---

(١) أخرجه أحمد، وابن حبان، وصححه، والحاكم.

(٢) «فتح الباري» (٦/ ٦٧٥).

(٣) أي: مقطوع السّرة.

(٤) «زاد المعاد» (١/ ٨١).

(٥) «البداية والنهاية» (١/ ٩٩٨).

ابنُ الجَوزِيّ فِي «المَوضُوعَاتِ» وَلَيسَ فِيهِ حَدِيثٌ ثَابِتٌ وَلَيسَ هَذَا مِن خَوَاصّهِ فَإِنّ كَثِيرًا مِن النّاسِ يُولَدُ مَختُونًا.

وَقَالَ المَيمُونِيّ: قُلت لِأَبِي عَبدِ الله مَسأَلَةٌ سُئِلتُ عَنهَا: خَتّانٌ خَتَنَ صَبِيًا فَلَم يَستَقص؟ قَالَ: إذَا كَانَ الخَتّانُ جَاوَزَ نِصفَ الحَشَفَةِ إلَى فَوقٍ فَلَا يُعِيدُ لِأَنّ الحَشَفَةَ تَغلُظُ وَكُلّمَا غَلُظَت ارتَفَعَ الخِتَانُ. فَأَمّا إذَا كَانَ الخِتَانُ دُونَ النّصفِ فَكُنتُ أَرَى أَن يُعِيدَ.

قُلت (أي: الميموني): فَإِنّ الإِعَادَةَ شَدِيدَةٌ جِدّا وَقَد يَخَافُ عَلَيهِ مِن الإِعَادَةِ؟

فَقَالَ: لَا أَدرِي، ثُمّ قَالَ لِي: فَإِنّ هَاهُنَا رَجُلًا وُلِدَ لَهُ ابنٌ مَختُونٌ فَاغتَمّ لِذَلِكَ غَمّا شَدِيدًا، فَقُلت لَهُ: إذَا كَانَ اللهُ قَد كَفَاك المُؤنَةَ فَمَا غَمّك بِهَذَا؟ انتَهَى.

وَحَدّثَنِي صَاحِبُنَا أَبُو عَبدِ الله مُحَمّدُ بنُ عُثمَانَ الخَلِيلِيّ المُحَدّثُ بِبَيتِ المَقدِسِ أَنّهُ وُلِدَ كَذَلِكَ وَأَنّ أَهلَهُ لَم يَختِنُوهُ وَالنّاسُ يَقُولُونَ لِمَن وُلِدَ كَذَلِكَ خَتَنَهُ القَمَرُ وَهَذَا مِن خُرَافَاتِهِم.

القَولُ الثّانِي: أَنّهُ خُتِنَ ﷺ يَومَ شَقّ قَلبَهُ المَلَائِكَةُ عِندَ ظِئرِهِ حَلِيمَةَ.

القَولُ الثّالِثُ: أَنّ جَدّهُ عَبدَ المُطّلِبِ خَتَنَهُ يَومَ سَابِعِهِ وَصَنَعَ لَهُ مَأدُبَةً وَسَمّاهُ مُحَمّدًا.

قَالَ أَبُو عُمَرَ بنِ عَبدِ البَرّ: وَفِي هَذَا البَابِ حَدِيثٌ مُسنَدٌ غَرِيبٌ حَدّثَنَاهُ أَحمَدُ ابنُ مُحَمّدِ بنِ أَحمَدَ حَدّثَنَا مُحَمّدُ بن عِيسَى حَدّثَنَا يَحيَى بنُ أَيّوبَ العَلّافُ حَدّثَنَا مُحَمّدُ بنُ أَبِي السّرِيّ العَسقَلَانِيّ حَدّثَنَا الوَلِيدُ بنُ مُسلِم عَن شُعَيبٍ عَن عَطَاءٍ الخُرَاسَانِيّ عَن عِكرِمَةَ عَن ابنِ عَبّاسٍ أَنّ عَبدَ المُطّلِبِ خَتَنَ ﷺ يَومَ سَابِعِهِ وَجَعَلَ لَهُ مَأدُبَةً وَسَمّاهُ مُحَمّدًا ﷺ قَالَ يَحيَى بن أَيّوبَ طَلَبت هَذَا الحَدِيثَ فَلَم أَجِدهُ عِندَ أَحَدٍ مِن أَهلِ الحَدِيثِ مِمّن لَقِيته إلّا عِندَ ابنِ أَبِي السّرِيّ[1].

وَقَد وَقَعَت هَذِهِ المَسأَلَةُ بَينَ رَجُلَينِ فَاضِلَينِ صَنّفَ أَحَدُهُمَا مُصَنّفًا فِي أَنّهُ وُلِدَ

(١) محمد بن السّري، قَالَ أبو حاتم: ليّن الحديث، وقال ابن عديّ: كثير الغلط، والوليد بن مسلم مدلس، وقد عنعن، فالخبر لا يصح. قاله شعيب الأرناؤوط محقق «زاد المعاد».

مَخْتُونًا وَأَجلَبَ فِيهِ مِن الأَحَادِيثِ الّتِي لَا خِطَامَ لَهَا وَلَا زِمَامَ وَهُوَ كَمَالُ الدّينِ بنُ طَلحَةَ فَنَقَضَهُ عَلَيهِ كَمَالُ الدّينِ بنُ العَدِيمِ وَبَيّنَ فِيهِ أَنّهُ ﷺ خُتِنَ عَلَى عَادَة العَرَبُ وَكَانَ عُمُومٌ هَذِهِ السّنّة لِلعَرَبِ قَاطِبَةً مُغنِيًا عَن نَقلٍ مُعَيّنٍ فِيهَا، وَالله أَعلَم»[١]. ا.هـ.

ومن العلامات التي لم تصحّ:

ما يُروى في حديث مخزوم بن هانئ المخزوميّ عن أبيه - وكان قَدْ أتت عليه خمسون ومائة سنة - قَالَ: «لَـمَّا كانت الليلة التي وُلد فيها رسول الله ﷺ انكسر إيوان كسرى، وسقطت منه أربع عشرة شُرفة، وخمدت نار فارس، ولم تخمد قبل ذلك بألف عام، وغاضت بُحيرة ساوة، ورأى الموبذان - حاكم المجوس - إبلًا صعابًا تقود خيلًا عِرابًا، وقد قَطعت دخلة، وانتشرت في بلادها، فلمَّا أصبح كسرى أفزعه ما وقع، فسأل علماء أهل ملّته عن ذلك، فأرسلوا إلى سَطيح...» فذكر القصّة بطولها. أخرجه ابن السَّكَن وغيره في كتاب «معرفة الصحابة».

وهذه القصّة ذكرها الحافظ أبو بكر مُحَمَّد بن جعفر بن سهل الخرائطي في كتابه «هواتف الجان» ونقلها عنه الحافظ ابن كثير في «البداية والنهاية» (١/ ٧٠١) ذكرها بطولها، وذكرها البيهقي بنحوها.

ومن العلامات التي لم تصحّ أيضًا قولهم:

(١) أن أُمَّه لم تجد مشقة في وضعه.

(٢) وأنه ﷺ وقع معتمدًا عَلَى يديه رافعًا رأسه إلى السماء.

(٣) انفلاق البُرمة[٢] التي وضعها النساء عليه نصفين.

(٤) مناغاته القمر وإشارته إليه بأصبعه.

(٥) خرور كثير من الأصنام عَلَى وجوهها وسقوطها عن أماكنها.

(٦) ظهور الكوكب الأحمر كما كانت اليهود تخبر بصفة مجيئه ومبعثه[٣].

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٨١، ٨٢).

(٢) البرمة: قَدرٌ من حجارة.

(٣) انظر «محاضرات في السِّيرة النبوية» (ص٤٢).

فاحذروا - أيُّها المسلمون - الإطراء المذموم، وإيَّاكم والكذب عليه ﷺ، فقد قَالَ ﷺ محذرًا: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ» [1].

واعلموا - عباد الله - أن مدح الرسول ﷺ والثناء عليه بالكذب عليه من قبائح الذنوب.

نسأل الله تعالى أن يرينا الحقّ حقًّا ويرزقنا اتباعه، ويرينا الباطل باطلًا ويرزقنا اجتنابه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فمما ينبغي التنبيه عليه، والإشارة إليه، أن النبيَّ ﷺ وُلد يوم الاثنين، ومات يوم الاثنين، فلماذا يفرح المسلمون بمولده ولا يحزنوا لوفاته؟!

هذا بالإضافة إلى ما يحدث في الموالد من مخالفات وبدع وآثام تتنافى مع الإسلام.

وقد أنكر أئمّة التصوّف المعاصرين كالشيخ مُحمَّد زكي إبراهيم - رائد العشيرة المحمديّة - ما يحدث في الموالد من آثام وموبقات كالرقص، واختلاط الرجال بالنساء وغير ذلك.

والحق أقول:

إن الموالد من الأمور المحدثة التي لم تُعرف في العصر الأوَّل، وقد نبّه عَلَى هذا الشيخ **مُحمَّد الغزالي** - رحمه الله - وأنكر ما يحدث في الموالد من بدع ومنكرات.

قَالَ - رحمه الله -: «من تقاليد الأجانب احتفاؤهم بأعياد ميلادهم، واستقبالهم الأعوام الجديدة بأحفال تثير في حياتهم البهجة، وتملأ نفوسهم بالنشاط والأمل.

---

(١) هَذَا الحديث في الصحيح.

وهذه العادات إذا خلت من المجون والحرام يمكن الإبقاء عليها دون حَرَج، وإذا نقلناها عنهم لنعرف حسابنا مع الزمن، ومدى ما قطعنا منه في الماضي ومدى ما نفيد منه في المستقبل كان ذلك حسنًا، لمن شاء».

وهذا شيءٌ غير ما يصنعه المسلمون في موالدهم، فقد جرت عادتهم إذا مات فيهم مَن يحسبونه صالحًا أن يتخذوا قبره ضريحًا، وأن يبنوا فوق الضريح قُبّة مشرفة، وأن يجعلوا منه مزارًا، وأن يحتفلوا بمولده مرة أو مرتين كل عام.

وهذا العمل مزيج من معصية وبدعة، ولا ريب في أَنَّهُ مخالفة كبيرة لتعاليم الإسلام.

وقد تعددت موالد الصالحين في طول البلاد وعرضها، وأصبحت أسواقًا مألوفة ومواسم معروفة.

وقيل: إنَّ أول مَن أحدثها بالقاهرة الخلفاء الفاطميون بالقرن الرابع للهجرة، فقد ابتدعوا ستة موالد: المولد النبوي، ومولد الإمام عليّ، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ومولد الحسن والحسين، ومولد الخليفة الحاضر.

وبقيت هذه الموالد عَلَى رسومها إلى أن أبطلها الأفضل ابن أمير الجيوش، ثُمَّ أعيدت في خلافة الحاكم بأمر الله سنة ٥٢٤هـ بعد ما كاد النَّاس ينسونها.

وأول مَن أحدث الاحتفال بمولد النبي ﷺ الملك المظفر أبو سعيد في القرن السابع بمدينة إربل، ثُمَّ فشت هذه الموالد في شتَّى الأقطار وكثر قُصَّادها.

وافتنوا في تنميقها وإبرازها وملئها بما تهوى الأنفس، حَتَّى صارت كلمة «مولد» رمزًا عَلَى الفوضى والزياط والمساخر.

والتقرَّب إلى الله بإقامة هذه الموالد عبادة لا أصل لها.

بل إنَّ من العصيان لله ورسوله اتخاذ مقابر الصالحين محورًا لهذه الحشود، ومثابة لهذه الأحفال، حَتَّى ولو كانت مبنية عَلَى القُربات المحضة.

فقد قَالَ رسول الله ﷺ: «لَا تَجْعَلُوا بُيُوتَكُمْ قُبُورًا وَلَا تَجْعَلُوا قَبْرِي عِيدًا وَصَلُّوا عَلَيَّ فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ تَبْلُغُنِي حَيْثُ كُنْتُمْ».

وفي رواية عن سهيل بن أبي سهيل قَالَ: رآني الحسن بن الحسن بن عليّ بن أبي طالب عند القبر، فناداني وهو في بيت فاطمة يتعشى، فقال: هَلُمَ إلى العشاء، فقلت: لا أريد، فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ إن رسول الله ﷺ قَالَ: «**لا تتخذوا بيتي عيدًا ولا بيوتكم مقابر، وصلُّوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**».

فإذا كان رسول الله ﷺ كره أن يتخذ النَّاس قبره ساحة للأحفال، ومجمعًا للقُصَّاد، فكيف بقبور غيره مِمَّن نعرف ولا نعرف؟!

عَلَى أن المساجد التي تُشد إليها الرحال وتُبذل في بلوغها النفقات معروفة، وهي كما أحصاها رسول الله ﷺ: «**مَسْجِدِي، وَمَسْجِدِ الحَرَامِ، وَمَسْجِدِ الأَقْصَى**».

ومكانة هذه المساجد لم تجئها من إحياء مولد بها، أو من تكريم مقبور فيها، بل جاءتها لمعانٍ خاصة، لا مجال لشرحها هنا.

فأولئك الذين يحسبون أنهم يرضون الله بإقامة موالد لكبار الأولياء أو صغارهم، يرتكبون بدعًا سيئة، ويهيئون الفرصة لمعاص منكرة.

والحق إنَّ الموالد من أخصب البيئات للمناكر الظاهرة والمستورة.

ففي ساحتها الواسعة ينتشر الرقعاء دون خجل، ويختلط النساء بالرجال في المأكل والمنام، وكثيرًا ما تقع جرائم الزنا واللواط، ويُدخَن الحشيش، وتُسمع الأغاني والموسيقى الخليعة، وتختفي روح الجد وتقدير الأمور، لتحل مكانها قلة الاكتراث وقبول الدنايا.

كما تختفي النظافة من المساجد، وتضطرب الأوقات والجماعات.

ودعك من أنَّ الوافدين عَلَى هذه الساحات لهم عقائد غريبة، فربما ضنَّ أحدهم عَلَى أمه بقروش يبرها بها، في الوقت الذي يبسط يده بالنفقة هنا، إكرامًا لصاحب المولد، الذي لا يُخَيِّب قاصدًا، ولا يرد طالبًا.

وبعض النَّاس يعتذر لهذه الموالد بأن فيها حلقات للذِكر ودروسًا للعلم وتلاوة للقرآن، وإطعامًا للفقراء والمساكين.

ولو خلت الموالد من الآثام التي سقناها آنفًا، لوجب تعطيلها أيضًا، لمظاهر

التدين الفاسدة التي تسودها.

فحلقات الذِكر ضروب من الهوس وألوان من الرقص الذي يسوِّد له وجه الدِّين.

أما القرآن المتلو في هذه الساحات فما ينتفع به تال ولا سامع.

إنَّهُ غناء مملول النغم، يتصنع له بعض السامعين شيئًا من الإقبال، ريثما يُفرَغ منه.

وكذلك الوعظ في دروس الوعظ والإرشاد التي ينظمها الأزهر الآن يبغي بها تعليم الجماهير المحتشدة في هذه الموالد.

تلك كلها محاولات عابثة وإهدار لقيمة الذِكر الحكيم والحديث الشريف.

ولو افترضنا بعض الخير في هذه الأعمال، فإنها لا تُعد مبررًا لإقامة الموالد بعد ما أوضحنا الشرور التي تكتنفها.

وقانون الشريعة في هذا، أن درء المفاسد مقدَّمٌ عَلَى جلب المصالح.

قَالَ ابن حجر: «ألا ترى أن الشارع اكتفى من الخير بما تيسَّر؟ وفطم عن جميع أنواع الشر حيث قَالَ رسول الله ﷺ: «**إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأْتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ**»».

أي أن الشر وإن قَلّ لا يُرخَّص في شيء منه، والخير يُكتفى منه بما أمكن.

فكيف تفتح باب شر متيقن لخير موهوم؟

ثُمَّ ما وعاء هذا الخير المزعوم؟

عمل لم يفعله الرسول ﷺ، ولا صحابته، ولا التابعون لهم بإحسان قرونًا طويلة، وقد انتهى شيخ الأزهر الأسبق الأستاذ مُحَمَّد مصطفى المراغي إلى هذا الحكم، أو إلى قريب منه، حيث قَالَ: «وهناك أمور يعرض لها أن تكون بدعة، وألا تكون بدعة، مثلا الاحتفال بمولد النبي ﷺ وبيوم الهجرة، وبالمحمل، إذا فعلت هذه الأشياء عَلَى أنها عبادة وتدين، كانت بدعة بلا شُبهة، لأنها إحداث عبادة لم تكن ولم يؤذن فيها.

أما إذا فُعِلت عَلَى سبيل العادة، وعلى أنَّ الاحتفال بالهجرة وبمولده ﷺ إحياء لذكريات عزيزة، كانت سببًا للخير، وموجبة للشكر لتنبعث نفس المؤدى إلى التمسك بالهدى وبالخُلُق الكريم، لم تكن بدعة، لأَنَّهُ لم يقصد بها التدين، ولم يرد إحداث شيء في الدِّين».

لكن إذا حُفَّت هذه المحدثات - التي ليست بدعًا - بما هُوَ بدعة وبما هُوَ مخالفٌ للشريعة حُرّمت، لما هُوَ ملابسٌ لها من البدع، ولما هُوَ ملابسٌ لها من المعاصي، وكل معصية فشت لا تسمى بدعة.

فجميع ما يقع في الأسواق والمجتمعات والمساجد، وكل ما أطلق النَّاس لأنفسهم فيه العنان، مما هُوَ مخالف لقواعد الشريعة لا يسمى بدعة، وإنما هُوَ معاص ومحرّمات.

وملاحظة ضوابط البدعة يساعد كثيرًا عَلَى معرفتها.

وقد قلنا: إنَّ أهم الميزات والخواص أن يحدث الشيء عَلَى أَنَّهُ دين يُتعبد به، وعلى أن يقصد فاعله التعبد والتدين والتقرّب به إلى الله سبحانه.

نقول: ولا شك أنَّ الذين يحتفلون بالموالد المختلفة، وينفقون فيها كرائم أموالهم، ويتجشمون مشاق السفر إلى العواصم البعيدة، للمشاركة في إحيائها إنما يفعلون ذلك عَلَى أَنَّهُ قُربَى إلى الله، وتكفير للسيئات، ورِفعة في الدرجات.

ومن ثَمّ فنحن نميل إلى تعميم الحكم عَلَى هذه الموالد جميعًا، ووصفها بأنها مبتدعات تُرفض ولا يُعتذر لها.

ومن الوسائل التي يلجأ إليها حُكّام الجُور، لصرف النَّاس عن ملاحقتهم بالنقد، تضخيم الأحداث التافهة وحوك الأساطير حولها، ثُمَّ إشاعتها بين العوام وأشباههم، ليتلهوا بها زمنًا، فإذا فرغوا منها لوحقوا بغيرها، وهكذا دواليك، حَتَّى يستقر للحُكّام الفسقة أمرهم دون نكير.

ولعل هذا هُوَ السّر في تطويل قصة «عنترة بن شداد» قديمًا، فبلغت أجزاؤها نيفًا وستين كتابًا، وكذلك «ألف ليلة وليلة» وما شاكل هذه الموسوعات الخرافية.

والصُّحف في عصرنا هذا، حين تَوَجَّه إلى إماتة بعض القضايا الكبرى تُبرِز بدلًا منها بعض مآسي الغرام الحرام، وتَتفنن في سرد فصوله الدقيقة.

وأحسب أنَّ تنقيل الجماهير المغفلة من مزار إلى مزار، وإخراجهم من حفل لإدخالهم في حفل، وجعل حياة الأمة سلسلة من هذه الملاهي الدينية الموصولة، أحسب أن ذلك كان غاية منشودة لبعض الحكام السابقين وأن بدعة الموالد كانت وسيلة ناجحة لبلوغ هذا الهدف.

وهل يبقى لأمة ما وقت أو جهد للحق والعلا بعد ما استهلكت المساخر وقتها وجُهدها؟

إن إلغاء المولد ضرورة دينية ودنيوية.

وإلى جانب الموالد المبتدعة، والمواسم المبتدعة أيضًا، فهذه من تلك، تكملة لحلقة المخترعات الدينية التي يُقبل عليها العوام وينفسون فيها عن أهوائهم.

والإسلام لم يشرع إلا أعيادًا ثلاثة: عيدي الفطر والأضحى، ويوم الجمعة من كل أسبوع...» ا.هـ[1].

عباد الله...

وبهذا الكلام الطيّب نكون قَدْ وصلنا إلى خِتام خطبة اليوم.

اللَّهُمَّ أعنَّا عَلَى ذكرك وشكرك، وحُسن عِبادَتك

آمين... آمين... آمين.



(١) «ليس من الإسلام» (٢٤٩ - ٢٥٤).

الخطبة التاسعة والخمسون:

الصِّفاتُ الخَلْقِيَّة لسيِّد البريَّة ﷺ (١)

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

مِمَّا لاَ شَكَّ فِيهِ أَنَّ الأنبِيَاءَ والرُّسُلِ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ يُمَثِّلُونَ الكَمالَ الإنْسَانيَّ في أرقَى صُوَرِهِ فَهُم في غَايَةِ الكَمالِ في خَلقِهِم، أطهَرُ البَشَرِ قُلُوبًا، وأزْكَاهُم أخلاَقًا، وأجوَدُهُم قَرِيحَةً، اختَارَهُمُ اللَّـهُ واصطَفَاهُم لِنَفسِهِ، ﴿اللَّـهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

فَلَم يَكُن بِدعًا مِنَ الأنبِيَاءِ أن يَكُونَ كُلُّ مَا عَليهِ نَبِيُّنَا مُحَمَّدٌ ﷺ مِنَ الخَلقِ

---

(١) «نضرة النعيم» (٣١٠ - وما بعدها) باختصار، وإضافة.

والتَّكوينِ مُستَرعيًا للأنظَارِ، فكَمَا هُوَ قِمَّةُ الكَمالِ والجَمالِ في خُلُقِهِ، كَذلكِ هُوَ قِمَّةُ الجَمالِ والكَمالِ في خَلقِهِ، وَلا شَكَّ أنَّ ذَلكَ التَّنَاسُقَ والجَمالَ الجِسمِيَّ لَهُ أثرُهُ الكَبيرُ في الدَّعوةِ والاستِجَابةِ لَها[١]، فكَمْ مِن رَجُلٍ دَخلَ في الإسلَامِ بِمُجرَّد رُؤيتِهِ رَسُول الهُدَى ﷺ ومُشَاهَدةِ نُورِ وجهِهِ الشَّريفِ؟ فَهَذَا عَبدُ الله بنُ سَلَام حَبرُ يَهُودَ وأعلمُهُم بِالتَّوراةِ يَقُولُ: «لَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ انْجَفَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ[٢]، وَقِيلَ: قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ - ثَلاث مَرَّات - فَجِئْتُ فِي النَّاسِ لِأَنْظُرَ إِلَيْهِ فَلَمَّا تأمَّلتُ وَجهَهُ واسْتَثْبَتُّهُ[٣] عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ...»[٤]. وهَذَا عَلَى سَبيلِ المِثَالِ لَا الحَصْرِ.

فَرَسُولُنَا ﷺ كَانَ أحسَنَ النَّاسِ وأجملَ النَّاسِ، لَم يَصِفهُ واصِفٌ قَطُّ إلَّا شَبَّهَهُ بالقَمَرِ لَيلةَ البَدرِ، وَلَقَدْ كَانَ يَقُولُ قَائِلُهُم: لَرُبَّما نَظَرنا إلى القَمرِ لَيلةَ البَدرِ فَنَقُولُ: هُوَ أحسَنُ في أعيُننا مِن القَمَر، أحسَنُ النَّاسِ وَجهًا، وأنورُهُم لَونًا، يَتلألأُ تَلألُؤَ الكَوكَبِ.

عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ - قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ فِي لَيْلَةٍ إِضْحِيَانٍ[٥]، وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ حَمْرَاءُ، فَجَعَلْتُ أَنْظُرُ إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَإِلَى القَمَرِ فَإِذَا هُوَ عِنْدِي أَحْسَنُ مِنَ القَمَرِ»[٦].

عَنْ الجُرَيْرِيِّ عَنْ أَبِي الطُّفَيْلِ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ رَجُلٌ رَآهُ غَيْرِي؟ فَقُلْتُ لَهُ: صِفه لي. قَالَ: كَانَ أَبْيَضَ مَلِيحًا مُقَصَّدًا»[٧].

وصفٌ جامع:

وَرَدَت بَعضُ الأحَادِيثِ والآثَارِ الَّتي تَتضَمَّنُ وَصفًا شَاملًا للرَّسُولِ ﷺ

---

(١) «خاتم النبيين» للشيخ مُحَمَّد أبو زهرة (١١/ ٣١٩، ٣٢٠)، باختصار وتصرف.
(٢) أي: أسرعوا إليه.
(٣) أي: تحققته.
(٤) صحيح: رواه الترمذي وغيره.
(٥) أي: مضيئة مقمرة.
(٦) صحيح: رواه الترمذي في «الشمائل» (٨) وصححه الألباني.
(٧) صحيح: رواه الترمذي في «الشمائل» (١٢) وصححه الألباني.

نذْكُرُ مِنهَا مَا يَلِي:

(١) حَديثُ أُمِّ مَعبدٍ: عَن حُبَيش بن خَالدٍ[١] - رَضِي الله عَنْهُ -: أنَّ رَسُول الله ﷺ حِينَ أُخرجَ مِن مكَّة مُهاجِرًا إلى المَدينة هُوَ وأبُو بَكرٍ ومَولى أبِي بَكرٍ عَامِرُ بن فُهَيرةَ، ودَلِيلُهُما عَبدُ الله بنُ أُرَيقِط رَضِي الله عنهُم،مَرُّوا عَلى خَيمَتَي أُمِّ مَعْبَدٍ الخُزَاعِيّة وَكَانَتْ امْرَأَةً بَرْزَةً[٢]جَلْدَةً، تَحْتَبِي بِفَنَاءِ الخَيْمَةِ ثُمَّ تُطْعِمُ وَتَسْقِي مَنْ مَرَّ بِهَا، فَسَأَلَاهَا لَحمًا وتَمرًا لِيشتَرُوه مِنها، فَلم يُصِيبُوا عِندها شَيئًا مِن ذَلكِ، وكَان القَومُ مُرمِلينَ[٣]مُسنِتِين[٤]، فنَظَرَ رَسُولُ الله ﷺ إلَى شَاةٍ فِي كِسْرِ الخَيْمَةِ[٥]فَقَالَ: «مَا هَذِهِ الشَّاةُ يَا أُمّ مَعْبَدٍ؟» قَالَتْ: شَاةٌ خَلّفَهَا الجَهْدُ عَنْ الغَنَم، فَقَالَ: «هَلْ بِهَا مِنْ لَبَنٍ؟» قَالَتْ: هِيَ أَجْهَدُ مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ: «أَتَأْذَنِينَ لِي أَنْ أَحْلِبَهَا؟»، قَالَتْ: نَعَمْ بِأَبِي وَأُمّي، إنْ رَأَيْتَ بِهَا حَلْبًا فَاحْلُبْهَا، فَمَسَحَ رَسُولُ الله ﷺ بِيَدِهِ ضَرْعَهَا وَسَمّى الله وَدَعَا فَتَفَاجّتْ عَلَيْهِ[٦]وَدَرّتْ واجتَرّت، فَدَعَا بِإِنَاءٍ لَهَا يُرْبِضُ[٧]الرّهْطَ، فَحَلَبَ فِيهِ ثَجًّا[٨]حَتّى عَلَاهُ البَهاءُ[٩] ثُمَّ سَقَاهَا فَشَرِبَتْ حَتّى رَوَيْت، وَسَقَى أَصْحَابَهُ حَتّى رَوَوْا، ثُمّ شَرِبَ رَسُول الله ﷺ آخِرَهُم، ثُمَّ أَرَاضُوا[١٠]عَلَلًا بَعْدَ نَهَلٍ[١١]، ثُمّ حَلَبَ

---

(١) أخو أم عبد.

(٢) قَالَ ابن الأثيري: يقال: «امرأة برزة» إذا كانت كهلة لا تحتجب احتجاب الشواب، وهي مع ذَلِكَ عفيفة عاقلة تجلس للناس وتحدّثهم، من البروز وهو الظهور والخروج.

(٣) مرملين: أي: نَفِدَ زَادهم. «النهاية» (٢/ ٢٦٥).

(٤) مسنتين: أي: مجدبين، أصابتهم السَّنَة، وهي القحط والجدب. «النهاية» (٢/ ٤٠٧).

(٥) كِسر الخيمة: أي: جانبها، وتفتح الكاف وتكسر. «النهاية» (٤/ ١٧٢).

(٦) فتفاجت عليه: أي: فتحت ما بين رجليها للحلب، والتفاج: المبالغة في تفريج ما بين الرجلين. «النهاية» (٣/ ٤١٢).

(٧) يُربِضُ الرهط: أي: يُرويهم، يثقلهم حتى يناموا ويمتدوا على الأرض، والرهط: ما بين الثلاثة إلى العشرة. «البداية والنهاية» (٢/ ١٨٤، ٢٨٣).

(٨) ثَجًّا: أي: لبنًا سائلًا كثيرًا. «النهاية» (١/ ٢٠٧).

(٩) حتى علاه البهاء: قَالَ ابن قتيبة: يريد علا الإناء بهاء اللبن وهو وبيص رِغوَتِهِ، يريد: أنَّهُ ملأها. «دلائل النبوة» (١/ ٢٨٢).

(١٠) ثم أراضوا: قَالَ ابن قتيبة: يريد أنهم شربوا حتى رَوَوا فَنَقِعُوا بالري. «دلائل النبوة» (١/ ٢٨٢).

(١١) عللا بعد نهل: المعنى: ارتووا من الشرب مرة بعد مرة، فالنهل: الشرب الأول، والعلل: =

فِيهِ ثَانِيًا بَعدَ بَدءٍ حَتّى مَلأَ الإِنَاءَ، ثُمّ غَادَرَهُ عِنْدَهَا، ثُمّ بَايَعَهَا، وارْتَحَلُوا عَنها.

فَقَلّمَا لَبِثَتْ أَنْ جَاءَ زَوْجُهَا أَبُو مَعْبَدٍ يَسُوقُ أَعْنُزًا عِجَافًا يَتَسَاوَكْنَ[(١)] هُزَالًا ضُحًا[(٢)] مُخُّهُنّ قَليلٌ، فَلَمّا أَبُو مَعْبَدٍ رَأَى اللّبَنَ عَجِبَ فَقَالَ: مِنْ أَيْنَ لَكَ هَذَا وَالشّاةُ عَازِبٌ حِيَالٌ[(٣)]؟ وَلَا حَلُوبَ فِي البَيْتِ؟ فَقَالَتْ: لَا وَالله إلّا أَنّهُ مَرّ بِنَا رَجُلٌ مُبَارَكٌ مِنْ حَالِهِ كَذَا وَكَذَا، قَالَ: صِفِيهِ لِي يَا أُمّ مَعْبَدٍ.

قَالَتْ: رَأيتُ رَجُلًا ظَاهِرُ الوَضَاءَةِ[(٤)] أَبْلَجُ الوَجْهِ[(٥)]، حَسَنُ الخَلْقِ، لَمْ تَعِبْهُ نُحْلَةٌ[(٦)]، وَلَمْ تُزْرِ بِهِ صُعْلَةٌ[(٧)]، وَسِيمٌ[(٨)]، قَسِيمٌ[(٩)]، فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ[(١٠)]، وَفِي أَشْفَارِهِ

= الشرب الثاني. «منال الطالب» (ص١٨٠).

(١) **يتساوكنَ هُزَلًا**: يقال: «تساوكت الإبل» إذا اضطربت أعناقها من الهزال، أراد: أنها تتمايل من ضعفها. «النهاية» (٢/ ٤٢٥)، ويروى «تشاركن هزلا» أي: عمهن الهزال، «منال الطالب» (١٨١).

(٢) **ضُحًا**: قَالَ ابن الأثير: وقوع هذه الكلمات بين صفات الغنم بعيد، وكان يغلب على الظن أنها تصحيف، ومن الرواة من أسقطها من الحديث، ثم وجدت الحافظ أبا أحمد العسَّال قد روى «يتاركن هزلا مخاخهن قليل» ولا أظن الصحيح إلا كما رواه، **والمخاخ**: جمع مخ، فيكون قد تصحف «مخًا» بـ«ضحًا»، ويدل عليه أنَّهُ في أكثر النسخ مكتوب بالألف، وقد وصف المخاخ وهو جمع بـ«قليل» وهو مفرد لأنه أراد أنها شيءٌ قليل.

(٣) **عَازِبٌ حِيَالٌ**: أي: بعيدة المرعى لا تأوى إلى المنزل في اللّيل، **والحيال**: حائل وهي التي لم تحمل. «النهاية» (٣/ ٢٢٧).

(٤) **ظَاهِرُ الْوَضَاءَةِ**: ظاهر الحُسن والجمال والنظافة. «لسان العرب» (١/ ١٩٥).

(٥) **أَبْلَجُ الْوَجْهِ**: الأبلج: الأبيض الحسن الواسع الوجه، والمعنى: مشرق الوجه مضيئه. والبلج أيضًا: تباعد ما بين الحاجبين أي: عدم التقائهما، ولم ترد أم معبد بلج الحاجب لأنها وصفته بالقرن والقرن هُوَ التقاء الحاجبين، وقد صرح في غير حديث أم معبد بالبلج وهو عدم التقاء الحاجبين، والجمع بين وصفه بالبلج والقرن: هُوَ أَنَّهُ ﷺ من شدة إضاءة وجهه لا يظهر الالتقاء الذي بين حاجبيه لخفته. «النهاية» (١/ ١٥١، ٤/ ٥٤)، و«لسان العرب» (٢/ ٢١٥).

(٦) **لَمْ تَعِبْهُ نُحْلَةٌ**: أي: دقة وهزال. «النهاية» (٥/ ٢٩).

(٧) **صُعْلَةٌ**: هي صِغَر الرأس، وهي أيضًا الدقة والنحول في البدن. «البداية والنهاية» (٣/ ٣٢)، ويروى «صقلة» وهي ضمور الخصر وقلة لحمه.

(٨) **وَسِيمٌ**: الوسيم: الثابت الحسن، وفلان وسيم: أي: حسن الوجه وسيمًا. انظر «انظر لسان العرب» (١٢/ ٦٣٧).

(٩) **قَسِيمٌ**: القسامة: الجمال والحُسن، ورجلٌ مقسم الوجه: أي: جميل كله. انظر «لسان العرب» (١٢/ ٤٨٢).

(١٠) **فِي عَيْنَيْهِ دَعَجٌ**: الدعج والدعجة: السواد في العين وغيرها، والمراد: أن سواد عينيه كان شديد =

غَطَفٌ[١]، وَفِي صَوْتِهِ صَهَلٌ[٢]، وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ[٣]، وفي لِحيتهِ كَثَاثَةٌ[٤]، أَزَجّ[٥] أَقْرَنُ[٦]، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، إذَا صَمَتَ فَعَلَيهِ الوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وعَلاهُ البَهَاءُ، أَجْمَلُ النّاسِ وَأَبْهَاهُم مِنْ بَعِيدٍ، وَأَحْسَنُهُ وَأَحْلَاهُ مِنْ قَرِيبٍ، حُلْوُ المَنْطِقِ، فَصْلٌ، لَا نَزْرٌ وَلَا هَذْرٌ[٧]، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَنَحَدّرْنَ، رَبْعَةٌ لا يَأْس[٨] مِن طُولٍ، ولَا تَقْتحِمُهُ[٩] عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ، غُصْنٌ بَيْنَ غُصْنَيْنِ فَهُوَ أَنْضَرُ الثَّلَاثَةِ مَنْظَرًا، وَأَحْسَنُهُمْ قَدْرًا، لَهُ رُفَقَاءُ يَحُفّونَ بِهِ، إذَا قَالَ أنصتُوا لِقَوْلِهِ، وَإِذَا أَمَرَ تَبَادَرُوا إلَى أَمْرِهِ، مَحْفُودٌ[١٠] مَحْشُودٌ[١١] لَا عَابِسٌ[١٢] وَلَا مُفْنِدٌ[١٣].

فَقَالَ أَبُو مَعْبَدٍ: هُوَ وَاللهِ صَاحِبُ قُرَيْشٍ الّذِي ذَكَرُوا مِنْ أَمْرِهِ مَا ذَكَرُوا بِمكَّة،

= السواد وقيل: الدعج: شدة سواد العين في شدة بياضها. «النهاية» (٢/ ١١٩)، «لسان العرب» (٢/ ٢٧١).

(١) وَفِي أَشْفَارِهِ غَطَفٌ: الأشفار: جمع شُفر - بالضم - وقد يفتح وهو العين الذي ينبت عليه الشعر. والغطف: هُوَ أن يطول شعر الأجفان ثُمَّ ينعطف. «النهاية» (٢/ ٤٨٤، ٣/ ٣٧٣).

(٢) صَهَلٌ: الصهل: حدة الصوت مع بَحَحٍ. «النهاية» (٣/ ٣٣٧)، و«لسان العرب» (١١/ ٣٨٧).

(٣) وَفِي عُنُقِهِ سَطَعٌ: أي: ارتفاع وطول. «النهاية» (٢/ ٣٦٥).

(٤) وفي لِحيتهِ كَثَاثَةٌ: قَالَ ابن منظور: في صفته ﷺ أَنَّهُ كان كثّ اللحية، أراد كثرة أصولها وشعرها، وأنها ليست بدقيقة، ولا طويلة، وفيها كثافة. «لسان العرب» (٢/ ١٧٩)، «النهاية» (٤/ ١٥٢).

(٥) أَزَجّ: الزجج: تقوس في الحاجب مع طول في طرفه وامتداد. قاله ابن الأثير في «النهاية» (٢/ ٢٩٦).

(٦) أَقْرَنُ: القَرَنُ - بالتحريك - : اقتران الحاجبين بحيث يلتقي طرفاهما. «النهاية» (٤/ ٥٤).

(٧) لَا نَزْرٌ وَلَا هَزْرٌ: النزر: القليل، أي: ليس بقليل فيدل عَلَى عي، ولا كثير فاسد. «النهاية» (٥/ ٤٠)، وفي رواية: «ولا هَذَرٌ» والهذر: الكلام الكثير غير المفيد.

(٨) لا يَأْس مِن طُولٍ: أي: ليس بالطويل الذي يؤيسُ مُبَاريه عن مطاولته. «دلائل النبوة» نقلًا عن ابن قتيبة، و«النهاية» (٥/ ٢٩١).

(٩) ولَا تَقْتحِمُهُ عَيْنٌ مِنْ قِصَرٍ: أي: لا تتجاوزه إلى غيره، احتقارًا له، وكل شيء ازدريته فقد اقتحمته. «النهاية» (٤/ ١٩).

(١٠) مَحْفُودٌ: المحفود: الذي يخدمه أصحابه ويعظمونه ويسرعون في طاعته. «النهاية» (١/ ٤٠٦).

(١١) مَحْشُودٌ: أي: أن أصحابه يخدمونه ويجتمعون إليه. «النهاية» (١/ ٣٨٨).

(١٢) لَا عَابِسٌ: العابس: الكريه المَلقَى الجهم المحيا. «النهاية» (٣/ ١٧١).

(١٣) وَلَا مُفَنِدٌ: المنفد هُوَ الذي لا فائدة في كلامه لِكِبَرٍ أصابه. «النهاية» (٣/ ٤٧٥).

وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ أَصْحَبَهُ، وَلَأَفْعَلَنَّ إِنْ وَجَدْتُ إِلَى ذَلِكَ سَبِيلًا»(١).

(٢) حَديثُ هِندُ بنُ أَبي هَالَةَ التَّميميَّ في صِفَةِ النَّبيِّ ﷺ: قَالَ الحَسَنِ بن عَلِيِّ بن أبي طالب رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا: سَأَلْتُ خَالي هِنْدَ بن أَبِي هَالَةَ التَّمِيمِيَّ - وَكَانَ وَصَّافًا - عَنْ حِلْيَةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَأَنَا أَشْتَهِي أَنْ يَصِفَ لِي مِنْهَا شَيْئًا لَعَلِّي أَتَعَلَّقُ بِهِ، فَقَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَخْمًا مُفَخَّمًا، يَتَلأْلأُ وَجْهُهُ تَلأْلُؤَ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ، أَطْوَلَ مِنَ المَرْبُوعِ(٢)، وَأَقْصَرَ مِنَ المُشَذَّبِ(٣)، عَظِيمَ الهَامَةِ(٤)، رَجِلَ الشَّعْرِ(٥)، إِنِ انْفَرَقَتْ عَقِيصَتُهُ فَرَقَ وَإِلا فَلا يُجَاوِزُ شَعْرُهُ شَحْمَةَ أُذُنَيْهِ، إِذَا هُوَ وَفْرَةٌ(٦)، أَزْهَرُ اللَّوْنِ(٧)، وَاسِعُ الجَبِينِ(٨)، أَزَجُّ الحَوَاجِبِ(٩) سَوَابِغَ فِي غَيْرِ قَرَنٍ(١٠)، بَيْنَهُمَا عِرْقٌ

(١) حديث أُم معبد رواه ابن إسحاق في «السيرة»، انظر «سيرة ابن هشام» (٢/ ١٢٩)، وابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣٠)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٩ - ١١)، وقال: هَذَا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. قَالَ الحافظ ابن كثير: وقصتها (أم معبد) مشهورة مروية من طرق يشد بعضها بعضا. انظر «النهاية» (٣/ ١٨٨). وقال الحافظ ابن حجر: أم معبد الخزاعية التي نزل عليها النبي ﷺ لَـمَّا هاجر، مشهورة بكنيتها واسمها عاتكة بنت خالد. انظر «الإصابة» (٤/ ٤٩٧)، قَالَ محققا كتاب «زاد المعاد» عبد القادر وشعيب الأرناؤوط: حديث حسن. انظر حاشية «زاد المعاد» (٣/ ٥٧).

(٢) **المربوع**: المعتدل القامة، وسطًا بين الطويل والقصير.

(٣) **المشذب**: الطويل البائن الطول، مع نقص في لحمه، والمراد: أَنَّهُ ليس بنحيف طويل، بل طوله وعرضه متناسبان على أتم صفة.

(٤) **الهامة**: الرأس، وعظم الرأس دليلٌ على وفور العقل.

(٥) **الشعر الرجل**: الذي ليس شديد الجعودة، ولا شديد السبوطة بل بينهما.

(٦) **العقيصة**: الشعر المجموع كهيئة المضفور، من العقص: العطف واللي، وقيل: هي الخصلة من الشعر إذا عقصت، والانفراق: الفصل بين الشيئين، أي: كان لا يفرق شعره إِلَّا أن ينفرق هُوَ لنفسه، ووفّره: إذا أعفاه عن الفرق، يعني: أن شعره إذا فرقه تجاوز شحمة أذنيه، وإذا تُرك فرقه لم يجاوزها.

(٧) **اللون الأزهر**: الأبيض المضيء المستنير.

(٨) **الجبينان**: ما عن جانبي الجبهة من مقدم الرأس.

(٩) **الزجج**: دقة الحاجبين وسبوغهما إلى محاذاة آخر العين مع تقوّس خلقةً، وقد تفعله النساء تكلفًا، وقد نهى عنه.

(١٠) **القرن**: أن يلتقي طرفاهما مما يلي أعلى الأنف، وهو غير محمود عند العرب، والمراد: أن حاجبيه قد سبغا وامتدا حتى كادا يلتقيان ولم يلتقيا. **والسوابغ**: جمع سابغ: وهو التام الطويل.

يُدِرُّهُ غَضَبٌ(١)، أَقْنَى العِرْنِينَ، لَهُ نُورٌ يَعْلُوهُ يَحْسِبُهُ مَنْ يَتَأَمَّلْهُ أَشَمَّ(٢)، كَثَّ اللِّحْيَةِ(٣)، سَهْلَ الخَدَّيْنِ(٤)، ضَلِيعَ الفَمِ(٥)، أَشْنَبَ(٦)، مُفْلَجَ الأَسْنَانِ(٧)، دَقِيقَ المَسْرُبَةِ(٨)، كَأَنَّ عُنُقَهُ جِيدُ دُمْيَةٍ(٩) فِي صَفَاءِ الفِضَّةِ، مُعْتَدِلَ الخَلْقِ(١٠)، بَادِنَ مُتَمَاسِكًا(١١)، سَوَاءَ البَطْنِ وَالصَّدْرِ، عَرِيضَ الصَّدْرِ(١٢)، بَعِيدَ مَا بَيْنَ المَنْكِبَيْنِ(١٣)، ضَخْمَ الكَرَادِيسِ(١٤)، أَنْوَرَ المُتَجَرَّدِ(١٥)، مَوْصُولَ مَا بَيْنَ اللَّبَّةِ وَالسُّرَّةِ بِشَعْرٍ، يَجْرِي كالخَطِّ(١٦)، عَارِيَ الثَّدْيَيْنِ وَالبَطْنِ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ(١٧)، أَشْعَرَ الذِّرَاعَيْنِ وَالمَنْكِبَيْنِ

---

(١) **يدره الغضب**: يحركه ويظهره، كان إذا غضب امتلأ ذَلِكَ العرق دمًا.

(٢) **العرنين**: الأنف، **والقنا**: طول الأنف ودقة أرنبته مع ارتفاع في وسط قصبته، **والشمم**: ارتفاع رأس الأنف وإشراف الأرنبة قليلًا، واستواء أعلى القصبة، والمراد: أَنَّهُ كان يحسب لحسن قناه قبل التأمل أشم، فليس قناه بفاحش مُفرطٍ، بل يميل يسيرًا إلى الشمم.

(٣) **الشعر الكث**: الكثيف المتراكب من غير طول ولا رقة.

(٤) **سهل الخدين**: أي: ليس في خديه نُتُوٌّ وارتفاع، وقيل: أراد أن خديه أسيلان، قليلا اللحم، رقيقا الجلد.

(٥) **الضليع الفم**: العظيم الواسع.

(٦) **الشنب**: رقة الأسنان ودقتها، وتحدد أطرافها.

(٧) **الفلج**: تباعد ما بين الثنايا والرباعيات.

(٨) **المسرُبة** - بضم الراء - ما دق من شعر الصدر، سائلًا إلى السرة.

(٩) **الجيد**: العنق، وإنما ذكرهما لئلا يتكرر لفظ واحد، **والدمية**: الصورة المصورة في جدار أو غيره.

(١٠) **اعتدال الخلق**: تناسب الأعضاء والأطراف، وألا تكون متباينة مختلفة في الدقة والغلظ، والصغر والكبر، والطول والقصر.

(١١) **البادن**: الضخم التام اللحم، **والمتماسك**: الذي لحمه ليس بمسترخ ولا متهدل.

(١٢) **سواء البطن والصدر**: أي: متساويها، يعني أن بطنه غير خارج فهو مساوٍ لصدره، وصدره عريض فهو مساوٍ لبطنه.

(١٣) **المنكبان**: أعلى الكتفين، وبعد ما بينهما يدل على سعة الصدر والظهر.

(١٤) **الكراديس**: جمع كردوس وهو رأس كل عظم كبير، وملتقى كل عظمين ضخمين، كالمنكبين والمرفقين، والوركين، والركبتين، ويريد به ضخامة الأعضاء وغلظها.

(١٥) **المتجرد والمجرد**: ما كشف عنه الثوب من البدن، يعني: أَنَّهُ كان مشرق الجسد نيّر اللون.

(١٦) **الأشعر**: الذي عليه الشعر من البدن، **واللَّبة**: الوهدة التي في أعلى الصدر، وفي أسفل الحلق بين الترقوتين.

(١٧) **عَارِيَ الثَّدْيَيْنِ وَالْبَطْنِ مِمَّا سِوَى ذَلِكَ**: أي: أن ثدييه وبطنه ليس عليهما شعر سوى المسربة.

...عَارِي الصَّدْرِ، طَوِيلَ الزَّنْدَيْنِ(١)، رَحْبَ الرَّاحَةِ(٢)، سَبْطَ القَصَبِ، شَثْنَ الكَفَّيْنِ وَالقَدَمَيْنِ(٣)، سَائِلَ الأَطْرَافِ، خُمْصَانَ الأَخْمَصَيْنِ(٤)، مَسِيحَ القَدَمَيْنِ يَنْبُو عَنْهُمَا المَاءُ(٥)، إِذَا زَالَ زَالَ قُلْعًا(٦)، يَخْطُو تَكَفُّؤًا(٧) وَيَمْشِي هَوْنًا(٨)، ذَرِيعَ المِشْيَةِ(٩)، إِذَا مَشَى كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ(١٠)، وَإِذَا التَفَتَ التَفَتَ جَمِيعًا(١١)، خَافِضَ الطَّرْفِ(١٢)، نَظَرُهُ إِلَى الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ(١٣)، جُلُّ(١٤) نَظَرِهِ المُلاحَظَةُ(١٥)، يَسُوقُ

---

(١) الزندان: العظمان اللذان يليان الكف من الذراع، رأس أحدهما يلي الإبهام، ورأس الآخر يلي الخنصر.

(٢) الراحة: الكف، ورَحْبُهَا: سَعَتها، وهو دليل الجود، كما أن ضيقها وصغرها دليل البخل.

(٣) الشثن: الغليظ الأطراف والأصابع وكونها سائلة، أي: ليست بمنعقدة ولا متجعدة، فهي مع غلظها سهلة سبطة. والقصب: جمع القصبة وهي كل عظم أجوف فيه مخ. والسبط: الممتد في استواء ليس فيه تعقد ولا نتوء، ويوصف به الشعر والأعضاء والجلد.

(٤) الأخمص من القدم: الموضع الذي لا يصل إلى الأرض منها عند الوطء، والخمصان المبالغ منه أي: أن ذَلِكَ الموضع من رجله شديد التجافي عن الأرض.

(٥) مسيح القدمين: أي: أن ظاهرهما ممسوح غير منعقد، فإذا صب عليهما الماء مر سريعًا لملاستهما فينبو عنهما الماء ولا يقف.

(٦) قلعًا، ويروى «قِلَعًا»، والتقلع من الأرض قريب بعضه من بعض، أراد: أَنَّهُ كان يستعمل التثبت ولا يبين منه في هذه الحال استعجال ومبادرة شديدة، وقد جاءت صفته في حديث آخر: «إذا مشى تقلع» أراد به قوة مشيه، وأنه كان يرفع رجليه من الأرض رفعًا قويًا لا كمن يمشي اختيالًا ويقارب خطوه، فإن ذَلِكَ من مشي النساء ويوصفن به.

(٧) التكفؤ: تمايل الماشي إلى الأمام، والأصل في التكفؤ إذا كان مهموزًا أن يكون بضم الفاء، وإذا كان معتلًا – أي بتسهيل الهمزة – فيكون بكسرها، أفاده ابن الأثير في «منال الطالب».

(٨) الهون: المشي في رفق ولين غير مختال ولا معجب.

(٩) الذريع: السريع، أي أَنَّهُ كان واسع الخطو فيسرع مشيه.

(١٠) الصبب: الموضع المنحدر من الأرض، وذلك دليلٌ على سرعة مشيه لأن المنحدر لا يكاد يثبت في مشيه.

(١١) وَإِذَا الْتَفَتَ الْتَفَتَ جَمِيعًا: أي: لم يكن يلوي عنقه ورأسه إذا أراد أن يلتفت إلى ورائه، فعل الطائش العَجِل، إنما يدير بدنه كله و ينظر، وقيل: أراد أَنَّهُ كان لا يسارق النظر.

(١٢) الطرف: العين، خفض الطرف: ضد رفعه، وهو الغض منه والإطراق.

(١٣) نَظَرُهُ إِلَى الأَرْضِ أَطْوَلُ مِنْ نَظَرِهِ إِلَى السَّمَاءِ: تفسير لخفض الطرف والملاحظة.

(١٤) جل الشيء: معظمه وأكثره.

(١٥) الملاحظة: أن ينظر الرجل بلحظ عينه وهو شقها الذي يلي الصدغ والأُذن، ولا يحدق إلى =

أَصْحَابَهُ(١)، يَبْدُرُ مَنْ لَقِيَ بِالسَّلامِ.

قُلْتُ: صِفْ لِي مَنْطِقَهُ.

قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ(٢)، طَوِيلَ السَّكْتِ(٣) لا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الكَلامَ وَيَخْتِمُهُ بِأَشْدَاقِهِ(٤)، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ(٥)، فَصْلٌ(٦) لا فُضُولَ وَلا تَقْصِيرَ(٧)، دَمِثٌ(٨) لَيْسَ بِالجَافِي(٩) وَلا المُهِينِ(١٠)، يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ(١١)، وَإِنْ دَقَّتْ(١٢) لا يَذِمُّ مِنْهَا شَيْئًا لا يَذِمُّ ذَوَّاقًا(١٣)، وَلا يَمْدَحُهُ وَلا تُغْضِبُهُ الدُّنْيَا، وَلا مَا كَانَ لَهَا فَإِذَا تُعُوطِيَ الحَقَّ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ(١٤)، وَلَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ(١٥)، لا يَغْضَبُ لِنَفْسِهِ، وَلا يَنْتَصِرُ لَهَا،

= الشيء تحديقًا.

(١) **يَسُوقُ أَصْحَابَهُ**: أي: يقدمهم أمامه، ويمشي وراءهم.

(٢) **مُتَوَاصِلَ الأَحْزَانِ، دَائِمَ الفِكْرَةِ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ**: لاهتمامه بأمر الدين والقيام بها بعث به وكُلف تبليغه وخوفه من أمور الآخرة.

(٣) **السكت**: السكوت.

(٤) **الأشداق**: جمع شدق، وهو جانب الفم وإنها يتكلم الرجل بأشداقه لرحبها وسعتها، والعرب تمتدح بذلك.

(٥) **جوامع الكلم**: هي القليلة الألفاظ الكثيرة المعاني.

(٦) **القول الفصل**: هُوَ البيّن الظاهر المُحكم الذي لا يُعاب قائله.

(٧) **الفضول من الكلام**: ما زاد عن الحاجة وفَضُل.

(٨) **الدمث**: السهل الليّن الخُلق.

(٩) **الجافي**: المعرض المتباعد عن النَّاس.

(١٠) **المهين**: بضم الميم، من المهانة وهي الإذلال، والاطراح، أي: لا يهين أحدًا من أصحابه أو من النَّاس، وبفتح الميم: من المهانة وهي الحقارة والصغر.

(١١) **يُعَظِّمُ النِّعْمَةَ**: لا يستصغر شيئًا أوتيه وإن كان صغيرًا.

(١٢) **دق الشيء**: إذا صغر مقداره.

(١٣) **الذواق**: اسم ما يُذاق باللسان، أي: لا يصف الطعام بطيب ولا بشاعة.

(١٤) **فَإِذَا تُعُوطِيَ الحَقَّ لَمْ يَعْرِفْهُ أَحَدٌ**: أي: إذا نيل من الحق أو أهمل أو تعرض للقدح فيه تنكَّر عليهم وخالف عادته معهم حَتَّى لا يكاد يعرفه أحد منهم.

(١٥) **وَلَمْ يَقُمْ لِغَضَبِهِ شَيْءٌ حَتَّى يَنْتَصِرَ لَهُ**: أي: لا يثبت لغضبه شيء حَتَّى ينتصر للحق، والتعاطي الأخذ والتناول.

[...] أَشَارَ أَشَارَ بِكَفِّهِ كُلِّهَا، وَإِذَا تَعَجَّبَ قَلَبَهَا، وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا(١) فَيَضْرِبُ [...]طِنِ رَاحَتِهِ الْيُمْنَى بَاطِنَ إِبْهَامِهِ الْيُسْرَى(٢)، وَإِذَا غَضِبَ أَعْرَضَ وَأَشَاحَ(٣)، وَإِذَا [...]رِحَ غَضَّ طَرْفَهُ(٤) جُلُّ ضَحِكِهِ التَّبَسُّمُ،(٥) وَيَفْتَرُّ(٦) عَنْ مِثْلِ حَبِّ الْغَمَامِ(٧).

قَالَ: فَكَتَمْتُهَا الْحُسَيْنَ زَمَانًا، ثُمَّ حَدَّثْتُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي إِلَيْهِ، فَسَأَلَهُ عَمَّا [...]تُهُ عَنْهُ وَوَجَدْتُهُ قَدْ سَأَلَ أَبَاهُ عَنْ مَدْخَلِهِ وَمَجْلِسِهِ وَمَخْرَجِهِ وَشَكْلِهِ(٨) فَلَمْ يَدَعْ [...]نْهُ شَيْئًا.

فقال: كَانَ دُخُولُهُ لِنَفْسِهِ مَأْذُونًا لَهُ فِي ذَلِكَ فَكَانَ إِذَا أَوَى(٩) إِلَى مَنْزِلِهِ جَزَّأَ [...]ـهُ دُخُولِهِ ثَلاثَةَ أَجْزَاءٍ(١٠): جُزْءٌ للهِ(١١)، وجزءٌ لأَهْلِهِ(١٢)، وجزءٌ لِنَفْسِهِ(١٣)، ثُمَّ [...] جَزَّءَهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى العَامَّةِ بِالخَاصَّةِ(١٤) فَلا يَدَّخِرُ عَنْهُمْ شَيْئًا.

---

(١) وَإِذَا تَحَدَّثَ اتَّصَلَ بِهَا: أي: أَنَّهُ كان يشير بكفه إلى حديثه.

(٢) جملة «فَيَضْرِبُ بِبَاطِنِ رَاحَتِهِ الْيُمْنَى بَاطِنَ إِبْهَامِهِ الْيُسْرَى»: تفسير لما قبله.

(٣) أشاح: بالغ في الإعراض وجدَّ فيه، أي: إذا غضب لم يكن ينتقم ويؤاخذ، بل يقنع بالإعراض عمن أغضبه.

(٤) وَإِذَا فَرِحَ غَضَّ طَرْفَهُ: دليل على نفي البطر والأشر.

(٥) التبسم: أقل الضحك وأدناه.

(٦) يفتر: أي: يكشف عند التبسم عن أسنانه من غير قهقهة.

(٧) الغمام: السحاب وحَبّه: البرد.

(٨) الشكل هنا: السِّيرة والطريقة.

(٩) أوى: رجع.

(١٠) أجزاء: أقسام.

(١١) جُزء لله: هُوَ اشتغاله بعبادته ومناجاته في ليله ونهاره.

(١٢) جزء لأهله: هُوَ الوقت الذي يصحبهم ويعاشرهم فيه.

(١٣) جزء لنفسه: هُوَ الذي لا يتعبد فيه ولا يعاشر أهله، فقسمه بقسمين بينه وبين النَّاس.

(١٤) فَيَرُدُّ ذَلِكَ عَلَى الْعَامَّةِ بِالْخَاصَّةِ: أراد أن العامة كانت لا تصل إليه في هذا الوقت فكانت الخاصة تخبر العامة بما سمعت منه، فكأنه أوصل الفوائد إلى العامة بالخاصة، وقيل: إن الباء في الخاصة بمعنى «من» أي: يجعل وقت العامة بعد وقت الخاصة وبدلًا منهم.

وذَكَرَ دُخولَ أصحَابِهِ عَليهِ فَقَالَ: يَدخُلُونَ رُوَّادًا(١) ولا يَفترقُونَ إلَّا عَنْ ذَوَاقٍ(٢)، ويَخرُجُونَ أدِلَّةً(٣)، وَذَكَرَ مَجلِسَهُ فَقَال: مَجْلِسُ حِلْمٍ وَحَيَاءٍ، وَصَبرٍ وَأَمَانَةٍ، لا تُرْفَعُ فِيهِ الأَصْوَاتُ، وَلا تُؤْبَنُ(٤) فِيهِ الحُرُمُ(٥)، وَلا تُنثَى فَلَتَاتُهُ(٦)، إِذَا تَكَلَّمَ أَطْرَقَ(٧) جُلَسَاؤُهُ كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ(٨)، وَإِذَا سَكَتَ تَكَلَّمُوا، كَانَ دَائِمَ البِشْرِ(٩)، سَهْلَ الخَلْقِ، لَيِّنَ الجَانِبِ، لَيْسَ بِفَظٍّ(١٠) وَلا غَلِيظٍ وَلا سَخَّابٍ(١١) في الأسواق، وَلا فَحَّاشٍ وَلا عَيَّابٍ(١٢) وَلا مَدَّاحٍ وَلا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إلا مِنْ مُكَافِئٍ(١٣).

(٣) وعَن أبي هُرَيْرَةَ قَالَ: «مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ، وَكَانَ

---

(١) الرواد: جمع رائد، وهو الذي يتقدم القوم يكشف لهم حال الماء والمرعى قبل وصولهم.

(٢) ولا يَفترقُونَ إلَّا عَنْ ذَوَاقٍ: ضرب الذواق مثلًا لما ينالون عنده من الخير، أي: لا يتفرقون إلَّا عن علم يتعلمونه، يقوم لهم مقام الطعام والشراب، لأَنَّهُ يحفظ الأرواح كما يحفظان الأجسام.

(٣) ويَخرُجُونَ أدِلَّةً: جمع دليل، أي: يدلون النَّاس بما قَدْ علموه منه وعرفوه، يريد: أنهم يخرجون من عنده فقهاء، ويروى أدلة جمع دليل، يريد: يخرجون من عنده متواضعين متعظين بها سمعوا.

(٤) وَلا تُؤْبَنُ: لا تقذف ولا ترمي بعيب.

(٥) الحُرُمُ: جمع حرمة وهي المرأة وما يلزم الإنسان حفظه وصونه.

(٦) وَلا تُنثَى فَلَتَاتُهُ: أي: لا يُتحدَّثُ عن مجلسه بهفوة أو زلة إن حدثت فيه من بعض القوم، والفلتات: جمع فلتة، وهي الزلّة والسقطة، وقيل: معناه: أَنَّهُ لم تكن فيه فلتات فتثنى أي: تُذاع.

(٧) الإطراق: خفض الرأس وإدامة النظر إلى الأرض بين يديه.

(٨) كَأَنَّمَا عَلَى رُءُوسِهِمُ الطَّيْرُ: أراد وصفهم بالسكون والثبات في المجلس لأن الطير لا تسقط إلا عَلَى ساكن.

(٩) البِشْرِ: طلاقة الوجه وبشاشته.

(١٠) الفظ: السيئ الخُلق.

(١١) السخاب: من السخب وهو الضجة واضطرب الأصوات.

(١٢) لا فَحَّاشٍ وَلا عَيَّابٍ: الفحاش: مبالغة، من الفُحش في القول وعيب النَّاس والوقيعة فيهم. ولا عياب: أي لا يغتاب أحد.

(١٣) لا يَقْبَلُ الثَّنَاءَ إلا مِنْ مُكَافِئٍ: أراد أَنَّهُ كان إذا ابتدئ بثناء ومدح كره ذلك، وإذا اصطنع معروفًا فأثنى عليه مُثْنٍ وشكر له قبل ثناءه، وقيل: المعنى: أَنَّهُ لا يقبل الثناء عليه مِمَّن لا يعرف حقيقة إسلامه، ولا يكون من المنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم. وقيل: إِنَّهُ لا يقبل الثناء إلا من مقارب غير مجاوز حدّ مثله، ولا مقصّر عما رفعه الله إليه. والمكافأة: المجازاة عَلَى الشيء، والتكافؤ: التساوي.

كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي جَبْهَتِه[1]، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مِشْيَتِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَأَنَّمَا الأَرْضُ تُطْوَى لَهُ[2]، إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا[3] وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِث[4]» [5].

عباد الله...

كان هَذَا وصفًا دقيقًا لِخَلْقِ النَّبيِّ ﷺ وممَّا ينبغي التنبيه عليه والإشارة إليه، أن الله تعالى ما بعث نبيًّا إلَّا حَسَنَ الخَلْق والخُلُق، قَالَ تعالى: ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام: ١٢٤].

وسيأتي المزيد عن هَذَا الأمر بعد قليل إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

لا شكَّ أن البشر يتفاوتون فيما بينهم تفاوتًا كبيرًا في الخَلق والخُلُق، والمواهب، فمن البشر القبيح والجميل وبين ذَلِكَ، ومنهم الأعمى والأعور والمبصر بعينيه، والمبصرون يتفاوتون في جمال عيونهم وفي قوة أبصارهم، ومنهم الأصم والسميع

---

(١) وفي رواية البيهقي في «دلائل النبوة» : «كأن الشمس تجري في وجهه». قَالَ الحافظ ابن حجر في «الفتح»: قَالَ الطيبي: شبَّه جريان الشمس في فلكها بجريان الحُسن في وجهه ﷺ، وفيه عكس التشبيه للمبالغة، قَالَ: ويحتمل أن يكون من باب تناهي التشبيه جعل وجهه مقرًّا ومكانًا للشمس. انظر «فتح الباري» (٦/ ٦٦٢).

(٢) **الأَرْضُ تُطْوَى لَهُ**: أي: تقطع مسافتها بسهولة ويسر وسرعة. انظر «البداية والنهاية» لابن لأثير (٣/ ١٤٦) بتصرف.

(٣) **إِنَّا لَنُجْهِدُ أَنْفُسَنَا**: أي: نحمل عليها في السير، يُقال: جهد الرجل في الشيء، أي: جد فيه وبالغ. انظر «البداية والنهاية» لابن الأثير (١/ ٣١٩).

(٤) **وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِث**: أي: غير مبال.

(٥) رواه الترمذي برقم (٣٦٤٨)، والإمام أحمد في «المسند» (٢/ ٣٥٠، ٣٨٠)، وقال أحمد شاكر: إسناده صحيح. انظر «ترتيب المسند» (١٦/ ٢٤٨) برقم (٨٥٨٨).

وبين ذَلِكَ، ومنهم ساقط المروءة، ومنهم ذو المروءة والهمة العالية.

ولا شكَّ أنَّ الأنبياء والرسل يمثلون الكمال الإنساني في أرقى صوره، ذَلِكَ أنَّ الله اختارهم واصطفاهم لنفسه، فلابدَّ أن يختار أطهر البشر قلوبًا، وأزكاهم أخلاقًا، وأجودهم قريحة، ﴿الله أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

ولقد حذرنا الله تعالى من إيذاء الرسول ﷺ كما آذى بنو إسرائيل موسى، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّـهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِندَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾ [الأحزاب: ٦٩].

وقد بيّن لنا رسول الله ﷺ أن إيذاء بني إسرائيل لموسى كان باتهامهم إيَّاه بعيبٍ خلقي في جسده، ففي صحيح البخاري عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مُوسَى كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لَا يُرَى مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ، فَآذَاهُ مَنْ آذَاهُ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَقَالُوا: مَا يَسْتَتِرُ هَذَا التَّسَتُّرَ إِلَّا مِنْ عَيْبٍ بِجِلْدِهِ(١) إِمَّا بَرَصٌ وَإِمَّا أُدْرَةٌ(٢)، وَإِمَّا آفَةٌ، وَإِنَّ اللَّهَ أَرَادَ أَنْ يُبَرِّئَهُ مِمَّا قَالُوا لِمُوسَى، فَخَلَا يَوْمًا وَحْدَهُ فَوَضَعَ ثِيَابَهُ عَلَى الحَجَرِ ثُمَّ اغْتَسَلَ، فَلَمَّا فَرَغَ أَقْبَلَ إِلَى ثِيَابِهِ لِيَأْخُذَهَا وَإِنَّ الحَجَرَ عَدَا بِثَوْبِهِ، فَأَخَذَ مُوسَى عَصَاهُ عُرْيَانًا وَطَلَبَ الحَجَرَ فَجَعَلَ يَقُولُ: ثَوْبِي حَجَرُ، ثَوْبِي حَجَرُ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى مَلَإٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ فَرَأَوْهُ عُرْيَانًا أَحْسَنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ، وَأَبْرَأَهُ مِمَّا يَقُولُونَ، وَقَامَ الحَجَرُ فَأَخَذَ ثَوْبَهُ فَلَبِسَهُ وَطَفِقَ بِالحَجَرِ ضَرْبًا بِعَصَاهُ، فَوَاللَّهِ إِنَّ بِالحَجَرِ لَنَدَبًا مِنْ أَثَرِ ضَرْبِهِ ثَلَاثًا أَوْ أَرْبَعًا أَوْ خَمْسًا فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ آذَوْا مُوسَى فَبَرَّأَهُ اللَّهُ مِمَّا قَالُوا وَكَانَ عِنْدَ اللَّهِ وَجِيهًا﴾.

قَالَ ابن حجر العسقلاني معقبًا عَلَى الحديث: «وفيه أن الأنبياء في خَلقهم وخُلُقهم، عَلَى غاية الكمال، وأن مَن نسب نبيًّا إلى نقص في خلقته فقد آذاه، ويخشى عَلَى فاعله الكفر»(٣).

---

(١) هَذَا يوحى بأن اغتسال بني إسرائيل عراة كان جائزًا في شريعتهم.

(٢) مرض يصيب الخصيتين.

(٣) «فتح الباري» (٦/ ٤٣٨)، وانظر «الرُّسل والرسالات» د. عمر الأشقر (٧٨، ٧٩).

عباد الله...

وإتمامًا للفائدة، فهناك صفات أخرى لرسول الله ﷺ منها: خَاتَم النّبوّة:

عَنْ عَاصِمٌ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ سَرْجِسَ - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - قَالَ: «رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَكَلْتُ مَعَهُ خُبْزًا وَلَحْمًا، أَوْ قَالَ ثَرِيدًا. قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: أَسْتَغْفَرَ لَكَ النَّبِيُّ ﷺ؟ قَالَ: نَعَمْ وَلَكَ ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الآيَةَ: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [مُحَمَّد: ١٩]، قَالَ: ثُمَّ دُرْتُ خَلْفَهُ فَنَظَرْتُ إِلَى خَاتَمِ النُّبُوَّةِ بَيْنَ كَتِفَيْهِ عِنْدَ نَاغِضِ كَتِفِهِ[١] الْيُسْرَى جُمْعًا[٢] عَلَيْهِ خِيلَانٌ[٣] كَأَمْثَالِ الثَّآلِيلِ[٤]» [٥].

عَن جَابِرَ بْنَ سَمُرَةَ رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا قال: «كان وجْهُ رَسُول الله ﷺ مِثْلَ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ مُسْتَدِيرًا، وَرَأَيْتُ خَاتَمَهُ عِنْدَ كَتِفِهِ مِثْلَ بَيْضَةِ[٦] الْحَمَامَةِ يُشْبِهُ جَسَدَهُ» [٧].

عباد الله...

وبعد هذا الوصف الدقيق لصورة نبيِّنا ﷺ، بقي الحديث عن سيرته، وسائر شمائله، وهذا ما سوف نذكره في الخطب القادمة- إن شاء الله تعالى-.

اللَّهُمَّ إنَّا نسألك الجَنَّة، وما يقرب إليها من قول أو عمل، ونعوذ بك من النار، وما يقرب إليها من قول أو عمل.

آمين... آمين... آمين

---

(١) ناغض كتفه: قَالَ الجمهور: الناغض أعلى الكتف، وقيل: العظم الرقيق الذي على طرفه، وقيل: ما يظهر منه عند التحرك، سمي ناغضًا لتحركه.

(٢) جُمعًا: معناه: أَنَّهُ كجمع الكف وهو صورته بعد تجمع الأصابع وتضامها.

(٣) خيلان: جمع خال، وهو الشامة في الجسد.

(٤) الثآليل: جمع ثؤلول، وهي حبيبات تعلو الجسد. قَالَ القاضي عياض: وهذه الروايات متقاربة على أنها شاخص في جسده قدر ببضة الحمامة، وهو نحو بيضة الحجلة وزر الحجلة، وأما رواية جمع الكف فظاهرها المخالفة، فتؤول على وفق الروايات الكثيرة، ويكون معناه على هيئة جمع الكف لكنه أصغر منه في قدر بيضة الحمامة. أورد جميع ذَلِكَ النووي في شرحه على صحيح مسلم (١٥/ ٩٨، ٩٩).

(٥) رواه مسلم برقم (٢٣٤٦).

(٦) بيضة الحمامة: بيضتها المعروفة.

(٧) رواه مسلم برقم (٢٣٤٤/ ١٠٩).

الخطبة الستون:

نسب النَّبيِّ ﷺ وأسمائه ونشأته

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيِّ ﷺ ونتكلم اليوم إن شاء الله تعالى عن:

- نسبه.
- وأسمائه.

والله الموفّق لما يُحبّ ويَرضى.

عباد الله...

أما عن نسبه الشريف ﷺ :

فيقول الإمام ابن القيّم - رحمه الله -: «هُوَ خَيرُ أَهلِ الأَرضِ نَسَبًا عَلَى الإِطلَاقِ، فَلِنَسَبِهِ مِن الشَّرَفِ أَعلَى ذِروَةٍ وَأَعدَاؤُهُ كَانُوا يَشهَدُونَ لَهُ بِذَلِكَ، وَلِهَذَا شَهِدَ لَهُ بِهِ عَدُوُّهُ إذ ذَاكَ أَبُو سُفيَانَ بَينَ يَدَي مَلِكِ الرّومِ[1]، فَأَشرَفُ القَومِ قَومُهُ وَأَشرَفُ القَبَائِلِ قَبِيلَتُهُ وَأَشرَفُ الأَفخَاذِ فَخِذُهُ.

فَهُوَ مُحَمّدُ بنُ عَبدِ الله بنِ عَبدِ المُطّلِبِ بنِ هَاشِمِ بنِ عَبدِ مَنَافِ بنِ قُصَيّ بنِ كِلَابِ بنِ مُرّةَ بنِ كَعبِ بنِ لُؤَيّ بنِ غَالِبِ بنِ فِهرِ بنِ مَالِكِ بنِ النّضرِ بنِ كِنَانَةَ بنِ خُزَيمَةَ بنَ مُدرِكَةَ بنِ إليَاسَ بنِ مُضَرَبنِ نِزَارِ بنِ مَعدِ بنِ عَدنَانَ.

إلَى هَاهُنَا مَعلُومُ الصّحّةِ مُتّفَقٌ عَلَيهِ بَينَ النّسّابِينَ وَلَا خِلَافَ فِيهِ البَتّةَ وَمَا فَوقَ «عَدنَانَ» مُختَلَفٌ فِيهِ. وَلَا خِلَافَ بَينِهِم أَنّ «عَدنَانَ» مِن وَلَدِ إسمَاعِيلَ وَإِسمَاعِيلَ: هُوَ الذّبِيحُ عَلَى القَولِ الصّوَابِ عِندَ عُلَمَاءِ الصّحَابَةِ وَالتّابِعِينَ وَمَن بَعدَهُم.

وَأَمّا القَولُ بِأَنّهُ إسحَاقُ فَبَاطِلٌ بِأَكثَرَ مِن عِشرِينَ وَجهًا، وَسَمِعت شَيخَ الإِسلَامِ ابنَ تَيمِيّةَ - قَدّسَ اللّهُ رُوحَهُ - يَقُولُ: هَذَا القَولُ إنّمَا هُوَ مُتَلَقّى عَن أَهلِ الكِتَابِ مَعَ أَنّهُ بَاطِلٌ بِنَصّ كِتَابِهِم فَإِنّ فِيهِ إنّ الله أَمَرَ إبرَاهِيمَ أَن يَذبَحَ ابنَهُ بِكرَهُ، وَفِي لَفظٍ: وَحِيدَهُ. وَلَا يَشُكّ أَهلُ الكِتَابِ مَعَ المُسلِمِينَ أَنّ إسمَاعِيلَ هُوَ بِكرُ أَولَادِهِ، وَالّذِي غَرّ أَصحَابَ هَذَا القَولِ أَنّ فِي التّورَاةِ الّتِي بِأَيدِيهِم: «اذبَح ابنَك إسحَاقَ»، قَالَ: وَهَذِهِ الزّيَادَةُ مِن تَحرِيفِهِم وَكَذِبِهِم لِأَنّهَا تُنَاقِضُ قَولَهُ: «اذبَح بِكرَك وَوَحِيدَك»، وَلَكِنّ اليَهُودَ حَسَدَت بَنِي إسمَاعِيلَ عَلَى هَذَا الشّرَفِ وَأَحَبّوا أَن يَكُونَ هُم وَأَن يَسُوقُوهُ إلَيهِم وَيَحتَازُوهُ لِأَنفُسِهِم دُونَ العَرَبِ، وَيَأبَى اللّهُ إلّا أَن يَجعَلَ فَضلَهُ لِأَهلِهِ. وَكَيفَ يَسُوغُ أَن يُقَالَ: «إنّ الذّبِيحَ إسحَاقُ» وَاللّهُ تَعَالَى قَد بَشّرَ أُمّ إسحَاقَ بِهِ وَبِابنِهِ يَعقُوبَ فَقَالَ تَعَالَى عَن المَلَائِكَةِ إنّهُم قَالُوا لِإِبرَاهِيمَ لَمّا أَتَوهُ بِالبُشرَى: ﴿لَا تَخَف إِنّا أُرسِلنَا إِلَى قَومِ لُوطٍ وَامرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَت فَبَشّرنَاهَا

(١) انظر الحديث بتمامه في «صحيح البخاري» (٧).

بِإِسحَاقَ وَمِن وَرَاءِ إِسحَاقَ يَعقُوبَ ﴾ [هُود: ٧٠، ٧١]، فَمُحَالٌ أَن يُبَشِّرَهَا بِأَنَّهُ يَكُونُ لَهَا وَلَدٌ ثُمّ يَأمُرُ بِذَبحِهِ وَلَا رَيبَ أَنّ يَعقُوبَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهُ دَاخِلٌ فِي البِشَارَةِ فَتَنَاوُلُ البِشَارَةِ لِإِسحَاقِ وَيَعقُوبَ فِي اللّفظِ وَاحِدٌ وَهَذَا ظَاهِرُ الكَلَامِ وَسِيَاقُهُ.

فَإِن قِيلَ: لَو كَانَ الأَمرُ كَمَا ذَكَرتُمُوهُ لَكَانَ «يَعقُوبُ» مَجرُورًا عَطفًا عَلَى «إِسحَاقَ» فَكَانَت القِرَاءَةُ «وَمِن وَرَاءِ إِسحَاقَ يَعقُوبَ» أَي: وَيَعقُوبُ مِن وَرَاءِ إِسحَاقَ.

قِيلَ: لَا يَمنَعُ الرّفعُ أَن يَكُونَ يَعقُوبُ مُبَشّرًا بِهِ لِأَنّ البِشَارَةَ قَولٌ مَخصُوصٌ وَهِيَ أَوّلُ خَبَرٍ سَارّ صَادِقٍ. وَقَولُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِن وَرَاءِ إِسحَاقَ يَعقُوبَ﴾ جُملَةٌ مُتَضَمّنَةٌ لِهَذِهِ القُيُودِ فتكُونُ بِشَارَةً بَل حَقِيقَةُ البِشَارَةِ هِيَ الجُملَةُ الخَبَرِيّةُ.

وَلَمّا كَانَت البِشَارَةُ قَولًا، كَانَ مَوضِعُ هَذِهِ الجُملَةِ نَصبًا عَلَى الحِكَايَةِ بِالقَولِ كَأَنّ المَعنَى: وَقُلنَا لَهَا: مِن وَرَاءِ إِسحَاقَ يَعقُوبُ، وَالقَائِلُ إِذَا قَالَ: «بَشّرتُ فُلَانًا بِقُدُومِ أَخِيهِ وَثِقَلِهِ فِي أَثَرِهِ» لَم يُعقَل مِنهُ إِلّا بِشَارَتُهُ بِالأَمرَينِ جَمِيعًا. هَذَا مِمّا لَا يَستَرِيبُ ذُو فَهمٍ فِيهِ البَتّةَ ثُمّ يُضعِفُ الجَرّ أَمرٌ آخَرُ وَهُوَ ضَعفُ قَولِك: «مَرَرت بِزَيدٍ وَمِن بَعدِهِ عَمرٍو» وَلِأَنّ العَاطِفَ يَقُومُ مَقَامَ حَرفِ الجَرّ فَلَا يُفصَلُ بَينَهُ وَبَينَ المَجرُورِ كَمَا لَا يُفصَلُ بَينَ حَرفِ الجَرّ وَالمَجرُورِ.

وَيَدُلّ عَلَيهِ أَيضًا: أَنّ الله سُبحَانَهُ لَمّا ذَكَرَ قِصّةَ إِبرَاهِيمَ وَابنَهُ الذّبِيحِ فِي سُورَةِالصّافّاتِ قَالَ: ﴿فَلَمّا أَسلَمَا وَتَلّهُ لِلجَبِينِ وَنَادَينَاهُ أَن يَا إِبرَاهِيمُ قَد صَدّقتَ الرّؤيَا إِنّا كَذَلِكَ نَجزِي المُحسِنِينَ إِنّ هَذَا لَهُوَ البَلَاءُ المُبِينُ وَفَدَينَاهُ بِذِبحٍ عَظِيمٍ وَتَرَكنَا عَلَيهِ فِي الآخِرِينَ سَلَامٌ عَلَى إِبرَاهِيمَ كَذَلِكَ نَجزِي المُحسِنِينَ إِنّهُ مِن عِبَادِنَا المُؤمِنِينَ﴾ [الصّافّاتُ ١٠٣ - ١١١]. ثُمّ قَالَ تَعَالَى: ﴿وَبَشّرنَاهُ بِإِسحَاقَ نَبِيّا مِنَ الصّالِحِينَ﴾ [الصّافّاتُ: ١١٢]. فَهَذِهِ بِشَارَةٌ مِن الله تَعَالَى لَهُ شُكرًا عَلَى صَبرِهِ عَلَى مَا أَمَرَ بِهِ وَهَذَا ظَاهِرٌ جِدًّا فِي أَنّ المُبَشّرَ بِهِ غَيرُ الأَوّلِ بَل هُوَ كَالنّصّ فِيهِ.

فَإِن قِيلَ: فَالبِشَارَةُ الثّانِيَةُ وَقَعَت عَلَى نُبُوّتِهِ أَي لَمّا صَبَرَ الأَبُ عَلَى مَا أُمِرَ بِهِ وَأَسلَمَ الوَلَدُ لِأَمرِ الله جَازَاهُ الله عَلَى ذَلِكَ بِأَن أَعطَاهُ النّبُوّةَ.

قِيلَ: البِشَارَةُ وَقَعَت عَلَى المَجمُوعِ عَلَى ذَاتِهِ وَوُجُودِهِ وَأَن يَكُونَ نَبِيّا وَلِهَذَا نُصِبَ ﴿نَبِيّا﴾ عَلَى الحَالِ المُقَدّرِ، أَي: مُقَدّرًا نُبُوّتَهُ فَلَا يُمكِنُ إِخرَاجُ البِشَارَةِ أَن

تَنْعَ عَلَى الأَصلِ، ثُمّ تُخَصّ بِالحَالِ التّابِعَةِ الجَارِيَةِ مجرَى الفَضلَةِ هَذَا مُحَالٌ مِن كَلَام بَل إذَا وَقَعَت البِشَارَةُ عَلَى نُبُوّتِهِ فَوُقُوعُهَا عَلَى وُجُودِهِ أَولَى وَأَحرَى.

وأيضًا فلا رَيب أن الذّبيح كان بمكّة، وَلِذَلِكَ جُعِلَت القَرَابِينُ يَومَ النّحرِ بِهَا كَمَ جُعِلَ السّعيُ بَينَ الصّفَا وَالمَروَةِ وَرَميُ الجِمَارِ تَذكِيرًا لِشَأنِ إسمَاعِيلَ وَأُمّهِ إِقَامَةً لِذِكرِ الله، وَمَعلُومٌ أَنّ إسمَاعِيلَ وَأُمّهُ هُمَا اللّذَانِ كَانَا بِمَكّةَ دُونَ إسحَاقَ وَأُمّهِ، وَلِهَذَا اتّصَلَ مَكَانُ الذّبحِ وَزَمَانُهُ بِالبَيتِ الحَرَام الّذِي اشتَرَكَ فِي بِنَائِهِ إِبرَاهِيمُ وَإِسمَاعِيلُ، وَكَانَ النّحرُ بِمَكّةَ مِن تَمَام حَجّ البَيتِ الّذِي كَانَ عَلَى يَدِ إِبرَاهِيمَ وَابنِهِ إسمَاعِيلَ زَمَانًا وَمَكَانًا، وَلَو كَانَ الذّبحُ بِالشّامِ كَمَا يَزعُمُ أَهلُ الكِتَابِ وَمَن تَلَقّى عَنهُم لَكَانَت القَرَابِينُ وَالنّحرُ بِالشّامِ لَا بِمَكّةَ.

وَأَيضًا فَإِنّ الله سُبحَانَهُ سَمّى الذّبِيحَ حَلِيمًا؛ لِأَنّهُ لَا أَحلَمَ مِمّن أَسلَمَ نَفسَهُ لِلذّبحِ طَاعَةً لِرَبّهِ.

وَلَمّا ذَكَرَ إسحَاقَ سَمّاهُ عَلِيمًا فَقَالَ تَعَالَى: ﴿**هَل أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيفِ إِبرَاهِيمَ المُكرَمِينَ إِذ دَخَلُوا عَلَيهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ قَومٌ مُنكَرُونَ**﴾ [الذّاريَاتُ: ٢٤، ٢٥] إِلَى أَن قَالَ: ﴿**قَالُوا لَا تَخَف وَبَشّرُوهُ بِغُلَام عَلِيم**﴾ [الذّاريَاتُ: ٢٨]، وَهَذَا إسحَاقُ بِلَا رَيبٍ لِأَنّهُ مِن امرَأَتِهِ وَهِيَ المُبَشّرَةُ بِهِ وَأَمّا إسمَاعِيلُ فَمِن السّرّيّةِ.

وَأَيضًا فَإِنّهُمَا بُشّرَا بِهِ عَلَى الكِبَرِ وَاليَأسِ مِن الوَلَدِ وَهَذَا بِخِلَافِ إسمَاعِيلَ فَإِنّهُ وُلِدَ قَبلَ ذَلِكَ.

وَأَيضًا فَإِنّ الله سُبحَانَهُ أَجرَى العَادَةَ البَشَرِيّةَ أَنّ بِكرَ الأَولَادِ أَحَبّ إِلَى الوَالِدَينِ مِمّن بَعدَهُ، وَإِبرَاهِيمُ عَلَيهِ السّلَامُ لَمّا سَأَلَ رَبّهُ الوَلَدَ وَوَهَبَهُ لَهُ تَعَلّقَت شُعبَةٌ مِن قَلبِهِ بِمَحَبّتِهِ، وَاللهُ تَعَالَى قَد اتّخَذَهُ خَلِيلًا وَالخُلّةُ مَنصِبٌ يَقتَضِي تَوحِيدَ المَحبُوبِ بِالمَحَبّةِ وَأَن لَا يُشَارِكُ بَينَهُ وَبَينَ غَيرِهِ فِيهَا، فَلَمّا أَخَذَ الوَلَدُ شُعبَةً مِن قَلبِ الوَالِدِ جَاءَت غَيرَةُ الخُلّةِ تَنتَزِعُهَا مِن قَلبِ الخَلِيلِ، فَأَمَرَهُ بِذَبحِ المَحبُوبِ، فَلَمّا أَقدَمَ عَلَى ذَبحِهِ وَكَانَت مَحَبّةُ الله أَعظَمَ عِندَهُ مِن مَحَبّةِ الوَلَدِ خَلَصَت الخُلّةُ حِينَئِذٍ مِن شَوَائِبِ المُشَارَكَةِ، فَلَم يَبقَ فِي الذّبحِ مَصلَحَةٌ إذ كَانَت المَصلَحَةُ إنّمَا هِيَ فِي العَزمِ وَتَوطِينِ النّفسِ عَلَيهِ، فَقَد حَصَلَ المَقصُودُ فَنُسِخَ الأَمرُ وَفُدِيَ الذّبِيحُ وَصَدّقَ

الخَلِيلُ الرّؤيَا وَحَصَلَ مُرَادُ الرّبّ.

ومعلوم أن هذا الامتحان والاختبار إنما حَصَلَ عِندَ أَوّلِ مَولُودٍ وَلَم يَكُن لِيَحصُلَ فِي المَولُودِ الآخَرِ دُونَ الأَوّلِ بَل لَم يَحصُل عِندَ المَولُودِ الآخَرِ مِن مُزَاحَمَةِ الخُلّةِ مَا يَقتَضِي الأَمرَ بِذَبحِهِ وَهَذَا فِي غَايَةِ الظّهُورِ.

وَأَيضًا فَإِنّ سَارَةَ امرَأَةُ الخَلِيلِ ﷺ غَارَت مِن هَاجَرَ وَابنِهَا أَشَدّ الغَيرَةِ، فَإِنّهَا كَانَت جَارِيَةً، فَلَمّا وَلَدَت إِسمَاعِيلَ وَأَحَبّهُ أَبُوهُ اشتَدّت غَيرَةُ «سَارَةَ» فَأَمَرَ اللهُ سُبحَانَهُ أَن يُبعِدَ عَنهَا «هَاجَرَ» وَابنَهَا وَيُسكِنَهَا فِي أَرضِ مَكّةَ لِتَبرُدَ عَن «سَارَةَ» حَرَارَةُ الغَيرَةِ، وَهَذَا مِن رَحمَتِهِ تَعَالَى وَرَأفَتِهِ، فَكَيفَ يَأمُرُهُ سُبحَانَهُ بَعدَ هَذَا أَن يَذبَحَ ابنَهَا وَيَدَعَ ابنَ الجَارِيَةِ بِحَالِهِ؟! هَذَا مَعَ رَحمَةِ الله لَهَا وَإِبعَادِ الضّرَرِ عَنهَا وَجَبرِهِ لَهَا، فَكَيفَ يَأمُرُ بَعدَ هَذَا بِذَبحِ ابنِهَا دُونَ ابنِ الجَارِيَةِ؟! بَل حِكمَتُهُ البَالِغَةُ اقتَضَت أَن يَأمُرَ بِذَبحِ وَلَدِ السّرّيّةِ، فَحِينَئِذٍ يَرِقّ قَلبُ السّيّدَةِ عَلَيهَا وَعَلَى وَلَدِهَا وَتَتَبَدّلُ قَسوَةُ الغَيرَةِ رَحمَةً، وَيَظهَرُ لَهَا بَرَكَةُ هَذِهِ الجَارِيَةِ وَوَلَدِهَا، وَأَنّ الله لَا يُضِيعُ بَيتًا هَذِهِ وَابنُهَا مِنهُم، وَلِيُرِيَ عِبَادَهُ جَبرَهُ بَعدَ الكَسرِ، وَلُطفَهُ بَعدَ الشّدّةِ، وَأَنّ عَاقِبَةَ صَبرِ «هَاجَرَ» وَابنِهَا عَلَى البُعدِ وَالوَحدَةِ وَالغُربَةِ وَالتّسلِيمِ إِلَى ذَبحِ الوَلَدِ آلَت إِلَى مَا آلَت إِلَيهِ مِن جَعلِ آثَارِهِمَا وَمَوَاطِئِ أَقدَامِهِمَا مَنَاسِكَ لِعِبَادِهِ المُؤمِنِينَ وَمُتَعَبّدَاتٍ لَهُم إِلَى يَومِ القِيَامَةِ، وَهَذِهِ سُنّتُهُ تَعَالَى فِيمَن يُرِيدُ رَفعَهُ مِن خَلقِهِ أَن يَمُنّ عَلَيهِ بَعدَ استِضعَافِهِ وَذُلّهِ وَانكِسَارِهِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَمُنّ عَلَى الّذِينَ استُضعِفُوا فِي الأَرضِ وَنَجعَلَهُم أَئِمّةً وَنَجعَلَهُمُ الوَارِثِينَ﴾ [القَصَصُ: ٥] وَذَلِكَ فَضلُ الله يُؤتِيهِ مَن يَشَاءُ، واللهُ ذُو الفَضلِ العَظِيمِ» ا.هـ. (١)

عباد الله...

لماذا اصطفى الله تعالى نبيّه ﷺ من بني هاشم من قريش؟

والجواب: لأنه أشرف الأنساب، والدليل على ذَلِكَ من القُرآن والسُّنة:

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٥٣ - ٥٦).

الدليل من القُرآن:

١- يقول الله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨]، قُرأت بفتح الفاء، أي: من أشرفكم نسبًا وصهرًا وحسبًا.

وروى ابن مَردويه عن أنسٍ رضي الله عنه قال: «قرأ رسول الله ﷺ «**لَقَد جَاءَكُم رَسُولٌ مِّن أنفَسكُم**» - بفتح الفاء - وقال: «**أنا أنفَسكُم نسبًا وصِهرًا وحَسبًا**» [١].

وفسَّرها ابن جنِّي فقال: معناه: من خياركم.

٢- وقال تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩].

والمعنى: هل منعهم من اتباع الحقّ أن رسولهم مُحَمَّدًا ﷺ غير معروف عندهم فهم منكرون له؟![٢].

ومن الأحاديث:

١- حديث هرقل مع أبي سفيان وسؤاله إيَّاه عن رسول الله ﷺ، وفيه: «قَالَ هرقل: كَيْفَ نَسَبُهُ فِيكُمْ؟ قَالَ أبو سفيان - وكان مشركًا حينذاك -: هُوَ فِينَا ذُو نَسَبٍ»، ثُمَّ قَالَ هرقل: «فَكَذَلِكَ الرُّسُلُ تُبْعَثُ فِي نَسَبِ قَوْمِهَا» [٣].

٢- حديث أبي هريرة - رَضِي الله عَنْهُ - في «صحيح البخاري» قَالَ: قَالَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ: «**بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى كُنْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ**» [٤].

٣- حديث وَاثِلَةَ بْنَ الأَسْقَعِ - رَضِي الله عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَعِيلَ وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ**» [٥].

---

(١) الحديث ذكره صاحب كتاب «سبل الهدى والرشاد» (١/ ٢٧٧)، وهي قراءة عبد الله بن قسيط المكيّ.

(٢) راجع «تفسير السعدي» (ص٥٠٥).

(٣) البخاري «كتاب بدء الوحي» (٧).

(٤) البخاري، [كتاب الأنبياء - باب صفة النبي ﷺ رقم (٣٥٥٧) الفتح (٦/ ٦٥٣)].

(٥) رواه مسلم.

٤- وروى أحمد والترمذي عَنِ الْمُطَّلِبِ بْنِ أَبِي وَدَاعَةَ قَالَ: قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «**أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ فِرْقَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا فَجَعَلَنِي فِي خَيْرِهِمْ بَيْتًا وَخَيْرِهِمْ نَسَبًا**» (١).

يقول د. علي مُحَمَّد الصَّلابي في كتابه «السِّيرة النبويّة»: «لقد كان وما زال شرف النسب له المكانة في النفوس، لأن ذا النسب الرفيع لا تنكر عليه الصدارة، نبوةً كانت أو مُلكًا، ويُنكر ذلك عَلَى وضيع النسب، فيأنف الكثيرون من الانضواء تحت لوائه، ولما كان مُحَمَّد ﷺ يُعدُّ للنبوّة هيأ الله تعالى له شرف النسب ليكون مساعدًا له عَلَى التفاف النَّاس حوله» ا.هـ(٢).

ومن فوائد تعلُّم النَّسب:

الاقتداء بالسلف، وصلة الأرحام، وغير ذلك من المصالح، ومن الأدلة عَلَى ذلك:

١- قَالَ ابن سعد في «الطبقات»: حدثنا هشام بن الكلبي قَالَ: «علمني أبي وأنا غلامٌ نسب النبيّ ﷺ فقال: مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قُصي بن كِلاب بن مُرَّة بن كعب بن لُؤي بن غالب بن فِهر بن مالك ابن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مُدركة بن إلياس بن مضر».

٢- وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ - رَضِيَ الله عَنْهُ -: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «**تَعَلَّمُوا مِنْ أَنْسَابِكُمْ مَا تَصِلُونَ بِهِ أَرْحَامَكُمْ فَإِنَّ صِلَةَ الرَّحِمِ مَحَبَّةٌ فِي الأَهْلِ مَثْرَاةٌ فِي الْمَالِ مَنْسَأَةٌ فِي أَثَرِهِ**» (٣).

عباد الله...

وأما أسمائه ﷺ :

فيقول الإمام ابن القيّم- رحمه الله - عنها: «أسمائه ﷺ كُلّهَا نُعُوتٌ لَيسَت

(١) صحيح: صححه الألباني في «صحيح الجامع الصغير» (١٤٧٢).
(٢) «السِّيرة النبوية» د. الصلابي (١/ ٥٩).
(٣) رواه أحمد، والترمذي، والحاكم، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» رقم (٢٩٦٥).

أعلام مَحضَةً لِمُجَرّدِ التّعرِيفِ، بَل أَسَاءٌ مُشتَقّةٌ مِن صِفات قائمة به تُوجبُ له المدح والكمال.

فَمِنهَا: مُحَمّدٌ، وَهُوَ أَشهَرُهَا، وَبِهِ سُمّيَ فِي التّورَاةِ صَرِيحًا كَمَا بَيّنّاهُ بِالبُرهَانِ الوَاضِحِ فِي كِتَابِ «جَلَاءُ الأَفهَامِ فِي فَضلِ الصّلَاةِ وَالسّلَامِ عَلَى خَيرِ الأَنَامِ» وَهُوَ كِتَابٌ فَردٌ فِي مَعنَاهُ لَم يُسبَق إِلَى مِثلِهِ فِي كَثرَةِ فَوَائِدِهِ وَغَزَارَتِهَا، بَيّنّا فِيهِ الأَحَادِيثَ الوَارِدَةَ فِي الصّلَاةِ وَالسّلَام عَلَيهِ وَصَحِيحَهَا مِن حَسَنِهَا وَمَعلُولِهَا، وَبَيّنّا مَا فِي مَعلُولِهَا مِن العِلَلِ بَيَانًا شَافِيًا، ثُمّ أَسرَارَ هَذَا الدّعَاءِ وَشَرَفِهِ وَمَا اشتَمَلَ عَلَيهِ مِن الحِكَمِ وَالفَوَائِدِ، ثُمّ مَوَاطِنَ الصّلَاةِ عَلَيهَا وَمَحَالّهَا، ثُمّ الكَلَام فِي مِقدَارِ الوَاجِبِ مِنهَ. وَاختِلَافِ أَهلِ العِلمِ فِيهِ، وَتَرجِيحِ الرّاجِحِ وَتَزيِيفِ المُزَيّفِ، وَمُخبَرُ الكِتَابِ فَوقَ وَصفِهِ.

وَالمَقصُودُ: أَنّ اسمَهُ مُحَمّدٌ فِي التّورَاةِ صَرِيحًا بِمَا يُوَافِقُ عَلَيهِ كُلّ عَالِمٍ مِن مُؤمِنِي أَهلِ الكِتَابِ.

وَمِنهَا: أَحمَد، وَهُوَ الِاسمُ الّذِي سَمّاهُ بِهِ المَسِيحُ، لِسِرّ ذَكَرنَاهُ فِي ذَلِكَ الكِتَابِ.

وَمِنهَا: المُتَوَكّلُ، وَمِنهَا المَاحِي، وَالحَاشِرُ، وَالعَاقِبُ، وَالمُقَفّي، وَنَبِيّ التّوبَةِ، وَنَبِيّ الرّحمَةِ، وَنَبِيّ المَلحَمَةِ، وَالفَاتِحُ وَالأَمِينُ.

وَيَلحَقُ بِهَذِهِ الأَسمَاءِ: الشّاهِدُ، وَالمُبَشّرُ، وَالبَشِيرُ، وَالنّذِيرُ، وَالقَاسِمُ، وَالضّحُوكُ، وَالقَتّالُ، وَعَبدُ الله، وَالسّرَاجُ المُنِيرُ، وَسَيّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَصَاحِبُ لِوَاءِ الحَمدِ، وَصَاحِبُ المَقَام المَحمُودِ، وَغَيرِ ذَلِكَ مِن الأَسمَاءِ؛ لِأَنّ أَسمَاءَهُ إِذَا كَانَت أَوصَافَ مَدحٍ فَلَهُ مِن كُلّ وَصفٍ اسمٌ، لَكِن يَنبَغِي أَن يُفَرّقَ بَينَ الوَصفِ المُختَصّ بِهِ أَو الغَالِبِ عَلَيهِ، وَيُشتَقّ لَهُ مِنهُ اسمُ وَبَينَ الوَصفِ المُشتَرَكِ فَلَا يَكُونُ لَهُ مِنهُ اسمٌ يَخُصّهُ.

وَقَالَ جُبَيرُ بنُ مُطعَمٍ: سَمّى لَنَا رَسُول الله ﷺ نَفسَهُ أَسمَاءً فَقَالَ: «**أَنَا مُحَمّدٌ وَأَنَا أَحمَدُ وَأَنَا المَاحِي الّذِي يَمحُو اللّهُ بِي الكُفرَ وَأَنَا الحَاشِرُ الّذِي يُحشَرُ النّاسُ عَلَى قَدَمِي**

وَالعَاقِبُ الَّذِي لَيسَ بَعدَهُ نَبِيّ»[(١)].

وَأَسمَاؤُهُ ﷺ نَوعَانِ:

أَحَدُهُمَا: خَاصّ لَا يُشَارِكُهُ فِيهِ غَيرُهُ مِن الرّسُلِ؛ كَمُحَمّدٍ، وَأَحمَدَ، وَالعَاقِبِ، وَالحَاشِرِ، وَالمُقَفّي، وَنَبِيّ المَلحَمَةِ.

وَالثّانِي: مَا يُشَارِكُهُ فِي مَعنَاهُ غَيرُهُ مِن الرّسُلِ وَلَكِن لَهُ مِنهُ كَمَالُهُ، فَهُوَ مُختَصّ بِكَمَالِهِ دُونَ أَصلِهِ؛ كَرَسُولِ الله، وَنَبِيّهِ، وَعَبدِهِ، وَالشّاهِدِ، وَالمُبَشّرِ، وَالنّذِيرِ، وَنَبِيّ الرّحمَةِ، وَنَبِيّ التّوبَة.

وَأَمّا إن جُعِلَ لَهُ مِن كُلّ وَصفٍ مِن أَوصَافِهِ اسمٌ تَجَاوَزَت أَسمَاؤُهُ المِائَتَينِ؛ كَالصّادِقِ، وَالمَصدُوقِ، وَالرّءُوفِ الرّحِيمِ، إلَى أَمثَالِ ذَلِكَ. وَفِي هَذَا قَالَ مَن قَالَ مِن النّاسِ: «إنّ للهِ أَلفُ اسمٍ وَلِلنّبِيّ ﷺ أَلفُ اسم» قَالَهُ أَبُو الخَطّاب بنُ دِحيَةَ،وَمَقصُودُهُ الأَوصَافُ». ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

هذه أسماء نبيِّنا ﷺ، أمَّا شرح معانيها، فنلتقي بعد قليل إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فيقول **الإمامُ ابن القيّم** - رحمه الله - في شرحه لمعاني أسماء النَّبيِّ ﷺ:

«أمّا **مُحَمَّد**، فهو اسم مفعول، من حَمِدَ، فهو محمد، إذا كان كثيرَ الخصال التي يُحمد عليها، لذلك كان أبلغَ من محمود، فإن «محمودًا» من الثلاثي المجرد، ومحمد

(١) أخرجه البخاري (٤٨٩٦)، ومسلم (٢٣٥٤)، وغيرهما.
(٢) «زاد المعاد» (١/ ٦٨، ٦٩).

من المضاعف للمبالغة، فهو الذي يحمد أكثر مما يحمد غيره من البشر، ولهذا - والله أعلم - سمي به في التوراة، لكثرة الخصال المحمودة التي وُصِفَ بها هو ودينه وأمته في التوراة، حتى تَمَنّى موسى عليه الصلاة والسلام أن يكون منهم، وقد أتينا على هذا المعنى بشواهده هناك، وبينا غلط أبي القاسم السهيلي حيث جعل الأمر بالعكس، وأن اسمه في التوراة أحمد.

وأما أحمد، فهو اسم على زِنة أفعل التفضيل، مشتق أيضًا من الحمد. وقد اختلف الناس فيه: هل هو بمعنى فاعل أو مفعول؟ فقالت طائفة: هو بمعنى الفاعل، أي: حَمْدُه لله أكثرُ من حمد غيره له، فمعناه: أحمد الحامدين لربه، ورجحوا هذا القول بأن قياس أفعل التفضيل، أن يُصاغ من فعل الفاعل، لا من الفعل الواقع على المفعول، قالوا: ولهذا لا يقال: ما أضربَ زيدًا، ولا زيد أضرب من عمرو باعتبار الضرب الواقع عليه، ولا: ما أشرَبَه للماء، وآكله للخبز، ونحوه، قالوا: لأن أفعل التفضيل، وفعل التعجب، إنما يُصاغان من الفعل اللازم، ولهذا يقدر نقله من «فَعَلَ» و «فَعِلَ» المفتوح العين ومكسورها، إلى «فَعُلَ» المضموم العين.

قالُوا: ولهذا يعدَّى بالهمزة إلى المفعول، فهمزته للتعدية، كقولك: ما أظرفَ زيدًا، وأكرمَ عمرًا، وأصلهما: من ظَرُف، وَكَرُمَ. قالوا: لأن المتعجَّب منه فاعل في الأصل، فوجب أن يكون فعله غيرَ متعد، قالوا: وأما نحو: ما أضرب زيدًا لعمرو، فهو منقول من «فَعَلَ» المفتوح العين إلى «فَعُلَ» المضموم العين، ثم عُدي والحالة هذه بالهمزة.

قالوا: والدليل على ذلك مجيئهم باللام، فيقولون: ما أضرب زيدًا لعمرو، ولو كان باقيًا على تعديه، لقيل: مَا أضربَ زيدًا عمرًا، لأنه متعد إلى واحد بنفسه، وإلى الآخر بهمزة التعدية، فلما أن عدَّوه إلى المفعول بهمزة التعدية، عدَّوه إلى الآخر باللام، فهذا هو الذي أوجب لهم أن قالوا: إنهما لا يُصاغان إلا من فعل الفاعل، لا من الفعل الواقع على المفعول.

ونازعهم في ذلك آخرون، وقالوا: يجوز صوغُها من فعل الفاعل، ومن الواقع على المفعول، وكثرة السماع به من أبين الأدلة على جوازه، تقول العرب: ما أشغَلَه بالشيء، وهو من شُغِلَ، فهو مشغول وكذلك يقولون: ما أولَعه بكذا، وهو من أُولعَ بالشيء، فهو مُولَع به، مجني للمفعول ليس إلا، وكذلك قولهم: ما أعجبه بكذا، فهو من أُعجِبَ به، ويقولون: ما أحبه إلي، فهو تعجب من فعل المفعول، وكونه محبوبًا لك، وكذا: ما أبغضه إليَّ، وأمقته إليَّ.

وهاهنا مسألة مشهورة ذكرها سيبويه، وهي أنك تقول: ما أبغضني له، وما أحبني له، وما أمقتني له: إذا كنتَ أنتَ المبغِضَ الكارِه، والمحِب الماقِت، فتكون متعجبًا من فعل الفاعل، وتقول: ما أبغضني إليه، وما أمقتني إليه، وما أحبني إليه: إذا كنت أنت البغيض الممقوت، أو المحبوب، فتكون متعجبًا من الفعل الواقع على المفعول، فما كان باللام فهو للفاعل، وما كان بـ«إلى» فهو للمفعول. وأكثر النحاة لا يعللون بهذا. والذي يقال في علته والله أعلم: إن اللام تكون للفاعل في المعنى، نحو قولك: لمن هذا؟ فيقال: لزيد، فيؤتى باللام. وأما «إلى» فتكون للمفعول في المعنى، فتقول: إلى من يصل هذا الكتاب؟ فتقول: إلى عبد الله، وسر ذلك أن اللام في الأصل للملك والاختصاص، والاستحقاق إنما يكون للفاعل الذي يملك ويستحق، و «إلى» لانتهاء الغاية، والغاية منتهى ما يقتضيه الفعلُ، فهي بالمفعول أليق، لأنها تمام مقتضى الفعل، ومِن التعجب من فعل المفعول قولُ كعب بن زهير في النبي ﷺ:

فَلَهْوَ أَخْوَفُ عِنْدِي إذ أُكَلِّمُهُ   وَقِيلَ إنَّكَ مَحْبُوسٌ وَمَقْتُولُ
مِنْ خَادِرٍ مِنْ لُيُوثِ الأُسْدِ مَسْكَنُهُ   بِبَطْنِ عَثَّرَ غِيْلٌ دُونَهُ غِيْلُ

فأخوف هاهنا، من خيف، فهو مَخُوفُ، لا من خاف، وكذلك قولهم: ما أَجَنَّ زيدًا، من جُنَّ فهو مجنون، هذا مذهب الكوفيين ومن وافقهم.

قال البصريون: كل هذا شاذ لا يُعوَّل عليه، فلا نُشوش به القواعد، ويجب الاقتصارُ منه على المسموع، قال الكوفيون: كثرة هذا في كلامهم نثرًا ونظمًا يمنع

حمه على الشذوذ، لأن الشاذ ما خالف استعمالهم ومطَّرِدَ كلامهم، وهذا غير مخالف لذلك، قالوا: وأما تقديركم لزوم الفعل ونقله إلى فَعُلَ، فتحكم لا دليل عليه، وما تمسكتم به من التعدية بالهمزة إلى آخره، فليس الأمر فيها كما ذهبتم إليه، والهمزة في هذا البناء ليست للتعدية، وإنما هي للدلالة على معنى التعجب والتفضيل فقط، كألف «فاعل»، وميم «مفعول» وواوه، وتاء الافتعال، والمطاوعة، ونحوها من الزوائد التي تلحق الفعل الثلاثي لبيان ما لحقه من الزيادة على مجرده، فهذا هو السبب الجالب لهذه الهمزة، لا تعدية الفعل.

قالوا: والذي يدل على هذا أن الفعل الذي يُعدَّى بالهمزة يجوز أن يُعدَّى بحرف الجرّ وبالتضعيف، نحو: جلست به، وأجلسته، وقمت به، وأقمته، ونظائره، وهنا لا يقوم مقامَ الهمزة غيرها، فعلم أنها ليست للتعدية المجردة أيضًا، فإنها تجامع باء التعدية، نحو: أَكْرِمْ بِهِ، وأَحسِنْ بِهِ، ولا يجمع على الفعل بين تعديتين.

وأيضًا فإنهم يقولون: ما أعطاه للدراهم، وأكساه للثياب، وهذا مِن أعطى وكسا المتعدي، ولا يصح تقديرُ نقله إلى «عطو»: إذا تناول، ثم أدخلت عليه همزة التعدية، لفساد المعنى، فإن التعجب إنما وقع من إعطائه، لا من عطوه، وهو تناوله، والهمزة التي فيه همزة التعجب والتفضيل، وحذفت همزته التي في فعله، فلا يصح أن يقال: هي للتعدية.

قالوا: وأما قولكم: إنه عُدِّي باللام في نحو: ما أضربه لزيد... إلى آخره، فالإتيان باللام هاهنا ليس لما ذكرتم من لزوم الفعل، وإنما أتي بها تقوية له لما ضعف بمنعه من التصرُّفِ، وأُلزِمَ طريقة واحدة خرج بها عن سنن الأفعال، فضعف عن اقتضائه وعمله، فقوي باللام كما يقوى بها عند تقدم معموله عليه، وعند فرعيته، وهذا المذهب هو الراجح كما تراه.

فلنرجع إلى المقصود فنقول: تقديرُ أحمد على قول الأولين: أحمد الناس لربه، وعلى قول هؤلاء: أحق الناس وأولاهم بأن يُحمد، فيكون كمحمد في المعنى، إلا أن الفرق بينهما أن «محمدًا» هو كثير الخصال التي يحمد عليها، وأحمد هو الذي

يُحمد أفضل مما يُحْمَدُ غيره، فمحمد في الكثرة والكمية، وأحمد في الصفة والكيفية، فيستحق من الحمد أكثر مما يستحق غيره، وأفضلُ مما يستحِق غيره، فيُحمَدُ أكثرَ حمد، وأفضلَ حمد حَمِدَه البشر. فالاسمان واقعان على المفعول، وهذا أبلغ في مدحه، وأكمل معنى. ولو أريد معنى الفاعل لسمي الحماد، أي: كثير الحمد، فإنه ﷺ كان أكثر الخلق حمدًا لربه، فلو كان اسمه أحمد باعتبار حمده لربه، لكان الأولى به الحمَّاد، كما سميت بذلك أمَّتُه.

وأيضًا: فإن هذين الاسمين، إنما اشتقا من أخلاقه، وخصائصه المحمودة التي لأجلها استحق أن يسمى محمدًا ﷺ، وأحمد وهو الذي يحمدُه أهل السماء وأهلُ الأرض وأهلُ الدنيا وأهلُ الآخرة، لكثرة خصائله المحمودة التي تفوق عَدَّ العادِّين وإحصاء المحصين، وقد أشبعنا هذا المعنى في كتاب «الصلاة والسلام عليه ﷺ»، وإنما ذكرنا هاهنا كلمات يسيرة اقتضتها حالُ المسافر، وتشتتُ قلبه وتفرق همته، وبالله المستعان وعليه التكلان.

وأما اسمه **المتوكل**، ففي «صحيح البخاري» عن عبد الله بن عمرو قال: «قرأت في التوراة صفة النبي ﷺ: مُحَمَّد رسولُ الله، عبدي وَرَسُولي، سمَّيتُه المُتَوَكِّل، ليس بِفَظٍّ، ولا غَليظٍ، ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يجزي بالسَّيئةِ السَّيئة، بل يعفو ويصفح، ولن أَقْبِضَهُ حَتَّى أُقيمَ بِهِ المِلَّة العَوْجَاءَ، بأن يقولوا: لا إله إلا الله» [1]، وهو ﷺ أحقّ الناس بهذا الاسم، لأنه توكَّل على الله في إقامة الدين توكلًا لم يَشْرَكْه فيه غيره.

وأما **الماحي، والحاشر، والمقفِّي، والعاقب**، فقد فسرت في حديث جبير بن مطعم، فالماحي: هو الذي محا الله به الكفر، ولم يُمحَ الكفر بأحد من الخلق ما مُحي بالنبي ﷺ، فإنه بُعِثَ وأهل الأرض كلهم كفار، إلا بقايا من أهل الكتاب، وهم ما بين عُبَّاد أوثان، ويهود مغضوب عليهم، ونصارى ضالين، وصابئة دَهرية، لا يعرفون ربًا ولا معادًا، وبين عُبَّاد الكواكب، وعُبّاد النار، وفلاسفة لا يعرفون

(١) أخرجه البخاري (٤٨٣٨).

شرائع الأنبياء، ولا يُقرون بها، فمحا الله سبحانه برسوله ذلك حتى ظهر دينُ الله على كل دين، وبلغ دينُه ما بلغ الليل والنهار، وسارت دعوته مسيرَ الشمس في الأقطار.

وأما **الحاشر**، فالحشر هو الضم والجمع، فهو الذي يُحشر الناسُ على قدمه، فكأنه بعث لحشر الناس.

والعاقب: الذي جاء عَقِبَ الأنبياء، فليس بعده نبي، فإن العاقب هو الآخر، فهو بمنزلة الخاتم، ولهذا سمي العاقب على الإطلاق، أي: عقب الأنبياء جاء بعقبهم.

وأما **المقفِّي**، فكذلك، وهو الذي قفَّى على آثار من تقدمه، فقفى اللهُ به على آثار من سبقه من الرسل، وهذه اللفظة مشتقة من القفو، يقال: قفاه يقفوه: إذا تأخر عنه، ومنه قافية الرأس، وقافية البيت، فالمقفِّي: الذي قفى من قبله من الرسل، فكان خاتمهم وآخرهم.

وأما **نبي التوبة**، فهو الذي فتح الله به بابَ التوبة على أهل الأرض، فتاب الله عليهم توبة لم يحصل مثلها لأهل الأرض قبله. وكان ﷺ أكثر الناس استغفارًا وتوبة، حتى كانوا يَعُدُّون لَهُ في المَجْلِس الوَاحِدِ مِائَةَ مَرَّةٍ: «**رَبِّ اغْفِرْ لِي وَتُبْ عَلَيَّ إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الغَفُور**»[1].

وكان يقول: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ تُوبُوا إِلَى اللَّهِ رَبِّكُم، فَإِنِي أَتُوبُ إِلى اللَّهِ فِي اليَوْمِ مِائَةَ مَرَّةٍ**»[2]، وكذلك توبةُ أمته أكملُ مِن توبة سائر الأمم، وأسرع قبولًا، وأسهل تناولًا، وكانت توبة من قبلهم مِن أصعب الأشياء، حتى كان من توبة بني إسرائيلَ مِن عبادة العجل قتلُ أنفسهم، وأمّا هذه الأمّة، فلكرامتها على الله تعالى جعل توبتها الندمَ والإقلاع.

وأمّا **نبي الملحمة**، فهو الذي بعث بجهاد أعداء الله، فلم يجاهد نبي وأمته قطُّ

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٥١٦)، والترمذي (٣٤٤٥)، وغيرهما.
(٢) رواه مسلم (٢٧٠٢)، وأبو داود (١٥١٥).

ما جاهد رسول الله ﷺ وأمّته، والملاحم الكبار التي وقعت وتقع بين أمته وبين الكفار لم يُعهد مثلُها قبله، فإن أمته يقتلون الكفار في أقطار الأرض على تعاقب الأعصار، وقد أوقعوا بهم من الملاحم ما لم تفعله أمّة سواهم.

وأما **نبيُّ الرحمة**، فهو الذي أرسله الله رحمة للعالمين، فرحم به أهلَ الأرض كلَّهم مؤمنَهم وكافرَهم، أمّا المؤمنون، فنالوا النصيبَ الأوفر مِن الرحمة، وأمّا الكفار، فأهل الكتاب منهم عاشوا في ظله، وتحت حبله وعهده، وأما من قتله منهم هو وأمتُه، فإنهم عجلوا به إلى النَّار، وأراحوه من الحياة الطويلة التي لا يزداد بها إلا شدَّةَ العذاب في الآخرة.

وأما **الفاتح**، فهو الذي فتح الله به باب الهدى بعد أن كان مُرْتَجًا، وفتح به الأعين العمي، والآذان الصُّم، والقلوب الغُلف، وفتح الله به أمصار الكفار، وفتح به أبوابَ الجنَّة، وفتح به طرق العلم النافع والعمل الصالح، ففتح به الدنيا والآخرة، والقلوب والأسماع والأبصار والأمصار.

وأمّا **الأمين**، فهو أحق العالمين بهذا الاسم، فهو أمين الله على وحيه ودينه، وهو أمينُ مَنْ في السماء، وأمينُ مَنْ في الأرض، ولهذا كانوا يُسمونه قبل النبوة: الأمين.

وأمّا **الضحوك القتَّال**، فاسمان مزدوجان، لا يُفرد أحدهما عن الآخر، فإنه ضحوك في وجوه المؤمنين، غيرُ عابس، ولا مقطِّب، ولا غضوب، ولا فظّ، قتَال لأعداء الله، لا تأخذه فيهم لومة لائم.

وأمّا **البشير**، فهو المبشَر لمن أطاعه بالثواب، والنذير المنذر لمن عصاه بالعقاب، وقد سماه الله عبدَه في مواضع من كتابه، منها قوله: ﴿**وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللهِ يَدْعُوهُ**﴾ [الجن:١٩] وقوله: ﴿**تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ**﴾ [الفرقان: ١] وقوله: ﴿**فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ**﴾ [النجم: ١٠] وقوله: ﴿**وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا**﴾ [البقرة: ٢٣] وثبت عنه في «الصحيح» أنه قال: «**أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر**»[١] وسمّاه الله سِراجًا منيرًا، وسمى الشمس سراجًا وهّاجًا.

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣١٥٩)، وابن ماجه (٤٣٠٨)، وأخرجه البخاري (٤٧١٢).

والمنير هو الذي ينير من غير إحراق بخلاف الوهاج، فإن فيه نوعَ إحراق وتَوَهُّج». ا.هـ[1].

عباد الله...

وبهذا القدر الكفاية، وفي الجمعة القادمة، نواصل الحديث عن سيرة النبيّ ﷺ وما فيها من عظات وعبر وفوائد.

فإلى اللقاء إن شاء الله تعالى.

اللَّهُمَّ آتِ نُفوسنا تَقْواها، وزكِّها أنت خَيْرُ مَن زكَّاها، أنت وليها ومَولاها.

آمين... آمين... آمين.

❖❖❖❖❖

---

(١) «زاد المعاد» (١/ ٦٩ - ٧٦).

الخطبة الحادية والستون:

نشأته ﷺ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة المصطفى ﷺ.

ونتكلم اليوم إن شاء الله تعالى عن **نشأته** ﷺ.

وأسأل الله تعالى التوفيق.

عباد الله...

وُلِدَ مُحَمَّد ﷺ من أسرة زكيّة المعدن نبيلة النَّسب، جمعت خُلاصة ما في العرب من فضائل، وترفعت عما يشينهم من أوضار، قَالَ رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ

ضطَفَى كِنَانَةَ مِنْ بَنِي إِسْمَاعِيلَ وَاصْطَفَى مِنْ بَنِي كِنَانَةَ قُرَيْشًا وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ» (١).

وعراقة الأصل لا تمنح للرجل الفاشل فضلًا، كالصلب إذا تُرك للصدأ يمسي لا غناء فيه، أما إذا تَعهدتهُ يد الصناع فإنها تبدع منه الكثير.

ولذلك لَـمَّا سُئل النَّبيّ ﷺ: أيُّ النَّاس أكرم؟ قَالَ: «...فَعَنْ مَعَادِنِ العَرَبِ تَسْأَلُونِي؟» قَالُوا: نَعَمْ. قَالَ: «فَخِيَارُكُمْ فِي الجَاهِلِيَّةِ خِيَارُكُمْ فِي الإِسْلَامِ إِذَا فَقُهُوا» (٢).

وكان منبت مُحَمَّد ﷺ في أسرة لها شأنها، بعض ما أعدَّ الله لرسالته من نجاح، فالمجتمع العربي الأول كان يقوم عَلَى العصبيات القَبلية الحادة، العصبيات التي تغني القبيلة كلها دفاعًا عن كرامتها الخاصة، وكرامة من يمت إليها.

وقد ظل الإسلام حينًا من الدهر يعيش في حمى هذه التقاليد المرعية حَتَّى مستغنى بنفسه كما تستغني الشجرة عما يحملها بعد ما تغلظ وتستوي.

وكان «لوط» يتمنَّى شيئًا من هذه التقاليد، عندما أحسَّ الخطر عَلَى الأضياف النازلين به، ولم يجد عشيرة تدفع أو أهلًا تهيّجهم الحميّة، فقال لقومه: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي أَلَيْسَ مِنكُمْ رَجُلٌ رَّشِيدٌ﴾ [هود: ٧٨]، ثم قال: ﴿لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ﴾ [هود: ٨٠].

لكن مُحَمَّدًا عليه الصَّلاة والسَّلام، عَلَى كرم محتده، لم يرزق حظًّا وافرًا من الثراء، فكانت قلة ماله مع شرف نسبه سببًا في أن يجمع في نشأته خير ما في طبقات النَّاس من ميزات، إن أبناء البيوتات الكبيرة تغريهم الثروة بالسطو، فإذا فقدوا هذا السلاح، وكانت لهم تقاليد كريمة، بذلوا جهودًا مضنية ليحتفظوا بمكانتهم وشممهم، ولذلك يقول قائلهم:

وإنَّا عَلَى عضِّ الزَّمان الذي بنا ... نعالج من كره المخازي الدواهيا

وربما لا يرى بعض النَّاس حرجًا من أن يُعلن فاقته ويُكشف صفحته.

---

(١) أخرجه مسلم (٧/ ٥٨)، والترمذي (٤/ ٢٩٢)، وصححه.
(٢) أخرجه البخاري (٦/ ٤١٢، ٤١٣)، ومسلم (٧/ ١٨١).

غير أن هناك بعضًا يطوون همومهم ثُمَّ يبرزون للدنيا مشمرين، ومن هؤلاء عبد الله بن عبد المطلب.

كان عبد المطلب سيِّد مكَّة، بيد أن هذه السيادة التي انتهت إليه انتهت به، ولم تستقر في عقبه، إذ اشتد ساعد منافسيهم في زعامة أُمّ القرى، وبدا كأن الأمر سيؤول إليهم، بل إن هي إلا أعوام حَتَّى تصدرت أسرة عبد شمس، ثُمَّ تمر أعوام أخرى فإذا أبو سفيان يتزعم مكَّة، وبذلك تنتقل السيادة عن بني هاشم.

وعبد الله أصغر أبناء عبد المطلب وله في قلبه منزلة جليلة، وقد زوَّجه بآمنة بنت وهب، ثُمَّ تركه يسعى في الحياة وحده، فخرج وهو عروس، بعد أشهر من بنائه بآمنة، خرج في مناكب الأرض ابتغاء الرزق، وذهب في رحلة الصيف إلى الشَّام، فذهب ولم يعد، وعادت القافلة تحمل أنباء مرضه، ثُمَّ جاء بعد قليل نعيه.

وكانت آمنة تنتظر رجلها الشاب الجَلد لتهنأ بمحياها معه، ولتشعره بأن في أحشائها جنينًا يوشك أن تقرّ به عينها، غير أن القدر لحكمة عليا حسم هذه الأماني الحلوة، فأمست الزوج المحسودة أيِّمًا، تعد الليالي لتودع الحياة الموحشة يتيمها الفريد.

قَالَ الزهري: أرسل عبد المطلب ابنه عبد الله إلى المدينة يمتار لهم تمرًا فمات بها، وقيل: بلى كان بالشام، فأقبل في عير قريش، فنزل بالمدينة وهو مريض، فتوفي بها، ودُفن في دار النابغة الجعدي وله خمس وعشرون سنة، وتوفي قبل أن يُولد رسول الله ﷺ.

وُلد مُحَمَّد ﷺ بمكَّة ولادة معتادة، لم يقع فيها ما يستدعي العجب أو يستلفت النظر، ولم يمكن المؤرخين تحديد اليوم والشهر والعام الذي وُلد فيه عَلَى وجه الدقة، وأغلب الروايات تتجه إلى أن ذلك كان عام هجوم الأحباش عَلَى مكَّة سنة ٥٧٠م في الثاني من ربيع الأول سنة ٥٣ قبل الهجرة.

وتحديد يوم الميلاد لا يرتبط به من الناحية الإسلامية شيء ذو بال، فالأحفال التي تقام لهذه المناسبة تقليد دنيوي لا صله له بالشريعة.

عبد الله...

استقبل عبد المطلب ميلاد حفيده باستبشار وجذل، ولعله رأى في مَقدمهِ عوضًا عن ابنه الذي هصرت المنون شبابه، فحوّل مشاعره عن الراحل الذاهب إلى الوافد الجديد يكلؤه ويُغالي به.

ومن الموافقات الجميلة أن يُلهم عبد المطلب تسمية حفيده «مُحَمَّدًا» إنها تسمية أعانه عليها مَلكٌ كريم، ولم يكن العرب يألفون هذه الأعلام، لذلك سألوه لِمَ رغب عن أسماء آبائه؟ فأجاب: أردت أن يحمده الله في السماء، وأن يحمده الخلق في الأرض، فكأن هذه الإرادة كانت استشفافًا للغيب، فإن أحدًا من خلق الله لا يستحق إزجاء عواطف الشكر والثناء عَلَى ما أدى وأسدى كما يستحق ذلك النبي العربي المحمَّد.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَا تَعْجَبُونَ كَيْفَ يَصْرِفُ اللَّهُ عَنِّي شَتْمَ قُرَيْشٍ وَلَعْنَهُمْ؟ يَشْتِمُونَ مُذَمَّمًا وَيَلْعَنُونَ مُذَمَّمًا، وَأَنَا مُحَمَّدٌ**»[1].

ولكن الحقيقة القاسية – برغم حفاوة الجد الحنون – باقية، فإن مُحَمَّدًا يتيم، برز إلى الدنيا بعد ما غادر أبوه الدنيا، ليكن، ولنفرض عبد الله بقي حيًّا، فماذا عسى كان يفعل لابنه؟ أكان يُربيه ليهب له النبوّة؟ ما كان له ذلك، إن الأب عنصر واحد من عناصر شتى تتحكم في مستقبل الطفل وتحفر له في الحياة مجراه، ولو كانت النبوّة بالاكتساب لَـمَّا قربتها حياة الوالد شبرًا، فكيف وهي اصطفاء؟

كان «يعقوب» حيًّا يرزق، له شيخوخته وتجربته وحكمته بل له نبوته، وقد نظر يومًا ما لم يجد يوسف قريبًا منه، إنَّهُ فقده في أخطر فترات العمر، فترة الصبا والسن والنفاعة الغضة، ومع فساد البيئات التي احتوت يوسف فقد كان باطنه ينضح بالتقى والعفاف، كما يتقد المصباح في أعماء اللَّيل المدلهم، فلمَّا التقى الابن بوالده بعد لأي، رأى يعقوب ابنه نبيًّا صدِّيقًا.

لقد وَلَّى عبد الله وترك ابنه يتيمًا، بيد أن هذا اليتيم كان يُعد من اللحظة الأولى

---

(١) أخرجه البخاري (٦/ ٤٣٥، ٤٣٦).

لأمر جلل، أمر يصبح به إمام المصطفين الأخيار، وما الأب والجد، ما الأقربون والأبعدون، ما الأرض والسماء إلا وسائل مسخَّرة لإتمام قدر الله، وإبلاغ نعمة الله مَن اصطنعه الله.

أقبلت آمنة عَلَى ابنها تحنو عليه في انتظار المراضع المقبلات من البادية، يتلمسنّ تربية أولاد الأشراف، والأعرابيات اللاتي يقصدن مكَّة لهذه الغاية هن طالبات رزق ويسار، ولم يكن لمحمد ﷺ أبٌ تُرقب عطاياه أو غنى تغري جدواه، فلا عجب إذا زهدت فيه المراضع وتطلعن إلى غيره.

وكانت حليمة ابنة أبي ذؤيب من قبيلة بني سعد إحدى القادمات إلى مكَّة ابتغاء العودة برضيع تستعين عَلَى العيش بحضانته، ولم يرض طموحها أول الأمر طفل يتيم إلا أنها لم تجد طلبتها واستحيت أن تعود صفر اليدين فرجعت إلى آمنة تأخذ منها مُحمَّد.

وكانت البركة في مَقدمِهِ معها، كانت سنواتها عجافًا من قبله، فامتنّ الله عليها بخير مضاعف، درّت الضروع بعد جفاف ولان العيش وأخصب، وشعرت حليمة وزوجها وولدها بأن أوبتهم من مكَّة كانت باليُمن والغَنم لا بالفقر واليُتم، مِمَّا زاد تعلقهم بالطفل وإعزازهم له.

وتنشئة الأولاد في البادية، ليمرحوا في كنف الطبيعة، ويستمتعوا بجوها الطلق وشعاعها المرسل، أدنى إلى تزكية الفطرة، وإنماء الأعضاء والمشاعر، وإطلاق الأفكار والعواطف.

إنها لتعاسة أن يعيش أولادنا في شقق ضيقة من بيوت متلاصقة كأنها علب أغلقت عَلَى من فيها، وحرمتهم لذة التنفس العميق والهواء المنعش.

ولاشك أن اضطراب الأعصاب الذي قارن الحضارة الحديثة يعود فيما يعود إليه إلى البعد عن الطبيعة، والإغراق في التصنع، ونحن نقدّر لأهل مكَّة اتجاههم إلى البادية لتكون عرضاتها الفساح مدارج طفولتهم، وكثير من علماء التربية يود لو تكون الطبيعة هي المعهد الأول للطفل حَتَّى تتسق مداركه مع حقائق السكون

ـتي وُجد فيه، ويبدو أن هذا حلم عسر التحقيق». ا.هـ[١].

عباد الله...

ومن فوائد قصة حليمة:

١- بركة النبي ﷺ عَلَى السيدة حليمة في كل شيء في : إدرار ثديها وغزارة لبنها، وفي سكون طفلها وكان كثير البكاء مزعجًا لأمه، وفي فيضان اللبن في شياههم العجفاوات.

٢- عودة هذه البركة عَلَى هوازن كلها حين أسرهم النبي ﷺ بعد غزوة «حُنين» بعد فتح مكَّة بشهر، فمتُّوا إليه برضاعه فتحنن عليهم وأعتقهم، وكانوا في ستة آلاف ما بين صبي وامرأة، وأعطاهم أنعامًا وأناسيَّ كثيرًا، حَتَّى قَالَ أبو الحسين ابن فارس: كان قيمة ما أُطلق لهم يومئذٍ خمسمائة ألف ألف درهم.

قَالَ ابن كثير: فهذا كله من بركته العاجلة في الدنيا، فكيف ببركته عَلَى مَن تبعه في الدار الآخرة.

٣- إكرام الله سبحانه لنبيّه ﷺ، وبسببه نزلت بركات الله عَلَى بيت حليمة وزوجها.

٤- خيار الله للعبد أفضل وأبرك، ويظهر ذلك في أن الله تعالى اختار لحليمة هذا الطفل اليتيم، وهي لا تعلم - وقد أخذته عَلَى مضض - أن في اختياره الخير كلَّه، وفي ذلك درس لكل مسلم بأن يطمئن إلى قدر الله واختياره والرضا به، ولا يندم عَلَى ما مضى وما لم يُقدِّر الله تعالى له[٢].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٦٠ - ٦٥) باختصار.

(٢) «محاضرات في السيرة» لأبي عبية (٤٧، ٤٨).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يسأل سائل: ولماذا الرِّضاع في البادية؟

والجواب: للحِكَم الآتية:

١- نشأة الطفل في البادية سبيل الصحة والعافية، لهوائها الطَلق وشمسها الساطعة ومساحتها الواسعة.

٢- البادية سبيل لسلامة الفطرة وتزكيتها، وصفاء الفكر والعاطفة، لخلوّها من أدواء المدينة التي تلوث الفطرة.

٣- البادية تربي الطفل عَلَى الخشرنة والشجاعة.

٤- وتربي في الطفل مزية الاعتماد عَلَى النفس، وفي هذا بناء لقوة الشخصية وتفتيق الذهن بالتفكير من سن مبكر.

٥- سلامة اللغة في البادية.

٦- تُكسب البادية الطفل خبرات وتجارب مع الطبيعة والناس.

ولماذا في بني سعد؟

لأنهم كانوا مشهورين بالفصاحة والبيان، ونبي سَيُبعث في قوم أهل فصاحة وبلاغة يجمِّلُه أن يتربى في أفصح بيئة، فإن ذلك من باب الكمال اللائق بالرسل.

عباد الله...

ومكث النبيّ ﷺ في بني سعد مدة عامين وشهرين أو وثلاثة أشهر. ويذكر كُتَّاب السِّير أَنَّهُ قضى خمس سنوات وشهر في بني سعد.

والجمع بين القولين أن حليمة أخذت النَّبيِّ ﷺ إلى ديارها مدة أخرى بعد حدثة شق الصدر، وأكمل عندها مدة خمس سنوات وشهر[١].

وللحديث بقيّة إن شاء الله تعالى. فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ اجعلنا من أحبِّ خَلْقِك إليك، ومِن المقرَّبين لَدَيْك

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

(١) نفس المرجع (٤٨، ٤٩) باختصار.

الخطبةالثانية والستون:

شقَّ صدرهِ ﷺ ورعيِه للأغنام، وقصّة (بحيرا) الراهب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن حياة نبيِّنا ﷺ.

ونتكلم اليوم إن شاء الله تعالى عن:

- **حادث شقّ الصَّدر.**
- **ورعيه للأغنام.**
- **وقصّة بحيرا الراهب.**

وما في ذلك من عظات ودروس. والله الموفَّق، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

عبد الله...

أما عن حادث شقّ الصّدر:

ففي هذه الحادثة إشكالات عدة، أهمها: متى وقعت حادثة شقّ الصدر للنبي ﷺ؟ وهل كانت مرة أو أكثر؟ وهل كان شق الصدر حسّيًّا أو معنويًا؟

ولعل في محصلة الروايات التي سنذكرها ما يجيب عن هذه التساؤلات.

أولًا: شق صدره في بني سعد:

تتفق رواية الصحيح، مع ابن إسحاق عَلَى شق صدره فِي ديار بني سعد، ففي صحيح مسلم[1] عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِي الله عَنْهُ -: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَتَاهُ جِبْرِيلُ ﷺ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الغِلْمَانِ فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ، فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً، فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ، ثُمَّ لَأَمَهُ، ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ، وَجَاءَ الغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ - يَعْنِي ظِئْرَهُ - فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ، فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ»[2].

أما البخاريّ فلم يذكر هذه الرواية في شق صدره في ديار بني سعد.

أما ابن إسحاق، فيذكر شق صدره - وهو في ديار بني سعد - في روايتين:

الأولى منهما: ضمن حديث حليمة الطويل عن رضاعه ﷺ حين تقول: ...فَرَجَعْنَا بِهِ فَوَالله إِنَّهُ بَعْدَ مَقْدِمِنَا (بِهِ) بِأَشْهُرٍ مَعَ أَخِيهِ لَفِي بَهْم لَنَا خَلْفَ بُيُوتِنَا، إِذْ أَتَانَا أَخُوهُ يَشْتَدّ، فَقَالَ لِي وَلِأَبِيهِ: ذَاكَ أَخِي القُرَشِيّ قَدْ أَخَذَهُ رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَاهُ فَشَقّا بَطْنَهُ فَهُمَا يَسُوطَانِهِ[3]. قَالَتْ: فَخَرَجْت أَنَا وَأَبُوهُ نَحْوَهُ فَوَجَدْنَاهُ قَائِمًا مُنْتَقِعًا وَجْهُهُ. قَالَتْ: فَالتَزَمْته، وَالتَزَمَهُ أَبُوهُ، فَقُلْنَا لَهُ: مَا لَك يَا بُنَيّ؟ قَالَ: جَاءَنِي رَجُلَانِ عَلَيْهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ فَأَضْجَعَانِي وَشَقّا بَطْنِي، فَالتَمِسَا (فِيهِ) شَيْئًا لَا أَدْرِي مَا هُوَ. قَالَتْ: فَرَجَعْنَا (بِهِ) إِلَى خِبَائِنَا.

---

[1] (١/ ١٤٧).

[2] منتقع اللون: متغيّر اللون.

[3] يقال: سطت اللبن والدم وغيرهما، أسوطه، إذا ضربت بعضه ببعض وحرّكته.

قَالَتْ: وَقَالَ لِي أَبُوهُ: يَا حَلِيمَةُ لَقَدْ خَشِيتُ أَنْ يَكُونَ هَذَا الغُلَامُ قَدْ أُصِيبَ فَأَلْحِقِيهِ بِأَهْلِهِ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرَ ذَلِكَ بِهِ، قَالَتْ: فَاحْتَمَلْنَاهُ فَقَدِمْنَا بِهِ عَلَى أُمِّهِ فَقَالَتْ: مَا أَقْدَمَكِ بِهِ يَا ظِئْرُ وَقَدْ كُنْتِ حَرِيصَةً عَلَيْهِ وَعَلَى مُكْثِهِ عِنْدَكِ؟... إلى آخر القصة[١].

أما الرواية الثانية: لابن إسحاق، فقد رواها من طريق آخر، فقال: «حَدَّثَنِي ثَوْرُ بنُ يَزِيدَ[٢]، عَن بَعضِ أَهلِ العِلم، وَلَا أَحسَبُهُ إلّا عَن خَالِدِ بنِ مَعدَانَ الكُلَاعِيّ[٣]: أَنّ نَفَرًا مِن أَصحَابِ رَسُولِ الله ﷺ قَالُوا لَهُ: يَا رَسُولَ الله أَخبِرنَا عَن نَفسِك؟ قَالَ: «نَعَم أَنَا دَعوَةُ أَبِي إبرَاهِيمَ، وَبُشرَى أَخِي عِيسَى، وَرَأَت أُمّي حِينَ حَمَلَت بِي أَنّهُ خَرَجَ مِنهَا نُورٌ أَضَاءَ لَهَا قُصُورَ الشّام، وَاستُرضِعتُ فِي بَنِي سَعدِ بنِ بَكرٍ. فَبَينَا أَنَا مَعَ أَخٍ لِي خَلفَ بُيُوتِنَا نَرعَى بَهمًا لَنَا، إذ أَتَانِي رَجُلَانِ عَلَيهِمَا ثِيَابٌ بِيضٌ بِطَستٍ مِن ذَهَبٍ مَملُوءَةٍ ثَلجًا، ثُمّ أَخَذَانِي فَشَقّا بَطنِي، وَاستَخرَجَا قَلبِي فَشَقّاهُ فَاستَخرَجَا مِنهُ عَلَقَةً سَودَاءَ فَطَرَحَاهَا، ثُمّ غَسَلَا قَلبِي وَبَطنِي بِذَلِكَ الثّلجِ حَتّى أَنقَيَاهُ، ثُمّ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: زِنهُ بِعَشَرَةٍ مِن أُمّتِهِ، فَوَزَنَنِي بِهِم فَوَزَنتهم، ثُمّ قَالَ: زِنهُ بِمِائَةٍ مِن أُمّتِهِ، فَوَزَنَنِي بِهِم فَوَزَنتهم، ثُمّ قَالَ: زِنهِ بِأَلفٍ مِن أُمّتِهِ، فَوَزَنَنِي بِهِم فَوَزَنتهم، فَقَالَ: دَعهُ عَنك، فَوَالله لَو وَزَنتَهُ بِأُمّتِهِ لَوَزَنَهَا»[٤].

هذه الرواية يتبيّن من رواتها قوّة إسنادها، ولهذا قَالَ ابن كثير عنها: وهذ إسناد جيد قوي[٥].

وهكذا تلتقي رواية مسلم مع روايتي ابن إسحاق في ذكر هذه الحادثة. وتحديدها في ديار بني سعد، أما توقيتها الزمني فتقف دون تحديده رواية مسلم. والرواية الأخيرة لابن إسحاق، بينما تحدده الرواية الأولى عند ابن إسحاق (رواية حليمة) بالسنة الثالثة من عمر النبي ﷺ، حيث مضى في أول الرواية: أن حليمة

(١) «السِّيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٧٦، ١٧٧).
(٢) الكلاعي؛ ثقة، توفي سنة ٥٠ هـ، وقيل: بعدها. «التهذيب» (٢/ ٣٣).
(٣) ثقة، توفي سنة ١٠٣ هـ أو بعدها. «التهذيب» (٣/ ١١٨).
(٤) انظر المجزء المطبوع من «سيرة ابن إسحاق»، بتحقيق سهيل زكار (ص٥٠)، و«السِّيرة» لابن هشام، (١/ ١٧٧، ١٧٨).
(٥) انظر «السيرة» لابن كثير (١/ ٢٩٩).

رجعت به عَلَى أُمّه حين بلغ سنتين، ولم تزل بأمه حَتَّى ردّته معها، وبعد مقدمه بأشهر - كما في الرواية - وقعت الحادثة.

وهذه الأشهر أيضًا حددها القسطلاني في «مواهبه» بشهرين أو ثلاثة[١]، وخالفه شارح «الزرقاني» حيث رجّح أن شقّ الصَّدر كان والنبي ﷺ في الرابعة[٢] [٣].

عباد الله...

ما هي الحكمة من شقّ صَدْر النَّبيّ ﷺ؟

يقول الدكتور علي مُحَمَّد الصلَّابي: «ولا شك أن التطهير من حظّ الشيطان هُوَ إرهاص مبكر للنبوة، وإعداد للعصمة من الشَّر وعبادة غير الله، فلا يحل في قلبه إلا التوحيد الخالص، وقد دلت أحداث صباه عَلَى تحقيق ذلك، فلم يرتكب إثمًا، ولم يسجد لصنم، رغم انتشار ذلك في قريش»[٤].

ويقول د. عبد المهدي في «السِّيرة النبوية عَلَى ضوء الكتاب والسُّنة»: «إن الله سبحانه أكرم نبيّه ﷺ بإزالة حظّ الشيطان منه حَتَّى لا يقع في رذيلة يوسوس له بها الشيطان، ومن إكرام الله له أن يتم هذا في بداية حياته لتكون حياته كلها بعيدة عن السفاسف، مغمورة بمعالي الأخلاق». ا.هـ.

وقال مُحَمَّد أبو فارس في كتابه «السِّيرة النبوية»: «إن إخراج العلقة منه تطهير للرسول ﷺ من حالات الصبا اللاهية المستهترة، واتصافه بصفات الجد والحزم والاتزان وغيرها من صفات الرجولة الصادقة، كما تدلنا عَلَى عناية الله به وحفظه له وأنه ليس للشيطان عليه سبيل» ا.هـ.

عباد الله...

وقد اختلف موقف الكتَّاب من حادثة شقّ الصَّدر ما بين الإثبات والتأويل والتشكيك:

---

(١) انظر «شرح الزرقاني على المواهب» (١/ ١٤٩).
(٢) المصدر نفسه (١/ ١٥٠) واعتمده الزرقاني في ذَلِكَ، على ما جزم به الحافظ العراقي.
(٣) السِّيرة النبوية في الصحيحين وعند ابن إسحاق» د. سليمان بن حمد العودة.
(٤) السِّيرة النبوية» (١/ ٦٨)، وراجع «السِّيرة الصحيحة» لآدم العمري (١/ ١٠٤).

(١) **فالمشككون**: يذكرون كلامًا لا يُقوِّم بالمداد الذي يُدوَّن به، وعذرهم أنهم ليسوا من أهل الحديث، غير أن فيهم من الجرأة والتجاسر عَلَى الحقيقة ما سوَّغ لهم أن يتكلموا فيما ليس لهم فيه.

ومن شبهاتهم: من أين يأتي بماء زمزم وهو في البادية؟ وكيف يرى أنس أثر المخيط في صدره ﷺ، مع أن خياطة الملك لا يُرى لها أثر؟

وقد زعم المستشرق «نيكلسون» أن حديث شق الصدر أسطورة نشأت عن تفسير الآية ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾، وأنه لو كان لها أصل فعلينا أن نُخمِّن أنها تشير إلى نوعٌ من الصَّرَع.

٢- **أهل التأويل**: وممن ذهب إليه الشيخ مُحَمَّد الغزالي في كتابه «فقه السِّيرة» فقال: «إن أحاديث شق الصدر تشير إلى هذه الحصانات التي أضفاها الله على مُحَمَّد ﷺ فجعلته في طفولته بنجوى عن مزالق الطبع الإنساني ومفاتن الحياة الأرضية، وأن هناك مجاز وقع في سنّة النبي ﷺ» ا.هـ[1].

وممن قَالَ بالمجاز في حادثة شق الصدر الدكتور مُحَمَّد الطيّب النجار في كتابه «القبس الوضَّاء من سيرة خاتَم الأنبياء»[2].

قَالَ ابن حجر في سياق رده عن من ينكر الحادثة أو يصرفها عن حقيقتها: «وجميع ما ورد عن شق الصدر واستخراج القلب وغير ذلك من الأمور الخارقة للعادة (هُوَ مِمَّا) يجب التسليم له دون التعرّض لصرفه عن حقيقته، لصلاحية القدرة، فلا يستحيل شيء من ذلك، قَالَ القرطبي في «المفهم شرح صحيح مسلم»: ولا يُلتفت لإنكار الشق ليلة الإسراء، لأن رواته مشاهير»[3].

والحق أن الفاعل هُوَ الله سبحانه، والمكرَّم هُوَ نبيِّه ﷺ، فالفاعل قادر مقتدر، والنبي مكرَّم حباه ربه بكل خير، فلماذا يحاولون إخضاع الأمور لما جرى به الإلف

(١) «فقه السِّيرة» للغزالي (٦٧، ٦٨).
(٢) «القبس الوضاء» (٣٥).
(٣) «الفتح» (٧/ ٢٤٥)، وراجع كلامًا آخر لابن حجر (١/ ٥٤٩)، و(١٣/ ٤٨٩).

. .عادة؟!

٣- **المثبتون لوقوع الحادثة حقيقة من غير تأويل**: وهم جمهور العلماء، ويمكن رجوع إلى كتبهم، ولهم في ذلك أدلتهم القويّة، نذكر منهم:

١- الشيخ مُحمَّد صادق عرجون في كتابه «مُحمَّد ﷺ من نبعته إلى بعثته» (ص١٩٩، ٢٢٤).

٢- د. أبو شهبة «السِّيرة النبوية» (١/ ٢٠٣ - ٢١١).

٣- د. عبد الحليم محمود «الرسول ﷺ» (٥٢ - ٦٥)[١].

عباد الله...

أما عن رعيه ﷺ للغنم:

فتفيدنا روايات الصَّحِيحَيْنِ أن جزءًا من وقت النبي ﷺ قبل البعثة قضاه في رعي الغنم في مكَّة، إذ كان يرعاها لأهل مكَّة عَلَى قراريط[٢].

وقد أفادته تلك خبرة ودراية حَتَّى أن أصحابه حينما كانوا بـ«مر الظهران»[٣]، وهم يجنون «الكباث»[٤]، أرشدهم إلى الأسود منه، فقالوا: يا رسول الله، كأنك رعيت الغنم؟ قَالَ: «**نعم، وهل من نَبيّ إلَّا وقد رعاها**»[٥].

وفي «السيرة» لابن إسحاق: وكان رسول الله ﷺ يقول: «**ما من نبيٍّ إلَّا وقد رعى الغَنم**» قيل: وأنت يا رسول الله؟ قَالَ: «**وأنا**».

عباد الله...

ما هي الحِكْمة من رعي الأنبياء - صلوات الله وسلامه عليهم -الغَنم؟

قَالَ الحافظ ابن حجر - رحمه الله تعالى - في «الفتح» (٤/ ٤٤١): «الحِكمة فِي

---

(١) «محاضرات في السيرة» لأبي عبية (٥٣، ٥٤).
(٢) رواه البخاري (٣/ ٤٨).
(٣) موضع على مرحلة من مكَّة، ويعرف الآن باسم: وادي فاطمة.
(٤) هُوَ النضيج من ثمر الأراك.
(٥) رواه البخاري (٤/ ١٣٠)، ومسلم (٣/ ١٦٢١).

إلهام الأنبياء مِن رعي الغنم قبل النُّبُوّة أن يحصُل لهُم التّمرُّن برعيِها على ما يُكلّفُونهُ مِن القِيام بِأمرِ أُمّتهم، ولِأنّ فِي مُخالطتها ما يُحصِّل لهُم الحِلم والشّفقة لِأنّهُم إذا صبرُوا على رعيها وجمعها بعد تفرُّقها فِي المرعى ونقلها مِن مسرح إلى مسرح ودفع عدُوّها مِن سبُع وغيره كالسّارِقِ وعلِمُوا اختِلاف طِباعها وشِدّة تفرُّقها مع ضعفها واحتِياجها إلى المُعاهدة ألِفُوا مِن ذلِك الصّبر على الأُمّة وعرفُوا اختِلاف طِباعها وتفاوُت عُقُولها فجبرُوا كسرها ورفقُوا بِضعِيفِها وأحسنُوا التّعاهُد لها فيكُون تحمُّلهم لِمشقّةِ ذلِك أسهل مِمّا لو كُلِّفُوا القِيام بِذلِك مِن أوّل وهلة لِما يحصُل لهُم مِن التّدرِيج على ذلِك بِرعيِ الغنم.

وقال: «وخُصّت الغنم بِذلِك لِكونِها أضعف مِن غيرها، ولِأنّ تفرُّقها أكثر مِن تفرُّق الإِبِل والبقر لِإِمكانِ ضبط الإِبِل والبقر بِالرّبطِ دُونها فِي العادة المألُوفة، ومع أكثرِيّة تفرُّقها فهِي أسرع اِنقِيادًا مِن غيرها» ا.هـ.

إن الدَّعوة إلى الله، وقيادة النَّاس إلى ربِّهم، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، كل ذلك يحتاج إلى صبر جميل، ونَفسٍ طويل، وعزمٍ لا يَلين.

وها هُوَ لقمان الحكيم يقول لابنه وهو يعظه: ﴿يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ﴾ [لقمان: ١٧].

عباد الله...

وهكذا بان طرف من الحكمة في إلهام الأنبياء رعي الغنم قبل النبوّة.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

«ومما يستوقف الباحث - في هذه الفترة من نشأة النبي ﷺ - رحلته بصحبة عمّه أبي طالب إلى الشَّام، وقصته مع بحيرا، وهذه قَدْ انفرد بذكرها ابن إسحاق دون الصَّحِيحَيْنِ، وجاءِ فيه: أن أبا طالب حين أراد الذهاب للشام تاجرًا مع

ركب من قريش، تعلقه مُحَمَّد ﷺ فرقّ له عمّه وصحبه معه، فلمَّا نزل الركب «بصرى» من أرض الشَّام، كان يوجد بها راهب يقال له بحيرا، وكان إليه علم أهل النصرانية، فرغب إلى الركب أن يصنع لهم طعامًا، وأن يجتمعوا كلهم عليه، فلمَّا اجتمعوا وأحضروا مُحَمَّدًا جعل يلحظه لحظًا شديدًا، ويتعرف إلى صفاته التي يجدها عنده، ثُمَّ جعل يسأل النبي ﷺ ويجيبه، حَتَّى وافق ما يجده من صفته، ثُمَّ قال لعمه: ارجع بابن أخيك، واحذر عليه يهود، فإنه كائن لابن أخيك هذا شأنٌ عظيم.

ثُمَّ إن نفرًا من أهل الكتاب - غير بَحيرا - رأوا فيه ما رآه بَحيرا، فأرادوه، فردهم عنه بحيرا، فخرج به عمه سريعًا، حَتَّى أقدمه مكَّة حين فرغ من تجارته بالشام[١].

هذه الرواية أوردها ابن إسحاق دون إسناد، لكن رواها الترمذي بسنده إلى أبي موسى الأشعري - رَضِي الله عَنْهُ - فذكر نحوًا من القصّة السابقة، وزاد في آخرها: «وبعث معه أبو بكر بلالًا، وزوّده الراهب من الكعك والزيت»، ثُمَّ قَالَ: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه[٢].

وقد توقف العلماء عند هذه الرواية بين مثبت لها ومنكر، فالترمذي - كما سبق - حسّنها، والحاكم صحّحها، وقال: إنها عَلَى شرط الشيخين[٣]، وقال البيهقي: «فأمَّا القصّة فهي عند أهل المغازي مشهورة»[٤]، وذكرها السُّهَيْلِيُّ دون أن يعلّق عليها، وذكر أن سنه ﷺ تسع سنين أو اثنتا عشرة سنة[٥]، وكذا النووي، وحدد فيها سنّ النبي ﷺ باثنتي عشرة سنة[٦].

---

(١) انظر الجزء المطبوع من «سيرة إبن إسحاق» تحقيق سهيل زكار (ص٧٣)، و«السِّيرة النبوية» لابن هشام (١/ ١٩٤ - ١٩٧) بتصرّف.

(٢) «سنن الترمذي» (٥/ ٢٥٠).

(٣) انظر «المستدرك» (٢/ ٦١٦).

(٤) «دلائل النبوة» (٢/ ٢٦).

(٥) «الروض الأنف» (٢/ ٢٢٠).

(٦) «السِّيرة النبوية» للنووي (ص٢٢).

وذكر ابن سيد الناس: أن سند الترمذي ليس فيه إلا من خرج له في الصحيح(١)، وقال الحافظ ابن حجر: الحديث رجاله ثقات(٢).

كما صحح الرواية من المُحدَثين: الألباني(٣)، ومحمد صادق عرجون(٤)، والأرناؤوط(٥).

أما الذين أنكروها فأبرزهم الذهبيّ حيث قَالَ في «السيرة» بعد سياقه لرواية الترمذي: «وهو حديث منكر جدًّا، وأين كان أبو بكر؟ وأين كان بلال في هذا الوقت؟...»(٦) إلى آخر تفنيده للقصة.

وقال في «الميزان» في ترجمة عبد الرحمن بن غزوان (قراد) - وهوأحد رواة حديث الترمذي -: «قلت: أنكر ما له حديثه عن يونس بن أبي إسحاق، عن أبي بكر بن أبي موسى، عن أبي موسى، في سفر النبي ﷺ، وهو مراهق، مع أبي طالب إلى الشَّام، وقصة بحيرا، ومما يدل عَلَى أَنَّهُ باطل قوله: «ورده أبو طالب، وبعث معه أبو بكر بلالًا، وبلال لم يكن خلق بعد، وأبو بكر كان صبيًّا»(٧).

وقال في «تلخيص المستدرك» - بعد ما ذكر قول الحاكم -: «قُلت: أظنه موضوعًا فبعضه باطل»(٨).

كما أنكرها من المُحدَثين: عبد الرحمن الوكيل(٩).

والذي يبدو أن إمكانية الجمع بين الرأين واردة، لاسيما إذا كان الإنكار منصبًا عَلَى زيادة الترمذي في ذكر أبي بكر وبلال، فضعف هذه الزيادة لم يتوقف

(١) «عيون الأثر» (١/ ٤٣).
(٢) «الإصابة عن شرح الزرقاني على المواهب» (١/ ١٩٦).
(٣) تعليقه على «فقه السِّيرة» للغزالي (ص٦٨).
(٤) «مُحَمَّد رسول الله» (١/ ١٦٩ - ١٧١).
(٥) عبد القادر، وشعيب، وانظر حاشية «زاد المعاد» (١/ ٧٦)، وحاشية «جامع الأصول» (١١/ ٢٦١).
(٦) «السيرة» للذهبي (ص٢٨).
(٧) «ميزان الاعتدال» (٢/ ٥٨١).
(٨) «تلخيص المستدرك» (٢/ ٦١٥).
(٩) انظر تعليقه على «الروض الأنف» للسهيلي (٢/ ٢٢٦، ٢٢٧).

عند الذهبي وحده، وإنما وقف عنده طائفة مِمَّن أشار إلى قوة إسنادها، فالحافظ ابن حجر استنكر هذه الزيادة، وقال: وليس فيه منكر سوى هذه اللفظة، فتحمل على أنها مدرجة فيه مقتطعة من حديث آخر، وهمًا من أحد رواته[١].

وقبله قَالَ ابن القيم: ووقع في كتاب الترمذي وغيره أَنَّهُ بعث معه بلالًا، وهو من الغلط الواضح، فإن بلالًا إذ ذاك لعله لم يكن موجودًا، وإن كان فلم يكن مع عمه، ولا مع أبي بكر[٢].

وقال ابن سيد النَّاس: «إن في متن حديث الترمذي نكارة، وهي إرسال أبي بكر مع النبي ﷺ بلالًا...»[٣].

وقال ابن الجزري: وذِكر أبي بكر فيه وبلال غير محفوظ[٤].

هذا كله فضلًا عن أن رواية ابن إسحاق - التي سبق ذكرها - لم تذكر هذه الزيادة المنكرة.

أما إعلال ابن كثير للقصّة بإرسال أبي موسى الأشعري لها حيث لم يقدم إلى المدينة إلا في سنة خيبر سنة سبع من الهجرة، فمع محاولة ابن كثير الإجابة عن ذلك[٥]، فهناك رواية أخرى ذكرها «رزين» رواها علي بن أبي طالب - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - عن أبيه أبي طالب، وقال ابن الأثير الجزري: وليس بينها وبين رواية الترمذي - عن أبي موسى - كبير اختلاف[٦]، ولعل بها يزول الإرسال المذكور، ويترجح تحسين الترمذي لها، ويتقوّى تصحيح الحاكم للقصة»[٧].

قلت: قصة بحيرا صحيحة، قَالَ الشيخ الألباني - رحمه الله - في تخريجه لأحاديث «فقه السيرة» للغزالي (٧٠): «هذه القصة - قصة بحيرا - صحيحة، فقد

---

(١) «الإصابة عن شرح الزرقاني» (١/ ١٩٦).
(٢) «زاد المعاد» (١/ ٧٦، ٧٧).
(٣) «عيون الأثر» (١/ ٤٣).
(٤) «فقه السيرة» للغزالي «حاشيته» (٦٨).
(٥) «السِّيرة النبوية» لابن كثير (١/ ٢٤٨).
(٦) «جامع الأصول» (١١/ ٢٥٩، ٢٦١).
(٧) «السِّيرة النبوية» د. سليمان بن حمد العودة (١٢٦ - ١٢٩).

أخرجها الترمذي (٤/ ٢٩٦)، من حديث أبي موسى الأشعري، وقال: هذا حديث حسن. قلت: وإسناده صحيح، كما قَالَ الجزريّ، قَالَ: وَذِكْر أبي بكر وبلال فيه غير محفوظ. قلت: وقد رواه البزار فقال: وأرسل معه عمه رجلًا». ا.هـ.

عباد الله...

ومما يستفاد من قصّة بحيرا عدة أمور، منها:

١- أن الصادقين من رهبان أهل الكتاب يعلمون أن مُحَمَّدًا ﷺ هُوَ الرسول الخَاتَم للبشرية، فهم يعرفونه كما يعرفون أبنائهم، عرفوا ذلك لِما وجدوه من أمارات، وأوصاف عنه في كتبهم.

٢- حذَّر بحيرا من النصارى، وبيّن أنهم إذا علموا بالنبيّ ﷺ أنهم سيقتلونه، وناشد عمّه وأشياخ مكَّة ألا يذهبوا به إلى الروم، فإن الروم إذا عرفوه بالصّفة يقتلونه.

لقد كان الرومان عَلَى علم بأن مجيء هذا الرسول سيقضي عَلَى نفوذهم الاستعماري في المنطقة، ومن ثَم فهو العدوّ الذي سيقضي عَلَى مصالح دولة روما، ويعيد هذه المصالح إلى أربابها، وهذا ما يخشاه الرومان(١).

عباد الله...

هذه بعض الدروس المستفادة من قصة بحيرا الراهب، وفي الجمعة القادمة إن شاء الله نواصل الحديث عن سيرة النبيّ الأمين ﷺ.

فإلى اللقاء إن شاء الله.

اللَّهُمَّ وفِّقنا لأحسنِ الأعمال، لا يُوفِّق لأحْسَنِها إلَّا أنت

آمين... آمين... آمين.

---

(١) «السِّيرة النبوية» د. الصلابي (١/ ٧٦) باختصار وتصرّف.

الخطبة الثالثة والستون:

حرب الفِجَار، وحلف الفضول

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيِّ الأمين ﷺ.

ونتكلم اليوم إن شاء الله تعالى عن:

- حرب الفجار.
- وحلف الفضول.
- والدروس المستفادة منهما.

والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربَّ سواه.

عباد الله...

أما عن حرب الفجار:

فالفِجار - بكسر الفاء - بمعنى المفاجرة، كالقتال والمقاتلة، وذلك أَنَّهُ كان قتالًا في الشهر الحرام، ففجروا فيه فسمِّي الفجار، وقد حدثت حرب الفجار بين قريش ومن معهم من كنانة، وبين قيس عيلان، وكانت الدَّبرةُ عَلَى قيس، وكان سببها: أن عروة الرَّحال بن عتبة بن هوازن أجاز لطيمة[1] للنعمان بن المنذر إلى سوق عكاظ، فقال البرَّاض بن قيس بن كنانة أتجيرها عَلَى كنانة؟ قَالَ: نعم، وعلى الخلق، فخرج بها عروة، وخرج البرّاض يطلب غفلته حَتَّى قتله، وعلمت بذلك كنانة فارتحلوا وهوازن لا تشعر بهم.

ثُمَّ بلغهم الخبر فاتبعوهم، فأدركوهم قبل أن يدخلوا الحرم، فاقتتلوا حَتَّى جاء اللَّيل ودخلوا الحرم، فأمسكت عنهم هوازن، ثُمَّ التقوا بعد هذا اليوم أيامًا وعاونت قريش كنانة[2]، وشهد مُحَمَّد ﷺ بعض أيامهم، أخرجه أعمامه معهم[3].

وقد استمرت هذه الحرب أربعة أيام، ولم يشترك النبيُّ ﷺ إلَّا في اليوم الثالث، أخرجه أعمامه، وكان يناولهم النّبل ليرموا[4].

وقد قَالَ ﷺ عن تلك الحرب: «**كنتُ أنبِّل عَلَى أعمامِي**» أي: أرد عليهم نبل عدوّهم إذا رموا بها[5].

وروى ابن سعد في «الطبقات» عن النبيّ ﷺ - وقد ذكر الفِجار - فقال: «**قَدْ حضرتُه مع عُمومتي، ورميتُ فيه بأَسْهُم، وما أحبُّ أنِّي لم أكن فعلتُ**».

لقد شارك النبي ﷺ في فترة شبابه في شئون المجتمع الذي كان يعيش فيه.

---

(١) اللطيمة: الجمال التي تحمل الطيب والبزّ والتجارة.

(٢) قريش فرع من كنانة.

(٣) «السِّيرة النبوية» د. الصلابي (١/ ٧٧).

(٤) «محاضرات في السيرة» لأبي عُبية (٦٣)، وكان ﷺ في سن الرابعة عشرة.

(٥) «السِّيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٢٢١ - ٢٢٤).

ـدلى برأيه مناصرًا للحق ومبطلًا للباطل، وقد أكسبته هذه المشاركة خبرةً ـعن ضن العلل والفساد التي كانت تستشري في كيان الأمم والشعوب، ومن ثَمَّ ـكسبته قدرةُ عَلَى تقديم الدواء لهذه الآفات والأمراض، وجعلته ذا بصيرة نيِّرة تنقذ الأحياء من حيرتهم، وتؤنس من وحشتهم وتخلصهم من جاهليتهم. ا.هـ[1].

عبـد الله...

ومن الدلالات المستفادة من الحادث:

١- لم يشترك النبي ﷺ اشتراك الحريص، لعدم موافقته عَلَى هذه الحرب التي قامت عَلَى ظلم، وهي حرب فاجرة لتوقيتها.

٢- لم يكن النبي ﷺ حريصًا عَلَى القتل والعداء، فلم يرم بها يقتل، وإنما كما قَالَ: «كنت أنبُل عَلَى أعمامي» أي: يناولهم النبل ليرموا، أما هُوَ فلم يرم، وإن رمى بأسهم فقد صرح بعدم رضاه عن ذلك في حديث رواه ابن سعد وفيه: «ورميت فيه بأسهم، وما أُحبُّ أني لم أكن فعلت» ولو صح أَنَّهُ رمى فقد كان ذلك ردًّا عَلَى عدوان.

٣- لم يخرج ﷺ إلى هذه الحرب من تلقاء نفسه، وإنما أخرجه أعمامه، فخرج من باب الحرص عَلَى الأرحام.

وفي مواقفه ﷺ تلك بيان لما كان عليه من خُلُق، حيث لم يشترك في حرب ظالمة، وأطاع أعمامه فساعدهم دون أن يتعدى ذلك.

وفيها بيان لسلامة فطرته، وأنه استطاع معرفة الحق، وبنى موقفه عَلَى ذلك[2].

عباد الله...

أما حلف الفضول:

فكانَ بعد رجوع قريش من حرب الفجار، وسببه أن رجلًا من زبيد[3] قدم

---

(١) «قراءة في السِّيرة النبوية المطهرة – العصر المكيّ» د. يسري زيدان (١٨٨).
(٢) «محاضرات في السيرة» (٦٤).
(٣) زبيد: بلد باليمن.

مكَّة ببضاعة فاشتراها منه العاص بن وائل، ومنعه حقه فاستعدى عليه الزبيدي أشراف قريش، فلم يعينوه لمكانة العاص فيهم، فوقف عند الكعبة واستغاث بآل فهر وأهل المروءة ونادى بأعلى صوته:

يــا آل فهــر لمظلــوم بــضاعته ... بـبطن مكَّـة نائـي الـدار والنفـر

ومحـرم أشـعث لم يقـض عمرته ... يـا للـرجال وبين الحِجر والحَجَر

إن الحــــرام لم تمـــت كـــرامته ... ولا حـرام لثوب الغادر الفجِر[1]

فقام الزُّبير بن عبد المطلب فقال: ما لهذا مترك، فاجتمعت بنو هاشم، وزهرة، وبنو تَيم بن مرة في دار عبد الله بن جُدعان فصنع لهم طعامًا، وتحالفوا في شهر حرام، وهو ذو القعدة، فتعاقدوا وتحالفوا بالله ليكونُنَّ يدًا واحدة مع المظلوم عَلَى الظالم حَتَّى يُرد إليه حقه ما بلّ بحر صوفة، وما بقي جَبَلَا ثبير وحراء مكانهما[2].

ثُمَّ مشوا إلى العاص بن وائل، فانتزعوا منه سلعة الزبيدي، فدفعوها إليه. وسمَّت قريش هذا الحلف «حلف الفضول»، وقالوا: لقد دخل هؤلاء في فضل من الأمر.

وفي هذا الحلف قَالَ الزُّبير بن عبد المطلب:

إن الفـضول تعاقـدوا وتحالفـوا ... ألا يقــيم بــبطن مكَّــة ظــالم

أمـر علـيه تعاقـدوا وتواثقـوا ... فالجـار والمعـتر[3] فـيهم سـالم

وقد حضر هذا الحلف النبي ﷺ الذي هدموا به صرح الظلم، ورفعوا به منار الحق، وهو يعتبر من مفاخر العرب وعرفانهم لحقوق الإنسان[4]، وقد قَالَ ﷺ: «**شَهِدْتُ حِلْفَ الْمُطَيَّبِينَ مَعَ عُمُومَتِي وَأَنَا غُلَامٌ فَمَا أُحِبُّ أَنَّ لِي حُمْرَ النَّعَمِ وَأَنِّي**

(١) «الروض الأنف» للسهيلي (١/ ١٥٥، ١٥٦).
(٢) «السِّيرة النبوية» لأبي شهبة (١/ ٢١٣).
(٣) المعتر: الزائر من غير البلاد.
(٤) «السِّيرة النبوية» لأبي شهبة (١/ ٢١٤).

بحتة»[١].

وقال ﷺ: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ وَلَوِ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلاَمِ لأَجَبْتُ»[٢].

أيها المسلمون...

وهنا سؤال: كيف الجمع بين ما ورد في هذه الأحاديث، وبين ما أخرجه الإمام مسلم عن جبير بن مُطعم، عن النبي ﷺ قَالَ: «لَا حِلْفَ فِي الإِسْلَامِ وَأَيُّمَا حِلْفٍ كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ لَمْ يَزِدْهُ الإِسْلَامُ إِلَّا شِدَّةً»[٣].

وبوَّب البخاري في كتاب الأدب بابًا فقال: «باب الإخاء والحلف» وروى فيه حديث أنس رقم (٦٠٨٣) [الفتح ١٠/ ٥١٧] مرفوعًا: أن النبي ﷺ قَالَ: «لا حلف في الإسلام».

ونعيد السؤال بصيغة أخرى: هل كانت المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار حلفًا؟ وإذا كانت كذلك فما المقصود بالحلف هنا؟ وهل يتعارض مع قول النبي ﷺ: «لا حلف في الإسلام»؟

قَالَ النووي: «المَنْفي هُوَ حلف التوارث، وما يمنع منه الشَّرع، وأما التحالف عَلَى الطاعة ونصر المظلوم والمؤاخاة في الله تعالى فهو أمر مُرغَّب فيه»[٤]. ا.هـ[٥].

عباد الله...

ومن الدروس المستفادة من هَذَا الحدث:

١- إن العدل قيمة مطلقة وليست نسبيّة، وأن الرسول ﷺ يظهر اعتزازه بالمشاركة

---

١) صحيح: صححه الألباني.

٢) «سبل الهدى والرشاد» (٢/ ٢٠٩).

٣) أخرجه الترمذي من حديث عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده، وأخرجه البخاري في «الأدب المفرد» عن عبد الله بن أبي أوفى بنحوه.

٤) «الفتح» (١٠/ ٥١٨).

٥) «محاضرات في السيرة» (٦٦).

في تعزيز مبدأ العدل قبل بعثته بعقدين، فالقيم الإيجابية تستحق الإشادة بها حتى لو صدرت من أهل الجاهلية.

٢- إن حلف الفضول واحة في ظلام الجاهلية، وفيه دلالة بينة على أن شيوع الفساد في نظام أو مجتمع لا يعني خلوه من أي فضيلة.

٣- جواز التحالف والتعاهد على فعل الخير، وهو من قبيل التعاون المأمور به في القرآن الكريم، قَالَ تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلاَ الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلاَ الْهَدْيَ وَلاَ الْقَلاَئِدَ وَلاَ آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [المائدة: ٢].

ويجوز للمسلمين أن يتعاقدوا في مثل هَذَا الحال، لأنه تأكيد لشيء مطلوب شرعًا، على ألا يكون ذَلِكَ شبيهًا بمسجد الضرار، بحيث يتحول التعاقد إلى نوع من الحزبية الموجهة ضد مسلمين آخرين ظلمًا وبغيًا، وأما تعاقد المسلمين مع غيرهم على دفع ظلم أو في مواجهة ظالم، فذلك جائز لهم، على أن تلحظ في ذَلِكَ مصلحة الإسلام والمسلمين في الحاضر والمستقبل، وفي هَذَا الحديث دليل.

والدليل فيه قوله ﷺ: «مَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ» لما يحقق من عدل، ويمنع من ظلم، أو النكث به مقابل حمر النعم، وقوله ﷺ: «وَلَوِ أُدْعَى بِهِ فِي الإِسْلاَمِ لأَجَبْتُ» طالما أَنَّهُ يردع الظالم عن الظلم، وقد بيّن ﷺ استعداده للإجابة بعد الإسلام لمن ناداه بهذا الحلف[1].

٤- وعلى المسلم أن يكون في مجتمعه إيجابًا فاعلًا، لا أن يكون رقمًا من الأرقام على هامش الأحداث في بيئته ومجتمعه، فقد كان النبي ﷺ محط أنظار مجتمعه. وصار مضرب المثل فيهم، حتى لقبوه بالأمين وتهفوا إليه قلوب الرجال والنساء على السواء - بسبب الخُلُق الكريم الذي حبا الله تعالى به نبيه ﷺ -

(١) «الأساس في السُّنة» (٤/ ١٧٢).

وما زال يزكو وينمو حتى تعلقت قلوب قومه، وهذا يعطينا صورة حيّة عن قيمة الأخلاق في المجتمع، وعن احترام صاحب الخُلُق ولو في المجتمع المنحرف[١].

عباد الله...

هَذَا جوانب من حياة النبيّ ﷺ قبل بعثته، تدلّ على طيب معدنه، وقوّة شخيصته، وتفاعله مع المجتمع الذي يعيش فيه تفاعلًا إيجابيًّا ينفع ولا يضرّ.

فما أحوجنا إلى معرفة سيرته، ومتابعة هديه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد عايش النبيُّ ﷺ الأحداث التي مرت بها قريش، ووقف بجانب المظلوم، وشدّ من أزر قومه فيما عندهم من فضائل، دون أن يتأثر بشيء من جاهليتهم.

فالله تعالى عصمه عن جميع مظاهر الانحراف، ويدل على ذَلِكَ الحديث التالي:

عن عليٍّ بن أبي طالبٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ -قال: سَمِعْتُ رسولَ الله ﷺ يقول: **ما هَمَمْتُ بِقَبيحٍ مِمَّا يَهُمُّ بِهِ أَهْلُ الجَاهِلِيَّةِ إلا مرَّتينِ مِنَ الدَّهرِ، كلتاهُما عَصَمَني اللَّهُ منهما، قُلْتُ ليلةً لِفتى كان معي مِنْ قريشٍ بأعلى مكَّةَ في غَنَمٍ لأهلنا نرعاها: أَبْصِرْ لي غنمي حتَّى أَسْمُرَ هذه اللَّيلةَ بمكَّةَ كما يَسْمُرُ الفِتيانُ، قال: نَعَمْ، فخرجتُ، فلمَّا جِئْتُ أدنى دارٍ مِنْ دُورِ مكَّةَ سمعتُ غناءً وصَوْتَ دُفوفٍ ومزاميرَ، قلتُ: ما هٰذا؟ قالوا: فلانٌ تزَوجَ فلانةَ، لِرَجُلٍ مِنْ قريشٍ تزوَّجَ امرأةً مِنْ قريشٍ، فَلَهَوْتُ بذٰلكَ الغناءِ وبذٰلكَ الصَّوتِ حتَّى غلبتني عَيْني، فَنِمْتُ، فما أيقظني إلا مَسُّ الشَّمسِ، فرجعتُ إلى صاحبي، فقال: ما فعلتَ؟ فأخبرتُهُ، ثُمَّ فَعَلْتُ ليلةً أخرى مثلَ ذٰلكَ، فَخَرَجْتُ، فَسَمِعْتُ مِثْلَ ذٰلك، فقيلَ لي مثلَ ما قيلَ لي، فَسَمِعْتُ كما سمعتُ، حتَّى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا**

---

(١) «فقه السيرة» للغضبان (١١٠، ١١١)، و«السِّيرة النبوية» د. الصلابي (١/ ٧٩، ٨٠) باختصار.

مَسُّ الشَّمسِ، ثمَّ رجعتُ إلى صاحِبي، فقالَ لي، ما فَعَلْتَ؟ فقلتُ: ما فعلتُ شيئًا». قال رسولُ الله: «**فوالله ما هَمَمْتُ بَعْدَهُمَا بسوءٍ ممَّا يعملُهُ أهلُ الجاهليَّةِ حتَّى أكرمني الله بنُبُوَّتِهِ**»[1].

وهذا الحديث يوضح لنا حقيقتين، كل منهما على جانب كبير من الأهمية:

١- أن النبي ﷺ كان متمتعًا بخصائص البشرية كلها، وكان يجد في نفسه ما يجده كل شاب من مختلف الميولات الفطرية التي اقتضت حكمة الله أن يُجبل النَّاس عليها، فكان يحس بمعنى السمر واللهو ويُشعر بها في ذَلِكَ من متعة، وتحدثه نفسه لو تمتع بشيء من ذَلِكَ كما يتمتع الآخرون.

٢- أن الله عَزَّ وَجَلَّ قد عصمه مع ذَلِكَ عن جميع مظاهر الانحراف وعن كل ما لا يتفق مع مقتضيات الدعوة التي هيأه الله لها[2].

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث عن سيرة المصطفى، إن شاء الله تعالى. فإلى اللقاء.

❂❂❂❂❂

---

(١) «صحيح السِّيرة النبوية» لإبراهيم العلي (ص٥٧).
(٢) «فقه السيرة» للبوطي (٥٠، ٥١).

الخطبة الرابعة والستون:

زواجه ﷺ بخديجة، واشتراكه في إعادة بناء الكعبة وتعبده في غار حِراء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة المصطفى ﷺ.

والحديث اليوم يدور حول:

- **زواج النبي ﷺ بخديجة رضي الله عنها.**
- **واشتراكه ﷺ في بناء الكعبة.**

- **وتعبده ﷺ في غار حراء.**

وأسأل الله تعالى التوفيق لما يحب ويرضى.

عباد الله...

كانت خديجة بنت خويلد رضي الله عنها أرملة[١] ذات شرف ومال، تستأجر الرجال ليتجروا بمالها، فلمَّا بلغها عن مُحَمَّد صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه عرضت عليه أن يخرج في مالها إلى الشَّام تاجرًا وتعطيه أفضل ما تعطي غيره من التجار، فقبل وسافر معه غلامها ميسرة، وقدما الشَّام وباع مُحَمَّد ﷺ سلعته التي خرج بها، واشترى ما أراد من السلع، فلمَّا رجع إلى مكَّة وباعت خديجة ما أحضره لها تضاعف مالها.

وقد حصل مُحَمَّد ﷺ في هذه الرحلة عَلَى فوائد عظيمة بالإضافة إلى الأجر الذي ناله، إذ مر بالمدينة التي هاجر إليها من بعد وجعلها مركزًا لدعوته، وبالبلاد التي فتحها ونشر فيها دينه، كما كانت رحلته سببًا لزواجه من خديجة بعد أن حدثها ميسرة عن سماحته وصدقه وكريم أخلاقه، ورأت خديجة في مالها البركة ما لم تر قبل هذا، وأخبرت بشمائله الكريمة ووجدت ضالتها المنشودة، فتحدثت بما في نفسها إلى صديقتها نفيسة بنت منبه، وهذه ذهبت إليه تفاتحه أن يتزوج خديجة فرضي بذلك وعرض ذلك عَلَى أعمامه، فوافقوا كذلك، وخرج معه عمه حمزة بن عبد المطلب فخطبها إليه وتزوجها رسول الله ﷺ وأصدقها عشرين بَكرة، وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله ﷺ، ولم يتزوج غيرها حَتَّى ماتت رضي الله عنها[٢]، وقد ولدت لرسول الله ﷺ غلامين وأربع بنات، وابناه هما:القاسم وبه كان يكنى ﷺ، وعبد الله، ويُلقب الطاهر والطيّب.

وقد مات القاسم بعد أن بلغ سنًا تمكنه من ركوب الدابة، ومات عبد الله وهو طفل، وذلك قبل البعثة، أما بناته فهن: زينب، ورقيّة، وأُمّ كلثوم، وفاطمة، وقد

---

(١) تزوجها عتيق بن عائذ ثم مات عنها، فتزوجها أبو هالة ومات أيضًا.

(٢) قاله ابن هشام، وانظر «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٣٢٤).

سنمن وهاجرن إلى المدينة وتزوجن[١]، هذا وقد كان عُمر رسول الله ﷺ حين تزوج خديجة رضي الله عنها خمسًا وعشرين سنة، وكان عمرها أربعين سنة[٢].

وقال ابن كثير: وقيل: خمسين، وهو أصحّ. ا.هـ[٣].

أيها المسلمون...

ويستفاد مِمَّا سبق:

١- إن الأمانة والصدق أهم مواصفات التاجرالناجح، وهما من أسباب البركة وسعة الرزق.

٢- قَالَ الشيخ مُحمَّد الغزالي - رحمه الله -: وخديجة مثلٌ طيِّب للمرأة التي تكمل حياة الرجل العظيم، إن أصحاب الرسالات يحملون قلوبًا شديدة الحساسية، ويلقون غُبنًا بالغًا من الواقع الذي يريدون تغييره، ويقاسون جهادًا كبيرًا في سبيل الخير الذي يريدون فرضه، وهم أحوج ما يكونون إلى مَن يتعهد حياتهم الخاصة بالإيناس والترفيه، وكانت خديجة سبَّاقة إلى هذه الخِصال، وكان لها في حياة مُحمَّد ﷺ أثرٌ كريم.

٣- وفي زواج النبي ﷺ من السيدة خديجة ما يلجم ألسنة الحاقدين، وأقلام الحاقدين عَلَى الإسلام، وقوة سلطانه من المستشرقين وعبيدهم العلمانيين الذين ظنوا أنهم وجدوا في موضوع زواج النبي ﷺ مقتلًا يُصاب منه الإسلام، وصوّروا النبي ﷺ في صورة الرجل الشهواني الغارق في لذاته وشهواته، فنجد أن النبي ﷺ عاش إلى الخامسة والعشرين من عمره في بيئة جاهلية، عفيف النفس، دون أن ينساق في شيء من التيارات الفاسدة التي تموج حوله، كما أَنَّهُ تزوج من امرأة لها ما يقارب ضعف عمره، وعاش معها دون أن تمتد عينه إلى شيء مِمَّا حوله، وإن من حوله الكثير وله إلى ذلك أكثر من

(١) «رسالة الأنبياء» (٣/ ٢٨).
(٢) «السِّيرة النبوية» لأبي فارس (١٢٢).
(٣) «البداية والنهاية» (٢/ ٣٢٤).

سبيل، إلى أن يتجاوز مرحلة الشباب، ثُمَّ الكهولة، ويدخل في سن الشيوخ، وقد ظل هذا الزواج قائمًا حَتَّى توفيت خديجة عن خمسة وستين عامًا، وقد ناهز النبي ﷺ الخمسين من عُمر الإنسان هُوَ الزمن الذي تتحرك فيه رغبة الاستزادة من النساء والميل إلى تعدد الزوجات للدوافع الشهوانية.

ولكن النبي ﷺ لم يفكر في هذه الفترة بأن يضم إلى خديجة مثلها من النساء، زوجة أو أَمة، ولو أراد لكان الكثير من النساء والإماء طوع بنانه.

أما زواجه بعد ذلك من السيدة عائشة وغيرهن من أمهات المؤمنين، فإن لكل منهنّ قصة، ولكل زواج حِكمة يزيدان في إيمان المسلم بعظمة مُحَمَّد ﷺ ورفعة شأنه وكمال أخلاقه[1].

عباد الله...

ولما بلغ مُحَمَّد ﷺ خمسًا وثلاثين سنة اجتمعت قريش لتجديد بناء الكعبة لِمَا أصابها من حريق وسيل جارف صدّع جدرانها، وكانت لا تزال كما بناها إبراهيم عليه السلام رضمًا[2] فوق القامة، فأرادوا هدمها ليرفعوها ويسّقفوها، ولكنهم هابوا هدمها، وخافوا منه، فقال الوليد بن المغيرة: أنا أبدؤكم في هدمها، فأخذ المعول، ثُمَّ قام عليها وهو يقول: اللَّهُمَّ لم نزغ، ولا نريد إلا الخير، وهدم من ناحية الركني، فتربص النَّاس تلك الليلة وقالوا: ننظر، فإن أصيب لم نهدم منها شيئًا. ورددناها كما كانت، وإن لم يصبه شيء فقد رضي الله ما صنعنا، فأصبح الوليد غاديًا يهدم، وهدم النَّاس معه حَتَّى انتهوا إلى حجارة خضرة كالأسنمة[3] آخذ بعضها ببعض.

وكانوا قَدْ جزءوا العمل وخصّوا كل قبيلة بناحية، واشترك سادة قريش وشيوخها في نقل الحجارة ورفعها، وقد شارك النبي ﷺ وعمّه العباس في بناء

(١) «فقه السيرة» (٥٣، ٥٤).
(٢) الرضم: حجارة منضودة بعضها على بعض من غير طين.
(٣) جمع سنام وهو أعلى ظهر البعير.

الكعبة وكانا ينقلان الحجارة، فقال العباس للنبي ﷺ: «اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَقِيكَ مِنْ الحِجَارَةِ» فَخَرَّ إِلَى الأَرْضِ[١] وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «إِزَارِي إِزَارِي» فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارَهُ[٢].

فلمَّا بلغوا موضع الحجر الأسود اختصموا فيه، كل قبيلة تُريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى، وكادوا يقتتلون فيما بينهم، لولا أن أبا أميّة بن المغيرة قَالَ: يا معشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب المسجد، فلمَّا توافقوا عَلَى ذلك دخل مُحَمَّد ﷺ فلمَّا رأوه قالوا: هذا الأمين، قَدْ رضينا، فلمَّا أخبروه الخبر قَالَ: هلموا ثوبًا، فأتوه به، فوضع الركن فيه بيديه، ثُمَّ قَالَ: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب، ثُمَّ ارفعوا جميعًا، فرفعوه، حَتَّى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده ثُمَّ بنى عليه[٣].

وأصبح ارتفاع الكعبة ثمانية عشر ذراعًا، ورفع بابها عن الأرض بحيث يصعد إليه بدرج، لئلا يدخل إليها كل أحد، فيُدخلوا من شاءوا، وليمنعوا الماء من الشرب إلى جوفها، وأسند سقفها إلى ستة أعمدة من الخشب، إلا أن قريشًا قصرت بها النفقة الطيبة عن إتمام البناء عَلَى قواعد إسماعيل، فأخرجوا منها الحجر، وبنوا عليه جدارًا قصيرًا دلالة عَلَى أَنَّهُ منها، لأنهم شرطوا عَلَى أنفسهم أن لا يدخل في بناءها إلا نفقة طيبة، ولا يدخلها مهر بغي، ولا بيع ربا، ولا مظلمة لأحد[٤].

عباد الله...

ومن الدروس والعبر والفوائد المستفادة من هذا الحدث:

١- بيان أهمية الكعبة وقداستها عند قريش، ويكفي أن باشر تأسيسها ورفع قواعدها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام بأمر من الله تعالى لتكون أول

(١) ففعل ذَلِكَ فوقع.
(٢) رواه البخاري (١٥٨٣).
(٣) رواه ابن إسحاق، ورواه أحمد بنحوه، وإسناده جيد.
(٤) «البداية والنهاية» (٢/ ٣٣٢).

بيتٍ وضع لعبادة الله تعالى.

٢- إن حادثة تجديد بناء الكعبة قد كشفت عن مكانة النبي ﷺ الأدبية في الوسط القرشي، وحصل لرسول الله ﷺ في هذه الحادثة شرفان: شرف فصل الخصومة ووقف القتال المتوقع بين قبائل قريش، وشرف تنافس عليه القوم وادّخره الله لنبيِّه ﷺ ألا وهو وضع الحجر الأسود بيديه الشريفتين، وأخذه من البساط بعد رفعه ووضعه في مكانه من البيت[1].

٣- إن المسلم يجد في حادثة تجديد بناء الكعبة كمال الحفظ الإلهي وكمال التوفيق الرباني في سيرة رسول الله ﷺ، كما يلاحظ كيف أن الله أكرم رسوله بهذه القدرة الهائلة عَلَى حل المشكلات بأقرب طريق وأسهله، وذلك ما تراه في حياته ﷺ كلها، وذلك مَعلم من معالم رسالته، فرسالته إيصال للحقائق بأقرب طريق، وحل للمشكلات بأسهل أسلوب وأكمله[2].

ومَن حفظ الله لنبيِّه ﷺ في شبيبته عن أقذار الجاهلية وأدرانها، ومعائبها ما وقع له عندما كان ينقل الحجر أثناء بناء الكعبة ورفع إزاره عَلَى رقبته، فخر إلى الأرض وطمحت عيناه إلى السماء ثُمَّ أفاق وقال: «إزاري إزاري» فشد عليه إزاره، فما رؤيَ بعد ذلك عُريانًا ﷺ[3][4].

عباد الله...

ولما بلغ رسول الله ﷺ أربعين سنة، بعثه الله رحمةً للعالمين، ورسولًا إلى كافة الثقلين أجمعين، وذلك سنة إحدى وأربعين من حادثة الفيل، وقيل: كان ذلك في شهر ربيع الأول، وقيل: في رجب، وقيل: في رمضان.

عَن عُروَةَ بنِ الزُّبَيرِ عَن عَائِشَةَ أُمِّ المُؤمِنِينَ أَنَّهَا قَالَت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ

---

(١) «السِّيرة النبوية» لأبي فارس (١٢٥، ١٢٦).

(٢) «الأساس في السُّنة» (١/ ١٧٥).

(٣) رواه البخاري (١٥٨٣).

(٤) «السِّيرة النبوية» د. الصلابي (٨٦، ٨٧) باختصار.

ـه ﷺ مِن الوَحيِ: الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّومِ، فَكَانَ لَا يَرى رُؤيَا إِلَّا جَاءَت مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيهِ الخَلَاءُ وَكَانَ يَخلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ ـيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبلَ أَن يَنزِعَ(١) إِلَى أَهلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: «اقرَأ، قَالَ: مَا ـا بِقَارِئٍ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي(٢) حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ ثُمَّ أَرسَلَنِي فَقَالَ: اقرَأ، قُلتُ: مَا ـا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي فَقَالَ: اقرَأ، فَقُلتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن عَلَقٍ * اقرَأ وَرَبُّكَ الأَكرَمُ﴾.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنتِ خُوَيلِدٍ رَضِيَ ـهُ عَنهَا فَقَالَ: «زَمِّلُونِي(٣) زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنهُ الرَّوعُ(٤)، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَد خَشِيتُ عَلَى نَفسِي».

فَقَالَت خَدِيجَةُ: كَلَّا، وَاللهِ مَا يُخزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحمِلُ ـكَلَّ(٥)، وَتَكسِبُ المَعدُومَ(٦)، وَتَقرِي(٧) الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ.

فَانطَلَقَت بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَت بِهِ وَرَقَةَ بنَ نَوفَلِ بنِ أَسَدِ بنِ عَبدِ العُزَّى ابنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امرَأً قَد تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكتُبُ الكِتَابَ العِبرَانِيَّ فَيَكتُبُ مِنَ الإِنجِيلِ بِالعِبرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَن يَكتُبَ، وَكَانَ شَيخًا كَبِيرًا قَد عَمِيَ، فَقَالَت لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابنَ عَمِّ اسمَع مِن ابنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابنَ أَخِي: مَاذَا تَرَى؟ فَأَخبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى.

---

(١) ينزع: يرجع.
(٢) أي: ضمّه وعصره.
(٣) زملوني: لفوني بغطاء.
(٤) الرَّوع: الخوف والفزع.
(٥) الكلّ: المحتاج إلى المساعدة.
(٦) المعدوم: الفقير.
(٧) تقري: تُعطم.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ(١) الَّذِي نَزَّلَ اللَّهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيتَنِي فِيهَا جَذَعًا(٢)لَيتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذ يُخرِجُكَ قَومُكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوَمُخرِجِيَّ هُم؟» قَالَ: نَعَم، لَم يَأتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثلِ مَا جِئتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِن يُدرِكنِي يَومُكَ أَنصُركَ نَصرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَم يَنشَب وَرَقَةُ أَن تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحيُ(٣).

قَالَ الحافظ ابن حجر: «وفي هذه القصة من الفوائد استحباب تأنيس من نزل به أمر بذكر تيسيره عليه وتهوينه لديه، وأن من نزل به أمر استحب له أن يطلع عليه من يثق بنصحيته وصحة رأيه» ا.هـ.

عباد الله...

هذه قصّة بداية نزول الوحي عَلَى قلب نبيِّنا ﷺ وفيها كثير من الدروس والعبر، سيأتي بعضها بعد جلسة الاستراحة إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فإن أول آيات نزلت من القرآن المجيد: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١-٥]

ومعنى ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ أي: اقرأ يا مُحَمَّد القرآن مبتدئًا ومستعينًا باسم ربك الجليل، الذي خلق جميع المخلوقات، وأوجد جميع العوالم، وقال

(١) الناموس: يعني جبريل عليه السلام، والناموس: صاحب السرّ.
(٢) جذعًا: شابًّا.
(٣) رواه البخاري (٣).

سهيلي: أي: لا تقرؤه بقوتك ولا بمعرفتك لكن بحول ربك وإعانته، فهو يعمك كما خلقك.

ثم فسَّر «الخَلق» تفخيمًا لشأن الإنسان فقال تعالى: ﴿خَلَقَ الإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ﴾ أي: خَلق هذا الإنسان البديع الشكل الذي هُوَ أشرف المخلوقات من العلقة، وهي الدودة الصغيرة، وقد أثبت الطب الحديث أن المني الذي خُلق منه الإنسان محتوٍ عَلَى حيوانات منوية لا تُرى بالعين، وإنما تُرى بالمجهر الدقيق وأن لها رأسًا وذنبًا، فتبارك الله أحسن الخالقين.

قَالَ القرطبي: خصّ الإنسان بالذكر تشريفًا له، والعلقة: قطعة من دم رطب، سميت بذلك لأنها تعلق لرطوبتها بما تمر عليه.

وقوله: ﴿اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ﴾ أي: اقرأ يا مُحمَّد وربك العظيم الكريم، الذي لا يساويه ولا يدانيه كريم، وقد دلّ عَلَى كمال كرمه أَنَّهُ ﴿الرَّحْمَنُ* عَلَّمَ القُرْآنَ * خَلَقَ الإِنسَانَ * عَلَّمَهُ البَيَانَ﴾ [الرحمن: ١- ٤].

فهو سبحانه علَّم العباد ما لم يعلموا، لذا قَالَ سبحانه: ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ أي: الذي علَّم الخط والكتابة بالقلم، وعلَّم البشر ما لم يكونوا يعرفونه من العلوم والمعارف، فنقلهم من ظلمة الجهل إلى نور العلم، فكما علَّم سبحانه بواسطة الكتابة بالقلم، فإنه يعلمك بلا واسطة وإن كنت أميًّا لا تقرأ ولا تكتب.

قَالَ القرطبيّ: نبّه - تعالى - عَلَى فضل علم الكتابة، لما فيه من المنافع العظيمة التي لا يحيط بها إنسان، وما دونت العلوم ولا قيدت الحِكم، ولا ضبطت أخبار الأولين ومقالاتهم، ولا كُتب الله المنزلة إلا بالكتابة، ولولاها ما استقامت أمور الدنيا والدين.

وقال العلَّامة ابن القيّم في هذه الآيات المباركات: «تأمل كيف جمع سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في هذه الكلمات مراتب الخلق كلها، وكيف تضمنت مراتب الوجودات الأربعة بأوجز لفظ وأوضحه وأحسنه.

فذكر أولًا: عموم الخلق وهو إعطاء الوجود الخارجي.

ثم ذكر ثانيًا: خصوص خلق الإنسان لأنه موضع العبرة والآية فيه عظيمة، ومن شهوده عما فيه محض تعدد النعم، وذكر مادة خلقه ههنا من العلقة، وفي سائر المواضع يذكر ما هو سابق عليها: إما مادة الأصل وهو التراب والطين، أو الصلصال الذي كالفخار، أو مادة الفرع وهو الماء المهين، وذكر في هذا الموضع أول مبادئ تعلق التخليق وهو العلقة فإنه كان قبلها نطفة فأول انتقالها إنما هو إلى العلقة.

ثم ذكر ثالثًا: التعليم بالقلم الذي هو من أعظم نعمه على عباده، إذ به تخلد العلوم، وتثبت الحقوق، وتعلم الوصايا، وتحفظ الشهادات، ويضبط حساب المعاملات الواقعة بين الناس، وبه تقيد أخبار الماضين للباقين اللاحقين، ولولا الكتابة لانقطعت أخبار بعض الأزمنة عن بعض، ودرست السنن، وتخبطت الأحكام، ولم يعرف الخلف مذاهب السلف، وكان معظم الخلل الداخل على الناس في دينهم ودنياهم إنما يعتريهم من النسيان الذي يمحو صور العلم من قلوبهم، فجعل لهم الكتاب وعاءً حافظًا للعلم من الضياع كالأوعية التي تحفظ الأمتعة من الذهاب والبطلان، فنعمة الله ﷻ بتعليم القلم بعد القرآن من أجلِّ النعم، والتعليم به وإن كان مما يخلص إليه الإنسان بالفطنة والحيلة فإنه الذي بلغ به ذلك وأوصله إليه عطية وهبها الله منه، وفضل أعطاه الله إياه وزيادة في خلقه وفضله، فهو الذي علمه الكتابة، وإن كان هو المتعلم، ففعله فعل مطاوع لتعليم الذي علم بالقلم، فإنه علمه فتعلم كما أنه علمه الكلام فتكلم، هذا ومن أعطاه الذهن الذي يعي به، واللسان الذي يترجم به، والبنان الذي يخط به؟ ومن هيأ ذهنه لقبول هذا التعليم دون سائر الحيوانات؟ ومن الذي أنطق لسانه وحرك بنانه؟ ومن الذي دعم البنان بالكف، ودعم الكف بالساعد؟ فكم لله من آية نحن غافلون عنها في التعلم بالقلم.

فقف وقفة في حال الكتابة وتأمل حالك وقد أمسكت القلم وهو جماد، ووضعته على القرطاس وهو جماد، فتولد من بينها أنواع الحكم وأصناف العلوم وفنون المراسلات والخطب والنظم والنثر وجوابات المسائل، فمن الذي أجرى

تلك المعاني على قلبك ورسمها في ذهنك، ثم أجرى العبارات الدالة عليها على لسانك، ثم حرك بها بنانك حتى صارت نقشًا عجيبًا معناه أعجب من صورته فتقضي به مآربك، وتبلغ به حاجة في صدرك، وترسله إلى الأقطار النائية والجهات المتباعدة، فيقوم مقامك ويترجم عنك ويتكلم على لسانك، ويقوم مقام رسولك، ويجدي عليك ما لا يجدي من ترسله سوى من ﴿عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾

والتعليم بالقلم يستلزم المراتب الثلاث:

- مرتبة الوجود الذهني.
- والوجود اللفظي.
- والوجود الرسمي.

فقد دل التعليم بالقلم على أنه سبحانه هو المعطي لهذه المراتب ودل قوله: ﴿خَلَقَ﴾ على أنه يعطي الوجود العيني، فدلت هذه الآيات مع اختصارها ووجازتها وفصاحتها، على أن مراتب الوجود بأسرها مسندة إليه تعالى خلقًا وتعليمًا، وذكر خلقين وتعليمين: خلقًا عامًا وخلقًا خاصًا وتعليمًا خاصًا وتعليمًا عامًا.

وذكر من صفاته ههنا اسم ﴿الأَكْرَمُ﴾ الذي فيه كل خير وكل كمال، فله كل كمال وصفًا، ومنه كل خير فعلًا، فهو الأكرم في ذاته وأوصافه وأفعاله، وهذا الخلق والتعليم إنما نشأ من كرمه وبره وإحسانه، لا من حاجة دعته إلى ذلك، وهو الغني الحميد» ا.هـ.

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة إن شاء الله، نواصل المشوار مع سيرة النبيّ المختار ﷺ.

فإلى اللقاء.

الخطبةالخامسة والستون:

نزول الوحي، ومراتبه وشكله، وذِكر أول مَن أسلم

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فعَن عَائِشَةَ أُمِّ المُؤمِنِينَ رضي الله عنها أَنَّهَا قَالَت: أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِن الوَحيِ: الرُّؤيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوم، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤيَا إِلَّا جَاءَت مِثلَ فَلَقِ الصُّبحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيهِ الخَلَاءُ وَكَانَ يَخلُو بِغَارِ حِرَاءٍ فَيَتَحَنَّثُ فِيهِ، وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِيَ ذَوَاتِ العَدَدِ قَبلَ أَن يَنزِعَ إِلَى أَهلِهِ، وَيَتَزَوَّدُ لِذَلِكَ ثُمَّ يَرجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثلِهَا، حَتَّى جَاءَهُ الحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ فَجَاءَهُ المَلَكُ فَقَالَ: «اقرَأ، قَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ قَالَ: فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ ثُمَّ أَرسَلَنِي فَقَالَ: اقرَأ، قُلتُ: مَا أَنَا

بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الجَهدَ، ثُمَّ أَرسَلَنِي فَقَالَ: اقرَأ، فَقُلتُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّالِثَةَ ثُمَّ أَرسَلَنِي فَقَالَ: ﴿اقرَأ بِاسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإِنسَانَ مِن عَلَقٍ * اقرَأ وَرَبُّكَ الأَكرَمُ﴾.

فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ يَرجُفُ فُؤَادُهُ، فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنتِ خُوَيلِدٍ رَضِيَ اللهُ عَنهَا فَقَالَ: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنهُ الرَّوعُ، فَقَالَ لِخَدِيجَةَ وَأَخبَرَهَا الخَبَرَ: «لَقَد خَشِيتُ عَلَى نَفسِي».

فَقَالَت خَدِيجَةُ: كَلَّا، وَاللهِ مَا يُخزِيكَ اللهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَحمِلُ الكَلَّ، وَتَكسِبُ المَعدُومَ، وَتَقرِي الضَّيفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ.

فَانطَلَقَت بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَت بِهِ وَرَقَةَ بنَ نَوفَلِ بنِ أَسَدِ بنِ عَبدِ العُزَّى ابنَ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ امرَأً قَد تَنَصَّرَ فِي الجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكتُبُ الكِتَابَ العِبرَانِيَّ فَيَكتُبُ مِنَ الإِنجِيلِ بِالعِبرَانِيَّةِ مَا شَاءَ اللهُ أَن يَكتُبَ، وَكَانَ شَيخًا كَبِيرًا قَد عَمِيَ، فَقَالَت لَهُ خَدِيجَةُ: يَا ابنَ عَمِّ اسمَع مِنِ ابنِ أَخِيكَ، فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ يَا ابنَ أَخِي: مَاذَا تَرَى؟ فَأَخبَرَهُ رَسُولُ اللهِ ﷺ خَبَرَ مَا رَأَى.

فَقَالَ لَهُ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُالَّذِي نَزَّلَ اللهُ عَلَى مُوسَى، يَا لَيتَنِي فِيهَا جَذَعًا لَيتَنِي أَكُونُ حَيًّا إِذ يُخرِجُكَ قَومُكَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَوَمُخرِجِيَّ هُم؟» قَالَ: نَعَم، لَم يَأتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثلِ مَا جِئتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ، وَإِن يُدرِكنِي يَومُكَ أَنصُركَ نَصرًا مُؤَزَّرًا، ثُمَّ لَم يَنشَب وَرَقَةُ أَن تُوُفِّيَ، وَفَتَرَ الوَحيُ[1].

عباد الله...

وفَتَرَ الوحيُّ فَترةً حَتَّى حَزِن رسولُ الله ﷺ فيما بلغنا حُزنًا غدَا منه مِرارًا كي يَتَرَدَّى مِن رُءُوس شَوَاهِق الجِبَال، فكُلَّما أوفَى بذروة جَبلٍ لكي يُلقِي نَفسهُ تَبَدَّى، له جبريلُ فقال: يا مُحَمَّد إنَّك رَسولُ الله حقًّا، فيَسكُنُ لذلك جَأشُه، وتَقَرُّ نفسُه،

(١) أخرجه البخاري (٣)، وقد تقدم قريبًا.

فيرجعُ، فإذا طالت عليه فَترةُ الوحي غَدَا لمثلِ ذلك، فإذا أوفَى بِذِروةِ جَبَلٍ تَبَدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك.

هكذا وقع مُطَوَّلًا في باب التعبير من «البُخاريِّ».

قَالَ ابنُ شهاب: وأخبرني أبو سَلمة بنُ عبد الرحمن: أنَّ جابر بن عبد الله الأنصاريَّ قَالَ - وهُو يُحدِّثُ عن فَترةِ الوحي فقال في حديثه: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي، فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾» فَحَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ[1].

عباد الله...

وأمَّا قَولُ جبريلَ: «اقرَأ، فَقَالَ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ» فالصحيحُ أنَّ قولَهُ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ» نفيٌ، أي: لَستُ ممَّن يُحسنُ القراءةَ، وممَّن رجَّحه النَّوويُّ، وقبلَه الشيخُ أبو شامةَ، ومَن قَالَ: إنَّها استفهاميةٌ فقوله بعيدٌ؛ لأنَّ الباء لا تُزَادُ في الإثباتِ، ويُؤيِّدُ الأول روايةُ أبي نُعَيم من حديثِ المُعتمرِ بنِ سُليمانَ، عن أبيه: فقالَ رَسولُ الله ﷺ وهو خائفٌ يُرعَدُ: «ما قرأتُ كتابًا قطُّ، ولا أحسنُه، وما أكتُبُ وما أقْرَأ» فأخذه جبريلُ فغَتَّهُ غتًّا شديدًا ثم تركَه فقال له: اقرأ، فقال مُحَمَّدٌ ﷺ: «مَا أرى شيئًا أقرأُه وما أكتُبُ»[2]، يُروى: «فغطَّني» كما في الصَّحِيحَيْنِ، و«غَتَّني»، ويُروى: «قد غَتَّني» أي خَنقَني «حَتَّى بلغ منِّي الجَهدَ» يُروى بضمِّ الجيمِ وفتحِها، وبالنَّصب وبالرَّفع، «وفَعلَ به ذلك ثلاثًا».

قَالَ أبو سليمانَ الخطَّابيُّ: وإنما فعل ذلك به ليبلُوَ صَبرَهُ ويُحسنَ تأديبَهُ فيرتَاضَ لاحتمال ما كَلَّفه به من أعباء النبوَّة، ولذلك كان يعتريه مثل حال المحموم، وتأخذُهُ الرُّحضاءُ، أي: البُهْرُ والعَرَقُ، وقال غَيرُهُ: إنما فعلَ ذلك لأمورٍ:

(١) أخرجه البخاري (٤).

(٢) مرسل: أخرجه ابن عساكر في «تاريخ دمشق» (٦٣/ ١٧) عن المعتمر به.

منها: أن يستَيقظَ لعظَمةِ ما يُلقى إليه بعد هذا الصَّنيعِ المُشقِّ على النفوس، كما قَالَ تَعالَى: ﴿إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا﴾ [المزمل: ٥]، ولهذا كان عليه الصَّلاة والسَّلام إذا جاءه الوحيُ يحمَرُّ وجهه ويغِطُّ كما يغِطُّ البكرُ من الإبل، ويتفصد جَبينُه عرقًا في اليوم الشديد البرد.

وقَولُهُ: «فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللهِ ﷺ إلى خديجة يَرْجُفُ فُؤَادُهُ»، وفي رواية(١): «بوادرُه» جمعُ بادرةٍ، قال أبو عبيدة: وهي لَحمةٌ بين المَنكبِ والعُنُقِ، وقال غيرُه: هي عروقٌ تضطربُ عند الفزَعِ، وفي بعضِ الروايات: ترجُفُ بادِلُه. واحدتُها بادِلَةٌ، وقيل: بادلٌ، وهو: ما بينَ العُنُقِ والتَّرقُوَةِ، وقيل: أصلُ الثَّديِ. وقيل: لحمُ الثَّديينِ، وقيل غيرُ ذلك.

فقال: «زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي» فَزَمَّلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، قَالَ لِخَدِيجَةَ: «أَيْ خَدِيجَةُ مَا لِي لَقَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، وذلك لأنَّه شاهد أمرًا لم يَعهَدهُ قبل ذلك ولا كان في خَلَدِه، ولهذا قالت خديجةُ: «أَبْشِرْ فَوَاللهِ لَا يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا» قيل: مِن الخِزي، وقيل من الحُزنِ، وهذا لِعلمهَا بما أجرى الله به جميلَ العوائدِ في خَلقِه، أنَّ مَن كان مُتَّصِفًا بصفاتِ الخير لا يُخزَى في الدنيا ولا في الآخرة، ثم ذكرت له مِن صفاته الجليلة، ما كان من سجاياه الحسنة، فقالت: «فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ» وكان مشهورًا بذلك صلوتُ الله وسلامه عليه عند الموافقِ والمُفارق، «وَتَحْمِلُ الكَلَّ» أي: عن غيرك، تُعطي صاحب العَيلةِ ما يريحُه من ثِقلِ مؤنَةِ عيالِه، «وَتَكْسِبُ المَعْدُومَ» أي: تسبقُ إلى فعلِ الخير، فتُبادرُ إلى إعطاءِ الفقيرِ، فتكسبُ حسنته قبلَ غيرك، ويُسمَّى الفقيرُ معدُومًا؛ لأنَّ حياتَه ناقصةٌ، فوجودُهُ وعدمُه سواءٌ، كما قَالَ بعضُهم:

لَيسَ مَن ماتَ فاستراحَ بمَيتٍ ... إنَّما الميتُ مَيِّتُ الأحياءِ

وقال أبو الحَسن التهاميُّ - فيما نقله عنه القاضي عياضُ في «شرح مسلم»:

عُدَّ ذا الفقر مَيِّتًا وكِساهُ ... كَفَنًا باليًا ومأواه قَبرًا

(١) رواه البخاري (٤٩٥٣).

وقال الخطابيُّ: الصوابُ: وتُكْسِبُ المُعدَمَ، أي: تَبذُلُ إليه، أو يكونُ وتُكسب المعدوم: تُعطيه مالًا يعيش به. واختار شيخنا الحافظُ أبو الحَجَّاج المِزِّيُّ أنَّ المراد بالمعدومِ ههنا: المالُ المُعطَى أي: يُعطى المالَ لمن هو عَادمُه.

ومَنْ قَالَ: إنَّ المرادَ أنَّك تكسَبُ باتِّجارِك المالَ المعدومَ، أو النفيسَ القليلَ النظير، فقد أبعد النُّجعةَ، وأغرَقَ في النَّزع، وتكلَّفَ ما ليس له به عِلمٌ، فإنَّ مِثلَ هذا لا يُمدَحُ به غالبًا، وقد ضَعَّفَ هذا القولَ عِياضٌ والنَّوويُّ وغيرُهما، والله أعلم.

«وتَقرِي الضَّيفَ» أي تُكرِمُه في تقديم قِراهُ، وإحسانِ مأواه، «وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الحَقِّ» ويُروى: «الخير»، أي إذا وقعت نائبةٌ لأحد في خير أَعنتَ فيها وقمتَ مع صاحبها حَتَّى يجدَ سِدادًا من عيشٍ أو قوامًا من عَيشٍ.

وقولُهُ: «فَانْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ» وقد قدَّمنا طرفًا من خبرِه مع ذِكر زَيد بنِ عمرو بن نُفيل - رحمه الله - وأنَّهُ كان مِمَّن تنصَّر في الجاهلية، ففارَقهم وارتحَلَ إلى الشام، هو وزيدُ بنُ عَمرو، وعثمانُ بنُ الحُويرث، وعُبيدُ الله بنُ جَحشٍ، فَتنصَّرُوا كلُّهم، لأنهم وجدوه أقرب الأديان إذ ذاك إلى الحقِّ، إلا زيد بن عمرو بن نُفَيل فإنَّه رأى فيه دخلًا وتخبيطًا وتَبديلًا وتَحريفًا وتَأويلًا، فَأَبت فطرتُهُ الدُّخول فيه أيضا، وبَشَّروه الأحبارُ والرُّهبانُ بوجود نَبيٍّ، قد أزِفَ زَمانُهُ واقتربَ أوانُهُ، فرجَعَ يتطلَّب ذلك، واستمرَّ على فِطرتِهِ وتَوحيده، لكن اخْتَرَمَتَه المنيَّةُ قبل البِعثَةِ المحمديَّة، وأدرَكَها ورقةُ بنُ نوفل، وكان يتوسَّمُها في رسول الله ﷺ كما قدَّمنا بما كانت خديجةُ تنعتَهُ له وتَصِفُه له، وما هو منطَوٍ عليه من الصِّفات الطاهرةِ الجميلةِ، وما ظهر عليه من الدلائل والآياتِ، ولهذا لَـمَّا وقعَ ما وقَعَ، أخذَت بيد رسول الله ﷺ وجاءت به إليه، فَوقَفَت به عليه وقالت: «يَا ابْنَ عَمِّ اسْمَعْ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ» فلمَّا قص عليه رَسولُ الله ﷺ خبر ما رأى قال ورقة: «سُبُّوحٌ سُبُّوحٌ هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى»، ولم يَذكُر عيسى، وإن كان متأخرًا بعد موسى؛ لأنه كانت شريعتُه مُتَمِّمةً ومُكمِّلةً لشريعة موسى عليهما السلامُ، ونسخَت

بعضها عَلَى الصحيح من قول العلماء، كما قَالَ: ﴿وَلأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]، وقول ورقة هذا كما قالت الجنُّ: ﴿يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [الأحقاف: ٣٠].

ثُمَّ قال ورقةُ: «لَيْتَنِي فِيهَا جَذَعًا» أي: يا ليتني أكونُ اليومَ شابًا، مُتَمكنًا من الإيمان والعِلمِ النافع، والعملِ الصالح. «لَيْتَنِي أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ» يعني: حَتَّى أَخرُجَ معك وأنصرك، فعندها قَالَ رسول الله ﷺ: «أَوَمُخْرِجِيَّ هُمْ؟» قال السُّهيليُّ: وإنما قال ذلك لأن فِراقَ الوطنِ شديدٌ على النُّفوس.

فقال: «نَعَمْ لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِيَ وَإِنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْرًا مُؤَزَّرًا» أي: أنصُرك نصرًا عزيزًا أبدًا.

وقولُهُ: «ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ» أي: تُوُفِّي بعد هذه القصة بقليلٍ - رحمه الله ورضي عنه - فإنَّ مثل هذا الذي صدر عنه تصديقٌ بما وَجَد، وإيمانٌ بما حصل من الوَحي، ونيةٌ صالحةٌ للمُستَقبلِ.

وقد قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى حَدَّثَنَا ابْنُ لَهِيعَةَ حَدَّثَنَا أَبُو الأَسْوَدِ عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ: أَنَّ خَدِيجَةَ سَأَلَتْ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَنْ وَرَقَةَ بْنِ نَوْفَلٍ فَقَالَ: «قَدْ رَأَيْتُهُ فِي المَنَامِ فَرَأَيْتُ عَلَيْهِ ثِيَابُ بَيَاضٍ فَأَحْسِبُهُ لَوْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ ثِيَابَ بَيَاضٍ». وهذا إسنادٌ حسنٌ، لكن رواه الزُّهريُّ وهشام، عن عُروة مُرسلًا، فاللَّهُ أعلم.

وروى الحافظُ أبو يَعلى عن شُريح بن يُونُسَ، عن إسماعيلَ، عن مُجالدٍ، عن الشَّعبيِّ، عن جابرِ بن عبد الله: أنَّ رَسولُ الله ﷺ سُئِلَ عن وَرَقَةَ بن نَوفَلٍ فقال: «أبصَرتُه في بُطنان الجَنَّة وعَليه السُّندُسُ»، وسُئِلَ عن زيد بن عمرو بن نُفَيلٍ فقال: «يُبعثُ يَومَ القيامة أُمَّةً وَحدَهُ» وسُئِلَ عن أبي طالبٍ فقال: «أخرَجتُه مِن غَمْرَة من جَهنَّم إلى ضَحضاحٍ منها»، وسُئِلَ عن خديجةَ لأنَّها ماتت قبل الفرائض وأحكام القرآنِ، فقال: «أبصَرتُها على نَهَرٍ في الجَنَّة في بيتٍ من قَصَبٍ لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ». إسنادٌ حسنٌ، ولبعضِهِ شواهدُ في «الصَّحيح»، والله أعلم.

وقال الحافظُ أبو بكرِ البَزَّارَ: حدَّثنا عُبيدُ بنُ إسماعيلَ حدَّثنا أبو أسامة، عن هشام بن عُروةَ، عن أبيه، عن عائشة قالت: قَالَ رَسولُ الله ﷺ: «**لا تسُبوا ورقة، فإنِّي رأيتُ لَهُ جَنَّةً أو جَنَّتَينِ**»، وكذا رواه ابن عساكر من حديث أبي سعيد الأشج، عن أبي معاوية، عن هشام، عن أبيه، عن عائشة. وهذا إسنادٌ جيدٌ، ورُويَ مُرْسَلًا، وهو أشْبَهُ». ا.هـ(١).

عباد الله...

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله -: قَالَ البُخاريُّ في روايته المُتقدِّمة: «وَفَتَرَ الوَحْيُ فَتْرَةً، حَتَّى حَزِنَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فِيمَا بَلَغَنَا حُزْنًا غَدَا مِنْهُ مِرَارًا كَيْ يَتَرَدَّى مِنْ رُءُوسِ شَوَاهِقِ الجِبَالِ، فَكُلَّمَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ لِكَيْ يُلْقِيَ نَفْسَهُ مِنْهُ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّكَ رَسُولُ اللهِ حَقًّا، فَيُسْكِنُ ذَلِكَ جَأْشَهُ وَتَقَرُّ نَفْسُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاة وَالسَّلَامُ، فَيَرْجِعُ فَإِذَا طَالَتْ عَلَيْهِ وَفَتَرَ الوَحْيُ غَدَا لِمِثْلِ ذَلِكَ، فَإِذَا أَوْفَى بِذِرْوَةِ جَبَلٍ تَبَدَّى لَهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام فَقَالَ لَهُ مِثْلَ ذَلِكَ».

وفي الصَّحِيحَيْنِ من حديث عبد الرَّزَّاق، عن معمر، عن الزَّهريِّ، قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا سَلَمَةَ بن عبد الرحمن يحدِّث عن جَابرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ قَالَ: سمعتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ، قَالَ: «**فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي سَمِعْتُ صَوْتًا مِنْ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصَرِي قِبَلَ السَّمَاءِ فَإِذَا المَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحِرَاءٍ، قَاعِدٌ عَلَى كُرْسِيٍّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ، فَجَئِثْتُ مِنْهُ حَتَّى هَوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ، فَجِئْتُ أَهْلِي فَقُلْتُ: زَمِّلُونِي زَمِّلُونِي فَزَمَّلُونِي، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾**» قَالَ: ثُمَّ حَمِيَ الوَحْيُ وَتَتَابَعَ.

فهذا كان أول ما نزلَ من القرآن بعد فترة الوحي لا مُطلقًا، ذاك قولُهُ: ﴿**اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ**﴾ وقد ثبت عن جابرٍ أن أول ما نزل: ﴿**يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ**﴾(٢)، واللائقُ حملُ كلامهِ ما أمكَنَ عَلَى ما قُلناه، فإنَّ في سياق كلامِهِ ما يدُلُّ عَلَى ما تقدَّمِ

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ١٠ - ١٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤٩٢٤).

مجيء الملك الذي عرفه ثانيًا بما عرفه به أوَّلًا إليه.

ثُمَّ قولُهُ: «يُحَدِّثُ عَنْ فَتْرَةِ الوَحْيِ» دليلٌ عَلَى ما تقدُّمِ الوحي عَلَى هذا الإيحاء. والله أعلم.

وقد ثبت في الصَّحِيحَيْنِ من حديث عليِّ بن المبارك، وعند مُسلمٍ، والأوزاعيِّ، كلاهما عن يحيى بن أبي كثيرٍ، قَالَ: سَأَلْتُ أَبَا سَلَمَةَ بن عبد الرحمن: أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. فَقُلْتُ: أَوْ: ﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؟ فَقَالَ: سَأَلْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ أَيُّ القُرْآنِ أُنْزِلَ قَبْلُ؟ قَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾. فَقُلْتُ: ﴿اقْرأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾؟ قَالَ جَابِرٌ: أُحَدِّثُكُمْ مَا حَدَّثَنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ قَالَ: «إِنِي جَاوَرْتُ بِحِرَاءٍ شَهْرًا، فَلَمَّا قَضَيْتُ جِوَارِي نَزَلْتُ، فَاسْتَبْطَنْتُ بَطْنَ الوَادِي فَنُودِيتُ، فَنَظَرْتُ بين يَدَيَّ وَخَلْفِي، وَعَنْ يَمِينِي وَعَنْ شِمَالِي فَلَمْ أَرَ أَحَدًا، ثُمَّ نَظَرْتُ إلى السَّماء فَإِذَا هُوَ عَلَى العَرْشِ فِي الهَوَاءِ - يَعْنِي جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَام - فَأَخَذَتْنِي رِعدةٌ - أو قَالَ: وحشَةٌ -فَأَتَيْتُ خَدِيجَةَ فأمَرتُهم فدثِّرُوني». فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

وقال في رواية: «فإذا المَلَكُ الذي جاءَني بِحراءَ جالسٌ عَلَى كُرسيٍّ بين السَّماء والأرضِ فجُئثتُ منه». وهذا صريح في تقدُّم إتيانه إليه وإنزاله الوحي من الله عليه - كما ذكرنا - والله أعلم.

ومنهم مَن زَعم أن أوّل ما نزل بعد فترة الوحي سورةُ: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾ إلى آخرها، قَالَهُ مُحَمَّد بن إسحاق.

وقال بعضُ القُرَّاء: ولهذا كَبَّر رسولُ الله ﷺ في أولها فرحًا، وهو قولٌ بعيدٌ يَرُدُّه ما تقدَّم من رواية صاحبي «الصحيح» من أنَّ أول القرآن نُزُولًا بعد فترة الوحي: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ ولكن نزلت سورةُ ﴿والضُّحى﴾ بعد فترةٍ أخرى كانت ليالي يسيرةً، كما ثبت في «الصحيحين» وغيرهما من حديث الأسود ابن قيسٍ، عن جُندَبِ بن عبد الله البَجَليِّ قَالَ: اشْتَكَى النَّبِيُّ ﷺ فَلَمْ يَقُمْ لَيْلَةً أَوْ لَيْلَتَيْنِ، أو ثلاثًا، فَأَتَتْ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: يَا مُحَمَّدُ مَا أَرَى شَيْطَانَكَ إِلَّا قَدْ تَرَكَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالضُّحَى * وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى * مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى﴾.

وبهذا الأمر حصلَ الإرسالُ إلى النَّاس، وبالأولِ حصَلَت النُّبوةُ.

وقد قَالَ بعضُهم: كانت مدةُ الفترةِ قريبًا من سنتين أو سنتين ونصفٍ، والظَّاهرُ والله أعلم أنها المدة التي اقترنَ معه ميكائيلُ، كما قَالَ الشَّعبيُّ وغيره، ولا ينفِي هذا تقدّم إيحاءِ جبريلَ إليه أولًا: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾، ثم حصلت الفترةُ التي اقترنَ معه ميكائيلُ، ثم اقترنَ به جبريلُ بعد نزول: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنْذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾ ثُمَّ حَمِيَ الوحيُ بعد هذا وتَتَابع - أي: تدارَكَ شيئًا بعد شيءٍ - وقام حينئذٍ رسولُ الله ﷺ في الرِّسالة أتمَّ القيام وشمَّرَ عن ساقِ العَزمِ، ودعا إلى الله القريبَ والبعيدَ، والأحرارَ والعبيدَ، فآمَنَ به حينئذٍ كلُّ لبيبٍ نجيبٍ سعيدٍ، واستمر عَلَى مُخالفَتِهِ وعِصيانه كُلُّ جَبارٍ عنيدٍ، فكانَ أولَ مَن بادَرَ إلى التَّصديقِ مِن الرِّجال الأحرارِ أبو بكرٍ الصِّدِّيق، ومِن الغُلمان عليُّ بن أبي طالب، ومن النِّساء خديجةُ بنتُ خُوَيلدٍ زوجةُ عليه السلام، ومن المَوَالي: مَولَاهُ زيدُ بنُ حارثة الكلبيُّ رضي الله عنهم وأرضاهم.

وتقدَّم الكلامُ عَلَى إيمان ورقَةَ بن نَوفَلٍ بما وجد من الوحي، ومات في الفترةِ رَضِي الله عَنْهُ[1].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وقبل أن نتكلم عن تبليغ النبيّ ﷺ للرسالة، نتكلم أولًا عن الوحي الذي كان ينزل عليه ﷺ.

عباد الله...

«لقد جاء النص القرآني بطرق خطاب الله تعالى لأنبيائه، فقال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ

(١) «البداية والنهاية» (٢/ ٢٠، ٢١).

بَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا﴾ [الشورى: ٥١].

ولاشك أن هذه طرق لحصر خطاب الله تعالى لمن يختارهم من خلقه لخطابه، فمن أي كان الخطاب لمحمد بن عبد الله ورسوله ﷺ؟ ونجيب في هذا المكان؛ لأننا في مقام أول نزول الوحي، فلنسر في مداه إلى نهايته:

يذكر ابن القيّم في كتابه «زاد المعاد» أن للوحي سبع مراتب، فلنعرج على كل واحدة بكلمة موضحة في إيجاز، وربما نجد المقسم لا يشمل ذلك العدد، لأن بعضها يدخل في بعضه، فالحدود في الأقسام غير فاصلة.

المرتبة الأولى: الرُّؤيا الصادقة، وقد كانت تلك المرتبة قائمة عند النبي ﷺ حَتَّى إذا كان البعث المحمدي كانت الرؤيا الصادقة هي أول ما نزل به القرآن الكريم، كما جاء في سيرة ابن إسحاق، ثُمَّ تأكدت الرؤيا بمخاطبة روح القدس جبريل عليه الصلاة والسلام، فكانت مصدقة بالخطاب.

وقد كانت هذه الرؤيا توجب التكليف أحيانًا، كما جاء في قصّة خليل الله تعالى إبراهيم عليه السلام في قصّة الفداء، إذ قَالَ تعالى حكاية عن قول إبراهيم: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ * فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ * فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ * فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ * وَنَادَيْنَاهُ أَن يَا إِبْرَاهِيمُ * قَدْ صَدَّقْتَ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ * إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْبَلَاءُ الْمُبِينُ * وَفَدَيْنَاهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٠-١٠٧].

ونرى من هذا أن خليل الله تعالى إبراهيم عليه السلام فهم من هذه الرؤيا تكليفه ذبح ابنه، فقبل التكليف صابرًا محتملًا، وهو ابنه البكر، واستجابة دعوته عليه السلام، وكان ذلك البلاء المبين حقًّا، فقد استجاب للطلب إبراهيم، وقبل الاستجابة إسماعيل صابرًا، فكانا من المحسنين، ونعم الصابرون.

والمرتبة الثانية: عبَّرعنها ابن القيّم بأنها ما كان يُلقيه المَلَكُ في رُوْعه وقلبه، وهذا التعبير يستفاد منه أن الملك هُوَ الوسط بين الله ورسوله، فهو ينفث في روع الرسول، وبأمر الله تعالى، فكان بذلك وحيًا، وكان بطريق الملك، ولقد مثَّل له ابن القيّم بقوله

ﷺ: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ نَفَثَ فِي رُوعِي أَنَّه لَنْ تَمُوتَ نَفْسٌ حَتَّى تَسْتَكْمِلَ رِزْقَهَا، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَجْمِلُوا فِي الطَّلَبِ، وَلاَ يَحْمِلَنَّكُمُ اسْتِبْطَاءُ الرِّزْقِ عَلَى أَن تَطْلُبُوهُ بِمَعْصِيَةِ الله، فَإِنَّ مَا عِنْدَ اللَّهِ لاَ يُنَالُ إِلاَّ بِطَاعَتِهِ».

والفرق بين الوحي بهذا المعنى والوحي بلقاء جبريل وروح القدس: أن لقاء جبريل عيانًا في حال المخاطبة، إنما في هذه الحال، فاللقاء في النفس وفي القلب والعقل، وربما نعد حينئذٍ أن يكون هذا من إرسال رسول، ولو كان بإلهام الله تعالى المجرد، وهو ما نميل إليه إذا استيقن الرسول أن ذلك إلهامٌ من الله تعالى، فإنه كلام الله تعالى بالوحي المجرَّد من غير توسط رسول.

المرتبة الثالثة: مخاطبة الملك: حَتَّى كان يتمثَّلُ له المَلَكُ رجلًا، فيُخاطبه حتى يَعِيَ عنه ما يقول له.

فقد كان يأتيه متمثلًا في رجل يظنه النبي ﷺ من الإنس لا من الملائكة، فقد كان يأتيه في صورة دحيّة الكلبي، كما روى ذلك النسائي بسندٍ صحيح من حديث ابن عُمَر، ولقد قيل: إن مجيء جبريل عَلَى صورة دحية الكلبي كأن بعد بدر، ويقول ابن القيّم: وكان دحية رجلًا وسيمًا، إذا قدم لتجارة خرجت الظعن[1] لتراه، وإن مجيء جبريل في صورة رجل ليس معناه أن جبريل الأمين نزع من روحانيته، أو ذهبت عنه الروحانية، إنما هُوَ لا يزال روحًا، والذي ظهر به هُوَ ظهور للروح في صورة جسدية، ومعاني الملك لا تزل ثابتة قائمة، ولا يوجد ما يمنع عقلًا أن تظهر الروح في صورة إنسان له جسد.

ودحية لا شأن له في هذا التغير الصوري، بل هُوَ حي في جسده يأكل ويشرب، ويمارس الحياة الإنسانية كاملةً.

وكون روح القُدس جبريل يظهر في جسد لا يقتضي أن يتحول الجسد إلى ملك، ولا أن يتحول الملك إليه، وهي روح ليست حيوانية، ولا ثمرة للحيوية الإنسانية، حَتَّى إذا تركت الجسد لا تفارقه الحياة، لأنها ليست أمرًا عضويًا،

(١) **الظُعُن** - بضم الظاء والعين، جمع ظعينة، وهي المرأة الجميلة.

ولكنها روح ملك تفيض في جسم يخلقه، أو تظهر في جسم يخلقه الله تعالى، وهو خلاق العليم، فإذا غاب الملك غاب معه الجسد الإنساني.

المرتبة الرَّابعة: أنَّه كان روح القدس جبريل يأتيه مخاطبًا له مثل صَلْصَلَةِ جرس.

ويقول ابن القيّم: وكان أشدَّه عليه. ويقول في وصفه ابن القيّم: «فيَتَلَبَّسُ به الملكُ حتى إن جبينه ليتفصد عرقًا في اليوم الشديد البرد وحتى إن راحلته لتَبْرُكُ به إلى الأرض إذا كان راكبها ولقد جاءه الوحيُ مرةً كذلك، وفخذه على فخذ زيد ابن ثابت، فثقلت عليه حتى كادت ترضُّها».

وقد روى البخاري عن زيد: «أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ ﷺ وَفَخِذُهُ عَلَى فَخِذِي، فَثَقُلَتْ عَلَيَّ حَتَّى خِفْتُ أَنْ تَرُضَّ فَخِذِي».

وقد جاء في الصَّحِيحَيْنِ والموطأ عن عائشة قَالَتْ: إِنَّ الحَارِثَ بْنَ هِشَامٍ سَأَلَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ يَأْتِيكَ الوَحْيُ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَحْيَانًا يَأْتِينِي فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وَهُوَ أَشَدُّهُ عَلَيَّ فَيَفْصِمُ عَنِّي وَقَدْ وَعَيْتُ مَا قَالَ، وَأَحْيَانًا يَأْتِينِي يَتَمَثَّلُ لِي المَلَكُ رَجُلًا فَيُكَلِّمُنِي فَأَعِي مَا يَقُولُ**».

قَالَتْ عَائِشَةُ: وَلَقَدْ رَأَيْتُهُ يَنْزِلُ عَلَيْهِ فِي اليَوْمِ الشَّدِيدِ البَرْدِ فَيَفْصِمُ عَنْهُ وَإِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا»[(١)].

ولا نريد أن نحاول توضيح هذه المرتبة، فإن تلك مراتب روحيّة لا نسمو إلى إدراك حقيقتها، ولكن نحاول أن نتصورها فقط، من غير تعرفها كاملًا، فلا يعرفها إلا من عالجها، ولم يعالجها إلا المصطفون الأخيار الأبرار.

إن الذي فهمناه من ذكر في هذه الحال أن روح القدس الطاهر يختلط بالنبي ﷺ ويمازج روحه وجسده، ويخاطبه بصوت قوي صارخ فيه عنف كعنف صلصلة الجرس، يسمعه ﷺ ولا يسمعه غيره، ويحس في نفسه ولا يحس غيره، ويكلمه بكلام مفهوم، وإن كان في صوت قوي، وكل ما فيه من خطاب قوي،

---

(١) «شرح المواهب اللدنية» (١/ ٢٩).

ويكون باختلاطه بروح النبي ﷺ وبممازجته جسمه محدثًا ثقلًا جسميًا ضاغطًا عَلَى ما يكون رسول الله ﷺ جالسًا عليه، وإن الرسول ليعرف ما يقول، ويحفظه ويعيه ولا يجهله، حَتَّى إن انفصل عنه لا ينفصل إلا وقد وعى كل ما أراد أن يبلغه عن الله تعالت قدرته، وعظمت منته.

وقد روى العسقلاني في «المواهب» أحاديث موضحة وشاهدة لهذه المرتبة من الوحي.

ومنها روى الطبراني عن زيد بن ثابت قَالَ: «كُنْتُ أَكْتُبُ الوَحْيَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَكَانَ إِذَا نَزَلَ عَلَيْهِ أَخَذَتْهُ بُرَحَاءُ[1] شَدِيدَةٌ وَعَرِقَ عَرَقًا شَدِيدًا مِثْلَ الجُمَانِ[2]، ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ، فَكُنْتُ أَدْخُلُ عَلَيْهِ بِقِطْعَةِ القَتَبِ أَوْ كِسْرَةٍ فَأَكْتُبُ وَهُوَ يُمْلِي عَلَيَّ، فَمَا أَفْرَغُ حَتَّى تَكَادَ رِجْلِيَ تَنْكَسِرُ مِنْ ثِقَلِ القُرْآنِ حَتَّى أَقُولَ لا أَمْشِي عَلَى رِجْلَيَّ أَبَدًا».

ولما نزلت عليه سورة المائدة كاد ينكسر عضد ناقته[3].

وذكرت الناقة هنا لأن النبي ﷺ خطب خطبة الوداع في عرفة وهو واقف، ونزلت آية: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣]. في هَذَا اليوم، وكان راكبًا على ناقته.

المرتبة الخامسة: قَالَ فيها ابن القيّم: «أنه يَرَى المَلَكَ في صورته التي خلق عليها، فيوحي إليه ما شاء الله أن يُوحِيَه، وهذا وقع له مرتين، كما ذكر الله ذلك في سورة النَّجم».

يشير إلى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى * عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى * ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا**

(١) والبرحاء: الحمى.
(٢) الجمان: صغار اللؤلؤ.
(٣) كان الكلام في نزول آية ﴿اليوم أكملت لكم دينكم﴾ لا في سورة المائدة.

أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ﴾ [النجم: ١ - ١٣].

فيفسر ابن القيّم تلك الرؤية الروحية بأنها رؤية جبريل بحقيقته، وهي فيما أحسب رؤية بنور البصيرة، وبقوة الروح، لا بنور البصر، ولا بشكل جسمي، لأن جبريل روح، فكيف يراه إلا أن يكون محسوسًا، وبذلك لا تفترق هذه الحال عن الرؤية المشخصة مع أنها غيرها.

ولقد قَالَ عبد الله بن مسعود: «إِنَّ مُحَمَّدًا ﷺ لَمْ يَرَ جِبْرِيلَ على صُورَتِهِ التي خُلق عليها إِلَّا مَرَّتَيْنِ، أَمَّا مَرَّةٌ فَإِنَّهُ سَأَلَهُ أَنْ يُرِيَهُ نَفْسَهُ فِي صُورَتِهِ فَأَرَاهُ صُورَتَهُ فَسَدَّ الأُفُقَ، وَأَمَّا الأُخْرَى فليلة الإسراء عند سدرة المنتهى».

المرتبة السادسة: «ما أوحاه الله وهو فوق السماواتِ ليلَة المعراج مِن فرض الصلاة وغيرها».

ومؤدى كلام ابن القيم أن هذه المرتبة من الوحي هي التلقي عن الله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى مباشرةً، لا بطريق الرؤيا الصادقة في المنام، ولا يقتضي ذلك رؤية، لأَنَّهُ قَدْ يكون الله يكلم العبد المختار للرسالة من عباده من وراء حجاب، ليكون الكلام مع الله تعالى من غير رؤية لذاته العليّة، فقد سُئل ﷺ: هَلْ رَأَيْتَ رَبَّكَ؟ فَقَالَ: «نُورٌ أَنَّى أَرَاهُ» وإن هذا التفسير الذي اخترناه يتلاقى مع المرتبة السابعة التي سنذكرها، وإذا أردنا التمييز فإننا نقول: إن هذه هي من الله مباشرةً من غير توسط، وهو ما كان ليلة المعراج، فالذي نتصور عَلَى مقدار ما يقرر ابن القيم، أَنَّهُ ليس بكلام تكلمه رب العالمين ولكن وحي مباشر.

المرتبة السابعة: الكلام من وراء حجاب.

وقد قَالَ فيها ابن القيّم: «كلام الله له منه إليه بلا واسطة مَلَكٍ، كما كلّم اللّهُ موسى بن عِمران، وهذه المرتبة هي ثابتة لموسى قطعًا بنص القرآن، وثبوتها لنبينا ﷺ هو في حديث الإسراء».

وبهذا التفسير يتبيّن أن السابعة داخلة في السادسة، وليست كل واحدة منهما

مرتبة قائمة بذاتها(١).

والحق: فإن هذه المراتب متداخلة، والمراتب كلها مذكورة في القرآن الكريم في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّـهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ...﴾ [الشورى: ٥١]. ا.هـ(٢).

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة نواصل الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ، فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ احفظنا بالإسلام قائمين، واحفظنا بالإسلام قاعدين، واحفظنا بالإسلام راقدين، ولا تُشمت بنا أعداء ولا حاسدين.

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

---

(١) المراتب مذكورة في «زاد المعاد» (١/ ٢٥)، وفي «المواهب اللدنية وشرحها» (١/ ٢٢٥، وما بعدها).

(٢) «خاتم النبيين» لأبي زهرة (١/ ٢٨١ - ٢٨٥).

الخطبة السادسة والستون:

الجهر بالدعوة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيّ المصطفى ﷺ.

عباد الله...

بعد أن فتر الوحي نحو ستة أشهر أو دون ذلك قليلًا، جاء التكليف بالتبليغ، وتحمّل عبء الرسالة الإلهيّة إلى الخلق أجمعين، ناداه ربّه بالأمر بأن يرفع من ثيابه ما كان يجر، ولا يكتفي بالتعبد في غار حراء، وإن كان ذلك كافيًا لتهذيب نفسه، وتصفية روحه، وأن يكون متصلًا بربه خفية وتضرعًا، فإنه لا يكفي لرسول

أمين، بل لابد أن يتكلم عن ربه أمام العالمين، وتكون معه العبادتان: العبادة الفردية بتهذيب ذاته وتقوية روحه، وتوجيه نفسه إلى الله وحده الذي لا يغيب عنه شيء في السماء ولا في الأرض، والعبادة الجماعية بأن يتقدم لدعوة الحق ودعوة النَّاس إلى الانصراف لعبادة الله وحده، وإصلاح الخلق، والسير بهم في المحجة الواضحة التي ليلها كنهارها، وهذه غاية الرسالة الكبرى التي حملها خاتم النبيين مُحَمَّد بن عبد الله ﷺ ..

أمره الله تعالى بعد أن ناداه النداء المؤكد: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ * وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ * وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ - ٧].

تضمنت هذه الآيات الكريمات، الإنذار بالعذاب الشديد إن استمروا، وبالدعوة إلى عبادة الله تعالى، وتطهير الثياب ظاهرًا وباطنًا، وبترك الفساد وهجر الشر، وعبادة الله تعالى هي السبيل لدفع الشر، ومنع الأذى.

وفي الجملة: هذه الآيات التي تعدّ أول طلب لتبليغ الدَّعوة تشتمل عَلَى ثلاثة أمورهي خلاصة الدَّعوة المحمدية، أو ترمز لكل نواحيها التكليفية:

أولها: الإيمان بالعقاب والحساب، وقد أشار إليها سُبْحَانَهُ وتَعَالَى بالأمر بالإنذار، ففيه إشارة إلى اليوم الآخر وما يكون فيه من حساب وجزاء إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

والأمر الثاني: تربية النفس الإنسانية بالعبادة والصبر، وتطهير القلوب بالخلوص لله سُبْحَانَهُ وتَعَالَى، وتكبيره وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وقد أشار إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾.

والأمر الثالث: إماطة الأذى عن الجماعة التي يعيش فيها، ونفعها، وقد أشار سبحانه إلى ذلك بقوله: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ * وَلاَ تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾.

وبذلك يتبين أن الآيات الكريمات رمزت إلى خلاصة الحقائق الإسلامية التي يُقام عليها الإسلام؛ وهي: الوحدانية، والإيمان باليوم الآخر، وتطهير النفوس، ودفع الفساد، وجلب النفع.

عباد الله...

وذكر ابن القيّم في «زاد المعاد» أن مراتب الدَّعوة خمس مراتب:

الأولى:النبوة، فلا يدعو إلى الحق الذي نزل من عند الله تعالى إلا نبي وقد اعتبرها ابن القيّم المرتبة الأولى، ونحن لا نعتبرها كذلك، إنها نعتبرها كيان الدَّعوة، فلا دعوة إلى الإيمان برسالة إلا من نبي مرسل، فهي دعامة، وليست مرتبة يبتدأ بها، بل هي الأصل ولُب الدَّعوة.

المرتبة الثانية: إنذار العشيرة الأقربين، وقد أمر الله تعالى بذلك فقال سبحانه: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ * وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤، ٢١٥]، وقد بدأ النبي ﷺ دعوة عشيرته، فدعا عبد مناف وقال لهم: «أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا بِالوَادِي تُرِيدُ أَنْ تُغِيرَ عَلَيْكُمْ أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِيَّ؟» قَالُوا: نَعَمْ، مَا جَرَّبْنَا عَلَيْكَ إِلَّا صِدْقًا، قَالَ: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ»، وإنها للجنة أبدًا وللنار أبدًا، أو كما قَالَ ﷺ.

والمرتبة الثالثة: إنذار قومه، وقد سلك مُحَمَّد ﷺ ذلك المنهاج الذي انتقل فيه من الحيز الضيق إلى ما هُوَ أوسع، ثُمَّ ما هُوَ أعمّ، فانتقل من إنذار عشيرته الأقربين إلى قومه من قريش قريبهم وبعيدهم.

وقد أنذر عليه الصلاة والسلام في هذه المرتبة سكان مكة المكرمة وما حولها.

المرتبة الرابعة: عبَّر عنها ابن القيّم بقوله: «إنذار قوم ما آتاهم من نذير من قبله إلا كانوا به مؤمنين»، وهؤلاء هم العرب في الجزيرة العربية قاصيهم ودانيهم، سكان المدر منهم وسكان الوبر، وبذا عمت دعوة كل من ينطق بالعربية من غير تفرقة بين قريب وبعيد.

والمرتبة الخامسة: تبليغ الدعوة إلى غير العرب من الرومان والفرس والشام ومصر والحبشة برسل أرسلهم وبكتب كتبها، ثم بث الدعاة، وجهز الجيوش التي تدافع مَن هجموا أو حاولوا الهجوم، أو حاجزوا بين الإسلام ودعوته، وحالوا بين الشعوب ومعرفته، فكان الجهاد ليتبين الرشد من الغيّ، والهدى من الضلال، ومن بعد ذلك يختارون عن بينة، فقد قال تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ

مِنَ الغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالعُرْوَةِ الوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّـهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقد سلك النبي ﷺ تلك المراتب، وإن كانت التفرقة بين المرتبة الثانية والثالثة دقيقة إذ لا تكادان تنفصلان، والمرتبة الأولى لا تُعدّ مرتبة للدعوة، ولكنها مرتبة التهيئة لها، ولعله يريد منها ما كان من نزول قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ﴾ إلى آخر الآيات الكريمات، التي نزلت في أول لقاء النبي ﷺ بروح القدس جبريل عليه السلام، إلى نهاية الفترة التي قدرناها بها دون ستة الأشهر وتنتهي عند نزول قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴾ [المدثر: ١- ٤].

وقد كانت الدَّعوة من بعد ذلك خفيّة، يلتقي بالأولياء والأصدقاء المقربين، والصفوة المختارة من الصحب الأبرار، وهذه هي المرتبة الثانية، وإنما كانت الدَّعوة ابتداءً خفية لتتكون خلية الإسلام، وإن الخلايا يكون بذر البذور فيها بالكتمان؛ لأن الجهر يبددها قبل أن تتكون، حَتَّى ينمو عودها وتتكون سوقها.

فكل فكرة جديدة لابد أن يلتقي حولها قلوب مؤمنة بها، ويتولى من بعد ذلك إعلانها والمجاهرة بها، ثُمَّ لابد من تكوين من يتقدمون ا لدعوة، ومثل الدَّعوة الخفية، كمثل تكوّن الجنين في بطن أمه، فإنه لا يظهر للوجود حيًّا حياة كاملة، صالحًا لأن يقاوم دواعي الفناء، والأخذ من عناصر البقاء والتغذي بكل أسباب القوة، فكذلك الدَّعوة إلى كل فكرة، تقتضي التدبير الخفي، ثُمَّ الإعلان الجليّ.

ولذلك كانت الدَّعوة الأولى ثُمَّ كانت المراتب التي تليها.

ولقد يقول الرواة إن الاستخفاء كان نحو ثلاث، كانو يستخفون بها في العبادة والمذاكرة، وقالوا إنها كانت في دار الأرقم بن أبي الأرقم.

ولكن يجب أن نعلم أن الاستخفاء في هذه الفترة ليس الاستخفاء بالدعوة، فقد كان النبي ﷺ يعلن ما جاء به من نذير، وما في جعبته من تبشير، ولكن الذي يستخفى به هُوَ إقامة العبادة التي دعا إليها رب العالمين، ولذلك كان اضطهاد المؤمنين من الضعفاء واضطهاد النبي ﷺ قبل أن يُسلم حمزة وعمر، وخروج

المسلمين صفوفًا معلنين الإسلام مجابهين المشركين متحدِّين قوة الشرك بقوة الله تعالى وقوة الحق، والصبر المستعذب، وإن كان مريرًا.

ثُمَّ من بعد ذلك كانت المجاهرة الكاملة التي تشق الصفوف المشركة بنور الحق، وإشراق الإخلاص، إذ أمر الله تعالى أمرًا جازمًا قاطعًا إذ قَالَ تعالت كلماته: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤].

وقد أخذ ﷺ من بعد نزول هذه الآية يجاهر المشركين، ويجادلهم بالقرآن الكريم، ويصابرهم في اطمئنان المؤمن بالحق فيما يدعو إليه، يجادلهم بالقرآن الكريم يتلوه عليهم، ويتحداهم أن يأتوا بمثله، وهم يتهددونه وينذرونه وأهله، ويقاطعون بني هاشم، إلى آخر ما سنقرر من بعد.

وبنو هاشمم ما عد أبا لهب ومعهم بنو المطلب يسيرون معه صفًا واحدًا اعتبارًا للقرابة عند الأكثرية منهم ولأجل الحق عند غيرهم.

حتى إذا مات أبو طالب الذي كان عالي الصوت باسم القرابة والمحبّة، أخذ مُحَمَّد ﷺ يدعو القبائل في مواسم الحج وفي وفودها، حتى إذا صار للإسلام الكلمة العليا في الجزيرة العربية فاضت الوحدانية بالنور على من وراء البلاد العربية إلى الأقاليم التي تصاقبها إقليمًا بعد إقليم. ا.هـ[1].

عباد الله...

ولما جهر النبيُّ ﷺ بالدعوة، وصدع بما أُمِر، آمن به المستضعفون، وعانده الكبراء والمتكبرون.

ولم يفتّ ذلك في عضد النبيّ الأمين ﷺ بل زاده إصرارًا واستمرارًا.

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «والمقصودُ أنَّ رَسولُ الله ﷺ استَمرَّ يدعو إلى الله تَعَالى ليلًا ونهارًا وسرًّا وجهارًا لا يصرفُه عن ذلك صارِفٌ ولا يرُدُّه عنه رَادٌّ، ولا يصدُّه عنه صادٌّ، يَتَّبعُ النَّاس في أنديتِهم ومجامعهم ومحافِلهم، وفي

(١) «خاتم النبيين» لأبي زهرة (١/ ٢٨٥ - ٢٨٨).

المواسِمِ ومواقف الحج، يدعو من لقيَه، من حُرٍّ وعبدٍ، وضعيفٍ وقويٍّ، وغنيٍّ وفقيرٍ، جميعُ الخلقِ في ذلك عندَهُ شرعٌ سواءٌ، وتسلَّط عليه وعلى من اتبعَهُ من آحادِ النَّاس - من ضعفائهم - الأشدَّاءُ الأقوياءُ من مُشركي قريشٍ بالأَذيَّة القوليَّةِ والفعليَّةِ، وكان مِن أشدِّ الناس عليه عَمُّه أبو لهب، واسمُه عبدُ العُزَّى بن عبد المُطَّلب، وامرأتُهُ أُمّ جميلٍ أروَى بنتُ حربِ بن أُميَّة أختُ أبي سُفيانَ، وخالفه في ذلك عمُّه أبو طالب بنُ عبد المُطَّلب، وكان رَسولُ الله ﷺ أحبَّ خلقِ الله إليه طبعًا، فكان يَحْنو عليه ويُحسِنُ إليه، ويُدافعُ عنه ويُحامي ويُخالفُ قومَهُ في ذلك، مع أنَّهُ على دينهم وعلى خُلَّتِهم، إلا أنَّ الله تعالى قد امتَحنَ قلبَهُ بحبِّه حبًّا طَبعيًّا لا شَرعيًّا، وكان استمرارُهُ على دين قومِهِ مِن حِكمةِ الله تعالى، ومما صَنعَهُ لرسولِهِ من الحماية، إذ لو كان أسلَمَ أبو طالب لما كانَ له عند مُشركي قريشٍ وجاهَةٌ ولا كلمةٌ ولا كانوا يَهابونَهُ ويحترمونَهُ، ولاجترَءُوا عليه، ولمدُّوا أيديهم وألسنتهم بالسُّوء إليه، وربُّك يخلقُ ما يَشاءُ ويختارُ، وقد قسَّم خلقَهُ أنواعًا وأجناسًا، فهذان العمَّان كافرانِ: أبو طالبٍ وأبو لَهَبٍ، ولكنَّ هذا يكونُ في القيامةِ في ضَحضاحٍ مِن نار، وذلك في الدَّرك الأسفلِ من النَّار، وأنزلَ الله فيه سورةً في كتابِهِ تُتلَى على المنابرِ، وتُقرأ في المواعِظِ والخُطَبِ، تَتضمَّنُ أنَّهُ سَيَصلَى نارًا ذاتَ لَهَبٍ، وامرأتُهُ حَمَّالة الحطبِ.

قال الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ أَبِي العَبَّاسِ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزِّنَادِ، عَنْ أَبِيهِ قَالَ: أَخْبَرَنِي رَجُلٌ يُقَالُ لَهُ: رَبِيعَةُ بْنُ عَبَّادٍ مِنْ بَنِي الدِّيلِ، وَكَانَ جَاهِلِيًّا، قَالَ: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فِي الجَاهِلِيَّةِ فِي سُوقِ ذِي المَجَازِ وَهُوَ يَقُولُ: «**يَا أَيُّهَا النَّاسُ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ تُفْلِحُوا**»، وَالنَّاسُ مُجْتَمِعُونَ عَلَيْهِ وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَضِيءُ الوَجْهِ أَحْوَلُ ذُو غَدِيرَتَيْنِ يَقُولُ: إِنَّهُ صَابِئٌ كَاذِبٌ، يَتْبَعُهُ حَيْثُ ذَهَبَ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ فَذَكَرُوا لِي نَسَبَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَقَالُوا لِي: هَذَا عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ[1].

وقال البيهقيُّ أيضًا: حدَّثنا أبو طاهرِ الفقيهُ، حدَّثنا أبو بكرٍ مُحمَّد بن الحسين

(١) حسن لشواهده: فقد رواه النسائي (٨/ ٥٥)، وابن حبان (٦٥٦٢) وغيرهما.

قطَّانُ، حدَّثنا أبو الأزهر، حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ الأَنْصَارِيُّ حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرِو بْنِ عَلْقَمَةَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُنْكَدِرِ عَنْ رَبِيعَةَ بْنِ عَبَّادٍ الدُّؤَلِيِّ قَالَ: «رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ بِذِي الْمَجَازِ يَتْبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِمْ يَدْعُوهُمْ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ وَهُوَ يَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ لاَ يَغُرَّنَّكُمْ عَنْ دِينِكُمْ وَدِينِ آبَائِكُمْ. قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: عَمُّهُ أَبُو لَهَبٍ»[١].

وأما أبو طالب فكان في غايةِ الشَّفقةِ والحُنُوِّ الطبيعيّ، كما سيظهَرُ من صنائعهِ وسجاياهُ، واعتمادِهِ فيما يُحامي به عن رسولِ الله ﷺ، وأصحابِهِ رَضِيَ الله عَنهُم.

قَالَ يُونُسُ بن بُكَيْر، عن طلحة بن يحيى بن طلحة بن عُبيد الله، عن موسى ابن طلحة، أخبرني عَقيلُ بن أبي طالب، قَالَ: جاءَت قريشٌ إلى أبي طالبٍ فقالوا: إنَّ ابن أخيك هذا قَدْ آذانا في نادينا ومسجدِنا، فانهَه عنَّا، فقال: يا عقيلُ، انطَلق فأتني بمحمدٍ، فانطلقتُ إليه فاستَخرَجتُه من كِبس - أو قَالَ: حِفشٍ - يقول: بيت صغير، فجاء به في الظهيرة في شدة الحرِّ، فلمَّا أتاهم قَالَ: إنَّ بني عمِّك هؤلاء زعموا أنَّك تُؤذيهم في ناديهم ومسجدهم، فانتهِ عن أذاهم، فحلَّق رسولُ الله ﷺ ببصرهِ في السماء فقال: «**تَرَونَ هذه الشَّمس؟**» قالوا: نَعَم، قَالَ: «**فَمَا أنا بِأقدَرَ عَلَى أن أدَعَ ذَلك منكُم عَلَى أن تسْتَشْعِلوا مِنها شُعلةً**» فقال أبو طالب: والله ما كَذَبَ ابنُ أخي قَطُّ، فارجِعوا[٢]. رواهُ البخاريُّ في «التاريخ»، عن مُحمَّد بن العلاء، عن يُونُس بن بُكَيرٍ، ورواهُ البيهقي عن الحاكم، عن الأصمِّ، عن أحمد بن عبد الجَبَّار عنه به، وهذا لفظُه.

قَالَ ابن إسحاقَ ثُمَّ قَالَ أبو طالب في ذلك:

واللَّـه لَـن يَـصِلُوا إلـيك بجَمعهـم ... حَتَّـى أُوَسَّـدَ في التُّـراب دَفيـنا

فامـضي لأمـرك مـا علـيكَ غَضَاضَةٌ ... أبـشِر وقَـرَّ بـذاكَ مـنكَ عُـيَونًا

ودَعَـوتَني وعلمـتُ أنَّـك ناصـحي ... فلقـد صـدقتَ وكـنتَ قـدمُ أميـنا

(١) إسناده حسن: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٨٥).
(٢) إسناده حسن: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ١٨٦)، والبخاري في «التاريخ» (٧/ ٥٠).

وعرَّضتَ دينًا قَدْ عَرَفتُ بأنَّهُ ... مِن خيرِ أديانِ البريَّةِ دينَا

لولا الملامةُ أو حِذاريَ سُبَّةً ... لوجدتني سَمحًا بذاكَ مُبَينَا

ثُمَّ قَالَ البيهقيُّ: وذكر ابنُ إسحاق لأبي طالب في ذلك أشعارًا، وفي كلِّ ذلك دلالةٌ عَلَى أنَّ الله تعالى عَصَمَه بعمِّه مع خلافِه إياهُ في دينه، وقد كان يعصِمهُ حيثُ لا يكونُ عمُّه بها شاءَ، لا مُعقِّبَ لِحُكمه» ا.هـ[١].

عباد الله...

ولم يقف عناد المشركين عند هذا التكذيب، بل تعدَّاه إلى بسط اليد بالأذى.

قَالَ الإمامُ أحمدُ: حَدَّثَنا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ عَبْدِ الكَرِيمِ، عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ مُحَمَّدًا يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لَأَطَأَنَّ عَلَى عُنُقِهِ، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسولُ الله ﷺ فَقَالَ: «**لَوْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ عِيَانًا**»[٢]. رواه البخاريُّ، عن يحيى، عن عبد الرَّزاق به[٣].

وقال دَاوُدَ بن أبي هندٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: مَرَّ أَبُو جَهْلٍ بالنبيِّ ﷺ وهو يُصَلِّي فَقَالَ: أَلَمْ أَنْهَكَ أن تُصَلِّيَ يا مُحَمَّد؟ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا بِهَا رَجُلٌ أَكْثَرُ نَادِيًا مِنِّي، فانتهرَهُ النبي ﷺ فَقَالَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَام: ﴿**فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ * سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ**﴾ [العلق: ١٧، ١٨]، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللهِ لَوْ دَعَا نَادِيَهُ لَأَخَذَتْهُ زَبَانِيَةُ العَذَابِ. رواهُ أحمدُ، والترمذيُّ وصحَّحه[٤]، والنَّسائيُّ من طريق داود به.

وقال الإمامُ أحمدُ: حدَّثنا إِسْمَاعِيلُ بْنُ يَزِيدَ الرَّقِّيُّ أَبُو يَزِيدَ، حَدَّثَنَا فُرَاتٌ، عَنْ عَبْدِ الكَرِيمِ، عَنْ عِكْرِمَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: لَئِنْ رَأَيْتُ النبيّ يُصَلِّي عِنْدَ الكَعْبَةِ لَآتِيَنَّهُ حَتَّى أَطَأَ عَلَى عُنُقِهِ، فَقَالَ: «**لَوْ فَعَلَ لَأَخَذَتْهُ المَلَائِكَةُ عِيَانًا**»[٥].

---

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٤٦ - ٤٨) باختصار.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد في «المسند» (١/ ٣٦٨).

(٣) رواه البخاري (٤٩٥٨).

(٤) وهو كما قَالَ.

(٥) صحيح.

وقال ابنُ جرير: حدَّثنا ابنُ عبدِ الأعلى، حَدَّثَنَا المُعْتَمِرُ، عن أبيه، عن نُعَيْمُ بْنُ أَبِي هِنْدٍ، عَنْ أَبِي حَازِمٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: هَلْ يُعَفِّرُ مُحَمَّدٌ وَجْهَهُ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ؟ قالوا: نَعَمْ، قَالَ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى لَئِنْ رَأَيْتُهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لَأَطَأَنَّ عَلَى رَقَبَتِهِ، أَوْ لَأُعَفِّرَنَّ وَجْهَهُ فِي التُّرَابِ.

قَالَ: فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ يُصَلِّي لِيَطَأَ عَلَى رَقَبَتِهِ، قَالَ: فَمَا فَجَأَهُمْ مِنْهُ إِلَّا وَهُوَ يَنْكُصُ عَلَى عَقِبَيْهِ وَيَتَّقِي بِيَدَيْهِ، قَالَ: فقيل لَهُ: مَا لَكَ؟ قَالَ: إِنَّ بَيْنِي وَبَيْنَهُ خَنْدَقًا مِنْ نَارٍ، وَهَولًا وأَجْنِحَةً.

قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَوْ دَنَا مِنِّي لَخَطَفَتْهُ المَلَائِكَةُ عُضْوًا عُضْوًا**»، قَالَ: وأَنْزَلَ اللَّـهُ تعالى - لَا أَدْرِي فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ أم لا: ﴿**إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى**﴾ إلى آخر السورة.

وقد رواه أحمدُ ومسلمٌ، والنَّسائيُّ، وابنُ أبي حاتم، والبيهقيُّ من حديث مُعتمر بن سُليمان بن طَرخانَ التَّيميِّ به.

وقال الإمامُ أحمد: حَدَّثَنَا وَهْبُ بْنُ جَرِيرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مَيْمُونٍ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: مَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ دَعَا عَلَى قُرَيْشٍ غَيْرَ يَوْمٍ وَاحِدٍ فَإِنَّهُ كَانَ يُصَلِّي وَرَهْطٌ مِنْ قُرَيْشٍ جُلُوسٌ وَسَلَى جَزُورٍ قَرِيبٌ مِنْهُ، فَقَالُوا: مَنْ يَأْخُذُ هَذَا السَّلَى فَيُلْقِيَهُ عَلَى ظَهْرِهِ؟ فَقَالَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ: أَنَا، فَأَخَذَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَى ظَهْرِهِ فَلَمْ يَزَلْ سَاجِدًا حَتَّى جَاءَتْ فَاطِمَةُ فَأَخَذَتْهُ عَنْ ظَهْرِهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ عَلَيْكَ المَلأَ مِنْ قُرَيْشٍ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعُتْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِشَيْبَةَ بْنِ رَبِيعَةَ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأَبِي جَهْلِ بْنِ هِشَامٍ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ اللَّهُمَّ عَلَيْكَ بِأُبَيِّ بْنِ خَلَفٍ أَوْ أُمَيَّةَ بْنِ خَلَفٍ**».

قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَلَقَدْ رَأَيْتُهُمْ قُتِلُوا يَوْمَ بَدْرٍ جَمِيعًا، ثُمَّ سُحِبُوا إِلَى القَلِيبِ، غَيْرَ أُبَيٍّ أَوْ أُمَيَّةَ فَإِنَّهُ كَانَ رَجُلًا ضَخْمًا فَتَقَطَّعَ.

وقد رواه البخاريُّ في مواضع متعدِّدة من «صحيحه»، ومسلمٌ من طرق عن أبي إسحاق به، والصوابُ أميةُ بنُ خلفٍ، فإنه الذي قُتلَ يوم بدرٍ، وأخوه أُبيٌّ إنما قُتل يوم أُحُدٍ.

والسَّلَى: هُوَ الذي يخرُجُ من ولدِ الناقة، كالمشيمةِ لولدِ المرأةِ.

وفي بعض ألفاظ «الصحيح»: إنَّهُم لَـمَّا فَعَلوا ذلك استضحَكوا حَتَّى جعل بعضُهم يميلُ عَلَى بعضٍ، أي: يميلُ هذا عَلَى هذا من شدةِ الضحكِ - لعنَهُم اللَّـهُ -. وفيه أن فاطمة لَـمَّا ألقته عنه أقبلت عليهم فسبَّتهم، وأنَّهُ ﷺ لَـمَّا فرغ من صلاته رفع يديه يدعو عليهم، فلمَّا رأوا ذلك سكن عنهم الضَّحكُ، وخافُوا دَعوتَهُ، وأنه ﷺ دعا عَلَى الملإ منهم جُملةً، وعيَّن في دُعائه سبعةً، وقع في أكثر الرِّوايات تسميةُ ستةٍ منهم، وهم: عُتبةُ، وأخوه شَيبةُ ابنا ربيعةَ، والوليدُ بن عُتبةَ، وأبو جهلِ بن هشام، وعُقبةُ بن أبي مُعَيطٍ، وأُميَّةُ بنُ خلفٍ. قَالَ أبو إسحاق: ونسيتُ السابع.

قلت: وهو عُمارَة بنُ الوليد. وقع تسميتُهُ في «صحيح البخاريِّ».

وقال البخاريُّ: حَدَّثَنَا عَيَّاشُ بْنُ الوَلِيدِ، حَدَّثَنَا الوَلِيدُ بْنُ مُسْلِم، حَدَّثَنِي الأَوْزَاعِيُّ، عن يَحْيَى بْنُ أَبِي كَثِيرٍ، عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ إِبْرَاهِيمَ التَّيْمِيِّ، قَالَ حَدَّثَنِي عُرْوَةُ ابْنُ الزُّبَيْرِ قَالَ: سَأَلْتُ ابْنَ عَمْرِو بْنِ العَاصِ: أَخْبِرْنِي بِأَشَدِّ شَيْءٍ صَنَعَهُ المُشْرِكُونَ بِالنَّبِيِّ ﷺ؟ قَالَ: بَيْنَا النَّبِيُّ ﷺ يُصَلِّي فِي حِجْرِ الكَعْبَةِ إِذْ أَقْبَلَ عُقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ فَوَضَعَ ثَوْبَهُ فِي عُنُقِهِ فَخَنَقَهُ خَنْقًا شَدِيدًا، فَأَقْبَلَ أَبُو بَكْرٍ حَتَّى أَخَذَ بِمَنْكِبِهِ وَدَفَعَهُ عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ الآيَةَ [غافر: ٢٨][(١)].

وروى البيهقيُّ عن الحاكمِ، عن الأصمِّ، عن أحمد بن عبد الجبَّار، عن يُونُسَ عَنِ مُحَمَّد بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ وَحَدَّثَنِى يَحْيَى بْنُ عُرْوَةَ بْن الزُّبَيْرِ عَنْ أَبِيهِ عُرْوَةَ، قَالَ: قُلْتُ لعبدِ الله بن عمرو بن العاص: مَا أَكْثَرَ مَا رَأَيْتَ قُرَيْشًا أَصَابَتْ مِنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِيمَا كَانَتْ تُظْهِرُ مِنْ عَدَاوَتِهِ؟ قَالَ: لقد رأيتُهُم وَقَدِ اجْتَمَعَ أَشْرَافُهُمْ يَوْمًا فِي الحِجْرِ فَذَكَرُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ قَطُّ، سَفَّهَ أَحْلاَمَنَا وَشَتَمَ آبَاءَنَا، وَعَابَ دِينَنَا، وَفَرَّقَ جَمَاعَتَنَا، وَسَبَّ آلِهَتَنَا، لَقَدْ صَبَرْنَا مِنْهُ عَلَى أَمْرٍ عَظِيمٍ، أَوْ كَمَا قَالُوا.

قَالَ: فَبَيْنَمَا هُمْ كَذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَأَقْبَلَ يَمْشِى حَتَّى اسْتَلَمَ

---

(١) أخرجه البخاري (٣٨٥٦).

..رُكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالبَيْتِ فَلَمَّا أَنْ مَرَّ بِهِمْ غَمَزُوهُ بِبَعْضِ مَا القول. فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى فَلَمَّا مَرَّ بِهِمْ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ، ثُمَّ مَضَى ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ الثَّالِثَةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا فَقَالَ: «أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ أَمَا وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ». فَأَخَذَتِ القَوْمَ كَلِمَتُهُ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ كَأَنَّمَا عَلَى رَأْسِهِ طَائِرٌ وَاقِعٌ، حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ فِيهِ وَصَاةً قَبْلَ ذَلِكَ لَيَرْفَؤُهُ بِأَحْسَنِ مَا يَجِدُ مِنَ القَوْلِ، حَتَّى إِنَّهُ لَيَقُولُ: انْصَرِفْ يَا أَبَا القَاسِمِ انْصَرِفْ رَاشِدًا فَوَاللهِ مَا كُنْتَ جَهُولًا.

قَالَ: فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى إِذَا كَانَ الغَدُ اجْتَمَعُوا فِي الحِجْرِ وَأَنَا مَعَهُمْ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: ذَكَرْتُمْ مَا بَلَغَ مِنْكُمْ وَمَا بَلَغَكُمْ عَنْهُ، حَتَّى إِذَا بَادَأَكُمْ بِمَا تَكْرَهُونَ تَرَكْتُمُوهُ، فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ إِذْ طَلَعَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَوَثَبُوا إِلَيْهِ وَثْبَةَ رَجُلٍ وَاحِدٍ فَأَحَاطُوا بِهِ يَقُولُونَ لَهُ: أَنْتَ الَّذِي تَقُولُ كَذَا وَكَذَا؟ لِمَا كَانَ يَبْلُغُهُمْ عَنْهُ مِنْ عَيْبِ آلِهَتِهِمْ وَدِينِهِمْ، فَيَقُولُ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**نَعَمْ أَنَا الَّذِي أَقُولُ ذَلِكَ**».

قَالَ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَجُلًا مِنْهُمْ أَخَذَ بِمَجْمَعِ رِدَائِهِ، وَقَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وَهُوَ يَبْكِي دُونَهُ، وَيَقُولُ: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾. ثُمَّ انْصَرَفُوا عَنْهُ، فَإِنَّ ذَلِكَ لأَكْثَرُ مَا رَأَيْتُ قُرَيْشًا بَلَغَتْ مِنْهُ قَطُّ[١].

عباد الله...

وهكذا بسط المشركون إلى رسول الله ﷺ ألسنتهم وأيديهم بالسُّوء.

وصبر النبيُّ ﷺ كما صبر أولوا العزم من الرسل، حَتَّى أتاه نصرُ الله تعالى.

فكان ﷺ أسوةٌ للدعاة بعده، فلنكن جميعًا عَلَى طريقه، والله المستعان، وعليه التُكلان.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) إسناده حسن: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٧٥)، وصرح ابن إسحاق بالسماع.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويحدِّثنا النبيُّ ﷺ عمّا طاله من الأذى، وناله من السُّوء، فيقول ﷺ: «لَقَدْ أُوذِيتُ فِي اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَمَا يُؤْذَى أَحَدٌ، وَأُخِفْتُ مِنْ اللَّهِ وَمَا يُخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثَةٌ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلِعِيَالِي طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا مَا يُوَارِي إِبِطَ بِلَالٍ»(١).

عباد الله...

هذا بعض ما طال النبيّ ﷺ من الأذى، وهو غَيض من فَيض، وقطرة من بحر.

وللحديث بقيّة، إن شاء الله، فإلى اللقاء.

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٠)، والترمذي (٢٤٧٢)، وابن ماجه (١٥١) وغيرهم.

الخطبة السابعة والستون:

ذِكر أوَّل مَن أسلم، وتعذيب المستضعفين منهم

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنتكلم اليوم إن شاء الله تعالى عن أوَّل مَن أسلم مِن الصَّحابة، وعن تعذيب المشركين للمستضعفين منهم.

والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربّ سواه.

عباد الله...

عن ابن عباس - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «أوَّل مَن صلَّى عليٌّ»[(١)].

(١) حسن لغيره: أخرجه ابن جرير في «التاريخ» (١/ ٥٣٧)، وأحمد (١/ ١٤١).

وروى جرير من حديث شُعْبَةُ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ أَبِي حَمْزَةَ - رجل من الأَنْصَارِ - سمعتُ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ يقول: «أَوَّلُ مَنْ أَسْلَمَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ عَلِيٌّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ».

قَالَ: فذكرتُه للنخعيَّ فأنكره، وقال: «أبو بكر أوَّل مَن أسلم»(١).

وقال الواقديُّ: «وأجمع أصحابنا أن عليًّا أسلم بعد ما تنبّأ رسولُ الله ﷺ بسنة».

وقال مُحمَّد بن كعب:«أولُ مَن أسلم من هذه الأُمّة: خديجة، وأوّل رجلين أسلما: أبو بكر، وعليٌّ، وأسلم عليٌّ قبل أبي بكر، وكان عليٌّ يكتم إيمانه خوفًا من أبيه، حَتَّى لقيه أبوه، قَالَ: أسلمت؟ قَالَ: نعم، قَالَ: آزر ابن عمِّك وانْصُره. قَالَ: وكان أبو بكر الصِّدِّيق أوّل من أظهر الإسلام».

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -:«والجمعُ بين الأقوال كلِّها: أن خديجة أوّلُ من أسلم من النِّساء، وظاهرُ السياقات، وقبل الرِّجال أيضًا.

وأولُ مَن أسلمَ من المَوالي: زيدُ بنُ حارثةَ، وأوّلُ مَن أسلمَ مِن الغِلْمان: عليُّ ابن أبي طالب، فإنه كان صغيرًا دون البُلوغ، عَلَى المشهور، وهؤلاء كانوا إذ ذاك أهل البيت، وأول مَن أسلم من الرجال الأحرار أبو بكر الصِّدِّيق، وإسلامُهُ كان أنفع من إسلام من تقدَّم ذكرهم، إذ كان صدرًا مُعَظَّمًا، ورئيسًا في قريش مُكرَّمًا، وصاحب مالٍ، وداعيةً إليالإسلام، وكان مُحبَّبًا متألفًا يَبذُلُ المال في طاعة الله ورسوله.

وقد ثبت في «صحيح البخاريِّ» عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حديث ما كان بين أبي بكر وعمر - رَضِي اللَّهُ عَنْهُمَا - من الخصومة، وفيه: «...فَقَالَ رسول الله ﷺ: «**إِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقَ، وَوَاسَانِي بِنَفْسِهِ وَمَالِهِ، فَهَلْ أَنْتُمْ تَارِكُوا لِي صَاحِبِي**» مَرَّتَيْنِ، فَمَا أُوذِيَ بَعْدَهَا.

وهذا كالنَّصِّ عَلَى أَنَّهُ أَوَّلُ مَن أسلم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن جرير (١/ ٥٣٧)، والترمذي (٣٧٣٥).

وقال أبو القاسم البغويّ: حدثني سُريجُ بن يُونسَ، حدَّثنا يُوسفُ بن ـجشُون قَالَ: أدركتُ مشيختنا منهم: مُحمَّد بن المنكدر، وربيعةُ بنُ أبي عبد ـرحمن، وصالحُ بن كيسَانَ، وعثمانُ بنُ مُحمَّدٍ، لا يَشُكُّون أنَّ أوَّل القومِ إسلامًا ـبو بكر الصِّدِّيق رَضِي الله عَنْهُ[١].

قلت: وهكذا قال إبراهيمُ النخعيُّ، ومُحمَّد بن كَعب، ومحمدُ بنُ سيرينَ، وسعدُ بنُ إبراهيمَ، وهو المشهورُ عن جمهورِ أهلِ السُّنة.

وروى ابنُ عساكر، عن سعدِ بن أبي وقَّاصٍ ومحمد ابن الحنفيَّة، أنَّهما قالا: لم يَكُن أولَهم إسلامًا، ولكن كان أفضلهم إسلامًا. قال سعدٌ: وقد آمَنَ قبلَهُ خمسةٌ.

وثبت في «صحيح البخاريِّ» من حديث هَمَّام بْنِ الحَارِثِ، عن عَمَّارُ بْنُ يَاسِرٍ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَا مَعَهُ إِلَّا خَمْسَةُ أَعْبُدٍ، وَامْرَأَتَانِ، وَأَبُو بَكْرٍ.

وروى الإمامُ أحمدُ وابنُ ماجه، من حديث عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ، عَنْ زِرٍّ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بن مسعود قَالَ: أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعَمَّارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةُ، وَصُهَيْبٌ، وَبِلَالٌ، وَالمِقْدَادُ.

فَأَمَّا رَسُولُ اللهِ ﷺ فَمَنَعَهُ اللهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنَعَهُ اللهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمْ المُشْرِكُونَ فَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الحَدِيدِ وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ إِنْسَانٌ إِلَّا وَقَدْ وَاتَاهُمْ عَلَى مَا أَرَادُوا، إِلَّا بِلَالٌ فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي ـنهِ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ فَأَعْطَوْهُ الوِلْدَانَ وَأَخَذُوا يَطُوفُونَ بِهِ شِعَابَ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ»[٢].

وثبت في «صحيح مسلم» من حديثِ أبي أُمامة، عن عمرو بن عَبَسَةَ السُّلمي - رَضِي الله عَنْهُ - قَالَ: أتيتُ رسولَ الله ﷺ في أولِ ما بُعثَ وهو بمكةَ، وهو حينئذٍ مُستخفيًا، فقلتُ: ما أنت؟ قَالَ: «أنا نبيٌّ»، فقلت: وما النبي؟ قَالَ: «رسول الله»، قلت: آللّـهُ أرسلك؟ قَالَ: «نعم»، قلت: بم أرسلك؟ قَالَ: «بأن تَعبُدَ الله

---

(١) إسناده صحيح: أخرج ابن عساكر (٣٠/ ٤٣).
(٢) إسناده حسن: أخرجه أحمد (١/ ٤٠٤)، وابن ماجه (١٥٠)، وغيرهما.

وَحدَهُ لا شريكَ لهُ، وتَكسر الأصنام، وتَصلَ الأرحامَ»، قَالَ: قلتُ: نِعمَ ما أرسلكَ به، فمن معكَ على هذا؟ قَالَ: «حُرٌّ وعبدٌ» - يعني أبا بكر وبلالا- قَالَ: فكانَ عمرو يقولُ: لقد رأيتني وأنا رُبعُ الإسلام.

قَالَ: فأسلمتُ، قلتُ: فأتَّبعُك يا رسول الله؟ قَالَ: «لا، ولكن الحَق بِقومِك فإذا أُخبرتَ أنِّي قد خَرَجتُ فَاتَّبِعني».

ويُقالُ: إنَّ معنى قوله ﷺ : «حرٌّ وعبدٌ» اسمُ جنسٍ، وتفسيرُ ذلك بأبي بكر وبلالٍ فقط فيه نَظرٌ، فإنَّهُ قد كانَ جماعةٌ قد أسلموا قبلَ عمرو بن عَبسَةَ، وقد كانَ زيدُ بن حارثةَ أسلَمَ قبلَ بلالٍ أيضًا، فلعلَّهُ أخبر أنَّهُ رُبُع الإسلام بِحسبِ عِلمِهِ، فإنَّ المسلمين كانوا إذ ذاك يَستسِرُّون بإسلامِهم لا يَطّلعُ على أمرهم كثيرُ أحدٍ من قراباتِهم دعِ الأجانبَ دع أهل البادية من الأعراب. والله أعلم.

وفي «صحيح البخاري» من طريق أبي أُسامةَ، عن هاشم بن هاشم، عن سَعِيدَ ابْنَ المُسَيَّبِ قَالَ: سَمِعْتُ سَعْدَ بْنَ أَبِي وَقَّاصٍ يَقُولُ: «مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ فِي اليَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ» وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَإِنِّي لَثُلُثُ الإِسْلَامِ.

أمَّا قوله: «مَا أَسْلَمَ أَحَدٌ فِي اليَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ» فسهلٌ. ويُروى: «إِلَّا فِي اليَوْمِ الَّذِي أَسْلَمْتُ فِيهِ» وهو مُشكلٌ، إذ يَقتضي أنَّهُ لم يسبقه أحدٌ بالإسلام، وقد عُلِمَ أن الصِّدِّيق وعليًّا وخديجة وزيدَ بن حارثة أسلَموا قبلَهُ، كما قد حَكَى الإجماعَ على تقدُّم إسلامِ هؤلاء غير واحدٍ، منهم ابنُ الاثير، ونصَّ أبو حنيفةَ - رحمه اللَّـهُ- على أن كلًّا من هؤلاء أسلم قبلَ أبناء جنسه، والله أعلم.

وأما قوله: «وَلَقَدْ مَكَثْتُ سَبْعَةَ أَيَّامٍ وَإِنِّي لَثُلُثُ الإِسْلَامِ» فمُشكلٌ، وما أدرِي على ماذا يُوضَعُ عليه إلا أن يكون أخبر بحسب ما عَلمَهُ، والله أعلم.

وقال أبو داودَ الطَّيالسيُّ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ زِرِّ بْنِ حُبَيْشٍ، عَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ أَنَّهُ قَالَ: «كُنْتُ غُلامًا يَافِعًا أَرْعَى غَنَمًا لِعُقْبَةَ بْنِ أَبِي مُعَيْطٍ فَجَاءَ النَّبِيُّ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ وَقَدْ فَرَّا مِنَ المُشْرِكِينَ فَقَالاَ: يَا غُلامُ هَلْ عِنْدَكَ مِنْ لَبَنٍ تَسْقِينَا؟ قُلْتُ: إِنِّي مُؤْتَمَنٌ وَلَسْتُ سَاقِيَكُمَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : «هَلْ عِنْدَكَ مِنْ جَذَعَةٍ لَمْ

يَنْزُ عَلَيْهَا الفَحْلُ». قُلْتُ: نَعَمْ. فَأَتَيْتُهُمَا بِهَا فَاعْتَقَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ وَمَسَحَ الضَّرْعَ وَدَعَا فَحَفَلَ الضَّرْعُ، ثُمَّ أَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ بِصَخْرَةٍ مُنْقَعِرَةٍ فَاحْتَلَبَ فِيهَا فَشَرِبَ وَشَرِبَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ شَرِبْتُ ثُمَّ قَالَ لِلضَّرْعِ: «اقْلِصْ». فَقَلَصَ، فَأَتَيْتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ فَقُلْتُ: عَلِّمْنِي مِنْ هَذَا القَوْلِ؟ قَالَ: «إِنَّكَ غُلَامٌ مُعَلَّمٌ». قَالَ فَأَخَذْتُ مِنْ فِيهِ سَبْعِينَ سُورَةً لاَ يُنَازِعُنِي فِيهَا أَحَدٌ»[1].ا.هـ[2].

عباد الله...

وكان مِمَّن سارع إلى الإسلام: حمزة بن عبد المطلب، وأبو ذرٍّ الغفاريّ، وغيرهما، وسيأتي ذكر ذلك في الجزء الخاص بالصحابة، ولله الحمد والمنّة.

والمقصود: أن قريشًا صبّت جام غضبها عَلَى المستضعفين مِمَّن آمن، فسامتهم سوء العذاب.

قال ابنُ إسحاقَ: ثُمَّ إنَّهم عَدَوا على من أسلَم واتَّبعَ رسول الله ﷺ من أصحابِهِ، فوثَبَت كلُّ قبيلةٍ على مَنْ فيها من المسلمينَ، فَجَعلوا يَحبسونَهم ويُعذبونهم بالضربِ والجوعِ والعطشِ، وبِرَمضاءِ مكَّة إذا اشتدَّ الحرُّ، مَن استَضعَفوه منهم، يفتِنونهم عن دينهم، فمنهم من يُفتَنُ من شدةِ البلاءِ الذي يُصيبُهم، ومنهم من يَصلُب لهم ويَعصِمُه الله منهم، فكان بلالٌ مولَى أبي بكرٍ لبعضِ بني جُمَحَ مُوَلَّدًا من مُولَّديهم وهو بلالُ بن ربَاحٍ، واسمُ أُمِّه حَمامةَ، وكان صادقَ الإسلام طاهر القلبِ، وكان أُميَّة بنُ خَلفٍ يُخرجُهُ إذا حَميتِ الظَّهيرةُ، ثم يأمُرُ بالصخرةِ العظيمة فتُوضَعُ على صَدرِهِ، ثُمَّ يَقولُ له: لا والله لا تَزالُ هكذا حتى تموت أو تكفُر بمحمدٍ وتعبُدَ اللاتَ والعُزَّى، فيقول وهو في ذلك: أحدٌ أحدٌ.

وقد روى البيهقيُّ عن الحاكم، عن إبراهيم بن عصمةَ العدلِ، حدَّثنا السَّريُّ

---

(١) إسناده حسن: أخرجه الطيالسي في «مسنده» (٣٥١)، وأبو نعيم في «الحلية» (١/ ١٢٥)، وغيرهما.

(٢) «البداية» (٣/ ٣١ – ٣٨) باختصار شديد.

ابنُ خُزيمةَ، حدَّثنا مسلمُ بن إبراهيم، حدَّثنا هشامُ بنُ أبي عبيد الله، عن أبي الزُّبير، عن جابر: أنَّ رَسولُ الله ﷺ مَرَّ بعمارٍ وأهله وهم يُعذَّبون فقال: «أبشروا آل عمَّار وآل ياسر، فإنَّ موعدَكم الجنَّة». فأمَّا أُمُّه فقتلُوها، تأبى إلا الإسلام[1].

وقال الإمامُ أحمد: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ، حَدَّثَنَا الأَعْمَشُ، عَنْ مُسْلِمٍ، عَنْ مَسْرُوقٍ، عَنْ خَبَّابِ بْنِ الأَرَتِّ قَالَ: كُنْتُ رَجُلًا قَيْنًا، وَكَانَ لِي عَلَى العَاصِ بْنِ وَائِلٍ دَيْنٌ، فَأَتَيْتُهُ أَتَقَاضَاهُ فَقَالَ لاَ وَاللهِ لاَ أَقْضِيكَ حَتَّى تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ. فَقُلْتُ: وَاللهِ لاَ أَكْفُرُ بِمُحَمَّدٍ ﷺ حَتَّى تَمُوتَ ثُمَّ تُبْعَثَ. قَالَ: فَإِنِّي إِذَا مُتُّ ثُمَّ بُعِثْتُ جِئْتَنِي وَلِي ثَمَّ مَالٌ وَوَلَدٌ فَأَعْطَيْتُكَ. فَأَنْزَلَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾ إِلَى قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَأْتِينَا فَرْدًا﴾ [مريم: ٧٧ - ٨٠][2]. أخرجاه في الصَّحِيحَيْنِ وغيرهما من طرقٍ، عن الأعمش به، وفي لفظ للبخاريّ: كنتُ قَينًا بمكةً فعملتُ للعاصِ بن وائلٍ سَيفًا، فجئتُ أتقاضَاهُ، فذكر الحديث.

وقال البخاريُّ: حَدَّثَنَا الحُمَيْدِيُّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، حَدَّثَنَا بَيَانٌ وَإِسْمَاعِيلُ قَالاَ: سَمِعْنَا قَيْسًا يَقُولُ: سَمِعْتُ خَبَّابًا يَقُولُ: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ مُتَوَسِّدٌ بُرْدَةً وَهُوَ فِي ظِلِّ الكَعْبَةِ، وَقَدْ لَقِينَا مِنَ المُشْرِكِينَ شِدَّةً، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَدْعُو اللَّهَ؟ فَقَعَدَ وَهُوَ مُحْمَرٌّ وَجْهُهُ فَقَالَ: «لَقَدْ كَانَ مَنْ قَبْلَكُمْ لَيُمْشَطُ بِمِشَاطِ الحَدِيدِ مَا دُونَ عِظَامِهِ مِنْ لَحْمٍ أَوْ عَصَبٍ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَيُوضَعُ المِنْشَارُ عَلَى مَفْرِقِ رَأْسِهِ فَيُشَقُّ بِاثْنَيْنِ مَا يَصْرِفُهُ ذَلِكَ عَنْ دِينِهِ، وَلَيُتِمَّنَّ اللَّهُ هَذَا الأَمْرَ حَتَّى يَسِيرَ الرَّاكِبُ مِنْ صَنْعَاءَ إِلَى حَضْرَمَوْتَ مَا يَخَافُ إِلَّا اللَّهَ». زَادَ بَيَانٌ: «وَالذِّئْبَ عَلَى غَنَمِهِ».

وفي رواية: «ولكنَّكم تستعجِلون». انفَرَدَ به البخاريُّ دونَ مسلم.

عباد الله...

وثبت أصحاب النبيّ ﷺ أمام هذا الإيذاء، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٢٨٢)، والحاكم (٣/ ٣٨١)، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبيّ.

(٢) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ١١١)، والبخاري (٢٠٩١)، ومسلم (٢٧٩٥)، وغيرهم.

ـه وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

بل استعذبوا العذاب، وما زادهم الإيذاء إلَّا إيمانًا وتسليمًا.

فرضي الله عنهم ورضوا عنه، وهذا هُوَ الفوز العظيم.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فلا أجد ما أختم به خطبة اليوم - بعد ثناء الله تعالى ورسوله عَلَى الصَّحابة - إلَّا قول ابن مسعود - رَضِيَ الله عَنْهُ - فيهم: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ، فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ، فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ، فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ[1] حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ»[2].

وقال ابن عُمَر - رَضِيَ اللَّـهُ عَنْهُمَا -: «مَن كان مستنًّا فليستنَّ بمن قَدْ مات، أولئك أصحاب مُحَمَّد ﷺ كانوا خير هذه الأُمّة، أبرّها قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلّفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيِّه ﷺ ونقل دينه، فتشبّهوا بأخلاقهم وطرائقهم، فهم أصحاب مُحَمَّد ﷺ كانوا عَلَى الهدى المستقيم، والله ربّ الكعبة»[3].

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة إن شاء الله نواصل الحديث، وبالله التوفيق.

---

(١) يقصد فقهاء الإسلام.
(٢) قَالَ الهيثمي في «المجمع» (١/ ١٧٧): رواه أحمد والبزار والطبراني في «الكبير»، ورجاله موثقون.
(٣) رواه أبو نعيم في «الحلية» (١/ ٣٠٥).

الخطبة الثامنة والستون:

هجرة المسلمين إلى الحبشة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل الحديث بإذن الله تعالى عن سيرة النبيّ المصطفى ﷺ.

سائلًا المولى التوفيق.

عباد الله...

قَالَ الإمامُ ابن القيّم - رحمه الله تعالى -: «لما اشتدَّ أذى المشركين على مَن أسلم، وفُتِنَ منهم مَن فُتِنَ، حتى يقولوا لأحدهم: اللاتُ والعُزَّى إلهُكَ مِن دون

..ـه؟ فيقول: نعم، وحتى إن الجُعَلَ[١] ليمُرُّ بهم، فيقولونَ: وهذا إلهُكَ مِن دون ..ـه. فيقول: نعم[٢]. ومرَّ عدوُّ الله أبو جهل بسُمَيَّة أم عمار بن ياسر، وهى تُعذَّبُ، ..وجُهَا وابنها، فطعنها بَحَرْبَةٍ فى فَرْجها حتى قتلها.

كان الصِّدِّيقُ إذا مَّر بأحدٍ من العبيد يُعذَّب، اشتراهُ منهم، وأعتقه، منهم ..لال، وعامِرُ بن فُهَيْرَةَ، وأم عُبيس، وزِنِّيرَة، والنهدية وابنتها، وجارية لبنى عدى ..ن عمر يُعذِّبها على الإسلام قبل إسلامه، وقال له أبوه: يا بنىَّ أراك تَعْتِقُ رِقابًا ..ـعافًا، فلو أنك إذ فعلتَ ما فعلتَ أعتقتَ قومًا جُلْدًا يمنعونك، فقال له أبو ..كر: إنى أُرِيدُ ما أُرِيدُ[٣].

فلما اشتد البلاءُ، أذِنَ الله سبحانه لهم بالهِجرة الأولى إلى أرض الحبشة، وكان ..ن مَن هاجر إليها عثمانُ بن عفان، ومعه زوجتهُ رُقيَّةُ بنتُ رسول الله ﷺ، وكان ..هل هذه الهجرة الأولى اثنى عشَرَ رجلًا، وأربع نسوة: عثمانُ، وامرأته، وأبو حذيفة، وامرأتهُ سهلة بنت سهيل، وأبو سلمة، وامرأتُهُ أم سلمة هند بنت أبى ..ـية، والزبير بن العوّام، ومصعب بن عمير، وعبدُ الرحمن بن عوف، وعثمانُ بن ..ظعون، وعامر بن ربيعة، وامرأتُهُ ليلى بنت أبى حَثمة، وأبو سَبْرَةَ بن أبى رُهْم، ..حاطب بن عمرو،، وسهيل بن وهب، وعبد الله بن مسعود. وخرجوا متسللين ..رًا، فوفَّق الله لهم ساعة وصولهم إلى الساحل سفينتين للتجار، فحملُوهم فيهما ..ى أرضِ الحبشة، وكان مخرجُهم فى رجب فى السنة الخامسة من المبعث، ..خرجت قريشٌ فى آثارهم حتى جاؤوا البحرَ، فلم يُدرِكُوا منهم أحدًا، ثم بلغهم ..ن قريشًا قد كفُّوا عن النبى ﷺ، فرجعوا.

فلما كانوا دون مكة بساعة من نهار، بلغهم أن قريشًا أشدُّ ما كانُوا عداوةً ..رسول الله ﷺ، فدخلَ مَنْ دخل بجوار، وفى تلك المرة دخل ابن مسعود، فسلَّم على النبى ﷺ وهو فى الصَّلاةِ، فلم يَرُدَّ عليه، فتعاظَمَ ذلك على ابن مسعود، حتى

(١) الجُعل: دويبة.
(٢) «السيرة» لابن إسحاق (١/ ٣٤٢).
(٣) «السيرة» لابن إسحاق (١/ ٣٤١).

قال له النبيُّ ﷺ: «إِنَّ اللهَ قَدْ أَحْدَثَ مِنْ أَمْرِهِ أن لاَ تَكَلَّمُوا فى الصَّلاةِ»[1]، هذا هو الصوابُ، وزعم ابنُ سعد وجماعةُ أن ابن مسعود لم يدخُلْ، وأنه رجع إلى الحبشةِ حتى قَدِمَ فى المرة الثانية إلى المدينةِ معَ مَنْ قَدِمَ، ورُدَّ هذَا بأن ابن مسعود شهد بدرًا، وأجهز على أبى جهل، وأصحابُ هذهِ الهِجْرة إنما قَدِمُوا المدينة مع جعفر بن أبى طالب وأصحَابِهِ بعد بدر بأربع سنين أو خمس.

قالوا: فإن قيل: بل هَذَا الذى ذكره ابنُ سعد يُوافق قولَ زيدِ ابن أرقم: كنَّا نتكلَّم فى الصَّلاة، يُكلِّم الرَّجُلُ صاحبه، وهو إلى جنبه فى الصلاة حَتَّى نَزَلَتْ: ﴿وَقُومُواْ لله قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨]، فأُمِرْنَا بالسُّكُوتِ، وَنُهِينَا عَنِ الكَلاَمِ»[2]، وزيدُ ابن أرَقم من الأنصار، والسُّورة مدنية، وحينئذ فابن مسعود سلَّم عليه لما قدمَ وهو فى الصلاة، فلم يَرُدَّ عليه حتى سلَّم، وأعلمه بتحريمِ الكلام، فاتفق حديثه وحديث ابن أرقم.

قيل: يُبطِلُ هذا شهود ابن مسعود بدرًا، وأهلُ الهِجرة الثانية إنما قَدِمُوا عامَ خيبر مع جعفر وأصحابه، ولو كان ابنُ مسعود ممن قَدِمَ قبل بدر، لكان لِقدومه ذِكر، ولم يذكر أحد قدومَ مهاجرى الحبشة إلا فى القَدْمَةِ الأولى بمكة، والثانية عامَ خيبر مع جعفر، فمتى قدم ابن مسعود فى غير هاتين المرتين ومع من؟ وبنحو الذى قلنا فى ذلك قال ابن إسحاق، قال: وبلغ أصحابَ رسول الله ﷺ الذين خرجوا إلى الحبشة إسلامُ أهل مكة، فأقبلُوا لما بلغهم من ذلك، حتى إذا دَنَوْا من مكة، بلغهم أن إسلامَ أهلِ مكة كان باطلًا، فلم يدخل مِنهم أحدٌ إلا بجوار، أو مستخفيًا. فكان ممن قدم منهم، فأقام بها حتى هاجر إلى المدينة، فشهد بدرًا وأُحُدًا فذكر منهم عبد الله بن مسعود.

فإن قيل: فما تصنعون بحديثِ زيد بن أرقم؟

قيل: قد أُجيب عنه بجوابين، أحدهما: أن يكون النهيُ عنه قد ثبت بمكة، ثم

---

(١) أخرجه البخاري (١٢١٦)، ومسلم (٥٣٨)، وغيرهما.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٠٠)، ومسلم (٥٣٩)، وغيرهما.

ذِنَ فيه بالمدينة، ثم نُهِىَ عنه. والثاني: أن زيدَ بنْ أرقم كان مِن صغار الصحابة، وكان هو وجماعةٌ يتكلَّمون فى الصلاة على عادتهم، ولم يبلغهم النهىُ، فلما بلغهم انتَهَوْا، وزيد لم يُخبر عن جماعة المسلمين كُلِّهم بأنهم كانوا يتكلَّمون فى الصلاة إلى حين نزول هذه الآية، ولو قُدِّرَ أنه أخبر بذلك لكان وهمًا منه.

ثم اشتد البلاءُ مِن قريش على مَن قَدِمَ من مهاجرى الحبشة وغيرِهم، وسطت بهم عشائِرُهم، ولَقُوا منهم أذىً شديدًا، فأَذِنَ لهم رسولُ الله ﷺ فى الخروج إلى أرضِ الحبشة مرَّة ثانية، وكان خروجهم الثانى أشقَّ عليهم وأصعبَ، ولَقُوا من قريش تعنيفًا شديدًا، ونالوهم بالأذى، وصَعُب عليهم ما بلغهم عن النجاشى مِن حسن جواره لهم، وكان عِدَّةُ مَن خرج فى هذه المرة ثلاثةً وثمانين رجلًا، إن كان فيهم عمَّارُ بن ياسر، فإنه يُشك فيه، قاله ابن إسحاق، ومِن النساء تِسعَ عشرة امرأة.

قلتُ: قد ذُكرَ فى هذه الهجرة الثانية عثمانُ بن عفان وجماعةٌ ممن شهد بدرًا، فإما أن يكونَ هذا وهمًا، وإما أن يكونَ لهم قدمةٌ أخرى قبل بدر، فيكون لهم ثلاثُ قدمات: قَدمة قبل الهِجرة، وقدمة قبل بدر، وقدمة عامَ خيبر، ولذلك قال ابنُ سعد وغيرُه: إنهم لما سَمِعُوا مُهَاجَرَ رسولِ الله ﷺ إلى المدينة، رجع منهم ثلاثةٌ وثلاثون رجلًا، ومن النساء ثمانُ نسوة، فمات منهم رجلان بمكة، وحُبِسَ بمكة سبعة، وشَهِدَ بدرًا منهم أربعةٌ وعشرون رجلًا.

فلما كان شهرُ ربيع الأول سنة سبعٍ من هِجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة، كتبَ رسولُ الله ﷺ كتابًا إلى النَّجاشىِّ يدعوه إلى الإسلام، وبعث به مع عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِى، فلما قُرِئ عليه الكتابُ، أسلمَ، وقال: «لَئِنْ قَدَرْتُ أَنْ آتِيَه لآتِيَنَّهُ»[(١)].

وكتب إليه أن يُزَوِّجَه أمَّ حبيبة بنتَ أبى سُفيان، وكانت فيمن هاجَرَ إلى أرضِ الحَبَشَةِ مع زوجها عُبيدِ الله بنِ جحش، فَتنصَّر هُنَاك وماتَ، فزوَّجَهُ النجاشىُّ إياها، وأصدقها عنه أَربعَمائِة دِينارٍ، وكان الذى وَلى تزويجَها خالد بنُ

---

(١) ضعيف جدًّا: وقصة إسلام النجاشي ثابتة، كما سيأتي بعد قليل إن شاء الله.

سعيد بن العاص.

وكتب إليه رسول الله ﷺ أن يَبْعَثَ إليهِ مَنْ بقى عِندَه من أصحابه، ويحمِلَهم، ففعل، وحملهم فى سفينتين مع عمرو بن أُميَّة الضَّمْرِى، فَقَدِمُوا على رَسُولِ الله ﷺ بخَيْبَر، فوجدُوه قد فَتَحَهَا، فكلَّم رَسُولُ الله ﷺ المُسْلِمينَ أن يُدخِلُوهم فى سِهَامِهم، فَفَعَلُوا[1].

وعلى هذا فيزول الإشكال الذى بينَ حديثِ ابنِ مسعود وزيدِ بن أرقم، ويكون ابنُ مسعود قَدِمَ فى المرة الوسطى بعد الهِجرة قبل بدرٍ إلى المدينة، وسلَّمَ عليه حينئذ، فلم يردَّ عليه، وكان العهدُ حديثًا بتحريم الكلام، كما قال زيدُ بن أرقم، ويكون تحريمُ الكلامِ بالمدينةِ، لا بمكة، وهذا أنسبُ بالنسخ الذى وقع فى الصلاة والتغيير بعد الهجرة، كجعلها أربعًا بعد أن كانت ركعتين، ووجوب الاجتماع لها.

فإن قيل: ما أحسنه مِن جمع وأثبته لولا أن محمد بن إسحاق قد قال: م حكيتُم عنه أن ابن مسعود أقام بمكة بعد رجوعه مِن الحبشة حتى هاجر إلى المدينة، وشهد بدرًا، وهذا يدفع ما ذكر.

قيل: إن كان محمد بن إسحاق قد قال هذا، فقد قال محمد بن سعد فى «طبقاته»: إن ابنَ مسعود مكث يسيرًا بعد مقدمه، ثم رجع إلى أرض الحبشة. وهذا هو الأظهر، لأن ابن مسعود لم يكن له بمكة مَن يَحميه، وما حكاه ابنُ سعد قد تضمَّن زيادة أمر خفى على ابن إسحاق، وابنُ إسحاق لم يذكر مَن حدَّثه. ومحمد بن سعد أسند ما حكاه إلى المطلب بن عبد الله بن حنطب، فانتفت الأحاديثُ، وصدَّق بعضها بعضًا، وزالَ عنها الإشكال، ولله الحمد والمنة.

وقد ذكر ابنُ إسحاق فى هذه الهجرة إلى الحبشة أبا موسى الأشعرى عبد الله ابن قيس، وقد أَنْكَرَ عليه ذلك أهل السِّيَر، منهم محمد بن عمر الواقدى وغيرُه. وقالوا: كيف يخفى ذلك على ابن إسحاق أو على مَن دونه؟

(١) أخرجه البخاري (٣١٣٦)، ومسلم (٢٠٢٥)، وغيرهما.

قلتُ[١]: وليس ذلك مما يخفى على مَنْ دون محمد بن إسحاق فضلًا عنه، وإنما نشأ الوهمُ أن أبا موسى هاجر من اليمن إلى أرض الحبشة إلى عند جعفر وأصحابه لما سمع بهم، ثم قَدِمَ معهم إلى رسول الله ﷺ بخيبر، كما جاء مصرَّحًا به في «الصحيح» فعد ذلك ابن إسحاق لأبي موسى هِجرة، ولم يقل: إنه هاجر من مكة إلى أرض الحبشة لينكر عليه.

فانحاز المهاجرون إلى مملكة أصحمة النجاشي آمِنِين، فلما عَلِمَتْ قريشٌ بذلك، بعثت في أثرهم عبدَ الله بن أبي ربيعة، وعمرو بن العاص، بهدايَا وتُحَفٍ مِن بلدهم إلى النجاشي ليردَّهم عليهم، فأبى ذلك عليهم، وشَفَعُوا إليه بعظماء بطارقته، فلم يجبهم إلى ما طلبوا، فَوَشَوْا إليه: أن هؤلاء يقولون في عيسى قولًا عظيمًا، يقولون: إنه عبد الله، فاستدعى المهاجرين إلى مجلسه، ومُقَدَّمُهم جعفر بن أبي طالب، فلما أرادوا الدخولَ عليه، قال جعفر: يستأذِنُ عليك حِزْبُ الله، فقال للآذِنِ: قل له يُعيد استئذانه، فأعاده عليه، فلما دخلوا عليه قال: ما تقولون في عيسى؟ فتلا عليه جعفر صدرًا من سورة ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١] فأخذ النجاشي عُودًا من الأرض فقال: ما زاد عيسى عَلَى هذا ولا هذَا العود، فتناخرت بطارقتهُ عنده، فقال: وإن نخرتم، قال: اذهبوا فأنتم سَيوم بأرضي، من سبَّكم غُرِّم والسيوم: الآمنون في لسانهم، ثم قال للرسولين: لو أعطيتموني دَبْرًا من ذهب يقول: جبلًا من ذهب ما أسلمتهم إليكما، ثم أمَر فَرُدَّت عليهما هداياهما، ورجعا مقبوحين»[٢]. ا.هـ[٣].

عباد الله...

وقد أسلم النجاشي، وصدَّق بنبوّة النبيّ ﷺ وإن كان قَدْ أخفى إيمانه عن قومه، لما علمه فيهم من الثبات عَلَى الباطل وحرصهم عَلَى الضلال، وجمودهم

---

(١) القائل هنا ابن القيّم رحمه الله.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٢٠٢)، وغيره.

(٣) من «زاد المعاد» لابن القيم.

عَلَى العقائد المنحرفة وإن صادمت العقل والنقل.

يدل عَلَى ذلك الحديث التالي: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ نَعَى النَّجَاشِيَّ فِي اليَوْمِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، وَخَرَجَ بِهِمْ إِلَى المُصَلَّى فَصَفَّ بِهِمْ وَكَبَّرَ عَلَيْهِ أَرْبَعَ تَكْبِيرَاتٍ»(١).

أيها المسلمون...

ولعل هناك من يسأل: ما هي الدروس المستفادة من هجرتي الحبشة الأولى والثانية؟

والجواب سيأتي بعد جلسة الاستراحة إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فمن الدروس المستفادة من هجرتي الحبشة الأولى والثانية:

(١) شفقة الرسول ﷺ عَلَى أصحابه، ورحمته بهم، وحرصه عَلَى راحتهم وأمنهم، ولذلك أشار عليهم بالذهاب إلى المَلك العادل النجاشيّ - رَضِي الله عَنْهُ -.

(٢) التحرّك بالإسلام خارج الجزيرة العربية، لإقناع الرأي العام بعدالة قضية المسلمين.

(٣)مشروعية الخروج عن الوطن، وإن كان الوطن مكَّة عَلَى فضلها، إذا كان الخروج فرارًا بالدين.

(٤)جواز دخول المسلمين في حماية غيرهم إذا دعت الحاجة إلى ذلك، شريطة أن يأمن المسلم عَلَى نفسه وعرضه ودينه.

---

(١) رواه البخاري (١٣٣٣).

:) كان وعي القيادة النبويّة عَلَى مستوى الأحداث - كما هُوَ دائمًا - ولذلك وضع جعفر بن أبي طالب - رَضِي الله عَنْهُ - عَلَى إمارة المسلمين في الهجرة، ليتحدث باسمهم بين يدي الملك، فأحسن عرض الإسلام، وواجه داهية العرب عمرو بن العاص[1].

أيها المسلمون...

هذه بعض الدروس المستفادة من هجرتي الحبشة الأولى والثانية، وفي الجمعة القادمة إن شاء الله نواصل المسير، وبالله التوفيق.

۞۞۞۞۞

(١) راجع قصة جعفر بن أبي طالب في كتابنا «أصحاب حول الرسول ﷺ».

الخطبة التاسعة والستون:
ذهاب النبيّ ﷺ إلى الطائف

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تقدَّم أن المشركين استخدموا كل وسائل الضغط عَلَى النبيّ ﷺ في محاولة منهم للقضاء عَلَى دعوته.

وكان المحرِّك الأوّل لهذا الضغط: حسده والحقد عليه.

قَالَ سفيان الثوريّ - رحمه الله تعالى - في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ﴾ [المؤمنون: ٦٩]، قَالَ: «بلى عرفوه، ولكنهم حسدوه».

وقال البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظُ، أخبرنا أبو العباسِ، حَدَّثَنَا أحمدُ،

حَدَّثَنَا يُونسُ، عن هشام بن سعدٍ، عن زيد بن أسلَمَ، عن المُغيرة بن شُعبة، قَالَ: إنَّ أول يوم عَرفتُ رسولَ الله ﷺ أنِّي كنتُ أمشي أنا وأبو جَهلِ بنُ هشام في بعضِ أزِقَّة مكَّة، إذ لقيَنا رسولُ الله ﷺ، فقال رسولُ الله ﷺ لأبي جهلٍ: «يا أَبا الحَكَم، هَلُمَّ إلى الله وإلى رسوله، أدعُوكَ إلى الله»، فقال أبو جهل يا مُحمَّد، هل أنت مُنتهٍ عن سبِّ آلهتنا؟ هل تريدُ إلا أن نشهَدَ أنك قَدْ بلَّغت؟ فنحن نشهدُ أن قَدْ بلَّغتَ، فوالله لو أنِّي أعلمُ أن ما تقولُ حقٌّ لاتَّبعتُك، فانصرفَ رسول الله ﷺ، وأقبلَ عليَّ فقال: والله إنِّي لأعلَمُ أنَّما يقولُ حقٌّ، ولكن يمنعُني شيءٌ، إن بني قُصَيٍّ قالوا: فينا الحِجَابةُ، فقُلنا: نَعم، ثُمَّ قالوا: فينا السِّقَايةُ، فقُلنا: نعم، ثُمَّ قالوا: فينا النَّدوةُ فقلنا: نعم، ثُمَّ قالوا: فينا اللِّواء، فقلنا: نعم، ثُمَّ أطعموا وأطعمنا، حَتَّى إذا تحاكَّتِ الرُّكَبُ قالوا: منا نبيٌّ، والله لا أفعل [١].

عباد الله...

وكلما كسب الإسلام أرضًا جديدة، وانضوى تحت لوائه المزيد من المؤمنين، ازداد ضغط المشركين عَلَى الإسلام وأهله.

قَالَ الإمامُ ابن القيم - رحمه الله تعالى -: «لما رأت قريشٌ أمرَ رسولِ الله ﷺ يعلو، والأمور تتزايد، أجمعوا على أن يتعاقدوا على بنى هاشم، وبنى عبد المطلب، وبنى عبد مناف، أن لا يُبايعوهم، ولا يُناكِحوهم، ولا يُكلِّموهم، ولا يُجالِسُوهُم، حتى يُسلِّموا إليهم رسولَ الله ﷺ، وكتبوا بذلك صحيفة، وعلَّقوها فى سقفِ الكعبةِ، يقال: كتبها منصور بن عكرمة بن عامر بن هاشم، ويقال: النَّضرُ بن الحارث، والصحيح: أنه بغيض بن عامر بن هاشم، فدعا عليه رسولُ الله ﷺ فَشَلَّتْ يَدُهُ، فانحاز بنو هاشم وبنو المطلب مؤمنُهم وكافرهم، إلا أبا لهب، فإنه ظاهر قريشًا على رسول الله ﷺ وبنى هاشم، وبنى المطلب، وحُبِسَ رسولُ الله ﷺ ومَنْ معه فى الشِّعب شِعْب أبى طالب لَيْلَةَ هِلال المحرَّم، سنةَ سبع مِنَ البعثة، وعُلِّقَتِ الصحيفةُ فى جوف الكعبة، وبقُوا محبوسينَ ومحصورينَ، مضيَّقًا عليهم

---

(١) حسن.

جدًا، مقطوعًا عنهم المِيرةُ والمادةُ، نحوَ ثلاثِ سنين، حتى بلغهم الجَهْدُ، وسُمِعَ أصواتُ صِبيانِهم بالبُكاء مِن وراء الشِّعب، وهناك عَمِلَ أبو طالب قصيدته اللاميةَ المشهورة أولها:

جَـزَى الله عَـنَّا عَبْدَ شَمْسٍ وَنَـوْفَلاً عُقُـوبَـةَ شَــرٍّ عَـاجلاً غَيْــرَ آجِـلِ

وكانت قريش فى ذلك بين راضٍ وكاره، فسعى فى نقضِ الصحيفةِ مَنْ كان كارِهًا لها، وكان القائمُ بذلك هشامَ بن عمرو بن الحارث بن حبيب بن نصر بن مالك، مشى فى ذلك إلى المُطعِم بن عدى وجماعة من قريش، فأجابوه إلى ذلك، ثم أطلعَ اللَّهُ رسولَه على أمرِ صحيفتهم، وأنه أرسلِ عليها الأَرَضَةَ فأكلت جميع ما فيها من جَوْرٍ وقطيعةٍ وظُلمٍ، إلا ذكر الله عَزَّ وجَلَّ، فأخبر بذلك عمَّه، فخرج إلى قريش فأخبرهم أن ابنَ أخيه قد قال كذا وكذا، فإن كانَ كاذبًا خلَّينا بينكم وبينه، وإن كان صادقًا، رجعتُم عن قطيعتنا وظُلمِنا، قالوا: قد أنصفت، فأنزلُوا الصَّحِيفةَ، فلما رأوا الأمرَ كما أخبر به رسولُ الله ﷺ، ازدادوا كُفرًا إلى كُفرهم(١)، وخرج رسولُ الله ﷺ ومَنْ مَعَهُ مِنَ الشِّعب. قال ابن عبد البر: بعد عشرة أعوام من المبعث، ومات أبو طالب بعد ذلك بستة أشهر، وماتت خديجةُ بعده بثلاثة أيام، وقيل غير ذلك.

فلما نُقِضَتِ الصحيفةُ، وافق موتُ أبى طالب وموت خديجة، وبينهما يسير، فاشتد البلاءُ على رسولِ الله ﷺ من سفهاء قومه، وتجرؤوا عليه، فكاشفُوه بالأذى، فخرج رسولُ الله ﷺ إلى الطائفِ رجاءَ أن يُؤووه ويَنصروه على قومه، ويمنعوه منهم، ودعاهم إلى الله عزَّ وجلَّ فلم يَرَ مَن يُؤوى، ولم ير ناصِرًا، وآذَوه مع ذلك أشدَّ الأذى، ونالُوا منه ما لم ينله قومُه، وكان معه زيد بن حارثة مولاه، فأقام بينهم عشرة أيام لا يدع أحدًا من أشرافهم إلا جاءه وكلَّمه، فقالوا: اخْرج مِن بلدنا، وأغرَوْا به سُفهاءهم، فوقفوا له سِماطَيْن، وجعلوا يرمُونه بالحِجَارَةِ حتى دمِيَتْ قَدَماه، وزيدُ بن حارثة يَقيهِ بنفسه حتى أصابه شِجاج فى رأسه،

(١) خبر نقض الصحيفة، ذكره ابن هشام في «السِّيرة» (١/ ٣٩٧ - ٤٠٠).

فانصرفَ راجعًا من الطائفِ إلى مكة محزونًا، وفى مرجعه ذلك دعا بالدعاء المشهورِ دُعاء الطَّائِفِ: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقِلَّةَ حِيلَتِي، وهَوَانى عَلَى النَّاس، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعَفِينَ، وأَنْتَ رَبِّى، إِلَى مَنْ تَكِلُنِي، إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِى؟ أَوْ إِلى عَدوٍّ مَلَّكْتَهُ أَمْرِى، إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلاَ أُبالِي، غَيْرَ أَنَّ عَافِيَتَكَ هِي أَوْسَعُ لِى، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِى أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُماتُ، وَصَلُحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنيا وَالآخِرَةِ، أَنْ يَحِلَّ عَلَيَّ غَضَبُكَ، أَوْ أَنْ يَنْزِلَ بى سَخَطُك، لك العُتبى حَتَّى تَرْضَى، وَلاَ حَوْلَ وَلاَ قُوَّةَ إِلا بِكَ»[(١)].

فأرسل ربُّه تبارك وتعالى إليه مَلَكَ الجِبَالِ، يستأمِرُهُ أن يُطْبِقَ الأَخْشَبَيْنِ عَلَى أَهْلِ مَكَّةَ، وهُمَا جبلاها اللذانِ هِيَ بينهما، فقَالَ: «لاَ، بَلْ أَسْتَأْنِى بِهِمْ لَعَلَّ اللهَ يُخْرِجُ مِنْ أَصْلاَبِهِمْ مَنْ يَعْبُدُهُ لاَ يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»[(٢)].

فلما نزل بنخلة مَرْجِعَهُ، قام يُصَلِّي مِن الليل، فَصُرِفَ إليهِ نَفَرٌ مِنَ الجن، فاستمَعُوا قراءته[(٣)]، ولم يَشْعُرْ بهم رسولُ الله ﷺ حتى نَزَلَ عَلَيْهِ: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا

---

(١) ذهب الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه «السِّيرة النبوية الصحيحة» (١/ ١٨٦) إلى تضعيف الحديث، وذهب د. إبراهيم العلي في كتابه «صحيح السِّيرة النبوية» (ص١٣٦) إلى صحته، وبيَّن أن للحديث شاهدًا يقويه، وضعفه الشيخ الألباني.

(٢) ثبت في الصحيحين من طريق عبد الله بن وهب، أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنْ ابْنِ شِهَابٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُرْوَةُ أَنَّ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا زَوْجَ النَّبِيِّ ﷺ حَدَّثَتْهُ: أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمِ أُحُدٍ؟ قَالَ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكِ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كُلَالٍ فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جِبْرِيلُ فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّ الله قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ، وأنا ملكُ الجبال قَدْ بَعَثَنِي ربُّك لتأمرني بأمرك، فما شئت؟ إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطْبِقَ عَلَيْهِمْ الْأَخْشَبَيْنِ» فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ الله مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ الله وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا». رواه البخاري (٣٢٣١)، ومسلم (١٧٩٥).

(٣) أخرج البخاري (٧٧٣) عن ابن عبَّاس - رَضِيَ الله عَنْهُما - قَالَ: انْطَلَقَ النَّبِيُّ ﷺ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمْ الشُّهُبُ فَرَجَعَتْ الشَّيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ فَقَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ =

إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُواْ أَنْصِتُواْ فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْاْ إِلَى قَوْمِهِم مُّنْذِرِينَ * قَالُواْ يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وإِلَى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ * يَا قَوْمَنَا أَجِيبُواْ دَاعِيَ الله وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ * وَمَن لا يُجِبْ دَاعِيَ الله فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءُ، أُوْلَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ ﴾ [الأحقاف: ٢٩-٣٢].

وأقام بنخلة أيامًا، فقال له زيدُ بنُ حارثة: كيف تدخلُ عليهم، وقد أخرجوك؟يعني قريشًا فقال: «**يا زيدُ؛ إن الله جاعِلٌ لما ترى فَرَجًا ومخرجًا، وإن الله ناصرٌ دِينَه ومظهر نبيه**».

ثم انتهى إلى مكة فأرسل رجلًا مِن خُزاعة إلى مُطعم بن عدى: «**أَدْخُلُ في جِوَارِكَ؟**» فقال: نعم، ودعا بنيه وقومه، فقال: البِسُوا السِّلاَح، وكونوا عِنْدَ أركانِ البيت، فإني قد أجرتُ محمدًا، فدخلَ رسولُ الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة، حتى انتهى إلى المسجد الحَرامَ، فقام المطعمُ بن عدى على راحلته، فنادى: يا معشرَ

= وَأُرسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ، قَالُوا: مَا حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ إِلَّا شَيْءٌ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا فَانْظُرُوا مَا هَذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟
فَانْصَرَفَ أُولَئِكَ الَّذِينَ تَوَجَّهُوا نَحْوَ تِهَامَةَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ بِنَخْلَةَ عَامِدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلَاةَ الْفَجْرِ، فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ فَقَالُوا: هَذَا وَالله الَّذِي حَالَ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَهُنَالِكَ حِينَ رَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ وَقَالُوا يَا قَوْمَنَا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا﴾: فَأَنْزَلَ الله عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ﴾ وَإِنَّمَا أُوحِيَ إِلَيْهِ قَوْلُ الْجِنِّ.
وفي ذلك يقول الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٥٣٨): «أَنَّ ابن إسحَاق وَابن سَعْد ذَكَرَا أَنَّ ذَلِكَ كَانَ ذي القعدَة سَنَة عَشر من المَبعَث لَمَّا خَرَجَ النَّبِيّ ﷺ إِلَى الطَّائف ثُمَّ رَجَعَ منهَا، وَيُؤَيّدهُ قَوله فِي هَذَا الحَديث «إِنَّ الجنّ رَأَوهُ يُصَلِّي بِأَصحَابه صَلَاة الفَجر» وَالصَّلَاة المَفرُوضَة إِنَّمَا شُرعَت لَيلَة الإِسرَاء، وَالإِسرَاء كَانَ عَلَى الرَّاجح قَبل الهجرَة بِسَنَتَين أَو ثَلَاث فَتَكُون القصَّة بَعد الإِسرَاء، لَكنَّهُ مُشكل من جهَة أُخرَى، لأَنَّ مُحَصَّل مَا فِي الصَّحيح كَمَا تَقَدَّمَ فِي بَدء الخَلق وَمَا ذَكَرَهُ ابن إسحَاق أَنَّهُ ﷺ لَمَّا خَرَجَ إِلَى الطَّائف لَم يَكُن مَعَهُ من أَصحَابه إِلَّا زَيد بن حَارثَة، وَهُنَا قَالَ إِنَّهُ انطَلَقَ فِي طَائفَة من أَصحَابه، فَلَعَلَّهَا كَانَت وُجهَة أُخرَى. وَيُمكن الجَمع بِأَنَّهُ لَمَّا رَجَعَ لَاقَاهُ بَعض أَصحَابه فِي أَثنَاء الطَّريق فَرَافَقُوهُ».

قريش؛ إني قد أجرتُ محمدًا، فَلا يَهجُهُ أَحَدٌ مِنكم، فانتهى رسولُ الله ﷺ إلى الركنِ، فاسْتَلَمَه، وصلَّى ركعتين، وانصرف إلى بيته، والمطعمُ بن عدى وولده محدِقون به بالسِّلاح حتى دخل بيته». ا.هـ.

عباد الله...

وكان النبيّ ﷺ لا ينسى هذا الموقف لمطعم بن عديّ، ففي «صحيح البخاري» (٣١٣٩) من حديث جُبير بن مُطْعِم، أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ فِي أُسَارَى بَدْرٍ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ».

فصلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله، ما أحسن الجزاء، وما أعظم خُلُق.

اللَّهُمَّ أحينَا عَلَى سُنَّته، وتوفَّنا عَلَى ملَّته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومما ينبغي التنبيه عليه، والإشارة إليه: أن أبا طالب عمّ النبيّ ﷺ مات كافرًا.

قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «قَالَ ابنُ إسحاقَ: لَـمَّا اشتكى أبو طالبٍ وبلغَ قريشًا ثِقَلُه، قالت قريشٌ بعضُها لبعضٍ: إنَّ حمزةَ وعُمَر قد أسلما، وقد فشا أمرُ مُحمَّد في قبائلِ قريشٍ كلِّها، فانطَلِقُوا بنا إلى أبي طالبٍ فليأخُذ لنا على ابنِ أخيه وليُعطه مِنَّا، فإنَّا والله ما نَأمَنُ أن يَبتَزُّونا أمرنا.

قال ابن إسحاق: وحدَّثني العباسُ بن عبد الله بن معبدٍ عن بعض أهلِهِ عن ابن عباسٍ قَالَ: لَـمَّا مَشَوا إلى أبي طالب وكَلَّموه - وهم أشرافُ قومِهِ: عُتبةُ بن ربيعةَ، وشَيبةُ بن ربيعةَ، وأبو جهلِ بن هشام، وأُميَّةُ بنُ خلفٍ، وأبو سفيانَ بنُ حربٍ - في رجالٍ من أشرافِهِم، فقالوا: يا أبَا طالبٍ إنَّك منَّا حيثُ قد علمتَ،

وقد حضَرَكَ ما تَرَى وتَخَوَّفنا عليك، وقد عَلِمتَ الذي بيننا وبين ابن أخيك، فادعُه فخُذ لنا منه وخُذ له منَّا ليَكُفَّ عنَّا ولِنَكُفَّ عنه، وليَدَعَنَا ودينَنا ولِنَدَعَهُ ودينه، فبعثَ إليه أبو طالب فجاءه فقال: يا ابن أخي هؤلاء أشرافُ قومك قَدْ اجتَمَعُوا إليك لِيُعطوك وليأخُذوا منك.

قَالَ: فقال رَسولُ الله ﷺ: «**يا عم كَلمةٌ واحدة تُعطُونيها، تَملكُون بها العرب وتدينُ لكم بها العَجَمُ**» فقال أبو جهل: نعم وأبيكَ، وعَشْرَ كلمات، قَالَ: «**تقولون: لا إله إلا الله، وتَخلَعُون ما تَعبُدُون من دُونِهِ**» فصَفَّقُوا بأيديهم، ثم قالوا: يا مُحَمَّد أتريدُ أن تَجعلَ الآلهةَ إلهًا واحدًا، إنَّ أمركَ لعجبٌ.

قَالَ: ثُمَّ قَالَ بعضهم لبعضٍ: إنَّهُ والله ما هذا الرجلُ بِمُعطيكم شيئًا مِمَّا تُريدون، فانطَلِقوا وامضوا على دين آبائكم حتى يَحكُم الله بينكم وبينه، ثُمَّ تفرَّقوا.

قَالَ: فقال أبو طالب: والله يا ابن أخي ما رأيتُك سألتَهُم شَطَطًا، قَالَ: فطمعَ رسول الله ﷺ فيه، فجعل يقولُ له: «**أيْ عَمِّ فأنت، فَقُلها أستحِلَّ لك بها الشفاعة يوم القيامة**» فلما رأى حرص رسول الله ﷺ قَالَ: يا ابن أخي والله لولا مخافةُ السُّبَّةِ عليك وعلى بني أبيك من بَعدي، وأن تظنَّ قريشٌ أنِّي إنما قُلتُها جَزعًا من الموت لَقُلتُها، لا أقولُها إلا لأَسُرَّك بها.

قَالَ: فلمَّا تَقارَبَ من أبي طالب الموتُ، نظرَ العباس إليه يُحرِّكُ شَفَتيهِ فَأصغَى إليه بأُذنِهِ، قَالَ: فقال: يا ابن أخي والله لقد قال أخي الكلمة التي أمرتَهُ أن يقولها، قَالَ: فَقَال رَسولُ الله ﷺ: «**لم أسمَع**»، قَالَ: وأنزل الله تعالى في أولئكَ الرَّهطِ: ﴿**ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ * بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ**﴾ [ص: ١، ٢] الآياتِ[(١)]، وقد تَكلَّمنا على ذلك في «التفسير» ولله الحمدُ والمِنَّةُ».

وقد استدَلَّ بعضُ مَن ذهبَ مِن الشِّيعة وغيرهم من الغُلاة إلى أنَّ أبا طالبٍ ماتَ مُسلمًا بقولِ العباسِ هذا الحديث: «يا ابن أخي، لقد قال الكلمةَ التي أمرتَهُ أن يقولها» يعني لا إله إلا الله.

---

(١) **إسناده ضعيف**: لإبهام من روى عنه العباس.

والجوابُ عن هذا من وجوهٍ:

أحدها: أنَّ في السَّنَد مُبهَمًا لا يُعرَفُ حالُه، وهو قوله: «عَن بعضِ أهلِهِ»، وهذا إبهام في الاسمِ والحالِ، ومِثلُهُ يُتَوقَّفُ فيه لو انفَرَدَ.

وروى البيهقي عن ابنِ عباسٍ قَالَ: مَرِضَ أَبُو طَالِبٍ فَجَاءَتْهُ قُرَيْشٌ وَجَاءَهُ النَّبِيُّ ﷺ، وَعِنْدَ رأس أَبِي طَالِبٍ مَجْلِس رَجُلٍ، فَقَامَ أَبُو جَهْلٍ كَيْ يَمْنَعَهُ ذاك، وَشَكَوْهُ إِلَى أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: يَا ابْنَ أَخِي مَا تُرِيدُ مِنْ قَوْمِكَ؟ قَالَ: «إِنِّي أُرِيدُ مِنْهُمْ كَلِمَةً وَاحِدَةً تَدِينُ لَهُمْ بِهَا العَرَبُ وَتُؤَدِّي إِلَيْهِمْ العَجَمُ الجِزْيَةَ»، قَالَ: كَلِمَةً وَاحِدَةً؟ قَالَ: «كَلِمَةً وَاحِدَةً»، قَالَ: «يَا عَمِّ قُولُوا لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، قَالَ: فَقَالُوا: أجعل الآلهة إلهًا وَاحِدًا، إِنْ هَذَا لشيءٌ عُجابٌ، قَالَ: فَنَزَلَ فِيهِمْ القُرْآنُ: ﴿ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ﴾ [ص: ١ - ٧] (١).

ثُمَّ قَدْ عَارَضَه - أعني سياقَ ابنِ إسحاقَ - ما هو أصحُّ منه، وهو ما رواهُ البخاريُّ - رحمهُ الله - قائلًا: حَدَّثَنَا مَحْمُودٌ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ، أَخْبَرَنَا مَعْمَرٌ، عَنْ الزُّهْرِيِّ، عَنْ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ أَبَا طَالِبٍ لَمَّا حَضَرَتْهُ الوَفَاةُ دَخَلَ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ وَعِنْدَهُ أَبُو جَهْلٍ فَقَالَ: «أَيْ عَمِّ قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ كَلِمَةً أُحَاجُّ لَكَ بِهَا عِنْدَ اللَّهِ» فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ وَعَبْدُ اللهِ بْنُ أَبِي أُمَيَّةَ: يَا أَبَا طَالِبٍ تَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ؟! فَلَمْ يَزَالَا يُكَلِّمَانِهِ حَتَّى قَالَ آخِرَ شَيْءٍ كَلَّمَهُمْ بِهِ عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْهُ» فَنَزَلَتْ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣]: وَنَزَلَتْ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦] (٢).

ورواه مسلمٌ عن إسحاقَ بن إبراهيم، وعبدٍ عن عبدِ الرزَّاق(٣).

---

(١) إسناده ضعيف: فيه يحيى بن عمارة، تفرد عنه الأعمش.

(٢) رواه البخاري (٣٨٨٤).

(٣) رواه مسلم (٢٤).

وأخرجاهُ أيضا من حديث الزُّهريِّ عن سعيد بن المُسيِّب، عن أبيه بنحوه، وقال فيه: فَلَمْ يَزَلْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَعْرِضُهَا عَلَيْهِ وَيُعِيدَانِهِ بِتِلْكَ المَقَالَةِ حَتَّى قَالَ أَبُو طَالِبٍ آخِرَ مَا كَلَّمَهُمْ: عَلَى مِلَّةِ عَبْدِ المُطَّلِبِ، وَأَبَى أَنْ يَقُولَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ.

قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «وَاللهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ مَا لَمْ أُنْهَ عَنْكَ» فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ﴾: وَأَنْزَلَ اللهُ فِي أَبِي طَالِبٍ فَقَالَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾[1].

وهكذا رَوى الإمامُ أحمد ومسلمٌ والترمذيُّ، مِن حديث يَزيدَ بن كَيسَانَ، عن أبي حازم عن أبي هُريرةَ قَالَ: لَـمَّا حضرتَ وفاةُ أبي طالبٍ أتاهُ رَسولُ الله ﷺ فقال: «يا عمَّاهُ، قُلْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ أَشْهَدُ لَكَ بِهَا يَوْمَ القِيَامَةِ» قَالَ: لَوْلَا أَنْ تُعَيِّرَنِي قُرَيْشٌ، يَقُولُونَ: ما حَمَلَهُ عليه إِلَّا جَزَعُ الموتُ، لَأَقْرَرْتُ بِهَا عَيْنَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾[2].

وهكذا قال عبد الله بنُ عباسٍ، وابنُ عُمَر، ومجاهدٌ، والشَّعبيُّ، وقتادةُ: إنَّها نزلت في أبي طالبٍ حين عَرَض عليه رَسولُ الله ﷺ أن يقول لا إله إلا الله، فأبى أن يقولها وقال هو على مِلَّة الأشياخ، وكان آخرَ ما قالَ: هو على ملة عبد المُطَّلب.

ويُؤَكِّدُ هذا كلَّه: ما قال البخاريُّ: حَدَّثَنَا مُسدَّد، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ، عَنْ سُفْيَانَ، عن عَبْدُ المَلِكِ بْنُ عُمَيْرٍ، عن عَبْدُ اللهِ بْنُ الحَارِثِ، حَدَّثَنَا العَبَّاسُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ: مَا أَغْنَيْتَ عَنْ عَمِّكَ، فَقَدْ كَانَ يَحُوطُكَ وَيَغْضَبُ لَكَ، قَالَ: «هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ»[3]. ورواهُ مسلمٌ في «صحيحه» من طُرُقٍ عن عبد الملك بن عُمَيرٍ به[4].

وأخرجاه في الصَّحِيحَيْنِ من حديث اللَّيْث، حَدَّثَنِي ابْنِ الهَادِ، عَنْ عَبْدِ اللهِ

(١) رواه البخاري (١٣٦٠)، ومسلم (٢٤).
(٢) رواه أحمد ومسلم (٢٥)، وغيرهما.
(٣) أخرجه البخاري (٣٨٨٣).
(٤) رواه مسلم (٢٠٩).

بن خَبَّاب، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ فَقَالَ: «لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي يَوْمَ القِيَامَةِ فَيُجْعَلَ فِي ضَحْضَاحٍ مِنْ نَارٍ يَبْلُغُ كَعْبَهُ يَغْلِي مِنْهُ دِمَاغُهُ»[١]. لفظ البخاريِّ، وفي رواية: «تَغلي منه أُمُّ دِماغِهِ»[٢].

قَالَ السُّهيليُّ: وإنَّما لم يَقبلِ النبيّ ﷺ شهادةَ العباسِ لأخيه، أنَّهُ قَالَ الكلمة، وقال: «لم أَسْمَع»، لأن العباس كان إذ ذاك كافرًا غير مقبولِ الشهادة.

قلت[٣]: وعندي أنَّ الخبر بذلك ما صحَّ، لضعفِ سندهِ كما تقدَّم، وممَّا يدلُّ على ذلك: أنَّهُ سأل النبيَّ ﷺ بعد ذلك عن أبي طالبٍ فذكرَ له ما تقدَّم، وبتقديرِ صحَّتهِ، لعلَّهُ قَالَ ذلك عند مُعاينةِ الملكِ بعدَ الغرغرةِ، حين لا ينفعُ نفسًا إيمانُها، والله أعلم.

وقال أبو داود الطَّيالسيُّ: حَدَّثَنَا شُعبَةُ عن أبي إسحاق، سمعتُ ناجيَةَ بنِ كعبٍ يقول: سمعتُ عليًّا يقولُ: لَـمَّا تُوفِّي أبي أتيتُ رَسولَ الله ﷺ فقلت: إنَّ عمَّكَ قَدْ تُوُفِّيَ، فقال: «اذهَب فَوَارِهِ» فقلتُ: إنَّه ماتَ مُشرِكًا، فقال: «اذهَب فَوَارِهِ ولا تُحدثَنَّ شيئًا حَتَّى تَأتيني» فَفَعلتُ ثُمَّ أَتَيتُهُ، فَأَمَرَنِي أن أغتَسِل[٤].

ورواهُ أبو داودَ والنَّسائيُّ من حديث سُفيانَ، عن أبي إسحاق، عن ناجيةَ، عن عليٍّ: لَمَّا تُوُفِّيَ أَبُو طَالِبٍ أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ فَقُلْتُ: إِنَّ عَمَّكَ الشَّيْخَ الضَّالَّ قَدْ مَاتَ، فمن يواريه؟ قَالَ: «اذهَبْ فَوَارِهِ، ثُمَّ لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي»، قَالَ: فَوَارَيْتُهُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ قَالَ: «اذْهَبْ فَاغْتَسِلْ ثُمَّ لَا تُحْدِثْ شَيْئًا حَتَّى تَأْتِيَنِي» قَالَ: فَاغْتَسَلْتُ ثُمَّ أَتَيْتُهُ، قَالَ: فَدَعَا لِي بِدَعَوَاتٍ مَا يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بهنَّ ما عَلَى الأرض من شيءٍ[٥].

وقال الحافظ البيهقيُّ: أخبرنا أبو سعد المالينيُّ، حَدَّثَنَا أبو أحمد بنُ عَديٍّ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن هارون بن حميدٍ، حَدَّثَنَا مُحَمَّد بن عبد العزيز بن أبي رِزمَةَ، حَدَّثَنَا

---

(١) رواه البخاري (٣٨٨٥)، ومسلم (٢١٠).

(٢) رواه مسلم (٢١٢).

(٣) القائل: ابن كثير رحمه الله.

(٤) صحيح: أخرجه الطيالسي (٢٢٠)، وأحمد (٧٥٩)، والنسائي (١٩٠)، وغيرهم.

(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٢١٤)، والنسائي (٢٠٠٥).

الفضلُ، عن إبراهيم بنِ عبد الرحمن، عن ابن جُرَيج، عن عطاء، عن ابن عباسٍ، أنَّ النبيَّ ﷺ عارضَ جنازةَ أبي طالب فقال: «**وَصلتكَ رحمٌ وجُزِيتَ خيرًا يا عَمِّ**»[(١)].
قَالَ: ورُوي عن أبي اليمان الهَوزَنيِّ، عن النبيِّ ﷺ مُرسَلًا. وزاد: ولم يَقُم عَلَى قبرِهِ، قَالَ: وإبراهيمُ بنُ عبد الرحمن هذا هُوَ الخُوارزميُّ، تَكَلَّمُوا فيه.

قلت: قَدْ رَوى عنه غيرُ واحدٍ، منهم الفضلُ بن موسى السِّيانيُّ، ومحمدُ بن سَلامٍ البِيكنديُّ، ومع هذا قَالَ ابن عَديٍّ: ليس بمعروفٍ، وأحاديثُه عن كلِّ مَن روى عنه ليست بمستقيمةٍ.

وقد قَدَّمنا ما كان يَتَعاطاهُ أبو طالب من المُحاماةِ، والمُحاجَّة، والمُمانعةِ عن رسول الله ﷺ، والدفعِ عنه وعن أصحابهِ، وما قاله فيه من المَمادح والثناءِ، وما أظهرَ له ولأصحابه من المودةِ والمحبَّةِ والشفقة في أشعارهِ التي أسفلناها، وما تَضمَّنتهُ من العيب والتَّنقُّص لمن خالَفَهُ وكذَّبهُ، بتلك العبارة الفصيحةِ البليغةِ، الهاشميةِ، المطَّلبِيَّة، التي لا تُدانَى ولا تُسامَى، ولا يُمكنُ عربيًا مُقارَبتُها ولا مُعارضتُها، وهو في ذلك كلِّه يعلمُ أنَّ رسول الله ﷺ صادقٌ بارٌّ راشدٌ، ولكن مع هذا لم يُؤمِن قلبُه وفَرقٌ بين علمِ القلبِ وتصديقه، وشاهدُ ذلك قولُهُ تعالى: ﴿**الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ١٤٦]، وقال تعالى في قومِ فرعونَ: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ**﴾ [النمل: ١٤].

وقال موسى لفرعونَ: ﴿**لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا**﴾ [الإسراء: ١٠٢]، وقولُ بعضِ السَّلف في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْئَوْنَ عَنْهُ**﴾ [الأنعام: ٢٦]، إنها نزلت في أبي طالبٍ، حيث كان ينهَى النَّاس عن أذية رسول الله ﷺ وينأى هُوَ عمَّا جاء به الرسولُ من الهُدى ودينِ الحقِّ، فقد رُويَ عن ابن عباس، والقاسم بن مُخَيمِرَةَ، وحبيبِ بنِ أبي ثابتٍ،

---

(١) ضعيف: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٣٤٩)، قَالَ الذهبي في «الميزان» (١/ ٤٥): خبر منكر.

وعطاء بن دينارٍ، ومحمد بن كعبٍ، وغيرهم، وفيه نظرٌ، والله أعلمُ.

والأظهرُ - والله أعلمُ - الروايةُ الأخرى عن ابنِ عباسٍ: وهم يَنْهَونَ النَّاس عن محمدٍ أن يُؤمنوا به، وبهذا قَالَ مُجاهدٌ، وقتادَةُ والضَّحَّاكُ، وغيرُ واحدٍ، وهو اختيارُ ابن جريرٍ.

وتوجيهُهُ: أنَّ هذا الكلامَ سيقَ لتمامِ ذَمِّ المُشركين، حيثُ كانوا يَصدُّون النَّاس عن اتِّباع الحقِّ، ولا ينتفعون هم أيضًا به، ولهذا قَالَ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ * وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [الأنعام: ٢٥، ٢٦]، وهذا اللفظُ وهو قوله: ﴿وَهُمْ﴾ يدلُّ عَلَى أنَّ المرادَ بهذا جماعةٌ، وهم المذكورون في سياقِ الكلام، وقوله: ﴿وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ يدلُّ عَلَى تمام الذَّمِّ، وأبو طالبٍ لم يَكُن بهذه المثابةِ، بل كان يَصُدُّ الناسَ عن أذية رسول الله ﷺ وأصحابِهِ، بكلِّ ما يَقدرُ عليه من فَعالٍ ومقالٍ، ونفسٍ ومالٍ، ولكن مع هذا لم يُقَدِّرُ الله له الإيمان، لما له تعالى في ذلك الحكمةِ العظيمة، والحجة القاطعةِ البالغةِ الدامغةِ، التي يجبُ الإيمانُ بها والتسليمُ لها، ولولا ما نهانا اللّـهُ عنهُ من الاستغفارِ للمشركينَ لاستغفَرنا لأبي طالبٍ وتَرَحَّمنا عليه» ا.هـ[1].

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ إن شاء الله، فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ اهْدنا واهدِ بنا، واجعلنا سَبَبًا لِمَن اهتَدى.

آمين... آمين... آمين.

❁❁❁❁❁

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ١٣٢ - ١٣٦) باختصار يسير.

الخطبة السبعون:

[أ] الإسراء والمعراج

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقد جاء حادث الإسراء والمعراج بعد أحداث جسام - تقدمت قريبًا - وجاء كذلك بعد وفاة خديجة رضي الله عنها، وعمِّه أبي طالب، فاعترى النبيَّ ﷺ من الهمِّ والحَزَنِ ما الله به عليم، حَتَّى سُمِّي المؤرِّخون وكُتَّاب السِّير هذا العام: «عام الحزن».

فجاء حادث الإسراء والمعراج، كأن الله - تعالى - يقول لنبيِّه ﷺ: يا مُحَمَّد لا تحزن، إن ضاقت عليك الأرض، اتَّسعت لك السماء، وإن تخلَّى عنك الخَلق، فإن الخالق عَزَّ وَجَلَّ معك.

عباد الله...

واتفقت كلمةُ المفسّرين والمؤرخّين وأهل السِّير عَلَى أن رحلة الإسراء والمعراج كانت قبل الهجرة، واختلفوا في تعيين زمنها عَلَى أقوال، أشهرها: أنها كانت ليلة السابع والعشرين من شهر رجب سنة ١٠ من النبوة، واختار هذا القول العلَّامة المنصور فوري، واختار النووي أنها كانت يوم الاثنين السابع والعشرين من شهر ربيع الأول. ولم يأت بهذا التحديد دليلٌ قاطع.

- **وكانت هذه الرحلة المباركة ليلًا.**
- **وبجسد النبيّ ﷺ وروحه.**
- **وكانت في حال يقظته.**

يدل عَلَى ذلك:

١ - قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: ١].

٢ - قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى* ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى * فَأَوْحَى إِلَى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى * مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى * أَفَتُمَارُونَهُ عَلَى مَا يَرَى * وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ٥- ١٨].

٣- عن مَالِكَ بْنَ صَعْصَعَةَ رَضِي الله عَنْهُ قال: قَالَ رَسولُ اللهِ ﷺ: «بَيْنَا أَنَا فِي الحَطِيمِ مُضْطَجِعٌ، إِذْ أَتَانِي فَقَدَّ[١] ما بَيْنَ هذهِ إلى هَذهِ[٢]، فَاسْتُخْرِجَ قَلْبِي، ثُمَّ أُتِيتُ بِطَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ مَمْلُوءَةٍ إِيمَانًا وَحِكْمَةً، فَغُسِلَ قَلْبِي بماءَ زَمزَم، ثُمَّ حُشِيَ، ثُمَّ أُعِيدَ، ثُمَّ أُتِيتُ بِدَابَّةٍ دُونَ البَغْلِ وَفَوْقَ الحِمَارِ أَبْيَضَ، يقال له: البُرَاقُ، يضعُ خَطْوُهُ عِنْدَ أَقْصَى طَرْفِهِ.

---

(١) فَقَدَّ: فَشَقَّ

(٢) إشارة إلى صدره الشريف.

«فَحُمِلْتُ عَلَيْهِ، فَانْطَلَقَ بِي جِبْرِيلُ حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الدُّنْيَا، فَاسْتَفْتَحَ فَقِيلَ مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا فِيهَا آدَمُ، فَقَالَ: هَذَا أَبُوكَ آدَمُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الثَّانِيَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفَتَحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يَحْيَى وَعِيسَى وَهُمَا ابْنَا الخَالَةِ قَالَ: هَذَا يَحْيَى وَعِيسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِمَا، فَسَلَّمْتُ فَرَدَّا ثُمَّ قَالَا: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِذَا يُوسُفُ، قَالَ: هَذَا يُوسُفُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الرَّابِعَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: أَوَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَفُتِحَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ إِلَى إِدْرِيسَ قَالَ: هَذَا إِدْرِيسُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ الخَامِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قِيلَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا هَارُونُ، قَالَ: هَذَا هَارُونُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ، ثُمَّ صَعِدَ بِي حَتَّى أَتَى السَّمَاءَ السَّادِسَةَ فَاسْتَفْتَحَ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ أُرْسِلَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا مُوسَى، قَالَ: هَذَا مُوسَى فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ، ثُمَّ قَالَ: مَرْحَبًا بِالأَخِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ. فَلَمَّا تَجَاوَزْتُ بَكَى قِيلَ لَهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ قَالَ: أَبْكِي لِأَنَّ غُلَامًا بُعِثَ بَعْدِي يَدْخُلُ الجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِهِ أَكْثَرُ مِمَّنْ يَدْخُلُهَا مِنْ أُمَّتِي[(١)].

---

(١) قَالَ العلماء: لم يكن بكاء موسى حسدًا، معاذ الله، بل كان أسفًا على ما فاته من الأجر الذي =

ثُمَّ صَعِدَ بِي إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ، قِيلَ: مَنْ هَذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ، قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ، قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: مَرْحَبًا بِهِ فَنِعْمَ المَجِيءُ جَاءَ، فَلَمَّا خَلَصْتُ فَإِذَا إِبْرَاهِيمُ، قَالَ: هَذَا أَبُوكَ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، قَالَ: فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ فَرَدَّ السَّلَامَ قَالَ: مَرْحَبًا بِالِابْنِ الصَّالِحِ وَالنَّبِيِّ الصَّالِحِ.

ثُمَّ رُفِعَتْ إِلَيَّ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى فَإِذَا نَبْقُهَا مِثْلُ قِلَالِ هَجَرَ، وَإِذَا وَرَقُهَا مِثْلُ آذَانِ الفِيَلَةِ، قَالَ: هَذِهِ سِدْرَةُ الْمُنْتَهَى، وَإِذَا أَرْبَعَةُ أَنْهَارٍ: نَهْرَانِ بَاطِنَانِ، وَنَهْرَانِ ظَاهِرَانِ. فَقُلْتُ: مَا هَذَانِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: أَمَّا البَاطِنَانِ فَنَهْرَانِ فِي الجَنَّةِ، وَأَمَّا الظَّاهِرَانِ: فَالنِّيلُ وَالفُرَاتُ(١)، ثُمَّ رُفِعَ لِي البَيْتُ المَعْمُورُ ثُمَّ أُتِيتُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ وَإِنَاءٍ مِنْ عَسَلٍ، فَأَخَذْتُ اللَّبَنَ، فَقَالَ: هِيَ الفِطْرَةُ الَّتِي أَنْتَ عَلَيْهَا وَأُمَّتُكَ، ثُمَّ فُرِضَتْ عَلَيَّ الصَّلَوَاتُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ فَمَرَرْتُ عَلَى مُوسَى، فَقَالَ: بِمَا أُمِرْتَ؟ قَالَ: أُمِرْتُ بِخَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسِينَ صَلَاةً كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي وَاللَّهِ قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ، فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَوَضَعَ عَنِّي عَشْرًا فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِعَشْرِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ فَرَجَعْتُ فَقَالَ مِثْلَهُ، فَرَجَعْتُ فَأُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَى فَقَالَ: بِمَ أُمِرْتَ؟ قُلْتُ: أُمِرْتُ بِخَمْسِ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا تَسْتَطِيعُ خَمْسَ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ، وَإِنِّي قَدْ جَرَّبْتُ النَّاسَ قَبْلَكَ وَعَالَجْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَشَدَّ المُعَالَجَةِ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ لِأُمَّتِكَ، قَالَ: سَأَلْتُ رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ وَلَكِنِّي أَرْضَى وَأُسَلِّمُ، قَالَ: فَلَمَّا جَاوَزْتُ نَادَى مُنَادٍ: أَمْضَيْتُ فَرِيضَتِي، وَخَفَّفْتُ عَنْ عِبَادِي»(٢).

= يترتب عليه رفع الدرجة بسبب ما وقع من أُمّته من كثرة المخالفة، لأن لكلّ نبي مثل أجر كلّ مَن اتبعه.

(١) قَالَ الشيخ الألباني: لعل المراد من كون هذه الأنهار من الجَنَّة أن أصلها منها كما أن أصل الإنسان من الجَنَّة، فإن لم يكن هَذَا هُوَ المعنى أو ما يشبهه، فالحديث من أمور الغيب يجب الإيمان بها. «الصحيحة» (١/ ١٧٨).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

عباد الله...

هل كان الإسراء بالروح أم بالروح والجسد معًا؟

يجيب العلامة ابن القيّم رحمه الله عن هذا السؤال فيقول: «أُسرى برسول الله ﷺ بجسده - عَلَى الصحيح - من المسجد الحرام إلى بيت المقدس، راكبًا عَلَى البراق، صحبه جبريل عليه السلام، فنزل هناك وصلَّى بالأنبياء إمامًا، وربط البُراق بحلقة باب المسجد» ا.هـ[(١)].

هذا، ويقول الدكتور مُحمَّد أبو شهبة - رحمه الله -: «قَدْ يستشكل بعضُ النَّاس وجود الأنبياء الذين لقيهم النبيُّ ﷺ في السموات مع أن أجسادهم غير عيسى عليه السلام في الأرض.

وللجواب عن هذا نقول: إن أرواح الأنبياء في أعلى عليين، فيجوز أن تكون أرواحهم تشكلت بصورة أجسادهم تشريفًا وتكريمًا للقاء القادم الكريم.

ويجوز أن يكونوا بعثوا من قبورهم وحلّت أرواحهم في أجسامهم استعدادًا للقاء النبي ﷺ ثُمَّ عادت أجسامهم إلى قبورهم، وبقيت أرواحُهم في مستقرّها من السماء، ولا تستكثر شيئًا عَلَى قدرة الله سبحانه وليكن في عقلك فسحة لهذا وأمثاله.

ومثل هذا يقال أيضًا في اجتماعهم بالنبيّ ﷺ ببيت المقدس وصلاته بهم وثنائهم عَلَى ربهم.

والذي أميل إليه هُوَ التوجيه الأول». ا.هـ[(٢)].

عباد الله...

«واختلف الصحابةُ رضي الله عنهم: هل رأى ربَّهُ تلك الليلةَ، أم لا؟ فصحَّ عن ابن عَبَّاس أنه رأى ربَّهُ[(٣)].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣١).

(٢) «الإسراء والمعراج» لفضيلته (٥٨، ٥٩).

(٣) لم أقف على هذه الرواية.

وصحَّ عنه أنه قال: «رَآهُ بِفُؤَادِهِ»(١).

وصحَّ عَنْ عَائِشَةَ وابْن مَسْعُودٍ إِنْكَارُ ذلِكَ، وقَالاَ: إِنَّ قَوْلَه: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ١٣، ١٤] إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ(٢).

وَصَحَّ عَنْ أبى ذَرَّ أَنَّه سَأَلَهُ: هَلْ رَأيْتَ رَبَّكَ؟ فقالَ: «نُورُ أَنَّى أَرَاهُ»(٣) أى: حال بينى وبين رؤيته النور، كما قال فى لفظ آخر: «رَأَيْتُ نُورًا»(٤).

وقد حكى عثمانُ بن سعيد الدَّارمى اتفاقَ الصَّحَابة على أنه لم يره.

قال شيخُ الإسلام ابنُ تيمية - قدَّس الله روحَه -: وليس قولُ ابن عباس: «إنه رآه» مناقِضًا لهذا، ولا قولُه: «رآهُ بفُؤاده» وقد صحَّ عنه أنه قال: «رأيتُ ربِّى تَبَارَكَ وتَعَالَى»(٥)، ولكن لم يكن هذا فى الإسراء، ولكن كان فى المدينة لما احتُبِسَ عنهم فى صلاة الصبح، ثم أخبرهم عن رؤيةِ رَبِّه تبارك وتعالى تِلْكَ اللَّيْلَةَ فى منامه، وعلى هذا بنى الإمامُ أحمد رحمه الله تعالى، وقال: «نعم رآه حقًا، فإنَّ رؤيا الأنبياء حق، ولا بُدَّ»، ولكن لم يَقُلْ أحمد رحمه الله تعالى: إنَّه رآهُ بِعَيْنَىْ رأسِهِ يقظةً، ومَن حكى عنه ذلك، فقد وَهِمَ عليه، ولكن قال مرّة: «رآه»، ومرَّة قال: «رآه بفؤاده»، فَحُكِيَتْ عنه رِوايتان، وحُكِيَت عنه الثالثة مِن تصُّرفِ بعض أصحابه: أنه رآه بعينى رأسه، وهذه نصوصُ أحمد موجودة، ليس فيها ذلك.

وأمَّا قولُ ابنِ عباس: «إنَّه رآهُ بفُؤادِهِ مرتين»، فإن كان استنادُه إلى قوله تعالى: ﴿مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى﴾ [النجم: ١١]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣] والظاهر أنه مستندُه، فقد صحَّ عنه ﷺ أن هذا المرئى جبريلُ، رآهُ مرَّتَيْنِ فى صُورته التى خُلِقَ عَلَيْهَا، وقول ابن عباس هذا هو مُسْتَنَدُ الإمام أحمد فى قوله: رآه بفؤاده، والله أعلم.

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦)، وغيره.
(٢) رواه البخاري (٣٢٣٤)، ومسلم (١٧٧)، وغيرهما.
(٣) أخرجه مسلم (١٧٨).
(٤) أخرجه مسلم (١٧٨).
(٥) ضعيف.

وأما قولُهُ تعالى فى سورة النجم: ﴿ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٨] فهو غير الدُّنو والتَّدلى فى قصة الإسراء، فإنَّ الذى فى سورة «النجم» هو دنُّو جبريل وتدلِّيه، كما قالت عائشةُ وابنُ مسعود، والسياقُ يَدُلُّ عليه، فإنه قال: ﴿عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى﴾ [النجم: ٥] وهو جبريل ﴿ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَى * وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَى* ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى﴾ [النجم: ٦- ٨]، فالضمائر كُلُّها راجعة إلى هذا المعلِّم الشديد القوى، وهو ذُو المِرَّة، أى: القوة، وهو الذى استوى بالأفق الأعلى، وهو الذى دنى فتدلَّى، فكان من محمد ﷺ قَدْرَ قوسين أو أدنى، فأما الدُّنُوُّ والتدَّلى الذى فى حديث الإسراء، فذلك صريحٌ فى أنه دنوُّ الربِّ تبارك وتدلِّيه ولا تَعَرُّض فى سورة «النجم» لِذلك، بل فيها أنه رآه نزلةً أُخرى عِند سِدرةِ المنتهى، وهذا هو جبريلُ، رآهُ محمد ﷺ على صُورته مرتين: مرة فى الأرض، ومرة عند سدرة المنتهى، والله أعلم» ا.هـ[1].

عباد الله...

وهل تعدد الإسراء؟

هذا ما سوف نجيب عنه عقب جلسة الاستراحة، إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

هل تعدد الإسراء؟

يجيب الإمام الهُمام ابن القيّم - رحمه الله تعالى - عن هذا السؤال فيقول: «قال موسى بن عُقبة عن الزهرى: «عُرِجَ بُروحِ رسولِ الله ﷺ إلى بيتِ المقدس وإلى السماء قبلَ خروجه إلى المدينة بسنة»، وقال ابن عبد البر وغيره: كان بين الإسراء والهجرة سنة وشهران.. انتهى.

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٣ - ٣٥).

وكان الإسراءُ مرَّةً واحدة. وقيل: مَرَّتين: مرة يقظةً، ومرة منامًا، وأربابُ هذا القول كأنَّهُم أرادوا أن يجمعوا بين حديثِ شريك، وقوله: ثم استيقظتُ، وبين سائرِ الروايات، ومنهم مَنْ قال: بل كان هذا مرتين، مرة قبل الوحى لقوله فى حديث شُريك: «وذلك قبل أن يُوحَى إليه»، ومرة بعد الوحى، كما دلَّت عليه سائر الأحاديث.

ومنهم مَن قال: بل ثلاثُ مرات: مرة قبل الوحى، ومرَّتين بعده، وكل هذا خبط، وهذه طريقةُ ضعفاء الظاهرية مِنْ أرباب النَّقْلِ الذين إذا رأوا فى القصة لفظة تُخالِفُ سياقَ بعضِ الروايات، جعلُوه مرة أخرى، فكلما اختلفت عليهم الرواياتُ، عدَّدوا الوقائع، والصوابُ الذى عليه أئمةُ النقل أن الإسراء كان مرةً واحِدةً بمكَّة بعد البِعثة» ا.هـ[١].

عباد الله...

وللحديث بقيّة إن شاء الله تعالى، فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ أعطنا إيمانًا صادقًا، ويقينًا ليس بعده كُفر، ورحمة ننال بها شرف كرامتك في الدنيا والآخرة.

آمين... آمين... آمين.



(١) «زاد المعاد» (٣/ ٣٨).

الخطبة الحادية والسبعون:

[ب] الإسراء والمعراج

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن الإسراء والمعراج.

عباد الله...

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَمَّا كَانَ لَيْلَةُ أُسْرِىَ بِى وَأَصْبَحْتُ بِمَكَّةَ[1] فَظِعْتُ بِأَمْرِى وَعَرَفْتُ أَنَّ النَّاسَ مُكَذِّبِىَّ». فَقَعَدْتُ مُعْتَزِلاً حَزِينًا، قَالَ: فَمَرَّ

(١) يعني بعد عودته من الإسراء والمعراج.

عَدُوُّ اللهِ أَبُو جَهْلٍ فَجَاءَ حَتَّى جَلَسَ إِلَيْهِ فَقَالَ لَهُ كَالْمُسْتَهْزِئِ: هَلْ كَانَ مِنْ شَيْءٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نعَمْ». قَالَ: مَا هُوَ؟

قَالَ: «إِنَّهُ أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ». قَالَ: إِلَى أَيْنَ؟ قَالَ: «إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ». قَالَ: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟ قَالَ: «نَعَمْ». قَالَ: فَلَمْ يَرَ أَنَّهُ يُكَذِّبُهُ مَخَافَةَ أَنْ يَجْحَدَهُ حَدِيثَ[١] إِذَا دَعَا قَوْمَهُ إِلَيْهِ.

قَالَ: أَرَأَيْتَ إِنْ دَعَوْتُ قَوْمَكَ تُحَدِّثُهُمْ مَا حَدَّثْتَنِي؟

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ».

فَقَالَ: هَيَا يَا مَعْشَرَ بَنِي كَعْبِ بْنِ لُؤَيٍّ هَلُموا إلي، قَالَ: فَانْتَفَضَتْ إِلَيْهِ المَجَالِسُ وَجَاءُوا حَتَّى جَلَسُوا إِلَيْهِمَا، قَالَ: فقال أبو جهل: حَدِّثْ قَوْمَكَ بِمَا حَدَّثْتَنِي.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «إِنِّي أُسْرِيَ بِي اللَّيْلَةَ».

قَالُوا: إِلَى أَيْنَ؟

قال: «إِلَى بَيْتِ المَقْدِسِ».

قَالُوا: ثُمَّ أَصْبَحْتَ بَيْنَ ظَهْرَانَيْنَا؟

قَالَ: «نَعَمْ».

قَالَ: فَمِنْ بَيْنِ مُصَفِّقٍ وَمِنْ بَيْنِ وَاضِعٍ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ مُتَعَجِّباً لِلْكَذِبِ زَعَمَ.

قَالُوا: وَهَلْ تَسْتَطِيعُ أَنْ تَنْعَتَ لَنَا المَسْجِدَ؟[٢] وَفِي القَوْمِ مَنْ قَدْ سَافَرَ إِلَى ذَلِكَ البَلَدِ وَرَأَى المَسْجِدَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «فَذَهَبْتُ أَنْعَتُ فَمَا زِلْتُ أَنْعَتُ حَتَّى التَبَسَ عَلَيَّ بَعْضُ النَّعْتِ - قَالَ - فَجِيءَ بِالمَسْجِدِ وَأَنَا أَنْظُرُ حَتَّى وُضِعَ دُونَ[٣] دَارِ عَقِيلٍ[٤] فَنَعَتُّهُ وَأَنَا

---

(١) أي: يكذّبه وينكره، هكذا اعتقد أبو جهل مع أنّهُ يعلم يقينًا أن رسول الله ﷺ لم يكذب في حياته قطّ.

(٢) تنعت: تصف.

(٣) دون: قُرب.

(٤) دار عقيل: هُوَ عقيل بن أبي طالب.

أَنْظُرُ إِلَيْهِ».

قَالَ: «وَكَانَ مَعَ هَذَا نَعْتٌ لَمْ أَحْفَظْهُ».

قَالَ: فَقَالَ الْقَوْمُ: أَمَّا النَّعْتُ فَوَاللهِ لَقَدْ أصبت»(١).

عباد الله...

هذه القصة من دلائل النبوة التي أيّد اللّهُ تعالى بها نبيّه ﷺ، ولا غرو في أن يكشف الله تعالى لنبيِّه الحجاب، ويقرّب له البعيد، فالله عَلَى كُلِّ شيء قدير.

وقد ذكرنا في قصة سارة مع الجبَّار كيف أن الله تعالى كشف الحجاب فيما بين إبراهيم عليه السلام وبين سارة، فكان مُشاهدًا لها وهي عند الجبار، وكيف عصمها الله منه ليكون ذلك أطيب لقلبه، وأقرّ لعينه، وأشدّ لطمأنينته.

بل هناك من أتباع النبيّ ﷺ مَن حدث له نحو ذلك، اسمع:

١ - عن ابن عُمَر - رَضِي اللّهُ عَنْهُمَا -: أنَّ عُمَر بن الخطاب - رَضِي الله عَنْهُ - بعث جيشًا، وأمَّر عليهم رجلًا يُدعى سارية(٢)، قَالَ: فبينا عُمَر يخطب، قَالَ: فجعل يصيح وهو عَلَى المنبر: يا ساريةُ الجبلَ، يا ساريةُ الجبلَ، قَالَ: فقدم رسول الجيش فسأله، فقال: يا أمير المؤمنين، لقينا عدوّنا فهزمونا، وإن الصَّائح ليصيح: يا ساريةُ الجبل، يا ساريةُ الجَبَلَ، فَشددنا ظهورنا بالجبل(٣)، فهزمهم الله، فقيل لعمر: إنك كنت تصيح بذلك(٤).

٢ - قَالَ الحافظ ابن كثير - رحمه الله تعالى -: «كان مُحمَّد بن أحمد بن إسماعيل، المعروف بابن سمعون الواعظ، أحد الصُّلحاء والعلماء، وكان يقال له: الناطق بالحكمة، وكان له يد طولى في الوعظ والتدقيق في المعاملات، وكانت له كرامات،

---

(١) حسن: رواه أحمد (١/ ٣٠٩)، والنسائي في «تفسيره» (١/ ٦٤٥).

(٢) هُوَ سارية بن زُنيم.

(٣) أي: جعلوا الجبل خلفهم، واستقبلوا عدوّهم بوجوههم.

(٤) حسن: رواه أحمد في «فضائل الصحابة» (١/ ٦٩)، وغيره، وحسنه الألباني وابن حجر وابن كثير.

مكاشفات، وكان يومًا يعظ عَلَى المنبر وتحته - يعني أسفل المنبر - أبو الفتح بن القوّاس، وكان من الصَّالحين المشهورين، فنعس ابن القوّاس، فأمسك ابن سمعون عن الوعظ حَتَّى استيقظ، فحين استيقظ قَالَ ابن سمعون: رأيت رسول الله ﷺ في منامك هذا؟ قَالَ: نعم، قَالَ: فلهذا أمسكتُ عن الوعظ حَتَّى لا أزعجك عمّ كنتَ فيه»(١).

وأحوال الصالحين في هذا المقام كثيرة.

وكرامات الأولياء مشهورة ومنشورة.

والمقصود: أن الله تعالى كشف الحجاب عن بيت المقدس لنبيِّه ﷺ حَتَّى وصفه وصفًا دقيقًا للكفار، وهذا يدل عَلَى أن الإسراء والمعراج لم يكن رؤيا منامية كما ذهب بعضُ النَّاس، إنما كان رؤيا بصرية أطلع الله تعالى فيه نبيَّه ﷺ وهو في حال يقظته عَلَى آيات كبرى ومشاهد حقيقية.

قَالَ تعالى: ﴿**سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ**﴾.

قَالَ الإمام القرطبي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية ما مختصره: «قوله تعالى: ﴿**سُبْحَانَ**﴾ تنزيه وبراءة لله عَزَّ وَجَلَّ من كلّ نقص، فهو ذكر عظيم لله تعالى لا يصلح لغيره. ﴿**أَسْرَى**﴾ الإسراء: سير الليل، ﴿**بِعَبْدِهِ**﴾ قال العلماء: لو كان للنبي ﷺ اسمٌ أشرفُ منه لسمّاه به في تلك الحالة العليّة.

قَالَ القشيريُّ: لـمَّا رفعه الله تعالى إلى حضرته السّنية، وأرقاه فوق الكواكب العلوية، ألزمه اسما لعبودية تواضعًا للأُمّة.

قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿**إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَى**﴾ سُمِّي الأقصى لبُعد ما بينه وبين المسجد الحرام، وان أبعد مسجد عن أهل مكّة في الأرض يعظم بالزيارة، ثم قَالَ: ﴿**الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ قيل: بالثمار وبمجاري الأنهار، وقيل: بمن دُفن حوله من الأنبياء والصالحين، وبهذا جعله مُقدَّسًا.

---

(١) «البداية والنهاية» (٦/ ٤١٢).

﴿لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا﴾ هذا من باب تلوين الخطاب، والآيات التي أراه الله من العجائب التي أخبر بها النَّاس، وإسراؤه من مكَّة إلى المسجد الأقصى في ليلة وهو مسيرة شهر، وعروجه إلى السماء ووصفه الأنبياء واحدًا واحدًا، ﴿إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾» ا.هـ[1].

وقال تعالى عن رحلة المعراج: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى * عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى * عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى * إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى * مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى * لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: ١٣ - ١٨].

قَالَ العلامة السعدي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآيات: «قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نزلَةً أُخْرَى﴾ أي: رأى محمد جبريل مرة أخرى، نازلًا إليه.

﴿عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى﴾ وهي شجرة عظيمة جدًّا، فوق السماء السابعة، سُمِّيت سدرة المنتهى، لأنه ينتهي إليها ما يعرج من الأرض، وينزل إليها ما ينزل من الله، من الوحي وغيره، أو لانتهاء علم الخلق إليها أي: لكونها فوق السماوات والأرض، فهي المنتهى في علوها أو لغير ذلك، والله أعلم.

فرأى مُحَمَّد ﷺ جبريل في ذلك المكان، الذي هو محل الأرواح العلوية الزاكية الجميلة، التي لا يقربها شيطان ولا غيره من الأرواح الخبيثة.

عند تلك الشجرة ﴿جَنَّةُ الْمَأْوَى﴾ أي: الجَنَّة الجامعة لكل نعيم، بحيث كانت محلا تنتهي إليه الأماني، وترغب فيه الإرادات، وتأوي إليها الرغبات، وهذا دليل على أن الجَنَّة في أعلى الأماكن، وفوق السماء السابعة.

﴿إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى﴾ أي: يغشاها من أمر الله، شيء عظيم لا يعلم وصفه إلا الله عز وجل.

﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ أي: ما زاغ يمنة ولا يسرة عن مقصوده ﴿وَمَا طَغَى﴾ أي: وما تجاوز البصر، وهذا كمال الأدب منه صلوات الله وسلامه عليه، أن قام مقاما أقامه الله فيه، ولم يقصر عنه ولا تجاوزه ولا حاد عنه، وهذا أكمل ما يكون

---

(١) «تفسير القرطبي» (١٠/ ١٨٥ - ١٩٢) باختصار شديد.

ـ لأدب العظيم، الذي فاق فيه الأولين والآخرين، فإن الإخلال يكون بأحد
عـ لأمور: إما أن لا يقوم العبد بما أمر به، أو يقوم به على وجه التفريط، أو على
حه الإفراط، أو على وجه الحيدة يمينا وشمالا وهذه الأمور كلها منتفية عنه ﷺ.

﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ من الجَنَّة والنار، وغير ذلك من الأمور التي
ـه ﷺ ليلة أسري به». ا.هـ[1].

ـد الله..

ورأى النبيُّ ﷺ ليلة الإسراء والمعراج الجَنَّة والنار، ونقل إلينا ما شاهده في
هذه الليلة.

المشهد الأول: رؤيته لموسى عليه السلام وهو قائمٌ يصلِّي في قبره:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ - رَضِيَ الله عَنْهُ -: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**لَمَّا أُسْرِيَ بِي مَرَرْتُ عَلَى مُوسَى وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي فِي قَبْرِهِ**[2] **عِنْدَ الكَثِيبِ الأَحْمَرِ**»[3].

وقد اعترض البعضُ على هَذَا الحديث بأن التكليف قد انقطع بالموت، فكيف يصلِّي موسى بعد موته؟

وقد أجاب الإمام السّبكي - رحمه الله - على ذَلِكَ فقال: «إنا نقول: إن المنقطع في الآخرة إنما هُوَ التكليف، وقد تحصل الأعمال من غير تكليف على سبيل التلذذ بها والخضوع لله تعالى، ولهذا ورد أنهم يُسبِّحون ويدعون ويقرأون القرآن، وانظر إلى سجود النبي ﷺ وقت الشفاعة، أليس ذَلِكَ عبادة وعملًا؟ وعلى كلا الجوابين لا يمتنع حصول هذه الأعمال في مدّة البرزخ» ا.هـ[4].

المشهد الثاني: رؤيته لِخُطبَاء الفِتنة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي الله عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**رَأَيْتُ لَيْلَةَ أُسْرِيَ**

---

(1) «تفسير السعدي» (819).
(2) قبر موسى عليه السلام بمدين بين المدينة وبين بيت المقدس.
(3) رواه البخاري (6874) وغيره.
(4) «دلائل النبوة» للبيهقي (2/ 388).

بِي رِجَالاً تُقْرَضُ شِفَاهُهُمْ بِمَقَارِضَ مِنْ نَارٍ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلاَءِ يَا جِبْرِيلُ؟ فَقَالَ: الْخُطَبَاءُ مِنْ أُمَّتِكَ، يَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالبِرِّ وَيَنْسَوْنَ أَنْفُسَهُمْ، وَهُمْ يَتْلُونَ الكِتَابَ أَفَلاَ يَعْقِلُونَ»[(١)].

قلت: وهذا وعيد شديد لعلماء السّوء، الذين يقولون ما لا يفعلون.

قَالَ حاتم الأصم - رحمه الله تعالى -: «ليس في القيامة أشدّ حسرة من رجل علَّم النَّاس علمًا فعملوا به، ولم يعمل هُوَ به، ففازوا بسببه، وهلك هو».

وأنشدوا:

يـا واعـظ النَّاسِ قَدْ أصبحتَ مُتَّهمًا	إذ عـبتَ مـنهم أُمـورًا أنـتَ تأتـيها
أصبحتَ تنصحهم بالوعظ مُجتهدًا	فالمـوبقات لَعَمـرِي أنـت جَانِـيها
تُعِـيبُ دُنـيا وناسًـا راغـبين لهـا	وأنــت أكثــر مــنهم رَغــبةً فــيها

المشهد الثالث: رؤيه لأهل الغيبة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي الله عَنْهُ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَمَّا عَرَجَ بِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ مَرَرْتُ بِقَوْمٍ لَهُمْ أَظْفَارٌ مِنْ نُحَاسٍ يَخْمُشُونَ وُجُوهَهُمْ وَصُدُورَهُمْ، فَقُلْتُ: مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحومَ النَّاسِ وَيَقَعُونَ فِي أَعْرَاضِهِمْ»[(٢)].

قلت: لذا كان الصالحون أشدّ حفظًا لألسنتهم منهم لمواضع أقدامهم.

قَالَ أبو حازم - رحمه الله -: «ينبغي للمؤمن أن يكون أشدَّ حفظًا للسانه منه لموضع قدميه»[(٣)].

المشهد الرابع: رؤيته لإبراهيم عليه السلام:

عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ - رَضِي الله عَنْهُ - قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَقِيتُ إِبْرَاهِيمَ لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِي فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَقْرِئْ أُمَّتَكَ مِنِّي السَّلَامَ وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّ الجَنَّةَ طَيِّبَةُ التُّرْبَةِ عَذْبَةُ

(١) صحيح: رواه ابن حبان، وأبو يعلى، وانظر «الصحيحة» (٢٩١).
(٢) صحيح: رواه أبو داود، وغيره، وصححه الألباني.
(٣) «المنتظم» لابن الجوزي (٢/ ١٠٨).

ـه. وأَنَّهَا قِيعَانٌ، وَأَنَّ غِرَاسَهَا: سُبْحَانَ اللَّهِ، وَالحَمْدُ لِلَّهِ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَاللَّهُ أَكْبَرُ» [1].

المشهد الخامس: رؤيته لبعض الأنبياء ولبلال ولبعض أهل النار:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَ: «لَيْلَةَ أُسْرِيَ بِنَبِيِّ اللَّهِ ﷺ دَخَلَ الجَنَّةَ فَسَمِعَ مِنْ جَانِبِهَا وَجْسًا [2]، قَالَ: «يَا جِبْرِيلُ مَا هَذَا؟» قَالَ: «هَذَا بِلَالٌ المُؤَذِّنُ»، فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ حِينَ جَاءَ إِلَى النَّاسِ: «قَدْ أَفْلَحَ بِلَالٌ رَأَيْتُ لَهُ كَذَا وَكَذَا».

قَالَ: فَلَقِيَهُ مُوسَى ﷺ فَرَحَّبَ بِهِ وَقَالَ: «مَرْحَبًا بِالنَّبِيِّ الأُمِّيِّ»، قَالَ: فَقَالَ: وَهُوَ رَجُلٌ آدَمُ [3] طَوِيلٌ سَبْطٌ شَعَرُهُ [4] مَعَ أُذُنَيْهِ أَوْ فَوْقَهُمَا فَقَالَ مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ». قَالَ: فَمَضَى فَلَقِيَهُ عِيسَى فَرَحَّبَ بِهِ وَقَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا عِيسَى».

قَالَ. فَمَضَى فَلَقِيَهُ شَيْخٌ جَلِيلٌ مَهِيبٌ فَرَحَّبَ بِهِ وَسَلَّمَ عَلَيْهِ وَكُلُّهُمْ يُسَلِّمُ عَلَيْهِ قَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا أَبُوكَ إِبْرَاهِيمُ». قَالَ: فَنَظَرَ فِي النَّارِ فَإِذَا قَوْمٌ يَأْكُلُونَ الجِيَفَ [5] فَقَالَ: «مَنْ هَؤُلَاءِ يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ لُحُومَ النَّاسِ»، وَرَأَى رَجُلًا أَحْمَرَ أَزْرَقَ جَعْدًا [6] شَعِثًا إِذَا رَأَيْتَهُ قَالَ: «مَنْ هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟» قَالَ: «هَذَا عَاقِرُ النَّاقَةِ» [7].

قَالَ: فَلَمَّا دَخَلَ النَّبِيُّ ﷺ المَسْجِدَ الأَقْصَى قَامَ يُصَلِّي فَالتَفَتَ ثُمَّ التَفَتَ فَإِذَا النَّبِيُّونَ أَجْمَعُونَ يُصَلُّونَ مَعَهُ فَلَمَّا انْصَرَفَ جِيءَ بِقَدَحَيْنِ أَحَدُهُمَا عَنِ اليَمِينِ وَالآخَرُ عَنِ الشِّمَالِ فِي أَحَدِهِمَا لَبَنٌ وَفِي الآخَرِ عَسَلٌ فَأَخَذَ اللَّبَنَ فَشَرِبَ مِنْهُ فَقَالَ الَّذِي كَانَ مَعَهُ القَدَحُ أَصَبْتَ الفِطْرَةَ» [8].

---

(١) حسن: رواه الترمذي (٢٤٦٢).
(٢) الوجس - بفتح الواو وسكون الجيم -: الصوت الخفيّ.
(٣) آدم: أسمر اللون.
(٤) السّبط: الشعر المسترسل.
(٥) الجيف: اللحوم المنتنة.
(٦) المراد بالجعد هنا: جعودة الجسم وهو اجتماعه واكتنازه.
(٧) انظر قصته في «قصة ناقة صالح عليه السلام».
(٨) صحيح: رواه أحمد، وقال ابن كثير في «التفسير» (٣/ ١٣): إسناده صحيح ولم يخرجوه.

أيُّهَا المسلمون...

هذه بعض المشاهد التي رآها النبيُّ ﷺ في رحلته المباركة، وهي كما رأيتم تدل عَلَى:

- قدرة الله تعالى.
- مكانة النبيّ ﷺ من ربّه.
- فضل بيت المقدس ومكانته، حيث اختاره الله تعالى مصلّى للأنبياء.
- تحذير الخطباء من العلم العقيم.
- بيان مكانة بلال - رَضِي الله عَنْهُ -.
- بيان أهمية ذِكر الله تعالى.

وفقنا الله تعالى لمرضاته.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن المشاهد التي رآها النبيُّ ﷺ ليلة الإسراء والمعراج أيضًا:

ما جاء في الحديث التالي:

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ - رَضِي اللَّـهُ عَنْهُمَا - أَنّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَـمَّا كَانَتِ اللَّيْلَةُ **الَّتِي أُسْرِيَ بِي فِيهَا وَجَدْتُ رَائِحَةً طَيِّبَةً فَقُلْتُ: مَا هَذِهِ الرَّائِحَةُ الطَّيِّبَةُ يَا جِبْرِيلُ؟**

قَالَ: هَذِهِ رَائِحَةُ مَاشِطَةِ بنتِ فِرْعَوْنَ وَأَوْلادِهَا، فَقُلْتُ: مَا شَأْنُهَا؟

قَالَ: بَيْنَا هِيَ تَمْشُطُ بنتَ فِرْعَوْنَ إِذْ سَقَطَ المُشْطُ[1] مِنْ يَدِهَا، فَقَالَتْ: بِسْمِ اللَّهِ. فَقَالَتْ بنتُ فِرْعَوْنَ: أَبِي؟

---

(١) المشط: أداة يسّرح بها الشّعر.

فَقَالَتْ: لا، وَلَكِنْ رَبِّي وَرَبُّكِ وَرَبُّ أَبِيكِ اللَّهُ. قَالَتْ: وَإِنَّ لَكِ رَبًّا غَيْرَ أَبِي؟ قَالَتْ: نعَمْ. قَالَتْ: فَأُعْلِمُهُ ذَلِكَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ.

فَأَعْلَمَتْهُ فَدَعَا بِهَا، فَقَالَ: يَا فُلانَةُ، أَلَكِ رَبٌّ غَيْرِي؟

قَالَتْ: نَعَمْ، رَبِّي وَرَبُّكَ اللَّهُ.

فَأَمَرَ بِبَقَرَةٍ مِنْ نُحَاسٍ[١] فَأُحْمِيَتْ، ثُمَّ أَخَذَ أَوْلادُهَا يُلْقُونَ فِيهَا وَاحِدًا وَاحِدًا، فَقَالَتْ: إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً، قَالَ: وَمَا هِيَ؟

قَالَتْ: أُحِبُّ أَنْ تَجْمَعَ عِظَامِي وَعِظَامَ وَلَدِي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ فَتَدْفِنَّا جَمِيعًا.

قَالَ: وَذَلِكَ لَكِ عَلَيْنَا.

فَلَمْ يَزَلْ أَوْلادُهَا يُلْقُونَ فِي البَقَرَةِ حَتَّى انْتَهَى إِلَى ابْنٍ لَهَا رَضِيعٍ فَكَأَنَّهَا تَقَاعَسَتْ مِنْ أَجْلِهِ، فَقَالَ لَهَا: يَا أُمَّهِ، اقْتَحِمِي، فَإِنَّ عَذَابَ الدُّنْيَا أَهْوَنُ مِنْ عَذَابِ الآخِرَةِ»[٢].

عباد الله...

وللحديث عن الإسراء والمعراج بقيّة، إن شاء الله.

(١) مُعدّة خصيصًا لهذا الأمر.

(٢) حسن: رواه أحمد والبيهقي في «الدلائل» وغيرها، وقال ابن كثير في «التفسير» (٣/ ٢٦): إسناده لا بأس به، ولم يخرجوه.

الخطبة الثانية والسبعون:

[ج] الإسراء والمعراج

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن الإسراء والمعراج.

عباد الله...

اختلف العلماء في التفاضل بين ليلة القدر، وليلة الإسراء.

قَالَ الإمامُ الهُمام ابن القيّم - رحمه الله -: «سُئِلَ شيخُ الإِسلام ابن تيمية رحمه الله عن رجل قال: ليلةُ الإِسراء أفضلُ مِن ليلة القدر، وقال آخر: بل ليلةُ القدر أفضلُ، فَأَيُّهما المصيبُ؟

فأجاب: الحمدُ للهِ، أما القائلُ بأن ليلة الإِسراء أفضلُ مِن ليلة القدر، فإن أراد به أن تكونَ الليلةُ التي أسري فيها بالنبي ﷺ ونظائِرُها مِن كل عام أفضلَ لأمة محمد ﷺ مِن ليلة القدر بحيث يكونُ قيامُها والدعاءُ فيها أفضلَ منه في ليلةِ القدر، فهذا باطل، لم يقله أحدٌ من المسلمين، وهو معلومُ الفساد بالاطِّراد من دين الإسلام. هذا إذا كانت ليلةُ الإِسراء تُعرف عينُها، فكيف ولم يقمْ دليلٌ معلوم لا على شهرها، ولا على عشرها، ولا على عينِها، بل النقولُ في ذلك منقطعةٌ مختلفة، ليس فيها ما يُقطع به، ولا شُرِعَ للمسلمين تخصيصُ الليلة التي يُظن أنها ليلة الإِسراء بقيام ولا غيره، بخلاف ليلة القدر، فإنه قد ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**تَحَرَّوْا لَيْلَةَ القَدْرِ فِي العَشْرِ الأَوَاخِرِ مِنْ رَمَضَانَ**»[1]، وفي «الصحيحين» عنه ﷺ أنه قال: «**مَنْ قَامَ لَيْلَةَ القَدْرِ إِيمَانًا واحْتِسَابًا، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ**»[2]، وقد أخبر سبحانه أنها خيرٌ مِن ألف شهر، وأنَّه أنزل فيها القرآن.

وإن أراد أن الليلة المعينة التي أسري فيها بالنبي ﷺ، وحصل له فيها ما لم يحصلْ له في غيرها مِن غير أن يُشرع تخصيصها بقيام ولا عبادة، فهذا صحيح، وليس إذا أعطى الله نبيه ﷺ فضيلة في مكان أو زمان، يجب أن يكون ذلك الزمان والمكانُ أفضلَ مِن جميع الأمكنة والأزمنة. هذا إذا قدر أنه قام دليل على أن إنعامَ الله تعالى على نبيه ليلَةَ الإِسراءِ كان أعظمَ من إنعامه عليه بإنزال القرآنِ ليلةَ القدر، وغيرِ ذلك من النعم التي أنعم عليه بها.

والكلام في مثل هذا يحتاج إلى علم بحقائق الأُمور، ومقادير النعم التي لا تُعرف إلا بوحي، ولا يجوز لأحد أن يتكلم فيها بلا علم، ولا يُعرف عن أحد من المسلمين أنه جعل لليلة الإِسراءِ فضيلةَ على غيرها، لا سيما على ليلة القدر، ولا كان الصحابةُ والتابعون لهم بإحسان يقصدُون تخصيص ليلة الإِسراء بأمر من الأمورِ، ولا يذكرونها، ولهذا لا يُعرف أي ليلة كانت، وإن كان الإِسراءُ مِن أعظم

(١) أخرجه البخاري (٢٠١٧)، ومسلم (١١٦٩).
(٢) أخرجه البخاري (١٩٠١)، ومسلم (٧٥٩)، وغيرهما.

فضائله ﷺ، ومع هذا فلم يُشرع تخصيصُ ذلك الزمانِ، ولا ذلك المكانِ بعبادة شرعية، بل غارُ حراء الذي ابتدئ فيه بنزول الوحي، وكان يتحراه قبلَ النبوة، لم يقصِدْهُ هو ولا أحدٌ مِن أصحابه بعد النبوة مدةَ مُقامه بمكة، ولا خصَّ اليومَ الذي أنزل فيه الوحي بعبادة ولا غيرِها، ولا خصَّ المكانَ الذي ابتدئ فيه بالوحي ولا الزمانَ بشيء، ومن خص الأمكنَة والأزمنَة من عنده بعبادات لأجل هذا وأمثاله، كان مِن جنس أهل الكتاب الذين جعلوا زمانَ أحوال المسيح مواسمَ وعبادات، كيوم الميلاد، ويوم التعميد، وغير ذلك من أحواله. وقد رأى عمرُ بن الخطاب رضي الله عنه جماعة يتبادرون مكانًا يُصلون فيه، فقال: ما هذا؟ قالوا: مكانٌ صلى فيه رسولُ الله ﷺ، فقال: أتُريدون أن تتخذوا آثار أنبيائكم مساجد؟! إنما هلكَ مَنْ كان قبلكم بهذا، فمن أدركته فيه الصلاة فليصل، وإلا فليمضِ[1].

وقد قال بعضُ الناس: إن ليلة الإسراء في حق النبي ﷺ أفضل مِن ليلة القدر، وليلة القدر بالنسبة إلى الأمّة أفضلُ من ليلة الإسراء، فهذه الليلة في حق الأمّة أفضلُ لهم، وليلة الإسراء في حق رسول الله ﷺ أفضلُ له». ا.هـ[2].

عباد الله...

ويُستفاد من رحلة الإسراء والمعراج عدة أمور، منها:

الأوّل: بيان فضل النبيّ ﷺ ومكانته عند ربِّه تبارك وتعالى:

فقد وصل النبيَّ ﷺ إلى مكان لم يصل إليه ملكٌ مُقرّب، ولا نبيٌّ مرسل.

الثاني: بيان تأييد الله تعالى لنبيِّه ﷺ:

وكأن الله تعالى يقول له: يا مُحمَّد إن ضيَّقوا عليك الأرض، اتسعت لك السماء.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة (٢/ ٨٤).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٤٠ - ٤٢).

الثالث: تعميق الإيمان بعالم الغيب:

فاختراق النبيّ ﷺ للسموات السبع، ووصوله إلى سدّرة المنتهى، وصلاته بالأنبياء في بيت المقدس، واستقبالهم له في السماء، ورؤيته لأهل الجَنَّة وأهل النار، وما أعدَّ اللَّـهُ تعالى للفريقين، كل ذلك يُعَمّق الإيمان بعالم الغيب.

الرابع: دعوة لقيادة الدنيا بالدين:

فركوب النبيّ ﷺ للبُراق، وصعوده إلى السماء، ووصوله إلى سدرة المنتهى، فيه ردٌّ على من اتهم الإسلام بأنه يُحارب الحضارة، ويخاصم الدنيا، ويدعو إلى التخلف، فها هُوَ النبيُّ ﷺ يركب أسرع دابة في الدنيا، كأنه يدعو أتباعه إلى قيادة الحياة، ﴿فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: ١٥].

الخامس: إثبات ملكية المسجد الأقصى للمسلمين:

فصلاة النبيّ ﷺ فيه بالأنبياء إمامًا، يُعد دليلًا على أن ملكيته آلت للنبي ﷺ وأتباعه.

وهناك أدلة تاريخية وشرعية أكثر من أن تُحصى، منها قوله ﷺ: **«الصَّلاةُ في المسجِد الحرام بمائة ألف صَلاةٍ، والصَّلاةُ في مَسجدي بألفِ صلاة، والصَّلاة في بَيْت المقدسِ بِخَمْسِمِائَةِ صَلاة»**(١).

فمتى يسترد المسلمون أولى القبلتين، وثالث الحرمين؟

متى يُطَهَّر من رجس اليهود؟

متى يعود إلى أحضان أُمتنا؟

فَاضَتَ شُجُونِي حِين حَلَّ الموعدُ ... يَا مَسجدًا أُسرَيَ إلَيْه مُحمَّدُ
كم من سِنِين وقد مَضت يا أُمَّتي ... والمسجد الأقصى بنا يَستَنجِدُ
إن الجريحَ وما يزال أنينه ... أصداؤه في قَلبنا تتردّد
يَبْكِي... يُناديِنا... هَلُمّي أُمَّتي ... إن اليهود لِسْهمهم قَدْ سَدَّدوا

---

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وغيره، وانظر «المجمع» (٤/ ٧).

كم حاولوا حَرْقي وهَدْمي غِيلَةً ... محراب طه بعد رَبِّي شاهِد
كم قَتَّلوا في سَاحتي مِن أنْجُم ... كَم ذَبَّحوا وَرْدًا هُنا يَتَعبَّدُ
لكنَّني رَغْم العداوةِ كُلِّها ... في سَاحتي طَيْرٌ شُجاعٌ سَاجِد
يدعو.. إلهي إن قومي نُوَّمُ ... والعَارُ في أحوالهم يَتَجَسَّد
والقدس تشكو من قُرود أفْسَدوا ... من كلِّ أخلاق العِبَاد تجَرَّدوا
قَدْ دَمَّروا كُلَّ البلاد.. وأحرَقوا ... كُلَّ الحَصَادِ.. وَصَخْرَتي قَدْ هَوَّدُوا
لكنَّ صَوتي سَوف يَبقَى مُزعِجًا ... لِلبُوم، حَتَّى عن بلادي يَبعُدوا
إنِّي وأطياري تَجْمَّعنا هنا ... في ساحة الأقصى نقوم ونَسجد
الاعتصام بربِّنا دَربٍ لنا ... وبنور آيات الهُدى نَسترشدُ
والله أكبرحين نرفعها معًا ... في كلِّ أذان يَحنّ المسجدُ

***

إنِّي أرى الطَّير الذي في ساحتي ... رُوح الجِهادِ بكَفِّه تَتَجَسَّدُ
رغم الهوان أراه حرًّا واثقًا ... للنّور في قلب الظَّلام يُغَرِّدُ
قَدْ عَاهدوا الرَّحمن أن يَحيا هنا ... حَتَّى يضمّ النور أو يَستَشْهدُ
يا قوم.. هَلا تَقتدون بطيركم ... يا ليت بالطَّير المرابط تَقتَدُوا
يا قوم هُبُّوا إنَّني مُتَلَطِّخ ... بالعَار.. هُبّوا حَرّروني وانْجدوا
ما هَب قَوي حين دَوَّت صَرخَتي ... كي يَستردوا ساحتي وتردّدوا
لكنهم زُفُّوا إلى تلك الدُّنى ... وعلى التَّنَعّم في الحياة تَعَوّدُوا
يا لَيتَهم ساروا عَلَى مَجْدِ الألَى ... أَوْ لاح فيهم مُصعبٌ أو خَالِد

***

في ليلة الإسراءِ.. والذكرى بكت ... محرابَ طه.. ثُمَّ صَاح المسجد
كانت صفوف الأنبياء تُنيرني ... ومُحمَّدٌ في قَلبِ قلبي سَاجِد

أيـن الـصّفوف؟ وأيـنَ جُـند مُحمَّد؟ أيــن الـضياء؟ وأيــن أيــن القائــد؟
إنِّــي أقــول بــأنّني هــذا الــذي صَــلّى بقلــبي الأنبــياءُ وأحمــدُ
لكــنني مهمــا يكــيد الكائــد أنـا صَامِدٌ.. يـا قومَنا.. أنا صَامدٌ[١]

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فمما ينبغي التنبيه عليه، والإشارة إليه:

أن هناك فريقًا كبيرًا من المسلمين يفردون يوم السابع والعشرين من شهر رجب بصيام!! وهذا التخصيص لا دليل عليه، فإنه لم يثبت أن النبيّ ﷺ أفرد يوم السابع والعشرين من شهر رجب بصيام.

وكذلك لم يثبت عن واحدٍ من أصحابه الكرام، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه.

قَالَ الإمامُ ابن القيّم - رحمه الله -: «الأصل في العبادات البطلان حتى يقوم دليل على الأمر» ا.هـ[٢].

لكن لو صادف يوم السابع والعشرين يومًا من الأيام التي اعتاد المسلم صيامها اتباعًا للنبي ﷺ كيوم اثنين أو خميس، فلا يُفطر، بل يظل على ما اعتاد عليه، لأنه لم يقصد التخصيص، والله أعلم.

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث عن سيرة النبيّ الأمين ﷺ . فإلى اللقاء.

(١) قصيدة بعنوان «صرخة الأقصى» للشاعر نجاح عبد القادر سرور، نشرتها مجلة الأزهر.
(٢) «إعلام الموقعين» (١/ ٣٤٤).

الخطبة الثالثة والسبعون:

ذِكر بيعتي العقبة الأولى والثانية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة المصطفى ﷺ.

وحديثنا اليوم - إن شاء الله تعالى - يدور حول إسلام بعض الأنصار، وبيعة النبيّ ﷺ لهم بالعقبة الأولى والثانية، وأسأل الله تعالى التوفيق.

عباد الله...

قال ابنُ اسحاقَ: حدَّثني الحُصينُ بنُ عبد الرحمنِ بن عمرو بن سعد بن مُعاذٍ، عن محمود بن لبيدٍ قَالَ: لَـمَّا قَدِمَ أبو الحيسَرِ أنسُ بن رافعٍ مكةَ، ومعه فِتيةٌ من بني

ـ الأشهل فيهم إياسُ بنُ مُعاذٍ، يلتَمِسُونَ الحِلفَ من قُريشٍ على قومِهم من الخزرج، سمعَ بهم رسول الله ﷺ فأتاهم، فجلسَ إليهم فقال لهم: «**هل لَكُم في خيرٍ مِمَّا جِئْتُم له؟**» قَالَ: فقالوا: وما ذاكَ؟ قَالَ: «**أنا رسولُ الله إلى العبادِ، أدعُوهُم إلى أن يعبُدُوا الله ولا يُشْرِكوا به شيئًا، وأُنزِلَ عليَّ الكتابُ**» ثُمَّ ذَكَرَ لهم الإسلامَ وتلا عليهمَ القرآنَ.

قَالَ: فقال إياسُ بنُ مُعاذٍ، وكان غُلامًا حَدثًا: يا قوم هذا والله خيرٌ مِمَّا جِئْتُم له. قَالَ: فأخذَ أبو الحيسرِ أنسُ بنُ رافعٍ حَفنَةً من تُرابِ البَطحَاءِ، فضرب بها وجه إياسِ بن مُعاذٍ وقال: دَعنا منك فَلَعَمري لقد جِئنا لغيرِ هذا.

قَالَ: فصمت إياسٌ، وقام رسولُ الله ﷺ عنهم، وانصَرَفُوا إلى المدينةِ، وكانَت وقعةُ بُعاثَ بين الأوسِ والخزرجِ، قَالَ: ثُمَّ لم يَلبَث إياسُ بنُ مُعاذ أن هَلكَ، قال محمودُ بنُ لبيدٍ: فأخبرَني من حَضَرني مِن قومِهِ أنهم لم يزالوا يسمعونَهُ يُهلِّلُ الله ويُكَبِّرُهُ ويُحَمِّدُه ويُسَبِّحُه حَتَّى ماتَ، فما كانوا يَشُكُّون أَنَّهُ قد مات مُسلمًا، لقد كان استَشْعَرَ الإسلام في ذلك المَجلسِ حينَ سمعَ من رسول الله ﷺ ما سمعَ»[1].

قال الحافظ ابن كثير – رحمه الله –: «كان يومُ بُعاثُ – وبعاثُ موضعٌ بالمدينةِ – كانَت فيه وقْعَةٌ عظيمةٌ قُتِلَ فيها خلقٌ من أشرافِ الأوسِ والخَزرَجِ وكُبرائِهم، ولم يبق من شيوخِهم إلا القليلُ.

وقد رَوى البُخاريُّ في «صحيحه» عن عُبيد بنِ إسماعيلَ، عن أبي أُمامة، عَنْ هِشَام عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: «كَانَ يَوْمُ بُعَاثٍ يَوْمًا قَدَّمَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ لِرَسُولِهِ ﷺ فَقَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمَدِينَةَ وَقَدْ افْتَرَقَ مَلَؤُهُمْ وَقُتِلَتْ سَرَاتُهُمْ»[2]. ا.هـ[3].

عباد الله...

وعن بدء إسلام الأنصار رضي الله عنهم يقول ابن إسحاق: «فلمَّا أرادَ الله إظهار

(١) فيه الحصين بن عبد الرحمن، قَالَ عنه أبو داود: حسن الحديث.
(٢) رواه البخاري (٣٧٧٧).
(٣) «البداية» (٣/ ١٥٩).

دينِهِ، وإعزازَ نبيِّه وإنجازَ موعدِهِ له، خَرجَ رسول الله ﷺ في الموسم الذي لقِيَهُ فيه النفرُ من الأنصارِ، فَعَرضَ نَفسهُ على قبائلِ العربِ كما كانَ يَصنَعُ في كلِّ موسم. فَبَينا هو عندَ العقبةِ لقيَ رَهطًا مِن الخزرَجِ أرادَ اللّـهُ بهم خيرًا، فحدَّثَني عاصمُ بن عُمَر بن قتادةَ، عن أشياخٍ من قومِهِ، قالوا: لـَمَّا لَقِيهم رَسولُ الله ﷺ قال لهم: «مَن أنتم؟» قالوا: نفرٌ من الخَزرَجِ، قَالَ: «أَمِن موالي يَهُود؟» قالوا: نعم. قَالَ: «أفَلا تجلسُون أُكَلِّمُكم؟» قالوا: بَلَى، فجلسوا معهُ فدعاهُم إلى الله وعرضَ عليهم الإسلامَ وتلا عليهم القرآن.

قَالَ: وكان مما صنَعَ اللّـهُ بهم في الإسلامِ أنَّ يهودَ كانوا معهُم في بِلادهم. وكانوا أهلَ كتابٍ وعِلمٍ، وكانوا هم أهلَ شِركٍ أصحابَ أوثانٍ، وكانوا قد عزُّوهم ببلادهم، فكانوا إذا كان بينَهم شيءٌ قالوا: إن نبيًّا مبعوثٌ الآن قد أظَلَّ زمانُهُ نَتَّبِعُه، نَقْتُلُكم معهُ قَتْلَ عادٍ وإرَمَ، فلمَّا كلَّم رَسولُ الله ﷺ أولئك النَّفَرَ ودَعاهم إلى الله، قال بعضُهم لبعضٍ: يا قوم، تَعلمونَ والله إنَّهُ النَّبيُّ الذي تَوَعَّدكم به يهودُ، فَلا يَسبِقُنَّكم إليه. فأجابوهُ فيما دعاهم إليه بأن صدَّقُوه وقَبِلوا منه ما عرضَ عليهم من الإسلامِ، وقالوا له: إنَّا قد تركنا قومنا ولا قومَ بينهم من العداوةِ والشَّرِّ ما بينهم، وعسَى أن يَجمعَهم اللّـهُ بك، فسَنقدمُ عليهم فَندعوهم إلى أمرِك ونُعرضُ عليهم الذي أجبناك إليه من هذا الدينِ، فإن يَجمَعهم اللّـهُ عليكَ فلا رجلَ أعزُّ منك، ثم انصَرفوا راجِعينَ إلى بلادهم قد آمنوا وصدَّقُوا.

قال ابنُ أسحاق: وهم فيما ذُكِرَ لي ستةُ نَفَرٍ، كلُّهم من الخزرَجِ، وهم: أبو أُمامةَ أسعدُ بن زُرارةَ بنِ عُدَسٍ بن عُبيدِ بن ثَعلبةَ بن غَنْم بنِ مالك بنِ النجارِ، قال أبو نعيم: وقد قيل: إنَّهُ أولُ من أسلمَ من الأنصارِ من الخزرجِ، ومن الأوسِ أبو الهيثم ابن التَّيِّهان. وقيل: إنَّ أولَ من أسلم: رافعُ بنُ مالكٍ، ومعاذُ بن عفراءَ، والله أعلمُ. وعوفُ بن الحارثِ بنِ رِفاعةَ بن سوادِ بنِ مالكِ بن غَنْم بن مالك بن النَّجار - وهو ابنُ عَفراءَ - النَّجَّاريَّانِ، ورافعُ بنُ مالك بن العَجلان بن عمرو بن زُرَيقٍ الزُّرقيُّ، وقُطبةُ بنُ عامرِ بن حَديدةَ بن عمرِو بن غَنم بن سوادِ بن غَنم بن كَعْبِ بن سَلمةَ بنِ سعدِ بنِ عليِّ بنِ أسدِ بنِ ساردةَ بن تَزيدَ بن جُشَمَ بن الخَزرجِ

ـسـميٌّ، ثُمَّ من بني سوادٍ، وعُقبةُ بن عامرِ بن نابي بن زيدِ بن حَرامِ بنِ كعبِ بن ـسـلمي أيضًا، ثم من بني حرام، وجابرُ بنُ عبد الله بن رِئابِ بن النُّعمان بن ـن بن عُبَيد بن عديٍّ بن غنم بن كعب بن سَلمةَ السَّلَمي أيضًا، ثُمَّ من بني عبيدٍ رضي الله عنهم، وهكذا رُوي عن الشَّعبيِّ والزُّهريِّ وغيرهما أنَّهم كانوا لَيْلَتئذٍ ستة نفرٍ من الخَزرَج.

قَالَ ابنُ إسحاقَ: فلمَّا قَدِمُوا المدينة إلى قومهم ذكروا لهم رسول الله ﷺ ودعوهُم إلى الإسلام حَتَّى فَشَا فيهم، فلم تَبقَ دارٌ من دُور الأنصارِ إلا وفيها ذُكرُ رسول الله ﷺ حَتَّى إذا كان العامُ المُقبلُ وافَى الموسمَ من الأنصارِ اثنى عَشَرَ رجلاً منهم: أبو أُمامة أسعدُ بنُ زُرارةَ المتقدِّم ذكره، وعوفُ بنُ الحارث المتقدِّم، وأخوه معاذٌ وهما ابنا عفراء، ورافعُ بن مالكٍ المتقدِّمُ أيضًا، وذَكوانُ بنُ عبد قيسِ بن خلدةَ بن مُخَلَّد بن عامرِ بن زُرَيقٍ الزُّرَقيُّ - قال ابن هشام: وهو أنصاريٌّ مُهاجريٌّ - وعُبادةُ بنُ الصامتِ بنِ قيسِ بن أصرَم بن فِهرِ بن ثَعْلَبَةَ بنِ غَنْم بن عوفِ بنِ عمرِو بن عَوفِ بن الخزْرَج، وحليفُهم أبو عبد الرحمن يزيدُ بن ثعلبَةَ بن خَزْمةَ بنِ أصْرَمَ البَلَويُّ، والعباسُ بنُ عُبادَةَ بنِ نَضلةَ بن مالكِ بن العَجلان بن يزيدِ بن غَنْم بن سالمِ بن عوف بن عَمْرِو بن عوف بن الخزرج العَجلانيُّ، وعُقبةُ بن عامرِ بن نابي المتقدِّم ذِكره، وقُطبةُ بن عامرِ بن حَدِيدَةَ، المتقدِّمُ، فهؤلاء عشرَةٌ من الخزرج، ومن الأوس اثنان وهما: عُوَيمُ بنُ ساعدَةَ، وأبو الهَيْثَمِ مالكُ بن التَّيِّهانِ، قال ابن هشام: التَّيِّهانُ يُخَفَّفُ ويُثَقَّلُ، كَمَيْتٍ ومَيِّتٍ.

قَالَ السُّهَيْليُّ: أبو الهيثمِ بنُ التَّيِّهان، اسمُه مالك بنُ مالك بنِ عَتِيكِ بنِ عمرِو ابنِ عبدِ الأعلَم بن عامرِ بن زَعْوَرِ بنِ جُشَمَ بنِ الحارث بن الخَزرج بنِ عمرِو بن مالكِ بنِ الأوسِ. قَالَ: وقيل: إنَّهُ إراشيٌّ. وقيل: بَلَويٌّ. ولهذا لم يَنسِبْهُ ابنُ إسحاق ولا ابنُ هشام.

قَالَ: والهَيثَمُ فرخُ العُقابِ، وضربٌ من النبات، والمقصودُ أنَّ هؤلاءِ الاثْنَي عَشَرَ رجلاً شَهِدوا الموسِمَ عَامَئذٍ، وعَزَموا على الاجتماع برسول الله ﷺ، فَلَقُوه بالعقَبةِ، فبايعوهُ عندها بَيعةَ النِّساءِ، وهي العقبةُ الأولى، ورَوى أبو نُعَيمٍ، أنَّ

رَسولُ الله ﷺ قرأ عليهم من قَولِهِ تعالى في سورة إبراهيم: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا﴾ [إبراهيم: ٣٥] إلى آخرها.

وقال ابنُ إسحاق: حدَّثني يزيدُ بن أبي حبيبٍ، عن مَرثَدِ بنِ عبدِ الله اليَزَنيِّ، عن عبد الرحمنِ بن عُسَيلَةَ الصنُّابحيِّ، عن عُبادةَ وهو ابن الصامتِ قَالَ: كُنْتُ فِيمَنْ حَضَرَ العَقَبَةَ الأُولَى وَكُنَّا اثْنَيْ عَشَرَ رَجُلًا فَبَايَعْنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ عَلَى بَيْعَةِ النِّسَاءِ وَذَلِكَ قَبْلَ أَنْ يُفْتَرَضَ الحَرْبُ، عَلَى أَنْ لَا نُشْرِكَ بِاللهِ شَيْئًا وَلَا نَسْرِقَ وَلَا نَزْنِيَ وَلَا نَقْتُلَ أَوْلَادَنَا وَلَا نَأْتِيَ بِبُهْتَانٍ نَفْتَرِهِ بَيْنَ أَيْدِينَا وَأَرْجُلِنَا وَلَا نَعْصِيَهُ فِي مَعْرُوفٍ «فَإِنْ وَفَّيْتُمْ فَلَكُمْ الجَنَّةُ، وَإِنْ غَشِيتُمْ مِنْ ذَلِكَ شَيْئًا فَأَمْرُكُمْ إِلَى اللهِ، إِنْ شَاءَ عَذَّبَكُمْ وَإِنْ شَاءَ غَفَرَ لَكُمْ» (١). وقد رَوى البُخاريُّ، ومسلمٌ هذا الحديثَ من طريقِ اللَّيث بن سعدٍ، عن يزيدَ بن أبي حبيبٍ، به نحوهُ (٢).

قال ابنُ إسحاق: وذَكَر ابنُ شهابٍ الزُّهريُّ، عن عائذ الله أبي إدريسَ الخَولانيِّ، أنَّ عُبادةَ بن الصامت حدَّثه أنَّهُ قَالَ: بايعنا رَسولَ الله ﷺ ليلة العقبة الأولىٰ أن لا نُشركَ بالله شيئًا، ولا نسرقَ، ولا نَزنيَ، ولا نَقتُل أولادَنا، ولا نَأتِيَ بِبُهتانٍ نَفتَرِيه بين أيدينا وأرجُلنا، ولا نعصيَهُ في معروفٍ، «فإن وَفيتُم فلكُمُ الجَنَّة. وإن غَشيتُم من ذلك شيئًا، فأُخذتم بِحَدِّه في الدُّنيا فهو كَفَّارةٌ له، وإن سترتم عليه إلى يوم القيامةِ، فأمرُكم إلى الله إن شاء عذَّبَ وإن شاءَ غَفَرَ» (٣)، وهذا الحديثُ مُخَرَّجٌ في «الصَّحِيحَيْنِ» وغيرهما (٤)، من طُرُقٍ عَن الزُّهريِّ به نَحوَه.

وقوله: «على بَيعةِ النِّساء» يعني على وَفْقِ ما نَزَلَت عليه بيعةُ النِّساء بعدَ ذلكَ عامَ الحُديبيةِ، وكان هذا مِمَّا نَزَلَ على وَفقِ ما بَايعَ عليه أصحابهُ ليلةَ العقبةِ، وليس هذا عجيبٍ، فإنَّ القرآن نَزَل بموافقةِ عُمَر بن الخطَّاب في غير ما مَوطنٍ، وإن كانت هذه البيعةُ وقَعَت عن وَحيٍ غيرِ مَتلُوٍّ، فهو أظهَرُ، والله أعلم.

---

(١) صحيح: أخرجه ابن هشام في «السيرة» (١/ ٤٣٣).
(٢) رواه البخاري (٣٨٩٣، ١٨٧٣)، ومسلم (١٨٠٩).
(٣) صحيح: كما سبق.
(٤) رواه البخاري (١٨)، ومسلم (١٧٠٩)، وغيرهما.

قال ابنُ اسحاقَ: فلمَّا انصَرَفَ عنه القومُ بَعَثَ رَسولُ الله ﷺ مَعهُم مُصْعَبَ بن عُمَيرِ بن هاشمِ بنِ عبدِ منافِ بنِ عبدِ الدَّار بنِ قُصَيٍّ، وأمرَهُ أن يُقرِئَهم القرآن، ويُعَلِّمَهم الإسلامَ، ويُفَقِّههم في الدِّين.

وقد روَى البيهقيُّ عن ابن إسحاقَ قَالَ: فحدَّثني عاصمُ بنُ عُمَربن قَتادةَ: أنَّ رسولَ الله ﷺ إنَّما بَعَثَ مُصعبًا حين كَتَبُوا إليه أن يبعثَهُ إليهم، وهو الذي ذَكَرهُ موسى بنُ عُقبةَ، كما تقدَّم، إلا أنَّهُ جَعلَ المرَّةَ الثانيةَ هي الأُولى. قال البيهقي: وسياقُ ابن إسحاق أتمُّ.

وقال ابن إسحاقَ: وكان عبدُ الله بنُ أبي بكر يقولُ: لا أدري ما العَقَبَةُ الأولى، ثم يقولُ ابنُ إسحاق: بلى لَعَمري قد كانت عَقبةٌ وعقبةٌ. قالوا كُلُّهم: فَنزلَ مصعبٌ على أسعد بن زُرارَةَ، فكانَ يُسَمَّى بالمدينة المُقرئ.

قال ابنُ إسحاق فحدَّثني عاصمُ بنُ عُمَر بن قَتادةَ أنَّهُ كان يُصلِّي بهم، وذلك أنَّ الأوسَ والخزرَجَ كَرِه بعضُهم أن يَؤُمَّه بعضٌ، رَضِي الله عنهم أجمعين.

قال ابنُ إسحاق: وحدَّثني مُحمَّد بنُ أبي أُمامة بن سهلِ بن حُنيفٍ، عن أبيه، عن عبد الرحمنِ بن كعبِ بن مالكٍ، قَالَ: كنتُ قائد أبي حين ذهب بَصرُه، فكنتُ إذا خرجتُ به إلى الجمعةِ فسمع الأذان بها، صلَّى على أبي أُمامةَ أسعدَ بن زُرارَةَ. قَالَ: فمكثَ حينًا على ذلك لا يسمَعُ الأذانَ للجمعةِ إلا صلَّى عليه واستغْفَر لَهُ، قَالَ: فقلتُ في نفسي: والله إنَّ هذا بي لَعَجزٌ، ألا أسأَلُه، فقلتُ: يا أبتِ مَا لكَ إذا سَمعتَ الأَذان للجُمُعةِ صَلَّيتَ على أبي أُمامة؟ فقال: أي بُنَيَّ، كان أوَّل من جَمَّع بنا بالمدينةِ في هَزم النَّبيتِ من حَرَّة بني بَيَاضَةَ في نَقِيعٍ يقال له: نقيعُ الخَضِماتِ، قَالَ: قلتُ: وكم أنَتم يومئذٍ؟ قَالَ: أربعونَ رجلًا»[(١)]. ا.هـ[(٢)].

أيهَا المسلمون...

كانت هذه بيعة العقبة الأولى، أما بيعة العقبة الثانية فيحكي لنا ابن إسحاق

---

(١) إسناده حسن: أخرجه ابن هشام في «السيرة» (١/ ٤٣٥)، وأبو داود (١٠٦٩)، وغيرهما.

(٢) من «البداية والنهاية» ملخصًا.

- رحمه الله - قصّتها فيقول:

«ثُمَّ إنَّ مصعبَ بن عُمير رجَعَ إلى مكَّة، وخرجَ مَن خَرجَ من الأنصارِ مِن المسلمينَ مع حُجَّاجِ قومِهِم مِن أهلِ الشركِ حَتَّى قَدِموا مكَّة، فواعَدوا رَسول الله ﷺ العَقَبَةَ، من أواسطِ أيامِ التَّشريقِ، حين أرادَ اللَّـهُ بهم من كرامَتِهِ والنصرِ لنبيِّه وإعزازِ الإسلامِ وأهلِهِ، فحَدَّثني معبدُ بنُ كعبِ بن مالكٍ، أنَّ أخاه عبدَ الله بنَ كعبٍ وكان من أعلمِ الأنصارِ، حدَّثه أنَّ أباه كعبًا حدَّثه، وكان مِمَّن شَهِدَ العقبةَ وبايعَ رسول الله ﷺ بها، قَالَ: «خَرَجنَا فِي حُجَّاجِ قَومِنَا مِن المُشرِكِينَ وَقَد صَلَّينَا وَفَقِهنَا، وَمَعَنَا البَرَاءُ بنُ مَعرُورٍ كَبِيرُنَا وَسَيِّدُنَا، فَلَمَّا تَوَجَّهنَا لِسَفَرِنَا وَخَرَجنَا مِن المَدِينَةِ قَالَ البَرَاءُ لَنَا: يَا هَؤُلَاءِ إِنِّي قَد رَأَيتُ وَاللَّهِ رَأيًا، وَإِنِّي وَاللهِ مَا أَدرِي تُوَافِقُونِي عَلَيهِ أَم لَا؟ قَالَ: قُلنَا لَهُ: وَمَا ذَاكَ؟ قَالَ: قَد رَأَيتُ أَن لَا أَدَعَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهرٍ - يَعنِي الكَعبَةَ - وَأَن أُصَلِّيَ إِلَيهَا.

قَالَ: فَقُلنَا: وَاللَّهِ مَا بَلَغَنَا أَنَّ نَبِيَّنَا يُصَلِّي إِلَّا إِلَى الشَّامِ، وَمَا نُرِيدُ أَن نُخَالِفَهُ، فَقَالَ: إِنِّي أُصَلِّي إِلَيهَا.

قَالَ: فَقُلنَا لَهُ: لَكِنَّا لَا نَفعَلُ، فَكُنَّا إِذَا حَضَرَت الصَّلَاةُ صَلَّينَا إِلَى الشَّامِ وَصَلَّى إِلَى الكَعبَةِ، حَتَّى قَدِمنَا مَكَّةَ، قَالَ أَخِي: وَقَد كُنَّا عِبنَا عَلَيهِ مَا صَنَعَ وَأَبَى إِلَّا الإِقَامَةَ عَلَيهِ، فَلَمَّا قَدِمنَا مَكَّةَ قَالَ: يَا ابنَ أَخِي انطَلِق إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسأَلهُ عَمَّا صَنَعتُ فِي سَفَرِي هَذَا، فَإِنَّهُ وَاللَّهِ قَد وَقَعَ فِي نَفسِي مِنهُ شَيءٌ لَمَّا رَأَيتُ مِن خِلَافِكُم إِيَّايَ فِيهِ.

قَالَ: فَخَرَجنَا نَسأَلُ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكُنَّا لَا نَعرِفُهُ لَم نَرَهُ قَبلَ ذَلِكَ، فَلَقِينَا رَجُلٌ مِن أَهلِ مَكَّةَ فَسَأَلنَاهُ عَن رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: هَل تَعرِفَانِهِ؟ قُلنَا: لَا، قَالَ: فَهَل تَعرِفَانِ العَبَّاسَ بنَ عَبدِ المُطَّلِبِ عَمَّهُ؟ قُلنَا: نَعَم، قَالَ: وَكُنَّا نَعرِفُ العَبَّاسَ كَانَ لَا يَزَالُ يَقدَمُ عَلَينَا تَاجِرًا، قَالَ: فَإِذَا دَخَلتُمَا المَسجِدَ فَهُوَ الرَّجُلُ الجَالِسُ مَعَ العَبَّاسِ.

قَالَ: فَدَخَلنَا المَسجِدَ فَإِذَا العَبَّاسُ جَالِسٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَعَهُ جَالِسٌ،

ـسَمنَا ثُمَّ جَلَسنَا إِلَيهِ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِلعَبَّاسِ: «**هَل تَعرِفُ هَذَينِ الرَّجُلَينِ يَا** **أبَا الفَضلِ؟**» قَالَ: نَعَم، هَذَا البَرَاءُ بنُ مَعرُورٍ سَيِّدُ قَومِهِ، وَهَذَا كَعبُ بنُ مَالِكٍ، قَالَ: فَوَاللهِ مَا أَنسَى قَولَ رَسُولِ اللهِ ﷺ: «**الشَّاعِرُ؟**» قَالَ: نَعَم، قَالَ: فَقَالَ البَرَاءُ بنُ مَعرُورٍ يَا نَبِيَّ اللهِ إِنِّي خَرَجتُ فِي سَفَرِي هَذَا وَهَدَانِي اللهُ لِلإِسلَامِ فَرَأَيتُ أَن لَا أَجعَلَ هَذِهِ البَنِيَّةَ مِنِّي بِظَهرٍ فَصَلَّيتُ إِلَيهَا وَقَد خَالَفَنِي أَصحَابِي فِي ذَلِكَ، حَتَّى وَقَعَ فِي نَفسِي مِن ذَلِكَ شَيءٌ، فَمَاذَا تَرَى يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**لَقَد كُنتَ عَلَى قِبلَةٍ لَو صَبَرتَ عَلَيهَا**».

قَالَ: فَرَجَعَ البَرَاءُ إِلَى قِبلَةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَصَلَّى مَعَنَا إِلَى الشَّامِ، قَالَ: وَأَهلُهُ يَزعُمُونَ أَنَّهُ صَلَّى إِلَى الكَعبَةِ حَتَّى مَاتَ، وَلَيسَ ذَلِكَ كَمَا قَالُوا، نَحنُ أَعلَمُ بِهِ مِنهُم.

قَالَ: وَخَرَجنَا إِلَى الحَجِّ فَوَاعَدنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ العَقَبَةَ مِن أَوسَطِ أَيَّامِ التَّشرِيقِ، فَلَمَّا فَرَغنَا مِن الحَجِّ وَكَانَت اللَّيلَةُ الَّتِي وَعَدنَا رَسُولَ اللهِ ﷺ وَمَعَنَا عَبدُ اللهِ بنُ عَمرِو بنِ حَرَامٍ أَبُو جَابِرٍ سَيِّدٌ مِن سَادَتِنَا، وَكُنَّا نَكتُمُ مَن مَعَنَا مِن قَومِنَا مِن المُشرِكِينَ أَمرَنَا فَكَلَّمنَاهُ وَقُلنَا لَهُ: يَا أَبَا جَابِرٍ إِنَّكَ سَيِّدٌ مِن سَادَتِنَا وَشَرِيفٌ مِن أَشرَافِنَا وَإِنَّا نَرغَبُ بِكَ عَمَّا أَنتَ فِيهِ أَن تَكُونَ حَطَبًا لِلنَّارِ غَدًا، ثُمَّ دَعَوتُهُ إِلَى الإِسلَامِ وَأَخبَرتُهُ بِمِيعَادِ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأَسلَمَ وَشَهِدَ مَعَنَا العَقَبَةَ وَكَانَ نَقِيبًا».

وقد روى البخاريُّ: حَدَّثَنِي إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا هِشَامٌ: أَنَّ ابْنَ جُرَيْجٍ أَخْبَرَهُمْ قَالَ عَطَاءٌ: قَالَ جَابِرٌ: «أَنَا وَأَبِي وَخَالِي مِنْ أَصْحَابِ العَقَبَةِ».

حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ المَدِينِيِّ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، قَالَ: كَانَ عَمْرٌو يَقُولُ: سَمِعْتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا يَقُولُ: «شَهِدَ بِي خَالَايَ العَقَبَةَ».

وقال الإمامُ أحمد: حَدَّثَنَا عَبدُ الرَّزَّاقِ، أَخبَرَنَا مَعمَرٌ، عَنِ ابنِ خُثَيمٍ، عَن أَبِي الزُّبَيرِ، عَن جَابِرٍ قَالَ: «مَكَثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِمَكَّةَ عَشرَ سِنِينَ يَتبَعُ النَّاسَ فِي مَنَازِلِهِم بِعُكَاظٍ، وَمَجَنَّةَ، وَفِي المَوَاسِمِ بِمِنًى، يَقُولُ: «**مَن يُؤوِينِي مَن يَنصُرُنِي حَتَّى أُبَلِّغَ رِسَالَةَ رَبِّي وَلَهُ الجَنَّةُ؟**»، حَتَّى إِنَّ الرَّجُلَ لَيَخرُجُ مِن اليَمَنِ أَو مِن مُضَرَ - كَذَا قَالَ - فَيَأتِيهِ قَومُهُ فَيَقُولُونَ: احذَر غُلَامَ قُرَيشٍ لَا يَفتِنُكَ، وَيَمشِي بَينَ رِجَالِهِم وَهُم

يُشِيرُونَ إِلَيهِ بِالأَصَابِعِ، حَتَّى بَعَثَنَا اللهُ إِلَيهِ مِن يَثرِبَ فَآوَينَاهُ وَصَدَّقنَاهُ، فَيَخرُجُ الرَّجُلُ مِنَّا فَيُؤمِنُ بِهِ وَيُقرِئُهُ القُرآنَ فَينَقَلِبُ إِلَى أَهلِهِ فَيُسلِمُونَ بِإِسلَامِهِ، حَتَّى لَم يَبقَ دَارٌ مِن دُورِ الأَنصَارِ إِلَّا وَفِيهَا رَهطٌ مِن المُسلِمِينَ يُظهِرُونَ الإِسلَامَ، ثُمَّ ائتَمَرُوا جَمِيعًا فَقُلنَا: حَتَّى مَتَى نَترُكُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يُطرَدُ فِي جِبَالِ مَكَّةَ وَيَخَافُ؟

فَرَحَلَ إِلَيهِ مِنَّا سَبعُونَ رَجُلًا حَتَّى قَدِمُوا عَلَيهِ فِي المَوسِمِ فَوَاعَدنَاهُ شِعبَ العَقَبَةِ فَاجتَمَعنَا عَلَيهِ مِن رَجُلٍ وَرَجُلَينِ حَتَّى تَوَافَينَا فَقُلنَا: يَا رَسُولَ اللهِ نُبَايِعُكَ، قَالَ: «**تُبَايِعُونِي عَلَى السَّمعِ وَالطَّاعَةِ فِي النَّشَاطِ وَالكَسَلِ وَالنَّفَقَةِ فِي العُسرِ وَاليُسرِ وَعَلَى الأَمرِ بِالمَعرُوفِ وَالنَّهيِ عَنَ المُنكَرِ وَأَن تَقُولُوا فِي اللهِ لَا تَخَافُونَ فِي اللَّهِ لَومَةَ لَائِمٍ وَعَلَى أَن تَنصُرُونِي فَتَمنَعُونِي إِذَا قَدِمتُ عَلَيكُم مِمَّا تَمنَعُونَ مِنهُ أَنفُسَكُم وَأَزوَاجَكُم وَأَبنَاءَكُم وَلَكُم الجَنَّةُ**».

قَالَ: فَقُمنَا إِلَيهِ فَبَايَعنَاهُ، وَأَخَذَ بِيَدِهِ أَسعَدُ بنُ زُرَارَةَ وَهُوَ مِن أَصغَرِهِم فَقَالَ: رُوَيدًا يَا أَهلَ يَثرِبَ، فَإِنَّا لَم نَضرِب أَكبَادَ الإِبِلِ إِلَّا وَنَحنُ نَعلَمُ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَإِنَّ إِخرَاجَهُ اليَومَ مُفَارَقَةُ العَرَبِ كَافَّةً وَقَتلُ خِيَارِكُم، وَأَنَّ تَعَضَّكُم السُّيُوفُ، فَإِمَّا أَنتُم قَومٌ تَصبِرُونَ عَلَى ذَلِكَ وَأَجرُكُم عَلَى اللَّهِ، وَإِمَّا أَنتُم قَومٌ تَخَافُونَ مِن أَنفُسِكُم جَبِينَةً فَبَيِّنُوا ذَلِكَ فَهُوَ عُذرٌ لَكُم عِندَ اللَّهِ، قَالُوا: أَمِط عَنَّا يَا أَسعَدُ فَوَاللَّهِ لَا نَدَعُ هَذِهِ البَيعَةَ أَبَدًا وَلَا نَسلُبُهَا أَبَدًا،

قَالَ: فَقُمنَا إِلَيهِ فَبَايَعنَاهُ فَأَخَذَ عَلَينَا وَشَرَطَ وَيُعطِينَا عَلَى ذَلِكَ الجَنَّةَ»[(١)].

ثُمَّ قَالَ ابن إسحاق: عن مَعبدٍ، عن عبدِ الله، عن أبيه كعب بنِ مالكٍ، قَالَ: فنِمنا تلك الليلةَ مع قومِنا في رِحالِنا، حَتَّى إذا مَضى ثُلُث الليلِ خَرجنا من رِحالِنا لميعادِ رسول الله ﷺ، نَتَسلَّلُ تَسلُّلَ القَطَا مُستخفِينَ، حَتَّى اجتمَعنا في الشِّعبِ عندَ العقَبَةِ ونحن ثلاثةٌ وسبعونَ رجلاً ومعنا امرأتانِ من نسائِنا: نسيبةُ بنتُ كعبٍ أُمُّ عُمارةَ إحدى نساءِ بني مازنِ بن النَّجّار، وأسماءُ ابنةُ عَمرِو بن عديٍّ بنِ نابي، إحدى نساء بني سلمةَ وهي أُمُّ مَنيعٍ[(٢)].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٣٢٢) وغيره.

(٢) إسناده لين: لأجل عنعنة ابن إسحاق، كما أن معبد فيه نوع جهالة.

قَالَ كعبُ بن مالكٍ: «فاجتَمَعنَا بِالشِّعبِ نَنتَظِرُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ حَتَّى جَاءَنَا ومَعَهُ عَمُّهُ العَبَّاسُ بنُ عَبدِ المُطَّلِبِ، وَهُوَ يَومَئِذٍ عَلَى دِينِ قَومِهِ، إِلَّا أَنَّهُ أَحَبَّ أَن يَحضُرَ أَمرَ ابنِ أَخِيهِ وَيَتَوَثَّقُ لَهُ، فَلَمَّا جَلَسنَا كَانَ العَبَّاسُ بنُ عَبدِ المُطَّلِبِ أَوَّلَ مُتَكَلِّم، فَقَالَ: يَا مَعشَرَ الخَزرَجِ - قَالَ: وَكَانَت العَرَبُ مِمَّا يُسَمُّونَ هَذَا الحَيَّ مِن الأَنصَارِ الخَزرَجَ، أَوسَهَا وَخَزرَجَهَا - إِنَّ مُحَمَّدًا مِنَّا حَيثُ قَد عَلِمتُم، وَقَد مَنَعنَاهُ مِن قَومِنَا مِمَّن هُوَ عَلَى مِثلِ رَأيِنَا فِيهِ، وَهُوَ فِي عِزٍّ مِن قَومِهِ وَمَنَعَةٍ فِي بَلَدِهِ، وإِنَّهُ قَدْ أَبَى إلا الانحياز إليكم، واللُّحوق بكم، فإن كنتم تَرونَ أَنَّكم وَافُونَ لَهُ بما دَعَوتُموه إِليه، ومَانِعُوه مِمَّن خَالَفَه، فَأَنتُم وما تَحَمَّلتُم من ذَلكَ، وإن كُنتم تَرونَ أَنَّكُم مُسلِموه وخاذِلُوه بعد الخروجِ به إليكم فمن الآنَ فَدَعوه، فإنَّه في عِزٍّ ومنعةٍ من قومِهِ وبلدِهِ.

قَالَ: فَقُلنَا: قَد سَمِعنَا مَا قُلتَ، فَتَكَلَّم يَا رَسُولَ اللَّهِ فَخُذ لِنَفسِكَ وَلِرَبِّكَ مَا أَحبَبتَ.

قَالَ: فتكَلَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَتَلَا وَدَعَا إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَرَغَّبَ فِي الإِسلَامِ، ثُمَّ قَالَ: «**أُبَايِعُكُم عَلَى أَن تَمنَعُونِي مِمَّا تَمنَعُونَ مِنهُ نِسَاءَكُم وَأَبنَاءَكُم؟**».

قَالَ: فَأَخَذَ البَرَاءُ بنُ مَعرُورٍ بِيَدِهِ ثُمَّ قَالَ: نَعَم، وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالحَقِّ لَنَمنَعَنَّكَ مِمَّا نَمنَعُ مِنهُ أُزُرَنَا، فَبَايِعنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَنَحنُ أَهلُ الحُرُوبِ وَأَهلُ الحَلقَةِ وَرِثنَاهَا كَابِرًا عَن كَابِرٍ.

قَالَ: فَاعتَرَضَ القَولَ وَالبَرَاءُ يُكَلِّمُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَبُو الهَيثَمِ بنُ التَّيِّهَانِ حَلِيفُ بَنِي عَبدِ الأَشهَلِ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ بَينَنَا وَبَينَ الرِّجَالِ حِبَالًا وَإِنَّا قَاطِعُوهَا - يَعنِي العُهُودَ - فَهَل عَسَيتَ إِن نَحنُ فَعَلنَا ذَلِكَ ثُمَّ أَظهَرَكَ اللَّهُ أَن تَرجِعَ إِلَى قَومِكَ وَتَدَعَنَا؟

قَالَ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثُمَّ قَالَ: «**بَلِ الدَّمَ الدَّمَ، وَالهَدمَ الهَدمَ، أَنَا مِنكُم وَأَنتُم مِنِّي، أُحَارِبُ مَن حَارَبتُم وَأُسَالِمُ مَن سَالَمتُم**». وَقَد قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَخرِجُوا إِلَيَّ مِنكُم اثنَي عَشَرَ نَقِيبًا يَكُونُونَ عَلَى قَومِهِم**»، فَأَخرَجُوا مِنهُم اثنَي عَشَرَ نَقِيبًا مِنهُم

تِسعَةٌ مِن الخَزرَجِ وَثَلَاثَةٌ مِن الأَوسِ.

قال ابن إسحاق: وهم أبو أُمامة أسعدُ بن زُرارة - المتقدِّمُ - وسعدُ بن الرَّبيعِ ابنِ عمرو بن أبي زُهَيرِ بن مالك بن امرئِ القيسِ بن مالكِ بن ثَعلَبَةَ بنِ كعبِ بن الخَزرجِ بن الحارثِ بن الخزرجِ، ورافعُ بنُ مالك بنِ العجلانِ - المتقدِّم - والبراءُ ابنُ معرُورِ بنِ صخرِ بن خَنساء بن سِنان بن عُبيدِ بن عَديٍّ بن غَنْمِ بن كعبِ بنِ سَلمةَ بن سعدِ بن عليٍّ بن أسدِ بن سارِدَةَ بن تَزِيدَ بنِ جُشَمَ بنِ الخَزرجِ، وعبدُ الله ابنُ عمرو بن حرامِ بن ثَعلبةَ بن حرامِ بن كعبِ بن غَنْمِ بن كعبِ بن سَلمَةَ. وعُبادَةُ بن الصَّامِتِ - المتقدِّم- وسعدُ بنُ عُبادةَ بن دُلَيمِ بن حارثةَ بنِ خُزَيمَةَ بنِ ثَعلبَةَ بنِ طَريفِ بن الخَزرجِ بن سَاعدَةَ بن كعبِ بنِ الخزرجِ، والمُنذرُ بنُ عمرو بن خُنَيسِ بن حارثةَ بن لَوذانَ بن عبد وُدٍّ بن زيدِ بن ثعلبةَ بن الخَزرجِ بن سَاعِدةَ بن كعبِ ابن الخزرجِ؛ فهؤلاء تسعةٌ من الخزرجِ.

ومن الأوس ثلاثةٌ وهم: أُسَيدُ بن حُضَيرِ بن سِماكِ بن عَتيك بنِ رافعِ بن امرئ القيسِ بن زيد بن عبد الأشْهَلِ بن جُشَمَ بن الحارث بن الخزرج بن عَمرو ابن مالكِ بن الأوس، وسعدُ بن خَيثمةَ بن الحارثِ بن مالكِ بن كعبِ بن النَّحَّاط ابن كعبِ بن حارثةَ بن غَنْمِ بن السَّلمِ بنِ امرئِ القيسِ بن مالك بن الأوسِ. ورِفاعةُ بن عبد المنذرِ بن زُبير بن زيدِ بن أُميَّة بن زيدِ بن مالك بن عَوف بن عمرو ابن عوف بن مالكِ بن الأوس.

قال ابنُ هشام: وأهلُ العلم يَعدُّون فيهم أبا الهَيْثَم بنُ التَّيِّهان، بدَلَ رفاعةَ هذا، وهو كذلك في رواية يُونُسَ عن ابن إسحاقَ، واختارَهُ السُّهَيْلِيُّ وابنُ الأثيرِ في «الغابة».

قَالَ ابنُ إسحاق:فلمَّا رَجَعَ الأنصارُ الذين بايعوا رسول الله ﷺ ليلةَ العقبةِ الثانيةِ إلى المدينةِ، أظهَرُوا الإسلامَ بها، وفي قومِهِم بقايا من شُيوخ لهم على دينهم من الشِّرك، منهم عمرُو بن الجَمُوحِ بن زيدِ بن حرامِ بن كعبِ بن غَنْمِ بن كعبِ ابن سَلمةَ، وكان ابنُهُ معاذُ بن عمرٍو مِمَّن شَهِدَ العَقَبة، وكان عمرُو بنُ الجَمُوحِ من ساداتِ بني سَلمَةَ وأشرافِهِم، وكان قد اتَّخذَ صَنمًا مِن خَشبٍ في دارِهِ يُقالُ له:

ـــ. كما كانت الأشرافُ يَصنعونَ، يَتَّخذُهُ إلهًا يُعَظِّمُه ويُطَهِّرُه، فلمَّا أسلم فتيانُ بني سلمةَ: ابنُه معاذٌ، ومعاذُ بنُ جَبلٍ، كانوا يُدلِجون بالليل على صَنمِ عمرو ذلك، فيحملونَهُ فَيَطرحُونَهُ في بعضِ حُفَرِ بني سَلِمةَ، وفيها عِذْرُ النَّاسِ،مُنكَّسا على رأسه، فإذا أصبحَ عمروٌ قَالَ: ويلَكم، من عَدَا على إلهنا هذه الليلة؟ ثُمَّ يَغْدو يلتمسُهُ حَتَّى إذا وَجَدَهُ غَسَلَهُ وطَهَّرُه وطَيَّبهُ، ثُمَّ قَالَ:أما والله لو أعلمُ مَن فَعَل بك هذا لأُخزِيَنَّهُ، فاذا أمسى ونام عمرٌو عَدَوا عليه فَفَعلوا مثل ذلك، فَيَغْدوا فَيجدُهُ في مثلِ مَا كان فيه من الأذى، فيغَسِلُهُ ويُطَهِّرُه ويُطَيِّبُهُ، ثُمَّ يَعدُون عليه إذا أمسى، فَيفعَلون به مثل ذلك، فلمَّا أكثروا عليه استَخرجَهُ مِن حيثُ ألقوهُ يومًا فَغَسَلهُ وطَهَّرهُ وطَيَّبهُ ثُمَّ جَاءَ بِسيفهِ فَعَلَّقهُ عليهِ، ثُمَّ قال له: إنِّي والله ما أعلمُ مَنْ يَصنَعُ بك ما أرى، فإن كان فيكَ خيرٌ فَامْتَنِع، فَهَذا السّيفُ معكَ، فلمَّا أمسى ونامَ عمرٌو عدَوا عليه فأخذوا السَّيف من عُنُقهِ ثُمَّ أخَذوا كلبًا مَيتًا فَقَرنَوه به بحبلٍ، ثُمَّ ألقوهُ في بئرٍ من آبارِ بني سَلِمَةَ فيها عِذَرٌ من عِذَرِ النَّاس،وغدا عمرُو بنُ الجموح فلم يَجدهُ في مكانه الذي كان به، فَخَرجَ يَتَّبعُهُ حَتَّى إذا وجَدَهُ في تلك البئرِ مُنكَّسًا مقرونًا بِكَلبٍ مَيِّتٍ، فلمَّا رآهُ أبصَرَ شَأنَهُ، وكَلَّمهُ مَن أسلَم مِن قومِهِ، فَأسْلَمَ برحمةِ الله، وحَسُنَ إسلامُهُ، فقال حين أسلَمَ وعَرَفَ مِن الله ما عَرَفَ، وهو يَذكرُ صَنَمَهَ ذلك، وما أبصَرَ مِنْ أمرِهِ ويَشكُرُ الله الذي أنقَذَهُ مِمَّا كان فيه من العَمَى والضَّلالةِ:

وَاللّـهِ لَـوْ كُـنْتَ إلَهًـا لَـمْ تَكُـنْ ... أَنْـتَ وَكَلْـبٌ وَسْـطَ بئْـرٍ فِـي قَـرَنْ
أُفٍّ لِمَلْقَـــاك إلَهًـــا مُـــسْتَدَنْ ... الآنَ فَتَـــشْنَاك عَـــنْ سُـــوءِ الغَـــبَنْ
الحَمْـــدُ لِلّـــهِ العَلِـــيِّ ذِي المِـــنَنْ ... الـــوَاهِبِ الـــرَّزَّاقِ دَيّـــانِ الـــدِّيَنْ
هُـوَ الّـذِي أَنْقَذَنِـي مِـنْ قَـبْلِ أَنْ ... أَكُـونَ فِـي ظُلْمَـةِ قَبْـرٍ مُـرْتَهَنْ[١]

عباد الله...

وهكذا دخل أهل المدينة في الإسلام أفواجًا، والحمد لله الذي بنعمته تتم

(١) من «البداية والنهاية» ملخصًا.

الصالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الدروس المستفادة من بيعتي العقبة الأولى والثانية:

(١) أنها كانت فتح الفتوح، لأنها كانت الحلقة الأولى في سلسلة الفتوحات الإسلامية التي تتابعت حلقاتها في صورة متدرجة، مشدودة بهذه البيعة، منذ اكتمل عقدها بما أخذ فيها رسول الله ﷺ من عهود ومواثيق على أقوى طليعة من طلائع أنصار الله الذين كانوا أعرف النَّاس بقدر مواثيقهم وعهودهم[١].

(٢) يظهر التخطيط العظيم في بيعة العقبة، حيث تمت في ظروف غاية في الصعوبة، وكانت تمثل تحديًا خطيرًا وجريئًا لقوى الشرك في ذَلِكَ الوقت. ولذلك كان التخطيط النبويّ لنجاحها في غاية الإحكام والدقة، على النحو التالي:

أ - سِريّة الحركة والانتقال لجماعة المبايعين، حَتَّى لا ينكشف الأمر، فقد كان وفد المبايعة المسلم سبعين رجلًا وامرأتين، من بين وفد يثربي قوامه نحو خمسمائة. مِمَّا يجعل حركة هؤلاء السبعين صعبة، وانتقالهم أمرًا غير ميسور، وقد تحدد موعد اللقاء في ثاني أيام التشريق بعد ثلث اللَّيل، حيث النوم قَدْ ضرب أعين القوم. وحيث قَدْ هدأت الرِّجل، كما تَمَّ تحديد المكان في الشُّعب الأيمن، بعيدًا عن عين من قَدْ يستيقظ من النوم لحاجة.

ب- الخروج المنظَّم لجماعة المبايعين إلى موعد ومكان الاجتماع، فخرجوا يتسللون مستخفين، رجلًا رجلًا، أو رجلين رجلين.

---

(١) «مُحَمَّد رسول الله» د. مُحَمَّد الصلابي عرجون (٢/ ٤٠٠).

ج - ضرب السرية التامة عَلَى موعد ومكان الاجتماع، بحيث لم يعلم به سوى العباس بن عبد المطلب الذي جاء مع النبي ﷺ ليتوثق له، وعلي بن أبي طالب الذي كان عينًا للمسلمين عَلَى فم الشعب، وأبو بكر الذي كان عَلَى فم الطريق وهو الآخر عينًا للمسلمين، أما عداهم من المسلمين وغيرهم فلم يكن يعلم عن الأمر شيئًا، وقد أمر جماعة المبايعين أن لا يرفعوا الصوت وأن لا يطيلوا في الكلام، حذرًا من وجود عين يسمع صوتهم، أو يجس حركتهم.

د- متابعة الإخفاء والسرية، حين كشف الشيطان أمر البيعة، فأمرهم النبي ﷺ أن يرجعوا إلى رحالهم ولا يحدثوا شيئًا، رافضًا الاستعجال في المواجهة المسلحة التي لم تتهيأ لها الظروف بعد، وعندما جاءت قريش تستبرئ الخبر موَّه المسلمون عليهم بالسكوت، أو المشاركة بالكلام الذي يشغل عن الموضوع[1].

هـ - اختيار الليلة الأخيرة من ليالي الحج، وهي ليلة الثالثة عشر من ذي الحجة، حيث سينفر الحجاج إلى بلادهم ظهر اليوم التالي وهو يوم الثالث عشر، ومن ثَمَّ تضيق الفرصة أمام قريش في اعتراضهم أو تعويقهم إذا انكشف أمر البيعة، وهو أمر متوقع وهذا ما حدث.

(٣) كانت البنود الخمسة للبيعة من الوضوح والقوّة بحيث لا تقبل التمييع والتراخي، إنَّهُ السمع والطاعة في النشاط والكسل، والنفقة في اليسر والعُسر، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقيام في الله لا تأخذهم فيه لومة لائم، ونصر لرسول الله وحمايته إذا قَدِمَ المدينة.

(٤) يؤخذ من اختيار النُّقباء دروس مهمة منها:

(١) يلاحظ أن هذه السّرية كانت في مجتمع كافر، أما التجمّعات السرية في مجتمع مسلم يحكمه سلطان، فلا تجوز. قَالَ عمر بن عبد العزيز - رحمه الله - : «إذا رأيت قومًا يتناجون في دينهم شيء دون العامّة، فاعلم أنهم على تأسيس ضلالة». أخرجه اللالكائي في «السنة» (١/ ١٣٥)، وأخرج ابن أبي عاصم في «السنة» بإسناد جيد: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله أوصني، قَالَ: «اعبد الله ولا تُشرك به شيئًا، وأقم الصلاة، وآتِ الزكاة، وصُمْ رمضان، وحج البيت واعتمر، واسمع وأطع، وعليك العلانية، وإيَّاك والسِّرّ».

أ - أن الرسول ﷺ لم يعين النقباء، إنما ترك طريق اختيارهم إلى الذين بايعوا، فإنهم سيكونون عليهم مسئولين وكفلاء، والأولى أن يختار الإنسان من يكفله ويقوم بأمره، وهذا أمر شورى وأراد الرسول ﷺ أن يمارسوا الشورى عمليًّا من خلال اختيار نقبائهم.

ب- التمثيل النسبي في الاختيار، من المعلوم أن الذين حضروا البيعة من الخزرج أكثر من الذين حضروا البيعة من الأوس، ثلاثة أضعاف من الأوس بل يزيدون، ولذلك كان النقباء ثلاثة من الأوس وتسعة من الخزرج[١].

ج- جعل رسول الله ﷺ النقباء مشرفين عَلَى سير الدَّعوة في يثرب، حيث استقام عود الإسلام هناك، وكثر مثقفوه، وأراد الرسول ﷺ أن يُشعرهم أنهم لم يعودوا غرباء لكي يبعث إليهم أحدًا من غيرهم، وأنهم غدوا أهل الإسلام وحماته وأنصاره[٢].

(٥) كانت البيعة بالنسبة للرجال ببسط رسول الله ﷺ يده وقالوا له: ابسط يدك، فبسط يده فبايعوه، وأما بيعة المرأتين اللتين شهدتا الوقعة فكانت قولًا، ما صافح رسول الله ﷺ امرأة أجنبية قطّ، فلم يتخلف أحدٌ في بيعته ﷺ حَتَّى المرأتين بايعتا بيعة الحرب، وصدقتا عهدهما، فأما نسيبة بنت كعب (أُمّ عمارة) فقد سقطت في أُحد وقد أصابها اثنا عشر جرحًا، وقد خرجت يوم أُحد مع زوجها زيد بن عاصم بن كعب ومعها سُقاء تسقي به المسلمين، فلمَّا انهزم المسلمون انحازت إلى رسول الله ﷺ، فكانت تُباشر القتال وتذب عنه بالسيف وقد أصيبت بجراح عميقة، وشهدت بيعة الرضوان، وقطع مسيلمة الكذاب ابنها إربًا إربًا، فما وهنت وما استكانت، وشهدت معركة اليمامة في حروب الردة مع خالد بن الوليد فقاتلت حَتَّى قُطعت يدها وجُرحت إثنا عشر جُرحًا، وأما أسماء ابنة عمرو من بني سلمة قيل: هي والدة مُعاذ بن جبل، وقيل: ابنة عمة معاذ بن جبل رضي الله عنهم جميعًا.

---

(١) «السِّيرة النبوية» لأبي فارس (٢٠٩).

(٢) «دراسات في السِّيرة النبوية» د. عماد الدين خليل (١٣٢).

(عندما نُراجِع تراجم أصحاب العقبة الثانية من الأنصار في كُتب السِّير والتراجم نجد أن هؤلاء الثلاثة والسبعين قَدْ استشهد قرابة ثُلثهم عَلَى عهد النبي ﷺ وبعده، ونلاحظ أَنَّهُ قَدْ حضر المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ قرابة النصف، فثلاثة وثلاثون منهم كانوا بجوار الرسول ﷺ في جميع غزواته، وأما الذين حضروا غزوة بدر فكانوا قُرابة السبعين.

لقد صدق هؤلاء الأنصار عهدهم مع الله ورسوله ﷺ، فمنهم من قضى نحبه ولقي ربه شهيد، ومنهم من بقي حَتَّى ساهم في قيادة الدولة المسلمة وشارك في أحداثها الجِسام بعد وفاة رسول الله ﷺ، وبمثل هذه النماذج قامت دولة الإسلام، النماذج التي تُعطي ولا تأخذ، والتي تُقدِّم كل شيء، ولا تطلب شيئًا إلا جَنَّة، ويتصاغر التاريخ في جميع عصوره ودهوره أن يحوي في صفحاته أمثال هؤلاء الرجال[1]). ا.هـ[2].

عباد الله...

هذه بعض الدروس المستفادة من بيعة العقبة، وفي الجمعة القادمة إن شاء الله تعالى نواصل الحديث عن السِّيرة العطرة، فإلى اللقاء.

۞۞۞۞۞

(١) «التربية القيادية» (٢/ ١٤٠).

(٢) «السِّيرة النبوية» د. الصلابي (١/ ٤٠٨ - ٤١٣) باختصار شديد.

الخطبة الرابعة والسبعون:

[أ] الهجرة المباركة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة المصطفى ﷺ.

ونتكلم اليوم إن شاء الله تعالى عن هجرة المصطفى ﷺ وأصحابه - رَضِيَ الله عَنْهُم من مكَّة والمدينة، وأسأل الله تعالى التوفيق.

عباد الله...

عن عائشة قالت: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ للمُسلمين، وهو يومئذٍ بمكَّة: «قَدْ

ـثُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ رَأَيْتُ سَبْخَةً ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لَابَتَيْنِ»[١]، وَهُمَا الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ ـاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ حِينَ ذَكَرَ ذَلِكَ رَسُولُ اللهِ ﷺ، وَرَجَعَ إِلَى المَدِينَةِ بَعْضُ مَنْ كَانَ ـاجَرَ إِلَى أَرْضِ الحَبَشَةِ من المُسلمين. رواهُ البُخاريُّ.

وعَنْ قَالَ أَبِي مُوسَى: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رَأَيْتُ فِي المَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى ـضٍ بِهَا نَخْلٌ، فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَى أَنَّهَا اليَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ، فَإِذَا هِيَ المَدِينَةُ يَثْرِبُ»[٢].

قَالَ ابنُ إسحَاقَ: لَـمَّا أَذِنَ اللهُ تَعَالَى لَهُ ﷺ فِي الحَربِ بقوله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّـهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠]، وَبَايَعَهُ هَذَا الحَيّ مِن الأَنصَارِ عَلَى الإِسلَام وَالنّصرَةِ لَهُ وَلِمَن اتّبَعَهُ. وَأَوَى إِلَيهِم مِن المُسلِمِينَ، أَمَرَ رَسُولُ الله ﷺ أَصحَابَهُ مِن المُهَاجِرِينَ مِن قَومِهِ وَمَن مَعَهُ بِمَكّةَ مِن المُسلِمِينَ بِالخُرُوجِ إِلَى المَدِينَةِ وَالهِجرَةِ إِلَيهَا، وَاللّحُوقِ بِإِخوَانِهِم مِن الأَنصَارِ، وَقَالَ: «إِنّ الله عَزّ وَجَلّ قَد جَعَلَ لَكُم إِخوَانًا وَدَارًا تَأمَنُونَ بِهَا» فَخَرَجُوا أَرسَالًا، وَأَقَامَ رَسُولُ الله ﷺ بِمَكّةَ يَنتَظِرُ أَن يَأذَنَ لَهُ رَبّهُ فِي الخُرُوجِ مِن مَكّةَ، وَالهِجرَةِ إِلَى المَدِينَةِ.

فَكَانَ أَوّلُ مَن هَاجَرَ إِلَى المَدِينَةِ مِن أَصحَابِ رَسُولِ الله ﷺ مِن المُهَاجِرِينَ مِن قُرَيشٍ، مِن بَنِي مَخزُوم: أَبُو سَلَمَةَ بنُ عَبدِ الأَسَدِ بنِ هِلَالِ بنِ عَبدِ الله بنِ عُمَرَ بنِ مَخزُوم، وكانت هجرتُهُ إليها قَبلَ بَيعَةِ العَقَبَةِ بِسَنَةٍ، حين آذَتهُ قُرَيشٌ مَرجِعَهُ من الحَبَشَةِ، فَعزمَ عَلَى الرُّجوعِ إليها، ثُمَّ بَلَغَهُ أَنَّ بِالمدينة لهم إخوانًا فعزَمَ إليها.

قَالَ ابنُ إسحَاقَ: ثُمّ كَانَ أَوّلَ مَن قَدِمَهَا مِن المُهَاجِرِينَ بَعدَ أَبِي سَلَمَةَ، عَامِرُ ابنُ رَبِيعَةَ حَلِيفُ بَنِي عَدِيّ بنِ كَعبٍ، مَعَهُ امرَأَتُهُ لَيلَى بِنتُ أَبِي حَثمَةَ العدويّةُ. ثُمّ عَبدُ الله بنُ جَحشِ بنِ رِيَابِ بنِ يَعمُرَ بنِ صَبرَةَ بنِ مُرّةَ بنِ كَثِيرِ بنِ غَنمِ بنِ دُودَانَ ابنِ أَسَدِ بنِ خُزَيمَةَ، حَلِيفُ بَنِي أُمَيّةَ بنِ عَبدِ شَمسٍ، احتَمَلَ بِأَهلِهِ وَبِأَخِيهِ عَبدِ بنِ جَحشٍ وَهُوَ أَبُو أَحمَدَ - اسمه عبدٌ كما ذكره ابن إسحاق. وقيل: ثُمامُة. قَالَ

(١) رواه البخاري (٢٢٩٧).

(٢) علقه البخاري بصيغة الجزم على أبي موسى، وأخرجه مسلم (٢٢٧٢).

السُّهَيْلِيُّ: والأول أصحُّ، وَكَانَ أَبُو أَحْمَدَ رَجُلًا ضَرِيرَ البَصَرِ وَكَانَ يَطُوفُ مَكَّةَ، أَعلاهَا وَأَسفَلَهَا، بِغَيرِ قَائِدٍ، وَكَانَ شَاعِرًا، وَكَانَت عِندَهُ الفَارِعَةُ ابنَةُ أَبِي سُفيَانَ بنِ حَربٍ وَكَانَت أُمّهُ أُمَيمَةَ بِنتَ عَبدِ المُطّلِبِ بنِ هَاشِمٍ، فَغُلّقَت دَارُ بَنِي جَحشٍ هِجرَةً، فَمَرّ بِهَا عُتبَةُ بنُ رَبِيعَةَ، وَالعَبّاسُ بنُ عَبدِ المُطّلِبِ، وَأَبُو جَهلِ بنِ هِشَامِ بنِ المُغِيرَةِ، وَهُم مُصعِدُونَ إِلَى أَعلَى مَكّةَ، فَنَظَرَ إِلَيهَا عُتبَةُ بنُ رَبِيعَةَ تَخفِقُ أَبوابُهَا يَبَابًا، لَيسَ فِيهَا سَاكِنٌ، فَلَمّا رَآهَا كَذَلِكَ تَنَفّسَ الصّعَدَاءَ وَقَالَ:

وَكُلّ دَارٍ وَإِن طَالَت سَلامَتُهَا ... يَومًا سَتُدرِكُهَا النّكبَاءُ وَالحُوبُ

قَالَ ابنُ هِشَام: وَهَذَا البَيتُ لِأَبِي دَؤادَ الإِيَادِيّ فِي قَصِيدَةٍ لَهُ. قَالَ السُّهَيْلِيُّ: واسمُ أبي داودٍ حَنظَلَةُ بنُ شَرقيٍّ، وقيل: جاريةُ. ثُمَّ قَالَ عُتبة: أَصبَحَت دَارُ بَنِي جَحشٍ خَلَاءً مِن أَهلِهَا، فَقَالَ أَبُو جَهلٍ: وَمَا تَبكِي عَلَيهِ مِن قُلّ بنِ قُلّ. ثُمّ قَالَ - يعني للعباس: هَذَا عَمَلُ ابنِ أَخِي هَذَا، فَرّقَ جَمَاعَتَنَا، وَشَتّت أَمرَنَا وَقَطَعَ بَينَنَا.

قَالَ ابنُ إسحاق: فنزلَ أَبو سَلَمَةَ، وَعَامِرِ بن رَبِيعَةَ، وبنو جَحشٍ بقُباءٍ، عَلَى مُبَشِّر بن المنذر، قَدِمَ المُهَاجِرُونَ أَرسَالًا، قَالَ: وَكَانَ بَنُو غَنمِ بنِ دُودَانَ أَهلَ إِسلَام قَد أَوعَبُوا إِلَى المَدِينَةِ مَعَ رَسُولِ الله ﷺ هِجرَةً رِجَالُهُم وَنِسَاؤُهُم، عَبدُ الله بنُ جَحشٍ، وَأَخُوهُ أَبُو أَحمَدَ بنُ جَحشٍ، وَعُكّاشَةُ بنُ مِحصَنٍ، وَشُجَاعٌ وَعُقبَةٌ ابنَا وَهبٍ وَأَربَدُ بنُ حُمَيّرَةَ. قَالَ ابنُ هِشَام: وَيُقَالُ ابنُ حُمَيرَةَ. وَمُنقِذُ بنُ نُبَاتَةَ، وَسَعِيدُ ابنُ رُقَيشٍ، وَمُحرِزُ بنُ نَضلَةَ، وَيَزِيدُ بنُ رُقَيشٍ، وَقَيسُ بنُ جَابِرٍ، وَعَمرُو بنُ مِحصَنٍ، وَمَالِكُ بنُ عَمرٍو، وَصَفوَانُ بنُ عَمرٍو، وَثَقفُ بنُ عَمرٍو، وَرَبِيعَةُ بنُ أَكثَمَ، وَالزّبَيرُ بنُ عُبَيدٍ، وَتَمّامُ بنُ عُبَيدَةَ، وَسَخبَرَةُ بنُ عُبَيدَةَ، وَمُحَمّدُ بنُ عَبدِ الله بنِ جَحشٍ.

وَمِن نِسَائِهِم: زَينَبُ بِنتُ جَحشٍ، وَأُمّ حَبِيبِ بِنتُ جَحشٍ، وَجُذَامَةُ بِنتُ جَندَلٍ، وَأُمّ قَيسٍ بِنتُ مُحصَنٍ، وَأُمّ حَبِيبِ بِنتُ ثُمَامَةَ، وَآمِنَةُ بِنتُ رُقَيشٍ، وَسَخبَرَةُ بِنتُ تَمِيمٍ.

قَالَ ابنُ إسحَاقَ: ثُمّ خَرَجَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ، وَعَيّاشُ بنُ أَبِي رَبِيعَةَ المَخزُومِيّ،

حتى قدما المدينة. فحدثني نافعٌ مولى عبدِ الله بنِ عُمَرَ، عن عبدِ الله بنِ عُمَرَ، عن عُمَرَ بنِ الخطّابِ، قال: اتّعدتُ لمّا أردنا الهجرةَ إلى المدينةِ، أنا وعيّاشُ بنُ أبي ربيعةَ. وهشامُ بنُ العاصي بنِ وائلٍ السهميّ التّناضبَ من أضاةِ بني غفارٍ، فوقَ سرفٍ. وقلنا: أيّنا لم يصبح عندها فقد حُبِسَ فليمضِ صاحباهُ.

قال: فأصبحت أنا وعيّاشُ بنُ أبي ربيعةَ عندَ التّناضبِ، وحُبِسَ عنّا هشامٌ وفتنَ فافتُتِنَ، فلمّا قدمنا المدينةَ نزلنا في بني عمرو بنِ عوفٍ بقُباءٍ وخرجَ أبو جهلِ بنِ هشامٍ والحارثُ بنُ هشامٍ إلى عيّاشِ بنِ أبي ربيعةَ، وكانَ ابنَ عمّهما وأخاهُما لأمّهما، حتّى قدما علينا المدينةَ، ورسولُ الله ﷺ بمكّةَ فكلّماهُ وقالا: إنّ أمّك قد نذرت أن لا يمسّ رأسها مشطٌ حتّى تراك، ولا تستظلّ من شمسٍ حتّى تراك، فرقّ لها، فقلت لهُ: إنّهُ والله إن يريدكَ القومُ إلّا ليفتنوك عن دينِك فاحذرهم، فوالله لو قد آذى أمّك القملُ لامتشطت ولو قد اشتدّ عليها حرّ مكّةَ لاستظلّت. قال: فقالَ: أبرّ قسمَ أمّي، ولي هنالكَ مالٌ فآخذُهُ. قالَ فقلت: والله إنّك لتعلمُ أنّي لمن أكثرِ قريشٍ مالًا، فلك نصفُ مالي ولا تذهب معهُما. قالَ فأبى عليّ إلّا أن يخرجَ معهُما؛ فلمّا أبى إلّا ذلكَ، قلت لهُ: أمّا إذ قد فعلتَ ما فعلت، فخذ ناقتي هذهِ فإنّها ناقةٌ نجيبةٌ ذلولٌ فالزم ظهرَها، فإن رابَك من القومِ ريبٌ فانجُ عليها.

فخرجَ عليها معهُما، حتّى إذا كانُوا ببعضِ الطّريقِ قالَ لهُ أبو جهلٍ يا ابنَ أخي، والله لقد استغلظتُ بعيري هذا، أفلا تُعقبني على ناقتك هذهِ؟ قالَ بلى. قالَ فأناخَ وأناخا ليتحوّلَ عليها، فلمّا استووا بالأرضِ عدوا عليهِ فأوثقاهُ وربطاهُ ثمّ دخلا بهِ مكّةَ، وفتناهُ فافتُتِنَ.

قالَ عُمَرُ: فكنّا نقول: لا يقبلُ الله ممّن افتتن توبةً، وكانوا يقولون ذلك لأنفسهم، حتّى قدمَ رسول الله ﷺ المدينة، وأنزلَ اللهُ تعالَى فيهم: ﴿قُل يا عِبادِيَ الّذينَ أسرفُوا على أنفسِهِم لا تقنطُوا من رحمةِ الله إنّ الله يغفرُ الذّنوبَ جميعًا إنّهُ هوَ الغفُورُ الرّحيمُ * وأنيبُوا إلى ربّكُم وأسلِمُوا لهُ من قبلِ أن يأتيكُمُ العذابُ ثُمّ لا تُنصرُونَ * واتّبعُوا أحسنَ ما أُنزلَ إليكُم من ربّكُم من قبلِ أن يأتيكُمُ العذابُ بغتةً وأنتُم لا تشعُرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣- ٥٥] قالَ عُمَرُ بنُ الخطّابِ: فكتبتها بيدي، وبعثت

بِهَا إِلَى هِشَامِ بنِ العَاصِ، قَالَ قَالَ هِشَامُ بنُ العَاصِ: فَلَمَّا أَتَتنِي جَعَلت أَقرَؤُهَا بِذِي طُوًى، أُصَعّدُ بِهَا فِيهِ وَأُصَوّبُ وَلَا أَفهَمُهَا، حَتّى قُلت: اللَّهُمّ فَهّمنِيهَا. فَأَلقَى اللَّهُ تَعَالَى فِي قَلبِي أَنّهَا إِنّمَا أُنزِلَت فِينَا، وَفِيمَا كُنّا نَقُولُ فِي أَنفُسِنَا وَيُقَالُ فِينَا. قَالَ: فَرَجَعت إِلَى بَعِيرِي، فَجَلَست عَلَيهِ، فَلَحِقتُ بِرَسُولِ الله ﷺ وَهُوَ بِالْمَدِينَةِ[1].

قَالَ ابنُ إسحَاقَ: ولما قَدِمَ عُمَرُ بنُ الخَطّابِ بالمَدِينَةَ هُوَ وَمَن لَحِقَ بِهِ مِن أَهلِهِ وَقَومِهِ وَأَخُوهُ زَيدُ بنُ الخَطّابِ، وَعَمرٌو، وَعَبدُ الله ابنَا سُرَاقَةَ بنِ المُعتَمِرِ، وَخُنَيسُ ابنُ حُذَافَةَ السّهمِيّ زوجُ ابنَتِهِ حَفصَةَ بِنتِ عُمَر، وابن عمّه سَعِيدُ بنُ زَيدِ بنِ عَمرِو بنِ نُفَيلٍ؛ وَوَاقِدُ بنُ عَبدِ الله التّمِيمِيُّ، حَلِيفٌ لَهُم، وَخَولِيّ بنُ أَبِي خَولِيّ، وَمَالِكُ بنُ أَبِي خَولِيّ حَلِيفَانِ لَهُم من بني عِجلٍ. وَبَنُو البُكَيرِ: إِيَاسٌ، وَعَاقِلٌ، وَعَامِرٌ، وَخَالِدٌ، وَحُلَفَاؤُهُم مِن بَنِي سَعدِ بنِ لَيثٍ، فنزلوا عَلَى رِفَاعَةَ بنِ عَبدِ الْمُنذِرِ ابنِ زَنبَرٍ، فِي بَنِي عَمرِو بنِ عَوف بقُبَاءٍ.

قَالَ ابنُ إسحاق: ثُمّ تَتَابَعَ الْمُهَاجِرُونَ رَضِي الله عَنهُم، فَنَزَلَ طَلحَةُ بنُ عُبَيدِ الله ابنِ عُثمَانَ، وَصُهَيبُ بنُ سِنَانٍ عَلَى خُبَيبِ بنِ إِسَافٍ، أَخِي بَلحَارِثِ بنِ الخَزرَجِ بِالسّنحِ. وَيُقَالُ: بَل نَزَلَ طَلحَةُ بنُ عُبَيدِ الله عَلَى أَسعَدِ بنِ زُرَارَةَ.

وعن سعيد بن المُسيّب، عن صُهَيبٍ قَالَ: قَالَ رسول الله ﷺ: «**أُريتُ دارَ هِجرتَكم سَبخةً بين ظَهراني حَرَّتين، فإمَّا أن تكونَ هَجَرَ أو تكونَ يَثرب**». قَالَ: وخرجَ رسولُ الله ﷺ إلى المدينة وخرجَ معهُ أبو بكرٍ، وكنتُ قَدْ هَممتُ معه بالخروجِ فَصَدَّنِي فِتيانٌ من قريشٍ، فجعلتُ لَيلَتي تلك أقوامُ لا أقعُدُ، فقالوا: قَدْ شَغَلَهُ اللهُ عَنكُم ببطنِهِ، ولم أكن شاكيًا، فناموا فخَرَجْتُ ولحقَني منهم ناسٌ بعدما سِرتُ بريدًا ليرُدُّوني، فقلتُ لهم: هل لكم أن أُعطيكم أواقِيَ من ذَهَبٍ، وتُخلُّوا سبيلي وتُوفُوا لي، ففعَلُوا فتَبِعتُهم إلى مكّة فقلتُ: احفِروا تحتَ أُسكُفَّةِ البابِ فإنَّ تحتها أواقيًا، واذهبوا إلى فُلانةَ فخُذوا الحُلَّتين، وخرجتُ حَتَّى قدمتُ عَلَى رسول الله ﷺ بِقُباءَ، قبل أن يَتحوَّلَ منها، فلمَّا رآني قَالَ: «**يا أبا يَحيى، رَبِحَ البيعُ**» ثلاثًا، فقلتُ

---

(١) حسن: أخرجه ابن هشام في «السيرة» (٢/ ٩٧، ٩٨).

- ... الله ما سَبَقَني إليك أحدٌ، وما أخبرك إلَّا جبريلُ عليه السلام[1].

... ...

... عن سبب هجرة المصطفى ﷺ وكيف هاجر، يقول الحق سُبْحَانَهُ وتَعَالَى ... ﷺ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِي مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِي مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّي مِن ... سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: «أرشده الله وألهمه أن يدعو بهذا الدعاء، أن يجعل ... هُوَ فيه فرجًا قريبًا، ومخرجًا عاجلًا، فأذن له تعالى في الهجرة إلى المدينة النبوية حيث الأنصارُ والأحبابُ، فصارت له دارًا وقرارًا، وأهلُها له أنصارًا» ا.هـ[2].

وكان من أسباب هجرته ﷺ أيضًا: اجتماع المشركين، وإجماعهم عَلَى قتله ... تخلّص منه.

قَالَ تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّـهُ وَاللَّـهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠].

قَالَ ابن كثير - رحمه الله -: قوله: ﴿لِيُثْبِتُوكَ﴾ ليقيِّدوك، وعن ابن عباس قال: دخلت فاطمة عَلَى رسول الله ﷺ وهي تبكي فقال: «ما يُبكيكِ يا بُنيّة؟»، قالت: ... أبت وما لي لا أبكي، وهؤلاء الملأُ من قريش في الحِجْر يتعاهدون باللّات والعُزّى ومناةِ الثالثة الأُخرى، لو قَدْ رأوك لقاموا إليك فيقتلونك، ليس منهم إلَّا مَنْ قَدْ عَرَفَ نَصِيبَه من دَمِك، فقال: «يا بُنَيَّةُ ائتِني بوضوء»، فتوضأ رسول الله ﷺ ثُمَّ خرج إلى المسجد، فلمّا رأوه قالوا: إنما هُوَ ذا، فطأطأوا رءوسهم، وسقطت أذقانهم بين أيديهم، فلم يرفعوا أبصارهم، فتناول رسولُ الله ﷺ قبضة من تراب فَحَصَبَهم بها، وقال: «**شاهت الوجوه**»، فما أصاب رجلًا منهم حصاةٌ من حصياته إلَّا قُتل يوم بدر كافرًا»[3].

---

(١) صحيح لغيره: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٥٥٢)، والحاكم (٣/ ٤٠٠)، وغيرهما.
(٢) «البداية» (٣/ ١٨٦).
(٣) حسن: أخرجه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٥٧)، وابن حبان (١٦٩١).

وعن عروة بن الزُّبير في قوله: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّـهُ وَاللَّـهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ أي: فمكرتُ بهم بكيدي المتين حتى خَلَّصتُك منهم» ا.هـ[١].

وعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: بُعِثَ رَسُولُ اللهِ ﷺ لِأَرْبَعِينَ سَنَةً. فَمَكُثَ بِمَكَّةَ ثَلَاثَ عَشْرَةَ سَنَةً يُوحَى إِلَيْهِ، ثُمَّ أُمِرَ بِالهِجْرَةِ فَهَاجَرَ عَشْرَ سِنِينَ. وَمَاتَ وَهُوَ ابْنُ ثَلَاثٍ وَسِتِّينَ[٢].

وقد كانت هِجرتهُ ﷺ في شهرِ ربيع الأوَّلِ سنةَ ثلاثَ عَشرةَ من بِعثَتِهِ ﷺ. وذلك في يومِ الاثنين كما رواه الإمامُ أحمدُ، عن ابن عباسٍ، أَنَّهُ قَالَ: وُلد نبيُّكم يوم الاثنين، وخرجَ مِن مكَّة يوم الاثنين، ونُبِّئ يوم الاثنين، ودخل المدينة يوم الاثنين. وتُوفِّي يومَ الاثنين[٣].

وعن كيفية الهجرة:

روى البخاري[٤] عن عروة بن الزُّبير، عن عائشة رضي الله عنها قالت: لم أَعْقِلْ أَبَوَيَّ قَطُّ إِلاَّ وَهُمَا يَدِينَانِ الدِّينَ، وَلَمْ يَمُرَّ عَلَيْنَا يَوْمٌ إِلاَّ يَأْتِينَا فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ طَرَفَيِ النَّهَارِ بُكْرَةً وَعَشِيَّةً، فَلَمَّا ابْتُلِيَ الْمُسْلِمُونَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ مُهَاجِرًا نَحْوَ أَرْضِ الحَبَشَةِ، حَتَّى بَلَغَ بَرْكَ الغِمَادِ لَقِيَهُ ابْنُ الدَّغِنَةِ وَهْوَ سَيِّدُ القَارَةِ.

فَذَكرت ما كانَ من ردِّهِ لأبي بكر إلى مكَّة و جوارِهِ له - كما قدَّمناهُ عند هجرة الحبشة- إلى قوله:

«فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَإِنِّي أَرُدُّ إِلَيْكَ جِوَارَكَ وَأَرْضَى بِجِوَارِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَالنَّبِيُّ ﷺ يَوْمَئِذٍ بِمَكَّةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ لِلْمُسْلِمِينَ: «**إِنِّي أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ ذَاتَ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ**». وَهُمَا الحَرَّتَانِ، فَهَاجَرَ مَنْ هَاجَرَ قِبَلَ المَدِينَةِ، وَرَجَعَ عَامَّةُ مَنْ كَانَ هَاجَرَ بِأَرْضِ الحَبَشَةِ إِلَى المَدِينَةِ، وَتَجَهَّزَ أَبُو بَكْرٍ قِبَلَ المَدِينَةِ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللهِ

---

(١) «صحيح تفسير ابن كثير» (٢/ ٢٣٣).
(٢) أخرجه البخاري (٣٩٠٢).
(٣) له شواهد كما في «صحيح مسلم» (١١٦٢).
(٤) في «صحيحه» (٣٩٠٥).

ﷺ: «عَلَى رِسْلِكَ، فَإِنِّى أَرْجُو أَنْ يُؤْذَنَ لِى». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: وَهَلْ تَرْجُو ذَلِكَ بِأَبِى
أَنْتَ؟ قَالَ: «نَعَمْ». فَحَبَسَ أَبُو بَكْرٍ نَفْسَهُ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ لِيَصْحَبَهُ، وَعَلَفَ
رَاحِلَتَيْنِ كَانَتَا عِنْدَهُ وَرَقَ السَّمُرِ وَهُوَ الخَبَطُ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ[1].

قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: قَالَ عُرْوَةُ: قَالَتْ عَائِشَةُ: فَبَيْنَمَا نَحْنُ يَوْمًا جُلُوسٌ فِى بَيْتِ أَبِى بَكْرٍ فِى نَحْرِ الظَّهِيرَةِ قَالَ قَائِلٌ لأَبِى بَكْرٍ: هَذَا رَسُولُ اللهِ ﷺ مُتَقَنِّعًا - فِى سَاعَةٍ لَمْ يَكُنْ يَأْتِينَا فِيهَا - فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: فِدَاءٌ لَهُ أَبِى وَأُمِّى، وَاللهِ مَا جَاءَ بِهِ فِى هَذِهِ السَّاعَةِ إِلَّا أَمْرٌ.

قَالَتْ: فَجَاءَ رَسُولُ اللهِ ﷺ فَاسْتَأْذَنَ، فَأُذِنَ لَهُ فَدَخَلَ، فَقَالَ النَّبِىُّ ﷺ لأَبِى بَكْرٍ: «أَخْرِجْ مَنْ عِنْدَكَ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا هُمْ أَهْلُكَ بِأَبِى أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ: «فَإِنِّى قَدْ أُذِنَ لِى فِى الخُرُوجِ». فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: الصَّحَابَةُ بِأَبِى أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَعَمْ». قَالَ أَبُو بَكْرٍ: فَخُذْ بِأَبِى أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ إِحْدَى رَاحِلَتَىَّ هَاتَيْنِ. قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «بِالثَّمَنِ».

قَالَتْ عَائِشَةُ: فَجَهَّزْنَاهُمَا أَحَثَّ الجَهَازِ، وَصَنَعْنَا لَهُمَا سُفْرَةً فِى جِرَابٍ، فَقَطَعَتْ أَسْمَاءُ بِنْتُ أَبِى بَكْرٍ قِطْعَةً مِنْ نِطَاقِهَا فَرَبَطَتْ بِهِ عَلَى فَمِ الجِرَابِ، فَبِذَلِكَ سُمِّيَتْ ذَاتَ النِّطَاقِين.

قَالَت: ثُمَّ لَحِقَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكرٍ بِغَارٍ فِى جَبَلِ ثَورٍ، فَكَمَنَا فِيهِ ثَلاَثَ لَيَالٍ، يَبِيتُ عِندَهُمَا عَبدُ اللهِ بنُ أَبِى بَكر، وَهوَ غُلاَمٌ شَابٌّ ثَقِفٌ لَقِنٌ، فَيُدلِجُ مِن عِندِهِمَا بِسَحَرٍ، فَيُصبِحُ مَعَ قُرَيشٍ بِمَكَّةَ كَبَائِتٍ، فَلاَ يَسمَعُ أَمرًا يُكتَادَانِ بِهِ إِلاَّ وَعَاهُ، حَتَّى يَأتِيَهُمَا بِخَبَرِ ذَلِكَ حِينَ يَختَلِطُ الظَّلاَمُ، وَيَرعَى عَلَيهِمَا عَامِرُ بنُ فُهَيرَةَ مَولَى أَبِى بَكرٍ مِنحَةً مِن غَنَم، فَيُرِيحُهَا عَلَيهِمَا حِينَ يَذهَبُ سَاعَةٌ مِنَ العِشَاءِ، فَيَبِيتَانِ فِى رِسلٍ وَهوَ لَبَنُ مِنحَتِهِمَا وَرَضِيفِهِمَا، حَتَّى يَنعِقَ بِهَا عَامِرُ بنُ فُهَيرَةَ بِغَلَسٍ، يَفعَلُ ذَلِكَ فِى كُلِّ لَيلَةٍ مِن تِلكَ اللَّيَالِى الثَّلاَثِ، وَاستَأجَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكرٍ رَجُلاً مِن بَنِى الدِّيلِ، وَهوَ مِن بَنِى عَبدِ بنِ عَدِىٍّ هَادِيًا خِرِّيتًا - وَالخِرِّيتُ المَاهِرُ بِالهِدَايَةِ -

(١) وذكر بعضُهم أنّهُ عَلَفَهما ستةَ أشهرٍ.

قَد غَمَسَ حِلفًا فِي آلِ العَاصِ بنِ وَائِلِ السَّهمِيِّ، وَهوَ عَلَى دِينِ كُفَّارِ قُرَيشٍ فَأَمِنَاهُ فَدَفَعَا إِلَيهِ رَاحِلَتَيهِمَا، وَوَاعَدَاهُ غَارَ ثَورٍ بَعدَ ثَلاَثِ لَيَالٍ بِرَاحِلَتَيهِمَا صُبحَ ثَلاَثٍ وَانطَلَقَ مَعَهُمَا عَامِرُ بنُ فُهَيرَةَ وَالدَّلِيلُ فَأَخَذَ بِهِم طَرِيقَ السَّوَاحِلِ»[1].

قَالَ ابنُ شِهَابٍ: وَأَخبَرَنِي عَبدُ الرَّحمَنِ بنُ مَالِكٍ المُدلِجِيُّ وَهُوَ ابنُ أَخِي سُرَاقَةَ أَنَّ أَبَاهُ أَخبَرَهُ أَنَّهُ سَمِعَ سُرَاقَةَ بنَ مالك جُعشُم يَقُولُ: جَاءَنَا رُسُلُ كُفَّارِ قُرَيشٍ يَجعَلُونَ فِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي بَكرٍ دِيَةَ كُلِّ وَاحِدٍ مِنهُمَا مَن قَتَلَهُ أَو أَسَرَهُ، فَبَينَمَا أَنَا جَالِسٌ فِي مَجلِسٍ مِن مَجَالِسِ قَومِي بَنِي مُدلِجٍ أَقبَلَ رَجُلٌ مِنهُم حَتَّى قَامَ عَلَينَا وَنَحنُ جُلُوسٌ فَقَالَ: يَا سُرَاقَةُ إِنِّي قَد رَأَيتُ آنِفًا أَسوِدَةً بِالسَّاحِلِ أُرَاهَا مُحَمَّدًا وَأَصحَابَهُ، قَالَ سُرَاقَةُ: فَعَرَفتُ أَنَّهُم هُم، فَقُلتُ لَهُ: إِنَّهُم لَيسُوا بِهِم، وَلَكِنَّكَ رَأَيتَ فُلاَنًا وَفُلاَنًا انطَلَقُوا بِأَعيُنِنَا، ثُمَّ لَبِثتُ فِي المَجلِسِ سَاعَةً ثُمَّ قُمتُ فَدَخَلتُ فَأَمَرتُ جَارِيَتِي أَن تَخرُجَ بِفَرَسِي وَهِيَ مِن وَرَاءِ أَكَمَةٍ فَتَحبِسَهَا عَلَيَّ، وَأَخَذتُ رُمحِي فَخَرَجتُ بِهِ مِن ظَهرِ البَيتِ، فَحَطَطتُ بِزُجِّهِ الأَرضَ وَخَفَضتُ عَالِيَهُ حَتَّى أَتَيتُ فَرَسِي فَرَكِبتُهَا فَرَفَعتُهَا تُقَرِّبُ بِي حَتَّى دَنَوتُ مِنهُم، فَعَثَرَت بِي فَرَسِي فَخَرَرتُ عَنهَا فَقُمتُ فَأَهوَيتُ يَدِي إِلَى كِنَانَتِي، فَاستَخرَجتُ مِنهَا الأَزلاَمَ فَاستَقسَمتُ بِهَا أَضُرُّهُم أَم لاَ؟ فَخَرَجَ الَّذِي أَكرَهُ، فَرَكِبتُ فَرَسِي وَعَصَيتُ الأَزلاَمَ تُقَرِّبُ بِي حَتَّى إِذَا سَمِعتُ قِرَاءَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ لاَ يَلتَفِتُ، وَأَبُو بَكرٍ يُكثِرُ الاِلتِفَاتَ. سَاخَت يَدَا فَرَسِي فِي الأَرضِ حَتَّى بَلَغَتَا الرُّكبَتَينِ فَخَرَرتُ عَنهَا، ثُمَّ زَجَرتُهَا فَنَهَضَت، فَلَم تَكَد تُخرِجُ يَدَيهَا، فَلَمَّا استَوَت قَائِمَةً إِذَا لِأَثَرِ يَدَيهَا عُثَانٌ سَاطِعٌ فِي السَّمَاءِ مِثلُ الدُّخَانِ فَاستَقسَمتُ بِالأَزلاَم فَخَرَجَ الَّذِي أَكرَهُ، فَنَادَيتُهُم بِالأَمَانِ. فَوَقَفُوا فَرَكِبتُ فَرَسِي حَتَّى جِئتُهُم وَوَقَعَ فِي نَفسِي حِينَ لَقِيتُ مَا لَقِيتُ مِن الحَبسِ عَنهُم أَن سَيَظهَرُ أَمرُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقُلتُ لَهُ: إِنَّ قَومَكَ قَد جَعَلُوا فِيكَ الدِّيَةَ وَأَخبَرتُهُم أَخبَارَ مَا يُرِيدُ النَّاسُ بِهِم، وَعَرَضتُ عَلَيهِم الزَّادَ وَالمَتَاعَ فَلَم يَرزَآنِي وَلَم يَسأَلاَنِي إِلَّا أَن قَالَ: «أَخفِ عَنَّا»، فَسَأَلتُهُ أَن يَكتُبَ لِي كِتَابَ أَمنٍ، فَأَمَرَ عَامِرَ بنَ

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه» (٣٩٠٥).

- ... كَتَبَ فِي رُقعَةٍ مِن أَدِيمٍ، ثُمَّ مَضَى رَسُولُ اللهِ ﷺ[1].

... رَوَى مُحَمَّد بن إسحاق عن الزُّهريّ عن عبد الرحمن بن مالك بن ... عن أبيه، عن عمّه سُراقة، فذكرَ هذه القصّة، إلّا أنّهُ ذكر أنّهُ استقسم ... ما خرجَ من مَنزلِهِ، فخرجَ السَّهمُ الذي يَكرهُ، لا يضُرُّه، وذَكَر أنّهُ ... أربع مرَّاتٍ، وكلُّ ذلك يَستقسمُ بالأزلامِ ويَخرُجُ الذي يَكرَهُ، لا ... حَتَّى ناداهُم بالأمانِ، وسألَ أن يَكتُبَ له كِتابًا يَكونُ إمارةَ ما بينه وبين ... ﷺ، قَالَ: فكتبَ لي كتابًا في عَظمٍ، أو رُقعةٍ أو خِرقةٍ، وذكر أنّهُ جاء به ... الله ﷺ وهو بالجِعرانةِ مَرجِعَه من الطائِف، فقال له: «يومُ وفاءٍ وبِرٍّ، ... فدنَوتُ منه وأسلمتُ.

قَالَ ابنُ هشام: هُوَ عبدُ الرحمنِ بن عبد الحارثِ بن مالكِ بن جُعشُمٍ، وهذا ... قَالَهُ جيدٌ[2].

و... رجع سُراقةُ، جَعَلَ لا يَلقَى أحدًا من الطَّلَبِ إلا ردَّهُ، وقال: كُفيتم هذا الوجه.

... الله...

ثُمَّ ماذا؟

ثُمَّ حدثت بعدُ أحداثٌ، ستأتي بعدُ، إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فلقد تحمّل أبو بكر وآله في أيام الهجرة من الأذى والمتاعب الشيء الكثير.

---

(١) أخرجه البخاري معلقًا (٣٩٠٦)، ومالك بن مالك بن جعشم قَالَ عنه الحافظ في «التقريب»: مقبول.

(٢) «البداية والنهاية» (٣/ ١٩٧).

قَالَ ابنُ إسحَاقَ: وَحَدَّثَنِي يَحيَى بنُ عَبَّادِ بنِ عَبدِ الله بنِ الزّبَيرِ، أَنّ أَبَاهُ حَـ
عَن جَدّتِهِ أَسمَاءَ بِنتِ أَبِي بَكرٍ، قَالَت: لَـمَّا خَرَجَ رَسُولُ الله ﷺ وَخَرَجَ أَبُو بَـ
مَعَهُ، احتَمَلَ أَبُو بَكرٍ مَالَهُ كُلّهُ وَمَعَهُ، خَمسَةُ آلَافِ دِرهَم أَو سِتّةُ آلَافٍ، فَانطَلَـ
مَعَهُ. قَالَت: فَدَخَلَ عَلَينَا جَدّي أَبُو قُحَافَةَ وَقَد ذَهَبَ بَصَرُهُ فَقَالَ: وَالله إنّي لَا
قَد فَجَعَكُم بِمَالِهِ مَعَ نَفسِهِ. قَالَت: قُلت: كَلّا يَا أَبَتِ إنّهُ قَد تَرَكَ لَنَا خَيرًا كَثِـ
قَالَت: فَأَخَذت أَحجَارًا فَوَضَعتهَا فِي كُوّةٍ فِي البَيتِ الّذِي كَانَ أَبِي يَضَعُ مَالَهُ فِيـ
ثُمّ وَضَعت عَلَيهَا ثَوبًا، ثُمّ أَخَذت بِيَدِهِ فَقُلت: يَا أَبَتِ ضَع يَدَك عَلَى هَذَا ـ
قَالَت: فَوَضَعَ يَدَهُ عَلَيهِ فَقَالَ: لَا بَأسَ إذَا كَانَ تَرَكَ لَكُم هَذَا فَقَد أَحسَنَ، وَفِي هـ
بَلَاغٌ لَكُم. وَلَا وَالله مَا تَرَكَ لَنَا شَيئًا وَلَكِنّي أَرَدت أَن أُسَكّنَ الشّيخَ بِذَلِكَ(١).

وعن جندب بن عبد الله، قال: كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ في الغـ
فأصاب يَدَه حَجَرٌ فقال:

هَلْ أَنْتِ إِلاَّ إِصْبَعٌ دَمِيتِ ... وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ مَا لَقِيتِ(٢)

إنّهُ إخلاص يُعلِنُ عن نفسه، وإيمانٌ أثبت من الجبال الرواسي، والأُمّة في هـ
العصر لن تنهض من كبوتها، ولن تسترد عافيتها، إلّا بهذا النوع من الرجال.

عباد الله...

وللحديث بقية، إن شاء الله تعالى، فإلى اللقاء.

اللّهُمَّ أبرم لهذه الأُمّة أمر رشد، يُعزُّ فيه أهلُ طاعتك، ويُذَلّ فيه أهلُ معصيتـ ويُؤمَرَ فيه بالمعروف، ويُنْهَى فيه عن المنكر.

آمين... آمين... آمين.

۞۞۞۞۞

---

(١) إسناده حسن: رجاله ثقات، وقد صرح ابن إسحاق بالتحديث، انظر «السيرة» لابن هـ (٢/ ١٠٩).

(٢) صحيح: أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٢/ ٤٨٠).

الخطبة الخامسة والسبعون:

[ب] الهجرة المباركة

ـحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن الهجرة، وأسأل الله تعالى التوفيق.

عباد الله...

قال اللَّـهُ تَعَالَى: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠]، يقول اللَّـهُ تعالى مؤنبًا لِمَن تَخَلَّف عن الجهاد مع الرسول ﷺ: ﴿إِلَّا

تَنصُرُوهُ﴾ أنتم، فإنَّ الله ناصره ومؤيِّدُه ومُظفِرُه، كما نَصَره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُو﴾ من أهلِ مكَّة هاربًا ليس معه غيرُ صاحبِهِ وصديقه أبي بكرٍ، ليس معه غيرُهُ، ولهذا قال: ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ أي: وقد لجأ إلى الغارِ فأقاما فيه ثلاثة أيام ليسكُنَ الطَّلَبُ عنهما، وذلك لأنَّ المشركين حين فقَدوهما - كما تقدَّم - ذهبوا في طلبِهما كلَّ مذهبٍ من سائر الجهاتِ، وجعلوا لمن ردَّهما أو أحدَهما مائةً من الإبل، واقتصُّوا آثارهما حَتَّى اختلطَ عليهم، وكان الذي يَقتَصُّ الأثر لقُرَيشٍ سُراقة بن مالك بن جُعشُم - كما تقدَّم - فصعدوا الجبل الذي هما فيه، وجَعلوا يمُرُّون عن باب الغارِ فتُحاذِي أرجُلُهم لبابِ الغارِ ولا يَرَونَهما، حِفظًا من الله لهما[1].

وعَنْ أَنَسِ بن مالك، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ حَدَّثَهُ قَالَ: قُلْتُ لِلنَّبِيِّ ﷺ ونحن في الغار: لَوْ أَنَّ أَحَدَهُمْ نَظَرَ إِلَى قَدَمَيْهِ لَأَبْصَرَنَا تَحْتَ قَدَمَيْهِ، فَقَالَ: «يَا أَبَا بَكْرٍ مَا ظَنُّكَ بِاثْنَيْنِ اللَّهُ ثَالِثُهُمَا»[2].

عباد الله...

وهناك آيات ومعجزات حدثت - غير التي تقدَّمت - والنبيُّ ﷺ في طريقه من مكَّة إلى المدينة، منها:

قال الإمامُ أحمد: حَدَّثَنَا عَمرُو بنُ مُحَمَّدٍ أَبُو سَعِيدٍ العَنقَزِيَّ قَالَ: حَدَّثَنَا إِسرَائِيلُ، عَن أَبِي إِسحَاقَ، عَنِ البَرَاءِ بنِ عَازِبٍ قَالَ: «اشتَرَى أَبُو بَكرٍ مِن عَازِبٍ سَرجًا بِثَلَاثَةَ عَشَرَ دِرهَمًا، فَقَالَ أَبُو بَكرٍ لِعَازِبٍ: مُر البَرَاءَ فَليَحمِلهُ إِلَى مَنزِلِي فَقَالَ: لَا حَتَّى تُحَدِّثَنَا كَيفَ صَنَعتَ حِينَ خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنتَ مَعَهُ؟

فَقَالَ أَبُو بَكرٍ: خَرَجنَا فَأَدلَجنَا فَأَحثَثنَا يَومَنَا وَلَيلَتَنَا حَتَّى أَظهَرنَا، وَقَامَ قَائِمُ الظَّهِيرَةِ فَضَرَبتُ بِبَصَرِي هَل أَرَى ظِلًّا نَأوِي إِلَيهِ؟ فَإِذَا أَنَا بِصَخرَةٍ فَأَهوَيتُ إِلَيهَا فَإِذَا بَقِيَّةُ ظِلِّهَا، فَسَوَّيتُهُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَفَرَشتُ لَهُ فَروَةً وَقُلتُ: اضطَجِع يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَاضطَجَعَ ثُمَّ خَرَجتُ أَنظُرُ هَل أَرَى أَحَدًا مِن الطَّلَبِ، فَإِذَا أَنَا بِرَاعِي

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ١٩٤).

(٢) رواه البخاري (٣٦٥٣)، ومسلم (٢٣٨١)، وأحمد (١/ ٤).

ـتُ: لِمَن أَنتَ يَا غُلَامُ؟ فَقَالَ: لِرَجُلٍ مِن قُرَيشٍ فَسَمَّاهُ فَعَرَفتُهُ، فَقُلتُ: هَل ـمِن لَبَنٍ؟ قَالَ: نَعَم، قُلتُ: هَل أَنتَ حَالِبٌ لِي؟ قَالَ: نَعَم، قَالَ: فَأَمَرتُهُ ـ شَاةً مِنهَا ثُمَّ أَمَرتُهُ فَنَفَضَ ضَرعَهَا مِن الغُبَارِ ثُمَّ أَمَرتُهُ فَنَفَضَ كَفَّيهِ مِن ـ وَمَعِي إِدَاوَةٌ عَلَى فَمِهَا خِرقَةٌ فَحَلَبَ لِي كُثبَةً مِن اللَّبَنِ فَصَبَبتُ - يَعنِي ـ عَلَى القَدَحِ حَتَّى بَرَدَ أَسفَلُهُ، ثُمَّ أَتَيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَوَافَيتُهُ وَقَد استَيقَظَ، ـ اشرَب يَا رَسُولَ الله ، فَشَرِبَ حَتَّى رَضِيتُ، ثُمَّ قُلتُ: هَل أَنَى الرَّحِيلُ؟ ـ فَرَتَحَلنَا وَالقَومُ يَطلُبُونَا، فَلَم يُدرِكنَا أَحَدٌ مِنهُم إِلَّا سُرَاقَةُ بنُ مَالِكِ بنِ جُعشُم عَلَى فَرَسٍ لَهُ فَقُلتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ هَذَا الطَّلَبُ قَد لَحِقَنَا، فَقَالَ: «**لَا تَحزَن إِنَّ ـ مَعَنَا**».

حَتَّى إِذَا دَنَا مِنَّا فَكَانَ بَينَنَا وَبَينَهُ قَدرُ رُمحٍ أَو رُمحَينِ أَو ثَلَاثَةٍ، قُلتُ: يَا رَسُولَ ـ هَذَا الطَّلَبُ قَد لَحِقَنَا وَبَكَيتُ، قَالَ: «**لِمَ تَبكِي؟**» قُلتُ: أَمَا وَاللَّهِ مَا عَلَى نَفسِي ـكِي، وَلَكِن أَبكِي عَلَيكَ، قَالَ: فَدَعَا عَلَيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اكفِنَاهُ بِمَا ـشِئتَ**»، فَسَاخَت قَوَائِمُ فَرَسِهِ إِلَى بَطنِهَا فِي أَرضٍ صَلدٍ وَوَثَبَ عَنهَا، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ ـ عَلِمتُ أَنَّ هَذَا عَمَلُكَ فَادعُ اللَّهَ أَن يُنجِيَنِي مِمَّا أَنَا فِيهِ، فَوَاللَّهِ لَأُعَمِّيَنَّ عَلَى مَن ـرَائِي مِن الطَّلَبِ، وَهَذِهِ كِنَانَتِي فَخُذ مِنهَا سَهمًا فَإِنَّكَ سَتَمُرُّ بِإِبِلِي وَغَنَمِي فِي مَوضِعِ كَذَا وَكَذَا فَخُذ مِنهَا حَاجَتَكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**لَا حَاجَةَ لِي فِيهَا**». ـ: وَدَعَا لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأُطلِقَ فَرَجَعَ إِلَى أَصحَابِهِ، وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنَا مَعَهُ حَتَّى قَدِمنَا المَدِينَةَ، فَتَلَقَّاهُ النَّاسُ فَخَرَجُوا فِي الطَّرِيقِ وَعَلَى الأَجَاجِيرِ فَاشتَدَّ الخَدَمُ وَالصِّبيَانُ فِي الطَّرِيقِ يَقُولُونَ: اللَّهُ أَكبَرُ، جَاءَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، جَاءَ مُحَمَّدٌ.

قَالَ: وَتَنَازَعَ القَومُ أَيُّهُم يَنزِلُ عَلَيهِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَنزِلُ اللَّيلَةَ عَلَى بَنِي النَّجَّارِ أَخوَالِ عَبدِ المُطَّلِبِ لِأُكرِمَهُم بِذَلِكَ**»،فَلَمَّا أَصبَحَ غَدَا حَيثُ أُمِرَ.

قَالَ البَرَاءُ بنُ عَازِبٍ: أَوَّلُ مَن كَانَ قَدِمَ عَلَينَا مِن المُهَاجِرِينَ مُصعَبُ بنُ عُمَيرٍ، أَخُو بَنِي عَبدِ الدَّارِ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَينَا ابنُ أُمِّ مَكتُومٍ الأَعمَى أَخُو بَنِي فِهرٍ، ثُمَّ قَدِمَ عَلَينَا عُمَرُ بنُ الخَطَّابِ فِي عِشرِينَ رَاكِبًا.

فَقُلْنَا: مَا فَعَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ؟ فَقَالَ: هُوَ عَلَى أَثَرِي، ثُمَّ قَدِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبُو بَكرٍ مَعَهُ.

قَالَ البَرَاءُ: وَلَمْ يَقدَم رَسُولُ اللهِ ﷺ حَتَّى حَفِظتُ سُوَرًا مِن المُفَصَّلِ»[1].

وعن قيسِ بن النُّعمانِ قال: لَـمَّا انطلق النبيُّ ﷺ وأبو بكرٍ مُستَخفِينَ، مرَّا بعبدٍ يَرعَى غَنَمًا، فاستسقيَاهُ اللبن فقال: ما عندي شاةٌ تُحلَبُ، غير أنه هاهنا عناقٌ حملت أولَ الشِّتاءِ، وقد أخدَجَت وما بَقِي لها لبنٌ، فقال ﷺ: «ادعُ بها» فدعا بها فاعتَقَلَها النبيُّ ﷺ ومَسَحَ ضَرعَها، ودعا حتَّى أنزَلَت، وجاء أبو بكرٍ بمِجَنٍّ فحلَبَ فسَقَى أبو بكرٍ، ثُمَّ حلبَ فشَرِبَ، فقال الراعي: بالله مَن أنت؟ فوالله ما رأيتُ مثلك قطُّ. قال: «أَوَتَرَاكَ تكتُمُ عليَّ حتَّى أُخبِرَكَ؟» قال: نعم، قال: «فَإنِّي مُحَمَّدٌ رسولُ الله»، فقال: أنت الذي تَزعُمُ قريشٌ أنَّهُ صابِئٌ؟ قال: «إنَّهُم لَيَقُولون ذلك». قال: فأشهَدُ أنَّك نبيٌّ، وأشهدُ أنَّ ما جئتَ به حقٌّ، وأنَّهُ لا يفعلُ ما فَعَلتَ إلَّا نبيٌّ، وأنا مُتَّبِعُكَ، قال: «إنَّكَ لا تَستَطِيعُ ذلك يومَكَ هذا، فإذا بَلَغَكَ أنِّي قد ظَهَرتُ فأتِنا»[2].

عباد الله...

ومن الفوائد والدروس والعظات المستفادة من حادث الهجرة:

أولاً: الهجرة النبويّة نقطة تحوّل في تاريخ الحياة:

كانت الهجرة النبوية من مكَّة المشرفة إلى المدينة المنورة أعظم حدث حوَّل مجرى التاريخ، وغيَّر مسيرة الحياة ومناهجها التي كانت تحياها، وتعيش محكومة بها في صورة قوانين ونظم وأعراف وعادات وأخلاق وسلوك للأفراد والجماعات وعقائد وتعبدات وعلم ومعرفة، وجهالة وسفه، وضلال وهدى، وعدل وظلم[3].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ٢)، والبزار (٥٠)، والبخاري (٣٦١٥)، ومسلم (٤/ ٢٣١٠) وغيرهم.

(٢) إسناده حسن، رجاله ثقات: رواه أبو يعلى الموصلي.

(٣) «محمد رسول الله» لمحمد صادق عرجون (٢/ ٤٢١).

ـ الهجرة من سُنن الرسل الكرام:

ـ الهجرة في سبيل الله سُنّة قديمة، ولم تكن هجرة نبيِّنا مُحَمَّد ﷺ بدعًا في
ـ لنصرة عقائدهم، فلئن كان قد هاجر من وطنه ومسقط رأسه من
ـ الدعوة حفاظًا عليها وإيجاد بيئة خصبة تتقبلها وتستجيب لها وتذود عنها،
ـ هاجر عدد من إخوانه من الأنبياء قبله من أوطانهم لنفس الأسباب التي
ـ للهجرة، وذلك أن بقاء الدعوة في أرض قاحلة لا يخدمها، بل يعوق
ـ ويشل حركتها، وقد يعرضها للانكماش داخل أضيق الدوائر، وقد قصّ
ـ القرآن الكريم نماذج من هجرات الرسل وأتباعهم من الأمم الماضية لتبدو
ـ في وضوح سُنة من سُنن الله في شأن الدعوات يأخذ بها كل مؤمن من بعدهم
ـ حين بينه وبين إيمانه وعزته، واستخف بكيانه ووجوده واعتدى على مروءته
ـ [1].

ـ: دقة التخطيط والأخذ بالأسباب:

ـ ن من تأمل حادثة الهجرة ورأى دقة التخطيط فيها ودقة الأخذ بالأسباب
ـ بتدائها إلى انتهائها، ومن مقدماتها إلى ما جرى بعدها، يدرك أن التخطيط
ـ د بالوحي في حياة رسول الله ﷺ كان قائمًا، وأن التخطيط جزء من السُنّة
ـ بوية، وهو جزء من التكليف الإلهي في كل ما طُولب به المسلم، وأن الذين
ـ يميلون إلى العفوية بحجة أن التخطيط وإحكام الأمور ليسا من السُّنّة، أمثال
هؤلاء مخطئون ويجنون على أنفسهم وعلى المسلمين[2].

فعندما حان وقت الهجرة للنبي ﷺ وشرع النبي ﷺ في التنفيذ نلاحظ الآتي:

(أ) وجود التنظيم الدقيق للهجرة حتَّى نجحت رغم ما كان يكتنفها من صعاب وعقبات؛ وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروسًا دراسة وافية، فمثلًا:

---

(١) نفس المرجع.
(٢) «الأساس في السُّنة» للأستاذ سعيد حوى (١/ ٣٥٧).

١- جاء رسول الله ﷺ إلى بيت أبي بكر - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - في وقت شدة حـ - الوقت الذي لا يخرج فيه أحد، بل من عادته لم يكن يأتي له في ذلك الوقـ لماذا؟ حتَّى لا يراه أحد.

٢- إخفاء شخصيته ﷺ أثناء مجيئه للصديق - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - وجاء إلى بيت الصديق متلثمًا، لأن التلثم يقلل من إمكانية التعرّف على معالم الوجه المتلثم

٣- أمر ﷺ أبا بكر - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - أن يُخْرِج مَن عنده، ولما تكلم لم يبيّن الأمر بالهجرة دون تحديد الاتجاه.

٤- وكان الخروج ليلًا ومن باب خلفي في بيت أبي بكر - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ -.

٥- وبلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة بذ بخبير يعرف مسالك البادية ومسارب الصحراء، ولو كان ذلك الخبير مشر ما دام على خُلق ورزانة، وفيه دليل على أن الرسول ﷺ كان لا يُحجم عـ الاستعانةِ بالخبراتِ مهما يكن مصدرها عند الضرورة[2].

(ب) انتقاء شخصيات عاقلة لتقوم بالمعاونة في شئون الهجرة، ويُلاحَظ ـ هذه الشخصيات كلها تترابط برباط القرابة، أو برباط العمل الواحد، مما يجعـ من هؤلاء الأفراد وحدة متعاونة على تحقيق الهدف الكبير.

(جـ) وضع كل فرد من أفراد هذه الأسرة في عمله المناسب، الذي يجيد القيـ به على أحسن وجه، ليكون أقدر على أدائهِ والنهوض بتبعاته.

(د) فكرة نوم علي بن أبي طالب - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - مكان الرسول ﷺ، فكر ناجحة، قد ضلَّلت القوم وخدعتهم، وصَرَفتهم عن الرسول ﷺ حتَّى خرج في جنح الليل بمعيّة الله وهم نائمون، ولقد ظلت أبصارهم معلّقة بعد اليقظ بمضجع الرسول ﷺ، فما كانوا يَشُكُّون في أَنَّهُ ما يزال نائمًا، مُسَجًّى في بردته، بيـ النائم هو علي بن أبي طالب - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ -[3].

---

(١) «في السيرة النبوية قراءة في جوانب الحذر والحيطة» د. إبراهيم على محمد (١٤١).
(٢) «الهجرة في القرآن الكريم» للأستاذ أحزمي جزولي (٣٦١).
(٣) «محاضرات في السيرة النبوية» د. طه أبو عُبية (٢٨٥، ٢٨٦).

ـ عون الله عز وجل ونصره للمؤمنين حينما تنتهي الأسباب، وتكون فوق حيث تبشري المطلوب:

قال الله تعالى في ذِكر الهجرة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لاَ تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٤٠].

قال الغزالي: «والجنود التي يخذل بها الباطل وينصر بها الحقّ ليست مقصورة على نوع معين من السلاح، ولا صورة خاصة من الخوارق، إنها أعمّ من أن تكون مادية أو معنوية، وإذا كانت مادية فإن خطره لا يتمثل في فخامتها، فقد تفتك جرثومة لا تراها العين بجيش ذي لجَبٍ، ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١]. ومن صنع الله لنبيه أن تَعمى عنه عيون عدَاته وهو منهم على مد الطرف، ولم يكن ذلك محاباة من القدر لقوم فرطوا في أسباب النجاة، بل هو مكافأة القدر لقوم لم يَدَعُوا وسيلة من وسائل الحذر إلا اتخذوها، وكم من خطة يضعها أصحابها فيبلغون بها نهاية لا تُقَارَن تمر بها فترات عصيبة لأمور فوق الإرادة أو وراء الحُسبان، ثُمَّ تستقر أخيرًا وفق مقتضيات الحكمة العليا، وفي حدود قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ [يوسف: ٢١].ا.هـ»[1].

خامسًا: جواز الاستعانة بالمشركين عند الضرورة، مع الحيطة والحذر:

يقول الدكتور هاشم عبد الراضي: «يجوز للمسلم أن يستعين بغير المسلم، فقد دخل النبي ﷺ مكّة في جوار المطعم بن عدي وهو مشرك، ودعا أصحابه للهجرة إلى أرض الحبشة التي يحكمها ملك نصراني «**لا يُظلم عنده أحد**»، واستعمل عبد الله بن أُريقط دليلًا في الهجرة، على أن يضع المسلم في حسبانه أن الاستعانة تنتهي بانتهاء الضرورة حتّى لا يحدث نوع من الموالاة بين المسلم وغيره، كما أن عليه أيضًا أن يأخذ حذره وحيطته أثناء الاستعانة به، وأن يحتفظ بهذا الجميل كما

(١) «فقه السيرة» لفضيلته.

احتفظ النبي ﷺ بصنيع المطعم بن عدي[(١)].

عباد الله...

وهناك دروس وعظات وفوائد أخرى، سنلتقي معها بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الدروس والعظات والفوائد المستفادة من الهجرة أيضًا:

سادسًا: القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء:

كان سراقة بن مالك بن جعشم في بداية أمره يريد القبض على رسول الله ﷺ ويسلمه لزعماء مكَّة، لينال مائة ناقة، وإذا بالأمور تنقلب رأسًا على عقب. ويصبح يَرُدُّ الطلب عن رسول الله ﷺ، فجعل لا يلقي أحدًا من الطلب إلا رده قائلًا: «كُفيتُم هذا الوجه»، فلما اطمأنَّ إلى أن النبي ﷺ وصل إلى المدينة جعل سراقة يقص ما كان من قصته وقصة فرسه، واشتهر هذا عنه، وتناقلته الألسنة حتَّى امتلأت به نوادي مكَّة، فخاف رؤساء قريش أن يكون ذلك سببًا لإسلام بعض أهل مكَّة، وكان سراقة أمير بني مُدلَج، ورئيسَهم، فكتب أبو جهل إليه:

بني مُدلَج إني أخاف سفيهكم ... سُراقة مستغوٍ لنصرِ مُحَمَّدِ
عليكم به ألا يفرِّق جمعَكم ... فيصبح شتى بعد عز وسُؤدُدِ

فقال سراقة يرد على أبي جهل:

---

(١) يشير ذلك إلى حديث البخاري «كتاب المغازي/ باب شهود الملائكة» أن النبي ﷺ قال: «لو كان المطعم بن عدي حيًّا ثم كلمني في هؤلاء النَّتنى لتركتهم له» أي: قتلى المشركين في بدر. د. هاشم عبد الراضي «صفحات من السيرة النبوية» (ص٧٨) ط. دار الثقافة العربية، القاهرة، ١٩٩٧م.

ـ حَكَمِ والله لَو كُنتَ شَاهِدًا لأمـرِ جِـوَادِي إذْ تَـسَوَّخُ قـوائِمُهُ
عَلِمتَ ولم تَـشكُكْ بأن محمـدًا رَسُـولٌ وبُـرهانٌ فَمَـن ذا يُقاومـهُ
عَليكَ فكُفَّ القـوم عـنه فـإنني أرى أمـره يـومًا سـتبدو معالمـهُ
بأمـرِ تَـود الـناسُ فـيه بأسـرِهم بـأن جمـيع الـناس طُرًّا مـسالمهُ[1]

سابعًا: وللمرأة المسلمة دور في الهجرة المباركة:

وقد لمعت في سماء الهجرة أسماء كثيرة كان لها فضل كبير ونصيب وافر من جهد. منها:

من النِّساء: عائشة بنت أبي بكر الصِّدِّيق رضي الله عنها، التي حفظت لنا القصة ووعتها وبلَّغتها للأُمّة، وأُمّ سلمة المهاجرة الصبور، وأسماء ذات النطاقين رضي الله عنها، التي ساهمت في تموين الرسول ﷺ وصاحبه في الغار بالماء والغذاء، وكيف أنها تحملت الأذى في سبيل الله، فقد حدثتنا عن ذلك فقالت: «لمَّا خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - أتانا نفرٌ من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده - وكان فاحشًا خبيثًا - فلطم خدِّي لطمة طرح منها قُرطي، قالت: ثُمَّ انصرفوا»[2].

فهذا درس من أسماء - رَضِيَ اللَّهُ عنها - تعلمه لنساء المسلمين جيلًا بعد جيل، كيف تُخفي أسرارَ المسلمين عن الأعداء، وكيف تقف صامدةً شامخة أمام قوى البغي والظلم.

وأما درسها الثاني البليغ: فعندما دخل عليها جدها أبو قحافة، وقد ذهب بصره، فقال: «والله إني لأراه قد فجعكم بماله مع نفسه، قالت: كلا يا أبتِ، ضع يديك على هذا المال، قالت: فوضع يده عليه، فقال: لا بأس إذا كان ترك لكم هذا

(١) «السيرة النبوية» لأبي شهبة (١/ ٤٩٤).
(٢) «الهجرة النبوية المباركة» د. عبد الرحمن البر (١٢٦، ٢٠٦).

فقد أحسن، وفي هذا بلاغ لكم»، ولا والله ما ترك لنا شيئًا، ولكني أردت أن أسكّن الشيخ بذلك[١].

وبهذه الفطنَة والحكمة سترت أسماء أباها، وسكّنت قلب جدها الضرير، من غير أن تكذب، فإن أباها قد ترك لهم حقًّا هذه الأحجار التي كوّمتها لتطمئن بها نفس الشيخ، إلا أنَّهُ قد ترك لهم معها إيمانًا بالله لا تزلزله الجبال، ولا تحركه العواصف الهوج، ولا يتأثر بقلة أو كثرة في المال، وورثَّهم يقينًا وثقة به لا حدَّ له. وغرس فيهم همة تتعلق بمعالي الأمور، ولا تلتفت إلى سفاسفها، فضرب بهم للبيت المسلم مثالًا عزّ أن يتكرر، وقلّ أن يوجد نظيره[٢].

عباد الله...

والهجرة لا تقتصر على ترك بيئة الكفر إلى بيئة الإيمان، ولكنها أعمّ من ذلك:

روى مسلم في «صحيحه» عَنْ أَبِي عُثْمَانَ قَالَ: أَخْبَرَنِي مُجَاشِعُ بْنُ مَسْعُودٍ السُّلَمِيُّ قَالَ: جِئْتُ بِأَخِي أَبِي مَعْبَدٍ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ بَعْدَ الفَتْحِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايِعْهُ عَلَى الهِجْرَةِ، قَالَ: «قَدْ مَضَتْ الهِجْرَةُ بِأَهْلِهَا»، قُلْتُ: فَبِأَيِّ شَيْءٍ تُبَايِعُهُ؟ قَالَ: «عَلَى الإِسْلَامِ وَالجِهَادِ وَالخَيْرِ».

قَالَ أَبُو عُثْمَانَ: فَلَقِيتُ أَبَا مَعْبَدٍ فَأَخْبَرْتُهُ بِقَوْلِ مُجَاشِعٍ فَقَالَ: صَدَقَ.

وروى مسلم أيضًا عن عبد الله بن عمرو بن العاص، وفضالة بن عبيد الأنصاري أن النبي ﷺ قال: «المُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الخَطَايَا وَالذُّنُوبَ».

فإلى الهجرة أيها المسلمون، إلى هَجر الخطايا والذنوب، وهجر ما يخالف تعاليم الإسلام في بيوتنا، وما نقوم به من أعمالنا، وهجر الضعف والبطالة والإهمال، والترف والكذب والرياء ووضع الأشياء في غير موضعها[٣].

---

(١) تقدم.
(٢) «محاضرات في السيرة النبوية المطهرة» د. أبو عبية، باختصار.
(٣) «إلهامات الهجرة» للأستاذ محب الدين الخطيب (١٤).

الخطبة السادسة والسبعون:

دخول النبيّ ﷺ المدينة، وبناء المسجد

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبي ﷺ.

عباد الله ...

بلغ الأنصارَ مخرجُ رسولِ الله ﷺ مِن مكَّةَ، وقصدُه المدينة، وكانوا يخرجونَ كُلَّ يوم إلى الحرَّة ينتظِرونه أول النهار، فإذا اشتد حرُّ الشمس، رجعُوا على عادتهم إلى منازلهم، فلما كان يومُ الاثنين ثاني عشر ربيع الأول على رأس ثلاث عشرة سنةً مِن النبوة، خرجُوا على عادتهم، فلما حَمِيَ حَرُّ الشمس رجعوا، وصَعِدَ رجل من اليهود

على أطم من آطام المدينة لبعض شأنه، فرأى رسولَ الله ﷺ وأصحابه مُبيِّضِينَ[١]. يزولُ بهم السرابُ، فصرخ بأعلى صوته: يا بنى قَيْلَةَ؛ هذا صَاحِبُكم قد جاء، هذا جَدُّكُم[٢] الذى تنتظرونه، فبادر الأنصار إلى السلاح ليتلقَّوْا رسولَ الله ﷺ. وسُمِعَتِ الرَّجَّةُ والتَّكْبِيرُ فى بنى عمرو بن عوف، وكبَّر المسلمون فرحًا بقُدومه. وخرجوا للقائه، فتلقَّوْه وحيَّوْه بتحية النبوة. فأحدقوا به مطيفين حوله، والسَّكينة تغشاه، والوحى ينزِل عليه ﴿فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلاهُ وجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ، وَالْمَلائِكَةُ بَعْدَ ذَلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، فسار حتى نزل بقُباء فى بنى عمرو بن عوف، فنزل على كُلْثُوم بْنِ الهِدْم. وقيل: بل على سَعْدِ بن خَيْثَمَةَ، والأول أثبت، فأقام فى بنى عمرو بن عوف أربع عشرَةَ ليلةً وأسَّس مسجِدَ قُباء، وهو أوَّلُ مسجد، أُسِّسَ بعد النبوة[٣].

فلما كان يوم الجمعة رَكِبَ بأمر الله له، فأدركته الجمعةُ فى بنى سالم بن عوف. فجمَّع بهم فى المسجد الذى فى بطن الوادى.

ثم رَكِبَ، فأخذوا بِخِطَام راحلته، هَلُمَّ إلى العدد والعُدَّة والسلاح والمنعة. فقال: «خَلُّوْا سَبِيلَهَا، فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» فلم تزل ناقته سائرة به لا تمرُّ بدارٍ من دُور الأنصار إلا رغِبُوا إليه فى النزول عليهم، ويقول: «دَعُوهَا فإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ» فسارت حتَّى وصلت إلى موضع مسجده اليومَ، وبركت، ولم ينزل عنها حتى نَهَضَتْ وسَارَتْ قليلًا، ثم التفتت، فرجعت، فبركت فى موضعها الأول، فنزل عنها. وذلك فى بنى النجار أخوالِهِ ﷺ[٤].

وكان من توفيق الله لها، فإنه أحبَّ أن ينزِل على أخواله، يُكرمهم بذلك. فجعل الناس يُكلِّمون رسولَ الله ﷺ فى النزول عليهم، وبادر أبو أيوب الأنصارى إلى رحله، فأدخله بيتَه، فجعل رسولُ الله ﷺ يقول: «الْمَرْءُ مَعَ رَحْلِهِ

---

(١) عليهم ثياب بيض.
(٢) جدكم: حظكم وصاحب دولتكم الذي تتوقعونه.
(٣) صحيح بنحوه: أخرجه الحاكم والبخاري (٣٩٠٦).
(٤) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣٧) من مرسل شرحبيل بن سعد، وهو تابعي قال في «التقريب» (٢٧٦٤): صدوق، اختلط بآخره.

... سعدُ بن زرارة، فأخذ بزمام راحلته، وكانت عنده[١]، وأصبح كما قال أبو ... صِرمة الأنصارى، وكان ابن عباس يختلِف إليه يتحفَّظُ منه هذه الأبيات:

ثَـوَى فى قُرَيْش بضْعَ عَشْـرَةَ حِجَّةً ... يُذَكِّـرُ لَـوْ يَلْقَـى حَبيـبًا مُوَاتِـيَا
وَيَعْـرِضُ فـى أهْلِ المَوَاسِـمِ نَفْسَهُ ... فَلَـمْ يَـرَ مَـنْ يُؤوِي وَلَـمْ يَـرَ دَاعِـيَا
فَلَمَّـا أَتَانَـا وَاسْتَقَرَتْ بِـهِ النَّـوَى ... وأَصْـبَحَ مَـسْرُورًا بِطَيْبَـةَ رَاضِـيَا
وَأَصْبَحَ لاَ يَخْـشَى ظُلاَمَـةَ ظَـالِمٍ ... بَعِـيدٍ وَلاَ يَخْـشَى مِـنَ النَّاسِ بَاغِـيَا
بَذَلْنَا لَـهُ الأَمْـوَالَ مِـنْ حِـلِّ مَالِنَـا ... وَأَنْفُـسَنَا عِـنْدَ الوَغَـى والتآسِـيَا
نُعَـادِى الَّذِى عَادَى مِنَ النَّاسِ كُلِّهِمْ ... جَمِـيعًا وَإِنْ كَـانَ الحَبِـيبَ المُـصَافِيَا
وَنَعْلَـمُ أَنَّ اللهَ لاَ رَبَّ غَيْـرُهُ ... وَأَنَّ كِـتَابَ اللَّـهِ أَصْـبَحَ هَادِيَـا

قال ابنُ عباس: «كان رسولُ الله ﷺ بمكة، فأُمِرَ بالهِجْرَةِ وأُنزلَ عَلَيْهِ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَدْخِلْنِى مُدْخَلَ صِدْقٍ وَأَخْرِجْنِى مُخْرَجَ صِدْقٍ وَاجْعَل لِّى مِن لَّدُنْكَ سُلْطَانًا نَّصِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٠]»[٢].

قال قتادة: «أخرجه الله مِن مكَّة إلى المدينة مُخْرَجَ صدق ونبيُّ الله يعلم أنه لا طاقة له بهذا الأمر إلا بسلطان، فسأل الله سُلطانًا نصيرا، وأراه اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ دار الهجرة، وهو بمكَّة فَقَالَ: «أُرِيتُ دَارَ هِجْرَتِكُمْ بِسَبْخَةٍ ذَاتِ نَخْلٍ بَيْنَ لابَتَيْنِ»[٣].

وذكر الحاكم فى «مستدركه» عن عليّ بن أبى طالب أن النبيَّ ﷺ قال لجبريل: «مَنْ يُهَاجِرُ مَعِي؟ قال: أَبُو بَكرٍ الصِّدِّيقُ»[٤].

قال البراءُ: «أَوَّلُ مَن قَدِمَ عَلَيْنَا مِنْ أصحَابِ رسولِ الله ﷺ مُصْعَبُ بنُ عُمير وابنُ أُمِّ مكتوم، فجعلا يُقْرِئانِ النَّاسَ القرآنَ، ثم جاء عمارُ وبلالُ وسعدٌ، ثم جاء عمرُ بنُ الخطَّابِ رضى الله عنه فى عشرين راكبًا، ثُمَّ جاء رَسُولُ اللهِ ﷺ، فما رأيتُ

(١) كما في «صحيح البخاري» (٣٩٣٢).
(٢) الخبر رواه الترمذي (٣١٥٠)، وضعفه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٣٩٠٥)، وأحمد (٦/ ١٩٨).
(٤) أخرجه الحاكم (٤٢٦٦)، وقال الذهبي في «التلخيص»: صحيح غريب.

النَّاسَ فَرِحُوا بشيءٍ كَفَرحِهِمْ بِهِ حَتَّى رَأَيْتُ النِّسَاءَ والصِّبْيَانَ والإِمَاءَ يَقُولُو هَذَا رَسُولُ الله قَدْ جَاءَ»[(١)].

وقال أنس: «شهدتُه يومَ دخلَ المدينة فما رأيتُ يومًا قطُّ، كان أحسنَ و أضوأَ مِن يوم دخلَ المدينة علينا، وشهدتُه يَوْمَ ماتَ، فما رأيتُ يومًا قطُّ، كان أقبح ولا أظلمَ مِن يومِ مات»[(٢)].

فأقام فى منزل أبى أيوب حتى بنى حُجَرَه ومسجدَه، وبعثَ رسولُ الله ﷺ وهو فى منزل أبي أيوب زيدَ بْنَ حارِثة وأبا رافع، وأعطاهما بَعِيرَيْنِ وخمسمائة دره إلى مكة فَقَدِمَا عليه بفاطمة وأُمِّ كلثوم ابنتيه، وسَوْدَةَ بنتِ زمعة زوجتِهِ، وأُسا ابنِ زيد، وأُمَّه أُم أيمن، وأما زينبُ بنت رسول الله ﷺ فلم يُمَكِّنْهَا زوجُها العاص بن الربيع من الخروج، وخَرج عبدُ الله بن أبى بكر معهم بِعيال أبى بكر ومنهم عائشة فنزلوا فى بيت حارثة بن النعمان[(٣)].

عباد الله...

وعن قصّة بناء المسجد يحدِّثنا الزُّهريّ - رحمه الله تَعَالى - فيقول: «بَرَكَتْ نا النبيِّ ﷺ مَوْضِع مسجده وهو يومئذ يُصلِّي فيه رجالٌ من المسلمين، وكان مِرْبَ لِسَهْلٍ وَسُهَيْل غلامين يتيمين من الأنصار، كانا فى حَجْرِ أسعد بنِ زُرارة، فسا رسولُ الله ﷺ الغلامَيْنِ بالمِرْبَدِ، لِيتخذَهُ مسجدًا، فقالا: بل نَهَبُهُ لَكَ يَا رَسُولَ الله فَأَبَى رَسُولُ الله ﷺ، فَابْتَاعَهُ مِنْهُمَا بِعَشْرَةِ دَنَانِيرَ، وكانَ جِدَارًا لَيْسَ لَهُ سَقْفٌ وقِبلتهُ إلى بَيْتِ المقدِسِ، وكانَ يُصلِّي فِيهِ ويُجَمِّعُ أسعدُ بن زرارة قبلَ مَقْدَم رَسُو الله ﷺ، وكان فيهِ شَجَرَةُ غَرْقَدٍ وخِرَبٌ ونَخْلٌ وَقُبورٌ لِلمُشْرِكِينَ، فَأَمَرَ رسولُ ا ﷺ بالقبور فنُبِشَتْ، وبالخرب فَسُوِّيت وبالنَّخلِ والشَّجَرِ فقطعت وصُفَّت في قِبلة المسجد، وجعلَ طولَه مما يلى القِبْلَةَ إلى مؤخره مائةَ ذراع، والجانبين مثلَ ذلك

(١) أخرجه البخاري (٣٩٢٥).
(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ١٢٢)، والدارمي (٨٨).
(٣) مرسل: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣٧).

ـ خوخة، وجعلَ أساسه قريبًا من ثلاثة أذرع، ثم بنوه باللَّبنِ، وجعل رسولُ الله ﷺ يبنى معهم، وَيَنْقُلُ اللَّبِنَ والحِجَارَةَ بنفسه ويقول:

اللَّهم لا عَيْشَ إلاَّ عَيْشُ الآخِرةْ ... فَاغْفِرْ للأَنْصَارِ وَالمُهَاجِرَةْ

وكان يقول:

هَذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خَيْبَر ... هَذا أَبَرُّ رَبَّنَا وَأَطْهَرُ[1]

أيها المسلمون...

والمساجد هذه البقاع الأرضية التي تنضّرها السماء وترف عليها الملائكة على تعاقب الجديدين واختلاف الملوَيْن[2] بأجنحة من نور، هذه الأماكن المقدسة التي تشهد تربتها كل يوم خمس مرات هذه الجباه الساجدة الضارعة لبارئها، وهذه الأصلاب الراكعة المنحنية على التسبيح لخالقها عز وجل، وهذه المساجد تمآذنها سامقة رمزًا لعلو هامة المسلم وشموخه على الزمان والمكان، هذه المهابط لرحمة الله ورضوانه على ظهر هذا الكوكب الذي نتنت أجواؤه بخطايا البشرية، هذه المساجد التي يُهرع إليها من مادية الزمان والمكان فيخلع الإنسان أرسانه على أبوابها، ويجد السكينة والطمأنينة بين رحابها.

يقول الرافعيّ - رحمه الله -: «عرفت والله من معنى المسجد ما لم أعرف، حتَّى كأني لم أدخله من قبل، انكشف لي المسجد في نوره الروحيّ عن معان أدخلتني من الدنيا في دنيا على حدة، فما المسجد بناء ولا مكان كغيره من البناء والمكان، بل هو تصحيح للعالم الذي يموج من حوله ويضطرب، فإن في الحياة أسباب الزيغ والباطل والمنافسة والعداوة والكيد ونحوها، وهذه كلها يمحوها المسجد، إذ يجمع الناس مرارًا في كل يوم على سلامة الصدر وبراءة القلب وروحانية النفس، ولا تدخله إنسانية الإنسان إلا طاهرة منزهة، مسبغة على حدود جسمها من أعلاه

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (١/ ٢٣٩)، وهو عند البخاري بنحوه، وانظر «زاد المعاد» (٣/ ٥٩ - ٦٣).

(٢) الملوين: الليل والنهار.

وأسفله شعار الطهر الذي يسمى الوضوء، كأنما يغسل الإنسان آثار الدنيا عن أعضائه قبل دخوله المسجد، ثُمَّ يستوي الجميع في هذا المسجد استواءً واحدًا. ويقفون موقفًا واحدًا، ويخشعون خشوعًا واحدًا، ويكونون جميعًا في نفسية واحدة، بل يخرون إلى الأرض جميعًا ساجدين لله، فليس لرأس على رأس ارتفاع. ولا لوجه على وجه تمييز، ومن ثَمَّ فليس لذات على ذات سلطان، وهل تحقق الإنسانية وحدتها في الناس بأبدع من هذا؟! ولعمري أين يجد العالم صوابه إلا ههنا؟

فالمسجد هو في حقيقته موضع الفكرة الواحدة الطاهرة المصححة لكل ما يزيغ به الاجتماع، هو فكر واحد لكل الرءوس، ومن ثَمّ فهو حل واحد لكل المشاكل، وكما يشق النهر فتقف الأرض عند شاطئيه لا تتقدم، يقام المسجد فتقف الأرض بمعانيها الترابية خلف جدرانه لا تدخله»[1].

عباد الله...

من هذه المساجد ينطلق نشيد السماء العلوي المقدس «الله أكبر» هذا الدعاء الذي تتجاوب أصداؤه بين الجوارح المؤمنة فتهتز له حبات القلوب الخاشعة مع كل صلاة، بل مع كل خفقة من خفقات الأفئدة.

«الله أكبر» نداء المساجد من فوق هامات المآذن حين تصبح وحين تظهر وحين تمسي.

بين الوقت والوقت من النهار والليل تدوّي كلمة الروح «الله أكبر»، ويشعر المسلم في أجواء المسجد شعورًا نديًا كأن الملائكة قد هبطت تحمل سحابة رقيقة تسح بها على قلبه لينضر من يُبس، ويرقّ من غلظة، والجالس في المسجد يشعر بالحياة كأنها مخبوءة، ويحس في المكان بقايا أحلام، تنكشف له أعماقه منسكبًا فيها روح المسجد، فتعتريه حالة روحانية تستكين فيها هادئة وادعة.

يحس الإنسان وكأن سرج المسجد وقناديله ترتعش فيها ارتعاش خواطر

---

(١) «وحي القلم» للرافعي (١/ ٣٤٨).

حب. والناس جالسون عليهم وقار أرواحهم، ومن حول كل إنسان هدوء قلبه، فـ ستبهمت الأشياء في نظر العين ليلبسها الإحساس الروحاني في النفس يكون لكل شيء معناه الذي هو منه، ومعناه الذي ليس منه، فيخلق فيه الجمال شعري كما يخلق المتخيل، هنا في المسجد تلمس الروح معاني كلام الله، يفيض عليه بمثل الندى، فإذا هي ترف رفيفًا، وإذا هي كالزهرة التي مسّها الطل.

هنا في المسجد يتلقى القلب الآيات والعظات كقلب الشجرة يتناول الماء يكسوها منه، هنا يهتز المكان والزمان، كأنما مُحيت الدنيا التي في الخارج من المسجد، وبطل باطلها فلم يبق على الأرض إلا الإنسانية الطاهرة ومكان العبادة، وهذه هي معجزة الروح متى كان الإنسان في لذة روحه مرتفعة على طبيعته الأرضية[(١)].

هنا السموات تبدو قرب طالبها — هنا الرحاب فضاء حين يلتمس
هنا الطهارة تحيا في أماكنها — لا الطيب يبلى ولا الأصداء تندرس

قال رسول الله ﷺ: «**أَحَبُّ البِلَادِ إِلَى اللهِ مَسَاجِدُهَا وَأَبْغَضُ البِلَادِ إِلَى اللهِ أَسْوَاقُهَا**»[(٢)].

وقال رسول الله ﷺ: «**خَيْرُ البِقَاعِ المَسَاجِدُ، وَشَرُّ البِقَاعِ الأَسْوَاقُ**»[(٣)].

وقال رسول الله ﷺ: «**المَسْجِدُ بَيْتُ كُلِّ مؤمن**»[(٤)].

أيها المسلمون...

إن عمارة المساجد دليلٌ على الإيمان بالله واليوم الآخر، وهي دليلٌ على حبّ المسلم لربّه سبحانه.

وصاحب القلب المعلّق بالمساجد في ظلّ الله يوم لا ظلّ إلّا ظلّه.

---

(١) «ترطيب الأفواه بذكر من يظلهم الله» د. سيد العفاني (١/ ٣١٢ - ٣١٤).
(٢) رواه مسلم وغيره.
(٣) حسن: رواه الطبراني في «الكبير»، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٣٢٦٦).
(٤) حسن: رواه أبو نعيم في «الحلية»، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٦٥٧٨).

وانظروا - عباد الله - إلى تعلّق النبيّ ﷺ بالمسجد، وحرصه على حضور الجماعة، حتَّى في أشدّ مرضه:

روى البخاري، عَن عُبَيدِ اللهِ بنِ عَبدِ اللهِ قَالَ: دَخَلتُ عَلَى عَائِشَةَ رضي الله عنها فَقُلتُ: أَلَا تُحَدِّثِينِي عَن مَرَضِ رَسُولِ اللهِ ﷺ؟ قَالَت: بَلَى، ثَقُلَ رَسُول اللهِ ﷺ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**»، فَقُلنَا: لَا، هُم يَنتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخضَبِ**(١)»، فَفَعَلنَا فَاغتَسَلَ ثُمَّ ذَهَبَ لِيَنُوءَ(٢) فَأُغمِيَ عَلَيهِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: «**أَصَلَّى النَّاسُ؟**»، قُلنَا: لَا، هُم يَنتَظِرُونَكَ يَا رَسُولَ اللهِ، قَالَ: «**ضَعُوا لِي مَاءً فِي المِخضَبِ**»، فَذَهَبَ لِيَنُوءَ فَغُشِيَ عَلَيهِ.

قَالَت: وَالنَّاسُ عُكُوفٌ فِي المَسجِدِ يَنتَظِرُونَ رَسُولَ اللهِ ﷺ لِصَلَاةِ العِشَاءِ، فَأَرسَلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ إِلَى أَبِي بَكر - رَضِيَ اللهُ عَنْهُ - بِأَن يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، وَكَانَ أَبُو بَكرٍ رَجُلًا رَقِيقًا فَقَالَ: يَا عُمَرُ صَلِّ بِالنَّاسِ، فَقَالَ له عُمَر: أَنتَ أَحَقُّ بِذَلِكَ، فَصَلَّى بِهِم أَبُو بَكرٍ تِلكَ الأَيَّامَ...» الحديث.

فانظروا - رحمكم الله - إلى أي مدى كان رسول الله ﷺ حريصًا على حضور الجماعة في المسجد، وكيف أنَّهُ يغشى عليه ثلاث مرات فإذا أفاق اغتسل ليتمكن من الذهاب إلى المسجد، فيجد نفسه غير قادر على الذهاب إلى المسجد فيرسل إلى الصِّدِّيق كي يصلي بالناس.

ولما وجد في نفسه خفة يخرج إلى المسجد، **فكيف كانت الخفّة؟**

قالت عائشة رضي الله عنها: «...فَوَجَدَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ نَفْسِهِ خِفَّةً فَخَرَجَ يُهَادَى بَيْنَ رَجُلَيْنِ، كَأَنِّي أَنْظُرُ رِجْلَيْهِ تَخُطَّانِ(٣) مِنْ الوَجَعِ».

لم يكن ﷺ يتمكن من المشي إلا اعتمادًا على رجُلين، وحتى بعد ذلك، لم يكن يقدر على تمكين رجليه على الأرض، نظرًا لشدة ضعفه، لكنه مع هذا كله خرج إلى

---

(١) المخضب: الإجانة.
(٢) أي: ليقوم، لفظًا ومعنى.
(٣) أي: لم يكن يقدر على رفعهما من الأرض.

تــ:ـ: جماعة في المسجد.

تــ ـد الله...

ذ‍كم ضرب علماء السَّلف وعبَّاده أروع الأمثلة لحرصهم على صلاة الجماعة في ‍ـسجد.

قال سعيد بن المسيِّب - رحمه الله -: «ما دخل عليَّ وقت صلاة إلَّا وقد ‍خذتُ أُهبتها، ولا دخل عليَّ فرضٌ إلَّا وأنا إليه مشتاق» (١).

وانظر إلى الصحابي الجليل «الحارث بن حسَّان» تزوَّج في ليلة من الليالي، فحضر صلاة الفجر مع الجماعة.

روى الإمام الطبراني عن عنبسة بن الأزهر قال: «تزوج الحارث بن حسان - وكان له صحبة - فقيل له: أتخرج وإنما بنيت بأهلك في هذه الليلة؟ فقال: والله إن امرأة تمنعني من صلاة الغداة في جمعٍ لامرأة سوء» (٢).

روى مسلم عن عبد الله بن مسعود: «ولقد رأيتنا وما يتخلَّف عنها إلا منافق معلوم النفاق، ولقد كان الرجل يُؤتى به يتهادى بين الرجلين حتَّى يُقام في الصف».

وعن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلميّ، أنَّهُ كان يُحمل وهو مريض إلى المسجد.

لله دَرُّك من إمام عَلَم، وليس هذا فحسب، بل كان يأمر بحمله في اليوم المطير إلى المسجد، حيث كانت تجتمع له رخصتان للتخلف عن المسجد، وهما: المطر والمرض.

فعن سعد بن عبيدة، عن أبي عبد الرحمن السلميّ، أنَّهُ كان يأمرهم أن يحملوه في الطين والمطر إلى المسجد وهو مريض (٣).

---

(١) قال الهيثميّ في «مجمع الزوائد» (٢/ ٤١): رواه الطبراني في «الكبير» بإسناد حسن.

(٢) «المصنف» لابن أبي شيبة (١/ ٣٥٠).

(٣) «الزهد» لابن المبارك (١٤١).

وعن عطاء بن السائب قال: دخلنا على أبي عبد الرحمن السلميّ وهو يُقضى - أي ينزع - في المسجد، فقلنا له: لو تحولت إلى الفراش فإنه أوثر، قال: حدثني فلان أن النبي ﷺ قال: «**لَا يَزَالُ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاةٍ مَا دَامَتْ الصَّلَاةُ تَحْبِسُهُ لَا يَمْنَعُهُ أَنْ يَنْقَلِبَ إِلَى أَهْلِهِ إِلَّا الصَّلَاةُ**»[1].

وفي رواية ابن سعد: «**والمَلَائِكَةُ تَقُولُ: اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ**».

قال أبو عبد الرحمن السلميّ: «فأريد أن أموت وأنا في مسجدي»[2].

ولله دَرُّ إبراهيم التيمي حيث يقول: «إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى، فاغسل يدك منه»[3].

عباد الله...

لا يُصنَع الأبطال إلا ... في مساجدنا الفساح
في روضة القرآن في ... ظِلِّ الأحاديث الصِّحاح
شَعْبٌ بغير عقيدة ... وَرَقٌ يذريه الرياح
من خان «حيّ على الصلاة» ... يخون «حيّ على الكفاح»[4]

جعلنا الله وإيَّاكم مِمَّن يستمعون القول فيتبعون أحسنه.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) «الزهد» لابن المبارك (١٤١، ١٤٢).
(٢) «الطبقات» لابن سعد (٦/ ١٧٤، ١٧٥).
(٣) «حلية الأولياء» (٤/ ٢١٥).
(٤) نقلنا هذه الآثار من كتاب «من يطلهم الله» د. سيد العفاني.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومما يُستفاد من بناء النبيّ ﷺ للمسجد، وجعله من أولويات أعماله:

(١) أن المسجد من أهم الركائز في بناء المجتمع:

يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ * رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ * لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾. [النور: ٣٦- ٣٨]

(٢) التربية بالقدوة العملية:

فقد كانت مشاركة النبيّ ﷺ في عملية البناء ككل العمال الذين شاركوا فيه، تربية عملية، زادت الصحابة نشاطًا واندفاعًا في العمل.

وقديمًا قالوا: عمل رجل في ألف رجل، خيرٌ من قول ألف رجل في رجل.

(٣) شعار الدولة المسلمة:

وقد كان النبيّ ﷺ يأمر قادته إذا سمعوا الأذان في بلدة أن يكفّوا عنها، ولا يقاتلوا أهلها.

(٤) الإشارة إلى أفضيلة بناء المساجد:

وقد وردت أحاديث تشير إلى فضل بناءها، منها:

(أ) عن عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ - رَضِي اللَّهُ عَنْهُ - قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ بَنَى مَسْجِدًا لِلَّهِ تَعَالَى يَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللَّهِ بَنَى اللَّهُ لَهُ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ».

وفي رواية: «بَنَى اللَّهُ لَهُ مِثْلَهُ فِي الْجَنَّةِ»[١].

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(ب) وعن جابر بن عبد الله - رضي الله عنهما - أنَّ رسول الله ﷺ قال: «**مَنْ حَفَر بئر مَاء لم يشرب منه كَبِد حَرَّى من جنٍّ، ولا إنس، ولا طائرٍ، إلَّا آجَرَهُ الله يومَ القيامة، ومَنْ بنى لله مسجدًا كَمِفْحَصِ قَطَاةٍ، أو أصْغَرَ بَنَى الله له بَيْتًا في الجَنَّة**»[1].

أما نقش المساجد وزخرفتها، فقد أجمع العلماء على كراهتها، ثم هم في ذلك بين مُحرِّم ومكرِّه كراهة تنزيه، غير أن الذين قالوا بالحرمة والذين قالوا بالكراهة اتفقوا على أنه يُحرم صرف المال الموقوف لعمارة المساجد على شيء من الزخرفة والنقش[2].

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة - إن شاء الله - نواصل الحديث عن السيرة العطرة، فإلى اللقاء.

❁❁❁❁❁

---

(١) صحيح: رواه ابن خزيمة في «صحيحه»، وانظر: «صحيح الترغيب والترهيب» (٢٦٧).

(٢) «فقه السيرة» للبوطي (١٤٥).

الخطبة السابعة والسبعون:

[أ] المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيّ ﷺ.

عباد الله...

كان من أولى الدعائم التي اعتمدها الرسول ﷺ في إدارته للأمة - بعد الهجرة المباركة، بعد الدعوة إلى توحيد الخالق جلّ وعلا، وحُسن عبادته، وبناء المسجد - المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار.

قال الإمام ابن القيّم - رحمه الله تَعَالَى -: «ثمَّ آخى رسولُ الله ﷺ بين

المهاجِرينَ والأنصار فى دار أنسِ بن مالكَ، وكانُوا تسعين رجلًا، نِصفهم مِن المهاجرينَ، ونِصفُهم مِن الأنصارِ، آخى بينهم على المواساة، يتوارثون بعدَ الموتِ دون ذوى الأرحام إلى حين وقعة بدر، فلما أنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَأُوْلُوْا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللهِ﴾ [الأنفال: ٧٥] رد التوارث إلى الرَّحِم دون عقد الأُخوة[١].

وقد قيل: إنه آخى بين المهاجرين بعضِهم مع بعض مؤاخاة ثانية، واتخذ فيه عليًّا أخًا لنفسه والثابت الأول، والمهاجِرون كانوا مستغنين بأخوة الإسلام. وأخوة الدار، وقرابةِ النسب عن عقد مؤاخاة بخلاف المهاجرين مع الأنصار، ولو آخى بَيْنَ المهاجرينَ، كان أحقَّ الناسِ بأُخوته أحبُّ الخلق إليه ورفيقُه فى الهِجرةِ. وأنيسُه فِي الغارِ، وأفضلُ الصحابة وأكرمُهم عليهِ أبو بكر الصِّدِّيق، وقد قال: «لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلاَمِ أَفْضَلُ» وفى لفظ: «وَلَكِنْ أَخِي وَصَاحِبِي»[٢]، وهذه الأُخوة في الإسلام وإن كانتَ عامة، كما قال: «وَدِدْتُ أَن قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا» قَالُوا: أَلَسْنَا إِخْوَانَكَ؟ قَالَ: «أَنْتُمْ أَصْحَابِي، وإِخْوَانِي قَوْمٌ يَأْتُونَ مِنْ بَعْدِي يُؤْمِنونَ بِي وَلَمْ يَرَوْنِي»[٣]، فَلِلصِّدِّيق من هذه الأُخوة أعلى مراتبها، كما له من الصُّحبة أعلى مراتبها، فالصحابة لهم الأُخوة. ومزيةُ الصحبة، ولأتباعه بعدهم الأخوة دون الصحبة» ا.هـ[٤].

عباد الله...

ولقد ساهم نظام المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار في ربط الأُمّة بعضه ببعض، فقد أقام الرسول ﷺ هذه الصلة على أساس الإخاء الكامل بينهم.

هذا الإخاء الذي تذوب فيه عصبيات الجاهلية، فلا حميّة إلَّا للإسلام، وأن تسقط فوارق النَّسب واللون والوطن، فلا يتأخّر أحد أو يتقدّم إلَّا على حسب

(١) أخرجه البخاري (٢٢٩٢).
(٢) أخرجه البخاري (٣٦٥٦)، ومسلم (٢٣٨٢).
(٣) أخرجه مسلم (٢٤٩)، والنسائي (١/ ٩٤).
(٤) «زاد المعاد» (٣/ ٦٣ - ٦٥).

درجة تقواه.

والسبب الذي أدّى إلى تقوية هذه الأخوة، وشَدَّ أواصِرَ المحبَّة بين المؤمنين: هو دين الله تَعَالى، الذي أكمله لنا ربُّ العزة سبحانه، وهو رأس النِّعم.

قال تَعَالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران. ١٠٣].

وقال تَعَالى: ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ﴾ أي: شرفكم.

أيها المسلمون...

ويبيِّن الحق سبحانه هذا التماسك الذي كان عليه المهاجرون والأنصار، فيقول بأحلى بيان: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ * وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلاَ يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٨، ٩].

عباد الله...

إن الإسلام وضع بين المسلمين حقوقًا ينبغي أن تصان، وأن تترجم إلى واقع في حياة الأُمّة.

من هذه الحقوق(١):

الحق الأول: في المال:

عن عُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ - رَضي اللَّهُ عَنْهُ - قَالَ: سَمِعْتُ النبيّ ﷺ يقول: «قال الله تَعَالى: حَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ وَحَقَّتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ»(٢).

والمواساة بالمال مع الإخوان على ثلاث مراتب:

---

(١) من كتاب «من يظلهم الله» د. سيد العفاني باختصار شديد.

(٢) إسناده صحيح: رواه ابن أبي الدنيا، وانظر «صحيح الجامع» (٤١٩٦).

أدناها: أن تقوم بحاجته من فضلة مالك، فإذا سنحت له حاجة وكانت عندك فضلة عن حاجتك أعطيته ابتداءً ولم تحوجه إلى السؤال، فإن أحوجته إلى السؤال فهو غاية التقصير في حقّ الأخوّة.

الثانية: أن تنزله منزلة نفسك وترضى بمشاركته إياك في مالك ونزوله منزلتك حتَّى تسمح بمشاطرته في المال.

قال الحسن: كان أحدهم يشق إزاره بينه وبين أخيه.

رأى بعض الحكماء رجلين يصطحبان لا يفترقان، فسأل عنهما فقيل: هما صديقان، فقال: ما بال أحدهما فقير والآخر غني؟!

الثالثة: وهي العليا: أن تؤثره على نفسك وتقدّم حاجته على حاجتك، وهذه رتبة الصديقين ومنتهى درجات المتحابين.

قال الله تَعَالَى: ﴿**وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ [الحشر: ٩].

وهذه لقطاتٌ من حياة الصالحين، تترجم ما تقدَّم إلى واقع مُعاش:

- لَـمَّا هاجر عَبْدُ الرَّحْمَنِ بن عَوْفٍ إلى المَدِينَةَ فقيرًا لا شيء له، آخَى رسول الله ﷺ بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَعْدِ بن الرَّبِيعِ الأَنْصَارِيِّ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ سَعْدٌ أَنْ يُنَاصِفَهُ أَهْلَهُ وَمَالَهُ، وَكَانَ لَهُ امْرَأَتَانِ، فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِي أَهْلِكَ وَمَالِكَ. ولكن دُلُّونِي عَلَى السُّوقِ.
- وقَالَ عبد الله بْنِ عُمَرَ رضي الله عنهما: «أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ ، وَمَا يَرَى أَحَدٌ مِنَّا أَنَّهُ أَحَقُّ بِالدِّينَارِ وَالدِّرْهَم مِنْ أَخِيهِ المُسْلِمِ ، وَأَنَا فِي زَمَانٍ الدِّينَارُ وَالدِّرْهَمُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَخِينَا المُسْلِمِ»[1].
- وقال أحد الصالحين: «وددت أن جميع إخواني أتوني فشاركوني في معيشتي حتَّى يكون عيشنا عيشًا واحدًا، ولوددت أن جميع إخواني أتوني في حوائجهم.

---

(١) قال الهيثمي في «المجمع»: رواه الطبراني بأسانيد بعضها حسن.

فإني لأستحي من الله عز وجل أن ألقى الأخ من إخواني فأدعوا له بالجنة وأبخل عليه بالدنيا، والدنيا أصغر وأحقر من أن يقال لي يوم القيامة: كنت كذابًا، لو كانت الدنيا في يدك كنت بها أبخل».

- وقال أبو جعفر مُحَمَّد بن الحُسين لعبد الله بن الوليد: «يدخل أحدكم يده في كُمِّ صاحبه ويأخذ ما يريد؟ قلنا: لا، قال: فلستم بإخوان كما تزعمون».
- وقال طعمة الجعفريّ: كان عمران بن موسى بن طلحة يأتيني بالألف دينار والألفي دينار ويقول: اقسمها على إخوانك ولا تُعلِمهم أنها مِن قِبَلِي.
- وجاء فتح الموصلي إلى صديق له يقال له عيسى التَّمار، فلم يجده في المنزل، فقال للخادمة: أخرجي إليَّ كيس أخي، فأخْرَجته له فأخذ درهمين، وجاء عيسى إلى بيته فأخبرته بمجيء فتح وأخذه الدرهمين، فقال: إن كنتِ صادقة فأنت حرَّة، فنظر فإذا هي صادقة، فَعُتِقَت.
- وجاء رجل من السَّلف الصالح إلى بيت صديق له، فخرج إليه فقال: ما جاء بك؟ قال: عليَّ أربعمائة درهم، فدخل الدار فوزنها، ثُمَّ خرج فأعطاه، ثُمَّ عاد إلى الدار باكيًا، فقالت زوجته: هلَّا تعللت عليه، إذا كان إعطاؤه يشقّ عليك؟ فقال: إنما أبكي لأني لم أتفقَّد حاله، فاحتاج أن يقول ذلك(١).
- قال أبو سُليمان الدارنيّ: كان لي أخ في الله عز وجل، فقلت له يومًا: أعطني دراهم، فقال: كم تريد؟ فسقط من عيني، وخرجت أُخوّته من قلبي بقوله: كم تُريد؟(٢).

الحق الثاني: إطعام الإخوان وكسوتهم:

- ولله دَرُّ أبي سُليمان الداراني حين يقول: «لو أن الدنيا كلها لي في لقمة، ثُمَّ جاءني أخ لأحببت أن أضعها في فيهِ» (٣).
- وما أحلى أبا سُليمان وأطيبه حين يقول: «إني لألقم اللقمة أخًا من إخواني

(١) «التبصرة» لابن الجوزي (٢/ ٣٠٠، ٣٠١).
(٢) «التبصرة» (٢/ ٢٠٢، ٢٠٣).
(٣) «كتاب الإخوان» (٢٣٥).

فأجد طعمها في حلقي»[(١)].

- وروي أن مالك بن دينار ومحمد بن واسع دخلا منزل الحسن وكان غائبًا فأخرج محمد بن واسع سلة فيها طعام من تحت سرير الحسن فجعل يأكل فقال له مالك: كف يدك حتى يجيء صاحب البيت، فلم يلتفت محمد إلى قوله وأقبل على الأكل، وكان مالك أبسط منه وأحسن خلقًا، فدخل الحسن وقال: يا مويلك هكذا كنا لا يحتشم بعضنا بعضًا حتى ظهرت أنت وأصحابك. وأشار بهذا إلى أن الانبساط في بيوت الإخوان من الصفاء في الأخوة كيف وقد قال الله تعالى: ﴿أَوْ صَدِيقِكُمْ﴾ وقال: ﴿أَوْ مَا مَلَكْتُم مَّفَاتِحَهُ﴾ إذ كان الأخ يدفع مفاتيح بيته إلى أخيه ويفوض له التصرف كما يريد[(٢)].
- وكان أبو جعفر مُحَمَّد بن علي يدعو نفرًا من إخوانه كل جمعة فيطعمهم الطعام الطيّب، ويطيّبهم، ويبخِّرهم، ويروحون إلى المسجد من منزله[(٣)].
- ولله دَرُّ الإمامُ أحمد بن حنبل حين يقول: «لو أنَّ الدنيا جمعت حتَّى تكون في مقدار لقمة، ثُمَّ أخذها امرؤ مسلم فوضعها في فم أخيه المسلم لما كان مسرفًا»[(٤)].

وتعالوا إلى بستان الحسن البصري وأزاهيره:

- قال رجل للحسن: يا أبا سعيد، الرجل يذبح الشاة فيصنعها، ويدعو عليها نفرًا من إخوانه، قال: وأين أولئك؟ ذهب أولئك.
- وكان رحمه الله إذا دخل عليه إخوانه أتاهم بما عنده، وربما قال لبعضهم: أخرج السلة من تحت السرير، فيخرجها فإذا فيها رطب، فيقول: إنما ادخرته لكم.
- وقال ابن يونس: دخل رجل على الحسن فوجده نائمًا على سريره، ووجد عند رأسه سلة فيها فاكهة، ففتحها، فجعل يأكل منها، فانتبه فرأى الرجل يأكل

(١) «الإحياء» (٢/ ١٩٠).
(٢) «الإحياء» (٢/ ١٩٠).
(٣) «كتاب الإخوان» (٢٣٠).
(٤) «طبقات الحنابلة» (١/ ١٠٦).

قال: رحمك الله، هذا والله فعل الأخيار.

- وكان للحسن بيت إذا فتح بابه فهو إذنه، فجاء أعرابي فصادفه مفتوحًا، فدخل والحسن في المذهب، فجاء إلى شيء تحت سرير الحسن فأخرجه وجعل يأكل، فنظر إليه الحسن وجعل يبكي، فقيل له: ما يبكيك يا أبا سعيد؟ فقال: ذكّرني هذا أخلاق قومٌ قد مضوا.

عباد الله...

وهناك حقوق أخرى، ستأتي بعد قليل، إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والحق الثالث: الإعانة بالنفس والبدن في قضاء الحاجات، والقيام بها قبل السؤال، وتقديمها على الحاجات الخاصة:

وهذه أيضًا لها درجات كالمواساة بالمال، فأدناها: القيام بالحاجة عند السؤال، والقدرة مع البشاشة، والاستبشار وإظهار الفرح وقبول المنّة.

- قال بعضهم: إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكِّره ثانية، فلعله أن يكون قد نسي، فإذا لم يقضها فكِّبر عليه، واقرأ هذه الآية: ﴿وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ٣٦].

- وقضى ابن شبرمة حاجةً لبعض إخوانه كبيرة، فجاءه بهدية، فقال: ما هذا؟ قال: لما أسديته إليَّ، فقال: خذ مالك عافاك الله، إذا سألت أخاك حاجةً فلم يجهد نفسه في قضائها فتوضأ للصلاة وكبِّر عليه أربع تكبيرات، وعده في الموتى.

- قال جعفر بن مُحَمَّد: «إنِّي لأتسارع إلى قضاء حوائج أعدائي مخافة أن أردهـ فيستغنوا عني» هذا في الأعداء، فكيف في الأصدقاء؟
- وكان في السَّلف من يتفقد عيال أخيه وأولاده بعد موته أربعين سنة، يقو بحاجتهم ويتردد كل يوم إليهم ويمونهم من ماله، فكانوا لا يفقدون من أبيهـ إلا عينه، بل كانوا يرون منه ما لم يروا من أبيهم في حياته، وكان الواحد منهـ يتردد إلى باب دار أخيه ويسأل ويقول: هل لكم زيت؟ هل لكم ملح؟ هل لكـ حاجة، وكان يقوم بها حيث لا يعرفه أخوه، وبهذا تظهر الشفقة والأخوة، فـ لم تثمر الشفقة حتَّى يشفق على أخيه كما يشفق على نفسه فلا خير فيها[1].
- قال هُريم بن سفيان: كان عمرو بن قيس الملائي يمر بنا في كل جمعة ومعـ هدية قد حملها، يأتي بها منزل منصور بن المعتمر، قال: وذلك بعد موت منصـ بما شاء الله، فلم يزل على ذلك حتَّى مات، قال: فبلغني أن أهله كانت تعاهدهـ بنحو من ذلك بعدما مات عمرو.
- وعن بسطام التيمي قال: رأيت طلحة بن مصرِّف يخرج من زقاق ضيِّق فـ التيم، فقلتُ: من أين يجيء طلحة؟ قالوا: يأتي أُم عمارة بن عمير يبرها بالنفقـ والكسوة والصلة، قال: وذلك بعد موت عمارة ببضع عشرة سنة، قال: وكانـ أُم عمارة أعجمية.

وبالجملة: فينبغي أن تكون حاجة أخيك مثل حاجتك، أو أهم من حاجتكـ وأن تكون متفقدًا لأوقات الحاجة غير غافل عن أحواله كما لا تغفل عن أحو نفسك، وتغنيه عن السؤال وإظهار الحاجة إلى الاستعانة، بل تقوم بحاجته كأنـ لا تدري أنك قمت بها، ولا ترى لنفسك حقًّا بسبب قيامك بها، بل تتقلد مِـ بقبوله سعيك في حقه وقيامك بأمره، ولا ينبغي أن تقتصر على قضاء الحاجة، بـ تجتهد في البداية بالإكرام في الزيادة والإيثار والتقديم على الأقارب والولد.

---

(١) «الإحياء» (٢/ ١٩٠، ١٩١).

كان الحسن يقول: إخواننا أحب إلينا من أهلنا وأولادنا، لأن أهلنا يُذكِّروننا بالدنيا، وإخواننا يذكِّروننا بالآخرة.

عن ابن عُمَرَ، أَنَّ رَجُلا جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ:

يا رَسُولَ اللهِ، أَيُّ النَّاسِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟ وَأَيُّ الأَعْمَالِ أَحَبُّ إِلَى اللهِ؟

فقال رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَحَبُّ النَّاسِ إِلَى اللهِ تَعَالَى أَنْفَعُهُمْ لِلنَّاسِ، وَأَحَبُّ الأَعْمَالِ إِلَى اللهِ تَعَالَى سُرُورٌ تُدْخِلُهُ عَلَى مُسْلِمٍ، أَوْ تَكْشِفُ عَنْهُ كُرْبَةً، أَوْ تَقْضِي عَنْهُ دَيْنًا، أَوْ تَطْرُدُ عَنْهُ جوعًا. وَلأَنْ أَمْشِيَ مَعَ أَخٍ فِي حَاجَةٍ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ أَنْ أَعْتَكِفَ فِي هَذَا المَسْجِدِ - يَعْنِي مَسْجِدَ المدينة - شَهْرًا، وَمَنْ كَفَّ غَضَبَهُ سَتَرَ اللهُ عَوْرَتَهُ، وَمَنْ كَظَمَ غَيْظَهُ وَلَوْ شَاءَ أَنْ يُمْضِيَهُ أَمْضَاهُ ملأ اللهُ قَلْبَهُ رَجَاءً يَوْمَ القِيَامَةِ، وَمَنْ مَشَى مَعَ أَخِيهِ فِي حَاجَةٍ حَتَّى يَتَهَيَّأَ لَهُ أَثْبَتَ اللهُ قَدَمَهُ يَوْمَ تزول الأَقْدَام**»[1].

عباد الله...

وأختم خطبة اليوم بهذه القصّة العجيبة:

قال ابن رجب في «لطائف المعارف»: «كان كثير من السَّلف يشترط على أصحابه في السفر أن يخدمهم، اغتنامًا لأجر ذلك، منهم:

عامر بن عبد قيس، وعمرو بن عتبة بن فرقد، مع اجتهادهما في العبادة في أنفسهما، وكذلك كان إبراهيم بن أدهم يشترط على أصحابه في السفر الخدمة والأذان. وكان رجل من الصالحين يصحب إخوانه في سفر الجهاد وغيره، فيشترط عليهم أن يخدمهم، وإذا رأى من يريد أن يغسل رأسه، قال له: هذا من شرطي، فيغسله.

فلما مات نظروا في يده، فإذا فيها مكتوب:

«مِن أهل الجنة»، فنظروا إليها فإذا هي كتابة بين الجلد واللحم».

---

(١) صحيح: انظر «السلسلة الصحيحة» (٩٠٦).

عباد الله...

كانت هذه أخلاقهم، فأين هي في دنيا الله اليوم؟!

اللَّهُمَّ اهدنا لأحسن الأخلاق، لا يهدي لأحسنها إلَّا أنت، واصرف عنا سيئها. لا يصرف عنا سيئها إلَّا أنت.

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

الخطبة الثامنة والسبعون:

[ب] المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن حقوق الإخوة في الإسلام.

عباد الله...

أما السكوت، فهو أن يسكت عن ذكر عيوبه في غيبته وحضرته، بل يتجاهل عنه ويسكت عن الرد عليه فيما يتكلم به ولا يماريه ولا يناقشه وأن يسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله.

وليسكت عن أسراره التي بثها إليه ولا يبثها إلى غيره البتة ولا إلى أخص

أصدقائه ولا يكشف شيئاً منها ولو بعد القطيعة والوحشة، فإن ذلك من لؤم الطبع وخبث الباطن.

قالوا: صدور الأحرار قبور الأسرار.

وقيل لرجل: كيف تحفظ السر؟ قال: أستره، وأستر أني أستره.

قال ابن المعتز:

ومستودعي سرًّا تبوأت كتمه فأودعته صدري فصار له قبرا

وقال آخر:

والسِرُّ في صدري كثاوٍ بقبره لأني أرى المقبور ينتظر النشرا
ولكنني أنساه حتى كأنني بما كان منه لم أحط ساعة خبرا
ولو جاز كتم السر بيني وبينه عن السر والأحشاء لم تعلم السرا

وأفشى بعضهم سرًّا له إلى أخيه ثم قال له: حفظت؟ فقال: بل نسيت.

قال أبو سعيد الثوري: إذا أردت أن تؤاخي رجلاً فأغضبه، ثم دسَّ عليه من يسأله عنك وعن أسرارك، فإن قال خيرًا وكتم سرَّك فاصحبه.

ومن السكوت: أن يسكت عن القدح في أحبابه وأهله وولده، وأن يسكت عن حكاية قدح غيره فيه، فإن الذي سبَّك مَن بَلَّغَكَ، وليعلم أن من طلب مُنَزَّهاً عن كل عيب، اعتزل عن الخلق كافة، ولن يجد مَن يُصاحبه أصلًا، فما من أحد من الناس إلا وله محاسن ومساوئ، فإذا غلبت المحاسن المساوئ، فهو الغاية والمنتهى، فالمؤمن الكريم أبدًا يحضر في نفسه محاسن أخيه لينبعث من قلبه التوقير والود والاحترام، وأما المنافق اللئيم فإنه أبدًا يلاحظ المساوئ والعيوب.

قال ابن المبارك: المؤمن يطلب المعاذير، والمنافق يطلب العثرات، وقال الفضيل: الفتوة: العفو عن زلات الإخوان.

وأقل درجات الأُخُوَّة: أن تعامل أخاك بما تُحب أن يعاملك به، ولاشك أنك تنتظر منه ستر العورة والسكوت عن المساوئ والعيوب، ولو ظهر لك منه نقيض

حضره اشتد عليه غيظك وغضبك، فما أبعدك إذا كنت تنتظر منه ما لا تضمره له ولا تعزم عليه لأجله، وويل لك في نص كتاب الله حيث قال: ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ * الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ * وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: ١ - ٣].

وكل من يلتمس من الإنصاف أكثر مما تسمح به نفسه فهو داخل تحت مقتضى هذه الآية، واصحب من كل صدق الأخوة ثابتًا عنده على اختلاف الأحوال عند غضبه ورضاه، وعند طمعه وهواه، ولله در القائل:

وتـرى الكـريم إذا تـصرم وصـله ... يخفـي القبـيح ويظهـر الإحـسانا

وتـرى اللئـيم إذا تقـضى وصـله ... يخفـي الجمـيل ويظهـر البهـتانا

وأما النطق، فهو أن ينطق بالمحابّ:

ومن ذلك: «أن يتودد إليه بلسانه، ويتفقده في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها، وكذا جملة أحواله التي يكرهها بلسانه وأفعاله ينبغي أن يظهر بلسانه وأفعاله كراهتها، وجملة أحواله التي يُسرُّ بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركته له في السرور بها. فمعنى الأخوة: المساهمة في السراء والضراء.

ومن ذلك أن يخبره بمحبته له:

قال رسول الله ﷺ: «**إذا أحبّ أحدكم أخاه فليُعلِمهُ أنّهُ يُحبّه**»[(١)].

وقال ﷺ: «**إذا أحب أحدكم أخاه في الله فليعلمه، فإنه أبقى في الأُلفة، وأثبت في المودة**»[(٢)].

وإنما أمر بالإخبار لأن ذلك يوجب زيادة حب، فإن عرف أنك تحبه أحبك بالطبع لا محالة، فلا يزال الحب يتزايد من الجانبين ويتضاعف.

ومن ذلك: أن تدعوه بأحب أسمائه إليه في غيابه وحضوره.

---

(١) صحيح: رواه البخاري ومسلم.

(٢) حسن: رواه ابن أبي الدنيا، وانظر «صحيح الجامع» (٢٨٠).

قال عمر رضي الله عنه: ثلاث يصفين لك ود أخيك: أن تسلم عليه إذا لقيته أولاً، وتوسِّع له في المجلس، وتدعوه بأحب أسمائه إليه.

ومن ذلك: أن تثني عليه بما تعرف من محاسن أحواله عند من يؤثر هو الثناء عنده.

فإن ذلك من أعظم الأسباب في جلب المحبّة، وآكد من ذلك أن تبلغه ثناء من أثنى عليه مع إظهار الفرح، فإن إخفاء ذلك محض الحسد.

ومن ذلك: أن تشكره على صنيعه في حقك بل على نيته وإن لم يتم ذلك.

قال علي رضي الله عنه: مَن لم يحمد أخاه على حسن النية لم يحمده على حسن الصنيعة.

وأعظم من ذلك تأثيرًا في جلب المحبة: الذَّب عنه في غيبته مهما قصد بسوء أو تعرض لعرضه بكلام صريح أو تعريض.

فحق الأخوة التشمير في الحماية والنصرة وتبكيت المتعنت وتغليظ القول عليه، وقد قال رسول الله ﷺ: «**الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لَا يَخُونُهُ وَلَا يَكْذِبُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ عِرْضُهُ وَمَالُهُ وَدَمُهُ التَّقْوَى هَا هُنَا بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنْ الشَّرِّ أَنْ يَحْتَقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ**»[1].

وهذا من الانثلام والخذلان فإن إهماله لتمزيق عرضه كإهماله لتمزيق لحمه.

فأخسس بأخ يراك والكلاب تفترسك وتمزق لحومك وهو ساكت لا تحركه الشفقة والحمية للدفع عنك! وتمزيق الأعراض أشد على النفوس من تمزيق اللحوم، ولذلك شبَّهه الله تعالى بأكل لحوم الميتة فقال: ﴿**أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا**﴾ [الحجرات: ١٢] ا.هـ[2].

قال رسول الله ﷺ: «**مَنْ ذَبَّ عَنْ لَحْمِ أَخِيهِ بالغِيبَةِ، كَانَ حَقًّا عَلَى اللَّهِ أَنْ يُعْتِقَهُ**

(١) رواه البخاري.

(٢) «إحياء علوم الدين».

وقال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ امْرِئٍ يَخْذُلُ امْرَأً مُسْلِمًا عِنْدَ مَوْطِنٍ تُنْتَهَكُ فِيهِ حرمَتُهُ وَيُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ، إِلَّا خَذَلَهُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ، وَمَا مِنْ امْرِئٍ يَنْصُرُ امْرَأً مُسْلِمًا فِي مَوْطِنٍ يُنْتَقَصُ فِيهِ مِنْ عِرْضِهِ وَيُنْتَهَكُ فِيهِ مِنْ حُرْمَتِهِ، إِلَّا نَصَرَهُ اللَّهُ فِي مَوْطِنٍ يُحِبُّ فِيهِ نُصْرَتَهُ»[٢].

ومن ذلك: نُصحه وتعليمه برفق.

فليس حاجة أخيك إلى العلم بأقل من حاجته إلى المال، فإن كنت غنيًا بالعلم فعليك مواساته من فضلك وإرشاده إلى كل ما ينفع في الدين والدنيا، وعليك نصحه، وإن استنصحك فاجتهد في ذلك.

قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ الدِّينَ النَّصِيحَةُ» قَالُوا: لِمَنْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «لِلَّهِ وَلِكِتَابِهِ وَلِرَسُولِهِ وَلأَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ وَعَامَّتِهِمْ»[٣].

وقال الشافعي: «مَن وعظ أخاه سرًّا فَقد نصحه وزانه، ومن وعظه علانية، فقد فضحه وشانه».

الحق الخامس: العفو عن الزلات والهفوات:

وهفوة الصديق لا تخلو إما أن تكون في دينه بارتكاب معصية، أو في حقك بتقصيره في الأخوة.

أما ما يكون في الدين من ارتكاب معصية والإصرار عليها، فعليك التلطف في نصحه بما يقوم أوده ويجمع شمله ويعيد إلى الصلاح والورع حاله. فإن لم تقدر وبقي مصرًّا فقد اختلفت طرق الصحابة والتابعين في إدامة حق مودته أو مقاطعته:

١ – فذهب أبو ذر رضي الله عنه إلى الانقطاع وقال: إذا انقلب أخوك عما كان

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٦٢٤٠).
(٢) حسن: رواه أحمد وأبو داود.
(٣) رواه مسلم وغيره.

عليه فأبغضه من حيث أحببته، ورأى ذلك من مقتضى الحب في الله والبغض في الله. وهذا هو أحد المعنيين في قوله ﷺ: «**اجتمعا عليه وتفرقا عليه**»، أي: أَنَّهُ إذ أحدث أحدهما ما لا يرضي الله فارقه الآخر، فإذا عاد إلى الله وإلى ما يرضي الله عاد إليه، فيكون حب الله هو العلة، يدور معها ترابطهم وجودًا وعدمًا.

٢- وأما أبو الدرداء وجماعة من الصحابة فذهبوا إلى خلافه؛ فقال أبو الدرداء: إذا تغيَّر أخوك وحال عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يعوَّج مرة ويستقيم أخرى.

وطريقة أبي ذر أحسن وأسلم، وطريقة أبي الدرداء ألطف وأفقه.

أمَّا كونها ألطف فلما فيها من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة لاستمرار الحياء عند دوام الصحبة، ومهما قوطع وانقطع عن الصحبة أصر واستمر.

وأما كونها أفقه، فمن حيث أن الأخوة عقد ينزل منزل القرابة فإذا انعقدت تأكد الحق ووجب الوفاء بموجب العقد، ومن الوفاء به أن لا يهمل أيام حاجته وفقره، وفقر الدين أشدُّ من فقر المال، فالأخوة عدة للنائبات وحوادث الزمان. وهذا من أشد النوائب.

والقريب ينبغي أن لا يهجر من أجل معصيته، حتَّى يُقام له بواجب النصيحة. وذلك لأجل قرابته، قال الله تَعَالَى لنبيه في عشيرته: ﴿**فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ**﴾ [الشعراء: ٢١٦]، ولم يقل إني بريء منكم، مراعاة لحق القرابة ولحمة النسب، ولهذا أشار أبو الدرداء لَـمَّا قيل: ألا تبغض أخاك وقد فعل كذا؟ فقال: إنما أبغض عمله وإلا فهو أخي، وأخوة الدِّين أوكد من إخوة القرابة.

وكذلك التفريق بين الأحباب من محاب الشيطان، كما أن مقارفة العصيان من محابه، فإذا حصل للشيطان أحد غرضيه فلا ينبغي أن يُضاف إليه الثاني. ا.هـ[1].

---

(١) «إحياء علوم الدين» ملخصًا.

قلت: أما أهل البدع والمعاصي المصرين فهجرهم واجب.

ـَ هفواته وتقصيره في حقك:

ـ ـِ جب فيه الاحتمال والعفو والصفح والتعامي عنه، والتعرض لذلك ليس ـ ـح في شيء، نعم إن كان بحيث يؤدي استمراره عليه إلى القطيعة، ـ ـب في السرّ خير من القطيعة، والتعريض به خير من التصريح، والمكاتبة خير ـ ـفهة، والاحتمال خير من الكل.

ـ كل ما يحتمل تنزيله على وجه حسن ويتصور تمهيد عذر فيه قريب أو بعيد ـ ـِ جب بحق الأخوة فقد قيل:ينبغي أن تنبسط لزلة أخيك سبعين عذراً فإن لم ـ قلبك فرد اللوم على نفسك فتقول لقلبك: ما أقساك يعتذر إليك أخوك ـعين عذراً فلا تقبله فأنت المعيب لا أخوك.

قال الشافعي: «من استرضى فلم يرضى فهو شيطان».

فاسترضي قلبك بنفسك نيابة عن أخيك، واحترز أن تكون شيطانًا إن لم تقبل.

قال الأحنف: «حق الصديق أن تحتمل منه ثلاثًا: ظلم الغضب، وظلم الدالة، وظلم الهفوة».

ومهما اعتذر إليك أخوك كاذبًا كان أو صادقًا فاقبل عذره.

عباد الله...

وهناك حقوق أخرى، ستأتي بعد قليل، إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والحق السادس: الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته:

«الدعاء للأخ في حياته وبعد مماته بكل ما يحبه لنفسه ولأهله وكل متعلق به،

فتدعو له كما تدعو لنفسك ولا تفرق بين نفسك وبينه، فإن دعاءك له دعـ لنفسك على التحقيق؛ قال رسول الله ﷺ: «**من استغفر للمؤمنين وللمؤمنات، كتـ الله له بكل مؤمنٍ ومؤمنة حسنة**»(١).

وقال ﷺ: «**دعاء الأخ لأخيه بظهر الغَيب لا يُرَدّ**»(٢).

وقال ﷺ: «**دعاء المرء المسلم مستجاب لأخيه بظهر الغيب، عند رأسه مَلَـ مُوَكَّلٌ به، كلما دعا لأخيه قال الملك: آمين، ولك بمثل ذلك**»(٣).

وكان أبو الدرداء - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - يقول: «إني لأدعو لسبعين من إخواني فـ سجودي أسمّيهم بأسمائهم»(٤).

وروى الخطيب البغدادي في ترجمة الطيّب إسماعيل أبي حمدون، أحد القـر المشهورين قال: «كان لأبي حمدون صحيفة فيها مكتوب ثلاثمائة من أصدقـ وكان يدعو لهم كل ليلة، فتركهم ليلة فنام، فقيل له في نومه: يا أبا حمدون: لِـ تسرج مصابيحك الليلة، قال: فقد فأسرج، وأخذ الصحيفة فدعا لواحد و حـ حتَّى فرغ»(٥).

وكان مُحَمَّد بن يوسف الأصفهاني يقول: «وأين مثل الأخ الصالح؟ أهـ يقتسمون ميراثك ويتنعمون مما خلّفت، وهو منفرد بحزنك، مهتم مما قدمت و صرت إليه، يدعو لك في ظلمة الليل وأنت تحت أطباق الثرى»(٦).

الحق السابع: الوفاء والإخلاص:

ومعنى الوفاء: الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه، فإن الحب إنما يراد للآخرة، فإن انقطع قبل الموت حبـ

(١) حسن: رواه الطبراني في «الكبير» وحسنه الألباني في «صحيح الجامع» (٢/ ٦٠٢٦).
(٢) صحيح: رواه البزار، وانظر «صحيح الجامع» (٣٣٧٩).
(٣) رواه أحمد ومسلم، وغيرهما.
(٤) «الإحياء» (٢/ ٢٠٢).
(٥) «تاريخ بغداد» (٩/ ٣٦١).
(٦) «الإحياء» (٢/ ٢٠٢).

عـ ـ ؤضاع السعي.

قـ ـ بعضهم: قليل الوفاء بعد الوفاة خير من كثيره في حال الحياة.

ومن الوفاء للأخ: مراعاة جميع أصدقائه وأقاربه والمتعلقين به، ومراعاتهم أوقع ـ قـ ـ الصديق من مراعاة الأخ في نفسه، فإن فرحه بتفقد من يتعلق به أكثر، إذ لا ـ عن قوة الشفقة والحب إلا تعديهما من المحبوب إلى كل من يتعلق به، حتى ـكـ الذي على باب داره ينبغي أن يميز في القلب عن سائر الكلاب، ومهما انقطع ـ ـ بدوام المحبة شمت به الشيطان، فإنه لا يحسد متعاونين على بر كما يحسد ـ خيين في الله ومتحابين فيه، فإنه يجهد نفسه لإفساد ما بينهما»[1] ا.هـ[2].

ـ د الله...

وبالجملة: فالحبّ في الله، لا ينقضّ بالجفاء، ولا يزيد بالعطاء، كما قال يحيى بن معاذ الرازي رحمه الله.

والمقصود: أن النبيّ ﷺ آخى بين المهاجرين والأنصار عقب هجرته، لعدة أمور، منها:

(١) أن العقيدة هي أساس الارتباط، فالولاء لله ورسوله وللمؤمنين، والمعاداة لمن عاداهم.

(٢) أن الحب في الله أساس بنية المجتمع، وقد تقدَّمت نماذج مضيئة تدلّ على ذلك.

(٣) أَنَّهُ في ظل الإسلام تذوب الفوارق الإقليمية والقَبلية، وفي الحديثُ الشريف الصحيح: «**ليس مِنَّا من دعا إلى عصبية**».

(٤) بيان فضل الأنصار ومكانهم في الإسلام.

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث عن السيرة العطرة، إن شاء الله، فإلى اللقاء.

❖❖❖❖❖

---

(١) «الإحياء» (٢/ ٢٠٣).

(٢) انتهى ملخصًا من كتاب «من يظلهم الله» د. سيد العفاني.

الخطبة التاسعة والسبعون:

الكمالات التي انفرد بها النبيّ ﷺ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

ذَكَرَ الماورديُّ - رَحِمهُ الله - فِي ذِكرِ خَصائصِ الرَّسُولِ ﷺ وفَضائِلهِ وشَرَفِ أخلاقِهِ وشَمائِلهِ المُؤَيِّدةِ لِنُبوَّتِهِ والمُبَرهِنةِ عَلَى عُمُومِ رِسَالتهِ:

فَالكَمالُ المُعتبرُ فِي البَشَرِ يَكُونُ مِن أربَعةِ أوجُهٍ:

- كَمالُ الخَلْقِ.
- وكَمالُ الخُلُقِ.
- وَفَضائلُ الأقوَالِ.

- وفَضَائِلُ الأعمالِ.

الوجه الأول: كَمالُ الخلْق:

...ن خَلقِهِ بعدَ اعتِدَالِ صُورتِهِ يَكُونُ بأربعةِ أوصَافٍ:

الوصف الأول: السَّكينةُ البَاعثَةُ على الهَيبةِ والتَّعظيمِ الدَّاعيَةُ إلى التَّقديمِ ...سيم.

وكَانَ أعظَمَ مَهيبٍ في النُّفُوسِ حتَّى ارتاعَت رُسُلُ كِسرَى مِن هَيبتِهِ حِينَ أَتَوهُ ...ع ...تيادهم لِصَولَةِ الأَكَاسِرةِ ومُكَاثَرةِ المُلُوكِ الجَبَابرةِ.

فَكَانَ ﷺ في نُفُوسِهِم أهيَبَ وَفي أعْيُنِهِم أعظَمَ، وإن لَم يَتَعاظَم بِأُبَّهةٍ ولَم ...ن بِسَطوَةٍ، بَل كَانَ بِالتَّواضُعِ مَوصُوفًا وبالوطأةِ - أي السُّهولةِ - مَعروفًا.

الوصف الثاني: في الطَّلاقَةِ المُوجِبةِ للإخلَاصِ والمَحَبَّةِ البَاعِثَةِ على المُصافَاةِ ...وَدَّةِ.

وقَد كَانَ صَلَواتُ الله عَليهِ محَبُوبًا استحْكَمَت مَحَبَّةُ طَلاقَتِهِ في النُّفُوس حتَّى لَم يَقْلِهِ(١) مُصَاحِبٌ وَلَم يَتَباعَد مِنهُ مُقَارِبٌ وكَانَ أحَبَّ إلى أصحابِهِ مِنَ الآبَاءِ والأبنَاءِ وشُربِ المَاءِ البَارِدِ عَلَى الظَّمأ.

الوصف الثالث: حُسْنُ القَبُولِ الجَالِبِ لِـمُمَايَلَةِ القُلُوبِ حتَّى تُسرعَ إلى طَاعَتِهِ وتُذعِنَ بمُوَافقَتِهِ، وقَدْ كَانَ قَبُولُ مَنْظَرِهِ ﷺ مُستَوليًا عَلَى القُلُوبِ ولِذَلكَ استحكَمَت مُصَاحبَتُهُ في النُّفُوس حتَّى لَم يَنْفِر مِنهُ مُعَانِدٌ ولا استَوحَشَ مِنهُ مُبَاعِدٌ، إلَّا مَن سَاقَهُ الحَسَدُ إلى شِقوَتِهِ وقَادَهُ الحِرمَانُ إلى مُخَالَفَتِهِ.

الوصف الرابع: مَيلُ النُّفُوس إلى مُتَابعتِهِ وانقيَادُهَا لِمُوافَقَتِهِ وثَبَاتِهِ عَلَى شَدَائِدِهِ ومُصَابَرتِهِ، فَمَا شَذَّ عنهُ مَعَهَا مَن أخلَصَ ولا نَدَّ عَنهُ فِيها إلَّا مَن حُرِمَ الخَيرَ كُلَّهُ.

وهَذِهِ الأربَعةُ مِنْ دَوَاعِي السَّعادةِ وقَوَانِينِ الرِّسالةِ قَدْ تَكَامَلَت فيهِ فَكَمُلَ لِمَا يُوَازِيها واستحَقَّ مَا يَقتَضِيها.

---

(١) لم يقله: لم يبغضه أو يجافه.

الوجه الثاني: كَمَالُ الخُلُق:

أَمَّا كَمَالُ أخلاقِهِ ﷺ فَيَكُونَ بِستِّ خِصَالٍ:

الخِصلة الأولى: رَجَاحَةُ عَقْلِهِ وصِدقُ فَرَاستِهِ، وَقَدْ دَلَّ عَلَى وُفُورِ ذَلِكَ فيهِ صِحَّةُ رَأيِهِ وصَوابُ تَدبيرِهِ وحُسْنُ تألُفِهِ النَّاس وأَنَّهُ ما استُغْفِلَ في مَكيدَةٍ ولا استُعجِزَ في شَديدةٍ بَل كَانَ يَلحَظُ الإعجَازَ في المَبَادئ فَيَكشِفُ عُيُوبَهَا ويَحُلُّ خُطُوبَهَا، وَهَذَا لا يَنتُظِمُ إلَّا بأصدَقِ حَدسٍ وأوضَحِ رُؤيةٍ.

الخصلة الثانية: ثَبَاتُهُ في الشَّدَائدِ وهُو مَطلُوبٌ، وصَبرُهُ عَلَى البَأسَاءِ والضَّرَّاءِ. وهُو مَكرُوبٌ ومحرُوبٌ[1] ونَفسُهُ في اختِلافِ الأحوَالِ سَاكِنَةٌ لا يَجُوزُ في شَدِيدَةٍ ولا يَستكِينُ لِعَظيمةٍ، وقَدْ لَقِيَ بمكَّةَ مِن قُرَيشٍ ما يُشِيبُ النَّواصيَ ويَهُدُّ الصَّيَاصِيَ وهُو مَع الضَّعفِ يُصَابِرُ صَبرَ المُستعْلي ويثبُتُ ثَبَاتَ المُستَولي[2].

الخصلة الثالثة: زُهدُهُ في الدُّنْيَا وإعراضُهُ عَنهَا وقَنَاعتُهُ مِنهَا فَلَم يَمِل إلى غَضَارَتِهَا ولَم يَلهُ لِحَلاوتِهَا وقَدْ مَلَكَ مِن أقصَى الحِجَازِ إلى عِذَارِ العِرَاقِ ومِن أقصَى اليَمَن إلى شَحْرِ عُمَانٍ.

وهُوَ أزهَدُ النَّاس فِيما يُقتَنَى ويُدَّخَرُ وأعرَضُهُم عَمَّا يُستفَادُ ويُحتكَرُ، لَم يُخَلِّف عَينًا ولا دَينًا ولا حَفَرَ نَهرًا ولا شَيَّدَ قَصرًا ولَم يُورِّث وَلَدهُ وأهَلهُ مَتَاعًا ولا مَالًا لِيصرِفَهُم عِن الرَّغبةِ في الدُّنْيَا كَمَا صَرَفَ نَفسهُ عَنها فَيَكُونوا عَلَى مِثلِ حَالِهِ في الزُّهْدِ فِيها.

وحَقيقٌ بِمَن كَان في الدُّنْيَا بِهذِهِ الزَّهَادةِ أن لا يُتَّهمَ بِطَلَبها أو يَكذِبَ عَلَى الله تَعَالى في ادِّعَاءِ الآخِرةِ ويَقنَعَ في العَاجِلِ وقَدْ سُلبَ الآجِلَ بالمَيسُورِ النَّزرِ ويَرَضَ بِالعَيشِ الكَدِرِ.

الخصلة الرابعة: تَواضُعُهُ للنَّاسِ وهُم أتبَاعٌ، وخَفْضُ جَنَاحِهِ لَهُم وهُوَ مُطَاعٌ.

---

(١) الضمير «هو» يعود للنبي ﷺ، والمحروب: مَن فَقَدَ ماله وصار به الإسلام من فقد دينه. والمقصود هو الأول.

(٢) المستولي؛ أي: الممسك بمقاليد الأمور المسيطر عليها.

يمشي في الأسْواقِ ويجلسُ عَلَى التُّرابِ ويمتَزِجُ بأصحَابهِ وجُلسائِهِ فَلَا يَتَمَيَّزُ عَنهُم إلَّا بإطرَاقِهِ وحَيَائِهِ، فَصَارِ بالتَّواضُعِ مُتميِّزًا، وبالتَّذلُّلِ مُتَعَزِّزًا.

ولَقَد دَخَلَ عَليهِ بَعضُ الأعرابِ فَارتَاعَ مِن هَيبتِهِ فَقالَ: «**خَفِّض عَلَيك فإنَّما أنا ابنُ امرأةٍ كَانَت تَأكُلُ القَديدَ بمَكَّةَ**» وهَذَا مِن شَرفِ أخلاقِهِ وكَريمِ شِيمِهِ فَهِيَ غَرِيزَةٌ فُطِرَ عَليهَا وجِبِلَّةٌ طُبِعَ بِهَا لَمْ تَنْذُر فتُعَدَّ، ولم تُحصَر فَتُحَدَّ.

الخصلة الخامسة: حِلمهُ وَوَقَارهُ عَن طَيْش يَهُزُّهُ أو خَرَقٍ يَستفِزُّهُ فَقَدْ كَانَ أحْلَمَ في النِّفَارِ مِن كُلِّ حَليمٍ وأسْلَمَ في الخِصَامِ مِن كُلِّ سَلِيم.

وقَدْ مُنِيَ بجَفوةِ الأعْرَابِ فَلَم يُوجَد مِنهُ نَادِرَةٌ ولَمْ يُحفظْ عَلَيهِ بَادِرَةٌ، ولَا حَلِيمَ غَيرَهُ إلَّا ذُو عَثرَةٍ ولا وَقُورَ سِوَاهُ إلَّا ذُو هَفوَةٍ، فإنَّ الله تَعَالى عَصَمهُ مِن نَزعِ الهَوَى وطَيشِ القُدرَةِ[1] لِيَكُون بأمَّتِهِ رَءُوفًا وَعَلَى الخَلْقِ عَطُوفًا لَقَد تَنَاولَتْهُ قُريشٌ بِكُلِّ كَبيرةٍ وقَصَدتُهُ بِكُلِّ جَريرةٍ وهُوَ صَبُورٌ عَلَيهم ومُعرِضٌ عَنهُم.

ومَا تَفَرَّد بِذَلِكَ سُفَهَاؤُهُم عَن حُلَمَائِهم ولا أرَاذِلُهُم دُونَ عُظَمَائِهم، بَلْ تَمَالأَ عَلَيهِ الجِلَّةُ والدُّونُ، فَكُلَّما كَانُوا عَليهِ ألَحَّ، كانَ عَنهُم أعرضَ وأصفَحَ، حتَّى قَدَرَ فَعَفَا، وأمكَنَهُ الله مِنهُم فَغَفرَ.

وقَالَ لَهُم حِين ظَفِرَ بِهِم عَامَ الفَتح وقَدِ اجتَمَعُوا إليهِ: «**مَا ظَنُّكُم بي؟**» قَالُوا ابنُ عَمٍّ كَريم، فَإن تَعفُ فَذَاكَ الظَّنُّ بِكَ، وإن تَنتقِم فَقَد أسَأنَا، فَقَالَ: «**بَل أقُولُ كَما قَالَ يُوسُفُ لإخوَتِهِ: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ اليَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾**». وقَالَ: «**اللَّهُمَّ قَدْ أذقْتَ أوَّلَ قُريشٍ نَكَالًا فَأذِق آخِرَهُم نَوَالًا**».

وأتَتْهُ هِندُ بِنتُ عُتبةَ، وقَدْ بَقَرَتْ بَطنَ عَمِّهِ حَمزةَ، ولَاكَت كَبِدَهُ، فَصَفَحَ عَنها وبَايَعَها.

فإن قيلَ: فَقَد ضَرَبَ رِقَابَ بَني قُرَيظَة صَبرًا في يومٍ وَاحِدٍ وُهم نَحوُ سَبعمائةٍ، فأينَ مَوضِعُ العَفْوِ والصَّفحِ؟

قيل: إنَّما فَعَل ذَلِكَ في حُقُوقِ الله تَعَالى، وقَدْ كَانت بَنُو قُرَيظَة رَضُوا بِتَحكيمِ

(١) أي: النفار، أو المنافرة.

سَعد بن مُعَاذٍ عَلَيهم فَحَكَم أنَّ مَن جَرَت عَلَيه المُوسَى[1] قُتلَ ومَنْ لَم تَجرِ عَلَيه استُرِقَّ، فَقالَ رَسُولُ الله ﷺ: «هَذَا حُكْمُ الله مِن فَوقِ سَبعةِ أرقِعَةٍ[2]»، فَلَم يُجُز أن يَعفُوَ عَن حقٍّ وَجَبَ لله تَعَالى عَلَيهم وإنَّما يَختَصُّ عَفوُهُ بحَقِّ نَفسِهِ.

الخصلة السادسة: حِفْظُهُ لِلعَهدِ وَوفَاؤُهُ بِالوَعدِ فَإنَّهُ مَ نَقَضَ لِمُحَافِظٍ عَهدًا، ولا أخْلَفَ لِمُرَاقِبٍ وعدًا، يَرَى الغَدرَ مِن كَبَائِرِ الذُّنُوب، والإخلافَ مِن مَسَاوِئ الشِّيَمِ فَيَلتَزِمُ فِيهمَا الأغلَظَ ويَرتكِبُ فِيهمَا الأصعَبَ حِفظًا لِعَهدِهِ وَوَفَاءً بوَعدِهِ حتَّى يَبتَدِئ مُعَاهِدُوهُ بنَقضِهِ فَيَجعَلَ الله تَعَالى لَهُ مَخرجًا كَفِعلِ اليَهُودِ مِن بَنِي قُرَيظَةَ وَبَني النَّضيرِ وَكَفِعلِ قُرَيشٍ بِصُلحِ الحُدَيبيةِ إذْ جَعَلَ الله تَعَالى لَهُ في نَكثِهِمْ الخِيرَةَ.

فَهذِه سِتُّ خِصالٍ تَكَامَلَت في خُلُقِهِ، فَضَّلَهُ الله تَعَالى عَلَى جَميعِ خَلقِهِ.

الوجه الثالث: فضائل الأقوال:

فِي فَضائِلِ أقوَالِهِ ﷺ خِصَالٌ عَديدةٌ، مِنها:

الخصلة الأولى: مَا أُوتيَ مِنَ الحِكمَةِ البَالِغَةِ، وأُعطِيَ مِنَ العُلُوم الجَمَّةِ البَاهِرَةِ. وهُوَ أُمِّيٌّ مِن أُمَّةٍ أُمِّيَّةٍ لَم يَقرأ كِتَابًا ولا دَرَسَ عِلمًا ولا صَحِبَ عَالِمًا ولا مُعَلِّمًا فَأَتى بِمَا بَهَرَ العُقُولَ وأذهَلَ الفِطَنَ مِن إتقانِ مَا أبَانَ وإحكَامِ مَا أظهَرَ وَلَم يَتَعثَّر فيهِ بِزَلَلٍ في قَولٍ أو عَمَلٍ.

وقَدْ شَرَعَ مَن تَقدَّم مِن حُكمَاءِ الفَلاسِفَةِ سُنَنًا حَمَلُوا النَّاس عَلَى التَّديُّنِ بها حِينَ عَلِمُوا أنَّهُ لا صَلاحَ لِلعَالَمِ إلَّا بدينٍ يَنقَادُونَ لَهُ ويعمَلُون بِهِ فَمَا رَاقَ لها أثرٌ ولا فَوقَ لَهَا خَبرٌ.

الخصلة الثانية: حِفظُهُ لِمَا أطلعَهُ الله تَعَالى عَليهِ مِن قَصَص الأنبِيَاءِ مَعَ الأُمَمِ وأخبَارِ العَالَمِ فِي الزَّمنِ الأقْدَمِ حتَّى لَم يَعزُب عَنهُ مِنها صَغِيرٌ ولاَ كَبيرٌ ولا شَذَّ عَنه مِنها قَليلٌ ولا كَثيرٌ.

---

(١) جرت عليه الموسى: أي: بلغ مبلغ الرجال.

(٢) يعني من فوق سبع سموات.

...هو لا يضبطُهَا بِكتابٍ يَدرسُهُ ولا يَحفظُهَا بعَينٍ تَحرسُهُ، ومَا ذَاكَ إلَّا مِن ذِهنٍ ...حيحٍ وصَدرٍ فَسِيحٍ وقَلبٍ شَرِيحٍ، وهَذِهِ الثَّلاثَةُ آلةُ ما استُودِعَ مِن الرِّسالةِ ...من أعبَاءِ النُّبُوَّةِ، فَجَديرٌ أن يكُونَ بِها مَبعُوثًا وعَلَى القِيَامِ بِهَا مَحثُوثًا.

خصلة الثالثة: إحكَامُهُ لِمَا شُرِعَ بِأظهَرِ دَليلٍ وبَيَانُهُ بأوضَحِ تَعليلٍ حتَّى لَم ...رج مِنهُ مَا يُوجِبُهُ مَعقُولٌ[1] وَلا دَخَلَ فيهِ مَا تَدفَعُهُ العُقُولُ.

...ولذَلِكَ قال ﷺ: «**أُتِيتُ جَوَامِعَ الكَلِمَ واختُصِرَت لِي الحِكمَةُ اختِصَارًا**» لأنَّهُ نَبَّه ...القَليلِ عَلَى الكَثيرِ فَكَفَّ عَنِ الإطَالةِ وكَشَفَ عن الجَهالةِ ومَا تَيَسَّرَ ذَلِكَ إلَّا وهوَ ...عليهِ مُعَانٌ وإليهِ مُقَادٌ.

الخصلة الرابعة: مَا أُمِرَ بِهِ مِن مَحَاسنِ الأخلاقِ ودَعَا إِليهِ مِن مُستَحْسَنِ الآدَاب وحَثَّ عَليهِ مِن صِلةِ الأرْحَامِ ونَدَبَ إليهِ مِنَ التَّعَطُّفِ عَلَى الضُّعفَاءِ والأيتَام.

ثُمَّ مَا نَهَى عَنْهُ مِنَ التَّبَاغُضِ والتَّحاسُدِ وكَفَّ عَنْهُ مِنَ التَّقَاطُعِ والتَّباعُدِ لِتكُونَ الفَضَائِلُ فِيهم أكثَرَ ومَحَاسِنُ الأخلاقِ بَينهُم أنشَرَ، ومُستحْسَنُ الآدَابِ عَلَيهم أظْهَرَ وتَكُونَ إلى الخَيرِ أسرَعَ ومِنَ الشر أمنَعَ.

فيتَحَقَّقُ فِيهم قَولُ الله تَعَالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالـمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ**﴾ [آل عمران: ١١٠]، فَلَزِمُوا أمرَهُ واتَّقوا زَوَاجِرَهُ فتَكَامَلَ بِهم صَلَاحُ دِينهم ودُنيَاهُم حَتَّى عَزَّ بِهمُ الإسلامُ بعدَ ضَعفِهِ وذَلَّ بِهمُ الشِّركُ بعدَ عِزِّه، فَصَاروا أئمَّةً أبرارًا وقَادةً أخيارًا.

الخصلة الخامسة: وُضوحُ جَوابِهِ إذا سُئِلَ، وظُهُورُ حِجَاجِهِ إذا جَادَلَ لا يَحصُرُهُ عِيٌّ، ولا يَقطعُهُ عَجزٌ ولا يُعَارِضُهُ خَصمٌ في جِدَالٍ إلَّا كانَ جَوابُهُ أوضَحَ وحِجَاجُهُ أرجَحَ.

الخصلة السَّادسة: أنَّهُ مَحفُوظُ اللِّسَان مِن تَحريفٍ في قَولٍ، واستِرسَالٍ في خَبرٍ يَكُونُ إلى الكَذِبِ مَنسُوبًا وللصِّدقِ مُجَانِبًا، فَإنَّهُ لَم يَزل مَشهُورًا بِالصِّدقِ في خَبَرِهِ

---

(١) معقول هنا بمعنى: العقل.

كَانَ فَاشِيًا وكَثِيرًا حَتَّى صَارَ بالصِّدقِ مَرقُومًا، وبالأَمَانةِ مَوسُومًا.

وكَانت قُريشٌ بأسرِهَا تَتيَقَّنُ صِدقَهُ قَبْلَ الإسْلام فَجهرُوا بتكذِيبهِ في استِدعَائِهم إليهِ، فَمنهُم مَن كَذَّبهُ حَسَدًا، ومِنهُم مَن كَذَّبهُ عِنَادًا، ومِنهُم مَن كَذَّبهُ استِبْعَاد أن يَكُون نبيًّا أو رسُولًا.

ولَو حَفِظُوا عَليهِ كِذبةً نَادرَةً في غَيرِ الرِّسَالةِ لجَعَلُوهَا دَليلًا على تكذِيبهِ في الرِّسَالةِ، ومَن لَزِمَ الصِّدقَ في صِغَرهِ كَانَ لَهُ في الكِبرِ ألزَمَ، ومَن عُصِمَ مِنهُ في حَقِّ نَفسِهِ كان في حُقُوقِ الله تَعَالى أعصَمَ، وحَسبُكَ بهذَا دَفعًا لِجَاحِدٍ ورَدًّا لِمُعانِدٍ.

الخصلةُ السَّابعةُ: تَحريرُ كَلَامهِ في التَّوَخِّي بِهِ إبَّانَ حَاجَتهِ والاقتِصَارُ مِنهُ عَلى قَدرِ كِفَايَتهِ فَلا يَستَرسِلُ فيهِ هَذَرًا ولا يُحجِمُ عَنهُ حَصرًا وهُوَ فِيمَا عَدَا حَالَتي الحَاجَةِ والكِفَايةِ أجمَلُ النَّاسِ صَمتًا وأحسَنُهُم سَمتًا.

ولِذَلكَ حُفظَ كَلامُهُ حَتَّى لَم يَختَلَّ وظَهَر رونَقُهُ حَتَّى لَم يَعتلَّ واستعذَبَتهُ الأفوَاهُ حَتَّى بَقيَ محفُوظًا في القُلُوبِ مُدوَّنًا في الكُتُب فَلَن يَسلَمَ الإكثَارُ مِن الزَّلَلِ ولا الهَذَرُ مِنَ المَلَلِ.

الخصلةُ الثَّامنةُ: أنَّهُ أفصَحُ النَّاس لِسَانًا وأوضَحُهُم بَيانًا وأوجَزُهُم كَلامًا وأجزَلُهُم ألفاظًا، وأصحُّهُم مَعَانيَ، لا يَظهرَ فيهِ هُجنةُ التَّكلُّفِ ولا يَتخَلَّلُهُ فَيهَقَةُ التَّعَسُّفِ.

وقَدْ دُوِّنَ كَثيرٌ مِن جَوَامِعِ كَلمِهِ ومِن كَلامِهِ الَّذي لا يُشَاكَلُ في فَصَاحَتِهِ وبلاغَتِهِ ومَعَ ذَلِكَ فَلا يَأتِي عَليهِ إحصاءٌ ولا يَبلُغُهُ استِقصَاءٌ.

وَلو مُزِجَ كَلامُهُ بغَيرِهِ لتَميَّزَ بأُسلُوبِهِ ولظَهَرَ فيه آثَارُ التَّنَافُرِ فَلَم يَلتَبِس حَقُّهُ مِن بَاطِلِهِ ولَبَانَ صِدقُهُ مِن كِذبهِ، هَذَا ولَم يَكُن مُتعَاطِيًا للبَلاغَةِ ولا مُخَالِطًا لأهلِهَا مِن خُطَبَاءَ أو شُعَراءَ أو فُصَحَاءَ، وإنَّما هُوَ مِن غَرائِزِ طَبعِ وبِدَايَةِ جِبلَّتِهِ ومَا ذَاكَ لِغَايةٍ تُرَادُ وحَادثَة تُشَادُ.

عباد الله...

هذه ثلاثة أوجه من أوجه الكمال التي انفرد بها النبيّ ﷺ، وسيأتي الوجه

ـ ـع بعد قليل إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

حمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

الوجه الرَّابع: فَضَائِلُ الأعمَال:

وأمَّا في فَضَائِل أفعَالِهِ ﷺ فَمُختَبرٌ بِثَمانِ خِصَالٍ:

الخصلةُ الأُولى: حُسنُ سِيرَتِهِ، وصِحَّةُ سِيَاسَتِهِ في دِينٍ نَقَلَ بِهِ الأُمَّة عَن ـأُلوفٍ، وصَرَفَهُم عَن مَعرُوفٍ إلى غَيرِ مَعرُوفٍ، فَأَذْعَنت بِهِ النُّفُوس طَوعًا، وانقَادَت خَوفًا وطَمعًا.

وحَسبُك بِمَا استقَرَّت قَوَاعِدُهُ عَلَى الأبدِ حَتَّى انتقَلَ عَن سَلَفٍ إلى خَلَفٍ يُزَادُ فِيهم حَلاوتُهُ، ويَشتَدُّ فِيهم جِدَّتُهُ، ويَرونَهُ نِظَامًا لإعصَارٍ تَنقَلِبُ صُرُوفُها، وتَختَلِفُ مَألوفُهَا أن يَكُونَ لِمَن قَامَ بِهِ بُرهَانًا ولِمَن ارتَابَ بِهِ بَيَانًا.

الخصلةُ الثَّانيةُ: أَنْ جَمَعَ بَيْنَ رَغْبَة مَنِ استَمَالَ ورَهْبَةِ مَنِ اسْتَطَاعَ حَتَّى اجتَمَع الفَريقَانِ على نُصْرَتِهِ، وَقَامُوا بحُقُوقِ دَعوَتِهِ رَغَبًا في عَاجِلٍ وَآجلٍ، ورَهَبًا مِن زَائِلٍ ونَازِلٍ، لاختِلافِ الشِّيَم والطِّبَاعِ في الانقيَادِ الذي لا يَنتظِمُ بأَحَدِهِمَا، ولا يَستَدِيمُ إلَّا بِهمَا، فَلِذَلكَ صَارَ الدِّينُ بِهِمَا مُستقِرًّا، والصَّلاحُ بِهما مُستَمِرًّا.

الخصلةُ الثَّالثةُ: أَنَّهُ عَدَلَ شَرعَهُ مِنَ الدِّينِ عَن الغُلُوِّ والتَّقصيرِ إلى التَّوسُّطِ، وخَيرُ الأُمورِ أوسَاطُهَا، ولَيسَ لما جَاوَزَ العَدلَ حَظٌّ مِن رَشَدٍ ولا نَصِيبٌ مِن سَدَادٍ.

الخصلةُ الرَّابعةُ: أَنَّهُ لَم يَمِل بأصحَابهِ إلى الدُّنيا ولا إلى رَفْضِهَا، وأمَدَّهُم فِيهَا بالاعتِدَالِ، وقَالَ: «خَيرُكُم مَن لَم يَترُك دُنيَاهُ لآخِرَتِهِ ولا آخِرتِهِ لدُنيَاهُ، ولكِن خَيرُكم مَن أخَذَ مِن هَذِهِ وهَذِهِ»، وَهَذَا صَحيحٌ، لأنَّ الانقِطَاعَ إلى أحدِهِمَا اختِلالٌ، والجَمعَ بَينهُمَا اعتدَالٌ.

وقال ﷺ: «نِعمَ المطيَّةُ الدُّنيا فارتَحِلُوهَا تُبَلِّغكُمُ الآخِرةَ»، وإنَّما كانَ كَذَلِكَ لأنَّ منها يَتَزوَّدُ لآخِرَتِهِ، ويَستكثِرُ فِيهمَا مِن طَاعَتِهِ وأنَّهُ لا يَخلُو تَارِكُها مِن أن يَكُونَ مَحرُومًا مُضَاعًا أو مَرحُومًا مُرَاعًى وهُوَ في الأوَّلِ كَلٌّ وفي الثَّاني مُستَذَلٌّ.

الخصلةُ الخَامِسةُ: تَصَدِّيهِ لِمَعَالم الدِّين ونَوازِلِ الأحكَام حَتَّى أوضَحَ للأُمَّةِ مَا كُلِّفُوهُ مِن العِبَاداتِ، وبيَّنَ لَهُم مَا يَحِلُّ ومَا يَحرُمُ مِن مُبَاحَاتٍ ومحظُوراتٍ، وفَصَّلَ لَهُم مَا يَجُوزُ ويَمتنعُ مِن عُقُودٍ ومَنَاكِحَ ومُعَامَلاتٍ، حَتَّى احتَاجَ أهلُ الكِتَابِ في كَثيرٍ مِن مُعَامَلاتِهِم ومَوَارِيثِهم لِشَرعِهِ ولَم يَحتج شَرعُهُ إلى شَرعِ غَيرِهِ ثُمَّ مَهَّدَ لشَرعِهِ أُصولًا تَدُلُّ عَلَى الحَوادثِ المُغفَلةِ ويُستَنبطُ لَهَا الأحكَامُ المُعَلَّلَةُ فأغْنَى عَن نَصٍّ بَعدَ ارتفَاعِهِ، وعَن التِبَاسٍ بعدَ إغفَالِهِ، ثُمَّ أمرَ الشَّاهدَ أنْ يُبَلِّغُ الغَائِبَ لِيَعلَمَ بإنذَارِهِ ويحتَجَّ بإظْهَارِهِ، فَقَالَ ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي ولا تَكْذِبُوا عَلَيَّ، فَرُبَّ مُبَلِّغٍ أوعَى مِن سَامِعٍ، ورُبَّ حَامِلِ فِقهٍ إلى مَن هُوَ أفقَهُ مِنْهُ».

فَأَحكَمَ مَا شَرَعَ مِن نَصٍّ أو تَنبِيهٍ وعَمَّ بِهَا أ مرَ مِن حَاضِرٍ وبَعيدٍ حَتَّى صَارَ لِمَ تَحَمَّلهُ مِن الشَّرعِ مُؤَدِّيًا، ولِمَا تَقَلَّدهُ مِن حُقُوقِ الأُمَّة مُوَفِّيًا لِئَلَّا يَكُونَ في حُقُوقِ الله زَللٌ، وذَلِكَ في بُرهَةٍ مِن زَمَانِهِ لَم يَستَوفِ تَطَاوُلَ الاستِيعَابِ حَتَّى أوجَزَ وأنجَزَ. ومَا ذَلِكَ إلَّا بَديعُ مُعجِزٍ.

الخصلةُ السَّادسةُ: انتِصَابُهُ لِجِهَادِ الأعْدَاءِ وقَدْ أحَاطُوا بِجِهَاتِهِ وأحدَقُوا بِجَنَبَاتِهِ وهو في قُطبٍ مَهجُورٍ، وعَدَدٍ مَحقُورٍ فَزَادَ بِهِ مَن قَلَّ وعَزَّ بِهِ مَن ذَلَّ وصَارَ بإثخَانِهِ في الأعْدَاءِ مَحذُورًا وبالرُّعبِ مِنهُ مَنصُورًا فَجَمعَ بَينَ التَّصدِّي لشَرعِ الدِّين حَتَّى ظَهَرَ وانتَشَرَ وبين الانتصَابِ لِجِهَادِ العَدُوِّ حَتَّى قَهَرَ وانتَصَرَ والجَمعُ بَينهُمَ مُعوِزٌ إلَّا لِمَن أمَدَّهُ اللَّـهُ بِمَعُونتِهِ وأيَّدَهُ بِلُطفِهِ، والمُعوِزُ مُعجِزٌ.

الخصلةُ السَّابعةُ: مَا خُصَّ بِهِ مِن الشَّجاعةِ في حُرُوبِهِ، والنَّجدَةِ في مُصَابَرةِ عَدُوِّهِ فَإنَّهُ لَم يَشهَد حَربًا في فَزَعٍ إلَّا صَابَرَ حَتَّى انجلَت عَنْ ظَفَرٍ أو دِفَاعٍ وهُوَ في مَوقِفِهِ لَم يَزُل عَنهُ هَربًا ولا حَازَ فِيهِ رَغبًا، بَل ثَبَتَ بِقَلبٍ آمِنٍ وجَأشٍ سَاكِنٍ قَدْ وَلَّى عَنهُ أصحَابُهُ يَومَ حُنَينٍ حَتَّى بَقِيَ بإزَاءِ جَمعٍ كَثيرٍ وجَمٍّ غَفيرٍ في تِسعةٍ مِن أهلِ بَيتِهِ وأصحَابِهِ عَلَى بَغلَةٍ مَسبُوقَةٍ إن طُلِبَت غَيرِ مُستعِدَّةٍ لِهَربٍ ولا طَلَبٍ وهُوَ يُنَادي

أصحَابَهُ ويُظهِرُ نَفسَهُ ويَقُولُ: «**إليّ عِبادَ الله، أنَا النّبيُّ لا كَذِب أنا ابنُ عَبدِ المُطَّلِب**»، فَعَادُوا أشذَاذًا وأرسالًا وهَوَازِنُ تَرَاهُ وتُحجِمُ عَنهُ، فَمَا هَابَ حَربَ مَن كَاثَرهُ ولا انكَفَأَ عَن مُصَاوَلَةِ مَن صَابَرهُ.

وقَدْ عَضَدَهُ اللَّـهُ تَعَالى بِأنجَادٍ وأنجَادٍ فَانحَازُوا وصَبَرَ حَتَّى أمَدَّه اللَّـهُ بنَصرِهِ، ومَا هَذِهِ الشَّجَاعَةِ مِن عَدِيلٍ، ولَقَد طَرَقَ المَدِينةَ فَزَعٌ فَانطَلَقَ النَّاسُ فَتلقَّوهُ نَحوَ الصَّوتِ فَوَجَدُوا رَسُول الله ﷺ قَدْ سَبقَهُم إليهِ، فَتلقَّوهُ عَائِدًا عَلَى فَرَسٍ عُرِي لأبي طَلحةَ الأنصاريِّ وعَلَيهِ السَّيفُ، فَجَعلَ يَقُولُ: «**أيُّها النَّاسُ لَم تُرَاعُوا لَم تُراعُوا**»، ثُمَّ قَالَ لأبي طَلحة: «**إنَّا وجَدنَا بَحرًا**»، وكانَ الفَرَسُ يُبطِئُ فَمَا سَبقَهُ فَرسٌ بَعدَ ذَلِكَ.

ومَا ذَاكَ إلَّا عَن ثِقَةٍ مِن أنَّ الله تَعَالى سَينصُرُهُ وأنَّ دِينهُ سيُظهِرُهُ، تَحقِيقًا لِقولِهِ تَعَالى: ﴿**لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ**﴾ [التوبة: ٣٣]،وتَصديقًا لِقَولِ رَسُول الله ﷺ: «**إنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ زَوَى لِي الأَرْضَ حَتَّى رَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا**» وكَفَى بِهَذَا قِيَامًا بِحَقِّهِ وشَاهِدًا عَلَى صِدقهِ.

الخصلةُ الثَّامِنةُ: مَا مُنِحَ مِنَ السَّخَاءِ والجُودِ حَتَّى جَادَ بِكُلِّ مَوجُودٍ مَطلُوبٍ ومَحبُوبٍ ومَاتَ ودِرْعُهُ مَرهُونةٌ عِندَ يَهُوديٍّ عَلَى آصُعٍ مِن شَعِيرٍ لِطَعَامِ أهلِهِ، وقَدْ مَلَكَ جَزِيرةَ العَرَبِ وكَانَ فِيهَا مُلُوكٌ وأقيَالٌ لَهُم خَزائِنُ وأموَالٌ يَقتَنُونَهَا ذُخرًا ويَتبَاهُونَ بِهَا فَخرًا ويَستَمتِعُونَ بِهَا أشَرًا وبَطرًا، وقَدْ حَازَ مُلْكَ جَمِيعهم فَمَا اقتَنَى دِينارًا ولا دِرهَمًا، لا يَأكُلُ إلَّا الخَشِنَ ولا يَلبَسُ إلَّا الخَشِنَ، يُعطِي الجَزلَ الخَطِيرَ، ويَصِلُ الجَمَّ الغَفيرَ، ويَتَجَرَّعُ مَرَارةَ الإقْلَاعِ، ويَصْبِرُ عَلَى سَغَبِ الاختِلَالِ، وكَانَ يَقُولُ: «**أنَا أوْلَى بِالمُؤمنِين مِن أنفُسِهِم، فَمَن تَركَ دَينًا أو ضَيَاعًا فَعَلَيَّ، ومَن تَرَكَ مالًا فَلِوَرثَتِهِ**» فَهل مِثْلُ هَذَا الكَرَم والجُودِ كَرَمٌ وجُودٌ؟ أم هَل لِمِثل هَذَا الإعْرَاضِ والزَّهَادَةِ إعرَاضٌ وزُهْدٌ؟ هَيهَاتَ.

هَل يُدرَكُ شَأوُ مَن هَذِهِ شُذُورٌ مِن فَضَائِلِهِ ويَسِيرٌ مِن مَحَاسِنِهِ التي لا تُحصَى لَهَا عَددٌ ولا يُدرَكُ لَهَا أمَدٌ، ولَم تكمُلْ فِي غَيرِهِ فَيُسَاوِيَهُ، ولا كَذَّب بِهَا ضِدٌّ يُنَاوِيهِ، ولَقَد جَهِدَ كُلُّ مُنَافِقٍ ومُعَانِدٍ وكُلُّ زِنديقٍ ومُلحِدٍ أن يُزرِيَ عَليهِ فِي قَولٍ أو فِعْلٍ أو يَظْفَرَ بِهَفوةٍ فِي جَدٍّ أو هَزلٍ فَلَم يَجِد إليهِ سَبيلًا، وقَدْ جَهِدَ جُهدَهُ وجَمَعَ كَيْدَهُ.

فَأيُّ فَضْلٍ أعظَمُ مِن فَضْلٍ شَاهَدَهُ الحَسَدَةُ والأعدَاءُ، فَلَم يَجِدُوا فيه مَغمَزًا لِثَالِبٍ أو قَادحٍ ولا مَطعَنًا لِجَارحٍ أو فَاضِحٍ فَهُوَ كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

شَهِدَ الأنَامُ بفَضلِهِ حَتَّى العِدَا والفَضْلُ مَا شَهِدَتْ بِهِ الأعدَاءُ

وبالجُملَةِ: فَآيَةُ أخلاقِهِ صَلَواتُ الله عَليهِ آيَةٌ كُبرَى وعَلَمٌ مِن أعلامِ نُبُوَتِهِ العُظْمَى، وقَدْ أجملَهَا بَعضُهُم بِقَولِهِ: وآيَةٌ أُخرَى لا يَعرِفُهَا إلاَّ الخَاصَّةُ، ومَتَى ذُكِرَتِ الخَاصَّةُ فَالعَامَّةُ في ذَلكَ مِثلُ الخَاصَّة.

وهِيَ الأخَلاقُ والأفعَالُ التِي لَم تَجتَمع لِبَشَرٍ قَطُّ قَبلَهُ وَلا تَجتمِع لِبَشَرٍ بَعدَهُ، وذَلِكَ أنَّا لَم نرَ وَلَم نَسمَع لأحَدٍ قَطُّ كَصَبرِهِ، ولا كَحِلمِهِ، ولا كَوَفَائِهِ، ولا كَجُودِهِ، ولا كَنَجْدَتِهِ، ولا كَصِدقِ لَهجَتِهِ، ولا كَكَرمِ عِشْرَتِهِ، ولا كَتَوَاضُعِهِ، ولا كَحِفظِهِ، ولا كَصَمْتِهِ إذَا صَمَتَ، ولا كَقَولِهِ إذَا قَالَ، ولا كَعَجِيبِ مَنْشَئِهِ، ولا كَعَفوِهِ، ولا كَدَوَام طَرِيقَتِهِ وقِلَّةِ امتِنَانِهِ.

ولَم تَجِد شُجَاعًا قَطُّ إلَّا وقَدْ جَالَ جَولةً وفَرَّ فَرَّةً وانحَازَ مَرَّةً، ولا يَستَطِيعُ مُنَافِقٌ ولا زِندِيقٌ ولا دَهرِيٌّ أن يُحدِّث أنَّهُ ﷺ جَالَ جَولةً قَطُّ ولا فَرَّ فَرَّةً قَطُّ، ولا حَامَ عَنْ غَزوةٍ ولا هَابَ حَربًا مِن مُكاثَرةٍ، وذَلِكَ مِن أعجَبِ مَا آتَاهُ اللهُ نَبيًّا قَطُّ، مَعَ سَائِرِ مَا جَاءَ بِهِ مِنَ الآيَاتِ ومِن ضُرُوبِ البُرهَانَاتِ إذ أعدَاؤُهُ جَمٌّ غَفِيرٌ وجَمعُهُم كَثيرٌ فَخَصِمَهُم حِين جَادَلُوهُ وصَابَرَهُم حِينَ عَانَدُوهُ وكَابَدَ مِنَ الشَّدائِدِ مَا لم يَثبُت عَلَيها إلَّا كُلُّ مَعصُومٍ، ولَم يَسلَم مِنها إلَّا مَنصُورٌ إلى أن عَلَت كَلمَتُهُ وظَهَرت دَعوتُهُ.

وكُلُّ هَذِهِ آياتٌ تُنذِرُ بِالحَقِّ وتُلائِمُ الصِّدقَ، لأنَّ الله لا يَهدي كَيْدَ الخَائِنِينَ، ولا يُصلِحُ عَمَلَ المُفسدِينَ». ا.هـ[١].

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ، فإلى اللقاء إن شاء الله.

---

(١) بواسطة «نضرة النعيم».

الخطبة الثمانون:

[أ] الخصائص التي انفرد بها النبيّ ﷺ عن بقيّة الأنبياء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ وَرَدَتِ الآياتُ القُرآنيَّةُ والأحَاديثُ النَّبَويَّةُ تُصَرِّحُ بِعُلوِّ مَنزِلةِ نَبيِّنَا الكَريم ﷺ، وأَنَّهُ أعلَى النَّاسِ قَدرًا، وأعظَمُهُم محَلًا وأكمَلُهُم محَاسِنَ وفَضلًا، وأنَّ الله تَبارَكَ وتَعَالى قَدْ أكرَمَهُ بِخَصائِصَ لَم يُعطِهَا غَيرهُ مِنَ الأنبياءِ والمُرسَلِينَ -صَلَواتُ اللّـهُ وسَلامُهُ عَلَيهم أجمَعِينَ- والبَشَرِ.

عباد الله...

ومن فوائد معرفة الخصائص التي انفرد بها نبيِّنا ﷺ:

الوُقُوفُ عَلَى مَا انفَرَدَ به نَبيُّنا ﷺ عَن غَيرِهِ مِنَ الأنبياءِ والمُرسَلينَ عَلَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ، ومَا أكرَمَهُ اللَّـهُ بِهِ مِنْ المِنَح والهِبَاتَ تَشريفًا لَهُ وتَعظيمًا وتَكريمًا مِمَّا يَدُلُّ عَلَى جَليلِ مَنزِلَتِهِ عِندَ رَبِّهِ.

فَمَعرِفَةُ ذَلِكَ تَجعلُ المُسلمَ يَزدَادُ إيمانًا مَعَ إيمانِهِ ومَحَبَّةً وتَبجِيلًا لِنَبِيِّهِ وشَوقًا لَهُ ويَقِينًا بِهِ، وتَدعُو غَيرَ المُسلمِ لِدَراسةِ أحوالِ هَذَا النَّبيِّ الكَريمِ ﷺ، ومِنْ ثَمَّ الإيمانُ والتَّصديقُ بِهِ وبِمَا جَاءَ بِهِ إن كَانَ مِنَ المُنصِفِينَ.

ويُضَمُّ إلى ذَلِكَ فَوائدُ ذِكرِ مَا اختُصَّ بِهِ عَن أُمَّتِهِ مِنَ الأحكَامِ، فَمِنها: تَمييزُ تِلكَ الخَصَائِصِ ومَعرِفَتُهَا وثَمرَةُ ذَلِكَ بَيانُ تَفَرُّدِهِ واختِصَاصِهِ بِهَا، وأَنَّ غَيرهُ لَيسَ لَهُ أن يَتأَسَّى بِهِ فِيها.

قَالَ الحَافظُ ابنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُ اللَّـهُ -عِندَ ذِكرِهِ لِفَوائِدِ حَديثِ: «نَهَى رَسُولُ الله ﷺ عَن الوِصَالِ» قالوا: «إنَّكَ تُوَاصِلُ....» قَالَ: فيه ثُبوتُ خَصَائِصهِ ﷺ، وأنَّ عُمُومَ قَولِهِ تَعَالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾ [الأحزاب: ٢١]. مَخْصُوصٌ[١].

وهذه الخصائص لا تثبت إلَّا بدليل صحيح.

والخصائص من حيث الأصل تنقسم إلى قسمين:

الأول: خصائص اختُص بها رَسُول الله ﷺ دون غيره من الأنبياءِ والمُرسَلِينَ.

والثاني: ما اختُصّ به ﷺ من الخَصائِص والأحكام دون أُمته، وقَدْ يُشاركه في بعضها الأنبياء صَلَواتُ اللَّـهُ وسَلامُهُ عَلَيهم أجمَعينَ.

عباد الله...

واليوم إن شاء الله تَعَالى، نتكلم عن القسم الأول:

---

(١) «فتح الباري» (٤/ ٢٤٢)، وانظر «نضرة النعيم» (٤٤٨).

ما اختُص بها رَسُول الله ﷺ دون غيره من الأنبياءِ والُمرسَلِينَ(١):

قَسَّم العُلماءُ - رَحِمَهُمُ اللَّـهُ - الخَصائِصَ الَّتِي انفَرَدَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ عَن بَقيَّةِ الأنبيَاءِ والُمرسَلينَ عَليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى عِدَّةِ أنواعٍ:

النَّوعُ الأوَّلُ: مَا اختُصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ في الدُّنيا.

النَّوعُ الثَّاني: مَا اختُصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ في الآخِرَةِ.

النَّوعُ الثَّالث: مَا اختُصَّ بِهِ في أُمَّتِهِ في الدُّنيا.

النَّوعُ الرَّابعُ: مَا اختُصَّ بِهِ في أُمَّتِهِ في الآخِرَةِ(٢).

النَّوعُ الأوَّلُ: مَا اختُصَّ بهِ فِي ذاتِهِ في الدُّنيا:

اختَصَّ الله تَبَارك وتَعَالى نَبيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ دُونَ غَيرِهِ مِنَ الأنبيَاءِ والُمرسَلِينِ عَليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ بِخَصَائِصَ في الدُّنيا لِذَاتِهِ، **مِنها مَا يَلي:**

١ - عهد وميثاق:

أَخَذَ اللَّـهُ عَزَّ وجَلَّ العَهْدَ والمِيثَاقَ عَلَى جَميع الأنبياءِ والُمرسَلينَ مِن لَدُن آدَمَ إلى عِيسَى عَلَيهِمَا السَّلامُ لَمَا آتى اللَّـهُ أَحَدَهُم مِن كِتَابٍ وحِكْمَةٍ وبَلَغَ أيَّ مَبْلَغٍ ثُمَّ بُعِثَ مُحَمَّد بنُ عَبدِ الله ﷺ لَيُؤمِنَنَّ بِهِ وَلَيَنصُرُنَّهُ ولا يَمنَعُهُ مَا هُو فيهِ مِنَ العِلْمِ والنُّبُوَّة مِنَ اتِّبَاعِهِ ونُصْرَتِهِ، كَمَا أمَرَهُم أن يَأخُذُوا هَذَا المِيثَاقَ عَلَى أُممِهِم لَئِن بُعِثَ مُحَمَّدٌ ﷺ وهُم أحيَاءٌ لَيُؤمِنُنَّ بِهِ ولَيَنْصُرُنَّهُ(٣).

قَالَ اللَّـهُ تَعَالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّـهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَـمَا آتَيْتُكُم مِّن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ**﴾ [آل عمران: ٨١].

قال عَلِيُّ بنُ أبي طَالبٍ وابنُ عَبَّاس رَضِيَ الله عَنْهُمْ: «مَا بَعَثَ الله نَبيًّا مِنَ

(١) «نضرة النعيم» (٤٤٩، وما بعدها) باختصار وتصرّف.
(٢) «الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ٣١٤).
(٣) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦) بتصرّف.

الأنبياءِ إلَّا أُخِذَ عليهِ مِيثَاقٌ لَئِن بَعَثَ الله مُحَمَّدًا وهُوَ حَيٌّ لَيُؤمِنَنَّ به ولَيَنْصُرُنَّهُ، وأمَرَهُ أن يَأخُذَ المِيثَاقَ عَلَى أُمَّتِهِ لَئِن بُعِثَ مُحَمَّدٌ وهُم أحياءٌ لَيُؤمنن به ولَيَنْصُرُنَّهُ». وقَالَ هَذَا القولَ غَيرُ واحدٍ من أئِمَّةَ التَّفسِيرِ[١].

٢- رسالة عامة:

كَانَ الأنبيَاءُ والرُّسُلُ السَّابِقُونَ - عَليهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ -يُرسَلُون إلى أقوَامِهِم خَاصَّةً كَما قال الله تَعَالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ﴾ ﴿، وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾، ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا﴾، ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ﴾، ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا﴾، وأمَّا نَبِيُّنَا ﷺ فَرِسَالتُهُ عَامَّةٌ لِجَميعِ النَّاسِ عَرَبِهِم وعَجَمِهِم وإنسِهِم وجِنِّهِم، وهذَا مِن خَصَائِصِهِ ﷺ.

وقَدْ جَاءَتِ الآيَاتُ القُرآنيَّةُ والأحَاديثُ النَّبويَّةُ تُشِيرُ إلى هَذِه الخُصُوصيَّةِ، منها:

قَالَ اللَّـهُ تَعَالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ: ٢٨].

وعَن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[٢].

٣- نبوّة خاتمة:

مِن رَحمةِ الله تَعَالى بِعِبَادِهِ إرسَالُ مُحَمَّدٍ ﷺ إليهم، ومِن تَشرِيفِهِ لَهُ خَتْمُ الأنبيَاءِ والمُرسَلِينَ بِهِ، وإكمَالُ الدِّينِ الحَنيفِ لَهُ، وقَدْ أخبرَ اللَّـهُ تَبَارَك وتَعَالى فِي كِتَابِهِ، ورَسُولُهُ ﷺ فِي السُّنَّةِ المُتواتِرةِ عَنهُ: أنَّهُ لا نَبيَّ بعدَهُ لِيَعلَمَ العِبَادُ أنَّ كُلَّ مَن ادَّعَى هَذَا المَقَامَ بَعدَهُ فَهُوَ كَذَّابٌ أفَّاكٌ دَجَّالٌ، قَالَ اللَّـهُ تَعَالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّـهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٤٠].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٦)، و«تفسير البغوي» (١/ ٣٢٢).

(٢) رواه البخاري (١/ ٥٥٣ - فتح)، ومسلم (٥٢١).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ**[١] **مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتِمُ النَّبِيِّينَ**»[٢].

٤- رحمةٌ مُهداة:

أرسَلَ الله تَبارك وتَعَالى رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ﷺ رَحمَةً لِلخَلَائِقِ عَامَّةً مُؤمِنِهم وكَافِرِهم وَإِنْسِهم وجِنِّهم، وجَعَلَهُ رَءُوفًا رَحِيمًا بالمُؤمِنينَ خَاصَّةً، فَمَن قَبِلَ الرَّحمَةَ وشَكَرَ هَذِهِ النِّعمَةَ سَعِدَ في الدُّنيا والآخِرةِ، ومَن رَدَّهَا وجَحَدَها خَسِرَ الدُّنيا والآخِرَة.

ويُؤيِّدُ هَذِهِ الخُصُوصِيَّةَ قَولُهُ تَعَالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عَنْهُ قَالَ: قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ ادْعُ عَلَى المُشْرِكِينَ، قَالَ: «**إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا وَإِنَّمَا بُعِثْتُ رَحْمَةً**»[٣].

وعَنهُ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّما أنا رَحمَةٌ مُهْدَاةٌ**»[٤].

وقالَ بَعضُ العُلَماءِ في قَولهِ تَعَالى: ﴿**وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ**﴾ أي: لِجَميعِ الخَلقِ للمُؤمِنِ رَحمَةً بِالهِدَايةِ ورَحمَةً لِلمُنَافِقِ بالأمَانِ مِنَ القَتْلِ ورَحمَةً لِلكَافِرِ بِتَأخِيرِ العَذَابِ[٥].

٥- أَمَنَةٌ لأصحابِهِ:

أَكرَمَ الله - تَبارَكَ وتَعَالى - نَبيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ فَجَعَلَ وُجُودَهُ بَينَ أصحَابِهِ أَمَنَةً لَهُم مِنَ العَذَابِ، بِخِلافِ مَا حَصَلَ لِبَعضِ الأُمَمِ السَّابِقَةِ حَيثُ عُذِّبُوا في حَيَاةِ

---

(١) اللبنة: القطعة من الطين تُعجن ويُجعل وتُعد للبناء.

(٢) رواه البخاري (٣٥٣٥)، ومسلم (٢٢٨٦).

(٣) رواه مسلم (٢٥٩٩).

(٤) رواه الحاكم (١/ ٣٥)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٥) «الشفا» للقاضي عياض (١/ ٥٧).

أنبيَائِهم، وكَانَ ﷺ أَمَنَةً لأصْحَابِهِ كَذَلِكَ مِنَ الفِتَنِ والحُرُوبِ وارتِدادِ مَن ارتَدَّ مِن الأعرَابِ واختِلَافِ القُلُوبِ ونَحُو ذَلِكَ مِمَّا أُنذِرَ بِهِ صَريحًا وَوَقَعَ بَعْدَ وَفَاتِهِ.

وقَدْ جَاءَ النَّصُّ عَلَى هَذِهِ الخُصُوصيَّةِ مِنَ القُرآنِ الكَريم والسُّنَّةِ المُطَهَّرةَ وآثَارِ السَّلفِ الصَّالِح، فَمِن ذَلكَ مَا رَوَى البُخَاريُ ومُسلمٌ مِن حَديثِ أنسٍ بن مالكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قال: قَالَ أَبُو جَهْلٍ: اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنْ السَّمَاءِ أَوْ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيم، فَنَزَلَتْ: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ * وَمَا لَهُمْ أَنْ لَا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنْ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ**﴾ [الأنفال ٣٣، ٤٣].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رضي الله عَنْهُ قَالَ: صَلَّيْنَا المَغْرِبَ مَعَ رَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ قُلْنَا: لَوْ جَلَسْنَا حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَهُ العِشَاءَ، قَالَ: فَجَلَسْنَا فَخَرَجَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «**مَا زِلْتُمْ هَاهُنَا؟**» قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ صَلَّيْنَا مَعَكَ المَغْرِبَ ثُمَّ قُلْنَا نَجْلِسُ حَتَّى نُصَلِّيَ مَعَكَ العِشَاءَ، قَالَ: «**أَحْسَنْتُمْ - أَوْ أَصَبْتُمْ -**»، قَالَ: فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ وَكَانَ كَثِيرًا مِمَّا يَرْفَعُ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: «**النُّجُومُ أَمَنَةٌ لِلسَّمَاءِ فَإِذَا ذَهَبَتْ النُّجُومُ أَتَى السَّمَاءَ مَا تُوعَدُ وَأَنَا أَمَنَةٌ لِأَصْحَابِي فَإِذَا ذَهَبْتُ أَتَى أَصْحَابِي مَا يُوعَدُونَ وَأَصْحَابِي أَمَنَةٌ لِأُمَّتِي فَإِذَا ذَهَبَ أَصْحَابِي أَتَى أُمَّتِي[1] مَا يُوعَدُونَ**»[2].

٦- القَسَمُ بِحَيَاتِهِ:

أقسَمَ اللَّـهُ تَبَارَك وتَعَالى بأشيَاءَ كَثيرةٍ مِن مخلُوقاتِهِ[3] الدَّالَّةِ عَلَى كَمالِهِ وعَظَمَتِهِ ليُؤكِّدَ المعنَى في نُفُوسِ المُخَاطَبِينَ، فأقسَمَ تَعَالى بالشَّمسِ والقَمَرِ والفَجرِ والسَّماءِ وغَيرِ ذَلِكَ، بَينَما نَجِدُهُ سُبحانَهُ وتَعَالى لَم يُقسِم بأحدٍ مِنَ البَشَرِ إلَّا بالرَّسُولِ الكَريمِ ﷺ حَيثُ يَقُولُ جَلَّ شَأنُهُ: ﴿**لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ**﴾ [الحجر: ٧٢].

---

(١) من ظهور الفتن والبدع ووقوع السيف.
(٢) رواه مسلم (٢٥٣١).
(٣) للخالق سُبحانه أن يُقسم بما يشاء من مخلوقاته، أما المخلوق فلا يجوز له القَسم والحلف إلا بالله تعالى وأسمائه وصفاته.

قَالَ ابنُ عبَّاس - رَضِيَ الله عَنْهُمَا -: «مَا خَلَقَ الله ومَا ذَرَأَ ومَا بَرَأَ نَفْسًا أكْرَمَ عَلَيهِ مِن مُحَمَّدٍ ﷺ ومَا سَمعتُ الله أقسَمَ بِحَياةِ أحدٍ غَيرِه، قَالَ الله تَعَالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ يَقُولُ: وحَيَاتِكَ وعُمُرِكَ وبَقَائِكَ في الدُّنيا»[1].

٧- نداؤه بوصف النُّبُوَّة والرسالة:

خَاطَبَ اللَّـهُ- عَزَّ وجَلَّ - رَسُولهُ ﷺ في القُرآنِ الكَريم بالنُّبوَّة والرِّسالةِ ولَمْ يُنَادِهِ باسمِهِ زِيَادَةً في التَّشريفِ والتَكريمِ أمَّا سَائِرُ الأنبِيَاءِ والمُرسَلينَ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ فَخُوطِبُوا بأسمائِهم.

قَالَ الله تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لاَ يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الكُفْرِ﴾ [المائدة: ٤١].

وقَالَ الله تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧].

وقَالَ الله تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّـهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ المُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

إلى غَيرِ ذَلِكَ مِنَ الآياتِ.

بَينَمَا قَالَ تَعَالى لأنبِيَائِهِ:

- ﴿يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الـجَنَّةَ﴾ [البقرة: ٣٥].
- ﴿يَا نُوحُ اهْبِطْ بِسَلامٍ مِّنَّا﴾ [هود: ٤٨].

٨- نَهي المؤمنين عَن مُناداتِهِ باسمه ﷺ:

قَالَ الله جَلَّ ذِكرُهُ: ﴿لاَ تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُم بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّـهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

قَالَ ابنُ عَبَّاسٍ ومُجَاهِدٌ وسَعيدُ بنُ جُبيرٍ: «كَانُوا يَقُولُون: يَا مُحَمَّد، يا أبَا القَاسِمِ، فَنَهَاهُم الله عَز وجلَّ عَن ذَلِكَ إعظَامًا لِنَبيِّه ﷺ، وأمَرَهُم أن يَقُولُوا: يَا نَبيَّ الله، يَا رَسُولَ الله»[2].

---

(١) رواه ابن جرير (١٤/ ٣٠).

(٢) «تفسير الطبري» (١٨/ ١٣٤).

وقَالَ قَتَادَةُ فِي تَفسيرِ الآيةِ السَّابقَةِ: «أمَرَ الله تَعَالى أن يُهَابَ نَبيُّهُ ﷺ، وأن يُبَجَّلَ وأن يُعَظَّم وأن يُسَوَّدَ»، بخِلافِ ما خَاطَبَت بهِ الأُمَمُ السَّابقةُ أنبيَاءَها، فَقَال تَعَالى حِكَايةً عَنهُم: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ...﴾ [الأعراف: ١٣٤]»[١].

٩- كلمٌ جامع:

قَالَ العِزُّ بن عَبدِ السَّلام - رَحِمهُ الله -: «ومِنْ خَصَائِصِهِ أنَّهُ بُعِثَ بجَوامعِ الكَلِم، واختصر لَهُ الحَديثُ اختِصَارًا، وفَاقَ العَرَبَ في فَصَاحَتِهِ وبَلاغَتِهِ»[٢].

ومِمَّا جَاءَ في السُّنَّة دَالًّا عَلَى هَذِهِ الخَاصِّيةِ:

عَن أبي مُوسى رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ: «**أُعطيتُ فَوَاتِحَ الكَلِم وجَوامِعَهُ وخَواتِمَهُ**»[٣].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ رَجبٍ الحَنبليُّ رَحِمه الله: فَجَوامِعُ الكَلِمِ التي خُصَّ بِهَا النَّبيُّ ﷺ نوعَانِ:

أحدُهُما: مَا هُوَ في القُرآنِ كَقَولِهِ تَعَالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ**﴾ [النحل: ٩٠].

قَالَ الحَسَنُ البَصريُّ - رَحِمهُ الله -: «لَم تَترُك هَذِهِ الآيةُ خَيرًا إلَّا أمَرَت بِهِ وَلَا شَرًّا إلَّا نَهَت عَنْهُ».

الثَّاني: مَا هُوَ في كَلامِهِ ﷺ، وهُوَ مُنتَشِرٌ مَوجُودٌ في السُّنَنِ المَأْثُورَةِ عَنْهُ». ا.هـ[٤].

ومِن ذَلِكَ قَولُهُ: «**إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى**».

قَالَ الشَّافِعِيُّ - رَحِمهُ الله -: «هَذَا الحَديثُ ثُلُثُ العِلم، ويَدخُلُ في سَبعينَ بَابًا مِنَ الفِقهِ»[٥].

---

(١) نفس المرجع.
(٢) «غاية السول في تفضيل الرسول» (٤٧).
(٣) صحيح بشواهده: رواه أحمد وغيره.
(٤) «جامع العلوم والحكم» لابن رجب (ص٣).
(٥) نفس المرجع (ص٥).

١٠- نَصرٌ بالرعب:

قَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَر - رحمهُ الله -: «وَهَذِهِ الخُصُوصِيَّة حَاصِلَةٌ لَهُ عَلَى الإِطْلَاق حَتَّى لَوْ كَانَ وَحْده بِغَيْرِ عَسْكَر، وَهَلْ هِيَ حَاصِلَة لِأُمَّتِهِ مِنْ بَعْده؟ فِيهِ احْتِمَال»[١].

وَمِمَّا وَرَدَ فِي السُّنَّة مُؤَيِّدًا لِهَذَا المعنَى:

عَن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللهِ رضي الله عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً**»[٢].

١١- مفاتيح خزائن الأرض بيده ﷺ:

أكرَمَ الله عَبدَهُ ورَسُولهُ مُحَمَّدًا ﷺ واختصَّهُ عَلَى غيرهِ مِنَ الأنبيَاءِ بأن أعطَاهُ مفَاتِيحَ خَزَائِنِ الأرضِ وَهِيَ مَا سَهَّلَ الله تَعَالى لَهُ ولأمَّتِهِ مِن بَعدِهِ مِن افتِتَاحِ البِلَادِ المُتَعَذِّرَاتِ والحُصُولِ عَلَى كُنُوزِهَا وذَخَائِرَهَا ومَغَانِمِهَا واستِخرَاج المُمتنِعَاتِ مِن الأرضِ كَمَعادنِ الذَّهبِ والفِضَّةِ وغَيرِهَا، ويَحتَمِلُ أعَمَّ مِن ذَلِكَ. والله أعلمُ[٣].

ومِمَّا يُؤيِّدُ هَذِهِ الخُصوصِيَّةَ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «**بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الكَلِمِ وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ فَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدِي**».

قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: وَقَدْ ذَهَبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا[٤][٥].

---

(١) «فتح الباري» (١/ ٥٢١).
(٢) رواه البخاري (٣٣٥)، ومسلم (٥٢١).
(٣) «فتح الباري» (١٢/ ٤٤٢).
(٤) تستخرجون ما فيها.
(٥) رواه البخاري (٢٩٧٧)، ومسلم (٥٢٣).

عباد الله...

وهناك خصائص أخرى، ستأتي بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا اختُص به ﷺ عن بقيّة الأنبيَاءِ:

١٢- ذنوبٌ مغفورة:

اختَصَّ الله تَعَالى عَبدَهُ ورَسُولَهُ مُحَمَّد ﷺ تَشريفًا لَهُ وتَكريمًا بأن غَفَرَ لَهُ ما تقدَّمَ مِن ذَنبِهِ ومَا تأخَّرَ، وأخبَرَهُ بِهَذِهِ المغفِرَةِ وهُوَ حَيٌّ صَحيحٌ يَمشي عَلَى الأرضِ.

قَالَ ابنُ كَثِيرٍ فِي قَولِهَ تَعَالى: ﴿**إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا * لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّـهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ**﴾ [الفتح: ١، ٢].

هذَا مِن خَصَائِصهِ ﷺ التي لا يُشَارِكُهُ فِيهَا غَيرُهُ، ولَيسَ في حَديثٍ صَحيح في ثَوَابِ الأعمَالِ لِغَيرِهِ غُفِرَ لَهُ مَا تَقدَّمَ مِن ذَنبهِ ومَا تأخَّرَ، وهَذَا فِيه تَشريفٌ عَظيمٌ لِرَسُولِ الله ﷺ[1].

١٣- كِتابٌ خَالد:

ومِن أدِلَّةِ هَذِهِ الخُصُوصِيَّة:

قَولُ الله تَعَالى: ﴿**إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَـهُ لَحَافِظُونَ**﴾ [الحجر: ٩].

وقَولُهُ تَعَالى: ﴿**وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ * لاَ يَأْتِيهِ البَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلاَ مِنْ خَلْفِهِ**﴾ [فصلت: ٤١، ٤٢].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٤/ ١٩٨).

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا مِنْ الأَنْبِيَاءِ نَبِيٌّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ البَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ القِيَامَةِ» (١).

وَوَجه الدَّلالةِ في الحَديثِ يُبَيِّنُهُ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ بِقَولِهِ: «رَتَّبَ ﷺ هَذَا الكَلامَ فَأَرْجُو أَنْ أَكُون أَكْثَرهمْ تَابِعًا يَوْم القِيَامَة» عَلَى مَا تَقَدَّمَ مِنْ مُعْجِزَة القُرْآن المُسْتَمِرَّة لِكَثْرَةِ فَائِدَته وَعُمُوم نَفْعه، لِاشْتِمَالِهِ عَلَى الدَّعْوَة وَالحُجَّة وَالإِخْبَار بِمَا سَيَكُونُ، فَعَمَّ نَفْعه مَنْ حَضَرَ وَمَنْ غَابَ وَمَنْ وُجِدَ وَمَنْ سَيُوجَدُ، فَحَسُنَ تَرْتِيب الرَّجْوَى المَذْكُورَة عَلَى ذَلِكَ، وَهَذِهِ الرَّجْوَى قَدْ تَحَقَّقَتْ، فَإِنَّهُ أَكْثَر الأَنْبِيَاء تَبَعًا» (٢).

١٤- إسراء ومعراج:

ومِمَّا اختُصَّ بِهِ رَسُولُ الله ﷺ عَن غَيرِهِ مِنَ الأنبيَاءِ عَلَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ: مُعجِزَةُ الإسرَاءِ والمِعرَاجِ.

وقد تقدَّم الحديث عنها بما يُغني عن الإعادة.

عباد الله...

هذا هو النوع الأول من الأنواع الأربعة التي اختصَّ الله سُبحانه بها نبيَّنا عن بقيّة الأنبياء.

وللحديث بقيّة إن شاء الله.

۞۞۞۞۞

(١) رواه البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢).

(٢) «فتح الباري» (٨/ ٦٢٣) بتصرّف يسير.

الخطبة الحادية والثمانون:

[ب] الخصائص التي انفرد بها النبيّ ﷺ عن بقية الأنبياء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتف أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد قلنا في الجمعة الماضية: إن العلماء قسَّموا الخصائص التي انفردَ بها رَسُو الله ﷺ عن بقيّة الأنبيَاءِ والمُرسَلين إلى أربعة أنواع:

النَّوعُ الأوَّلُ: مَا اختُصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ فِي الدُّنيا.

النَّوعُ الثَّاني: مَا اختُصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ فِي الآخِرَةِ.

النَّوعُ الثَّالثُ: مَا اختُصَّ بِهِ في أُمَّتِهِ في الدُّنيا.

النَّوعُ الرَّابعُ: مَا اختُصَّ بِهِ في أُمَّتِهِ في الآخِرَةِ.

وتكلمنا عن النَّوعِ الأوَّل: مَا اختُصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ في الدُّنيا، واليوم إن شاء الله تَعَالى نتكلم عن النَّوعُ الثَّاني: مَا اختُصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ في الآخِرَةِ.

والله الموفّق لما يُحب ويَرضَى.

عباد الله...

اختصَّ الله سُبحانه رَسُوله ﷺ بِخَصائص لِذَاتِهِ في الآخرة لَم يُعطِها غَيره مِن الأنبيَاءِ عَليهم الصَّلاةِ والسَّلامِ، يُمكننا ذِكرها فيما يَلي:

١- وسيلة وفضيلة:

قَالَ الحَافظ ابنُ كَثيرٍ رَحمهُ الله: «الوَسِيلَةُ» عَلَمٌ عَلَى أعلَى مَنزلَةٍ فِي الجَنَّة وهِيَ مَنزِلَةُ رَسُولِ الله ﷺ ودَارُهُ في الجَنَّةِ، وهي أقْرَبُ أمِكنَةِ الجَنَّةِ إلى العَرشِ»(١).

وقَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَر رَحِمهُ الله: «الفَضِيلَةُ» أي: المَرتَبَةُ الزَّائدةُ عَلَى سَائِرِ الخَلائِقِ، ويُحتَمَلُ أن تَكُونَ مَنزلةً أُخرَى أو تَفسيرًا للوَسِيلةِ(٢).

ومِمَّا يُؤيِّد هَذِهِ الخُصُوصِيَّةَ:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِي الله عَنهُما قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ النِّدَاءَ: اللَّهُمَّ رَبَّ هَذِهِ الدَّعْوَةِ التَّامَّةِ وَالصَّلَاةِ القَائِمَةِ، آتِ مُحَمَّدًا الوَسِيلَةَ وَالفَضِيلَةَ، وَابْعَثْهُ مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ، إِلَّا حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ يَوْمَ القِيَامَةِ**»(٣).

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَمْرِو بْنِ العَاصِ رَضِي الله عَنهُما أَنَّهُ: سَمِعَ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ: «**إِذَا سَمِعْتُمْ المُؤَذِّنَ فَقُولُوا مِثْلَ مَا يَقُولُ، ثُمَّ صَلُّوا عَلَيَّ، فَإِنَّهُ مَنْ صَلَّى عَلَيَّ صَلَاةً صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ بِهَا عَشْرًا، ثُمَّ سَلُوا اللهَ لِي الوَسِيلَةَ، فَإِنَّهَا مَنْزِلَةٌ فِي الجَنَّةِ لَا تَنْبَغِي إِلَّا لِعَبْدٍ مِنْ عِبَادِ اللهِ، وَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَنَا هُوَ، فَمَنْ سَأَلَ لِي الوَسِيلَةَ حَلَّتْ لَهُ الشَّفَاعَةُ**»(٤).

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٢/ ٥٥).
(٢) «فتح الباري» (٢/ ١١٣).
(٣) رواه البخاري (٦١٤).
(٤) رواه مسلم (٣٨٤).

٢- مقامٌ محمود:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ [الإسراء: ٧٩].

قَالَ ابنُ جَرِيرِ الطَّبَرِيُّ رَحِمهُ الله: «قَالَ أكثَرُ أهلِ العِلمِ: ذَلِكَ هُوَ المَقَامُ الذِي يَقُومُهُ ﷺ يومَ القِيَامةِ للشَّفَاعةِ للنَّاسِ ليُريحَهُم ربُّهم مِن عَظيمِ مَا هُم فِيهِ مِن شِدَّةِ ذَلِكَ اليَوم»[١].

وعَن حُذيفَةَ بنِ اليَمانِ - رَضِي الله عَنهُمَا - رَفَعهُ: فِي قَولهِ عَزَّ وجلَّ: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾ قَالَ: «يَجمَعُ النَّاسُ فِي صَعيدٍ وَاحدٍ يُسمِعُهُم الدَّاعي ويَنفُذُهُمُ البَصَرُ، حُفَاةً عُرَاةً كَمَا خُلِقُوا سُكُوتًا لا تَتكَلَّمُ نَفسٌ إلَّا بإِذْنِهِ، قَالَ: فَيُنَادَى: مُحَمَّدٌ، فَأَقُولُ: لَبيكَ وسَعديْكَ والخَيرُ فِي يَديْكَ، والشَّرُّ لَيسَ إليكَ، المهدِيُّ مَن هَديتَ، وعَبدُكَ بَيْنَ يَدَيكَ، ولَكَ وإليْكَ، لا مَلجأ ولا مَنجَا مِنْكَ إلَّا إليْكَ، تَبَاركتَ وتَعَاليتَ، سُبحَانَ رَبِّ البَيتِ» فَذَلِكَ المَقَامُ المحمُودُ الذِي قَالَ الله تَعَالَى: ﴿عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا﴾[٢].

وقَد جَاء ذِكر المَقام المحمود فِي بَعض الأحاديث صريحًا بالاسم، فمن ذلك:

عَن عَبْدَ اللهِ بْنَ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ «إِنَّ الشَّمْسَ تَدْنُو يَوْمَ القِيَامَةِ حَتَّى يَبْلُغَ العَرَقُ نِصْفَ الأُذُنِ فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ اسْتَغَاثُوا بِآدَمَ ثُمَّ بِمُوسَى ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ ﷺ، فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الخَلْقِ فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلْقَةِ البَابِ فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَحْمَدُهُ أَهْلُ الجَمْعِ كُلُّهُمْ»[٣].

٣- شفاعة عُظمى، وشفاعات:

قَالَ الحَافظ ابن حَجَرٍ - رَحِمهُ الله -: «وَالمَقَام المَحْمُودِ هُوَ الشَّفَاعَة العُظْمَى الَّتِي اِخْتَصَّ بِهَا وَهِيَ إِرَاحَةُ أَهْلِ المَوْقِف مِنْ أَهْوَالِ القَضَاءِ بَيْنَهُمْ، وَالفَرَاغِ مِنْ

---

(١) «تفسير الطبري» (١٥/ ٩٧).

(٢) صحيح: رواه الحاكم في «المستدرك» (٢/ ٣٦٣)، وصححه، ووافقه الذهبي.

(٣) رواه البخاري (١٤٧٥).

حِسَابِهِمْ» ا.هـ[1].

هَذَا، ولِرَسُول الله ﷺ شَفَاعَاتٌ أُخرى غَيرَ الشَّفاعةِ العُظمَى:

مِنَها: ما اختُصَّ بِهَا وحدَهُ.

ومنها: مَا شَارَكَهُ فِيهَا غَيرهُ مِمَّن أَذِنَ الله تَعَالى لَهُ مِن الملائكةِ المُقرَّبينَ والأنبيَاءِ والمُرسَلينَ والصِّدِّيقينَ والشُّهداءِ والصَّالحينَ وغَيرِهم.

فَنَسرُدُ شَفَاعَتهُ ﷺ ثُمَّ نَقتَصِرُ فِي ذِكرِ الأدِلَّةِ عَلَى مَا اختُصَّ بِهِ مِنْهَا دُونَ غَيرِهِ:

١- الشَّفَاعَةُ في استِفتَاحِ بَابِ الجَنَّةِ.

٢- الشَّفَاعَةُ في تَقديمِ مَنْ لا حِسَابَ عَلَيهم في دُخُولِ الجَنَّةِ.

٣- الشَّفَاعَةُ فِيمَنِ استَحَقَّ النَّارِ مِنَ المُوَحِّدينَ أن لا يَدخُلَها.

٤- الشَّفَاعَةُ في إخراجِ عُصَاةِ المُوَحِّدينَ مِنَ النَّارِ.

٥- الشَّفَاعَةُ في رَفعِ دَرَجَاتِ نَاسٍ في الجَنَّةِ.

٦- الشَّفَاعَةُ في تَخفيفِ العَذَابِ عَن عَمِّهِ أبي طَالِبٍ.

فالذي اختُصَّ به ﷺ مِن هذِهِ الشَّفاعَاتِ دُونَ غَيرِهِ هُوَ:

١- شفاعته في استفتاح باب الجَنَّة:

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**آتِي بَابَ الجَنَّةِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ فَيَقُولُ الخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ، فَيَقُولُ: بِكَ، أُمِرْتُ، لَا أَفْتَحُ لِأَحَدٍ قَبْلَكَ**»[2].

٢- شفاعته في تقديم مَن لا حِساب عليهم في دخول الجَنَّة:

فَفِي حديثِ أبي هُرَيرَة رَضِي الله عَنهُ الطَّويل في الشَّفاعةِ: «**...يَا مُحَمَّدُ ارْفَعْ رَأْسَكَ سَلْ تُعْطَهْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ فَأَرْفَعُ رَأْسِي فَأَقُولُ يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي يَا رَبِّ أُمَّتِي**

---

(١) «فتح الباري» (٣/ ٣٩٨).

(٢) رواه مسلم (١٩٥).

فَيَقُولُ يَا مُحَمَّدُ أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لَا حِسَابَ عَلَيْهِ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ»[1].

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنهُ: عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «سَأَلْتُ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فَوَعَدَنِي أَنْ يُدْخِلَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعِينَ أَلْفًا عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةِ البَدْرِ، فَاسْتَزَدْتُ فَزَادَنِي مَعَ كُلِّ أَلْفٍ سَبْعِينَ أَلْفًا، فَقُلْتُ: أَيْ رَبِّ إِنْ لَمْ يَكُنْ هَؤُلَاءِ مُهَاجِرِي أُمَّتِي، قَالَ: إِذَنْ أُكْمِلَهُمْ لَكَ مِنَ الأَعْرَابِ»[2].

٣- شَفاعتهُ في تخفيف العذاب عَن عمِّهُ أبي طَالب:

فَعَنْ العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ رَضِي الله عَنهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ هَلْ نَفَعْتَ أَبَا طَالِبٍ بِشَيْءٍ، فَإِنَّهُ كَانَ يَحُوطُكَ[3] وَيَغْضَبُ لَكَ؟ قَالَ: «نَعَمْ هُوَ فِي ضَحْضَاحٍ[4] مِنْ نَارٍ، وَلَوْلَا أَنَا لَكَانَ فِي الدَّرَكِ الأَسْفَلِ مِنْ النَّارِ»[5].

٤- دعوة مُستجابة:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتَعَجَّلَ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ القِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ إِنْ شَاءَ اللَّهُ مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا»[6].

عباد الله...

هذا هو النَّوع الثَّاني من الأنواع الأربعة التي اختُصَّ الله بها نبيَّنا ﷺ عن بقيَّة الأنبياء والمُرسلين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) رواه البخاري (٤٧١٢)، ومسلم (١٩٤).
(٢) إسناده جيد: رواه أحمد (٢/ ٣٥٩)، وقال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (١١/ ٤١٨): سنده جيد.
(٣) يحوطك: يقوم على مصالحك، ويذبّ عنك.
(٤) ضحضاح: ما رقّ من الماء على وجه الأرض إلى نحو الكعبين، واستعير في النار.
(٥) رواه مسلم (٢٠٩).
(٦) رواه البخاري (٦٣٠٤)، ومسلم (١٩٩).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

والنَّوعُ الثَّالث: مَا اختُصَّ بِهِ في أُمَّتِهِ في الدُّنيا.

اعلموا - عباد الله - أن الله تَعَالى فَضَّل هذه الأُمّة على سائر الأُمم واختصَّها بِكَرامات كثيرة ليست لغيرها، مِن هذه الخَصائِص:

١- خير الأُمم:

قَالَ تَعَالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ [آل عمران: ١١٠].

قالَ العلامة السَّعدي - رَحِمهُ الله تَعَالى -: «يمدح - تعالى - هذه الأمة ويخبر أنها خير الأمم التي أخرجها الله للناس، وذلك بتكميلهم لأنفسهم بالإيمان المستلزم للقيام بكل ما أمر الله به، وبتكميلهم لغيرهم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر المتضمن دعوة الخلق إلى الله وجهادهم على ذلك وبذل المستطاع في ردهم عن ضلالهم وغيّهم وعصيانهم، فبهذا كانوا خير أمة أخرجت للناس» ا.هـ[(١)].

وعَن الرَّبيعِ بنِ خُثَيم - رَحِمهُ الله -قَالَ: «لَمْ تَكُن أُمَّةٌ أكثَرَ استِجَابةً في الإسلامِ مِن هَذِهِ الأُمَّةِ فَمِنْ ثَمَّ قَالَ تَعَالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ**﴾»[(٢)].

٢- حِلّ الغَنائِم:

كَانَتِ الأُمَمُ فِيمَن قَبلَنَا عَلَى ضَربَينِ[(٣)] فَمِنهُم مَن لَم يُؤذَن لَهُ في الجِهادِ فَلَم تَكُن

(١) «تفسير السعدي» (١٤٣).

(٢) رواه ابن جرير في «التفسير» (٤/ ٣٠).

(٣) قاله الخطابي كما في «فتح الباري» (١/ ٥٢٢).

لَهُم غَنَائِمُ، ومِنهُم مَن أُذِنَ لَهُ فيهِ فَكَانُوا يَغزُونَ ويُجَاهِدُونَ ويأخُذُونَ أموَالَ أعدَائِهِم وأسْلابِهِ، لَكِن لا يَتصرَّفُونَ فيها بَل يَجمعُونَهَا، وعَلامَةُ قَبُولِ غَزوِهِم ذَلِكَ: أن تَنزِلَ النَّارُ مِن السَّماءِ فتأكُلَهَا، وعَلامَةُ عَدمِ قَبُولِهِ أن لا تَنزِلَ. ومِن أسبَابِ عَدَمِ القَبُولِ: أنْ يَقَعَ فِيهِمُ الغُلُولُ، وقَدْ مَنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى هذهِ الأُمَّةِ ورَحِمهَا وجَبَرَ عَجزَهَا وضَعفَهَا لِشَرَفِ نَبيِّهَا عِندَهُ، فأحَلَّ لَهُمُ الغَنَائِمَ وسَتَرَ عَليهِمُ الغُلُولَ، فَطَوَى عَنهُم فَضِيحَةَ أمرِ عَدَمِ القَبُولِ، فَلِلَّهِ الحمدُ عَلَى نِعَمٍ تَتْرَى، وآلائِهِ لا تُحصَى.

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨].

قَالَ جُمهورُ المُفسِّرِينَ: إنَّ المُرادَ فِي قَولِهِ تَعَالَى: ﴿لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ﴾ يَعني فِي أُمِّ الكِتَابِ الأَوَّلِ، إنَّ الغَنَائِمَ حَلالٌ لِهذِهِ الأُمَّةِ(١).

وعَن جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ رضي الله عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ، وَجُعِلَتْ لِي الأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا؛ فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ لِي المَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ عَامَّةً»(٢).

٣- الأرض مسجدًا وطهورًا:

انظر الحديث السابق.

٤- آصارٌ وأغلالٌ مَوضُوعَة:

قالَ تَعَالَى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالأَغْلالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧].

---

(١) «تفسير ابن جرير» (١٠/ ٣٢).

(٢) رواه البخاري (١/ ٥٥٣- فتح)، ومسلم (٥٢١).

وعَن أبي مُوسى الأشعَريّ رَضي الله عنهُ قَالَ: كُنتُ مَعَ النَّبيِّ ﷺ فأرادَ أن يبُولَ فَقَامَ إلى دَمَثٍ[١] حَائطٍ هُنَاكَ وقَالَ: «إنَّ بَني إسرائِيلَ كَانَ إذَا أصَابَ أحدَهُمُ البَولُ قَرَضَهُ بالمِقرَاضِ، فإذَا أرادَ أحدُكُم أنْ يَبُولَ فَليَرتَدْ بَولَهُ»[٢].

عَنْ أَنَسٍ رَضِي الله عَنهُ: أَنَّ اليَهُودَ كَانُوا إِذَا حَاضَتْ المَرْأَةُ فِيهِمْ لَمْ يُؤَاكِلُوهَا وَلَمْ يُجَامِعُوهُنَّ فِي البُيُوتِ[٣]، فَسَأَلَ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ النَّبِيَّ ﷺ فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ المَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي المَحِيضِ﴾ إِلَى آخِرِ الآيَةِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اصْنَعُوا كُلَّ شَيْءٍ إِلَّا النِّكَاحَ»، فَبَلَغَ ذَلِكَ اليَهُودَ فَقَالُوا: مَا يُرِيدُ هَذَا الرَّجُلُ أَنْ يَدَعَ مِنْ أَمْرِنَا شَيْئًا إِلَّا خَالَفَنَا فِيهِ، فَجَاءَ أُسَيْدُ بْنُ حُضَيْرٍ وَعَبَّادُ بْنُ بِشْرٍ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ إِنَّ اليَهُودَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا، فَلَا نُجَامِعُهُنَّ؟ فَتَغَيَّرَ وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى ظَنَنَّا أَنْ قَدْ وَجَدَ عَلَيْهِمَا[٤]، فَخَرَجَا فَاسْتَقْبَلَهُمَا هَدِيَّةٌ مِنْ لَبَنٍ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَرْسَلَ فِي آثَارِهِمَا فَسَقَاهُمَا فَعَرَفَا أَنْ لَمْ يَجِدْ عَلَيْهِمَا»[٥].

وقَالَ القَاضِي أَبُو بَكرٍ بنُ العَربيِّ المالِكيُّ - رَحِمهُ الله -: كَانَ مَن قَبلَنَا مِنَ الأُمَم صَومُهُم الإمسَاكُ عَنِ الكَلام مَعَ الطَّعَام والشَّرابِ، فَكَانُوا في حَرَجٍ، فَأَرْخَصَ الله لِهذِهِ الأُمَّة بِحَذفِ نِصفِ زَمَانِهَا، وهُوَ اللَّيلُ، وحَذْفِ نِصفِ صومِها، وهُوَ الإمسَاكُ عَنْ الكَلام ورَخَّصَ لَهَا فيهِ.

عباد الله...

وللحديث بقية إن شاء الله تعالى، فإلى اللقاء.

❖❖❖❖❖

(١) الدمث: الأرض سهلة الرخوة.
(٢) رواه الحاكم (٣/ ٤٦٦)، وقال: صحيح، ووافقه الذهبي.
(٣) أي: لم يخالطوهن ولم يساكنوهن في بيت واحد.
(٤) قد وجد عليهما، أي: غضب عليهما.
(٥) رواه مسلم (٣٠٢).

الخطبة الثانية والثمانون:

[جـ] الخصائص التي انفرد بها النبي ﷺ عن بقيّة الأنبياء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن الخصائص التي انفرد بها النبيّ ﷺ عن بقيّة الأنبياء.

قلنا: إنَّ العُلماءُ - رَحِمَهُمُ اللَّهُ - قسَّموا الخَصائِصَ الَّتِي انفَرَدَ بِهَا رَسُولُ الله ﷺ عَن بَقيَّةِ الأنبِيَاءِ والمُرسَلينَ عَليهمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ إلى عِدَّةِ أنواعٍ:

الأَوَّلُ: مَا اختُصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ في الدُّنيا.

والثَّاني: مَا اختُصَّ بِهِ فِي ذَاتِهِ في الآخِرَةِ.

والثَّالث: مَا اختُصَّ بِهِ فِي أُمَّتِهِ فِي الدُّنيا.

والرَّابعُ: مَا اختُصَّ بِهِ فِي أُمَّتِهِ فِي الآخِرَةِ.

وتكلمنا عن النَّوعُ الأول والثاني، وما زال الحديث موصولًا عن النوع الثالث.

عباد الله...

ومِمَّا اختُصّ به ﷺ في أُمّته في الدنيا:

٥- يوم الجمعة:

قال تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: ٩].

عَنْ حُذَيْفَةَ وَأَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عنهُمَا قَالَا: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَضَلَّ اللَّهُ تَبَارك وتعَالى عَنْ الجُمُعَةِ مَنْ كَانَ قَبْلَنَا، كَانَ لِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ، وَالأَحَدُ لِلنَّصَارَى، فَهُمْ لَنَا تَبَعٌ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، نَحْنُ الآخِرُونَ مِنْ أَهْلِ الدُّنْيَا، وَالأَوَّلُونَ المَقْضِيُّ لَهُمْ قَبْلَ الخَلَائِقِ»[1].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِي الله عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ وَلَا غَرَبَتْ عَلَى يَوْمٍ خَيْرٍ مِنْ يَوْمِ الجُمُعَةِ، هَدَانَا اللَّهُ لَهُ وَأَضَلَّ النَّاسَ عَنْهُ، فَالنَّاسُ لَنَا فِيهِ تَبَعٌ، هُوَ لَنَا وَلِلْيَهُودِ يَوْمُ السَّبْتِ وَلِلنَّصَارَى يَوْمُ الأَحَدِ، إِنَّ فِيهِ لَسَاعَةً لَا يُوَافِقُهَا مُؤْمِنٌ يُصَلِّي يَسْأَلُ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ شَيْئاً إِلاَّ أَعْطَاهُ»[2].

٦- التَّجَاوُزُ عَنِ الخَطَإِ والنِّسيانِ وحَديثِ النَّفسِ:

أَنْعَمَ الله تَبَارَكَ وتَعَالى عَلَى أُمَّةِ الإسلام بِنِعَم كثيرةٍ لا تُعَدُّ ولا تُحصَى، وفي ذَلكَ تكريمٌ لنبيِّهَا مُحَمَّدٍ ﷺ، ومِن هَذِهِ النِّعم أَنَّهُ تَجَاوَزَ لَهَا عَمَّا صَدَرَ مِنهَا عَلَى سَبيلِ الخَطَإِ والنِّسيَانِ، وتَجَاوَزَ لَهَا عَمَّا حَدَّثت بِهِ أَنفُسَها مَا لَمْ تَعمَل أو تَتَكَلَّمَ.

(١) رواه ابن ماجه والبزار، وانظر «صحيح الترغيب» (٧٠١).

(٢) صحيح: رواه ابن خزيمة في «صحيحه»، وانظر «صحيح الترغيب» (٦٩٧).

والأدِلَّةُ على ذَلكَ كَثيرةٌ:

عن أبي هُريرَة رَضِي الله عَنهُ قال: قالَ رَسُولُ الله: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي مَا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا مَا لَمْ يَتَكَلَّمُوا أَوْ يَعْمَلُوا بِهِ»[(١)].

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ عَنْ أُمَّتِي الخَطَأَ وَالنِّسْيَانَ وَمَا اسْتُكْرِهُوا عَلَيْهِ»[(٢)].

قال الحافظ ابن حجر - رحمه الله -: «وَفِي الحَدِيث إِشَارَة إِلَى عَظِيم قَدْر الأُمَّة المُحَمَّدِيَّة لِأَجْلِ نَبِيّهَا ﷺ لِقَوْلِهِ «تَجَاوَزَ لِي» وَفِيهِ إِشْعَار بِاخْتِصَاصِهَا بِذَلِكَ، بَلْ صَرَّحَ بَعْضهمْ بِأَنَّهُ كَانَ حُكْم النَّاسِي كَالعَامِدِ فِي الإِثْم، وَأَنَّ ذَلِكَ مِنْ الإِصْرِ الَّذِي كَانَ عَلَى مَنْ قَبْلَنَا» ا.هـ[(٣)].

٧- مَحفُوظَةٌ مِنَ الهَلاكِ والاستئصَال:

الأُمَّةُ المحمَّديَّةُ، أُمَّةٌ مَصُونةٌ مَرحُومةٌ، حَفِظَهَا الله وأجَارَها، فَلا تُهْلكُ بالسِّنينَ ولا بِجُوعٍ ولا غَرَقٍ، ولا يُسَلَّطُ عَلَيها عَدُوًّا مِن غَيرهَا، فَيستَبِيح بَيضَتَهَا، ويستأصِلُهَا، ولَوِ اجتَمَعَ عَلَيها مَن بأقطَارِهَا، وهَذَا مِن خَصَائِصَها التي انفرَدَت بِهَا عَلَى غَيرهَا.

فَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِي الله عَنهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَى[(٤)] لِي الأَرْضَ فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ[(٥)]، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ[(٦)]، وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ[(٧)]، وَأَنْ لَا

---

(١) رواه البخاري (٦٦٦٤)، ومسلم (١٢٧).
(٢) صحيح: رواه ابن ماجه (٢٠٤٣)، وغيره، وصححه الألباني.
(٣) «فتح الباري» (١١/ ٥٦٠).
(٤) زوى: جمع.
(٥) المراد: الذهب والفضة، والمراد: كنز كسرى وقيصر.
(٦) أي: جماعتهم وأصلهم.
(٧) أي: بقحط يعمّهم.

سَلَّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوْ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا»[١].

٨- لا تجتمع على ضلالة:

قَالَ العزّ بن عبد السَّلام - رَحِمه الله -: «ومِن خَصائِص النبيّ ﷺ: عِصمة أمته بأنها لا تجتمع على ضلالة في فرعٍ ولا أصلٍ». ا.هـ[٢].

وقد جَاءت الأحاديث ناطقةً بِهَذَا، منها:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أجار أُمَّتي أَنْ تَجْتَمِعَ عَلَى ضَلَالَة»[٣].

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وجَلَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ فَوَجَدَ قَلْبَ مُحَمَّدٍ ﷺ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ فَاصْطَفَاهُ لِنَفْسِهِ فَابْتَعَثَهُ بِرِسَالَتِهِ، ثُمَّ نَظَرَ فِي قُلُوبِ العِبَادِ بَعْدَ قَلْبِ مُحَمَّدٍ فَوَجَدَ قُلُوبَ أَصْحَابِهِ خَيْرَ قُلُوبِ العِبَادِ فَجَعَلَهُمْ وُزَرَاءَ نَبِيِّهِ ﷺ يُقَاتِلُونَ عَلَى دِينِهِ، فَمَا رَأَى الْمُسْلِمُونَ حَسَنًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ حَسَنٌ، وَمَا رَأَوْا سَيِّئًا فَهُوَ عِنْدَ اللهِ سَيِّئٌ»[٤].

٩- شُهَدَاءُ الله في الأرض:

فَضَّلَ الله تَبَارَكَ وتَعَالَى هَذِهِ الأُمَّة ورَفَعَ ذِكرَهَا وزَكَّاهَا بأنْ أضافَهَا إليهِ إضَافةَ تَشرِيفٍ وتكريمٍ، فَقَبِلَ مِنْهَا قولَهَا وشَهَادَتَها، وذَلِكَ لِعِظَم مَكَانَتِهَا ومَنزِلَتِهَا عِنْدَهُ.

عَنْ أَنَسِ بن مالكٍ رَضِيَ الله عَنهُ قَالَ: مَرُّوا بِجنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ»، وَمَرُّوا بِجَنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ»، فَقَالَ عُمَرُ: فِدَاكَ أَبِي وَأُمِّي مُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا خَيْرًا فَقُلْتَ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ»، وَمُرَّ بِجَنَازَةٍ فَأُثْنِيَ عَلَيْهَا شَرًّا فَقُلْتَ: «وَجَبَتْ وَجَبَتْ وَجَبَتْ»؟ فَقَالَ: «مَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ، وَمَنْ أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا

---

(١) رواه مسلم (٢٨٨٩).

(٢) «بداية السول» (ص٧٠) بتصرف.

(٣) حسن: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٧٩)، وانظر «الصحيحة» (١٣٣١).

(٤) تقدم، والمراد بالمسلمون هنا: ما أجمعت عليه الأمة.

وَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللَّهِ فِي الأَرْضِ»(١).

عباد الله...

هذه بعض ما اختُصّ به النبيّ ﷺ في أُمته في الدُّنيا.

وللحديث بقيّة إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا اختُصّ به ﷺ في أُمته في الدُّنيا:

١٠- صفوفٌ كَصُفوف الملائكة:

خَصّ الله عَزَّ وجَلَّ هَذِهِ الأُمّة إكرامًا لها عَلَى سائِر الأُمم بأن جَعل صُفوفها في الصَّلاة كَصُفوف الملائكة:

فَعَن أبِي الدرداء رَضِي الله عَنهُ، أنَّ رَسُول الله ﷺ قَالَ: «**فُضِّلتُ بأربع: جُعِلْتُ أنا وأمّتي في الصَّلاة كَما تُصَفُّ الملائكة، وجُعِلَ الصَّعيدُ لي وضُوءًا، وجُعِلَتْ لي الأرضُ مَسجِدًا وطَهُورًا، وأُحِلَّت لِي الغَنائِمُ**»(٢).

عباد الله...

وبهذا نأتي إلى خِتام حديثنا عن النوع الثالث من الأنواع الأربعة التي اختُصّ بها ﷺ عن بقيّة الأنبياء.

وفي الجمعة القادمة نلتقي مع النَّوع الرَّابع، فإلى اللِّقاء، إن شاء الله.

---

(١) رواه البخاري (١٣٦٧)، ومسلم (٩٤٩).

(٢) صحيح: رواه الطبراني في «الكبير»، وانظر «صحيح الجامع» (٤٠٩٥٨).

الخطبة الثالثة والثمانون:

[د] الخصائص التي انفرد بها النبي ﷺ عن بقية الأنبياء

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلنتقي اليوم إن شاء الله تعالى مع النَّوع الرَّابع من الأنواع التي اختُصَّ بها ﷺ في أُمتهِ في الآخرة.

عباد الله...

اختصَّت الأُمَّة المحمَّديَّة في الآخرة بأمورٍ منها:

١- أَنَّهم غُرٌّ مُحَلَّجون:

يَعني من آثار الوضوء، وبهذه الصِّفة يَعرف النَّبيُّ ﷺ أُمَّتهُ مِن غَيرهم يَومَ

القِيامةِ.

عَنْ نُعَيْمِ بْنِ عَبْدِ اللهِ المُجْمِرِ قَالَ: رَأَيْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ يَتَوَضَّأُ، فَغَسَلَ وَجْهَهُ فَأَسْبَغَ الوُضُوءَ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ اليُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي العَضُدِ[١]، ثُمَّ يَدَهُ اليُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي العَضُدِ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ اليُمْنَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ اليُسْرَى حَتَّى أَشْرَعَ فِي السَّاقِ، ثُمَّ قَالَ: هَكَذَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَتَوَضَّأُ، وَقَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**أَنْتُمُ الغُرُّ**[٢] **المُحَجَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، مِنْ إِسْبَاغِ الوُضُوءِ، فَمَنِ اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ فَلْيُطِلْ غُرَّتَهُ وَتَحْجِيلَهُ**»[٣].

هذا، واعلموا - عباد الله - أن أهل البدع يُحرمون من حوض النبيِّ ﷺ رغم أنَّهم من أهل الصَّلاة.

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ أَتَى المَقْبُرَةَ فَقَالَ: «**السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ وَدِدْتُ أَنَّا قَدْ رَأَيْنَا إِخْوَانَنَا**»، قَالُوا: أَوَلَسْنَا إِخْوَانَكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**أَنْتُمْ أَصْحَابِي وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ**»، فَقَالُوا: كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ لَمْ يَأْتِ بَعْدُ مِنْ أُمَّتِكَ يَا رَسُولَ اللهِ؟ فَقَالَ: «**أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا لَهُ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ بَيْنَ ظَهْرَيْ خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ**[٤] **أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ؟**»، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ.

قَالَ: «**فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الوُضُوءِ وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الحَوْضِ أَلَا لَيُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ البَعِيرُ الضَّالُّ أُنَادِيهِمْ أَلَا هَلُمَّ**[٥] **فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ فَأَقُولُ: سُحْقًا**[٦] **سُحْقًا**»[٧].

---

(١) أي: أدخل الغُسل فيها.

(٢) **الغُرة**: بياضٌ في جبهة الفرس، والتحجيل: بياضٌ في يديها ورجليها، قال العلماء: سمّى النور الذي يكون على مواضع الوضوء يوم القيامة غُرّة وتحجيلًا.

(٣) رواه البخاري (١٣٦)، ومسلم (٢٤٦).

(٤) **دهم بهم**: أي سود لم يخالط لونها لونٌ آخر.

(٥) **ألا هلم**: تعالوا.

(٦) **سحقًا سحقًا**: أي: بُعدًا بُعدًا.

(٧) رواه مسلم (٢٤٩).

٢- شُهَداءُ عَلَى الأُمَمِ:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «يَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الرَّجُلَانِ، وَيَجِيءُ النَّبِيُّ وَمَعَهُ الثَّلَاثَةُ، وَأَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ وَأَقَلُّ، فَيُقَالُ لَهُ: هَلْ بَلَّغْتَ قَوْمَكَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُدْعَى قَوْمُهُ فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: لَا، فَيُقَالُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّدٌ وَأُمَّتُهُ، فَتُدْعَى أُمَّةُ مُحَمَّدٍ فَيُقَالُ: هَلْ بَلَّغَ هَذَا؟ فَيَقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: وَمَا عِلْمُكُمْ بِذَلِكَ؟ فَيَقُولُونَ: أَخْبَرَنَا نَبِيُّنَا بِذَلِكَ أَنَّ الرُّسُلَ قَدْ بَلَّغُوا فَصَدَّقْنَاهُ، قَالَ: فَذَلِكُمْ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]»(١).

٣- أَوَّلُ مَن يُجْتَازُ الصِّراط ويدخلُ الجَنَّةَ:

ويدلّ على ذلك:

عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ الرَّحَبِيُّ: أَنَّ ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَدَّثَهُ قَالَ: كُنْتُ قَائِمًا عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَجَاءَ حِبْرٌ مِنْ أَحْبَارِ اليَهُودِ فَقَالَ: السَّلَامُ عَلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، فَدَفَعْتُهُ دَفْعَةً كَادَ يُصْرَعُ مِنْهَا، فَقَالَ: لِمَ تَدْفَعُنِي؟ فَقُلْتُ: أَلَا تَقُولُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ اليَهُودِيُّ: إِنَّمَا نَدْعُوهُ بِاسْمِهِ الَّذِي سَمَّاهُ بِهِ أَهْلُهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اسْمِي مُحَمَّدٌ الَّذِي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي»، فَقَالَ اليَهُودِيُّ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيَنْفَعُكَ شَيْءٌ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟»، قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ، فَنَكَتَ(٢) رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِعُودٍ مَعَهُ فَقَالَ: «سَلْ».

فَقَالَ اليَهُودِيُّ: أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ: ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الجِسْرِ»(٣).

قَالَ: فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً(٤)؟ قَالَ: «فُقَرَاءُ المُهَاجِرِينَ».

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٥٨)، وابن ماجه (٤٢٨٤)، وصححه الألباني.
(٢) فنكت: معناه يخطّ العود في الأرض ويؤثّر به فيها.
(٣) الجسر - هنا - : الصراط.
(٤) الإجازة - هنا - : العبور.

قَالَ اليَهُودِيُّ: فَمَا تُحْفَتُهُمْ(١) حِينَ يَدْخُلُونَ الجَنَّةَ؟ قَالَ: «زِيَادَةُ كَبِدِ النُّونِ»(٢).

قَالَ: فَمَا غِذَاؤُهُمْ عَلَى إِثْرِهَا؟ قَالَ: «يُنْحَرُ لَهُمْ ثَوْرُ الجَنَّةِ الَّذِي كَانَ يَأْكُلُ مِنْ أَطْرَافِهَا».

قَالَ: فَمَا شَرَابُهُمْ عَلَيْهِ؟ قَالَ: «مِنْ عَيْنٍ فِيهَا تُسَمَّى سَلْسَبِيلًا».

قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: وَجِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ شَيْءٍ لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الأَرْضِ إِلَّا نَبِيٌّ أَوْ رَجُلٌ أَوْ رَجُلَانِ. قَالَ: «يَنْفَعُكَ إِنْ حَدَّثْتُكَ؟». قَالَ: أَسْمَعُ بِأُذُنَيَّ؟

قَالَ: جِئْتُ أَسْأَلُكَ عَنْ الوَلَدِ، قَالَ: «مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ المَرْأَةِ أَصْفَرُ، فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلَا مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ المَرْأَةِ أَذْكَرَا(٣) بِإِذْنِ اللهِ، وَإِذَا عَلَا مَنِيُّ المَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آنَثَا(٤) بِإِذْنِ اللهِ».

قَالَ اليَهُودِيُّ: لَقَدْ صَدَقْتَ وَإِنَّكَ لَنَبِيٌّ، ثُمَّ انْصَرَفَ فَذَهَبَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «لَقَدْ سَأَلَنِي هَذَا عَنْ الَّذِي سَأَلَنِي عَنْهُ وَمَا لِي عِلْمٌ بِشَيْءٍ مِنْهُ حَتَّى أَتَانِيَ اللهُ بِهِ»(٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «نَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ. وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ فَاخْتَلَفُوا فَهَدَانَا اللهُ لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنْ الحَقِّ، فَهَذَا يَوْمُهُمْ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ هَدَانَا اللهُ لَهُ، - قَالَ يَوْمُ الجُمُعَةِ - فَاليَوْمَ لَنَا وَغَدًا لِلْيَهُودِ وَبَعْدَ غَدٍ لِلنَّصَارَى»(٦).

٤- عملٌ قليلٌ وأجرٌ كثير:

فَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَثَلُ المُسْلِمِينَ وَاليَهُودِ وَالنَّصَارَى كَمَثَلِ رَجُلٍ اسْتَأْجَرَ قَوْمًا يَعْمَلُونَ لَهُ عَمَلًا يَوْمًا إِلَى اللَّيْلِ عَلَى أَجْرٍ مَعْلُومٍ.

---

(١) تحفتهم: ما يهدى إلى الرجل ويخصّ به ويلاطف.
(٢) النون: الحوت.
(٣) أذكرا: كان الولد ذكرًا.
(٤) آنثا، أي: كان الولد أنثى.
(٥) رواه مسلم (٣١٥).
(٦) رواه البخاري (٨٧٦)، ومسلم (٨٥٥/ ٢٠).

تعملوا لَهُ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ فَقَالُوا: لَا حَاجَةَ لَنَا إِلَى أَجْرِكَ الَّذِي شَرَطْتَ لَنَا وَمَا عَمِلْنَا باطل. فَقَالَ لَهُمْ: لَا تَفْعَلُوا، أَكْمِلُوا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمْ وَخُذُوا أَجْرَكُمْ كَامِلًا، فَأَبَوْا وَتَرَكُوا، واستأجر آخَرِينَ بَعْدَهُمْ فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلَا بَقِيَّةَ يَوْمِكُمَا هَذَا وَلَكُمَا الَّذِي شَرَطْتُ لَهُمْ مِنَ الأَجْرِ. فَعَمِلُوا حَتَّى إِذَا كَانَ حِينُ صَلَاةِ العَصْرِ قَالَا: لَكَ مَا عَمِلْنَا بَاطِلٌ، وَلَكَ الأَجْرُ الذي جعَلْتَ لَنَا فِيهِ، فَقَالَ لَهُمَا: أَكْمِلَا بَقِيَّةَ عَمَلِكُمَا، مَا بَقِيَ مِنْ النَّهَارِ شَيْءٌ يَسِيرٌ، فَأَبَيَا واستأجر قَوْمًا أَنْ يَعْمَلُوا لَهُ بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ فَعَمِلُوا بَقِيَّةَ يَوْمِهِمْ حَتَّى غَابَتْ الشَّمْسُ واستكْمَلُوا أَجْرَ الفَرِيقَيْنِ كِلَيْهِمَا، فَذَلِكَ مَثَلُهُمْ[١] وَمَثَلُ مَا قَبِلُوا مِنْ هَذَا النُّورِ»[٢].

قَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَر - رَحِمَهُ الله - ضِمنَ شَرحِهِ لِهَذَا الحَدِيثِ: «... وَفِي هَذَا حَدِيثِ تَفضِيلُ هَذِهِ الأُمَّة وتَوفِيرُ أجرِهَا مَعَ قِلَّةِ عَمَلِهَا»[٣].

٥- أكثَرُ أهلِ الجَنَّة:

فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بن مَسعُودٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا رُبُعَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «أَمَا تَرْضَوْنَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الجَنَّةِ؟» قَالَ: فَكَبَّرْنَا، ثُمَّ قَالَ: «إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الجَنَّةِ، وَسَأُخْبِرُكُمْ عَنْ ذَلِكَ؛ مَا المُسْلِمُونَ فِي الكُفَّارِ إِلَّا كَشَعْرَةٍ بَيْضَاءَ فِي ثَوْرٍ أَسْوَدَ أَوْ كَشَعْرَةٍ سَوْدَاءَ فِي ثَوْرٍ أَبْيَضَ»[٤].

عباد الله...

وللحديث بقيّة - إن شاء الله تعالى - فانتظروها بعد قليل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) قال الحافظ ابن حجر في «فتح الباري» (٤/ ٥٢٥): وفي رواية الإسماعيلي: «فذلك مَثل المسلمين الذين قَبلوا هُدى الله وما جاء به رسولُه، ومَثل اليهود والنصارى تركوا ما أمرهم الله».

(٢) رواه البخاري (٢٢٧١).

(٣) «فتح الباري» (٤/ ٥٢٥).

(٤) رواه البخاري (٦٥٢٨)، ومسلم (٢٢١).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا اختُصَّ به ﷺ في أمته في الآخرة:

٦- الآخِرُونَ السَّابِقُونَ:

مِنْ نِعَمِ الله تَبارَكَ وتَعَالى عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ أن جَعَلَها الآخِرةَ زَمَانًا، الأُولَى مَنزِلَةً وفَضلًا، فَهِي وإن تأخَّرَ وُجُودهَا في الدُّنيا عَن الأُمَمِ الماضيةِ، فَهِي سَابِقَةٌ لَهُم في الآخِرةَ، بأنَّها أوَّلُ مَن يُحشَرُ، وأوَّلُ مَن يُحاسَبُ، وأوَّلُ مَن يُقضَى بَينَهَا، وأوَّلُ مَن يَدخُلُ الجَنَّة.

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُما: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**نَحْنُ آخِرُ الأُمَمِ، وَأَوَّلُ مَنْ يُحَاسَبُ، يُقَالُ: أَيْنَ الأُمَّةُ الأُمِّيَّةُ وَنَبِيُّهَا؟ فَنَحْنُ الآخِرُونَ الأَوَّلُونَ**»[1].

وهناك أحاديث أخرى تقدم ذِكر بعضها.

والحمد لله الذي بنعمتهِ تتمُّ الصَّالحات.

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث عن سيرة المُصطفَى ﷺ، فإلى اللقاء إن شاء الله.

❖❖❖❖❖

(١) صحيح: رواه ابن ماجه (٤٢٩٠)، وصححه البوصيري، والألباني، انظر «صحيح الجامع» (٦٦٢٥).

الخطبة الرابعة والثمانون:

[أ] الخصائص التي انفرد بها النبيّ ﷺ عن أمته[1]

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَقَدْ اختُصَّ رَسُولُ الله بِكَثِيرٍ مِنَ الخَصَائِصِ والأحكَام دُونَ أُمَّتِهِ تكريمًا لَهُ وتَبجِيلًا، وقَدْ شَارَكَهُ في بَعضِهَا الأَنبيَاءُ عَلَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلَامُ.

وَقَدْ رَتَّبَ العُلَمَاءُ الكَلامَ في هَذِهِ الخَصائِصِ عَلَى أربَعةِ أنوَاعٍ[2]:

---

(١) «نضرة النعيم» (٥٠٣، وما بعدها) باختصار وإضافة.

(٢) انظر «الوفا بأحوال المصطفى» لابن الجوزي (٣٧٨)، و«خصائص أفضل المخلوقين» لابن الملقن (٦٦)، و«الخصائص الكبرى» للسيوطي (٢/ ٣٩٦).

الأوَّل: مَا حَرُمَ عَليهِ دُونَ غيرِهِ، وذَلكَ تكرِمَةٌ لَهُ ﷺ وحَمْلٌ لَهُ عَلَى مَكَارِمِ الأخلاقِ.

الثَّاني: مَا أُبيحَ لَهُ دَونَ غَيرِهِ.

الثَّالث: مَا وَجَبَ عَلَيهِ دُونَ غَيرِهِ. والحِكمَةُ في اختِصَاصِهِ بِهَا زِيَادةُ الزُّلفى ورَفعُ الدَّرجَاتِ.

الرَّابع: ما اختُصَّ بِهِ مِن الفَضَائِلِ والكَرَاماتِ دُونَ غَيرِهِ.

وهَا نَحنُ نُورِدُ بإذنِ الله خُلاصَةَ مَا ذَكَرهُ العُلماءُ رَحِمَهُمُ الله، والله الموفّق لما يُحبّ ويَرضى.

عباد الله...

الأوَّل: مَا حَرُمَ عَليهِ دُونَ غيرِهِ:

١- الصَّدقة:

قَالَ ﷺ: «**إنَّ الصَّدَقَةَ لَا تَحِلُّ لُمحَمَّد ولا لِآلِ مُحَمَّدٍ، إنَّما هِيَ أَوْسَاخُ[١] النَّاسِ**»[٢].

والحِكمَةُ في تَحريمِ الصَّدقَةِ عَلَى النَّبيِّ ﷺ، صِيَانَةُ وتَنزِيهُ مَنصِبِهِ الشَّريفِ عَنْ أوسَاخِ أمْوَالِ النَّاس.

وأمَّا دُخُولُ الآلِ في ذَلِكَ فإنَّهُم دَخَلُوا تَبعًا لانتِسَابِهِم إليهِ وتَشرِيفِهم بِذَلكَ.

٢- إمسَاكُ مَن كَرِهَت نِكَاحَهُ:

وَبُرهَانُ هَذِهِ الخُصُوصيَّة مَا جَاءَ في «صَحيح البُخاريِّ» عَن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أَنَّ ابْنَةَ الجَوْنِ لَمَّا أُدْخِلَتْ عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ وَدَنَا مِنْهَا قَالَتْ: أَعُوذُ باللهِ مِنْكَ، فَقَالَ لَهَا: «**لَقَدْ عُذْتِ بِعَظِيمِ الحَقِي بِأَهْلِكِ**»[٣].

قَالَ ابنُ المُلقِّن - رَحِمَهُ الله - في «خَصَائِصِهِ» بَعدَ إيرَادِهِ هَذَا الحَديثَ: «وفُهِمَ مِمَّا

---

(١) أوساخ الناس: بمعنى أنها تطهير لأموالهم ونفوسهم.

(٢) رواه مسلم (١٠٧٢).

(٣) رواه البخاري (٥٢٥٤).

ذكرناه أنَّهُ حَرُمَ عَلَيهِ نِكَاحُ كُلِّ امرأةٍ كَرِهَت صُحبَتَهُ، وجَديرٌ أن يَكُونَ الأمرُ كذلكَ لِمَا فِيهِ مِنَ الإيذاءِ»[١].

٣- نَزعُ لأمَةِ الحَرب[٢]:

ومِمَّا حَرُمَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وكَذَلِكَ إخوَانُهُ الأنبيَاءُ عَلَيهِمُ الصَّلاةُ والسَّلامُ دُونَ غَيرِهِ مِنَ الأُمَّة، أنَّهُ إذَا لَبِسَ لامَةَ الحَربِ وعَزَمَ عَلَى الجِهَادِ في سَبيلِ الله أن ينزِعَهَا ويَقلَعَهَا حَتَّى يَلقَى العَدُوَّ ويُقَاتِلَ.

ودَليلُ ذَلِكَ مَا روَى جَابرُ بنُ عَبدِ الله رَضِيَ الله عَنْهُمَا: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ يَومَ أُحُدٍ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا مُنَحَّرَةً، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الحَصِينَةَ المَدِينَةُ، وَأَنَّ البَقَرَ هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ» قَالَ: فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لَوْ أَنَّا أَقَمْنَا بِالمَدِينَةِ فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا فِيهَا قَاتَلْنَاهُمْ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ وَاللَّهِ مَا دُخِلَ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَكَيْفَ يُدْخَلُ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: «شَأْنَكُمْ إِذًا»، قَالَ: فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ.

قَالَ: فَقَالَتْ الأَنْصَارُ: رَدَدْنَا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ رَأْيَهُ فَجَاءُوا فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللَّهِ شَأْنَكَ إِذًا، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ»[٣].

٤- خائنة الأعين:

قَالَ الخَطَّابِيُّ - رَحِمَهُ الله -: «هُوَ أن يُضمِرَ في قَلبِهِ غَيرَ ما يُظهِرُهُ للنَّاسِ، فإذَا كَفَّ لِسَانَهُ وأومَأَ بِعَينِهِ إلى ذَلِكَ فَقدْ خَانَ، وقَدْ كَانَ ظُهُورُ تِلكَ الخِيَانَةِ مِن قَبيلِ عَينِهِ، فَسُمِّيَت خَائِنَةَ الأَعْيُنِ» ا.هـ[٤].

فَلَم يكُن لِرَسُول الله ﷺ أن يُومِئَ بِطَرفِهِ خِلافَ مَا يُظهِرُ كَلامُهُ.

ويدلّ عَلَى هَذَا قِصَّةُ عَبدِ الله بن سَعدِ بن أبي سَرح، حَيثُ كَانَ رَسُولُ الله ﷺ قَدْ أهدَرَ دَمَهُ يَوْمَ فَتحِ مَكَّة في جُملةِ مَن أهدَرَ مِنَ الدِّمَاءِ، فاختبأَ عِندَ عُثمَانَ بنِ

(١) «خصائص أفضل المخلوقين» لابن الملقن (٢٢٢).
(٢) لامة الحرب: درع الحرب.
(٣) صحيح: رواه أحمد (٣/ ٣٥١) وغيره، وأصل الحديث في «الصحيحين».
(٤) «حاشية السندي عَلَى سنن النسائي» (٧/ ١٠٦).

عَفَّانٍ أَخِيهِ مِنَ الرَّضاعَةِ، فَلَمَّا دَعَا رَسُولُ اللهِ ﷺ النَّاسَ إِلَى البَيْعَةِ جَاءَ بِهِ حَتَّى أَوْقَفَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ بَايِعْ عَبْدَ اللهِ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَنَظَرَ إِلَيْهِ ثَلاثًا، كُلَّ ذَلِكَ يَأْبَى، فَبَايَعَهُ بَعْدَ ثَلاثٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَى أَصْحَابِهِ فَقَالَ: «أَمَا فِيكُمْ رَجُلٌ رَشِيدٌ يَقُومُ إِلَى هَذَا حَيْثُ رَآنِي قَدْ كَفَفْتُ يَدِي عَنْ بَيْعَتِهِ فَيَقْتُلَهُ»، فقَالوا: مَا يُدْرِينَا يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا فِي نَفْسِكَ؟ هَلاَّ أَوْمَأْتَ إِلَيْنَا بِعَيْنِكَ؟ قَالَ: «إِنَّهُ لاَ يَنْبَغِي أَنْ تَكُونَ لِنَبِيٍّ خَائِنَةُ الأَعْيُنِ»(١).

٥- تَعَلُّمُ الكِتَابَةِ:

قَالَ الله تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ وَلاَ تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٨].

قال القُرطبيّ - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية - ما مختصره -: «قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُو مِن قَبْلِهِ مِن كِتَابٍ﴾ الضمير في ﴿قَبْلِهِ﴾ عائد إلى الكتاب وهو القُرآن المنزَّل عَلَى مُحَمَّد ﷺ، أي: وما كنت يا مُحَمَّد تقرأ قبله، ولا تختلف إلى أهل الكتاب، بل أنزلناه إليك في غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذَلِكَ، فلو كنت ممَّن يقرأ كتابًا، ويخط حروفًا ﴿لَّارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ﴾ أي: من أهل الكتاب، وكان لهم في ارتيابهم متعلق، وقالوا: الذي نجده في كتبنا أنه أُمِّي لا يكتب ولا يقرأ وليس به، قال مجاهد: كان أهل الكتاب يجدون في كتبهم أن محمدًا ﷺ لا يخط ولا يقرأ، فنزلت هذه الآية، قال النحاس: دليلا على نبوته لقريش، لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أهل الكتاب، فجاءهم بأخبار الأنبياء والأمم، وزالت الرِّيبة والشك».ا.هـ(٢).

٦- تعلّم الشِّعر:

قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُّبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

---

(١) رواه أبو داود (٤٣٥٩)، والنسائي (٧/ ١٠٥)، والحاكم (٣/ ٤٥)، وصححه ووافقه الذهبي.
(٢) «تفسير القرطبي» (١٣/ ٣٢٤).

قال العلَّامة السَّعدي - رَحِمَهُ الله - في تفسيره لهذه الآية: «ينزِّه - تَعَالَى - نبيَّه محمدًا ﷺ، عما رماه به المشركون، من أنه شاعر، وأن الذي جاء به شعر فقال: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ﴾ أن يكون شاعرًا، أي: هذا من جنس المحال أن يكون شاعرا، لأنه رشيد مهتد، والشعراء غاوون، يتبعهم الغاوون، ولأن الله تعالى حسم جميع الشبه التي يتعلق بها الضالون على رسوله، فحسم أن يكون يكتب أو يقرأ، وأخبر أنه ما علمه الشعر وما ينبغي له، ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾. ا.هـ[١].

وقال أبو إسحاق الزَّجاج: معنى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ﴾ وما علمناه أن يُشعر أي: ما جعلناه شاعرًا، وهذا لا يمنع أن ينشد شيئًا من الشِّعر[٢].

قال النحاس: وهذا أحسن ما قيل في هذا.

وقَدْ قيل: إنَّما خبَّر الله عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ ما عَلمه الله الشِّعر، ولم يخبر أنَّهُ لا يُنشد شعرًا، وهذا ظاهر الكلام». ا.هـ[٣].

والأدِلَّةُ عَلَى عَدَم مَعرفَتِهِ بالشِّعرِ وعَدَم مَيلهِ إليهِ كَثيرَةٌ مِنها: أنَّ قُريشًا لَـمَّا تَشَاورت فِيمَا يَقُولُونَ لِلعَرَبِ في رَسُولِ الله ﷺ إذَا قَدِمُوا عَلَيهم المَوسِمَ، فقالَ بعضُهُم: نَقُولُ إنَّهُ شاعرٌ، فَقَال أهلُ الفِطنَةِ مِنهُم: والله لَتُكذِّبَنَّكُم العَربُ، فإنَّهُم يَعرفُون أصنَافَ الشِّعر، فَوالله ما يُشبهُ شَيئًا مِنهَا ومَا قَولُهُ بِشِعرٍ.

وأمَّا مَا وَقَعَ عَلَى لِسَانِه صَلَواتُ الله وسَلامُهُ عَلَيهِ مِنَالشِّعرِالقَليلِ، كَقَولهِ يَومَ حُنَينٍ وهُوَ رَاكِبٌ بَغلتَهُ يُقَدِّمُ بِهَا نُحُورَ العَدُوِّ:

أنـا النَّبيُّ لا كَـذِب ... أنـا ابـنُ عَـبدِ المُطَّلِـب[٤]

وكَقَولِهِ لَـمَّا أَصَابَهُ حَجَرٌ وهُو يَمشِي فَعَثَرَ فَدَمِيت إصبَعُهُ الشَّرِيفَةُ:

---

(١) «تفسير السعدي» (٦٩٩) باختصار.

(٢) وكان ﷺ يقول: «إن من الشِّعر لحكمة»، والمذموم: هو الشِّعر الذي يدعو إلى كُفر وإلحاد، أو فاحشة، أو مدح مذموم، ونحو ذلك.

(٣) «تفسير القرطبي» (١٥/ ٥٠).

(٤) رواه البخاري (٤٣١٦)، ومسلم (١٧٧٦).

هَـــل أنـــتِ إلاَّ إصـــبَعٌ دَمـــيتِ وفي سَـــبيلِ الله مَـــا لَقِـــيتِ[(١)]

فَكُلُّ هذا وأمثَالُهُ إنَّما وَقَعَ مِنهُ اتفَاقًا مِن غَيرِ قَصدٍ لوَزنِ الشِّعر بَل جَرَى عَلَى اللِّسانِ مِن غَيرِ قَصدٍ إليهِ.

عباد الله...

والنَّوعُ الثَّـاني: ما أُبيح له دون غَيره:

لقد أباحَ الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى لنبيِّه ﷺ أشياء لم يُشاركه فيها أحدٌ من أُمَّتِهِ، وهي:

١- الوصال في الصَّوم:

فقد نَهى النَّبيُّ ﷺ أُمّته عن مواصلة صوم يومين فصاعدًا من غير أكل أو شُرب بينهما، لِمَا في ذَلِكَ من المشقّة وحصول المفسدة المترتبة عَلَى الوصال، وهي الملل من العبادة، والتعرّض للتقصير في بعض وظائف الدِّين.

نَهَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَنْ الوِصَالِ رَحْمَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: إِنَّكَ تُوَاصِلُ، قَالَ: «**إِنِّي لَسْتُ كَهَيْئَتِكُمْ إِنِّي يُطْعِمُنِي رَبِّي وَيَسْقِينِ**»[(٢)].

قال النووي - رَحِمَهُ الله - مَعْنَاهُ: «يَجْعَل اللَّه تَعَالَى فِيَّ قُوَّة الطَّاعِم الشَّارِب، وَقِيلَ: هُوَ عَلَى ظَاهِره، وَأَنَّهُ يُطْعَمُ مِنْ طَعَام الجَنَّة كَرَامَة لَهُ، وَالصَّحِيح الأَوَّل؛ لِأَنَّهُ لَوْ أَكَلَ حَقِيقَةً لَمْ يَكُنْ مُوَاصِلًا» ا.هـ[(٣)].

وقال أيضًا: «قال الخطابي وغيرُهُ من أصحابنا: الوصالُ مِن الخَصَائِص التي أُبيحت لِرَسُول الله ﷺ وحُرِّمَت عَلَى الأُمّة» ا.هـ[(٤)].

٢- الزَّواج من غير وليٍّ ولا شُهود:

موافقة وليّ المرأة شرط لصَحة النّكاح، وكذلك يُشترط حُضور الشُّهود عند

---

(١) رواه البخاري (٦١٤٦)، ومسلم (١٧٩٦).
(٢) رواه البخاري (١٩٦٤)، ومسلم (١١٠٥).
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٧/ ٢١٢، ٢١٣).
(٤) نفس المرجع (٧/ ٢١٢).

عقد النّكاح، قال ﷺ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيٍّ وشَاهِدَي عَدل»(١).

وقال ﷺ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نُكِحَتْ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحِهَا بَاطِلٌ، وَلَهَا مَهْرُهَا بِمَا أَصَابَ مِنْهَا، فَإِنِ اشْتَجَرُوا فَالسُّلْطَانُ وَلِيُّ مَنْ لاَ وَلِيَّ لَهُ»(٢).

وقَدِ انفَردَ رَسُولُ الله ﷺ عَن أُمَّتِهِ في هَذَينِ الحُكمَينِ، فَأَبَاحَ اللّـهُ تَعَالى لَهُ زَواجَ بِغَيرِ وَليٍّ ولا شُهُودٍ تَشريفًا وتَكريمًا لِعَدَم الحَاجَةِ إلى ذَلِكَ في حَقِّهِ ﷺ.

قَالَ العُلماءُ: إنَّما اعتُبِرَ الوَليُّ في نِكَاحِ الأَمَةِ للمُحَافَظَةِ عَلَى الكَفَاءَةِ، وهُوَ ﷺ فَوقَ الأكفَاءِ، وإنَّما اعتُبِرَ الشُّهودُ لأَمْنِ الجُحُودِ وهُوَ ﷺ لا يَجحَدُ.

وبُرهَانُ هذَا الحُكم في حَقِّهِ مَا جَاءَ في حَديثِ زَينَبَ بنتِ جَحشٍ رَضِيَ الله عَنهَا أنَّهَا كَانت تَفخَرُ عَلَى أزواجِ النَّبيّ ﷺ وتَقُولُ: «زَوَّجَكُنَّ أَهَالِيكُنَّ وَزَوَّجَنِي اللَّهُ تَعَالَى مِنْ فَوْقِ سَبْعِ سَمَاوَاتٍ»(٣).

قَالَ الإمامُ النَّوويُّ في شَرحِه عَلَى حَديث مُسلم: قَالَ أَنَس بْنَ مَالِكٍ رَضِيَ الله عَنْهُ: «مَا أَوْلَمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى امْرَأَةٍ مِنْ نِسَائِهِ أَكْثَرَ أَوْ أَفْضَلَ مِمَّا أَوْلَمَ عَلَى زَيْنَبَ».

قَالَ – رَحِمَهُ الله –: «يَحْتَمِل أَنَّ سَبَب ذَلِكَ الشُّكْر لِنِعْمَةِ اللَّه فِي أَنَّ اللَّه تَعَالَى زَوَّجَهُ إِيَّاهَا بِالوَحْيِ لَا بِوَلِيٍّ وَشُهُود، بِخِلَافِ غَيْرهَا. وَمَذْهَبنَا الصَّحِيح المَشْهُور عِنْد أَصْحَابنَا صِحَّةُ نِكَاحه ﷺ بِلَا وَلِيّ وَلَا شُهُود لِعَدَمِ الحَاجَة إِلَى ذَلِكَ فِي حَقّه ﷺ»(٤).

عباد الله...

وللحديث بقية إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) صحيح: رواه البيهقي في «السنن الكبرى» (٧/ ١٢٥) وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (٧٤٣٤).

(٢) صحيح: رواه أحمد وأبو داود وغيرهما، وصححه السيوطي، ووافقه الألباني كما في «الإرواء» (١٨٤٠)، و«صحيح الجامع».

(٣) رواه البخاري (٧٤٢٠).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٩/ ٢٢٩، ٢٣٠).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا أباح الله تَعَالى لنبيِّه ﷺ دون غيره من أُمّته:

٣- الجَمع بَيْنَ أكثر مِن أربع نِسوة:

جَاءَتِ الأدِلَّةِ الشَّرعيَّةُ مُبيحَةً الجَمعَ بَينَ أربَعِ نِسوَةٍ ومُحَرِّمَةً الزِّيادَة عَلَى ذَلِكَ لآحَادِ المُؤمِنينَ.

قَالَ تَعَالى: ﴿**وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ**﴾ [النساء: ٣].

ولَمَّا أسْلَمَ غَيلانُ بنُ سَلَمةَ الثَّقفِيُّ أسلَمَ وتَحتَهُ عَشرُ نِسوةٍ، فَقَالَ لَهُ النَّبيُّ ﷺ: «**اختَرْ مِنهُنَّ أربَعًا**»[1].

وقَالَ الشَّافِعيُّ - رَحِمَهُ الله -: «دَلَّت سُنَّةُ رَسُولِ الله ﷺ المُبيِّنَةُ عَنِ الله أَنَّهُ لا يَجُوزُ لأحدٍ غَيرِ رَسُول الله أن يَجمعَ بَيْنَ أكثَرَ مِنَ أَربَعِ نِسوَةٍ».

قَالَ الحَافِظُ ابنُ كَثيرٍ: وَهَذَا الذِي قَالهُ الشَّافِعِي مُجمَعٌ عَليهِ بَيْنَ العُلَماءِ»[2].

فَهذَا الحُكمُ مِن خَصَائِصهِ ﷺ الَّتِي انفَرَدَ بِهَا دُونَ غَيرِهِ مِنَ الأُمَّةِ، ولا خِلافَ بَينَ العُلماءِ أَنَّهُ تُوُفِّيَ ﷺ عَن تِسعِ نِسوَةٍ: سَوْدَةُ بِنْتُ زَمْعَةَ القُرشيَّة، وعَائِشَةُ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ القُرَشيَّة، وَأُمّ سَلَمَةَ هندِ بِنْتُ أَبِي أُمَيَّةَ القُرشيَّة، وَحَفْصَةُ بِنْتُ عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ القُرشيَّة، وَزَيْنَبُ بِنْتُ جَحْشٍ الأَسَديَّة، وَجُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحَارِثِ المُصطَلَقيَّة، وَأُمّ حَبِيبَةَ بِنْتُ أَبِي سُفْيَانَ القُرَشيَّة، وَصَفِيَّةُ بِنْتُ حُيَيّ النَّضِيريَّة،

---

(١) صحيح: رواه أبو داود (٢٢٤١)، والترمذي (١١٢٨) وغيرهما، وانظر «صحيح سنن أبي داود» (١٩٦٠).

(٢) «تفسير ابن كثير» (١/ ٤٦٠).

ميمونة بنتُ الحَارِثِ الهِلاليَّةِ.

وقَدْ بيّنَ القُرآن الكريم هَذِهِ الخُصوصيّة لِرَسُولُ الله ﷺ، قَالَ تَعَالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّـهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّاتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَالاتِكَ اللَّاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِي أَزْوَاجِهِمْ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ لِكَيْلا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ وَكَانَ اللَّـهُ غَفُورًا رَّحِيمًا * تُرْجِي مَن تَشَاءُ مِنْهُنَّ وَتُؤْوِي إِلَيْكَ مَن تَشَاءُ وَمَنِ ابْتَغَيْتَ مِمَّنْ عَزَلْتَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْكَ ذَلِكَ أَدْنَى أَن تَقَرَّ أَعْيُنُهُنَّ وَلاَ يَحْزَنَّ وَيَرْضَيْنَ بِمَا آتَيْتَهُنَّ كُلُّهُنَّ وَاللَّـهُ يَعْلَمُ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَكَانَ اللَّـهُ عَلِيمًا حَلِيمًا * لاَ يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ وَلاَ أَن تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ إِلَّا مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ وَكَانَ اللَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ رَّقِيبًا﴾ [الأحزاب: ٥٠ - ٥٢]

عباد الله...

والحِكمَةُ في استكثَارِهِ ﷺ مِنَ النّسَاءِ:

قَالَ الحَافِظُ ابنُ حَجَرٍ - رَحِمَهُ الله -: «وَالَّذِي تَحَصَّلَ مِنْ كَلَامِ أَهْلِ العِلْمِ فِي حِكْمَةِ فِي إِسْتِكْثَارِهِ مِنْ النِّسَاءِ عِدّة أَوْجُه:

أَحدُهَا: أَنْ يُكْثِرَ مَنْ يُشَاهِد أَحْوَالهُ البَاطِنَة فَيَنْتَفِي عَنْهُ مَا يَظُنّ بِهِ المُشْرِكُونَ مِنْ أَنَّهُ سَاحِر أَوْ غَيْر ذَلِكَ.

ثَانِيهَا: لِتَتَشَرَّف بِهِ قَبَائِل العَرَب بِمُصَاهَرَتِهِ فِيهِمْ.

ثَالِثهَا: لِلزِّيَادَةِ فِي تَأَلُّفهمْ لِذَلِكَ.

رَابِعهَا: لِلزِّيَادَةِ فِي التَّكْلِيف حَيْثُ كُلِّفَ أَنْ لَا يَشْغَلهُ مَا حُبِّبَ إِلَيْهِ مِنْهُنَّ عَنْ المُبَالَغَة فِي التَّبْلِيغ.

خَامِسهَا: لِتَكْثُر عَشِيرَته مِنْ جِهَة نِسَائِهِ فَتَزْدَاد أَعْوَانه عَلَى مَنْ يُحَارِبهُ.

سَادِسهَا: نَقْل الأَحْكَام الشَّرْعِيَّة الَّتِي لَا يَطَّلِع عَلَيْهَا الرِّجَال، لِأَنَّ أَكْثَر مَا يَقَع مَعَ الزَّوْجَة مِمَّا شَأْنه أَنْ يَخْتَفِي مِثْله.

سَابِعهَا: الإطِّلَاع عَلَى محَاسِن أَخْلَاقه البَاطِنَة، فَقَدْ تَزَوَّجَ أُمّ حَبِيبَة وَأَبُوهَا إِذْ ذَاكَ يُعَادِيه، وَصَفِيَّة بَعْد قَتْلِ أَبِيهَا وَعَمّهَا وَزَوْجهَا، فَلَوْ لَمْ يَكُنْ أَكْمَل الخَلْق فِي خُلُقه لَنَفَرْنَ مِنْهُ، بَلْ الَّذِي وَقَعَ أَنَّهُ كَانَ أَحَبّ إِلَيْهِنَّ مِنْ جَمِيع أَهْلهنَّ.

ثَامِنهَا: تَحْصِينُهُنَّ والقِيَامُ بِحُقُوقِهنَّ»[1].

٤- بَدءُ القِتَالِ بالبَلَدِ الأَمِينِ:

شَرَّفَ الله عَزَّ وَجَلَّ أُمَّ القُرَى البَلَدَ الحَرامَ وفَضَّلهَا واختَارَهَا وخَصَّهَا بِخَصَائِصَ ومَزَايا لَيست لِغَيرها مِن بِقَاعِ الدُّنيا فَمِن ذَلِكَ: أنَّ بها بَيتَهُ العَتِيقَ أَوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ للنَّاسِ لِعَبَادَتِهِم ونُسُكِهِم، يَطُوفُونَ بِهِ ويَصَلُّون إليهِ ويَعتكِفُونَ عندَهُ. ومَن دَخَلهُ كَانَ آمِنًا.

وإنَّها بَلَدٌ حَرَامٌ حَرَّمَها الله يَوْمَ خَلَقَ السَّموات والأرضَ فالقِتالُ فِيهَا لا يَحِلُّ ولا يَجُوزُ إلى غَيرِ ذَلِكَ من خَصَائِصها.

وقَد أباحَ الله تَبَارك وتَعَالى لنبيِّه ﷺ مَكَّة المُكرّمة عَامَ الفَتح ساعةً مِن نَهَار. فَدَخَلَها بِغَيرِ إحرام وقَتَلَ مِن أهلِهَا يَومَئِذٍ نَحو عِشرين، فَكَان ذَلِكَ من خَصَائصِهِ ﷺ، وقَدْ دَلَّت عَلَى ذَلِكَ الأحَاديثُ الصَّحيحةُ، مِنها مَا ذَكَرهُ ﷺ في خُطبَتِهِ صَبيحةَ ذَلِكَ اليَوم، حَيثُ قَالَ: «إِنَّ مَكَّةَ حَرَّمَهَا اللهُ وَلَمْ يُحَرِّمْهَا النَّاسُ، فَلَا يَحِلُّ لِامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ بِهَا دَمًا وَلَا يَعْضِدَ[2] بِهَا شَجَرَةً، فَإِنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ بِقِتَالِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيهَا فَقُولُوا لَهُ إِنَّ اللَّهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ وَلَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ وَإِنَّمَا أَذِنَ لِي فِيهَا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ وَقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كَحُرْمَتِهَا بِالأَمْسِ وَلْيُبَلِّغْ الشَّاهِدُ الغَائِبَ»[3].

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث عن سيرة المُصطَفى ﷺ، فإلى اللقاء إن شاء الله.

---

(١) «فتح الباري» (٩/ ١٧) بتصرّف يسير.

(٢) لا يعضد: لا يقطع.

(٣) رواه البخاري (١٨٣٢)، ومسلم (١٣٥٤).

الخطبة الخامسة والثمانون:

[ب] الخصائص التي انفرد بها النبيّ ﷺ عن أُمّته

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن الخَصَائِص التي انفرد بِها نبيِّنا صَلَوَاتُ الله وسَلاَمُهُ عَلَيهِ عن أُمّتهِ.

وقلنا في الجمعة السَّابقة:

إنَّ العُلَماءُ رَتَّبوا الكَلامَ في هَذِهِ الخَصائِصِ عَلَى أربَعةِ أنوَاعٍ:

الأوَّل: مَا حَرُمَ عَليهِ دُونَ غَيرِهِ.

والثَّاني: مَا أُبيحَ لَهُ دَونَ غَيرِهِ.

والثَّالث: مَا وَجَبَ عَلَيهِ دُونَ غَيرِهِ

والرَّابع: ما اختُصَّ بِهِ مِن الفَضَائِلِ والكَرَاماتِ دُونَ غَيرِهِ.

وتكلمنا عن النَّوعين الأولين، ونواصل اليوم إن شاء الله الحديث عن النَّوعين الأخيرين، وأسأل الله تَعَالى التوفيق لِطَاعَتِهِ.

عباد الله...

النَّوع الثالث: مَا وَجَبَ عَلَيهِ ﷺ دُونَ غيرهِ:

وَالحِكمَةُ فِي اختصَاصِهِ بِهَا: زِيَادةُ الزُّلفَى ورَفْعُ الدَّرجَاتِ، وهَذَا القِسمُ مَثَّلَ لَهُ العُلَمَاءُ - رَحِمَهُم الله - بِأَمثِلَةٍ عَديدَةٍ مِنْهَا: «اختِصَاصُهُ بِوُجُوبِ صَلاةِ الضُّحَى. وقِيَام اللَّيلِ، والسِّواكِ، والأُضحِيَةِ، وَوجُوب مُشَاورةِ أصحَابِهِ...»، ولكنَّ أمثلَةَ هَذَا النَّوع أو أكثرَهَا لَم يَحصُل عَلَيها اتِّفَاقٌ بَيْنَ العُلَمَاءِ لِتعدُّدِ الأدِلَّةِ المُثبتَةِ والنَّافِيَةِ.

ولِهَذَا لَن نتعرَّض لِمَسَائِلِ هذا النَّوع بالذِّكر، ويَكفِي أن نَشير إلى الاطلاع عَلَى فَضَائِلِ صَلاة الضُّحى وقيامِ اللَّيلِ، والسِّواكِ وغير ذَلِكَ فِي كُتب الحديث والفقه. فليُرجع إليها.

النَّوع الرَّابع: ما اختُصَّ بهِ ﷺ مِن الفَضَائِلِ والكَرَاماتِ دُونَ غَيرِهِ:

عباد الله...

لقد اختصَّ الله سُبحانَهُ نبيَّنا ﷺ عن أُمَّته بفضائل وكرامات، إليكم بيانه بشيءٍ من التفصيل:

١ - عِصمةٌ فِي الأقوالِ والأفعالِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿**وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى * وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: ١ - ٤].

وهَذَا مِمَّا يَشتركُ فيهِ هُوَ والأنبيَاءُ عَلَيهِمُ السَّلامُ بِخِلافِ سَائِرِ أُمَّتِهِ فإنَّهُ يَجُوزُ ذَلِكَ كُلُّهُ عَلَى كُلٍّ مِنهُم مُنفَرِدًا، أمَّا إذَا اجتَمَعُوا عَلَى قَولٍ وَاحِدٍ فَلا يَرِدُ عَلَيهِمُ

خَصَّ بقوله ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالى قَدْ أَجَارَ أُمَّتي أَنْ تَجتمِعَ عَلَى ضَلالَةٍ»[1].

٢- مَن استهَانَ بِهِ أَوْ سَبَّهُ، كَفَرَ:

قَالَ تَعَالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ وَرَسُولَـهُ لَعَنَهُمُ اللَّـهُ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَـهُمْ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [الأحزاب: ٥٧].

وقال تَعَالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَـهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: ٦١].

فَكُلُّ مَن استهَانَ بِرَسُول الله ﷺ أو سَبَّهُ أو عَابَهُ أو ألحَقَ بِهِ نَقصًا فِي نَفسِهِ أو نَسَبِهِ أو دِينِهِ أو خَصْلَةٍ مِنْ خِصَالِهِ أَوْ عَرَّضَ بِهِ أو شَبَّهَهُ بشيءٍ عَلَى طَرِيقِ السَّبِّ لَهُ أو الإزرَاءِ عَلَيهِ أو التَّصغِيرِ لِشَأنِهِ أو الغَضِّ مِنهُ والعَيبِ لَهُ فإِنَّهُ يُقتَلُ كُفْرًا.

ورَوَى أبو دَاوُدَ والنَّسَائِيُّ عَنْ أَبِي بَرْزَةَ قَالَ: «كُنْتُ عِنْدَ أَبِي بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَتَغَيَّظَ عَلَى رَجُلٍ فَاشْتَدَّ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ: تَأْذَنُ لِي يَا خَلِيفَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَضْرِبُ عُنُقَهُ؟ قَالَ: فَأَذْهَبَتْ كَلِمَتِي غَضَبَهُ فَقَامَ فَدَخَلَ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ فَقَالَ: مَا الَّذِي قُلْتَ آنِفًا؟ قُلْتُ: ائْذَنْ لِي أَضْرِبُ عُنُقَهُ، قَالَ: أَكُنْتَ فَاعِلًا لَوْ أَمَرْتُكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: لَا وَاللَّهِ مَا كَانَتْ لِبَشَرٍ بَعْدَ مُحَمَّدٍ ﷺ»[2].

قلت: والذي يتولَّى قتله الحاكم، وليس لآحاد النَّاس أن يُباشِر ذَلِكَ بنفسهِ دون إذن وليّ الأمر حَتَّى لا تكون فتنة.

٣- الكَذِب عليه ليس كالكَذِب عَلَى غيره:

مِن أشدِّ أنواعِ الكَذِبِ وأشْنَعِهِ الكَذِبُ عَلَى الله تَعَالى أو الكَذِبُ عَلَى رَسُوله ﷺ لأَنَّهُ افترَاءٌ في الدِّين، وتَلاعُبٌ بِشَرائِعِ الله لِعِبَادِهِ، وتَجَرُّؤٌ عَظيمٌ عَلَى النَّارِ، ولِهَذَا أجمعَ العُلماءُ عَلَى تَغليظِ الكَذبِ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وأَنَّهُ مِنَ الكَبَائِرِ.

قَالَ ﷺ: «إِنَّ كَذِبًا عَلَيَّ لَيْسَ كَكَذِبٍ عَلَى أَحَدٍ، فَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ

(١) حسن: رواه ابن أبي عاصم في «السنة» (٧٩)، وانظر «صحيح الجامع» (١٧٨٢).

(٢) إسناده صحيح: رواه أبو داود والنسائي، وقال ابن تيمية في «الصارم المسلول» (٩٢): إسناده صحيح.

مَقْعَدَهُ مِنْ النَّارِ»[(١)].

٤- رؤية خاصّة:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَوْمًا ثُمَّ انْصَرَفَ، فَقَالَ: «يَا فُلَانُ أَلَا تُحْسِنُ صَلَاتَكَ؟ أَلَا يَنْظُرُ الْمُصَلِّي إِذَا صَلَّى كَيْفَ يُصَلِّي؟ فَإِنَّمَا يُصَلِّي لِنَفْسِهِ، إِنِّي وَاللَّهِ لَأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي كَمَا أُبْصِرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيَّ»[(٢)].

قَالَ الإمامُ النَّوويّ - رَحِمَهُ الله -: «قوله: «لَأُبْصِرُ مِنْ وَرَائِي» قَالَ العُلَمَاء: مَعْنَاهُ أَنَّ اللَّه تَعَالَى خَلَقَ لَهُ ﷺ إِدْرَاكًا فِي قَفَاهُ يُبْصِر بِهِ مِنْ وَرَائِهِ، وَقَدْ انْخَرَقَتْ العَادَة لَهُ ﷺ بِأَكْثَر مِنْ هَذَا، وَلَيْسَ يَمْنَع مِنْ هَذَا عَقْل وَلَا شَرْع، بَلْ وَرَدَ الشَّرْع بِظَاهِرِهِ فَوَجَبَ القَوْل بِهِ.

قالَ القَاضِي: قَالَ أَحْمَد بْن حَنْبَل رَحِمَهُ اللَّه تَعَالَى وَجُمْهُور العُلَمَاء: هَذِهِ الرُّؤْيَة رُؤْيَة بِالعَيْنِ حَقِيقَة». ا.هـ[(٣)].

٥- أجرُ تَطَوُّعه قاعدًا كتطوعهِ قائمًا:

مَن صلَّى نافلةً مِن قعود مع قدرته عَلَى القيام فصلاته صحيحة، وله نصف أجر القائم، قَالَ ﷺ: «مَنْ صَلَّى قَائِمًا - يعني النافلة - فَهُوَ أَفْضَلُ، وَمَنْ صَلَّى قَاعِدًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَائِمِ، وَمَنْ صَلَّى نَائِمًا فَلَهُ نِصْفُ أَجْرِ القَاعِدِ»[(٤)].

والنائم: المُضجع.

وهَذَا الحُكمُ عَامٌّ لِجَميع الأُمَّة واختُصَّ رَسُولُ الله ﷺ فِي ذَلِكَ عَن أُمَّتِهِ بأن جُعِلَت نَافِلَتُهُ قَاعِدًا مَعَ القُدرةِ عَلَى القِيامِ كَنَافِلَتِهِ قَائمًا، تَشريفًا لَهُ وتَكريمًا.

فَفِي صَحيح مُسلم عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: حُدِّثْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ قَاعِدًا نِصْفُ الصَّلَاةِ»، قَالَ: فَأَتَيْتُهُ فَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي

---

(١) رواه البخاري (٣٤٦١).
(٢) رواه مسلم (٤٢٣).
(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٤/ ١٤٩، ١٥٠).
(٤) رواه البخاري.

جَالِسًا، فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَى رَأْسِهِ فَقَالَ: «مَا لَكَ يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو؟»، قُلْتُ: حُدِّثْتُ يَا رَسُولَ اللهِ أَنَّكَ قُلْتَ: «صَلاةُ الرَّجُلِ قَاعِدًا عَلَى نِصْفِ الصَّلاةِ»، وَأَنْتَ تُصَلِّي قَاعِدًا؟ قَالَ: «أَجَلْ وَلَكِنِّي لَسْتُ كَأَحَدٍ مِنْكُمْ» (١).

٦- لا يُورث:

قَالَ ﷺ: «إِنَّ العُلَمَاءَ هُمْ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِينَارًا وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ» (٢).

وهَذَا مِن خَصَائصهِ صَلَواتُ الله وسَلامُهُ عَلَيهِ وكذلك الأنبياءُ عَلَيْهِم السَّلامُ، دُون أُمَّتِهِ، أَنَّهُ لا يُورَثُ وأنَّ مَا تَرَكَهُ صَدَقَةٌ.

قَالَ ﷺ: «لا نُورَثُ مَا تَركنَا صَدَقَةٌ» (٣).

٧- أزواجُهُ أُمهاتِ المُؤمِنين:

قَالَ تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ﴾ [الأحزاب: ٦].

ومَعنى هَذِهِ الأُمُومَةِ: الاحتِرَامُ والتَّوقِيرُ والإكرَامُ والإعظَامُ والإجلالُ والطَّاعةُ وتحريمُ العُقُوقِ، ولَكِن لا تَجُوزُ الخَلوَةُ بِهنَّ، ولا يَنتَشِرُ التَّحريمُ إلى بَنَاتِهِنَّ وأخَواتِهِنَّ بالإجْمَاعِ، كَمَا حَرُمَ نِكَاحُهُنَّ عَلَى الرِّجالِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلاَ أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

وعَلَى هَذَا انعَقَدَ إجمَاعُ العُلَمَاءِ قَاطِبَةً أنَّ مَن تُوُفِّيَ عَنْهَا رَسُولُ الله ﷺ مِن أزْواجِهِ أَنَّهُ يَحْرُمُ عَلَى غَيْرِهِ تَزَوُّجُهَا مِن بعدهِ لأَنَّهُنَّ أزواجُهُ في الدُّنيا والآخِرَةِ وأُمَّهَاتُ المُؤمِنينَ.

وذَلِكَ مِن خَصَائِصهِ ﷺ الَّتي انفَرَدَ بِهَا عَنْ أُمَّتِهِ.

---

(١) رواه مسلم (٧٣٥).
(٢) صحيح: رواه أبو داود (٣٦٤١)، والترمذي (٢٦٨٢)، وصححه الألباني.
(٣) رواه البخاري (٦٧٣٠)، ومسلم (١٧٥٨).

قَالَ الشيخ الشعراوي - رَحِمَهُ الله -: «فهو ﷺ بمنزلة الغائب عنهنّ»ا.هـ.

عباد الله...

وللحديث بقيّة إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومِمَّا اختَصَّ الله سُبحانَهُ به نبيِّنا ﷺ عن أُمَّته من الفَضَائِل والكَرامَات:

٨- رُؤيَتُهُ في المَنَام حَقٌّ:

اختُصَّ رَسُولُ الله بأنَّ مَن رَآهُ في المَنَامِ كَانَ كَمَنْ رَآهُ في اليَقَظَةِ ومُنِعَ الشَّيطانُ أن يُتَصَوَّرَ في خِلقَتِهِ لِئَلَّا يَكذِبَ عَلَى لِسَانِهِ فِي النَّومِ، كَمَا مُنع أن يُتَصَوَّرَ في صُورتِهِ في اليَقظَةِ إكرَامًا لَهُ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: **«مَنْ رَآنِي فِي المَنَامِ فَقَدْ رَآنِي فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي»** (١).

وبَيَّن العُلماءُ - رَحِمَهُم الله - أنَّ هَذِهِ الرُّؤيا مَشرُوطَةٌ بأن يَرَاهُ الرَّائي عَلَى صُورتِهِ التي كَانَ عَلَيهَا في الحَيَاةِ الدُّنيا والتي جَاءت مُفصَّلةً في الأحَاديثِ.

فائدةٌ:

قَالَ الحَافِظ ابنُ كَثِير: «واتَّفَقُوا عَلَى أنَّ مَنْ نَقَلَ عَنْهُ حديثًا في المَنَام أنَّهُ لا يُعمَلُ بِهِ لِعَدَمِ الضَّبطِ في رِوَايَةِ الرَّائي، فإنَّ المَنَامَ مَحَلٌّ تَضعُفُ فيهِ الرُّوحُ وضَبطُهَا» (٢).

---

(١) رواه البخاري (٦٩٩٤)، ومسلم (٢٢٦٦).

(٢) «الفصول في سيرة الرسول» لابن كثير (٢٩٨، ٢٩٩).

٩- عِبَارَاتٌ جَافِيَةٌ فِي ظَاهِرِهَا رَحْمَةٌ فِي غَايَتِهَا:

لَمْ يَكُن رَسُولُ الله فَاحِشًا ولا مُتفحِّشًا ولا لَعَّانًا وَلا مُنتَقِمًا لِنَفْسِهِ إلَّا أن تُنتَهَكَ حُرُمَاتُ الله فَيَنتَقِمُ لله تَعَالى، وإنَّما كَانَ ﷺ عَفُوًّا حَليمًا عَظيمَ الشَّفقَةِ عَلَى أُمَّتِهِ والاعتِنَاءِ بِمَصَالِحِهم والاحتيَاطِ لَهُم والرَّغبَةِ فِي كُلِّ مَا يَنفَعُهُم كَمَا مَرَّ مُفَصَّلًا، فعِندَما قَدِمَ الطُّفَيلُ الدُّوسيُّ وأصحَابُهُ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ دَوْسًا قَدْ كَفَرَتْ وَأَبَتْ، فَادْعُ اللَّهَ عَلَيْهَا، فَقِيلَ: هَلَكَتْ دَوْسٌ، فَقَالَ: «**اللَّهُمَّ اهْدِ دَوْسًا وَائْتِ بِهِمْ**»[(١)]. وأمثَالُ هَذَا كَثِيرٌ.

ومَا وَقَعَ مِنْهُ ﷺ في النَّادِرِ والقَليلِ مِنْ دُعَاءٍ وألفَاظٍ ظَاهِرُهَا السَّبُّ فَمَحمُولٌ - كَمَا قَالَ النَّوويُّ - رَحِمَهُ الله - عَلَى أن ظَاهِرهَا وحَقِيقَتَهَا غَيْرُ مُرَادَةٍ ولَيسَ هي عَنْ قَصْدٍ بَل هِيَ مِمَّا جَرَت بِهِ عَادَةُ العَرَبِ في وَصلِ كَلامِهَا بلا نِيَّةٍ، كَقَولِهِ: «**تَرِبَت يَمِينُكَ**»[(٢)].

وقَولِهِ فِي مُعَاوِيَةَ: «**لا أَشبَعَ الله بَطْنَهُ**»[(٣)]، أو مَحمُولٌ عَلَى أنَّ مَنْ أطلَقَ فِي حَقِّهِ هَذِهِ العِبَاراتِ مُستَوجِبٌ لَهُ فِي الظَّاهِرِ بأمَارَةٍ شَرعيَّةٍ، ويَكُونُ فِي بَاطِنِ الأمرِ لَيسَ أهلًا لِذَلِكَ، ورَسُولُ الله مَأمُورٌ بِالحُكمِ بالظَّاهِرِ والله يَتَوَلَّى السَّرائِرَ[(٤)]، فَخَافَ رَسُولُ الله ﷺ لِعَظيمِ رَحمتِهِ وشَفَقَتِهِ أنْ يُصَادِفَ شَيءٌ مِن هَذِهِ العِبَاراتِ إجَابَةً، فَسَأَلَ رَبَّهُ سُبحَانَهُ وتَعَالى ورَغِبَ إليه فِي أن يَجعَلَ ذَلِكَ رَحمَةً وكفَّارةً وقُربَةً وطَهُورًا وأجرًا، وهَذَا فِي حَقِّ مَن لَم يَكُن لِذَلِكَ أهلًا وكانَ مُسلِمًا.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَتَّخِذُ عِنْدَكَ عَهْدًا لَنْ تُخْلِفَنِيهِ، فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ، فَأَيُّ الْمُؤْمِنِينَ آذَيْتُهُ، شَتَمْتُهُ، لَعَنْتُهُ، جَلَدْتُهُ، فَاجْعَلْهَا لَهُ صَلَاةً وَزَكَاةً وَقُرْبَةً تُقَرِّبُهُ بِهَا إِلَيْكَ يَوْمَ القِيَامَةِ**»[(٥)].

---

(١) رواه البخاري (٤٣٩٢)، ومسلم (٢٥٢٤).

(٢) تربت يمينك: ترب الرجل، إذا افتقر، أي: لصق بالتراب، وأترب: إذا استغنى.

(٣) رواه مسلم (٢٦٠٤).

(٤) «صحيح مسلم بشرح النووي» (١٦/ ١٥٢).

(٥) رواه البخاري (٦٣٦١)، ومسلم (٢٦٠١).

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة - إن شاء الله - نواصل الحديث عن السِّيرة العَطِرة، فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ اجعلنا مِن الَّذِينَ أشارت إليهم أعلامُ الهِداية، ووَضَحَتْ لُهم طَرِيقُ النَّجاةَ، وسَلَكوا سَبيل الإخلاص واليَقِين.

آمين... آمين... آمين

وأخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العَالَمِين



الخطبة السادسة والثمانون:

الإذن بالقتال

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله تَعَالى -[1]: «لما استقرَّ رسولُ الله ﷺ بالمدينة، وأيَّده الله بنصره، بعباده المؤمنين الأنصار، وألَّفَ بين قلوبهم بعد العداوة والإحَنِ[2] التي كانت بينهم، فمنعته أنصارُ الله وكتيبةُ الإسلام من الأسود والأحمر، وبذلُوا نفوسهم دونه وقدَّموا محبتَه على محبة الآباء والأبناء والأزواج،

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٦٩ - وما بعدها).
(٢) الإحن: الحقد وإضمار العداوة.

وكان أولى بهم مِن أنفسهم، رمتهُمُ العربُ واليهودُ عن قوس واحدة، وشمَّروا لهم عن سَاقِ العداوة والمحاربة، وصاحوا بهم مِن كُلِّ جانب، والله سبحانه يأمرهم بالصبرِ والعفو والصفح حتى قويت الشوكةُ، واشتد الجناحُ، فأذن لهم حينئذ فى القتال، ولم يفرِضه عليهم، فقال تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا، وَإِنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩].

وقد قالت طائفة: إن هذا الإذن كان بمكة، والسُّورة مكية، وهذا غلط لوجوه:

أحدها: أن الله لم يأذن بمكة لهم فى القتال، ولا كان لهم شَوْكة يتمكنون بها من القتال بمكة.

الثانى: أن سِياقَ الآية يدل على أن الإذن بعد الهجرة، وإخراجهم من ديارهم، فإنه قال: ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إلا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٤٠] وَهؤُلاء هم المهاجرون.

الثالث: قوله تعالى: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُواْ فِى رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] نَزَلَتْ فى الَّذِينَ تَبارَزُوا يومَ بدر من الفريقين[(١)].

الرابع: أنه قد خاطبهم فى آخرها بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ﴾، والخطابُ بذلك كله مدنى، فأما الخطاب: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ فمشترك.

الخامس: أنه أمر فيها بالجهاد الذى يَعُمُّ الجهادَ باليد وغيره، ولا ريبَ أن الأمر بالجهاد المطلق إنما كان بعد الهجرة، فأمَّا جهادُ الحُجَّة، فأمر به فى مكة بقوله: ﴿فَلا تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ﴾ [الفرقان: ٥٢] أى: بالقرآن.

﴿جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢]، فهذه سورة مكية والجهاد فيها هو التبليغُ، وجهادُ الحُجَّة، وأما الجهادُ المأمور به فى «سورة الحج» فيدخل فيه الجهادُ بالسيف.

السادس: أن الحاكم روى فى «مستدركه» من حديث الأعمش، عن مسلم

(١) رواه البخاري (٣٩٦٩).

حسن . عن سعيد بن جُبير، عن ابنِ عباس قال: «لما خَرَجَ رسول الله ﷺ مِنْ مكة قال أبو بكر: أخرجُوا نبيَّهم، إنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُونَ لَيهْلِكُنَّ، فأنزل الله عَزَّ وجلّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوٓاْ﴾ [الحج: ٣٩] وهى أول آية نزلت فى القتال».

وإسناده على شرط «الصحيحين» وسياق السورة يدل على أن فيها المكىَّ والمدنىَّ. فإن قصة إلقاء الشيطان فى أُمنية الرسول مكية، والله أعلم.

ثم فرضَ عليهم القِتَالَ بعدَ ذلك لمن قاتلهم دون مَن لم يُقاتِلْهم فقال: ﴿وَقَـٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠].

ثم فرض عليهم قتالَ المشركِينَ كافَّة(٢)، وكان محرَّمًا، ثم مأذونًا به، ثم مأمورًا به لمن بدأهم بالقتال، ثم مأمورًا به لجميع المشركين إما فرضَ عَيْنٍ على أحد القولين، أو فرضَ كِفاية على المشهور.

والتحقيق: أن جنسَ الجهادِ فرضُ عَيْن إما بالقلب، وإما باللِّسان، وإما بالمال، وإما باليد، فعلى كُلِّ مسلم أن يُجاهد بنوع مِن هذه الأنواع.

أما الجهاد بالنفس، ففرض كفاية، وأما الجهاد بالمال، ففى وجوبِه قولانِ، والصحيح وجوبه لأن الأمرَ بالجهاد به وبالنفس فى القرآن سواء، كما قال تعالى: ﴿انْفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُواْ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ الله، ذَلِكُم خَيْرٌ لَّكُمْ إِنْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٤١].

وعلَّق النجاةَ من النار به، ومغفرةَ الذنب، ودخولَ الجنة، فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيم * تُؤْمِنُونَ بِالله وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ الله بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُم، ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ، ذَلِكَ الفَوْزُ العَظِيمُ﴾ [الصف: ١٠-١٢].

---

(١) صحيح: رواه الترمذي (٣١٨٢)، والنسائي (٦/ ٢)، وغيرهما.
(٢) في قوله تعَالى: ﴿وَقَاتِلُوا المُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾ [التوبة: ٣٦].

وأخبر أنهم إن فعلوا ذلك، أعطاهم ما يُحبون مِن النصر والفتح القريب فقال: ﴿وأُخْرَى تُحِبُّونَهَا﴾ [الصف: ١٣] أى: ولكم خصلة أخرى تُحِبُّونها فى الجهَادِ، وهى ﴿نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ﴾ [الصف: ١٣].

وأخبر سبحانه أنه ﴿اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ﴾ [التوبة: ١١١] وأعاضهم عليها الجنةَ، وأن هذا العقد والوعد قد أودعه أفضلَ كتبه المنزَّلة مِن السماء، وهى التوراة والإنجيل والقرآن، ثم أكد ذلك بإعلامهم أنه لا أحدَ أوفى بعهده منه تبارك وتعالى، ثم أكد ذلك بأن أمَرَهُم بأن يستبشِروا ببيعهم الذى عاقدوه عليه، ثم أعلمهم أن ذلك هو الفوزُ العظيمُ.

فليتأملِ العاقِد مع ربه عقد هذا التبايعِ ما أعظمَ خطَرَه وأجلَّه، فإن الله عَزَّ وجَلَّ هو المشترى، والثمن جنَّاتُ النعيم، والفوزُ برضاه، والتمتع برؤيته هناك، والذى جرى على يده هذا العقدُ أشرفُ رسله وأكرمُهم عليه مِن الملائكة والبَشر، وإن سِلْعَةً هذا شأنُها لقد هُيِّئَتْ لأَمرٍ عَظِيمٍ وخَطْبٍ جَسيمٍ:

قَدْ هَيَّؤوكَ لأَمْرٍ لَوْ فَطِنْتَ لَهُ ... فَارْبأ بنَفْسِكَ أَنْ تَرعَى مَعَ الهَمَلِ

مَهْرُ المحبةِ والجَنَّةِ بذلُ النفس والمال لمالكهما الذى اشتراهما من المؤمنين، فما لِلجبان المُعرِضِ المُفْلِس وسَوْم هذه السلعة، باللهِ ما هُزِلَتْ فيستامها المفلسون، ولا كَسَدَت، فيبيعَهَا بالنسيئة المُعْسِرُونَ، لقد أقيمت للعرض فى سوق مَن يُريد، فلم يرضَ رَبُّهَا لها بثمن دون بذل النفوس، فتأخر البطَّالون، وقام المحبُّونَ ينتظرون أيُّهُم يصلُح أن يكون نفسُه الثمن، فدارت السِّلعة بينهم، ووقعت فى يد ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

لما كَثُرَ المدَّعون للمحبة، طُولِبُوا بإقامة البيِّنة على صحة الدعوى، فلو يُعطى الناسُ بدعواهم، لادَّعى الخَلِيُّ حِرْقَةَ الشَّجِيِّ، فتنوع المدعون فى الشهودِ، فقيل: لا تثبُت هذه الدعوى إلا بِبينةٍ ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ٣١]، فتأخر الخلقُ كُلُّهم، وثبت أتباعُ الرسول فى أفعالهِ وأقوالهِ وهديه وأخلاقِه، فطُولِبُوا بعدالة البَيِّنة، وقيل: لا تُقبلُ العدالةُ إلا بتزكية ﴿يُجَاهِدُونَ فِى

... نَّـهِ وَلاَ يَخَافُونَ لَوْمَةَ لاَئِمٍ ﴾ [المائدة: ٥٤]، فتأخر أكثرُ المدعين للمحبة.

... قدم المجاهِدونَ، فقيل لهم: إن نفوسُ المحبِّين وأموالهم ليست لهم، فسلَّموا ... وقع عليه العقد، فإن الله اشترى مِن المؤمنين أنفسَهم وأموالَهُم بأن لهم الجنَّةَ، ... عقد التبايع يُوجِبُ التسليمُ مِن الجانبين، فلما رأى التجارُ عظمةَ المشترى وقَدْرَ ... الثمن. وجَلالةَ قَدْرِ مَن جرى عقدُ التبايع على يديه، ومِقدارَ الكتاب الذى أُثْبِتَ ... هذا العقدُ، عرفُوا أن للسلعة قدرًا وشأنًا ليس لِغيرها من السِّلع، فرأوا مِن خسران البَـيِّن والغَبْنِ الفاحش أن يبيعوها بثمن بَخْسٍ دَرَاهِمَ معدودة، تذهب ... وشهوتُها، وتبقى تَبِعَتُهَا وحسرَتُها، فإن فاعل ذلك معدود فى جملة السفهاء، ... عقدوا مع المشترى بيعةَ الرِّضوان رضىً واختيارًا مِن غير ثبوت خيار، وقالوا: ... لا نَقِيلُكَ ولا نَسْتَقِيلُكَ، فلما تمَّ العقدُ، وسلَّموا المبيعَ، قيل لهم: قد صارت ... أنفسكم وأموالُكم لنا، والآن فقد رددناها عليكم أوفرَ ما كانت وأضعافَ ... أموالكم معها ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ اللَّـهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران: ١٦٩]، لم نبتع منكم نفوسَكم وأموالكم طلبًا للربح عليكم، بل لِيظهر ... أثر الجود والكرم فى قبول المعيب والإعطاء عليه أجلَّ الأثمان، ثم جمعنا لكم بين الثمن والمثمَّنِ.

تأمل قصةَ جابر بن عبد الله «وقد اشترى منه ﷺ بعيرَه، ثمَّ وفَّاهُ الثَمَنَ وزادَهُ، وردَّ عليه البعير»[(1)]، وكان أبوه قد قُتِلَ مع النبيِّ ﷺ فى وقعةِ أُحُد، فذكَّره بهذا الفعلِ حالَ أبيه مع الله، وأخبره «أنَّ الله أحياه، وكلَّمهُ كِفَاحًا وقَالَ: يَا عَبْدِى تَمَنَّ عَلَيَّ»[(2)]، فسبحان مَنْ عَظُمَ جودُه وكرمُه أن يُحيط به علمُ الخلائق، فقد أعطى السلعةَ، وأعطى الثمنَ، ووفَّقَ لتكميلِ العقد، وقبل المبيعَ على عيبه، وأعاض عليه أجلَّ الأثمانَ، واشترى عبدهَ من نفسه بماله، وجمع له بين الثَّمَنِ والمُثَمَّنِ، وأثنى عليه، ومدحه بهذا العقد، وهو سبحانه الذى وفَّقه لهُ، وشاءه منه.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٣٠٩)، ومسلم (٧١٥)، وغيرهما.

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٣٠٢١)، وابن ماجه (٢٨٠٠)، وحسنه الألباني.

فَحَيَّهَلاَ إنْ كُنْتَ ذَا هِمَّةٍ فَقَدْ حَدَا بِكَ حَادِى الشَّوْقِ فَاطْوِ المَرَاحِلاَ
وقل لمنادي حبهم ورضاهم إذَا مَا دَعَا لبَّيْكَ أَلْفًا كَوَامِلاَ
ولا تنظر الأطلال من دونهم فإن نَظَرْتَ إِلَى الأَطْلاَلِ عُدْنَ حَوَائِلاَ
ولا تنظر بالسير رفقة قاعد وَدَعْهُ فإن الشَّوْقَ يَكْفِيكَ حَامِلاَ
وخذ منهم زادًا إليهم وسر على طَرِيقَ الهُدَى وَالحُبِّ تُصْبِحُ وَاصِلاَ
وأحي بذكراهم شراك إذا دنت ركَابُكَ فَالذِّكْرَى تُعِيدُك عَامِلاَ
وَإِمَّا تَخَافَنَّ الكَلاَلَ فَقُلْ لَهَا أَمَامَكِ وِرْدُ الوَصْلَ فَابْغِى المَنَاهِلاَ
وَخُذْ قَبَسًا مِنْ نُورِهِمْ ثُمَّ سِرْبِهِ فَنُورُهُم يَهْدِيكَ لَيْسَ المَشَاعِلاَ
وَحَيَّ عَلَى وَادِى الأَرَاكِ فَقِلْ بِهِ عَسَاكَ تَرَاهُم ثُمَّ إنْ كُنْتَ قَائِلاَ
وَإلا فَفِى نَعْمَانَ عِنْدِى مُعَرِّفُ الـ ـأحِبَّةِ فَاطْلُبْهُمْ إذَا كُنْتَ سَائِلاَ
وَإلافَفِى جَمْعٍ بلَيْلَتِهِ فَإنْ تَفُتْ فَمِنىً يَا وَيْحَ مَنْكَانَ غَافِلاَ
وَحَيَّ عَلَى جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإنَّهَا مَنَازِلُكَ الأُولَى بِهَا كُنْتَ نَازِلاَ
وَلكِن سَبَاكَ الكَاشِحُونَ لأَجْلِ ذا وَقَفْتَ عَلَى الأَطْلاَلِ تَبْكِى المَنَازِلاَ
وَحيَّ عَلَى يَوْمِ المَزِيدِ بجَنَّةِ الـ ـخُلُودِ فَجُدْ بالنَّفْسِ إنْ كُنْتَ بَاذِلاَ
فَدَعْهَا رُسُومًا دَارِسَاتٍ فَمَابِهَا مَقِيلٌ وَجَاوِزْهَا فَلَيْسَتْ مَنَازِلاَ
رُسُومًا عَفَتْ يَنْتَابُهَا الخَلْقُ كَمْبِهَا قَتِيلٌ وَكَمْ فِيهَا لِذَا الخَلْقِ قَاتِلاَ
وَخُذْ يَمْنَةً عَنْهَا عَلَى المَنْهَجِ الَّذِى عَلَيْهِ سَرَى وَفْدُ الأَحِبَّةِ آهِلاَ
وَقُلْ سَاعِدِى يَا نَفْسُ بِالصَّبْرِ سَاعَةً فَعِنْدَ اللِّقَا ذَا الكَدُّ يُصبِحُ زَائِلا
فَمَا هِىَ إلا سَاعَةٌ ثُمَّ تَنْقَضِى وَيُصْبِحُ ذُو الأَحْزَانِ فَرْحَانَ جَاذِلا

عباد الله...

لقد حرَّك الداعى إلى الله، وإلى دار السلام النفوسَ الأبيَّة، والهِممَ العالية. وأسمع منادى الإيمان مَن كانت له أُذُنٌ واعية، وأسمع الله مَن كان حيًا، فهزَّه

ـــع إلى منازل الأبرار، وحدا به فى طريق سيره، فما حطَّت به رِحالُه إلا بدار
ـقرار. فَقَالَ: «انْتَدَبَ اللَّهُ لِمَنْ خَرَجَ فِى سَبِيلِهِ لاَ يُخْرِجُهُ إلاَّ إِيمَانٌ بِى، وتَصْدِيقٌ بِرُسُلِى أَن
أرجِعَهُ بِمَا نَالَ منْ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ أَوْ أُدْخِلَهُ الجنَّةَ، وَلوْلاَ أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِى مَا قَعَدْتُ
خَلْفَ سَرِيَّةٍ، وَلَودِدْتُ أَنِّى أُقْتَلُ فى سَبِيلِ الله، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَلُ، ثُمَّ أُحْيَا، ثُمَّ أُقْتَل» (١).

وقال: «مَثَلُ المُجَاهِدِ فى سَبِيلِ الله كَمَثَلِ الصَّائِمِ القَائِمِ القَانِتِ بآيَاتِ الله لاَ يَفْتُرُ
مِنْ صِيَام وَلاَ صَلاَة حَتَّى يَرْجعَ المُجَاهِدُ فى سَبيل الله، وتوكَّلَ اللَّهُ لِلْمُجَاهِدِ فى سَبِيلِهِ
بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَو غَنِيمةٍ» (٢).

وقال ﷺ: «غَدْوَةٌ فى سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ رَوْحَةٌ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا ومَافيها» (٣).

وقال ﷺ فيما يَروى عن ربِّه تبارك وتعالى: «أَيُّما عَبْدٍ مِنْ عِبَادِى خَرَجَ مُجَاهِدًا فى سَبِيلِى ابْتِغاءَ مَرْضَاتى، ضَمِنْتُ لهُ أَنْ أُرْجعه إِنْ أَرْجَعْتُهُ بِمَا أصابَ مِنْ أَجْرٍ أو غَنِيمَةٍ، وَإِنْ قَبَضْتُهُ أَنْ أَغْفِرَ له وَأَرْحَمَهُ وَأُدْخِلَهُ الجَنَّةَ» (٤).

وقال ﷺ: «جَاهِدُوا فى سَبِيلِ الله، فإنَّ الجِهَادَ فى سَبِيلِ الله بَابٌ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ يُنْجِى اللَّهُ به مِنَ الهمِّ والغَمِّ» (٥).

وقال ﷺ: «أَنَا زَعيمٌ والزَّعِيمُ الحَميلُ لِمَنْ آمَنَ بى، وأَسْلَمَ وهَاجَرَ بَبيْتٍ فى رَبَضِ الجَنَّةِ، وبِبَيْتٍ فى وَسَطِ الجَنَّةِ، وَأَنَا زَعِيمٌ لِمَنْ آمَنَ بِى وَأَسْلَمَ، وَجَاهَدَ فى سَبِيلِ الله بِبَيْتٍ فى رَبَضِ الجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فى وَسَطِ الجَنَّةِ، وَبِبَيْتٍ فى أَعَلَى غُرَفِ الجَنَّةِ، مَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، لَم يَدَعْ لِلْخَيْرِ مَطْلَبًا، ولا مِنَ الشَّرِّ مَهْرَبًا يَمُوتُ حَيْثُ شَاءَ أَنْ يموت» (٦).

وقال ﷺ: «مَنْ قَاتَلَ فى سَبِيلِ الله من رَجُل مُسْلِمٍ فُواقَ نَاقةٍ، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّة» (٧).

---

(١) أخرجه البخاري (٣٦)، ومسلم (١٨٧٦)، وغيرهما.
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٨٥)، ومسلم (١٨٧٨) وغيرهما.
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩٢)، ومسلم (١٨٨٠) وغيرهما.
(٤) صحيح: أخرجه النسائي (٦/ ١٨)، وصححه الألباني.
(٥) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٣١٤)، وصححه الألباني كما في «صحيح الجامع» (٤٠٦٣).
(٦) صحيح: أخرجه النسائي (٦/ ٢١).
(٧) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٤١)، والترمذي (١٦٦٢)، وغيرهما.

عباد الله...

وللجهاد فضائل أخرى، سيأتي بعضها بعد قليل، إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن فضائل الجهاد في سبيل الله:

قوله ﷺ: وقالَ: «إِنَّ فِى الجَنَّةِ مِائَةَ دَرَجةٍ أَعَدَّهَا اللَّهُ للمُجاهِدِينَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأرْضِ، فَإِذَا سَأَلْتُمُ اللَّهَ فاسْأَلُوهُ الفِرْدَوْسَ، فإِنَّهُ أَوْسَطُ الجَنَّةِ وَأَعْلَى الجَنَّةِ، وَفَوْقَهُ عَرْشُ الرَّحْمَن، وَمِنْهُ تَفَجَّرُ أَنهَارُ الجَنَّةِ» [(١)].

وقال ﷺ لأبى سعيد: «مَنْ رَضِىَ باللَّهِ ربًا، وبالإِسْلام دِينًا، وبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَجَبَتْ لَهُ الجَنَّةُ»، فعجب لها أبُو سعيدٍ، فقال: أَعِدْهَا علىَّ يا رسُولَ الله، فَفَعَلَ، ثم قالَ رَسُولُ الله ﷺ: «وأُخْرَى يَرْفَعُ اللَّهُ بِهَا العَبْدَ مِائَةَ دَرَجَةٍ فِى الجَنَّةِ مَا بَيْنَ كُلِّ دَرَجَتَيْنِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ والأرْضِ»، قال: وما هى يا رسول الله؟ قال: «الجِهَادُ فِى سَبِيلِ الله» [(٢)].

وقال ﷺ: «مَنْ أَنْفَقَ زَوْجَيْنِ في سَبِيلِ الله، دَعَاهُ خَزَنَةُ الجَنَّةِ كُلُّ خَزَنَةِ بَابٍ، أَىْ فُلُ هَلُمَّ، فمنْ كانَ مِنْ أَهْلِ الصَّلاةِ، دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّلاةِ، وَمنْ كَانَ مِنْ أهل الجِهَادِ، دُعِىَ مِنْ بَابِ الجِهَاد، ومَنْ كانَ مِنْ أهْلِ الصَّدَقَةِ، دُعِىَ مِنْ بَابِ الصَّدَقَةِ، وَمَنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الصِّيَامِ، دُعىَ مِنْ بَابِ الرَّيَّانِ»، فقال أبو بكر: بأبى أَنْتَ وأُمِّى يا رسولَ الله مَا عَلَى مَنْ دُعِىَ مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ مِنْ ضَرُورَةٍ، فَهَلْ يُدْعَى أَحَدٌ مِنْ تِلْكَ الأَبْوابِ كُلِّهَا؟ قال: «نَعَمْ وأرجُو أَنْ تَكُونَ مِنْهُم» [(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٩٠)، وأحمد (٢/ ٣٣٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٨٨٤)، والنسائي (٦/ ١٩).

(٣) أخرجه البخاري (١٨٩٧)، ومسلم (١٠٢٧)، وغيرهما.

وقال: «لاَ يَجْتَمِعُ شُحٌ وَإِيمَانٌ فِى قَلْبِ رَجُلٍ وَاحِدٍ، وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِى سَبِيلِ الله وَدُخَانُ جَهنَّمَ فِى وَجْهِ عَبْدٍ»، وفى لَفْظٍ: «فِى قَلْبِ عَبْدٍ»، وفى لفظ: «فِى جَوْفِ امْرِئٍ»، وفى لفظ: «فِى مَنْخَرَىْ مُسْلِمٍ» (١).

والأحاديث في هذا المقام كثيرة.

عباد الله...

وقَدْ وردت أحاديث كثيرة في فضل الرِّباط في سبيل الله، نذكر منها:

قوله ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِى سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنَ الدُّنيَا وَمَا عَلَيْهَا» (٢).

وقال ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ خَيْرٌ مِنْ صِيَامِ شَهْرٍ وَقِيَامِهِ، وَإِنْ مَاتَ، جَرَى عَلَيْهِ عَمَلُهُ الَّذِى كان يَعْمَلُهُ، وَأُجْرِىَ عَلَيْهِ رِزْقُه وَأَمِنَ الفَتَّانَ» (٣).

وقالَ ﷺ: «كُلُّ مَيِّتٍ يُخْتَمُ عَلَى عَمَلِهِ إلا الَّذِى مَاتَ مُرَابِطًا في سَبِيلِ الله فَإِنَّهُ يَنْمُو لَهُ عَمَلُهُ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ، ويُؤَمَّنُ مِنْ فِتْنَةِ القَبْرِ» (٤).

وقال ﷺ: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِى سَبِيلِ الله خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ يَوْمٍ فِيمَا سِوَاهُ مِنَ المَنَازِلِ» (٥). ا.هـ.

والأحاديث في هذا المقام كثيرة.

وللحديث عن فضل الجهاد والاستشهاد بقيّة، إن شاء الله، فإلى اللقاء في الجمعة القادمة.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٦/ ١٣، ١٤)، وغيره، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٩٢)، والترمذي (١٦٧٠).
(٣) أخرجه مسلم (١٩١٣)، وغيره.
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٠٠) وغيره.
(٥) صحيح: أخرجه الترمذي (١٦٧٣) وغيره.

الخطبة السابعة والثمانون:

الجهادُ... ومرَاتبه

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

«لما كان الجِهَاد ذِروةَ سَنَام الإسلام وقُبَّتَه، ومنازِلُ أهله أعلى المنازل في الجنة، كما لهم الرَّفعةُ في الدنيا، فهم الأَعْلَوْنَ في الدنْيا والآخِرةِ، كان رسولَ الله ﷺ في الذِّروة العُليا منه، واسْتولى على أنواعه كُلِّها فجاهد في اللهِ حقَّ جهاده بالقلب، والجَنانِ، والدَّعوة، والبيان، والسيفِ، والسِّنَانِ[1]، وكانت ساعاته موقوفةً على الجهاد، بقلبه، ولسانه، ويده. ولهذا كان أرفعَ العَالَمِينَ ذِكرًا، وأعظمَهم عند الله قدرًا.

---

(١) السّنان: جمع أسنّة، وهي نصل الرُّمح.

وأمره الله تعالى بالجهاد مِن حينَ بعثه، وقال: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَبَعَثْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ نَّذِيرًا * فَلاَ تُطِعِ الكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥١، ٥٢]، فهذه سورة مكية أمر فيها بجهاد الكفار، بالحُجة، والبيان، وتبليغ القرآن، وكذلكَ جهادُ المنافقِينَ، إنما هو بتبليغ الحُجَّة، وإلا فهم تحت قهر أهلِ الإسلام، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِىُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ، وَبِئْسَ المَصِيرُ﴾ [التوبة: ٧٣]. فجهادُ المنافقين أصعبُ مِن جهاد الكفار، وهو جهادُ خواصِّ الأمة، وورثةِ الرُّسل، والقائمون به أفرادٌ فى العالَم، والمشارِكُون فيه، والمعاونون عليه، وإن كانوا هُم الأقلين عددًا، فهم الأعظمون عند الله قدرًا.

ولما كان مِن أفضل الجهاد قولُ الحقِّ مع شدة المُعارِضِ، مثلَ أن تتكلم به عند مَن تُخاف سَطوتهُ وأذاه، كان للرسلِ صلواتُ الله عليهم وسلامُهُ مِن ذلك الحظُّ الأوفَرُ، وكان لنبينا صلواتُ الله وسلامُه عليه من ذلك أكملُ الجهاد وأتمُّه.

ولما كان جهاد أعداءِ الله فى الخارج فرعًا على جهادِ العبد نفسه فى ذاتِ الله، كما روى أحمد وابن حبّان وغيرهما بإسنادٍ صحيح عن فضائله بن عبيد، قَالَ: قَالَ رَسُول الله ﷺ في حجّة الوداع: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِالْمُؤْمِنِ؟ مَنْ أَمِنَهُ النَّاسُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ، وَالْمُسْلِمُ مَنْ سَلِمَ النَّاسُ مِنْ لِسَانِهِ وَيَدِهِ، وَالْمُجَاهِدُ مَنْ جَاهَدَ نَفْسَهُ فِي طَاعَةِ اللَّهِ، وَالْمُهَاجِرُ مَنْ هَجَرَ الخَطَايَا وَالذُّنُوبَ».

كان جهادُ النفس مُقَدَّمًا على جِهَادِ العدوِّ فى الخارج، وأصلًا له، فإنه ما لم يُجاهِدْ نفسه أوَّلًا لِتفعل ما أُمِرَتْ به، وتتركَ ما نُهيتْ عنه، ويُحارِبْهَا فى الله، لم يُمكِنْهُ جهادُ عدوه فى الخارج، فكيف يُمكِنُهُ جهادُ عدوه والانتصاف منه، وعدوُّه الذى بين جنبيه قاهرٌ له، متسلِّطٌ عليه، لم يُجاهده، ولم يُحاربه فى الله، بل لا يُمكنه الخروجُ إلى عدوِّه، حتى يُجاهِدَ نفسَه على الخروج.

فهذان عدوَّانِ قد امْتُحِنَ العبدُ بجهادهما، وبينهما عدوٌّ ثالث، لا يمكنه جهادُهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يُثَبِّطُ العبدَ عن جهادهما، ويُخَذِّلُه، ويُرجِفُ به، ولا يزالُ يُخَيِّل له ما فى جهادهما مِن المشاق، وتركِ الحظوظ، وفوتِ اللذاتِ، والمشهيات، ولا يُمكنه أن يُجاهِدَ ذَيْنِكَ العدوين إلا بجهاده، فكان جهادُه هو

الأصلَ لجهادهما، وهو الشيطان، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ [فاطر: ٦]. والأمر باتخاذه عدوًا تنبيه على استفراغ الوُسع فى مُحاربته ومجاهدته. كأنَّهُ عدو لا يَفْتُر، ولا يُقصِّر عن محاربة العبد على عدد الأنفاس.

فهذه ثلاثة أعداء، أُمِرَ العبدُ بمحاربتها وجهادها، وقد بُلى بمحاربتها فى هذه الدار، وسُلِّطَتْ عليه امتحانًا من الله له وابتلاءً، فأعطى اللَّهُ العبدَ مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجِهَادِ، وأعطى أعداءه مددًا وعُدَّةً وأعوانًا وسِلاحًا، وبَلاَ أحدَ الفريقين بالآخر، وجعل بعضَهم لبعض فتنة لِيَبْلُوَ أخبارهم، ويمتحِنَ من يَتولاَّه، ويتولَّى رسُلَهُ ممن يتولَّى الشيطانَ وحِزبه، كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً أَتَصْبِرُونَ، وَكَانَ رَبُّكَ بَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٢٠]، وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ، وَلَوْ يَشَاءُ الله لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لِيَبْلُوَاْ بَعْضَكُمْ بِبَعَضٍ﴾ [محمد: ٤]، وقال تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَاْ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد: ٣١]. فأعطى عباده الأسماعَ والأبصارَ، والعُقول والقُوَى، وأنزل عليهم كُتُبَه، وأرسلَ إليهم رسُلَه. وأمدَّهم بملائكته، وقال لهم: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ﴾ [الأنفال: ١٢].

وأمرهم من أمره بما هو مِن أعظم العونِ لهم على حرب عدوهم، وأخبرهم أنَّهم إن امتثلوا ما أمرهم به، لم يزالوا منصورين على عدوه وعدوِّهم، وأنه إن سلَّطه عليهم، فلتركهم بعضَ ما أُمروا به، ولمعصيتهم له، ثم لم يُؤْيسهُم، ولم يُقنِّطْهُمْ، بل أمرهم أن يسْتَقْبِلُوا أمرهم، ويُداووا جِرَاحَهُم، ويَعُودوا إلى مُناهضة عدوهم فينصَرهم عليهم، ويُظفرَهم بهم، فأخبرهم أنه معَ المتقين مِنهم، ومعَ المحسنينَ، ومعَ الصابرين، ومعَ المؤمنين، وأنه يُدافع عن عباده المؤمنين ما لا يدافعون عن أنفسهم، بل بدفاعه عنهم انتصروا على عدوِّهم، ولولا دفاعُه عنهم لتخطَّفهم عدوُّهم، واجتاحهم.

وهذه المدافعةُ عنهم بحسب إيمانِهم، وعلى قَدْرِهِ، فإن قَوِىَ الإيمانُ، قويتِ المُدافعة، فمَن وجد خيرًا، فليحمَدِ الله، ومَن وجد غيرَ ذلِكَ، فلا يلومنَّ إلا نفسه.

وأمرهم أن يُجاهدوا فيه حقَّ جهاده، كما أمرهم أن يتَّقوه حقَّ تُقاته، وكما أن حقَّ تُقاته أن يُطاع فلا يُعصى، ويُذكَرَ فلا يُنسى، ويُشكَر فلا يُكفر، فحقُّ جهاده أن

جهد العبد نفسَه لِيُسْلِم قلبه ولِسانه وجوارِحه لله فيكون كُلُّه لله، وبالله، لا نفسه. ولا بنفسه، ويُجاهدَ شيطانه بتكذِيب وعدِهِ، ومعَصيةِ أمرهِ، وارتكابِ نهيه، فإنه يَعِدُ الأمانِيَّ، ويُمَنِّى الغُرورَ، ويَعِدُ الفقَر، ويأمرُ بالفحشاء، وينهى عن التُّقى والهدى، والعِفة والصبرِ، وأخلاقِ الإيمان كُلِّهَا، فجاهده بتكذِيبِ وعده، ومعصيةِ أمره، فينشأُ له من هذين الجهادين قوةٌ وسلطان، وعُدَّة يُجاهد بها أعداءَ الله فى الخارج بقلبه ولسانه ويده ومالِه، لِتكونَ كلمةُ الله هى العليا.

عباد الله...

واختلفت عباراتُ السَلَف فى حقِّ الجهاد:

فقال ابن عباس: «هو استفراغُ الطاقة فيه، وألا يَخافَ فى الله لومةَ لائم». وقال مقاتل: «اعملوا لله حقَّ عمله، واعبدُوه حقَّ عِبادته». وقال عبد الله بنُ المبارك: «هو مجاهدةُ النفسَ والهوى».

ولم يُصِبْ مَن قال: إن الآيتين منسوختان لظنه أنهما تضمنتا الأمر بما لا يُطاق، وحقّ تُقاته وحقّ جهاده: هو ما يُطيقه كلُّ عبد فى نفسه، وذلك يختِلف باختلافِ أحوال المكلَّفين فى القُدرةِ، والعجزِ، والعلمِ، والجهلِ.

فحقُّ التقوى، وحقُّ الجهاد بالنسبة إلى القادر المتمكن العالِمِ شيء، وبالنسبة إلى العاجز الجاهل الضعيف شيء.

وتأمل كيف عقَّب الأمر بذلك بقوله: ﴿هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ [الحج: ٧٨].

والحَرَج: الضِّيقُ، بل جعله واسعًا يسَعُ كُلّ أحد، كما جعل رِزقه يسع كُلّ حى، وكلَّف العبدَ بما يسعه العبدُ، ورزق العَبدَ ما يسعُ العبد، فهو يسعُ تكليفَه، ويسعه رزقُهُ، وما جعل على عبده فى الدين من حَرَج بوجه ما.

وقد وسَّع الله سبحانه وتعالى على عباده غايةَ التَّوسِعة فى دينه، ورِزقْه، وعفوه، ومغفرتِهِ، وبسط عليهم التوبةَ ما دامت الروحُ فى الجسد، وفتح لهم بابًا لها لا يُغْلِقُهُ عنهم إلى أن تَطْلُعَ الشمسُ مِن مَغربها، وجعلَ لكلِّ سيئة كفارةً تُكفرها

من توبة، أو صدقة، أو حسنة ماحية، أو مُصيبة مُكَفِّرة، وجَعل بكل ما حرَّم عليهم عِوضًا مِن الحلال أنفعَ لهم منه، وأطيَبَ، وألذَّ، فيقومُ مقامه لِيستغنى العبدُ عن الحرام، ويسعه الحلال، فلا يَضيقُ عنه، وجعل لِكل عُسْرٍ يمتحنُهم به يُسرًا قبله، ويُسرًا بعده، «فلن يَغْلِبَ عُسْرٌ يُسبرَيْنِ» (١)، فإذَا كان هذا شأنه سبحانه مع عباده، فكيف يُكلِّفُهم ما لا يسعهم فضلًا عما لا يُطيقونه ولا يقدِرُونَ عليه.

عباد الله...

وللجهاد مراتب، فما هي مراتبه؟

هذا ما سوف نذكره بعد جلسة الاستراحة، إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

إذَا عُرِفَ هذا، فالجهادُ أربع مراتب: جهادُ النفس، وجهادُ الشيطان، وجهادُ الكفار، وجهادُ المنافقين.

فجهاد النفس أربعُ مراتب أيضًا:

إحداها: أَنْ يُجاهِدَها على تعلُّم الهُدى، ودين الحق الذى لا فلاح لها، ولا سعادة فى معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها عِلمُه، شقيت فى الدَّارين.

الثانية: أن يُجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرَّدُ العلم بلا عمل إن لم يَضُرَّها لم ينفعْها.

---

(١) مرسل ضعيف: أخرجه الحاكم (٢/ ٥٢٨) عن الحسن البصري في قول الله عز وجل: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، قَالَ: خرج النبي ﷺ يومًا مسرورًا وهو يضحك ويقول: «لن يغلب عُسر يُسرين» ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ . ومعناه صحيح.

الثالثة: أن يُجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمِه مَنْ لا يعلمهُ، وإلا كان مِن الذين يكتُمون ما أنزل الله مِن الهُدى والبينات، ولاَ ينفعُهُ علمُهُ، ولا يُنجِيه مِن عذاب الله.

الرابعة: أن يُجاهِدَها على الصبر على مشاقِّ الدعوة إلى الله، وأذى الخلق، ويتحمَّل ذلك كله لله. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع، صار من الربَّانِيينَ، فإن السلفَ مُجمِعُونَ على أن العَالِمَ لا يَستحِقُّ أن يُسمى ربَّانيًا حتى يعرِفَ الحقَّ، ويعملَ به، ويُعَلِّمَه، فمَن علم وَعَمِلَ وعَلَّمَ فذاكَ يُدعى عظيًما في ملكوتِ السموات.

وأما جهادُ الشيطان، فمرتبتان:

إحداهما: جهادُه على دفع ما يُلقى إلى العبد مِن الشبهات والشُّكوكِ القادحة في الإيمان.

الثانية: جهادهُ على دفع ما يُلقى إليه من الإرادات الفاسدة والشهواتِ، فالجهادُ الأول يكون بعده اليقين، والثاني يكون بعدَه الصبر. قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُواْ، وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]، فأخبر أن إمامة الدين، إنما تُنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهواتِ والإرادات الفاسدة، واليقينُ يدفع الشكوك والشبهات.

وأما جهادُ الكفار والمنافقين، فأربع مراتب: بالقلب، واللِّسان، والمالِ، والنفسِ، وجهادُ الكفار أخصُّ باليد، وجهادُ المنافقين أخصُّ باللسان.

وأما جهادُ أرباب الظلم، والبِدعِ، والمنكرات، فثلاث مراتبَ: الأولى: باليدِ إذا قَدَرَ، فإن عَجَزَ، انتقل إلى اللِّسان، فإن عَجَزَ، جاهد بقلبه[١]، فهذِهِ ثلاثةَ عشرَ مرتبةً من الجهاد، و «مَنْ مَاتَ وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ نَفْسَهُ بِالغَزْوِ، مَاتَ عَلَى شُعْبَةٍ مِنَ النِّفَاقِ»[٢].

---

(١) لقوله ﷺ: «مَن رأى منكم مُنكرًا فليُغيرهُ بيدِهِ، فإن لَم يَستطِيع فبلِسَانِهِ، فإن لم يَستطيع فَبِقَلبِهِ، وذلك أضعف الإيمان» رواه مسلم (٤٩).

(٢) أخرجه مسلم (١٩١٠)، وأبو داود (٢٥٠٢)، وغيرهما.

ولا يَتِمُّ الجهادُ إلا بالهِجْرةِ، ولا الهِجْرة والجهادُ إلا بالإيمَانِ، والرَّاجُونَ رحمة الله هم الذين قاموا بهذِهِ الثلاثة. قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَالَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَاهَدُواْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ٢١٨].

وكما أن الإيمان فرضٌ على كل أحد، ففرضٌ عليهِ هِجرتان فى كل وقت: هجرةٌ إلى الله عزَّ وجلَّ بالتوحيدِ، والإخلاص، والإنابة، والتَّوكُّلِ، والخوفِ. والرَّجاءِ، والمحبةِ، والتوبةِ، وهِجرةٌ إلى رسوله بالمُتابعة، والانقيادِ لأمره. والتَّصدِيق بخبره، وتقديم أمره وخبره على أمر غيرِهِ وخبره: «**فمَن كانت هِجرتُهُ إلى الله ورسُولِهِ، فَهِجْرتُهُ إلى الله ورسولِهِ، ومَن كانت هِجْرتُهُ إلى دُنيا يُصيبها، أو امرأةٍ يتزوَّجُهَا، فَهِجْرته إلى ما هاجر إليه**»[١].

وفرَضَ عليه جهادَ نفسه فى ذات الله، وجِهادَ شيطانه، فهذا كُلُّهُ فرضُ عينٍ لا ينوبُ فيه أحدٌ عن أحد.

وأما جِهَادُ الكُفار والمنافقين، فقد يُكتفى فيه ببعضِ الأُمَّةِ إذا حَصَلَ منهم مقصود الجهاد.

وأكملُ الخَلْقِ عند الله، من كَمَّلَ مراتِبَ الجهاد كُلَّهَا، والخلق متفاوِتونَ فى منازلهم عند الله، تفاوتهم فى مراتب الجهاد، ولهذا كان أكملَ الخلقِ وأكرمهم على الله خاتِمُ أنبيائِه ورُسُلِهِ، فإنه كمَّل مراتبَ الجهاد، وجاهد فى الله حقَّ جهاده. وشرع فى الجهاد من حِينَ بُعِثَ إلى أن توفَّاهُ الله عزَّ وجلَّ.ا.هـ[٢].

وفي الجمعة القادمة - إن شاء الله - نستكمل الحديث عن فضل الجهاد والاستشهاد، فإلى اللقاء.

❖❖❖❖❖

---

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٣ - ١٠) باختصار يسير وتصرف.

الخطبة الثامنة والثمانون:

فضل الجهاد والاستشهاد

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد جاء في فضل الجهاد عدّة أحاديث، تقدَّم بعضها، ونذكر هنا بعضها، والله الموفق لما يُحب ويَرضى.

قَالَ ﷺ: «مَنْ بَلَغَ بِسَهْمٍ فِي سبيل الله فَلَهُ دَرَجَةٌ فِي الجَنَّةِ»(١).

وقال ﷺ: «وَمَنْ رَمَى بِسَهْمٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ لَهُ عِدْلُ مُحَرَّرٍ، وَمَنْ أَصَابَهُ

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٩٦٥)، والنسائي (٦/ ٢٧) وغيرهما.

شَيْبٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَهُوَ لَهُ نُورٌ يَوْمَ القِيَامَةِ» [١]. وعند النَّسائيّ تفسير الدرجة بمائة عام [٢].

والأحاديث في هذا المقام كثيرة.

ورَهَّبَ الإسلام مَن ترك الجِهاد والتخلّف عنه، ونسيان الرَّمي:

قَالَ ﷺ: «مَنْ تَعَلَّمَ الرَّمْيَ ثُمَّ تَرَكَهُ فَقَدْ عَصَانِي» [٣].

وقال ﷺ: «مَنْ مَاتَ، وَلَمْ يَغْزُ، وَلَمْ يُحَدِّثْ بِهِ نَفْسَهُ، مَاتَ عَلى شُعْبَةٍ مِنْ نِفَاقٍ» [٤].

وذكر أبو داود عنه ﷺ: «مَنْ لَمْ يَغْزُ، أَوْ يُجَهِّزْ غَازِيًا، أَوْ يُخَلِّفْ غَازِيًا فى أَهْلِهِ بِخَيْرٍ، أَصَابَهُ اللَّهُ بِقَارِعَةٍ قَبْلَ يَوْمِ القِيَامَةِ» [٥].

وَقَالَ ﷺ: «إِذَا ضَنَّ النَّاسُ بالدِّينَار والدِّرْهَم، وَتَبَايَعُوا بالعِينَةِ [٦]، واتَّبَعُوا أذْنَابَ البَقَرِ، وَتَرَكُوا الجِهَادَ فى سَبِيلِ الله، أنْزَلَ الله بِهِمْ بَلاَءً، فلم يَرْفَعْهُ عَنْهُمْ حَتَّى يُرَاجِعُوا دِينَهُم» [٧].

عباد الله...

ولما حثَّ الإسلام عَلَى الجِهاد في سبيل الله، حَثَّ عَلَى الاستشهاد، وبيَّن فضله، ومَكَانةِ أهلِهِ:

قَالَ تَعَالى: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ * يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ اللَّهَ لاَ يُضِيعُ أَجْرَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٩ - ١٧١].

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٦٤٤)، وأحمد (٤/ ١١٣).
(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٢٧١٦)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه ابن ماجه (٢٨٠٤).
(٤) رواه مسلم (١٩١٠)، وأبو داود (٢٥٠٢)، وغيرهما.
(٥) حسن: أخرجه أبو داود (٢٥٠٣)، وابن ماجه (٢٧٦٢).
(٦) العينة: نوعٌ من أنواع الرِّبا.
(٧) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٤٦٢).

وقال تَعَالى: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ * سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ * وَيُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٥، ٦].

قَال: «والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فى سَبِيلِ الله والله أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِى سَبِيلِهِ إلا جَاءَ يَوْمَ القِيَامَةِ اللَّوْنُ لَوْنُ الدَّمِ، والرِّيحُ رِيحُ المِسْكِ» (١).

وفى الترمذى عنه: «لَيْس شَىْءٌ أَحَبَّ إِلَى الله مِنْ قَطْرَتَيْنِ أَوْ أَثَرَيْنِ، قَطْرةِ دَمْعَةٍ مِنْ خَشْيَةِ الله، وَقَطْرَةِ دَمٍ تُهْرَاقُ فى سَبِيل الله، وَأَمَّا الأثرانِ، فَأَثَرٌ فى سَبيلِ الله، وَأَثَرٌ فى فَرِيضَةٍ مِنْ فَرائِضِ الله» (٢).

وصحَّ عنه أنه قال: «مَا مِنْ عَبْدٍ يَمُوتُ، لَهُ عِنْدَ الله خَيْرٌ لاَ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إلى الدُّنْيا، وَأَنَّ لَهُ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا، إلا الشَّهيدَ لما يَرىَ مِنْ فَضْلِ الشَّهَادَةِ، فَإِنَّهُ يَسُرُّهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى الدُّنيَا، فَيُقْتَلَ مَرَّةً أُخْرى».

وفى لفظ: «فَيُقْتَلَ عَشْرَ مَرَّاتٍ لِمَا يَرَى مِنَ الكَرامَةِ» (٣).

وقالَ لأُمِّ حَارِثَةَ بن النُّعْمَانِ، وَقَدْ قُتِل ابْنُهَا مَعَهُ يَوْمَ بَدْرٍ، فَسَأَلَتْهُ أَيْنَ هُوَ؟ قال: «إِنَّهُ فى الفِرْدَوْسِ الأَعْلَى» (٤).

وقال: «إنَّ أَرْوَاحَ الشُّهَدَاءِ فى جَوْفِ طَيْرٍ خُضْر، لَهَا قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ بالعَرْشِ، تَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شَاءَتْ، ثمَّ تأْوى إلى تِلْكَ القَنَادِيلِ، فاطَّلَعَ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمُ اطِّلاَعَةً، فَقَالَ: هَلْ تَشْتَهُونَ شَيْئًا؟ فَقَالُوا: أَىَّ شَىْءٍ نَشْتَهِى، وَنَحْنُ نَسْرَحُ مِنَ الجَنَّةِ حَيْثُ شِئْنَا، فَفَعلَ بِهِمْ ذلِكَ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ، فَلَمَّا رَأَوْا أَنَّهُمْ لَنْ يُتْرَكُوا مِنْ أَنْ يُسْأَلُوا، قَالُوا: يَا رَبِّ نُرِيدُ أَنْ تَردَّ أَرْواحَنَا فِى أَجْسَادِنَا حَتَّى نُقْتَلَ فِى سَبِيلكَ مَرَّةً أُخْرَى، فَلَمَّا رَأَى أَنْ لَيْسَ لَهُمْ حَاجَةٌ تُرِكُوا» (٥).

---

(١) رواه البخاري (٢٨٠٣)، ومسلم (١٨٧٦)، وغيرهما.
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٦٧٥)، وصححه الألباني.
(٣) أخرجه البخاري (٢٧٩٥)، ومسلم (١٨٧٧)، وغيرهما.
(٤) أخرجه البخاري (٢٨٠٩).
(٥) أخرجه مسلم (١٨٨٧).

وقال: «إِنَّ لِلشَّهِيدِ عِنْدَ الله خِصَالًا أَنْ يُغْفَرَ لَهُ مِنْ أَوَّلِ دَفْعَةٍ مِنْ دَمِهِ، ويُرَى مَقْعَده مِنَ الجَنَّةِ، وَيُحَلَّى حِلْيَةَ الإِيمَانِ، وَيُزَوَّجَ مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُجَارَ مِنْ عَذَابِ القَبْرِ، وَيَأْمَنَ مِنَ الفَزَعِ الأَكْبَرِ، وَيُوضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَاجُ الوقَارِ، اليَاقُوتَةُ مِنْهُ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا وَمَا فِيهَا. وَيُزَوَّجَ اثْنَتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِنَ الحُورِ العِينِ، وَيُشفعَ فى سَبْعِينَ إِنْسَانًا مِنْ أَقَارِبِهِ»، ذكره أحمد وصححه الترمذى[1].

وقال ﷺ: «ما يَجِدُ الشَّهِيدُ مِنَ القَتْلِ إلا كَمَا يَجِدُ أَحَدُكُمْ مِنْ مَسِّ القَرْصَةِ»[2].

وفى «السنن»: «يَشْفَعُ الشَّهِيدُ فى سَبْعِينَ مِنْ أَهْلِ بَيْتِه»[3].

وفى «المسند»: «أَفْضَلُ الشُّهَدَاء الَّذِينَ إِنْ يَلْقَوْا فى الصَّفِ لا يَلْفِتُونَ وجوهَهُمْ حَتَّى يُقْتَلُوا، أُولَئِكَ يَتَلَبَّطُونَ فى الغُرَفِ العُلَى مِنَ الجَنَّةِ، وَيَضْحَكُ إِلَيْهِمْ رَبُّكَ، وَإِذَا ضَحِكَ رَبُّكَ إِلَى عَبْدٍ فى الدُّنْيَا، فَلا حِسَابَ عَلَيْه»[4].

عباد الله...

عَلمَ الصحابةُ رَضِيَ الله عَنْهُم فضل الجهاد والاستشهاد، فاقتحموا المنايا، وجابهوا الأخطار، يبحثون عن الاستشهاد كما يبحثون عن النَّصر.

وسطَّرت كُتب التَاريخ صورًا من جِهادهم، ومواقف من ثباتهم، كما سيأتي إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

(١) أخرجه الترمذي (١٦٦٩)، وابن ماجه (٢٧٩٩).
(٢) صحيح: أخرجه الترمذي (١٦٧٤)، والنسائي (٦/ ٣٦)، وغيرهما.
(٣) صحيح.
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٨٧)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (١١٠٧).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وكان النبيُّ ﷺ أشجع الناس، يتقدَّم الصُّفوف، حَتَّى يُتَّقى به أصحابه إذا حَمِي الوطيس، كما أخبر عليّ رضي الله عنه.

وعن جهاده وآدابه ﷺ في الحروب يقول الإمامُ ابن القيِّم - رحمه الله:

«وكان النبيُّ ﷺ يُبايعُ أصحَابَه فى الحربِ على ألا يَفِرُّوا، وربَّما بايعهم على الموتِ، وبايعهم على الجهادِ كما بايعهم على الإسلام، وبايعهم على الهِجرةِ قبل الفتح، وبايَعُهُم على التوحيد، والتزامِ طاعةِ الله ورسوله، وبايع نفرًا من أصحابه ألا يسألوا الناس شيئًا.

وكانَ السَّوطُ يَسْقُطُ مِن يَدِ أحَدِهِم، فينزلُ عن دابته، فيأخُذُهُ، ولا يَقُولُ لأَحدٍ: نَاولْنى إيَّاهُ[(١)].

وكان يُشاوِر أصحابه فى أمر الجهاد، وأمر العدو، وتخير المنازل، وفى «المستدرك» عن أبى هريرة: «ما رأيتُ أحدًا أكثر مشورةً لأصحابه مِن رسول الله ﷺ».

وكان يتخلَّفُ فى ساقَتِهِم فى المسير، فيُزجي الضعيفَ، ويُردِفُ المنقطِعَ، وكان أرفق النَّاسِ بهم فى المسير[(٢)]. وكان إذا أراد غزوة ورَّى بغيرها[(٣)]، فيقول مثلًا إذا أراد غزوة حنين: كيف طريقُ نجد، ومياهُها، ومَن بها من العدوَّ ونحو ذلك.

وكان يقولُ: «الحَرْبُ خَدْعَةٌ»[(٤)].

---

(١) أخرجه مسلم (١٠٤٣)، وغيره.

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٣٩).

(٣) أخرجه البخاري (٢٩٤٧)، ومسلم (٢٧٦٩)، وغيرهما.

(٤) أخرجه البخاري (٣٠٢٨)، ومسلم (١٧٣٩)، وغيرهما.

وكان يبعث العيون يأتونه بخبر عدوِّه[١]، ويُطلِعُ الطلائعَ، ويبيِّتُ الحرسَ.

وكان إذا لقى عدوَّه، وقف ودعا، واستنصرَ الله، وأكثر هو وأصحابُه مِن ذكر الله[٢]، وخفضوا أصواتهم[٣].

وكان يرتِّبُ الجيش والمقاتلة، ويجعلُ فى كل جنبةٍ كُفْئًا لها.

وكان يُبارَزُ بين يديه بأمرِهِ، وكانَ يَلْبَسُ لِلحرب عُدَّتَه، ورُبَّما ظاهر بين دِرْعَيْنِ[٤].

وكان له الألويةُ والرايات[٥].

وكان إذا ظهر على قوم، أقام بِعَرْصَتِهِمْ ثَلاثًا، ثم قفل[٦].

وكان إذا أراد يُغير، انتظر، فإن سمع فى الحيِّ مؤذنًا، لم يُغِرْ وإلا أغارَ[٧].

وكان ربما بيَّت عدوَّهُ، وربَّما فاجأهم نهارًا[٨].

وكان يحب الخروج يوم الخميس بكرةَ النهار[٩].

وكان العسكرُ إذا نزل انضمَّ بعضه إلى بعض حتى لو بُسطَ عليهم كساء لعمَّهم[١٠].

وكان يرتب الصفوف ويُعَبِّئُهُم عند القتال بيده، ويقول: «**تقدَّم يا فلان، تأخَّر يا فلان**»[١١].

---

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٦)، ومسلم (٢٤١٥).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣)، وغيره.
(٣) إسناده حسن: أخرجه أحمد (٥/ ٤٢٠).
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦).
(٥) حسن: أخرجه أبو داود (٢٥٩٢)، وغيره.
(٦) أخرجه البخاري (٣٠٦٥)، وغيره.
(٧) أخرجه البخاري (٦١٠)، ومسلم (١٣٦٥)، وغيرهما.
(٨) أخرجه البخاري (٢٥٤١).
(٩) أخرجه البخاري (٢٩٥٠).
(١٠) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٢٨).
(١١) تقدم نحوه.

وكان يستحب للرجُلِ منهم أن يُقاتل تحت راية قومِه.

وكان إذا لَقِيَ العدوَّ، قال: «اللَّهُمَّ مُنْزِلَ الكِتَاب، ومُجْرِىَ السَّحَاب، وهَازِمَ الأَحْزَابِ، اهْزِمْهُمْ، وانصُرْنَا عَلَيْهِم» [١].

وربما قال: ﴿سَيُهْزَمُ الجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ * بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ والسَّاعَةُ أَدْهَى وَأَمَرُّ﴾ [القمر: ٤٥، ٤٦].

وكان يقُولُ: «اللَّهُمَّ أَنْزِلْ نَصْرَكَ».

وكان يقولُ: «اللَّهُمَّ أَنْتَ عَضُدِى وأَنتَ نَصِيرِى، وَبِكَ أُقَاتِلُ» [٢].

وكان إذا اشتد له بأسٌ، وَحَمِيَ الحربُ، وقصده العدوُّ، يُعلِمُ بنفسه ويقولُ:

أَنَا النَّبِيُّ لا كَذِب أَنَا ابْنُ عَبْدِ المُطَّلِبْ [٣]

وكانَ الناسُ إذا اشتدَّ الحَرْبُ اتَّقَوْا به ﷺ وكانَ أقربَهم إلى العدوِّ [٤].

وكان يجعلُ لأصحابه شِعَارًا فى الحرب يُعْرَفُونَ به إذا تكلَّموا، وكَانَ شِعَارُهُمْ مَرَّة: «أَمِتْ أَمِتْ» [٥]، ومرة: «حَم لا يُنْصَرُونَ» [٦].

وكان يلَبسُ الدِّرعَ والخُوذَةَ [٧]، ويتقلَّدُ السيفَ، ويَحْمِلُ الرّمح والقوسَ العربية، وكان يتترَّسُ بالتُّرسِ.

وكان يُحِبُّ الخُيلاء فى الحربِ، وقال: «إِنَّ مِنْهَا مَا يُحِبُّهُ اللَّهُ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُهُ اللَّهُ، فأَمَّا الخُيَلاءُ الَّتِى يُحِبُّهَا اللَّهُ، فاخْتيالُ الرَّجُلِ بِنَفْسِهِ عِنْدَ اللِّقَاءِ، واخْتِيَالُهُ عِنْدَ الصَّدَقَةِ، وَأَمَّا الَّتِى يُبْغِضُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَاخْتِيَالُهُ فى البَغى وَالفَخْرِ» [٨].

---

(١) أخرجه البخاري (١٦٠٠)، ومسلم (١٣٣٢)، وغيرهما.
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٣٢)، والترمذي (٣٥٩٥).
(٣) أخرجه البخاري (٢٨٦٤).
(٤) صحيح: انظر ما قبله.
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٩٦)، وأحمد (٤/ ٤٦).
(٦) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٩٧)، والترمذي (١٦٨).
(٧) أخرجه البخاري (١٨٤٦).
(٨) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٦٥٩)، والنسائي (٥/ ٧٨).

وقاتل مرة بالمنجنيق نصبَه على أهل الطائفِ. وكان ينهى عن قتلِ النساءِ والولدانِ[١].

وكان ينظُرُ في المقاتِلَةِ، فمن رآهُ أَنْبَتَ، قَتَلَهُ، ومَن لم يُنْبِتْ، استحياه[٢]». ا.هـ[٣].

عباد الله...

وللحديث بقيّة - إن شاء الله - فإلى اللقاء في الجمعة القادمة.



(١) أخرجه البخاري (٣٠١٤)، ومسلم (١٧٤٤)، وغيرهما.
(٢) **صحيح**: أخرجه أبو داود (٤٤٠٤)، والترمذي (١٥٩٠)، وغيرهما.
(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٩٢ - ٩٧) باختصار. ط. دار التوفيقية.

الخطبة التاسعة والثمانون:

[أ] هدي النبيّ ﷺ في الحروب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فقد تكلمنا في الخطبة السابقة عن شيء من هدي النبيِّ ﷺ في الحروب.

ونواصل اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - الحديث مع الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - كما في «زاد المعاد» (٣/ ٩٧) وما بعدها باختصار.

عباد الله...

قَالَ - رَحِمَهُ الله تَعَالَى-: «وكان ﷺ إذا بعث سريَّة يُوصيهم بتقوى الله، ويقول: «سيرُوا بِسْم الله وفى سَبِيلِ الله، وقَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ باللَّهِ، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَغْدُرُوا،

وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[١].

وكان ينهى عن السَّفَرِ بالقُرآنِ إلى أرضِ العدوِّ[٢].

وكان يأمر أميرَ سريَّته أن يدعوَ عدوَّه قبل القِتال إمَّا إلى الإسلامِ والهِجرةِ، أو الإسلامِ دون الهِجرة، ويكونون كأعرابِ المسلمين، ليس لهم فى الفيء نصيب، أو بذل الجِزية، فإن هُمْ أجابُوا إليه، قَبِلَ منهم، وإلا استعان بالله وقاتلهم[٣].

وكان إذا ظفر بعدوِّه، أمر مناديًا، فجمع الغنائمَ كلَّها، فبدأ بالأسلابِ فأعطاها لأهلها، ثم أخرج خُمُسَ الباقى، فوضعه حيث أراه الله، وأمره به مِن مصالح الإسلام، ثم يَرْضَخُ[٤] من الباقى لمن لا سهم له مِن النساءِ والصِّبيانِ والعبيدِ، ثم قسم الباقى بالسَّويَّة بين الجيش، للفارسِ ثلاثةُ أسهم: سهمٌ له، وسهمانِ لفرسه، وللراجل سهم هذا هو الصحيح الثابت عنه[٥].

وكان يُنَفِّلُ مِن صُلْب الغنيمةِ بحسب ما يراه مِن المصلحةِ، وقيل: بل كان النَّفَلُ مِن الخُمُس، وقيل - وهو أضعف الأقوال- : بل كان من خُمُسِ الخُمُسِ.

وجمع لِسلمةَ بن الأكوع فى بعض مغازيه بين سهمِ الراجل والفارس، فأعطاه أربعةَ أسهم لِعظم غَنائِهِ فى تلك الغزوة[٦].

وكان يُسَوِّى الضعيف والقوى فى القِسمة ما عدا النفل.

وكان إذا أغار فى أرض العدوِّ، بعثَ سَرِيَّة بين يديه، فما غَنِمتْ، أخرج خُمُسَهُ، وَنَفَّلَهَا رُبُعَ الباقى، وقسم الباقى بينها وبين سائر الجيش، وإذا رجع، فعل ذلك، ونفَّلها الثلث[٧] ومع ذلك، فكان يكرهُ النَّفَلَ، ويقولُ: «لِيَرُدَّ قَوِيُّ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٣١)، والترمذي (١٦٢٣)، وغيرهما.
(٢) أخرجه البخاري (٢٩٩٠)، ومسلم (١٨٦٩)، وغيرهما.
(٣) أخرجه مسلم (١٧٣١)، وغيره.
(٤) يرضخ: يعطيهم عطاءً ليس بالكثير.
(٥) أخرجه البخاري (٤٢٢٨)، ومسلم (١٧٦٢)، وغيرهما.
(٦) أخرجه مسلم (١٨٠٧).
(٧) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٤٩).

ضَعِيفِهِمْ»[(١)].

وكانَ له ﷺ سَهْمٌ من الغنيمة يُدْعَى الصَّفِيَّ، إن شاء عبدًا، وإن شاء أمةً، وإن شاء فرسًا يختارُه قبل الخُمُس.

قالت عائشةُ: «وكَانَتْ صَفِيَّةُ مِنَ الصَّفِيِّ» رواه أبو داود[(٢)]. ولهذا جَاءَ فى كتابه إلى بنى زهير بن أُقَيْش: «إِنَّكُمْ إِنْ شَهِدْتُم أَنْ لاَ إِلهَ إِلا اللَّهُ، وأَنَّ مُحَمَّدًا رسُولُ الله، وأَقَمْتُمُ الصَّلاَةَ، وآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ، وَأَدَّيْتُمُ الخُمُسَ مِنَ المَغْنَمِ وَسَهْم النَّبىَّ ﷺ، وَسَهْمَ الصَّفِيَّ أَنْتُمْ آمِنُونَ بأَمَانِ الله وَرَسُولِهِ»[(٣)].

وكان سيفُهُ ذُو الفَقَارِ مِن الصَّفِيِّ[(٤)].

وكان يُسهِمُ لمن غاب عن الوقعةِ لمصلحةِ المُسلمِينَ، كما أسهم لِعثمان سهمَه مِن بدر، ولم يحضُرْهَا لِمكان تمريضه لامرأتِهِ رُقيَّةَ ابنة رسولِ الله ﷺ فقالَ: «إِنَّ عُثْمانَ انْطَلَقَ فى حَاجَةِ الله وحاجة رَسُولِهِ»، فَضَربَ لَهُ سَهْمَه وَأَجْرَهُ[(٥)].

وكانوا يستأجرون الأُجراء للغزو على نوعين:

أحدُهما: أن يخرُج الرجلُ، ويستأجِرَ مَنْ يَخْدِمه فى سفرِهِ.

والثانى: أن يستأجرَ من ماله مَن يخرج فى الجهاد، ويسمون ذلك الجعائل، وفيها قال النبى ﷺ: «للغازى أجرُه، وللجاعِلِ أَجْرُهُ وَأَجْرُ الغَازِى»[(٦)].

وكان ﷺ يبعثُ بالسريَّة فُرسانًا تارةً، ورِجَالًا أُخْرَى، وكان لا يُسْهِمُ لِمن قَدِمَ مِن المَدَدِ بعدَ الفتح.

وكان يُعطى سهمَ ذى القُربى فى بنى هاشم وبنى المطلب دون إخوتِهم من

---

(١) أخرجه أحمد (٥/ ٣٢٤).
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٤٩).
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٩٩٩).
(٤) حسن: أخرجه الترمذي (١/ ١٥٦٧)، وابن ماجه (٢٨٠٨).
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٢٦).
(٦) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٢٦).

بني عبدِ شمس وبني نوفل، وقال: «إِنَّمَا بَنُو الْمُطَّلِبِ وَبَنُو هَاشِمٍ شَيْءٌ وَاحِدٌ» وَشَبَّكَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ، وقَالَ: «إِنَّهُمْ لَمْ يُفَارِقُونَا فِي جَاهِلِيَةٍ ولاَ إِسْلاَمٍ»[1].

وكان المسلمون يُصيبُونَ معه في مغازِيهم العَسَلَ والعِنَبَ والطَّعَامَ فيأكلونه. ولا يرفعُونه في المغانم[2]، قال ابنُ عمر: «إِنَّ جَيْشًا غَنِمُوا فِي زَمَانِ رَسُولِ الله ﷺ طَعَامًا وَعَسَلًا، ولم يُؤْخَذْ مِنْهُمُ الخُمُسُ» ذكره أبو داود[3].

وانفرد عبدُ الله بنُ المغفَّل يَوْمَ خَيبَرَ بِجِرَابِ شَحْم، وقال: «لا أُعْطِي اليومَ أحدًا مِنْ هذا شيئًا، فسمِعَهُ رسولُ الله ﷺ، فتبسَّم ولم يَقُلْ له شيئًا»[4].

وقيل لابن أبي أوفى: كُنْتم تُخَمِّسُونَ الطعامَ في عهد رسول الله ﷺ؟ فقال: «أصبنا طعامًا يومَ خيبر، وكان الرجلُ يجيء، فيأخذُ منه مِقدَارَ ما يكفيه، ثم ينصرفُ»[5].

وكان ﷺ ينهى في مغازيه عن النُّهْبَة والمُثْلَةِ وقال: «مَنِ انْتَهَبَ نُهْبَةً فَلَيْسَ مِنَّا»[6].

«وأمرَ بالقُدُورِ التي طُبِخَتْ مِنَ النُّهبَى فَأُكْفِئَتْ»[7].

وذكر أبو داود عَنْ رجلٍ من الأنصار قال: «خَرَجْنَا مَعَ رَسُولِ الله ﷺ في سفرٍ، فأصَابَ النَّاسَ حاجَةٌ شَديدةٌ وجَهْدٌ، وأصابُوا غنمًا، فانتَهبُوها وإنَّ قُدورَنَا لتغلي إذ جَاءَ رَسُولُ الله ﷺ يمشي على قوسه، فَأَكْفَأَ قُدورَنَا بقوسِهِ، ثُمَّ جعلَ يُرْمِلُ اللَّحمَ بالترابِ، ثمَّ قال: «إنَّ النُّهْبَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ المَيْتَةِ، أو إِنَّ المَيْتَةَ لَيْسَتْ بِأَحَلَّ مِنَ النُّهْبَةِ»[8].

---

(١) أخرجه البخاري (٣١٤٠)، وأبو داود (٢٩٧٨)، وغيرهما.
(٢) أخرجه البخاري (٣١٥٤).
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٠١)، وصححه الألباني.
(٤) أخرجه البخاري (٣١٥٣)، ومسلم (١٧٧٢)، وغيرهما.
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٠٢)، وصححه الألباني.
(٦) صحيح: أخرجه الترمذي (١٧٠٧).
(٧) أخرجه البخاري (٢٤٨٨)، ومسلم (١٩٦٨)، وغيرهما.
(٨) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٠٥).

وكان ﷺ ينهى أن يركبَ الرجلُ دابةً مِن الفيء حتَّى إذا أعجفَهَا، ردَّهَا فيه، وأن يَلْبَسَ الرَّجُلُ ثوبًا مِن الفيء حتى إذا أخلقَه، ردَّه فيه[1]، ولم يمنع من الانتفاع به حال الحرب.

وكان يُشدِّدُ في الغُلُولِ جدًّا، ويقول: «هُوَ عارٌ ونَارٌ وشَنَارٌ عَلَى أَهْلِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ»[2].

ولما أُصيبَ غلامهُ مِدْعَمٌ قالوا: هنيئًا لَهُ الجَنَّةُ قال: «كَلا وَالَّذِى نَفْسى بِيَدِهِ إِنَّ الشَّمْلَةَ الَّتى أَخَذَهَا يَوْمَ خَيْبَرَ مِنَ الغَنَائِمِ، لَمْ تُصِبْهَا المَقَاسِمُ لَتَشْتَعِلُ عَلَيْهِ نارًا» فجاء رجل بِشِرَاكٍ أو شِرَاكَيْنِ لما سمع ذَلِكَ، فقال: «شِرَاكٌ أَوْ شِرَاكَانِ مِن نارٍ»[3].

وقال أبو هريرة: «قَامَ فِينَا رَسُولُ الله ﷺ فَذَكَرَ الغُلُولَ وعَظَّمهُ، وَعَظَّمَ أَمْرَهُ، فَقَالَ: «لاَ أُلْفِيَنَّ أَحَدَكُم يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى رَقَبَتِهِ شَاةٌ لَها ثُغَاءٌ، عَلَى رَقَبَتِهِ فَرَسٌ لَهُ حَمْحَمَةٌ يَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِى، فَأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ، عَلَى رَقَبَتِهِ صَامتٌ، فَيَقُولُ: يَارَسُولَ الله أَغِثْنِى، فأَقُولُ: لا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ الله شَيْئًا، قَدْ أَبْلَغْتُكَ، عَلَى رَقَبَتِهِ رِقَاعٌ تَخْفِقُ فَيَقُولُ: يَا رَسُولَ الله أَغِثْنِى، فَأَقُولُ: لاَ أَمْلِكُ لَكَ شَيْئًا قَدْ أَبْلَغْتُكَ»[4].

وقال لمن كانَ عَلَى ثَقَلِهِ وقد مَات: «هُوَ فى النَّارِ» فَذَهَبُوا يَنْظُرُونَ فَوَجَدوا عَبَاءَةً قَدْ غَلَّهَا[5].

وقالوا في بعضِ غَزَواتِهم: «فُلانٌ شَهِيدٌ، وفُلانٌ شَهِيدٌ حتَّى مرُّوا على رجُل، فَقَالُوا: وفُلانٌ شَهِيدٌ، فقال: «كَلا إِنِّى رَأَيْتُهُ فى النَّارِ فى بُرْدَةٍ غَلَّهَا أَوْ عَبَاءَةٍ» ثُمَّ قالَ رسولُ الله ﷺ: «اذْهَبْ يَا ابنَ الخَطَّابِ، اذْهَبْ فَنَادِ فى النَّاسِ: إِنَّهُ لاَ يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا المُؤْمِنُونَ»[6].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٠٨).
(٢) صحيح: أخرجه النسائي (٦/ ٢٦٤).
(٣) أخرجه البخاري (٤٢٣٤)، ومسلم (١١٥)، وغيرهما.
(٤) أخرجه البخاري (٣٠٧٣)، ومسلم (١٨٣١).
(٥) أخرجه البخاري (٣٠٧٤)، وابن ماجه (٢٨٤٩).
(٦) أخرجه مسلم (١١٤)، والترمذي (١٥٨٠).

وكَانَ ﷺ إذا أصابَ غَنِيمَةً أمرَ بِلالًا، فنادَى فى الناسِ، فيجيؤونَ بِغَنَائِمِهِم. فَيُخَمِّسُه، ويَقْسِمُه، فجاء رجلٌ بعد ذلك بِزِمَامٍ مِن شَعرٍ، فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ «سَمِعْتَ بِلاَلًا نَادىَ ثَلاَثًا؟» قالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَمَا مَنَعَكَ أَنْ تَجِيءَ بِهِ؟» فاعتذر، فقالَ: «كُنْ أَنْتَ تَجِيءُ بِهِ يَوْمَ القِيَامَةِ فَلَنْ أَقْبَلَهُ مِنْكَ»[(١)].

عباد الله...

هذا شيءٌ من هَديهِ ﷺ في الحروب، وسيأتي المزيد بعد قليل، إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وكان من هَديهِ ﷺ في الحروب: أنَّهُ كان يَمُنُّ عَلَى بعض الأسارى، ويقتل بعضهم[(٢)]، ويفادي بعضهم بالمال، وبعضَهم بأسرى المسلمينَ، وقد فعل ذلك كلَّه بحَسَبِ المصلحة، ففادَى أسارى بدرٍ بمالٍ، وقَالَ: «لَوْ كَانَ الْمُطْعِمُ بنُ عَدِيٍّ حَيًا. ثُمَّ كَلَّمَني فى هؤلاءِ النَّتْنَى، لَتَرَكْتُهُم له»[(٣)].

وهبطَ عليه فى صُلحِ الحديبية ثمانون متسلِّحُونَ يُرِيدون غِرَّته، فأسرهم ثمَّ مَنَّ عليهم[(٤)].

«وأسرَ ثُمامةَ بن أثال سيِّدَ بنى حَنيفَةَ، فرَبَطَه بِسَارِيَةِ المَسْجِدِ، ثم أطلقه فأسلم»[(٥)].

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧١٢)، وصححه الألباني.

(٢) مِمَّن يستحق القتل شرعًا كمجرمي الحروب، كما في مصطلح العصر الحديث.

(٣) أخرجه البخاري (٣١٣٩)، وأبو داود (٢٦٨٩).

(٤) أخرجه مسلم (١٨٠٨)، وأبو داود (٢٦٨٨).

(٥) أخرجه البخاري (٤٦٢)، ومسلم (١٧٦٤)، وغيرهما.

واستشار الصحابة فى أسارى بدر، فأشار عليه الصِّدِّيقُ أن يأخُذَ منهم فِدية تكونُ لهم قوةً على عَدوِّهم ويُطلِقَهم، لعلَّ الله أن يَهدِيهم إلى الإسلام، وقال عمر: لا والله، ما أرى الَّذِى رأى أبُو بكر، ولكن أرى أن تُمَكِّنَنَا فَنضرِبَ أعناقَهم، فإنَّ هؤلاء أئمةُ الكفرِ وصناديدُها»، فَهَوِىَ رسولُ الله ﷺ ما قال أبُو بكر، ولم يَهْوَ ما قال عُمَرُ، فلما كان مِن الغد، أقبلَ عُمَرُ، فإذا رسولُ الله ﷺ يَبكى هو وأبُو بكر، فقال: «يا رَسُولَ الله؛ مِن أىِّ شىءٍ تبكى أنتَ وصاحِبُكَ، فإن وجدتُ بُكاءً بَكَيْتُ، وإن لم أَجِدْ بكاءً تباكَيْتُ لبكائكما؟ فَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «**أَبْكِى لِلَّذِى عَرَضَ عَلَّى أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهم الفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَىَّ عَذَابُهم أدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرة، وَأَنْزَلَ الله: ﴿مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرى حَتَّى يُثْخِنَ فِى الأرضِ﴾** [الأنفال: ٦٧]»[١].

وقد تكلَّمَ النَّاسُ، فى أىِّ الرأيينِ كان أصوَب، فرجَّحتْ طائِفةٌ، قولَ عُمَرَ لهذا الحديث، ورجَّحت طَائِفةٌ قولَ أبى بكر، لاستقرار الأمر عليه، وموافقتِهِ للكِتابَ الذى سَبَقَ مِن الله بإحلالِ ذلك لهم، ولِموافقته الرحمة التى غلبتِ الغضب، ولتشبيه النبىِّ ﷺ له فى ذلك بإبراهيم وعيسى، وتشبيهه لعمر بنوح وموسى[٢]، ولِحصول الخيرِ العظيم الذى حصل بإسلام أكثر أولئكَ الأسْرى، ولخروجِ مَن خرج مِن أصلابهم مِن المسلمين، ولِحصولِ القوة التى حصلت للمسلمين بالفِداء، ولموافقةِ رَسولِ الله ﷺ لأبى بكر أوَّلًا، ولِموافقةِ الله له آخرًا حيثُ استقر الأمرُ على رأيه، ولِكمال نظر الصِّدِّيق، فإنه رأى ما يستقِرُّ عليه حُكْمُ الله آخِرًا، وغلَّب جانبَ الرحمةِ على جانبِ العُقُوبة.

قالوا: وأما بكاءُ النبىِّ ﷺ، فإنَّما كان رحمةً لِنزول العذابِ لمن أراد بذلك عرضَ الدنيا، ولم يُرِدْ ذَلِكَ رسولُ الله ﷺ، ولا أبو بكر، وإن أرادَه بعضُ الصحابة، فالفتنةُ كانت تَعُمُّ ولا تُصيبُ مَن أرادَ ذلك خاصة، كما هُزِمَ العسكرُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٦٣)، وأبو داود (٢٦٩٠)، وغيرهما.

(٢) أخرجه أحمد (١/ ٣٨٣) من طريق أبي عبيدة عن ابن مسعود ولم يسمع منه.

يومَ حُنَين بقول أحدهم: «لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ مِن قِلَّةٍ» وبإعجاب كثرتهم لِمن أعجبته منهم، فهزم الجَيْشُ بذلك فِتنة ومحنة، ثم استقر الأمرُ على النصر والظفر.. والله أعلم.

واستأذنه الأنصارُ أن يترُكُوا لِلعباس عَمِّهِ فِدَاءَه، فَقَالَ: «لا تَدَعُوا مِنْهُ دِرْهَمًا» [١].

واستوهب مِن سلمة بنِ الأكوع جارية نَفَلَه إيَّاها أبو بكر فى بعض مغازيه. فوهبها له، فبعثَ بها إلى مكَّة، ففدى بها ناسًا مِن المسلمين [٢].

وفدى رجلين من المسلمين برجل من عقيل، ورد سبى هوازن عليهم بعد القِسْمَةِ، واستطابَ قلوبَ الغانمين، فطيبُّوا له، وعوَّض مَن لم يُطيب من ذلك بِكُلِّ إنسانٍ سِتَّ فرائض [٣].

وقتل عُقبةَ بن أبى مُعيط مِن الأسرى،وقتل النَّضرَ بنَ الحارث لشدة عداوته لله ورسوله [٤].

وكان هديُه ﷺ أن مَن أسلم قبل الأسر، لم يُسترق، وكانَ يسترق سَبْىَ العربِ، كما يَسْتَرِقُّ غيرَهم مِن أهل الكتاب، وكان عند عائشة سبِيَّةٌ منهم فقال: «أعْتِقِيها فَإِنَّهَا مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ» [٥].

وفى الطبرانى مرفوعًا: «مَنْ كَانَ عَلَيْهِ رَقَبَةٌ مِنْ وَلَدِ إسماعيلَ، فَلْيَعْتِقْ مِنْ بَلْعَنْبَر».

ولما قسم سبايا بنى المُصْطَلِقِ، وقعت جُوَيْرِيَةُ بِنْتُ الحارث فى السَّبى لثابتِ ابنِ قَيْس بن شمَّاس، فكاتبتْهُ على نفسها، فَقَضَى رسُولُ الله ﷺ كِتَابَتَهَا وَتَزَوَّجَها. فأُعتَقَ بِتَزَوُّجِهِ إياها مائةً مِنْ أَهْلِ بَيْتِ بنى المُصْطَلِقِ إكرامًا لصهرِ رسولِ الله ﷺ [٦]، وهى من صريح العرب، ولم يكونوا يتوقَّفُون فى وطء سبايا العرب على الإسلام.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٥٣٧).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٥٥)، وأبو داود (٢٦٩٧)، وغيرهما.
(٣) أخرجه البخاري (٤٣١٨)، (٤٣١٩).
(٤) مقتل عقبة بن أبي معيط، أخرجه أبو داود (٢٦٨٦)، وإسناده صحيح.
(٥) أخرجه البخاري (٤٧٥٨)، ومسلم (٢٥٢٥).
(٦) أخرجه أبو داود (٣٩٣١)، وصححه الألباني.

ين كانوا يطؤونهن بعد الاستبراء، وأباحَ الله لهم ذلك، ولم يشترط الإسلام، بل قال تعالى: ﴿وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ﴾ [النساء: ٢٤]، فأباح وَطْءَ مُلكِ اليمين، وإن كانت محصنة إذا انقضت عدتُها بالاستبراء. وقال له سلمة بن الأكوع، لما استوهبه الجارية الفزارية من السبى: «والله يا رسول الله؛ لقد أعجبتنى، وما كشفتُ لها ثوبًا»(١)، ولو كان وطؤها حرامًا قبل الإسلام عندهم، لم يكن لهذا القول معنى، ولم تكن قد أسلمت، لأنه قد فَدَى بها ناسًا مِن المسلمين بمكة، والمسلِمُ لا يُفادى به، وبالجملةِ فلا نَعرِفُ فى أثرٍ واحِدٍ قطُّ اشتراط الإسلام منهم قولًا أو فعلًا فى وطء المسبية، فالصوابُ الذى كان عليه هديهُ وهدىُ أصحابه استرقاقُ العرب، ووطء إمائهن المسبيات بملك اليمين من غير اشتراط الإسلام».

عباد الله...

وللحديث بقية - إن شاء الله - فإلى اللقاء.

❖❖❖❖❖

---

(١) صحيح.

الخطبة التسعون:

[ب] هدي النبي ﷺ في الحروب

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن هدي النبيِّ ﷺ في الحروب.

عباد الله...

وكان ﷺ يمنعُ التفريقَ فى السَّبى بين الوالدة وولدها، ويقول: «**مَنْ فَرَّقَ بَيْنَ وَالِدَةٍ وَوَلَدِهَا، فَرَّقَ الله بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَحِبَّتِهِ يَوْمَ القِيَامَة**»[1].

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٢٨٧)، وأحمد (٥/ ٤١٣، ٤١٤) وغيرهما.

وثبت عنه أنه قتل جاسوسًا مِن المشركين[١].

وثبت عنه أنه لم يقتُل حاطبًا، وقد جَسَّ عليه، واستأذنه عمرُ فى قتله فقال: **وما يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فقال: اعْمَلُوا مَا شِئْتُم فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم»** [٢]، فاستدلَّ به مَن لا يرى قتل المسلم الجاسوس، كالشافعى، وأحمد، وأبى حنيفة - رَحِمَهُم الله -واستدل به مَنْ يرى قتله، كمالك، وابن عقيل مِن أصحاب أحمد- رَحِمَهُ الله -، وغيرهما قالوا: لأنه عُلِّل بِعلَّة مانعة مِن القتل منتفيةٍ فى غيره، ولو كان الإسلامُ مانعًا من قتله، لم يُعلَّل بأخصَّ منه، لأن الحكم إذا عُلِّلَ بالأعم، كان الأخص عديمَ التأثير، وهذا أقوى.. والله أعلم.

عباد الله...

وكان هديه ﷺ عِتقَ عبيدِ المشركين إذا خرجُوا إلى المسلمين وأسلموا، ويقول: **«هُمْ عُتَقَاءُ الله عَزَّ وجَلَّ»** [٣].

وكان هديُه ﷺ أنَّ مَن أسلم على شىء فى يده، فهو له، ولم ينظُرْ إلى سببه قبل الإسلام، بل يُقِرُّه فى يدِهِ كما كان قبل الإسلام، ولم يكن يُضَمِّنُ المشركينَ إذا أسلموا ما أتلفُوه على المسلمين مِن نفس، أو مال حالَ الحرب ولا قبلَه، وعزم الصِّدِّيقُ على تضمينِ المحاربينَ مِن أهلِ الرِّدة دياتِ المسلمينَ وأموالهم، فقال عمر: «تلك دماءٌ أُصيبت فى سبيل الله، وأُجورُهم على الله، ولا ديةَ لشهيد»، فاتفق الصحابةُ على ما قالَ عمر.

ولم يكن أيضًا يَرُدُّ على المسلمين أعيان أموالهم التى أخذها مِنهم الكفارُ قهرًا بعد إسلامهم، بل كانوا يرونها بأيديهم، ولا يتعرَّضُون لها سواء فى ذلك العقار والمنقول، هذا هديُه الذى لا شك فيه.

ولما فتح مكة، قام إليه رجال من المهاجرين يسألونه أن يرد عليهم دورهم

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٣٠٥١)، وأبو داود (٢٦٥٣)، وغيرهما.
(٢) أخرجه البخاري (٣٠٠٧)، ومسلم (٢٤٩٤)، وغيرهما.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٧٠٠)، وصححه الألباني.

التى استولى عليها المشركون، فلم يردَّ على واحد منهم داره، وذلك لأنهم تركوها لله، وخرجوا عنها ابتغاءَ مرضاته، فأعاضهم عنها دورًا خيرًا منها فى الجنة، فليس لهم أن يرجِعُوا فيما تركوه لله، بل أبلغُ من ذلك أنه لم يُرخِّصْ للمهاجر أن يُقيم بمكة بعد نُسُكِه أكثرَ مِن ثلاثٍ[1]، لأنه قد ترك بلده لله، وهاجر منه، فليس له أن يعودَ يستوطِنهُ، ولهذا رثى لسعد بن خولة، وسمَّاه بائسًا أن ماتَ بمكة، ودُفِنَ بها بعد هجرته منها[2].

عباد الله...

أمَّا عن هديه ﷺ في الأرض المغنومة:

فقد ثبت عنه أنه قسم أرضَ بنى قُريظة وبنى النَّضير وخيبر بينَ الغانمين.

وأما المدينة، ففُتِحت بالقرآن، وأسلم عليها أهلُها، فأُقِرَّت بحالها.

وأما مكة، ففتحها عَنْوَةً، ولم يقسمها، فأشكل على كُلِّ طائفةٍ من العلماء الجمعُ بين فتحها عنوة، وتركِ قسمتها[3].

فقالت طائفة: لأنها دارُ المناسِكِ، وهى وقفٌ على المسلمين كلِّهم، وهم فيها سواء، فلا يُمْكِنُ قسمتُها، ثم مِن هؤلاء مَن منع بيعهَا وإجارَتها، ومنهم مَن جوَّز بيع رِباعها، ومنع إجارَتها.

والشافعى لما لم يجمع بين العَنوةِ، وبين عدم القسمة، قال: إنها فُتِحتْ صُلحًا. فلذلك لم تُقْسم. قال: ولو فُتِحَتْ عَنوة، لكانت غنيمة، فيجبُ قسمتها كما تجب قسمةُ الحيوان والمنقول، ولم يرَ بأسًا من بيع رباع مكة، وإجارتها، واحتج بأنها ملك لأربابها تُورث عنهم وتُوهب، وقد أضافها الله سبحانه إليهم إضافةَ الملك إلى مالكه.

واشترى عمرُ بن الخطاب دارًا مِن صفوان بن أمية، وقيل للنبى ﷺ: أين

(١) أخرجه البخاري (٣٩٣٣)، ومسلم (١٣٥٢)، وغيرهما.
(٢) أخرجه البخاري (١٢٩٥).
(٣) أخرجه البخاري (١٢٩٥).

تنزل غدًا فى دارك بمكة؟ فقال: «وَهَلْ تَرَكَ لَنَا عَقِيلٌ مِنْ رِبَاعٍ أو دُورٍ»(١)، وكان عقيلُ ورثَ أبا طالب.

فلمّا كان أصل الشافعى أن الأرضَ من الغنائم، وأن الغنائم تجبُ قسمتُها، وأن مكّةَ تُملك وتُباع، ورِباعها ودُورها لم تقسم، لم يجد بُدًا من القولِ بأنها فُتِحَتْ صُلْحًا.

لكن من تأمل الأحاديثَ الصحيحةَ، وجدها كلَّها دالة على قول الجمهور، أنها فتحت عَنوة. ثم اختلفوا لأى شيء لم يقسمها؟

فقالت طائفة: لأنها دار النُّسُك ومحلِّ العبادة، فهى وقف من الله على عباده المسلمين.

وقالت طائفة: الإمام مُخيّرٌ فى الأرض بين قسمتها وبين وقفها، والنبىُّ ﷺ قسم خيبرَ، ولم يقسم مكة، فدل على جواز الأمرين.

قالوا: والأرضُ لا تدخلُ فى الغنائم المأمورِ بقسمتها، بَل الغنائمُ هى الحيوانُ والمنقولُ، لأن الله تعالى لم يُحِلِّ الغنائم لأمة غير هذه الأُمة، وأحل لهم ديارَ الكفر وأرضهم كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ الله عَلَيْكُم﴾ إلى قوله: ﴿يا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ الْمُقَدَّسَةَ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١]، وقال فى ديارِ فرعونَ وقومِهِ وأرضهم: ﴿كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الشعراء: ٥٩]، فعُلِم أن الأرض لا تدخل فى الغنائم، والإمامُ مخيَّر فيها بحسب المصلحة، وقَد قَسَمَ رسولُ الله ﷺ وترك، وعُمَرُ لم يقسم، بل أقرَّها على حالها وضرب عليها خراجًا مستمرًا فى رقبتها يكون للمقاتلة، فهذا معنى وقفها، ليس معناه الوقف الذى يمنع مِن نقل الملك فى الرقبة، بل يجوزُ بيعُ هذهِ الأرض كما هو عملُ الأمة، وقد أجمعوا على أنها تورث، والوقف لا يُورث.

وقد نص الإمامُ أحمد- رَحِمَهُ الله تَعَالى -: عَلَى أنها يجوزُ أن تُجعل صداقًا، والوقفُ لا يجوز أن يكون مهرًا فى النكاح، ولأن الوقفَ إنما امتنع بيعهُ ونقل الملك فى رقبته لما فى ذلك من إبطال حقِّ البطون الموقوف عليهم من منفعته،

(١) أخرجه البخاري (١٥٨٨)، ومسلم (١٣٥١)، وغيرهما.

والمقاتلة حقهم في خراج الأرض، فمن اشتراها صارت عنده خراجية، كما كانت عند البائع سواءً، فلا يبطُلُ حق أحدٍ من المسلمين بهذا البيع، كما لم يبطل بالميراث والهبة والصَّداق، ونظيرُ هذا بيعُ رقبة المكاتب، وقد انعقد فيه سببُ الحرية بالكتابة، فإنه ينتقل إلى المشترى مكاتبًا كما كان عند البائع، ولا يبطل ما انعقد في حقِّه من سبب العتق ببيعه.. والله أعلم.

ومما يدلُّ على ذلك أن النبيَّ ﷺ قسم نِصفَ أرضِ خيبر خاصة، ولو كان حكمُها حكمَ الغنيمة، لقسمها كلها بعد الخُمُس.

ففى «السنن» و «المستدرك»: «أن رسولَ الله ﷺ لما ظهر على خيبر قسمَها على ستةٍ وثلاثين سهمًا، جَمَعَ كُلُّ سَهْم مِائَةَ سَهْم، فكان لرسول الله ﷺ وللمسلمين النِّصفُ من ذلك، وعَزَلَ النِّصفَ الباقى لِمَنْ نزل به من الوفود والأمور ونوائبِ الناسِ» [1]. هذا لفظ أبى داود.

وفى لفظ: «عزلَ رسولُ الله ﷺ ثمانيةَ عَشَرَ سهمًا، وهو الشطرُ لِنوائبِهِ، وما ينزلُ بِهِ من أمر المسلمين، وكان ذَلِكَ الوَطِيحَ والكُتَيْبَةَ، والسُّلالِمَ وتوَابِعَهَا» [2].

وفى لفظ له أيضًا: «عزلَ نِصفها لنوائبه وما نزل له: الوَطيحة والكُتيبة، وما أُحيزَ مَعَهُمَا، وعزل النصفَ الآخر، فقسمه بين المسلمين: الشِّقَّ والنَّطَاةَ، وما أُحيزَ معهما، وكان سهمُ رسول الله ﷺ فيما أُحيز معهما» [3] ا.هـ[4].

عباد الله...

كان هذا هو هَدي النبيّ ﷺ في الحروب، نقدّمه لعالم اليوم، ليقارنوا بين شريعة الإسلام، وشريعة الغاب.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٠١٢)، وصححه الألباني.
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٠١٤)، وصححه الألباني.
(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٠١٣).
(٤) «زاد المعاد» (٣/ ١٠٩ - ١١٤) باختصار وتصرف.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبعد أن قدَّمنا هدي الإسلام في الحروب، نذكِّركم بما يحدث في العالم اليوم، وبالتحديد ما يحدث للمسلمين اليوم من قِبَلِ أعداءهم:

- فاسألوا العراق.
- واسألوا أفغانستان.
- واسألوا فلسطين.
- واسألوا الصومال.
- واسألوا البوسنة والهرسك.
- اسألوا اليتامى.
- اسألوا الأرامل.
- واسألوا القتلة من النِّساء والأطفال والشيوخ.

بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلوا؟ سيأتيكم الجواب:

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَن يُؤْمِنُوا باللَّهِ العَزِيزِ الـحَمِيدِ﴾ [البروج: ٨].

«اللَّهُمَّ إنَّا نشكوا إليك ضِعف قُوَّتِنا، وقلَّة حيلتنا، وهواننا عَلَى النَّاس، يا أرحم الراحمين ويا رب العالمين».

«اللَّهُمَّ أبرم لهذه الأُمَّة أمر رشد يُعَزُّ فيه أهل طاعتك، ويُذَلُّ فيه أهلُ مَعصِيتك، ويُؤْمَرُ فيه بالمعروف ويُنْهَى فيه عن المنكر».

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

الخطبة الحادية والتسعون:

أهداف القتال في الإسلام

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فيقول الحقّ سُبحانَهُ وتَعَالى في مُحكم آياتِ التنزيل:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ * وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ وَلاَ تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ المَسْجِدِ الحَرَامِ حَتَّى يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ * فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لاَ تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٣].

عباد الله...

عَقِبَ هَذِهِ الآيات قَالَ الشيخ عبد الحميد كشك - رَحِمَهُ الله تَعَالى -كلامًا يستحق التسجيل:

قَالَ - رَحِمَهُ الله -: «بعد ما بَيّن الله تعالى منافع الأهلة وأنها مواقيت للناس والحج، فإنها أيضًا مواقيت للأشهر الحرم التي لا يحل فيها القتال، والتي جاء ذكرها في قوله تعالى: ﴿الشَّهْرُ الحَرَامُ بِالشَّهْرِ الحَرَامِ وَالحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٤].

وفي قوله جل شأنه: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ القَيِّمُ فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ﴾ [التوبة: ٣٦].

وهذه الأشهر هي: ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ورجب.

فإذا ما اعتدى على المسلمين في هذه الأشهر، جاز لهم أن يردوا العدوان بمثله، وقد جاء الإذن بالقتال في الإسلام بعد عدة مراحل من الدعوة، فقد بدأت الدعوة بالحجج القاطعة والبراهين الساطعة، وما زالت وستظل، قال تعالى لنبيه ومصطفاه: ﴿يَا أَيُّهَا المُدَّثِّرُ * قُمْ فَأَنذِرْ * وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ * وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ١ - ٤]. ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالحِكْمَةِ وَالمَوْعِظَةِ الحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥].

ثم: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

ثم: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

ثم: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

إذن، فالقتال هنا مشروع ضد المعتدين الآثمين، ثم أمرهم الله تعالى أن يقتلوهم حيث وجدوهم، وأن يخرجوهم من حيث أخرجوهم فقد أخرجوهم

من ديارهم مكة، قال تعالى: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

ثم قال عز من قائل: ﴿وَالفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ القَتْلِ﴾ [البقرة: ١٩١]. والمقصود. بالفتنة هنا فتنة الرَّجُل في دينه حتى يرتد عنه، فقد أذاقوا المسلمين ألوانا من العذاب، لو صبت على الأيام صرن لياليًا، وما شأن بلال وعمار وخباب وصهيب وابن مسعود وياسر وغيرهم من المستضعفين، ما شأنهم ببعيد، من ثم فإن الفتنة أشد من القتل، فقاتلوهم واسجنوهم حتى يقضى على الفتنة من جذورها. ويكون الدين والخضوع والاستسلام لله وحده، ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَلاَ عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣]. ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الشورى: ٤٢].

ولقد نهى الله الجماعة المسلمة أن تقاتل المشركين عند المسجد الحرام صيانة لحرمته، فإنه الأمن كله، طيرا ونباتًا ووحشًا، إلا إذا بدأ المشركون بالقتال عند المسجد الحرام ﴿فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ١٩١].

وما أوسع رحمة الله وما أعظم كرمه، إذ يقول: ﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [البقرة: ١٩٢].

أما إن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم، وطعنوا في دينكم، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون. وما أعظم قوله -جل شأنه -: ﴿فَلاَ عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

فالظالم عدو الله ورسوله، لابُدَّ أن يقلم الإسلام أظافره، ويكسر أنيابه. ويجتث مخالبه، لأن وجوده في الأرض شر مستطير، فالمؤمن إذا مات استراح بالموت من عناء الدنيا، والفاجر إذا مات استراحت منه البلاد والعباد والشجر والدواب.

ومن هنا نعلم أن المسلمين ما استعملوا السيف إلا في وجه العدوان، وضد

القوى الطاغية، التي وقفت حائلاً دون إيصال الدعوة إلى الناس.

فالأصل في الإسلام السلام، ولكن سلام عزيز مسلح، فالله هو السلام، والجنة دار السلام، وتحية الملائكة لأهل الجنة سلام، وتحية الله للمؤمنين يوم يلقونه سلام، وتحيته سبحانه لنبيه: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته. فهذا هو الأصل في معاملات الإسلام الخارجية، سلام مبني على العزة والكرامة، أما السلام الذليل المستكين، فالإسلام لا يعرفه ولا يقره. قال تعالى: ﴿ فَلاَ تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ وَاللَّـهُ مَعَكُمْ ﴾ [محمد: ٣٥].

واسألو التاريخ: أي المعسكرين اعتدى على الآخر، معسكر الشرك أم معسكر التوحيد؟ إن التاريخ يشهد والحقائق تؤكد أن معسكر الشرك كان البادئ بالعدوان، فهل يقف معسكر التوحيد ذليلاً يستجدي معسكر الشرك؟ لا والله، إن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين، وما رفع الإسلام السيف إلا في وجه السيف، إذ لا يفل الحديد إلا الحديد، وهل رفع الإسلام السيف إلا للقضاء على السيف؟

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا ... لقتل نفس ولا جاءوا لسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة ... غزوت بالسيف بعد الغزو بالقلم
والناس إن ظلموا البرهان واعتسفوا ... فالحرب أجدى على الدنيا من السلم
والحرب إن تلقها بالسلم ضقت بها ... ذرعًا إن تلقها بالسيف تنحسم

قال ربعي بن عامر لقادة الفرس عندما سألوه: ما الذي جاء بكم إلينا قال: إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة الأوثان إلى عبادة الله وحده، ومن ظلم الإنسان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

سيدي أبا القاسم يا رسول الله:

الحرب في حق لديك شريعة ... ومن السموم الناقعات دواء

قولوا للشانئين الحاقدين الحاسدين: ما قامت دعوة الإسلام على السيف، إنما قامت على الحجة والبرهان، فيوم أعلن الرسول كلمة التوحيد، كان وحده، ويوم

انضم أبو بكر إلى رسول الله لم ينضم بالسيف، ويوم انضم إليهم عمر وعثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن وسعيد بن زيد وأبو عبيدة لم ينضموا بالسيف، فالإسلام عقيدة والعقيدة من أعمال القلوب، ولا سلطان للسيف على ما في القلب، ونسبة البلاد التي فتحت بالأعمال العسكرية بنسبة خمسة عشر في المائة، والباقون دخلوا الإسلام بطريق التجارة التي كان يتولاها تجار المسلمين في شرق البلاد وغربها.

ثم اسألوا التاريخ: متى استعمل الإسلام السيف؟ ضد القوى المادية الضاغطة التي وقفت كابوسًا ضاغطًا يصد عن سبيل الله. ثم اسألوا التاريخ: كم عدد الذين قتلوا أو استشهدوا في غزوات الرسول كلها؟ من الجانبين لا يتجاوزون ألفًا وثمانية عشر رجلاً، منهم مائتان وثمانية وخمسون شهيدًا والباقون من المشركين، بينما سقط في الحرب العالمية الأولى واحد وعشرون مليونًا، وفي الحرب العالمية الثانية خمسون مليونًا ما بين قتيل وجريح ومعوق. ألا يأخذ هؤلاء الحياء؟ ثم ألا يشعرون بالخزي وهم البرابرة الذين دمروا الشعوب واستنزفو خيراتها تحت اسم الاستعمار، وماهو استعمار وإنما استخراب.

واسألوا التاريخ عن بلد المليون من الشهداء؟ الجزائر التي وقفت وصمدت أمام الإمبراطورية الفرنسية.

عباد الله...

وزيادة في الإيضاح فإننا نذكر في قضية الحرب والسلام ما ذكره اللواء محمود شيت خطاب في كتابه «الرسول القائد» تحت عنوان: «القتال في الإسلام»:

قَالَ:

« معنى القتال في الإسلام: هو قتال العدو لتأمين حرية نشر الدعوة وتوطيد أركان الإسلام مع مراعاة حرب الفروسية الشريفة في الإسلام ».

متى شرع القتال في الإسلام؟

لم يؤذن للمسلمين في القتال قبل الهجرة رغم ما ذاقوا من المر، وكابدوا من

فنون الأسى والضر، فلم يكن همهم إلا أن ينشروا دعوة، ويثبتوا عقيدة، ويقولوا في حرارة وصدق: ربنا الله. فلما اشتد عداء قريش وصمموا على القضاء على الدعوة، وأجمعوا أمرهم على قتل النبي ﷺ، هاجر هو وأصحابه إلى المدينة، فهل وقف البغي وخفت حدة العداوة؟ كلا، ظلت قريش تحارب المسلمين، وتخرجهم من ديارهم وأموالهم، حتى أذن الله للمسلمين في القتال، فنزلت فيه أول آية: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ * الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ﴾ [الحج: ٣٩، ٤٠].

لقد خرج الرسول ﷺ غازيًا في صفر على رأس اثنى عشر شهرًا من مقدمه إلى المدينة، وبذلك بدأ القتال فعلاً في الإسلام.

وقَدْ شَرَّع الإسلام القتال لأهداف نبيلة، وحِكم عظيمة، فمن ذَلِكَ:

[١] حماية حرية نشر الدعوة:

ليس من أهداف الحرب في الإسلام نشر الدعوة، بل حماية حرية نشرها، لأن نشر الإسلام بالقوة معناه الإكراه، والله تعالى يقول: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ولو كان القتل في انتشار الإسلام بسيوف أهله ورماحهم لزال سلطانه من القلوب بزوال سلطان دولته حين ضعف أهله وغلبوا على أمرهم، ولكن هدف الحرب في الإسلام هو حماية العقيدة، وتأمين حرية انتشارها بين الناس، وصد الاعتداء الخارجي على بلاد المسلمين ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

إن الحرب في الإسلام حرب دفاعية[١]، لا يبدأ المسلمون فيها بالاعتداء على أحد، ولا يقاتلون إلا مكرهين على القتال، ويعتبرون الحرب كفاح وشرف، ولا يجوز أن يلجأ المحاربون فيها إلى عمل أو إجراء يتنافى مع الشرف، فهم مقيدون

(١) ليست حربًا دفاعية وفقط، فالجهاد ينقسم إلى جهاد طلب، وجهادُ دَفْع.

باحترام العهد والترفع عن الخيانة، ومواساة الجرحى والمرضى والأسرى والعناية بهم، وعدم التعرض بسوء لغير المتقاتلين، وعدم التعرض للنساء والأطفال والشيوخ والرهبان والعبيد والفلاحين.. إلـخ.

[٢] توطيد أركان السلام:

تكون الأمة بغير جيش قوي عرضة للضياع، إذ يطمع فيها أعداؤها ولا يهابون قوتها، فإذا كان لها جيش قوي احترم العدو إرادتها، فلا تحدثه نفسه باعتداء عليها، فيسود عند ذاك السلام: ﴿وَأَعِدُّوا لَـهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ اللَّـهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ * وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ العَلِيمُ﴾ [الأنفال: ٦٠، ٦١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨].

إن الإسلام، كما تدل عليه تسميته، دين أمن وسلام، يقوم على أساس الود والتسامح، ولا يجيز الحرب إلا في حالات محدودة بحيث تعتبر فيما عداها جريمة.

عباد الله...

وقَدْ شرع الإسلامُ للقتال آدابًا.

وحول هذا الموضوع يحدِّثنا اللواء **محمود شيت خطَّاب** فيقول: «شرع قتال المسلمين لغير المسلمين، لرد العداون وحماية الدعوة وحرية انتشار الدين، والقرآن الكريم حينما شرع القتال نأى به عن جوانب الطمع والاستئثار وإذلال الضعفاء، وتوخى به أن يكون طريقًا إلى السلام والاطمئنان وتركيز الحياة على موازين العدل والإنصاف.

وليست الجزية عوضًا ماليًّا عن دم أو عقيدة، وإنما هي لحماية المغلوبين في أموالهم وعقائدهم وأعراضهم وكرامتهم، وتمكينهم من التمتع بحقوق الرعاية مع المسلمين سواء بسواء. يدل على ذلك أن جميع المعاهدات التي تمت بين

المسلمين وبين المغلوبين من سكان البلاد كانت تنص على هذه الحماية في العقائد والأموال. وقد جاء في عهد خالد بن الوليد لصاحب قس الناطف: «إني عاهدتكم على الجزية والمنعة، فإن منعناكم فلنا الجزية وإلا حتى نمنعكم».

لقد رد خالد بن الوليد على أهل حمص، وأبو عبيدة على أهل دمشق، وبقية قواد المسلمين على أهل المدن الشامية المفتوحة ما أخذوه منهم من الجزية حين اضطر المسلمون إلى مغادرتها قبيل معركة اليرموك، وكان مما قاله القواد المسلمون لأهل تلك المدن: «إنا كنا قد أخذنا منكم الجزية على المنعة والحماية، ونحن الآن عاجزون عن حمايتكم، فهذه هي أموالكم نردها إليكم».

لقد كان فرض الجزية في الإسلام أبعد ما يكون عن الاستغلال والطمع في أموال المغلوبين، إذ كانت تفرض بمقادير قليلة على المحاربين والقادرين على العمل فحسب، وكانت على ثلاثة أقسام: أعلاها، وهو (٤٨ درهمًا) في السنة على الأغنياء (حوالي دينارين ونصف دينار عراقي أو عشرين ليرة سورية أو لبنانية أو ٢٤٠ قرشًا مصريًّا) وأوسطها، وهو (٢٤ درهمًا) في السنة على المتوسطين من تجار وزراع، وأدناها: وهو (١٢ درهمًا) في السنة على العمال المحترفين الذين يجدون عملاً، وهذا مبلغ لا يكاد يذكر بجانب ما يدفعه المسلم نفسه من زكاة ماله، وهو بنسبة اثنين ونصف في المائة، القدر الشرعي لفريضة الزكاة.

إن إسقاط الجزية عن الفقير والصبي والمرأة والراهب والمنقطع للعبادة والأعمى والمقعد وذوي العاهات أكبر دليل على أن الجزية يراعى فيها قدرة المكلفين على دفعها، كما أن تقسيمها إلى ثلاث فئات دليل على مراعاة رفع الحرج والمشقة في تحصيلها.

وقد جاء في عهد خالد لصاحب قس الناطف: «إني عاهدتكم على الجزية والمنعة على كل ذي يد: القوي على قدر قوته والمقل على قدر إقلاله». ليس ذلك فحسب، بل الإسلام أعفى دافع الجزية من الخدمة في الجيش، والذمي الذي يقبل التطوع في الجيش الإسلامي تسقط عنه الجزية، وهذا معناه أن الجزية تشابه البدل النقدي للخدمة العسكرية في عصرنا الحاضر، كما ضمن الإسلام إعالة البائسين

والمحتاجين من الذميين، جاء بعهد خالد بن الوليد لأهل الحيرة: «وأيما شخص ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وأعيل من بيت مال المسلمين وعياله».

إن فرض الجزية لا يحمل معنى الامتهان والإذلال، ومعنى ﴿صَاغِرُونَ﴾. في آية الجزية: ﴿حَتَّى يُعْطُوا الجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. هو الخضوع إذا من معاني الصغار في اللغة الخضوع، ومنه أطلق الصغير على الطفل، لأنه يخضع لأبويه ولمن هو أكبر منه، والمراد بالخضوع حينئذ، الخضوع لسلطان الدولة، بحيث يكون، في دفع الجزية ومن الالتزام من قبل أهل الذمة بالولاء للدولة، كما تلتزم الدولة لقاء ذلك بحمايتهم ورعايتهم واحترام عقائدهم.

ولا توجد آية في القرآن الكريم تدل أو تشير إلى أن القتال في الإسلام لحمل الناس على اعتناقه. وقد نص القرآن الكريم بوضوح على طريقة معاملة المسلمين لغير المسلمين: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ لَـمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوَهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّـهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّـهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨، ٩].

واقرأ الآية الكريمة، هي من أواخر القرآن نزولاً، فهي تحدد أيضًا علاقة المسلمين بغيرهم: ﴿اليَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّـهُمْ وَالـمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالـمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلاَ مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ وَمَن يَكْفُرْ بِالإِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥].

ومن ذلك يفهم أن علاقة المسلمين بغير المسلمين هي: بر وقسط وتعاون ومصاهرة». ا.هـ.[1]

(١) «في رحاب التفسير» (٤٣٨ - ٣٥٣) بتصرف يسير.

عباد الله...

وللحديث بقية، انتظروها بعد قليل إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وإتمامًا للفائدة، فالجهاد باعتبار الغاية ينقسم إلى قسمين:

الأول: جهاد طلب:

قَالَ السيوطي - رَحِمَهُ الله - في «الأشباه والنظائر»[(١)]: «وَمِن فُرُوضِ الكِفَايَةِ الجِهَادُ.

حَيثُ الكُفَّارُ مُستَقِرُّونَ فِي بُلدَانِهِم وَيَسقُطُ بِشَيئَينِ:

أَحَدُهُمَا: أَن يُحَصِّنَ الإِمَامُ الثُّغُورَ بِجَمَاعَةٍ يُكَافِئُونَ مَن بِإِزَائِهِم مِن الكُفَّارِ.

الثَّانِي: أَن يَدخُلَ الإِمَامُ دَارَ الكُفَّارِ غَازِيًا بِنَفسِهِ: أَو بِجَيشٍ يُؤَمِّرُ عَلَيهِم مَن يَصلُحَ لِذَلِكَ وَأَقَلُّهُ مَرَّةٌ وَاحِدَةٌ فِي كُلِّ سَنَةٍ فَإِن زَادَ، فَهُوَ أَفضَلُ.

وَلَا يَجُوزُ إخلَاءُ سَنَةٍ عَن جِهَادٍ إِلَّا لِضَرُورَةٍ بِأَن يَكُونَ فِي المُسلِمِينَ ضَعفٌ، وَفِي العَدُوِّ كَثرَةٌ، وَيُخَافُ مِن ابتِدَائِهِم الِاستِئصَالُ لِعُذرٍ بِأَن يَعِزَّ الزَّادُ وَعَلَفُ الدَّوَابِّ فِي الطَّرِيقِ فَيُؤَخَّرَ إِلَى زَوَالِ ذَلِكَ، أَو يُنتَظَرَ لَحَاقُ مَدَدٍ أَو يَتَوَقَّعَ إسلَامُ قَومٍ فَيَستَمِيلَهُم بِتَركِ القِتَالِ» ا.هـ.

وقال الشيخ ابن العثيمين - رَحِمَهُ الله -: «لابد في جهاد الطلب من شروط، وهو أن يكون عند المسلمين قدرة وقوة يستطيعون بها القتال، فإن لم يكن لديهم قدرة فإن إقحام أنفسهم في القتال إلقاء بأنفسهم إلى التهلكة، ولهذا لم يوجب الله

---

(١) ص (٤١٣).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَلَى المسلمين القتال وهم في مَكَّة». ا.هـ[١].

والقسم الثاني: جهاد الدفع:

قَالَ شيخ الإسلام ابن تيمية - رَحِمَهُ الله -[٢]: «وأما قتال الدَّفعُ فهو أشدّ أنواع دفع الصائل عن الحرمة والدِّين، فواجب إجماعًا، فالعدوّ الصائل الذي يُفسد الدِّين والدنيا لا شيء أوجب بعد الإيمان من دفعه، فلا يُشترط له شرط بل يُدفع بحسب الإمكان.

وقَدْ نصّ عَلَى ذَلِكَ العلماء أصحابنا وغيرهم، فيجب التفريق بين دفع الصائل الظالم الكافر، وبين طلبه في بلاده» ا.هـ.

عباد الله...

وبهذا الإيضاح نأتي إلى خِتام خطبة اليوم، وأسأل الله تَعَالى أن يُعلمنا ما جَهِلنا، وأن يَنفَعنا بما علّمنا.

❁❁❁❁❁

(١) «الشرح الممتع»(٨/ ٩).
(٢) «الفتاوى» (٥/ ٥٣٨).

الخطبة الثانية والتسعون:

[أ] غزوة بدر الكبرى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنتكلم اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن غزوة «بدر الكبرى»، وما فيها من دروس وَعِظَّات، سائلاً المولى تبارك وتعالى التوفيق.

عباد الله...

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - [1]: ما مختصره: «لما كان في رمضانَ سنة ٢هـ،

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٥٧ - وما بعدها).

بلغ رسولَ الله ﷺ خبرُ العِيرِ المقبلة من الشام لقريش صُحبةَ أبى سفيان، وهى العِيرِ التى خرجوا فى طلبها لما خرجت مِن مكة، وكانوا نحو أربعين رجلًا، وفيها أموالٌ عظيمة لِقريش، فندب رسولُ الله ﷺ الناسَ للخروج إليها[1]، وأمر مَن كان ظهرُه حاضرًا بالنهوض، ولم يَحْتَفِلْ لها احتفالًا بليغًا، لأنه خرج مُسْرِعًا فى ثلاثمائة وبضعة عشر رجلًا[2]، ولم يكن معهم من الخيل إلا فَرَسانِ: فرس للزبير ابن العوام، وفرسٌ للمِقداد بن الأسود الكِندى[3]، وكان معهم سبعون بعيرًا يَعْتَقِبُ الرجلان والثلاثةُ على البعير الواحد، فكان رسولُ الله ﷺ، وعلىّ، ومَرْثَدُ ابنُ أبى مَرْثَدٍ الغَنوى، يعتقِبُون بعيرًا[4]، وزيدُ بن حارثة، وابنُه، وكبشةُ موالى رسول الله ﷺ، يعتَقِبُونَ بعيرًا، وأبو بكر، وعمر، وعبدُ الرحمن بن عوف. يعتقِبُونَ بعيرًا، واستخلف على المدينةِ وعلى الصلاة ابنَ أمِّ مكتوم، ودفع اللِّواء إلى مُصعبِ بنِ عُمَير، والراية الواحدة إلى علىّ بن أبى طالب، والأخرى التى للأنصار إلى سعد بن معاذ، وجعل على الساقة قيسَ بنَ أبى صَعْصَعَةَ.

وسار فلما قَرُبَ مِن الصَّفْرَاء، بعث بَسْبَسَ بنَ عمرو الجهنى، وعدى ابن أبى الزغباء إلى بدر يتجسَّسان أخبارَ العِير[5]، وأما أبو سفيان، فإنه بلغه مخرجَ رسول الله ﷺ وقصده إياه، فاستأجر ضَمْضَمَ بنَ عَمْرو الغِفارى إلى مكة، مُستصْرِخًا لقريش بالنَّفير إلى عِيرهم، ليمنعوه من محمد وأصحابه.

وبلغ الصريخُ أهلَ مكة، فنهضوا مُسرِعين، وأوعبوا[6] فى الخروج، فلم يتخلَّفْ من أشرافهم أحدٌ سوى أبى لهب، فإنَّه عوَّض عنه رجلًا كان له عليه

---

(١) قائلًا: «هذه عير قريش، فيها أموالهم، فأخرجوا إليها، لعل الله أن ينفلكموها». صحيح: أخرجه بطوله ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٣٢)، وصححه الألباني.

(٢) أخرجه البخاري (٣٩٥٧)، وفي سنن أبي داود: «خرج يوم بدر ثلاثمائة وخمسة عشر». وإسناده صحيح.

(٣) إسناده حسن: أخرجه أحمد (١/ ١٢٥)، وغيره.

(٤) إسناده حسن: أخرجه أحمد (١/ ٤١١)، والنسائي في «الكبرى» (٨٨٠٧).

(٥) أخرجه مسلم (١٣/ ٤٤ - ٤٦).

(٦) أوعبوا: جمعوا.

دَيْن، وحشدُوا فيمن حولهم من قبائل العرب، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بنى عدى، فلم يخْرُجْ معهم منهم أحد، وخرجوا مِن ديارهم كما قال تعالى: ﴿بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ الله﴾ [الأنفال: ٤٧].

وجاؤوا على حَرْدٍ قادرين، وعلى حميَّةٍ، وغضبٍ، وحَنَقٍ على رسول الله ﷺ وأصحابه، لما يُريدون مِن أخذ عيرهم، وقتل مَن فيها، وقد أصابُوا بالأمسِ عَمْرو ابن الحضرمى، والعِير التى كانت معه، فجمعهم اللهُ على غير ميعاد كما قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لاخْتَلَفْتُمْ فِى المِيعَادِ، وَلَـكِنْ لِّيَقْضِىَ الله أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا﴾ [الأنفال: ٤٢].

ولما بلغَ رسولَ الله ﷺ خروجُ قريش، استشار أصحابه، فتكلَّم المهاجِرون فأحسَنُوا، ثم استشارهم ثانيًا، فتكلم المهاجرون فأحسنوا، ثم استشارهم ثالثًا، ففهمت الأنصارُ أنه يَعنيهم، فبادر سعدُ بنُ معاذ، فقال: «يا رسول الله، كَأَنَّكَ تُعَرِّضُ بنا؟» وكان إنما يَعنيهم، لأنهم بايعوه على أن يمنعوه من الأحمر والأسود فى ديارهم، فلما عزم على الخُروج، استشارهم لِيعلم ما عندهم.

فقال له سعد: «لَعَلَّكَ تَخْشَى أَنْ تَكُون الأَنصارُ تَرَى حقًا عليها أن لا ينصروك إلا فى ديارها، وإنى أقول عن الأنصار، وأُجِيب عنهم: فاظْعَنْ حَيْثُ شِئْت، وَصِلْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، واقْطَعْ حَبْلَ مَنْ شِئْتَ، وخُذْ مِنْ أَمْوَالِنَا مَا شِئْتَ، وَأَعطِنَا مَا شِئْتَ، وَمَا أَخَذْتَ مِنَّا كَانَ أَحَبَّ إِلَيْنَا مِمَّا تَرَكْتَ، ومَا أَمَرْتَ فِيهِ مِنْ أَمْرٍ فَأَمْرُنَا تَبَعٌ لأَمْرِكَ، فَوالله لَئِن سِرْتَ حَتَّى تَبْلُغ البَرْكَ مِنْ غمدَان، لَنَسِيرَنَّ مَعَكَ، وَوَالله لَئِنِ اسْتَعْرَضْتَ بِنَا هذَا البَحْرَ خُضْنَاهُ مَعَكَ»[١].

وقَالَ لَهُ المِقْدَادُ: «لا نَقُولُ لَكَ كَمَا قَالَ قَوْمُ مُوسَى لِمُوسى: اذْهَبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فقاتِلا إِنَّا هَهُنَا قَاعِدُونَ، وَلَكِنَّا نُقَاتِلُ عَنْ يَمِينِكَ، وَعَنْ شِمَالِكَ، وَمِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ، وَمِنْ خَلْفِكَ».

فأشرق وَجْهُ رَسُولِ الله ﷺ، وسُرَّ بِمَا سَمِعَ مِنْ أصحابه.

---

(١) أخرجه ابن سعد (٢/ ٢٤) من مرسل عكرمة، وأصل القصة في «صحيح مسلم» (١٧٧٩).

فسار رسولُ الله ﷺ إلى بدر، وخَفَضَ أبو سفيان فَلَحِقَ بساحل البحر، ولما رأى أنه قد نجا، وأحرز العير، كتب إلى قريش: أن ارجعوا، فإنكم إنما خرجتم لِتُحْرِزُوا عيركم. فأتاهم الخبرُ، وهم بالجُحْفَةِ، فهمُّوا بالرجوع، فقال أبو جهل: والله لا نرجع حتى نَقْدَمَ بدرًا، فنقيمَ بها، ونُطعِمَ مَنْ حَضَرَنَا مِن العرب، وتخافنا العربُ بعد ذلك، فأشار الأخنس بن شُريق عليهم بالرجوع، فَعَصَوْه، فرجع هو وبنو زُهرة، فلم يشهد بدرًا زُهرى، فاغتبطت بنو زُهرة بعدُ برأى الأخنس، فلم يزل فيهم مطاعًا معظمًا، وأرادَتْ بنو هاشم الرجوع، فاشتدَّ عليهم أبو جهل. وقال: لا تُفَارِقُنَا هذه العِصابة حتى نَرْجِعَ فساروا، وسارَ رسولُ الله ﷺ حتى نزل عشيًا أدنى ماء مِن مياه بدر، فقال: «أشيرُوا عَلَيَّ فى المَنْزل». فقال الحُبَابُ بنُ المنذر: يا رسول الله؛ أنا عالم بها وبِقُلُبِهَا، إن رأيتَ أن نسيرَ إلى قُلُبٍ قد عرفناه. فهى كثيرة الماء، عذبة، فننزِلَ عليها ونَسبِقَ القوم إليها ونُغوِّر ما سواها مِن المياه[(١)].

وسار المشركون سِراعًا يريدون الماء، وبعث عليًا وسعدًا والزبير إلى بدر يلتمِسُون الخبر، فَقَدِمُوا بعبدين لقريش، ورسولُ الله ﷺ قائم يُصلِّى، فسألهم أصحابُه: مَنْ أنتما؟ قالا: نحن سُقاةٌ لِقريش، فكره ذلك أصحابه، وودُّوا لو كانا لِعير أبى سفيان، فلما سلَّم رسولُ الله ﷺ قال لهما: «أخْبِرَانِى أيْنَ قُرَيْشٌ»؟ قالا: وراء هذا الكثيب. فقال: «كم القومُ»؟ فقالا: لا عِلم لنا، فقال: «كم ينحرونَ كُلَّ يوم»؟ فقالا: يومًا عشرًا، ويومًا تسعًا، فقال رسولُ الله ﷺ: «القومُ ما بينَ تسعمائة إلى الألف» [(٢)]، فأنزل الله عزَّ وجلَّ فى تلك الليلة مطرًا واحدًا، فكان على المشركين وابلًا شديدًا منعهم من التقدم، وكان على المسلمين طَلًا طهَّرهم به، وأذهب عنهم رجْسَ الشيطان، ووطَّأ به الأرضَ، وصلَّب به الرملَ، وثبَّتَ الأقدام، ومهَّدَ به المنزل، وربطَ به على قلوبهم، فسبق رسول الله ﷺ وأصحابه إلى الماء، فنزلوا عليه

(١) أخرجه البخاري (٣٩٥٢).
(٢) أخرجه ابن إسحاق من مرسل عروة، وهو في «صحيح مسلم» (١٧٧٩) بنحوه.

شطرَ الليل، وصنعوا الحياض، ثم غوَّروا ما عداها من المياه.

ونزل رسول الله ﷺ وأصحابه على الحياض. وبُنِيَ لرسول الله ﷺ عريش[١] يكون فيها على تلٍّ يُشرِفُ على المعركة، ومشى فى موضع المعركة، وجعل يُشير بيده، هذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان، وهذا مصرع فلان إن شاء الله، فما تعدى أحد منهم موضع إشارته[٢].

فلما طلع المشركون، وتراءى الجمعانِ، قام رَسُول الله ﷺ ورفع يديه، واستنصر ربَّه وقال: «**اللَّهُمَّ أَنْجِزْ لى مَا وَعَدْتَنِى، اللَّهُمَّ إِنِّى أَنْشُدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ**»، فالتزمه الصِّدِّيق من ورائه، وقال: «يا رسول الله؛ أبشر، فوالذى نفسى بيده، لَيُنجِزَنَّ الله لكَ ما وَعَدَكَ»[٣].

واستنصر المسلمون الله، واستغاثوه، وأخلصوا له، وتضرَّعُوا إليهِ، فَأَوْحَى الله إلى مَلائِكَتِهِ: ﴿أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ الَّذِينَ آمَنُواْ، سَأُلْقِى فِى قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُواْ الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢].

وأَوْحَى الله إلى رسوله: ﴿أَنِّى مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: ٩] قرئ بكسر الدال وفتحها، فقيل: المعنى إنهم رِدْفٌ لكم. وقيل: يُرْدِفُ بعضُهم بعضًا أرسالًا لم يأتوا دَفعةً واحدة.

عباد الله...

فإن قيل: ههنا ذكر أنه أمدَّهم بألفٍ، وفى سورة «آل عمران» قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى، إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلافٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤، ١٢٥]، فكيف الجمع بينهما؟

قيل: قد اختُلِفَ فى هذا الإمداد الذى بثلاثة آلاف، والذى بالخمسة على

(١) حسن: ذكره ابن إسحاق، وحسنه الألباني.
(٢) صحيح: أخرجه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٧)، وأحمد (١/ ٢٦)، وغيرهما.
(٣) أخرجه مسلم (١٧٦٣).

قولين:

أحدهما: أنه كان يومَ أُحُد، وكان إمدادًا معلَّقًا على شرط، فلما فات شرطُه فات الإمدادُ، وهذا قولُ الضحاك ومقاتِل، وإحدى الروايتين عن عِكرمة.

والثانى: أنه كان يومَ بدر، وهذا قولُ ابن عباس، ومجاهد، وقتادة.

والرواية الأخرى عن عِكرمة، اختاره جماعة من المفسِّرين. وحجة هؤلاء أن السياق يدل على ذلك، فإنه سبحانه قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُم تَشْكُرونَ * إذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ * بَلَى، إن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ﴾ إلى أن قال: ﴿وما جَعَلَهُ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٢٣-١٢٦] أى: هذا الإمداد ﴿إلا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُم بِهِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]. قال هؤلاء: فلما استغاثوا، أمدَّهم بتمام ثلاثةِ آلاف، ثم أمدَّهم بتمام خمسة آلافٍ لما صبرُوا واتقوا، فكان هذا التدريجُ، ومتابعة الإمداد، أحسن موقعًا وأقوى لِنفوسهم، وأسرَّ لها من أن يأتى به مرةً واحدة، وهو بمنزلة متابعة الوحى ونزوله مرة بعد مرة.

وقالت الفرقةُ الأولى: القصة فى سياق أُحُد، وإنما أدخل ذكر بدر اعتراضًا فى أثنائها، فإنه سبحانه قال: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ، وَاللهُ سَميعٌ عَلِيمٌ * إذْ هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أن تَفْشَلا واللَّهُ وَلِيُّهُما، وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُون﴾ [آل عمران: ١٢١-١٢٢]، ثم قال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهِ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ، فَاتَّقُواْ اللهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾ [آل عمران: ١٢٣] فذكَّرهم نعمتَه عليهم لَمَّا نصرهم ببدر، وهم أذلة، ثم عاد إلى قصةِ أُحُد، وأخبر عن قول رسوله لهم: ﴿أَلَن يَكْفِيَكُمْ أَن يُمِدَّكُمْ رَبُّكُم بِثَلاثَةِ آلافٍ مِّنَ المَلائِكَةِ مُنْزَلِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٤]، ثم وعدهم أنهم إن صبرُوا واتَّقُوا، أمدَّهم بخمسة آلاف، فهذا من قول رسولِه، والإمداد الذى ببدر من قوله تعالى، وهذا بخمسة آلاف، وإمدَادُ بدر بألف، وهذا معلَّق على شرط. وذلك مطلق، والقصة فى سورة «آل عمران» هى قصة أُحُد مستوفاة مطوَّلة، وبدر ذُكرت فيها اعتراضًا، والقصة فى سورة «الأنفال» قصة بدر مستوفاة مطوَّلة.

فالسياق في «آل عمران» غير السياق في «الأنفال».

يوضح هذا أن قوله: ﴿وَيَأْتُوكُم مِّنْ فَوْرِهِمْ هَذَا﴾ [آل عمران: ١٢٥]، قد قال مجاهد: إنه يومُ أُحد، وهذا يستلزِمُ أن يكون الإمدادُ المذكور فيه، فلا يَصِحُّ قولُه: إن الإمداد بهذا العدد كان يومَ بدر، وإتيانُهم من فورهم هذا يومَ أُحُد.. والله أعلم» ا.هـ.

عباد الله...

ثم ماذا؟

ثم اقترب موعد الالتحام، وقبله حدثت أحداث، نلتقي بها بعد قليل، إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

قال ابن القيِّم رحمه الله: «وباتَ رسولُ الله ﷺ يصلي إلى جِذْع شجرة هُناك، وكانت ليلةَ الجمعة السابع عشرَ من رمضان في السنة الثانية، فلما أصبحوا، أقبلتْ قريشٌ في كتائبها، واصطَف الفريقانِ، فمشى حكيمُ بنُ حِزام، وعُتبةُ بن ربيعة في قريش، أن يرْجِعُوا ولا يقاتلوا، فأبى ذلك أبو جهل، وجرى بينه وبين عتبة كلامٌ أَحْفَظَهُ، وأمر أبو جهل أخا عَمْرو بن الحضرمي أن يطلب دَمَ أخيه عَمْرو، فكشف عن اسْتِهِ، وصرخ: واعَمْراهُ، فحمى القومُ، ونشَبتِ الحربُ، وعَدَّلَ رسولُ الله ﷺ الصفوفَ، ثم رجع إلى العَريشِ هو وأبو بكر خاصة، وقام سعدُ ابن معاذ في قوم من الأنصار على باب العريشِ، يحمون رسولَ الله ﷺ.

وخرج عتبةُ وشيبةُ ابنا ربيعة، والوليدُ بن عُتبة، يطلبون المبارزة، فخرج إليهم ثلاثةٌ من الأنصار: عبدُ الله بن رواحة، وعوفٌ، ومُعَوِّذٌ ابنا عفراء، فقالوا لهم: مَن

أنتم؟ فقالوا: من الأنصار. قالوا: أكفاءٌ كِرام، وإنما نُريد بنى عمنا، فبرز إليهم عليّ وعُبيدة بن الحارث وحمزةُ، فقتل عليٌّ قِرْنَه الوليد، وقتل حمزة قِرنه عُتبة، وقيل شيبةُ واختلف عُبيدة وقِرنُه ضربتين، فكَّر عليٌّ وحمزةُ على قِرن عُبيدة، فقتلاه واحتملا عُبيدة[1] وقد قُطِعت رجله، فلم يزل ضَمِنًا[2]، حتى مات بالصَّفْراءِ[3].

وكان عليٌّ يُقسِمُ بالله: لنزلت هذه الآيةُ فيهم: ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩] الآية[4].

ثم حمى الوطيسُ، واستدارت رَحى الحربِ، واشتدَّ القِتال، وأخذ رسولُ الله ﷺ فى الدعاء والابتهالِ، ومناشدة ربِّه عَزَّ وجَلَّ، حتى سقط رداؤه عن منكبيه. فردَّه عليه الصِّدِّيق، وقال: بعضَ مُناشَدَتِكَ ربَّكَ، فإنَّهُ منجزٌ لَكَ ما وَعَدَكَ[5].

فأغفى رسول الله ﷺ إغفاءة واحدة، وأخذ القومَ النعاسُ فى حال الحربِ. ثم رفعَ رسولُ الله ﷺ رأسَه فقال: «**أَبْشِرْ يا أَبَا بَكْر، هذا جِبْرِيلُ عَلَى ثَنَايَاه النَّقْع**»[6]

وجاء النصر، وأنزل الله جنده، وأيَّد رسوله والمؤمنين، ومنحهم أكتافَ المُشركِينَ أسرًا وقتلًا، فقتلوا منهم سبعين، وأَسرُوا سبعينَ». ا.هـ.

عباد الله...

وللحديث بقية، فإلى اللقاء إن شاء الله.

❖❖❖❖❖

(١) أخرجه أحمد بنحوه، وصححه الألباني.
(٢) ضمنًا: مريضًا.
(٣) الصفراء: داء في البطن يُصفّر الوجه.
(٤) الخبر في «صحيح البخاري» (٣٩٦٥)، وليس فيه القَسم، وإنما هو عن أبي ذر، أخرجه البخاري (٣٩٦٨).
(٥) أخرجه مسلم (١٧٦٣).
(٦) حسن: ذكره ابن هشام في «السيرة» (١/ ٥٤٨)، وحسنه الألباني.

الخطبة الثالثة والتسعون:

[ب] غزوة بدر الكبرى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن غزوة «بدر الكبرى» وعن أحداث الغزوة.

يقول الإمامُ ابن القيّم - رَحِمَهُ الله - [(١)]: «لَـمَّا عزم المشركون عَلَى الخروج، ذكروا ما بينهم وبينَ بنى كنانة مِن الحرب، فتبدَّى لهم إبليسُ فى صورة سُراقة بن مالك المُدْلجى، وكان مِن أشراف بنى كنانة، فقال لهم: لا غَالِبَ لكم اليومَ من

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٦٧ - وما بعدها).

الناس، وإنى جارٌ لكم من أن تأتيكم كِنانة بشىءٍ تكرهُونه، فخرجوا والشيطان جارٌ لهم لا يُفارقهم، فلما تعبَّؤوا للقتال، ورأى عدوُّ الله جندَ الله قد نزلت من السماء، فرَّ، ونَكَصَ على عقبيه، فقالوا: إلى أين يا سُراقة؟ ألم تكن قُلْتَ: إنك جار لنا لا تُفَارِقُنَا؟ فقال: إنى أرى ما لا ترون، إنى أخاف اللهَ، واللَّهُ شديدُ العِقَاب[1]. وصدق فى قوله: إنى أرى ما لا ترون، وكذب فى قوله: إنى أخاف اللهَ. وقيل: كان خوفه على نفسه أن يَهْلِكَ معهم، وهذا أظهر.

ولما رأى المنافقون ومَن فى قلبه مرض قِلَّة حزبِ الله وكثرةَ أعدائه، ظنُّوا أن الغلبة إنما هى بالكثرة، وقالوا: ﴿غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، فأخبر سبحانه أن النصر بالتوكل عليه لا بالكثرة، ولا بالعدد، والله عزيز لا يُغالَب، حكيم ينصر مَن يستحق النصر، وإن كان ضعيفًا، فعزتُه وحكمتُه أوجبت نصرَ الفئةِ المتوكِّلة عليه.

ولما دنا العدو وتواجه القومُ، قام رسول الله ﷺ فى الناس، فوعظهم. وذكَّرهم بما لهم فى الصبر والثباتِ مِن النصرِ، والظفرِ العاجِلِ، وثوابِ الله الآجل. وأخبرهم أن الله قد أوجبَ الجنة لمن استشهد فى سبيلِهِ، فقام عُمَيْرُ بنُ الحُمَام. فَقَالَ: يا رسولَ الله؛ جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّماواتُ والأَرْضُ؟ قال:«نَعَمْ». قال: بَخ بَخ يَا رَسولَ الله. قالَ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخ بَخ»؟ قال: لا واللهِ يا رَسُولَ الله إلا رَجَاءَ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا. قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا» قال: فأَخرَجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرَنِهِ. فَجَعَلَ يأكُلُ مِنْهُنَّ، ثم قال: لَئِنْ حَيِيتُ حَتَّى آكُلَ تَمَرَاتِى هذِهِ، إِنَّهَا لَحَيَاةٌ طَوِيلَةٌ. فَرَمَى بِمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ[2]. فكان أول قتيل.

وأخذ رسول الله ﷺ مِلءَ كَفِّهِ مِنَ الحصباءِ، فَرَمَى بِهَا وجوهَ العَدُوِّ، فلم تترك رَجُلًا مِنهم إلاَّ ملأَتْ عينيه، وشُغِلُوا بالتراب فى أعينهم، وشُغِلَ المسلمون بقتلهم، فأنزل الله فى شأن هذه الرمية على رسوله ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّه

(١) أخرجه الواقدي، وهو متروك.
(٢) أخرجه مسلم (١٩٠١).

رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] [(١)].

وقد ظن طائفة أن الآية دلَّت على نفى الفعل عن العبد، وإثباتِه لله، وأنه هو الفاعلُ حقيقة، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة فى غير هذا الموضع. ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لِرسوله ابتداءَ الرَّمى، ونفى عنه الإيصال الذى يحصل برميته، فالرمىُ يُرادُ به الحذفُ والإيصال، فأثبت لنبيه الحذفَ، ونفى عنه الإيصال.

وكانت الملائكة يومئذ تُبادِرُ المسلمين إلى قتلِ أعدائهم، قال ابن عباس: «بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فى أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَه، وَصَوْتُ الفَارِسِ فَوْقَهُ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُوم، إذْ نَظَرَ إلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إلَيْهِ، فَإذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثالث» [(٢)].

وقال أبو داود المَازِنى: «إنِّى لأَتْبَعُ رَجُلًا مِن الْمُشْرِكِينَ لأَضْرِبَه، إذْ وَقَع رَأْسُه قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إلَيْهِ سَيْفِى، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِى» [(٣)].

وجاء رجلٌ مِن الأنصار بالعبَّاسِ بنِ عبد المطلب أسيرًا، فقال العباسُ: إنَّ هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أجلح، مِن أحسن النَّاسِ وجهًا، على فرسٍ أبْلَق، ما أراه فى القوم، فقال الأنصارى: أنا أسرتُه يا رسول الله، فقال: «اسْكُتْ فَقَدْ أَيَّدَكَ اللَّهُ بِمَلَكٍ كَرِيمٍ». وأُسِر من بنى عبد المطلب ثلاثة: العباسُ، وعقيلٌ، ونوفل بن الحارث[(٤)].

واستفتح أبو جهل فى ذلك اليوم، فقال: اللَّهُمَّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا

---

(١) الخبر رواه الطبراني في «الكبير» (١١٧٥٠)، وحسنه الألباني.
(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣).
(٣) حسن: أخرجه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٣).
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ١١٧)، وصححه الألباني والشيخ أحمد شاكر.

رَمَى ﴾ [الأنفال: ١٧] [(١)].

وقد ظن طائفة أن الآية دلَّت على نفى الفعل عن العبد، وإثباتِهِ لله، وأنه هو الفاعلُ حقيقة، وهذا غلط منهم من وجوه عديدة مذكورة فى غير هذا الموضع. ومعنى الآية: أن الله سبحانه أثبت لِرسوله ابتداءَ الرَّمى، ونفى عنه الإيصال الذى لم يحصل برميته، فالرمىُ يُرادُ به الحذفُ والإيصال، فأثبت لنبيه الحذفَ، ونفى عنه الإيصال.

وكانت الملائكة يومئذ تُبادِرُ المسلمين إلى قتل أعدائهم، قال ابن عباس: «بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فى أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَه، وَصَوْتُ الفَارِسِ فَوْقَهُ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُوم، إِذْ نَظَرَ إِلَى الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ مُسْتَلْقِيًا، فَنَظَرَ إِلَيْهِ، فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ، كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذلِكَ أَجْمَعُ، فَجَاءَ الأَنْصَارِىُّ، فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ الله ﷺ، فَقَالَ: «صَدَقْتَ، ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّماءِ الثالث» [(٢)].

وقال أبو داود المَازِنى: «إِنِّى لأَتْبَعُ رَجُلًا مِن الْمُشْرِكِينَ لأَضْرِبَه، إِذْ وَقَع رَأْسُه قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَيْهِ سَيْفِى، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ قَتَلَهُ غَيْرِى» [(٣)].

وجاء رجلٌ مِن الأنصار بالعبَّاسِ بنِ عبد المطلب أسيرًا، فقال العباسُ: إن هذا والله ما أسرنى، لقد أسرنى رجل أجلح، مِن أحسن النَّاسِ وجهًا، على فرس أبْلَق، ما أراه فى القوم، فقال الأنصارى: أنا أسرتُه يا رسول الله، فقال: «اسْكُتْ فَقَدْ أَيَّدَكَ اللَّهُ بِمَلَكٍ كَرِيمٍ». وأُسِر من بنى عبد المطلب ثلاثة: العباسُ، وعقيل، ونوفل بن الحارث[(٤)].

واستفتح أبو جهل فى ذلك اليوم، فقال: اللَّهُمَّ أقطعنا للرحم، وآتانا بما لا

---

(١) الخبر رواه الطبراني في «الكبير» (١١٧٥٠)، وحسنه الألباني.
(٢) أخرجه مسلم (١٧٦٣).
(٣) حسن: أخرجه ابن إسحاق كما في «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٥٣).
(٤) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ١١٧)، وصححه الألباني والشيخ أحمد شاكر.

ـبِ عليّ، فطلبها عبدُ الله بن الزبير، وكانت عنده حتى قُتِلَ[(١)].

وقال رِفاعةُ بنُ رافع: «رُمِيتُ بسهمٍ يومَ بدر، فَفُقِئَتْ عيني، فَبَصَقَ فيها رسولُ الله ﷺ ودعا لى، فما آذانى منها شيء».

ولما انقضتِ الحربُ، أقبلَ رسولُ الله ﷺ حَتَّى وقَفَ عَلَى قَتْلَى المشركين ثم أمر بهم، فسُحِبوا إلى قَلِيبٍ[(٢)] مِن قُلُب بدر، فطُرِحُوا فيه، ثم وقف عليهم، فقال: «يا عُتْبَةَ بْنَ رَبِيعَةَ، ويا شَيْبَةَ بْنَ رَبيعةَ، ويا فلانُ، ويا فُلانُ، هَل وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَكُمْ رَبُّكم حَقًّا، فَإِنِّى وَجَدْتُ مَا وَعَدَنِى رَبِّى حَقًّا»، فقال عُمَرُ بنُ الخطاب: يا رَسُولَ الله؛ ما تُخَاطِبُ مِنْ أقوام قَدْ جَيَّفُوا؟ فقالَ: «والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، مَا أَنْتُمْ بِأَسْمَعَ لِمَا أَقُولُ مِنْهُم، وَلَكِنَّهُمْ لا يَسْتَطِيعُونَ الجَوَابَ»[(٣)]، ثم أقامَ رسولُ الله ﷺ بِالعَرْصَةِ ثَلاثًا، وكان إذا ظَهَرَ عَلَى قَوْمٍ أَقَامَ بِعَرْصَتِهِم ثلاثًا[(٤)].

ثم ارتحل مؤيَّدًا منصورًا، قريرَ العين بنصر الله له، ومعه الأسارى والمغانمُ، فلما كان بالصَّفراء، قسمَ الغنائم، وضرب عُنُقَ النَّضْرِ بن الحارث بن كلدة، ثُمَّ لما نَزَلَ بِعِرْقِ الظَّبْيَةِ، ضرب عُنُقَ عُقبةَ بن أبى مُعَيْطٍ.

ودخل النبى ﷺ المدينةَ مؤيَّدًا مظفَّرًا منصورًا قد خافه كُلُّ عدوٍ له بالمدينة وحولَها، فأسلم بَشَر كثير مِن أهل المدينة، وحينئذ دخل عبد الله بن أُبَىٍّ المنافقُ وأصحابُه فى الإسلام ظاهرًا.

وجملة مَن حضر بدرًا من المسلمين ثلاثمائة وبضعةَ عشر رجلًا، من المهاجرين ستة وثمانون، ومن الأوس أحدٌ وستون، ومن الخزرج مائة وسبعون، وإنما قَلَّ عَدَد الأوسِ عن الخزرج، وإن كانوا أشدَّ منهم، وأقوى شوكَةً، وأصبرَ عند اللِّقاء، لأن منازِلهم كانت فى عوالى المدينة، وجاء النفيرُ بغتةً، وقال النَّبىُّ ﷺ: «لا

---

(١) أخرجه البخاري (٣٩٩٨).

(٢) بئر.

(٣) أخرجه البخاري (٣٩٧٦).

(٤) رواه البخاري.

يَتْبَعُنَا إلاَّ مَنْ كان ظَهْرُهُ حَاضِرًا»، فاستأذنه رِجالٌ ظُهورُهم في عُلو المدينة أن يستأني بهم حتى يذهبُوا إلى ظهورهم، فأبى[1] ولم يَكُن عَزْمُهُم عَلَى اللِّقَاءِ، ولا أعدُّوا عدته، ولا تأهبوا له أهبتَه، ولكن جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد.

واستشهد من المسلمين يومئذ أربعةَ عشرَ رجلًا: ستةٌ من المهاجرينَ، وستة من الخزرج، واثنانِ من الأوس، وفرغ رسولُ الله ﷺ من شأن بدر والأسارى في شوَّال». ا.هـ. ملخصًا من «زاد المعاد».

عباد الله...

وقَدْ يتساءل البعض: ما هي أسباب انتصار المسلمين؟

نجيب عن هذا السؤال بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ما هي أسباب انتصار المسلمين في بدر؟

يجيب عن هذا السؤال اللواء محمود شيت خطَّاب، فيقول:

أسباب انتصار المسلمين:

١ - قيادة موحَّدة:

كان الرسول هو القائد العام في معركة «بدر»، وكان المسلمون يعملون يدًا واحدةً تحت قيادته، يوجههم في الوقت الحاسم للمحل الحاسم للقيام بعمل حاسم، وهذا هو واجب القائد الكفء.

وكان ضبط المسلمين في تنفيذ أوامر قائدهم مثالًا رائعًا للضبط الحقيقي

---

(١) أخرجه مسلم (١٩٠١).

ـتين، وإذا كان الضبط أساس الجندية، وإذا كان الجيش الممتاز هو الذي يتحلى ـضبط ممتاز، إذا كان الأمر كذلك، فقد كان جيش المسلمين جيشًا ممتازًا بكل ما تحمل هَذِهِ الكَلِمة من معانٍ.

إن معنى الضبط فيما أرى: هو طاعة الأوامر وتنفيذها بحرص وأمانة، وعن ـيب خاطر، وقَدْ كان المسلمون ينفذون أوامر قائدهم بحرص شديد وأمانة ـدرة، وبشوقٍ وطيب خاطر عظيمين، ومن حقهم أن يفعلوا ذَلِكَ؛ لأن قائدهم يتحلى بصفات القائد المثالي؛ صبرٌ في الشدائد، وشجاعة نادرة في المواقف الحرجة، ومساواة لنفسه بأصحابه، واستشارتهم في كل عمل حاسم، وأخذه بالمشورة..

رأى الخطر محدقًا بأصحابه قبل المعركة، لأنهم قليلون وقريش تفوقهم عَدَدًا وعُدَدًا، فقابل ذَلِكَ بالصبر والتوكل عَلَى الله، وشجَّع أصحابه عَلَى الصبر في القتال، وعندما اشتدت المعركة نزل يخوضها بنفسه، وحسبك شهادة علي بن أبي طالب سيد الشجعان حيث يقول: «إنَّا كُنَّا إذا اشتد الخطب واحمرّت الحدق، اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه، ولقد رأيتني يوم بدر ونحن نلوذ برسول الله وهو أقربنا إلى العدوّ»[1].

ولم يؤثر نفسه بمال أو راحة عَلَى أصحابه، وقَدْ رأيت كيف ساوى نفسه مع أصحابه حَتَّى في أعقاب الإبل والمشي عَلَى الأقدام.

وشاور أصحابه حين بلغه خبر خروج قريش، وسمع رأي المهاجرين والأنصار في لقاء المشركين وقبل مشورة أحد أصحابه في تبديل معسكره في بدر حين نزل بأدنى ماء منها، فانتقل بالمسلمين إلى حيث أشار الحُبَاب، وغور القلب وبنى حوضًا عَلَى القليب الذي أتاه.

واستشار المسلمين في أمر الأسرى بعد المعركة، وعمل بالرأي الذي أبداه أبو بكر ومشايعوه، تلك مزايا القائد المثالي في كل زمان ومكان.

ولابد للقائد من مقر يسيطر منه عَلَى المعركة فبنى العريش فوق رابية مشرفة

---

(١) أخرجه مسلم.

عَلَى ساحة المعركة، وكان لمقره حرس بإمرة أمر مسئول.

كل ذَلِكَ جعل المسلمين يقاتلون كرجلٍ واحد، لغاية واحدة، بقيادة قائد واحد، هذا عامل مهم من عوامل النصر في كل حرب، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

أما المشركون فلم يكن لهم قائد عام، كان أكثر سراة قريش مع قوات المشركين، ولكن البارزين من هؤلاء عَلَى ما يظهر هما رجلان: عتبة بن ربيعة، وأبو جهل.

وقد رأيت كيف أنهما لم يكونا عَلَى رأي واحد، ولم يكن لهما هدف واحد، بل إنهما كانا أقرب إلى العداوة إلى الإخاء؛ لذلك فقد طغت الأنانية الفردية عَلَى المصلحة العامة أثناء القتال، وحاول كل رجل من رجالات قريش أن يظهر نفسه بطلاً لتتحدث العرب عنه، دون أن يكترث بأثر ذلك عَلَى نتائج المعركة.

٢- تعبئة جديدة:

طَبَّقَ الرسول ﷺ في مسير الاقتراب من المدينة إلى بدر تشكيلًا لا يختلف بتة عن التعبئة الحديثة في حرب الصحراء، كانت له مقدمة، وقسم أكبر، ومؤخرة. واستفاد من دوريات الاستطلاع في الحصول عَلَى معلومات، وتلك هي الأساليب الصحيحة لتشكيلات سير الاقتراب في حرب الصحراء، حَتَّى في العصر الحاضر.

أما في المعركة فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكرّ والفَرّ، ولابد لنا من بيان الفرق بين الأسلوبين، لمعرفة عامل من أهم عوامل انتصار المسلمون، القتال بأسلوب الكرّ والفَرّ، هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم عَلَى العدو، النشابة منهم والذين يقاتلون بالسيوف، ويطعنون بالرماح، مشاة وفرسانًا، فإن صمد لهم العدوّ أو أحسّوا بالضعف نكصوا، ثم أعادوا تنظيمهم، وكروا، وهكذا يكرون ويفرون، حَتَّى يُكتب لهم النَّصر أو الفشل.

والقتال بأسلوب الصفوف يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة أو أكثر عَلَى

عَلَى ساحة المعركة، وكان لمقره حرس بإمرة أمر مسئول.

كل ذَلِكَ جعل المسلمين يقاتلون كرجلٍ واحد، لغاية واحدة، بقيادة قائد واحد، هذا عامل مهم من عوامل النصر في كلّ حرب، ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧].

أما المشركون فلم يكن لهم قائد عام، كان أكثر سراة قريش مع قوات المشركين، ولكن البارزين من هؤلاء عَلَى ما يظهر هما رجلان: عتبة بن ربيعة، وأبو جهل.

وقد رأيت كيف أنهما لم يكونا عَلَى رأي واحد، ولم يكن لهما هدف واحد، بل إنهما كانا أقرب إلى العداوة إلى الإخاء، لذلك فقد طغت الأنانية الفردية عَلَى المصلحة العامة أثناء القتال، وحاول كل رجل من رجالات قريش أن يظهر نفسه بطلاً لتتحدث العرب عنه، دون أن يكترث بأثر ذلك عَلَى نتائج المعركة.

٢- تعبئة جديدة:

طَبَّقَ الرسول ﷺ في مسير الاقتراب من المدينة إلى بدر تشكيلًا لا يختلف بتاتًا عن التعبئة الحديثة في حرب الصحراء، كانت له مقدمة، وقسم أكبر، ومؤخرة، واستفاد من دوريات الاستطلاع في الحصول عَلَى معلومات، وتلك هي الأساليب الصحيحة لتشكيلات سير الاقتراب في حرب الصحراء، حَتَّى في العصر الحاضر.

أما في المعركة فقد قاتل المسلمون بأسلوب الصفوف، بينما قاتل المشركون بأسلوب الكَرّ والفَرّ، ولابد لنا من بيان الفرق بين الأسلوبين، لمعرفة عامل من أهم عوامل انتصار المسلمون، القتال بأسلوب الكَرّ والفَرّ، هو أن يهجم المقاتلون بكل قوتهم عَلَى العدو، النشابة منهم والذين يقاتلون بالسيوف، ويطعنون بالرماح، مشاة وفرسانًا، فإن صمد لهم العدوّ أو أحسّوا بالضعف نكصوا، ثم أعادوا تنظيمهم، وكروا، وهكذا يكرون ويفرون، حَتَّى يُكتب لهم النَّصر أو الفشل.

والقتال بأسلوب الصفوف يكون بترتيب المقاتلين صفين أو ثلاثة أو أكثر عَلَى

لم يتقدم أحد للمبارزة إلا بأمر منه، ولم يقم المسلمون بأي عمل إلا بأمر منه. وبذلك أمّن السيطرة والاحتياط اللازم تمامًا، كما في الحرب الحديثة.

لقد طبّق الرسول ﷺ أسلوبًا جديدًا في القتال، فانتصر.

٣- عقيدة راسخة:

رأيت كيف كان جواب المهاجرين والأنصار للرسول ﷺ حين استشارهم في قتال قريش، لقد علم المسلمون بأن قريشًا تفوقهم في العدد والعُدد، وأن عدد قوات قريش ثلاثة أمثال عدد المسلمين، ومع ذَلِكَ اعتزموا عَلَى الصموم إلى النهاية، كما علموا أن قافلة قريش فاتتهم، فلم يبق هناك كسب مادي يرجونه. ومع ذَلِكَ صمموا عَلَى القتال.

لقد كانت للمسلمين أهداف معينة يعرفونها ويؤمنون بها، هي أن تترك الحرية الكاملة لهم لبث دعوتهم، حَتَّى تكون كلمة الله هي العليا.

فما هي أهداف قريش من حربها إلا أن تنحر الجزور، وتطعم الطعام، وتشرب الخمر، وتعزف القيان، فتسمع العرب بمسيرها، فيهابونها أبدًا بعده. كما قَالَ أحد زعمائهم وهو أبو جهل.

وهل تستطيع تسمية ذَلِكَ أهدافًا أم ذَلِكَ طيش وغرور وعصبية جاهلية؟

في هَذِهِ المعركة التقى الآباء بالأبناء، والإخوة بالإخوة، خالفت بينهم المبادئ ففصلت بينهم السيوف.

كان أبو بكر مع المسلمين، وكان ابنه عبد الله مع المشركين، وكان عُتبة بن ربيعة مع قريش، وكان ولده أبو حذيفة مع المسلمين.

وعندما استشار الرسول ﷺ عمر بن الخطّاب في مصير الأسرى، قَالَ عمر: «أرى أن تمكنني من فلان - قريب عمر - فأضرب عنقه، وتمكّن عليًّا من عقيل ابن أبي طالب فيضرب عنقه، وتمكّن حمزة من فلان - أخيه - فيضرب عنقه، حَتَّى يعلم الله أَنَّهُ ليست في قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم».

فما الذي يدفع لمثل هذا القول إلا عقيدة راسخة، وإيمان عظيم، وهل يستطيع الذين لا عقيدة لهم، ولا تحمل صدورهم إلا أهواء الجاهلية، وعصبية الأنانية، وحُبّ الظهور أن يقاتلوا في بسالة وشجاعة كما يُقاتل أمثال هؤلاء من أصحاب اليقين الثابت، والعقيدة الراسخة.

٤ - معنويات عالية:

شجَّع الرسول ﷺ أصحابه قبل القتال وأثناءه، وقوى عزائمهم ومعنوياتهم، حَتَّى لا يكترثوا بتفوق قريش عليهم بالعدد، ولم تكن معنويات الكبار الذي مارسوا الحرب وعرفوها من المسلمين هي العالية فحسب، إنَّما كانت معنويات الأحداث الصغار الذين لم يمارسوا حربًا ولا قتالاً، عالية أيضًا.

قَالَ عبد الرحمن بن عوف: «إني لفي الصف يوم بدر إذا التفتّ عن يميني وعن يساري فتيان حديثا السِّن فكأني لم آمن بمكانتهما، إذ قَالَ لي أحدهما سرًّا من صاحبه: يا عمّ أرني أبا جهل، فقلت: يا ابن أخي ما تصنع به؟ قَالَ: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه، وقال لي الآخر سرًّا من صاحبه مثله، فأشرت لهما فشدا عليه مثل الصقرين، فضرباه حَتَّى قتلاه».

وقَدْ استشهد هذان البطلان في بدر، وهما ابنا عفراء: عوف بن الحارث الخزرجي الأنصاري، ومعوّذ بن الحارث الخزرجي الأنصاري.

فإذا كانت معنويات الفتيان الأحداث بهذا المستوى الرفيع، فكيف تكون معنويات الرجال؟!

لقد أثبتت كافة الحروب في كافة أدوار التاريخ أن التسليح والتنظيم الجيدين والقوة العددية غير كافية لنيل النصر، ما لم يتحل المقاتلون بالمعنويات العالية بالإضافة إلى كل ذَلِكَ.

لقد كان تنظيم وتسليح الإيطاليين في الحرب العالمية الثانية ممتازًا، كما كان عددهم ضخمًا، فلم يُغن عنهم كل ذَلِكَ، لأن معنوياتهم كانت منهارة، ولذلك كانوا عبئًا ثقيلًا عَلَى حلفائهم الألمان في كل معركة اشتركوا فيها معهم، بل كان الحلفاء يعتبرون المناطق التي تشغلها القوات الإيطالية فراغًا عسكريًّا لا يكترث به.

إن المعنويات القتالية التي كان يتحلى بها المسلمون في بدر من أهم أسباب نصرهم في تلك المعركة الحاسمة.

لقد كانت معركة بدر صراعًا حاسمًا بين عقيدتين، فانتصرت العقيدة التي تستحق البقاء عَلَى العقيدة التي لا تستحق البقاء» ا.هـ.

عباد الله...

وللحديث بقية إن شاء الله، فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ انصر دينك، وكتابك، وسُنَّة نبيِّك، وعبادك الصالحين.

آمين... آمين... آمين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين



الخطبة الرابعة والتسعون:

[جـ] غزوة بدر الكبرى

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «غزوة بدر»، ونتكلم اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن «الأنفال»، و«الأسرى»، ثم نتكلم عن الدروس المستفادة منها، والله المستعان.

عباد الله...

وبعد أن أصبحت الغنائم لله ورسوله بين المولى عَزَّ وَجَلَّ كيف توزع هَذِهِ الغنائم قَالَ تَعَالَى: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِن كُنتُمْ آمَنتُم بِاللَّهِ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ

الفُرْقَانِ يَوْمَ التَقَى الـجَمْعَانِ وَاللَّـهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ [الأنفال: ٤١].

وهذا بعد ما طهرت قلوبهم من الأخلاط، وأخلصت إلى علَّام الغيوم في الطاعة، وتمثلت الآيات فتحققت بمعنى العبودية الخالصة لله، وهذا الحكم صريح في أن أربعة أخماس ما غنموه مقسوم بينهم، والخُمس لله ورسوله، وهذا الخُمس نفسه مردود فيهم أيضًا، وموزّع عَلَى الجهات المذكورة، كما ثبت بالسُّنَّة.

إن التوجيه التربوي في إرجاء إنزال جواب السؤال عن الغنائم، يشير إلى أن الأحكام الشَّرعيَّةُ ينبغي أن يهيأ لها الجوّ النفسيّ الروحي المناسب، لتحتل مكانها اللائق في العقل والضمير، فتثبت وتتمكن، وتؤتي أطيب النتائج، إذ يتجلى فيها أكمل الحلول وهكذا صرف المولى جلّ شأنه عبادة المسلمين عن التعلّق بالغير أولًا، وبالغنائم ثانيًا، ليكونوا له من المخلصين الجديرين بنصره، وإتمام نعمته، فلما تفرغوا للخالق، وأخصلوا في الجهاد، أكرمهم بالنصر من لدنه، وأسبغ عليهم من فضله، بأكثر مِمَّا كانوا يودون[1]، فعن عبد الله بن عمرو قَالَ: خَرَجَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَوْمَ بَدْرٍ فِي ثَلَاثِ مِائَةٍ وَخَمْسَةَ عَشَرَ فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ حُفَاةٌ فَاحْمِلْهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ عُرَاةٌ فَاكْسُهُمْ اللَّهُمَّ إِنَّهُمْ جِيَاعٌ فَأَشْبِعْهُمْ» فَفَتَحَ اللَّهُ لَهُ يَوْمَ بَدْرٍ فَانْقَلَبُوا حِينَ انْقَلَبُوا وَمَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَقَدْ رَجَعَ بِجَمَلٍ أَوْ جَمَلَيْنِ وَاكْتَسَوْا وَشَبِعُوا[2].

ومن عدل النبيّ ﷺ في تقسيم الغنائم: إعطائه من هَذِهِ الغنيمة مَن تخلَّف بأمر رسول الله لمهام أوكلها إليهم، فضرب لهم بسهمهم من الغنيمة وبأجرهم، فكانوا كمن حضرها[3]، فكان ﷺ يراعي ظروف الجنود التي تمنعهم من المشاركة في القتال، لأن الله تَعَالى لم يُكلف عباده شيئًا فوق طاقتهم، قَالَ تَعَالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللَّـهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لاَ تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلاَ تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلاَنَا فَانصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

---

(١) «صور وعبر من الجهاد النبوي في المدينة» (٦١، ٦٢).

(٢) حسن: رواه أبو داود (٥/ ٥٢٥).

(٣) «معين السيرة» (٢١٤).

ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يكلف المسلمين فوق طاقتهم، سواء كان ذلك في السلم أو الحرب، وفي غزوة بدر أعفى النبي ﷺ بعض الصحابة لأن ظروفهم الأسرية تتطلب منهم القيام عليها ورعايتها، فقد أعفى عثمان بن عفان رضي الله عنه من الخروج يوم بدر لأن زوجته رُقيَّة كانت مريضة وبحاجة إلى مَن يرعى شئونها.

روى البخاري في «صحيحه»: أن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أخبر عن سبب تغيب عثمان رضي الله عنه في غزوة بدر، فقال رضي الله عنه: (...إِنَّمَا تَغَيَّبَ عُثْمَانُ عَنْ بَدْرٍ فَإِنَّهُ كَانَتْ تَحْتَهُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَكَانَتْ مَرِيضَةً فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِنَّ لَكَ أَجْرَ رَجُلٍ مِمَّنْ شَهِدَ بَدْرًا وَسَهْمَهُ**» [١].

وأمر ﷺ أبا أُمامة بالبقاء عند أُمّه حيث كانت مريضة وهي بحاجة إليه، فَعَنْ أبي أُمامة بن ثعلبة رضي الله عنه: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَخْبَرَهُمْ بِالْخُرُوجِ إِلَى بَدْرٍ، وَأَجْمَعَ الْخُرُوجَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ خَالُهُ أَبُو بُرْدَةَ بن نِيَارٍ: أَقِمْ عَلَى أُمِّكَ يَا ابْنَ أُخْتٍ، فَقَالَ أَبُو أُمَامَةَ: بَلْ أَنْتَ أَقِمْ عَلَى أُخْتِكَ، فَذُكِرَ ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَأَمَرَ أَبَا أُمَامَةَ بِالْمُقَامِ عَلَى أُمِّهِ، وَخَرَجَ بِأَبِي بُرْدَةَ، فَقَدِمَ النَّبِيُّ ﷺ وَقَدْ تُوُفِّيَتْ، فَصَلَّى عَلَيْهَا[٢].

إن هذه الأخلاق الرفيعة ومراعاة شعور الجنود وأحوالهم العائلية تولد قوة ترابط بين القيادة والجنود، وتدخل تحت مفهوم «فقه التمكين»، وقد مارسه الرسول ﷺ في أعلى صوره.

وكذلك أعطى لورثة الشهداء وذويهم نصيبهم من الغنائم، وبذلك كان للإسلام السَبق في تكريم الشهداء ورعاية أبناءهم وأُسرهم من قُرابة أربعة عشر قرنًا[٣].

ثانيًا: الأسرى:

قال ابن عبَّاس: حدثني عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ قال: «... فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَى قَالَ

(١) رواه البخاري (٣٦٩٩).
(٢) رواه الطبراني في «الكبير»، ورجاله ثقات. انظر «مجمع الزوائد» (٣/ ٣١).
(٣) «السيرة النبوية» لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَؤُلَاءِ الْأُسَارَى؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَى أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَرَى يَا ابْنَ الْخَطَّابِ؟» قُلْتُ: لَا وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَرَى الَّذِي رَأَى أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَى أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ فَتُمَكِّنَ عَلِيًّا مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلَانٍ - نَسِيبًا لِعُمَرَ - فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا، فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلت..

فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ؟ فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ، لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَى مِنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ» شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ، وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا﴾ [الأنفال: ٦٧ - ٦٩]. فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ[١].

وفي رواية: «عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا تَقُولُونَ فِي هَؤُلَاءِ الْأَسْرَى؟»، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَوْمُكَ وَأَهْلُكَ اسْتَبْقِهِمْ وَاسْتَأْنِ بِهِمْ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ، وَقَالَ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْرَجُوكَ وَكَذَّبُوكَ قَرِّبْهُمْ فَاضْرِبْ أَعْنَاقَهُمْ، وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ انْظُرْ وَادِيًا كَثِيرَ الْحَطَبِ فَأَدْخِلْهُمْ فِيهِ ثُمَّ أَضْرِمْ عَلَيْهِمْ نَارًا. فَقَالَ الْعَبَّاسُ: قَطَعْتَ رَحِمَكَ.

قَالَ: فَدَخَلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَمْ يَرُدَّ عَلَيْهِمْ شَيْئًا، فَقَالَ نَاسٌ: يَأْخُذُ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ، وَقَالَ نَاسٌ: يَأْخُذُ بِقَوْلِ عُمَرَ، وَقَالَ نَاسٌ: يَأْخُذُ بِقَوْلِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رَوَاحَةَ، قَالَ: فَخَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَيُلِينُ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَلْيَنَ مِنَ اللَّبَنِ، وَإِنَّ اللَّهَ لَيَشُدُّ قُلُوبَ رِجَالٍ فِيهِ حَتَّى تَكُونَ أَشَدَّ مِنَ الْحِجَارَةِ، وَإِنَّ مَثَلَكَ

---

(١) رواه مسلم (٣/ ١٣٨٣).

يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَام قَالَ: ﴿مَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾: وَمَثَلَكَ يَا أَبَا بَكْرٍ كَمَثَلِ عِيسَى قَالَ: ﴿إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾ [المائدة: ١١٨]، وَإِنَّ مَثَلَكَ يَا عُمَرُ كَمَثَلِ نُوحٍ قَالَ: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنْ الكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، وَإِنَّ مِثْلَكَ يَا عُمَرُ كَمَثَلِ مُوسَى قَالَ رَبِّ: ﴿اشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوْا العَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٨٨]، أَنْتُمْ عَالَةٌ فَلَا يَنْفَلِتَنَّ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا بِفِدَاءٍ أَوْ ضَرْبَةِ عُنُقٍ».

قَالَ عَبْدُ اللهِ بن مسعود: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ إِلَّا سُهَيْلُ ابْنُ بَيْضَاءَ فَإِنِّي قَدْ سَمِعْتُهُ يَذْكُرُ الإِسْلَامَ، قَالَ: فَسَكَتَ، فَمَا رَأَيْتُنِي فِي يَوْمٍ أَخْوَفَ أَنْ تَقَعَ عَلَيَّ حِجَارَةٌ مِنْ السَّمَاءِ فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، حَتَّى قَالَ: «إِلَّا سُهَيْلُ ابْنُ بَيْضَاءَ»، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧] [١].

وهذه الآية تضع قاعدة هامة في بناء الدولة حينما تكون في مرحلة التكوين والإعداد، وكيف ينبغي ألا تظهر بمظهر اللين، حتى تُرهَب من قِبَل أعدائها وفي سبيل هذه الكلية يطرح الاهتمام بالجزئيات، حتى ولو كانت الحاجة ملحة إليها[٢].

كانت معاملة النبي ﷺ للأسرى تحفها الرحمة، والعدل، والحزم والأهداف الدعوية، ولذلك تعددت أساليبه وتنوعت طرق تعامله ﷺ، فهناك مَن قتله، وبعضهم قَبِل فيهم الفداء، والبعض الآخر مَنَّ عليهم، وآخرون اشترط عليهم تعليم عشرة من أبناء المسلمين مقابل المنّ عليهم.

(١) حفظ رسول الله ﷺ لجوار «مُطعم بن عديّ»:

قال رسول الله ﷺ في أسارى بدر: «لَوْ كَانَ المُطْعِمُ بْنُ عَدِيٍّ حَيًّا ثُمَّ كَلَّمَنِي فِي هَؤُلَاءِ النَّتْنَى لَتَرَكْتُهُمْ لَهُ»[٣].

---

(١) رواه أحمد (١/ ٣٧٣).

(٢) «معين السيرة» (٢٠٩).

(٣) إسناده صحيح: رواه أبو داود (٢٦٨٩).

وهذا الحديث تعبير عن الوفاء والاعتراف بالجميل، فقد كان لمُطعم مواقف تُذكر بخير، فهو الذي دخل الرسول ﷺ في جِواره حينما عاد من الطائف، كما كان من أشدِّ القائمين عَلَى نقض الصحيفة يوم حصر المسلمون وبنو هاشم[1].

(٢) مقتل عُقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث:

وإذا كان هذا الوفاء لرجل مثله المُطعم بن عديّ، فلابد من الغرم مع مجرمي الحرب ورءوس الفتنة، فقد كانا من أكبر دعاة الحرب ضدالإسلام والمتربصين بالمسلمين الدوائر، فبقاؤهما يعدُّ مصدر خطر كبير عَلَى الإسلام، ولاسيما في تلك الظروف الحاسمة التي تمرُّ بها الدعوة الإسلامية، فلو أطلق سراحهما لما تورَّعا عَلَى سلوك أي طريق فيه كيد للإسلام وأهله، فقتلهما في هذا الظرف ضرورة تقتضيها المصلحة العامة لدعوة الإسلام الفتية، ولذلك أمر رسول الله ﷺ بقتلهما عندما وصل إلى الصفراء[2] أثناء رجوعه للمدينة، فلما سمع عقبة بن معيط بأمر قتله قَالَ: يا ويلي علام أقتل يا معشر قريش من بين مَنْ هاهنا؟ فقال رسول الله ﷺ: **«لعداوتك لله ولرسوله»**، قَالَ: يا مُحَمَّد مَنُّك أفضل، فاجعلني كرجل من قومي، إن قتلتهم قتلتني، وإن مننت عليهم مننت عليَّ، وإن أخذت منهم الفداء كنت أحدهم، يا مُحَمَّد مَن للصبية؟ قَالَ رسول الله ﷺ: **«النار، قدِّمه يا عاصم فاضرب عنقه»**، فقدَّمه عاصم فضرب عنقه.

وأما النضر بن الحارث، فقد كان من شياطين قريش، وممن يؤذي رسول الله ﷺ وينصب له العداوة، وكان قَدْ قَدِمَ الحيرة، وتعلَّم بها أحاديث ملوك الفرس، وأحاديث رستم واسنفديار، فكان إذا جلس رسول الله ﷺ مجلسًا فذكَّر فيه بالله، وحذَّر قومه ما أصاب قبلهم من الأمم من نقمة الله، خلفه في مجلسه إذا قام، ثم قَالَ: أنا والله يا معشر قريش أحسن حديثًا منه، فَهَلمَّ إليَّ فأنا أحدثكم بأحسن من حديثه، ثم يحدثهم عن ملوك فارس ورستم واسفنديار، ثم يقول: بماذا مُحَمَّد

(١) «معين السيرة» (٢٠٨).

(٢) الصفراء: وادٍ كثير النخل والزرع والخير.

أحسن حديثًا مني[١].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «كان هذان الرجلان من شَرِّ عباد الله وأكثرهم كفرًا وعنادًا وبغيًا وحسدًا وهجاءً للإسلام وأهله» ا.هـ[٢].

(٣) الوصية بإكرام الأسرى جانب من المنهج النبوي الكَريم:

ولما رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فرَّق الأسرى بين أصحابه، وقال: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**» وبهذه الوصية النبوية الكريمة ظهر تحقيق قول الله تَعَالَى: ﴿**وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا**﴾ [الإنسان: ٨]، فهذا أبو عزيز بن عمير أخو مصعب بن عمير يحدِّثنا عمَّا رأى، قال: «كنت في الأسرى يوم بدر، فقال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**»، وكنت في نفر من الأنصار فكانوا إذا قدَّموا غدائهم وعشائهم أكلوا التمر وأطعموني البُرّ، لوصية رسول الله ﷺ»[٣].

كان هذا الخُلُق الرَّحيم الذي وضع أساسه القرآن الكريم في ثنائه عَلَى المؤمنين وذكَّر به النبي ﷺ أصحابه فاتخذوه خُلُقًا، وكان لهم طبيعة قد أثَّر في إسراع مجموعة من أشراف الأسرى وأفاضلهم إلى الإسلام، فأسلم أبو عزيز عقيب بدر بُعيد وصول الأسرى إلى المدينة وتنفيذ وصية رسول الله ﷺ، وأسلم معه السائب ابن عُبيد[٤] بعد أن فدى نفسه.

إن هذه المعاملة الكريمة للأسرى شاهد عَلَى سمو الإسلام في المجال الأخلاقي، حيث نال أعداء الإسلام من معاملة الصحابة أعلى درجات مكارم الأخلاق، التي تتمثل في خُلُق الإيثار[٥].

(٤) فداء العبَّاس عَمِّ النَّبيِّ ﷺ:

بعثت قريش إلى رسول الله ﷺ في فداء أسراهم ففدى كل قوم أسيرهم بما

(١) «السيرة النبوية» لابن هشام (١/ ٤٣٩، ٤٤٠).
(٢) «البداية والنهاية» (٣/ ٣٠٦).
(٣) قال الهيثمي في «المجمع» (٦/ ٨٦): رواه الطبراني في «الصغير»، و«الكبير» وإسناده حسن.
(٤) «محمد رسول الله» لمحمد الصادق عرجون (٣/ ٤٧٤).
(٥) «التاريخ الإسلامي» (٤/ ١٧٥).

رضوا، وَقَالَ العَبَّاسُ: يَا رَسُولَ اللهِ إِنِّي كُنْتُ مُسْلِمًا، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «اللَّهُ أَعْلَمُ بِإِسْلَامِكَ فَإِنْ يَكُنْ كَمَا تَقُولُ فَاللَّهُ يُجْزِيكَ فَافْدِ نَفْسَكَ وَابْنَيْ أَخَوَيْكَ نَوْفَلَ بْنَ الحَارِثِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَعَقِيلَ بْنَ أَبِي طَالِبِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ وَحَلِيفَكَ عُتْبَةَ بْنَ عَمْرِو ابْنِ جَحْدَمٍ أَخُو بَنِي الحَارِثِ بْنِ فِهْرٍ». فَقَالَ: مَا ذَاكَ عِنْدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «فَأَيْنَ المَالُ الَّذِي دَفَنْتَ أَنْتَ وَأُمُّ الفَضْلِ، فَقُلْتَ لَهَا: إِنْ أُصِبْتُ فَهَذَا المَالُ لِبَنِيَّ الفَضْلِ وَعَبْدِ اللَّهِ وَقُثَمَ». فَقَالَ: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ رَسُولُهُ إِنَّ هَذَا لِشَيْءٌ مَا عَلِمَهُ أَحَدٌ غَيْرِي وَغَيْرُ أُمِّ الفَضْلِ، فَاحْتَسِبْ لِي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا أَصَبْتُمْ مِنِّي عِشْرِينَ أُوقِيَّةٍ مِنْ مَالٍ كَانَ مَعِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَفْعَلُ». فَفَدَى العَبَّاسُ نَفْسَهُ وَابْنَيْ أَخَوَيْهِ وَحَلِيفَهُ وَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠، ٧١]، فَأَعْطَانِي اللَّهُ مَكَانَ العِشْرِينَ الأُوقِيَّةِ فِي الإِسْلَامِ عِشْرِينَ عَبْدًا كُلُّهُمْ فِي يَدِهِ مَالٌ يَضْرِبُ بِهِ مَعَ مَا أَرْجُو مِنْ مَغْفِرَةِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ[(١)].

هذا، والعبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، فهذه الآية الكريمة وإن كانت نزلت في العباس إلا أنها عامة في جميع الأسرى[(٢)].

وهنا يتعلم الأسرى والمسلمون أيضًا درسًا بليغًا في عدم محاباة ذوي القربى، بل كان الأمر عَلَى خلاف ذلك، فقد أغلا رسول الله ﷺ الفداء عَلَى عمه العباس[(٣)].

(٥) أبو العاص بن الربيع زوج زينب بنت الرسول:

قالت عائشة رضي الله عنها: لَمَّا بَعَثَ أَهْلُ مَكَّةَ فِي فِدَاءِ أَسْرَاهُمْ بَعَثَتْ زَيْنَبُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي فِدَاءِ أَبِي العَاصِ بْنِ الرَّبِيعِ بِمَالٍ، وَبَعَثَتْ فِيهِ بِقِلَادَةٍ لَهَا

---

(١) أخرجه البخاري (٤٠١٨).
(٢) «من حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول» (١/ ١٣٢).
(٣) «السيرة النبوية» لأبي شهبة (٢/ ١٧٦).

كَانَتْ لِخَدِيجَةَ أَدْخَلَتْهَا بِهَا عَلَى أَبِي العَاصِ حِينَ بَنَى عَلَيْهَا، قَالَتْ: فَلَمَّا رَآهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ رَقَّ لَهَا رِقَّةً شَدِيدَةً وَقَالَ: «إِنْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُطْلِقُوا لَهَا أَسِيرَهَا وَتَرُدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا فَافْعَلُوا»، فَقَالُوا: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَطْلَقُوهُ وَرَدُّوا عَلَيْهَا الَّذِي لَهَا[١].

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَخَذَ عَلَيْهِ أَوْ وَعَدَهُ أَنْ يُخَلِّيَ سَبِيلَ زَيْنَبَ إِلَيْهِ، وَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَيْدَ بْنَ حَارِثَةَ وَرَجُلًا مِنْ الأَنْصَارِ فَقَالَ: «كُونَا بِبَطْنِ يَأْجَجَ[٢] حَتَّى تَمُرَّ بِكُمَا زَيْنَبُ فَتَصْحَبَاهَا حَتَّى تَأْتِيَا بِهَا»[٣].

إن هذا الموقف وما يظهر منه من مظاهر الرحمة والعطف منه ﷺ عَلَى ابنته، يحمل في طياته مقصدًا آخر، وهو أنه يتألف صهره للإسلام بذلك، لما عرف عنه من العقل السديد والرأي الرشيد، فقد كان ﷺ يثني عليه وهو عَلَى شركه بحسن المعاملة[٤].

(٦)أبو عزة عمرو بن عبد الله الجمحي بين الرحمة والحزم النبوي:

كان محتاجًا ذا بنات، قال يا رسول لقد عرفت مالي من مال، وإني لذو حاجة وعيال فامنن عليّ، فمنَّ عليه رسول الله ﷺ وأخذ عليه أن لا يُظاهر عليه أحدًا، فقال أبو عزة يمدح رسول الله ﷺ عَلَى ذلك:

مَن مبلغ عنّي الرسول مُحَمَّد	بأنك حقٌّ والمليك حميد
وأنت امرؤ بُوئت فيناً (مباءة) [٥]	لها درجات سهلة وصعود
فإنك مَن حاربته لمحاربٌ	شقيٌّ، ومن سالمته لسعيد
ولكن إذا ذكرتُ بدرًا وأهله	تأوَّبُ ما بي، حسرة وقعود

قال ابن كثير: ثم إن أبا عزة هذا نقض ما كان عاهد الرسول عليه، ولعب

(١) «صحيح السيرة النبوية» (٢٦١).
(٢) اسم مكان عَلَى ثمانية أميال من مكة.
(٣) رواه أبو داود (٢٦٩٢).
(٤) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (٤/ ١٨٣).
(٥) مباءة: مكانة رفيعة.

المشركون بعقله فرجع إليهم، فلما كان يوم أُحُد أُسر أيضًا، فسأل منَّ النبي ﷺ أن يمنَّ عليه أيضًا، فقال النبي ﷺ: «لاَ أدعك تَمْسَحُ عَلَى عَارِضَيْكَ بِمَكَّةَ تَقُولُ: قَدْ خَدَعْتُ مُحَمَّدًا مَرَّتَيْنِ» ثم أمر به فضربت عنقه(١).

(٧) التعليم مقابل الفداء:

قال ابن عباس: كان ناس من الأسارى يوم بدر ليس لهم فداء، فجعل رسول الله ﷺ فداءهم أن يُعلموا أولاد الأنصار الكتابة(٢).

إن قبول النبي ﷺ تعليم القراءة والكتابة بدل الفداء في ذلك الوقت الذي كانوا فيه بأشد الحاجة إلى المال يرينا سمو الإسلام في نظرته إلى العلم والمعرفة، وإزالة الأمية، وليس هذا بعجيب من دين كان أول ما نزل من كتابه الكريم: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ عَلَقٍ * اقْرَأْ وَرَبُّكَ الأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ [العلق: ١- ٤]، واستفاضت فيه نصوص القرآن والسُّنة في الترغيب في العلم وبيان منزلة العلماء، وبهذا العمل الجليل يعتبر النبي ﷺ أوَّل مَن وضع حجر الأساس في إزالة الأُميّة وإشاعة القراءة والكتابة، وأن السبق في هذا للإسلام(٣).

(٨) حُكْمُ الأسْرى:

إن حكم الأسرى في الإسلام مفوَّض إلى رأي الإمام ليختار حكمًا من أربعة، وعلى الإمام أن يراعي مصلحة المسلمين العامة والأحكام الأربعة هي:

١- **القتل**: وقد قتل رسول الله ﷺ عقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث.

٢- **المنّ**: وهو إطلاق الأسير بدون مقابل، وهذا ما فعله رسول الله ﷺ مع أبي عزة الجمحي.

٣- **الفداء**: وهو إطلاق سراح الأسير مقابل مبلغ من المال، وهذا ما حدث مع

---

(١) «البداية والنهاية» (٣/ ٣١٣).

(٢) «صحيح السيرة النبوية» (٢٦١).

(٣) «السيرة النبوية» لأبي شهبة (٢/ ١٦٤، ١٦٥).

العباس عم النبي ﷺ، ونوفل بن الحارث، وعقيل بن أبي طالب، وغيرهم.
٤- الاسترقاق: وقد حكم سعد بن معاذ رَضِيَ الله عَنْهُ في يهود بني قريظة أن يُقتَّل المحاربون وتقسّم الأموال وتُسبى الذراري والنِّساء(١).

عباد الله...

كان هذا هو هَدي الإسلام في «الأنفال»، و«الأسرى»، فقارنوا بين هدي الإسلام، وشريعة الغاب، فمن قارن منكم عَلِمَ أنه لا وجه للمقارنة.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن بعد الدروس المستفادة من غزوة «بدر»:

١- الاستطلاع:

استفاد الطرفان من دوريات الاستطلاع في الحصول عَلَى المعلومات، ليحولوا دون مباغتتهم، وكان حصول الطرفين عَلَى المعلومات عَن القوات ومواقعها عن الأرض جيدًا مفيدًا، وقد ظهرت لنا فائدة استنطاق الأسرى الذي أجراه الرسول ﷺ مع غلامي قريش قبل المعركة في معرفة عدد قوات قريش، كما كان استنتاج أبي سفيان من فحصه روث ركائب المسلمين اللذين استطلعا موقع بدر، ومعرفته هويتهما رائعًا حقًّا.

إن تشبث الطرفين بالحصول عَلَى المعلومات حرم الطرفين من مبدأ المباغتة في الزمان والمكان، فلم يستفد أحد الطرفين من هذا المبدأ الحيوي في هاتين الناحيتين

(١) «غزوة بدر الكبرى» (١٠١)، وانظر «السيرة النبوية» د. الصلابي (٢/ ٥٥ - ٦٨) باختصار.

أو في إحداهما عَلَى الأقل، في هذه المعركة.

٢- القيادة:

برزت مزايا الرسول ﷺ في القيادة بمعركة بدر الشجاعة، وضبط الأعصاب وعقد المؤتمرات الحربية قبل وأثناء وبعد المعركة، ومساواة أصحابه مع نفسه بكل شيء، كما طبَّق الرسول القائد لأول مرة شروط انتخاب المقر الملائم للمعركة، وأمَّن حراسته.

٣- الضبط والمعنويات والعقيدة:

ظهر بوضوح أثر الضبط المتين، والمعنويات العالية، والعقيدة الراسخة، في انتصار المسلمين عَلَى قريش، وستبقى هذه المزاياحيوية لكل انتصار في كل حرب.

٤- القضايا التعبوية:

(أ) **في مسير الاقتراب:** كانت ترتيبات المسلمين في مسير الاقتراب ملائمة جدًّا: مقدمة، وقسم أكبر، ومؤخرة، وراية لكل من المهاجرين والأنصار، وراية عامة للقوات كلها، كما كانت دوريات الاستطلاع أمام الرتل تحول دون مباغتته، وهي تزوده بالمعلومات عن قريش.

إن ترتيبات المسلمين في مسير الاقتراب تشابه تمامًا ترتيبات القوات النظامية الحديثة في مسير الاقتراب في حرب الصحراء.

(ب) **في القتال:** استخدم المسلمون لأول مرة «أسلوب الصف» في قتالهم ضد قريش، بينما جمدت قريش عَلَى أسلوب الكر والفر، وبذلك استطاع الرسول السيطرة عَلَى قواته، والاحتفاظ باحتياط للطوارئ.

لقد باغت الرسول ﷺ قريشًا في قتاله بأسلوب «الصف» والمباغتة بالأسلوب من مزايا القائد الناجح.

لقد كان أسلوب الصف في القتال أسلوبًا جديدًا بينما كان أسلوب الكر والفر أسلوبًا باليًا.

(جـ) **كلمة التعارف:** كانت كلمة التعارف في القتال بين المسلمين «أحد..

حد» وبذلك استطاعوا أن يتعارفوا في المعركة، وهذا الأسلوب متبع في المعارك الحديثة.

إن ظروف المعركة ليست ظروفًا اعتيادية، ومن الضروري أن يكون هناك أسلوب واضح للتعارف بين المقاتلين، خاصة وأن المسلمين والمشركين حينذاك كانوا يتشابهون في كل شيء؛ في الأشكال، والقيافة، وفي التسليح، والتنظيم، مِمَّا يزيد أهمية كلمة التعارف، ويجعل لها قيمة أعظم مِمَّا لو كان الطرفان المتحاربان يختلفان في أشكالهم، وقيافتهم، وتسليحهم، وتنظيمهم.

٥- القضايا الإدارية:

(أ) **الأرزاق**: كان المشركون ينحرون بين تسعة من الإبل وعشرة يوميًّا، لتأمين الطعام الحار للمقاتلين، وكانت هذه الإبل تقدم من سراة قريش، أما المسلمون فقد كانوا يكتفون غالبًا بالتمر والسويق لأن حالتهم الاقتصادية كانت ضعيفة حينذاك.

(ب) **الماء**: بنى المسلمون حوضًا للماء في «بدر» وملأوه بالماء واستفادوا منه يوم القتال، أما بقية مياه بدر فغوروها، لئلا يستفيد منها المشركون، أما المشركون فكانوا محرومين من الماء يوم القتال مِمَّا جعل شجعانهم يحاولون اقتحام حوض المسلمين، فلا يستطيعون إلى ذلك سبيلا، لقد كان لنقص الماء عند المشركين يوم القتال أثرٌ كبير في اندحارهم.

(جـ) **الغنائم**: جمع الرسول ﷺ غنائم المعركة وقسمها بالتساوي بين المسلمين من أهل بدر، ومن عاونهم عَلَى إحراز النصر: جعل للفارس سهمين يستعين بالسهم الزائد عَلَى إعاشة فرسه، وإعدادها للحرب، وجعل للراجل سهمًا واحدًا، وجعل للورثة حصة مَن استشهد ببدر، وجعل حصة لمن تخلّف بالمدينة فلم يشهد بدرًا لأنه كان قائمًا بعمل المسلمين، وبقي في المدينة بأمر الرسول، ولمن حرضه حين الخروج إلى بدر وتخلّف لعذر قبله الرسول.

إن النصر في الحرب لا يحرزه المقاتلون فقط، بل يتعاون عَلَى إحرازه المقاتلون في الخطوط الأمامية، والعاملون في الخلف، لتهيئة أسباب النصر للمقاتلين، لذلك

لم ينس الرسول ﷺ العاملين في الخلف حين قسَّم الغنائم بين الناس.

(د) الأسرى:

أولًا: أمر الرسول ﷺ بقتل أسيرين لشدة عداوتهما للمسلمين، حريصين عَلَى التنكيل بهم شديدين في إيذاء المستضعفين منهم، وكانا من ألد خصوم الدعوة.

ثانيًا: أما الأسرى الباقون وعددهم ثمانية وستون، فقد وزعهم الرسول ﷺ عَلَى صحابته قائلًا: «**استوصوا بالأسارى خيرًا**».

ثم فادى الأغنياء الأسرى بالمال، فكان الواحد منهم يدفع ما بين الألف درهم إلى الأربعة آلاف، أما فقراء الأسرى فأطلق سراح بعضهم دون مقابل، كما كلف المتعلمين منهم بتعليم أطفال المسلمين القراءة والكتابة، ثم أطلق سراحهم بعد تعليم هؤلاء الأطفال.

(و) القتلى والجرحى:

حفر المسلمون قليبًا دفنوا فيه قتلى المشركين، وهذا ما يطابق تعاليم الحرب الحديثة في وجوب دفن قتلى الأعداء، كما اعتنى المسلمون بجرحى المشركين فضمدوا جراحاتهم أسوة بجرحى المسلمين.

(ز) التهذيب:

استفاد المسلمون من الأسرى المتعلمين تعليم أطفالهم، فكان هؤلاء الأطفال النواة الأولى لكتَّاب الوحي، والحملة الثقافية الإسلامية فيما بعد[1].

عباد الله...

وبهذا نأتي إلى ختام حديثنا عن «غزوة بدر الكبرى»، وفي الخطبة القادمة نتحدث عن «غزوة أُحُد» إن شاء الله، فإلى اللقاء.

---

(١) انظر «الرسول القائد» اللواء/ محمود شيت خطاب.

الخطبة الخامسة والتسعون:

[أ] غزوةُ أُحُدٍ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - مع غزوة «أُحُد»، وسائلاً المولى - تبارك وتعالى - أن يوفِّقنا وإيَّاكم للعمل بما يُحبّ ويَرضى.

عباد الله...

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله تَعَالَى-: «لما قتل الله أشرافَ قريشٍ ببدر، وأُصيبُوا بمصيبةٍ لم يُصابُوا بمثلها، ورَأَسَ فيهم أبو سفيانَ بنُ حربٍ لِذهاب أكابرهم، وجاء كما ذكرنا إلى أطرافِ المدينة في غزوة السَّويق، ولم يَنَلْ ما في نفسه،

أخذ يُؤلِّبُ على رسول الله ﷺ وعلى المسلمين، ويجمِّع الجموعَ، فجمع قريبًا مِن ثلاثةِ آلافٍ من قريش، والحلفاء، والأحابيش، وجاؤوا بنسائهم لِئلا يَفِرُّوا. وليحاموا عنهن، ثم أقبل بهم نحوَ المدينة، فنزل قريبًا من جبل أُحُد بمكان يقال لهُ: عَيْنَيْنِ، وذلك في شوَّال مِن السنة الثالثةِ.

واستشار رسولُ الله ﷺ أصحابَه أيخرُج إليهم، أم يمكثُ في المدينة؟ وكان رأْيُه ألا يخرجُوا من المدينة، وأن يتحصَّنُوا بها، فإن دخلوها، قاتلهم المسلمون على أفواه الأزقة، والنِّساء مِن فوق البيوت، ووافقه على هذا الرأى عبدُ الله بن أُبَيّ. وكان هو الرأىَ، فبادر جماعةٌ مِن فُضلاء الصحابة ممن فاته الخروجُ يوم بدر. وأشاروا عليه بالخروج، وأَلحُّوا عليه في ذلك، وأشار عبد الله بن أُبَيّ بالمُقام في المدينة، وتابعه على ذلك بعضُ الصحابةِ، فألحّ أولئك على رسول الله ﷺ، فنهض ودخل بيته، ولَبِسَ لأْمَتَهُ، وخرج عليهم، وقد انثنى عزمُ أُولئك، وقالوا: أكْرَهْنَا رَسُولَ الله ﷺ على الخُروج، فقالوا: يا رسولَ الله؛ إن أحببتَ أن تَمْكُثَ في المدينة فافعَلْ، فقال رسول الله ﷺ: «مَا يَنبَغِي لِنَبِيٍّ إذَا لَبِسَ لأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يَحْكُمَ اللهُ بَيْنَهُ وبَيْنَ عدوِّه».

وفي مسند الإمام أحمد، والدارمي، «رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعٍ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقَرًا مُنَحَّرَةً، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدِّرْعَ الحَصِينَةَ المَدِينَةُ، وَأَنَّ البَقَرَ هُوَ وَاللَّهِ خَيْرٌ» قَالَ: فَقَالَ لِأَصْحَابِهِ: «لَوْ أَنَّا أَقَمْنَا بِالمَدِينَةِ فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا فِيهَا قَاتَلْنَاهُمْ»، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَاللَّهِ مَا دُخِلَ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الجَاهِلِيَّةِ فَكَيْفَ يُدْخَلُ عَلَيْنَا فِيهَا فِي الإِسْلَامِ؟ فَقَالَ: «شَأْنَكُمْ إِذًا»، قَالَ: فَلَبِسَ لَأْمَتَهُ.

قَالَ: فَقَالَتْ الأَنْصَارُ: رَدَدْنَا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ رَأْيَهُ فَجَاءُوا فَقَالُوا: يَا نَبِيَّ اللهِ شَأْنَكَ إِذًا، فَقَالَ: «إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيٍّ إِذَا لَبِسَ لَأْمَتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ»(١).

فخرج رسولُ الله ﷺ في ألف من الصحابة، واستعمل ابنَ أُمِّ مكتُوم على الصلاة بمن بقى في المدينة، وكان رسولُ الله رأى رؤيا، وهو بالمدينةِ، رأى أن في

---

(١) إسناده صحيح.

سيفِه ثُلْمَةً، ورأى أن بقرًا تُذبح، وأنه أدخل يده فى درع حَصِينةٍ، فتأوَّل الثُّلمة فى سيفه برجل يُصاب مِن أهل بيته، وتأوَّل البقرَ بِنَفَرٍ من أصحابه يُقتلون، وتأوَّل الدِّرع بالمدينة[١].

فخرج يوم الجمعة، فلما صار بالشَّوْط بَيْنَ المدينةِ وأُحُد، انخزَلَ عبدُ الله ابن أُبَىّ بنحو ثُلثِ العسكر، وقال: تُخالفنى وتسمَعُ مِن غيرى، فتبعهم عبدُ الله بن عمرو بن حرام، والد جابر بن عبد الله يوبِّخهم ويحضُّهم على الرجوع، ويقول: تعَالَوْا قاتِلُوا فى سبيل الله، أو ادفعوا. قالوا: لو نَعلَمُ أنكم تُقاتلون، لم نرجع، فرجع عنهم وسبَّهم[٢]، وسأله قوم من الأنصار أن يستعينوا بحُلفائهم مِن يهود، فأبى[٣]، وسلك حرَّة بنى حارثة.

ونفذ رسولُ الله ﷺ حتى نزلَ الشِّعبَ مِن أُحُد فى عُدْوَةِ الوَادِى، وجعلَ ظهرَه إلى أُحُد، ونهى الناسَ عَنِ القِتَال حتى يأمرهمْ، فلما أصبحَ يومَ السبت، تَعَبَّى للقتال، وهو فى سبعمائة، فيهم خمسون فارسًا، واستعمل على الرُّماة وكانوا خمسين عبدَ الله بن جُبير، وأمره وأصحابَه أن يَلزمُوا مركزهم، وألا يُفارقُوه، ولو رأى الطيرَ تتخطفُ العسكر، وكانوا خلفَ الجيش، وأمرَهُم أنْ يَنْضَحُوا المُشرِكِينَ بالنَّبْلِ، لِئَلا يأتُوا المُسْلِمِينَ مِنْ وَرَائِهِم[٤].

فظاهر رسولُ الله ﷺ بَيْنَ دِرعَيْن يومئذ[٥]، وأعطى اللِّواء مُصْعَبَ بنَ عُمير، وجعل على إحدى المجَنِّبَتَيْنِ الزبيرَ بنَ العوامِّ، وعلى الأخرى المُنذرَ بنَ عمرو، واستعرض الشبابَ يومئذٍ، فردَّ مَن استصغره عن القتال، وكان منهم عبدُ الله بنُ عمر، وأُسامَة بن زيد، وأُسَيْدُ بن ظَهِيرٍ، والبراءُ بن عازب، وزيد بن أرقم، وزيدُ بن ثابت، وعَرَابةُ بن أوس، وعمرو بنُ حَزْمٍ، وأجازَ مَن رآهُ مُطِيقًا، وكان مِنهم

(١) أخرجه مسلم (٢٢٧٢) بنحوه.
(٢) ذكره ابن إسحاق بدون إسناده.
(٣) مرسل: قاله الزهريّ.
(٤) أخرجه البخاري (٤٠٤٣) بنحوه.
(٥) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٩٠)، وابن ماجه (٢٨٠٦)، وغيرهما.

سَمُرَةُ بنُ جُنْدَبٍ، ورافعُ بن خَديج، ولهما خمسَ عشْرة سنة. فقيل: أجاز مَن أجاز لبلوغه بالسِّنِّ خمس عشرة سنةً، وردَّ مَن رَدَّ لِصغره عن سِنِّ البُلُوغ[1].

وقالت طائفة: إنما أجازَ مَنْ أجاز لإطاقته، وردَّ مَن رَدَّ لِعدم إطاقته، ولا تأثير للبلوغ وعدمِه فى ذلك قالوا: وفى بعض ألفاظ حديث ابن عمر: «فلمَّا رَآنى مُطيقًا أَجَازَني».

وتعبَّتْ قريشٌ للقتال، وهم فى ثلاثةِ آلافٍ، وفيهم مائتا فارسٍ، فجعلوا على ميمنتهم خالدَ بن الوليد، وعلى الميسرةِ عِكرمةَ بنَ أبى جهلٍ، ودفعَ رسولُ الله ﷺ سيفَه إلى أبى دُجَانَة سِمَاكِ بن خَرَشَةَ، وكان شُجاعًا بطلًا يَخْتَالُ عِند الحرب». ا.هـ.

عباد الله...

ويواصل الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله تَعَالى - حديثه عن سير المعركة فيقول: «ثم قاتل المسلمين قِتالًا شديدًا، وكان شِعارُ المُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ: أَمِتْ[2].

وأبلى يومئذ أبو دُجَانَةَ الأنصاريُّ، وطلحةُ بنُ عبيد الله، وأسدُ الله وأسد رسوله حمزةُ بنُ عبد المطَّلب، وعليُّ بنُ أبى طالب، وأنسُ بن النضر، وسعدُ بن الربيع.

وكانت الدولةُ أوَّلَ النهارِ للمسلمين على الكفَّار، فانهزم عدوُّ الله، وولَّوا مُدْبِرينَ حتى انتَهَوْا إلى نِسائهم، فلما رأى الرُّمَاةُ هزيمتَهم، تركوا مركَزَهم الذي أمرهم رسولُ الله ﷺ بحفظه، وقالوا: يا قومُ الغنيمةَ، فذكَّرهم أميرُهم عهد رسول الله ﷺ، فلم يسمعُوا، وظنوا أن ليس للمشركين رجعةٌ، فذهبُوا فى طلب الغنيمةِ، وأخْلُوا الثَّغْرَ، وكرَّ فُرسَانُ المشركين، فوجدوا الثَّغْر خاليًا، قد خلا من الرُّماة، فجازُوا منه، وتَمكَّنُوا حتى أقبل آخِرهُم، فأحاطُوا بالمسلمين، فأكرم الله

---

(١) أخرجه الطبراني بنحوه، وأخرج البخاري (٤٠٩٧) عن ابن عمر، قال: «إن النبي ﷺ عرضه يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يجزه، وعرضه يوم الخندق وهو ابن خمس عشرة سنة فأجازه».

(٢) حسن: أخرجه أبو داود (٢٥٩٦)، وأحمد (٤/ ٤٦)، وغيرهما.

مَنْ أكرمَ منهم بالشهادة، وهم سبعون، وتولَّى الصَّحَابة، وخلَصَ المشركون إلى رسولِ الله ﷺ فجرحُوا وجهَه، وكسروا رَباعِيَتَه[1] اليُمْنى، وكانت السُّفلى، وهَشَمُوا البيضة على رأسه[2] ورمَوْهُ بالحِجَارة حتى وقع لِشقه، وسقط فى حُفرة مِن الحُفَرِ التى كان أبو عامر الفاسِقُ يَكيدُ بها المسلمين، فأخذ عليٌّ بيده، واحتضنه طلحةُ بنُ عُبيد الله، وكان الذى تولَّى أذاه ﷺ عَمْرُو بنُ قَمِئَةَ، وعُتْبَةُ بنُ أبى وقاص، وقيل: إن عبد الله بن شهاب الزهرىَّ، عمّ محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى، هو الذى شجَّهُ.

وقُتِلَ مصعبُ بن عمير بين يديه، فدفع اللِّواء إلى عليٍّ بن أبى طالب، ونشبت حَلَقَتَانِ مِن حلق المِغْفَرِ فى وجهه، فانتزعهما أبو عبيدة بن الجرَّاح، وعضَّ عليهما حتى سقطت ثنيتاه مِن شدَّةِ غوصِهمَا فى وجْهِهِ، وأدركه المشركون يُريدُونَ ما اللهُ حائلٌ بينَهُم وبينَه، فحال دُونَه نفرٌ مِن المسلمين نحو عشرة حتى قُتِلُوا، ثم جالدهم طلحةُ حتى أجهضهم عنه، وترَّسَ أبو دُجانة عليه بظهره، والنبل يقع فيه، وهو لا يتحرَّك[3]، وأصيبت يومئذ عينُ قتادة بن النعمان، فأتى بها رسولَ الله ﷺ ، فردَّها عليه بيده، وكانَتْ أصحَّ عينيه وأحسنَهما[4]، وصرخ الشيطانُ بأعلى صوتِهِ: إنَّ محمدًا قَد قُتِلَ[5]، ووقع ذلك فى قلوب كثيرٍ من المسلمين، وفرَّ أكثرُهم، وكان أمرُ الله قدرًا مقدورًا.

ومر أنسُ بنُ النَّضر بقوم من المسلمين قد ألقَوا بأيديهم، فقال: ما تنتظِرُونَ؟ فقالوا: قُتِلَ رسولُ الله ﷺ ، فقال: ما تَصْنَعُونَ فى الحياة بعده؟ قومُوا فموتُوا على ما مَاتَ عليه، ثم استقبلَ الناسَ، ولقى سعدَ بنَ معاذ فقال: يَا سَعْدُ؛ إنى لأَجِدُ رِيحَ الجَنَّةِ مِنْ دُونِ أُحُد، فقاتل حتى قُتِلَ، ووُجِدَ به سبعونَ ضَربة[6]، وجُرِحَ

---

(١) الرباعية: المقدم من الأسنان.

(٢) انظر «صحيح البخاري» (٢٩١١).

(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (٣/ ٣٠).

(٤) حديث غريب: أخرجه الدارقطني، وغيره.

(٥) أخرجه ابن إسحاق بإسناد حسن، دون تقييد القائل بالشيطان.

(٦) أخرجه البخاري (٤٠٤٨)، ومسلم (١٩٠٣)، وغيرهما.

يومئذ عبد الرحمن بن عوف نحوًا من عشرينَ جِراحة.

وأقبل رسولُ الله ﷺ نحوَ المسلمين، وكان أوَّل مَن عرفه تحتَ المِغْفَرِ كعبُ ابن مالك، فصاحَ بأعلى صوته: يا معشرَ المسلمين؛ أَبْشِرُوا هذا رسولُ الله ﷺ. فأشار إليه أن اسْكُت.

وجاءَ عليّ إلى رسول الله ﷺ بماء ليشرب منه، فوجده آجنًا، فرده، وغسل عن وجهه الدم، وصبَّ على رأسه، فأراد رسولُ الله ﷺ أن يعلُوَ صخرةً هُنالك، فلم يَسْتَطِع لِما به، فجلس طلحةُ تحتَه حتى صَعِدَهَا[1]، وحانتِ الصلاةُ، فصلَّى بهم جالسًا، وصار رسولُ الله ﷺ فى ذلك اليوم تحتَ لِواء الأنصار.

وشدَّ حنظلةُ الغسيل وهو حنظلةُ بن أبى عامرعلى أبى سفيان، فلما تمكَّن منه حَمَلَ على حنظلة شَدَّادُ بنُ الأسود فقتله، وكان جُنُبًا، فإنه سَمِعَ الصَّيْحَـةَ، وهو على امرأته، فقَامَ مِن فَوره إلى الجهاد، فأخبرَ رسولُ الله ﷺ أصْحَابَهُ: «أنَّ المَلائِكَةَ تُغَسِّلُهُ» ثم قال: «سَلُوا أَهْلَهُ: مَا شَأْنُهُ»؟ فسألُوا امرأته، فَأَخْبَرَتْهُمُ الخَبَرَ[2]. وجعل الفقهاءُ هذا حُجة، أن الشهيدَ إذا قُتِلَ جُنبًا، يُغسَّل اقتداءً بالملائكة.

وقتل المسلمون حامِلَ لواءِ المشركينَ، فرفَعَتْهُ لهم عَمْرَةُ بنتُ علقمةَ الحارِثِيَّة، حتى اجتمعوا إليه، وقاتلت أُمُّ عُمارة، وهى نُسيبة بنتُ كعب المازنية قِتالًا شديدً. وَضَرَبَتْ عمرَو بن قَمِئَةَ بالسَّيْفِ ضَرَبَاتٍ فَوَقَتْهُ دِرعانِ كانتا عليه، وضربها عمرو بالسَّيْفِ، فجرحها جُرحًا شديدًا على عاتقها». ا.هـ. من «زاد المعاد» ملخصًا.

عباد الله...

وبهذه النتيجة انتهت «غزوة أُحُد» لتبقى درسًا ﴿لِمَن كَانَ لَـهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ﴾ [ق: ٣٧].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (١٦٩٨)، وغيره.

(٢) أخرج الطبراني بإسناد حسن عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: «رأيت الملائكة تُغَسِّل حمزة ابن عبد المطلب وحنظلة بن الراهب»، انظر «صحيح الجامع» (٣٤٦٣).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ويواصل الإمامُ ابن القيِّم رحمه الله الحديث عن «غزوة أُحُد» فيقول: «ولما انقضَتِ الحربُ، أشرف أبو سفيان على الجبل، فنادى: أفيكُم محمد؟ فلم يُجيبُوهُ، فقال: أفيكُمُ ابنُ أبي قُحَافة؟ فلم يُجيبوه. فقال: أفيكُم عُمرُ بنُ الخطاب؟ فلم يجيبوه، ولم يَسْأَلْ إلاَّ عن هؤلاء الثلاثة لِعلمه وعِلم قومه أن قِوَامَ الإسلام بهم، فقال: أمَّا هَؤلاء، فقد كُفيتُموهم، فلم يَملِكْ عُمَر نفسَه أن قال: يَا عَدُوَّ الله؛ إنَّ الَّذِينَ ذكرتَهُمْ أحياءٌ، وقد أبقى اللَّهُ لَكَ ما يَسُوءُكَ، فقال: قَدْ كان في القوم مُثْلَةٌ لم آمُر بها، ولم تسؤنى، ثم قال: أعْلُ هُبَلُ. فقال النبى ﷺ: «ألا تُجِيبُونَه»؟ فَقَالُوا: ما نقُولُ؟ قال: «قُولُوا: اللَّهُ أَعْلَى وأَجَلُّ»، ثم قال: لَنَا العُزَّى ولا عُزَّى لكم. قال: «ألا تُجِيبُونَه»؟ قالُوا: ما نقول؟ قال: «قولُوا: اللَّهُ مَوْلاَنَا وَلاَ مَوْلَى لَكم»[(١)].

فأمرهم بجوابه عند افتخاره بآلهته، وبِشرْكِهِ تعظيمًا للتوحيد، وإعلامًا بعزة مَنْ عبده المسلمون، وقوةِ جانبه، وأنه لا يُغلب، ونحن حزبُه وجُنده، ولم يأمرهم بإجابته حين قال: أفيكم محمد؟ أفيكم ابنُ أبى قُحافة؟ أفيكم عمر؟ بل قد رُوى أنه نهاهم عن إجابته، وقال: «لا تُجيبوه»، لأن كَلْمَهُمْ[(٢)] لم يكن بَرَدَ بَعْدُ فى طلب القوم، ونارُ غيظهم بعد متوقِّدة، فلما قال لأصحابه: أما هؤلاء فقد كُفيتموهم، حمىَ عمر بنُ الخطاب، واشتد غضبُه وقال: كذبْت يا عدوَّ الله، فكان فى هذا الإعلام من الإذلال، والشجاعة، وعدمِ الجُبن، والتعرفِ إلى العدو فى تلك الحال، ما يُؤذِنُهم بقوة القومِ وبَسالتهم، وأنهم لم يَهِنُوا ولم يَضْعُفُوا، وأنه وقومَه جديرون بعدم الخوفِ منهم، وقد أبقى اللَّهُ لهم ما يسوؤُهم منهم، وكان فى الإعلام ببقاء هؤلاء الثلاثة وهلة بعد ظنِّهِ وظنِّ قومه أنهم قد أُصيبوا من المصلحة،

(١) أخرجه البخاري (٤٠٤٣).

(٢) كَلمهم: جرحهم.

وغيظ العدو وحِزبِهِ، والفتِّ فى عَضُدِهِ ما ليس فى جوابه حين سأل عنهم واحدً واحدًا، فكان سؤالُه عنهم، ونعيُهم لِقومه آخِر سهام العدو وكيده، فصبر له النبيُّ ﷺ حتى استوفى كيده، ثم انتدب له عُمَرُ، فرد سِهَام كيدِهِ عليه، وكان ترك الجوابِ أولًا عليه أحسن، وذكره ثانيًا أحسن، وأيضًا فإن فى ترك إجابته حين سأل عنهم إهانةً له، وتصغيرًا لشأنه، فلما منَّته نفسُه موتَهم، وظنَّ أنهم قد قتِلُو. وحصل بذلك من الكِبرِ والأشر ما حصل، كان فى جوابه إهانةٌ له، وتحقيرٌ. وإذلالٌ، ولم يكن هذا مخالفًا لقول النبى ﷺ : «لا تُجِيبُوه»، فإنه إنما نهى عن إجابته حين سأل: أفيكم محمّدٌ؟ أفيكم فلانٌ؟ أفيكم فلانٌ؟ ولم ينه عن إجابته حين قال: أما هؤلاء، فقَد قُتِلُوا، وبكل حال، فلا أحسنَ من ترك إجابته أولًا، ولا أحسنَ من إجابته ثانيًا». ا.هـ.

عباد الله...

وللحديث بقيّة - إن شاء الله - فإلى اللقاء.



الخطبة السادسة والتسعون:

[ب] غزوة أُحُد

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ۞ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «غزوة أُحُد»، سائلًا المولى - تبارك وتعالى - التوفيق لي ولكم لِمَا يُحِبّ ويَرضى.

عباد الله...

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - [١] ما مختصره: «وقاتلت الملائكةُ يومَ أُحُدٍ

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٨٧ - وما بعدها).

عن رسول الله ﷺ، ففى «الصحيحين»: عن سعدِ بن أبى وقاص، قال: «رأيتُ رَسُولَ الله ﷺ يَوْمَ أُحُدٍ وَمَعَهُ رَجُلانِ يُقَاتِلانِ عَنْهُ، عليهما ثِيَابٌ بِيْضٌ كَأَشَدِّ القِتَالِ، مَا رَأَيْتُهُمَا قَبْلُ وَلاَ بَعْدُ»(١).

وفى «صحيح مسلم»: أنه ﷺ، أُفْرِدَ يَوْمَ أُحُدٍ فى سَبْعَةٍ مِنَ الأنصارِ، وَرَجُلَيْنِ مِنْ قُرَيْشٍ، فلما رَهِقُوه، قَالَ: «مَنْ يَرُدُّهمْ عَنَّا، وَلَهُ الجَنَّة»، أو «هُوَ رفيقى فى الجَنَّةِ»؟ فَتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأنْصَارِ، فَقَاتَلَ حَتَّى قُتِلَ، ثم رَهِقُوهُ، فقال: «مَنْ يَرُدُّهُم عنَّا، وله الجَنَّةُ»، أَو «هُوَ رَفِيقى فى الجنَّة»، فتَقَدَّمَ رَجُلٌ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقَاتَلَ حتَّى قُتِلَ، فَلَمْ يَزَلْ كَذَلِكَ حَتَّى قُتِلَ السَّبْعَةُ، فَقَالَ رسولُ الله ﷺ: «ما أَنْصَفْنَا أَصْحَابَنَا»(٢).

وهذا يُروى على وجهين: بسكون الفاء ونصبِ «أصحابنا» على المفعولية. وفتح الفاء ورفع «أصحابنا» على الفاعلية.

ووجه النصب: أن الأنصار لما خرجُوا للقتال واحدًا بعد واحد حتى قُتِلُوا. ولم يخرج القرشيان، قال ذلك، أى: ما أنصفت قريشٌ الأنصار.

ووجه الرفع: أن يكون المراد بالأصحاب، الذين فرُّوا عن رسول الله ﷺ حتى أُفْرِدَ فى النفر القليل، فَقُتِلُوا واحدًا بعد واحد، فلم يُنْصِفُوا رسول الله ﷺ ومَنْ ثبت معه.

وفى «الصحيحين» عن أبى حازم، أنه سئلَ عن جُرح رسول الله ﷺ، فقال: «والله إنِّى لأَعْرِفُ مَنْ كَانَ يَغْسِلُ جُرْحَ رَسُولِ الله ﷺ، ومَنْ كَانَ يَسْكُبُ المَاءَ. وبِمَا دُووِى، كَانَتْ فَاطِمَةُ ابنتهُ تَغْسِلُه، وعلىُّ بْنُ أبى طَالِبٍ يَسْكُبُ المَاءَ بالمِجَنِّ. فَلَمَّا رَأَتْ فَاطِمَةُ أنَّ المَاءَ لاَ يَزِيدُ الدَّمَ إلا كَثْرَةً، أَخَذَتْ قطعةً مِنْ حَصيرٍ، فَأَحْرَقَتْها فَأَلْصَقَتْهَا فَاسْتَمْسَكَ الدَّمُ»(٣).

وفى «الصحيح»: أنه كُسِرَت رَبَاعِيتُه، وشُجَّ فى رَأْسِهِ، فَجَعَلَ يَسْلُتُ الدمَ عنه.

---

(١) أخرجه مسلم (٤٠٥٤)، ومسلم (٢٣٠٦).
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٩).
(٣) أخرجه البخاري (٤٠٧٥).

يقول: «كَيْفَ يُفْلِحُ قَوْمٌ شَجُّوا وَجْهَ نبيِّهِمْ، وكَسَرُوا رَبَاعِيَتَه، وهُوَ يَدْعُوهم» فأنزل الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨] (١).

ولـمَّا انهزم الناسُ، لم ينهزِمْ أنسُ بنُ النضر. وقال: اللَّهُمَّ إنِّى أَعْتَذِرُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤلاَءِ، يعنى المُسْلِمِينَ، وَأَبْرَأُ إِلَيْكَ مِمَّا صَنَعَ هؤلاَءِ، يَعنى المُشْرِكِينَ، ثم تقدَّم، فَلَقِيَه سعدُ بن معاذ، فقال: أينَ يا أبا عُمَرُ؟ فَقَالَ أَنَسٌ: واهًا لِرِيحِ الجَنَّةِ يَا سَعْدُ، إِنِّى أَجِدُهُ دُونَ أُحُدٍ، ثُمَّ مَضَى، فَقَاتَلَ القَوْمَ حَتَّى قُتِلَ، فَمَا عُرِفَ حَتَّى عَرَفَتْهُ أُخْتُه بِبَنَانِهِ، وَبِهِ بِضْعٌ وثَمَانُونَ، مَا بَيْنَ طَعْنَةٍ بِرُمْحٍ، وَضَرْبَةٍ بِسَيْفٍ، وَرَمْيَةٍ بِسَهْمٍ (٢).

وانهزم المشركون أوَّل النهارِ كما تقدَّم، فصرخ فيهم إبليسُ: أَىْ عِبادَ الله، أخزاكم اللَّهُ، فارجِعُوا مِن الهزيمة، فاجتلدوا.

ونظر حُذيفة إلى أبيهِ، والمُسْلِمُونَ يريدون قتله، وهم يظنُّونه مِن المُشْرِكِينَ، فقال: أَىْ عِبَادَ الله؛ أبى، فَلَمْ يَفْهَمُوا قولَه حتَّى قتلُوه، فَقَالَ: يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، فأرادَ رَسُولُ الله ﷺ أَنْ يَدِيَه، فَقَالَ: قَدْ تَصَدَّقْتُ بديته عَلَى المُسْلِمِينَ، فزادَ ذَلِكَ حُذَيْفَةَ خَيْرًا عِنْدَ النبيِّ ﷺ (٣).

وقال خيثمة أبو سعد، وكان ابنُه استُشْهِدَ مع رسولِ الله ﷺ يومَ بدر: «لَقَدْ أَخْطأَتْنِى وَقْعَةُ بَدْرٍ، وكُنْتُ والله عليها حَرِيصًا، حتى سَاهَمْتُ ابنى فى الخُرُوجِ، فخرجَ سهمُه، فَرُزِقَ الشَّهَادَةَ، وقد رأيتُ البَارِحَةَ ابنى فى النوم فى أَحْسَنِ صُورَةٍ يَسْرَحُ فى ثِمارِ الجَنَّةِ وأَنْهَارِهَا، ويقولُ: الحَقْ بِنَا تُرافِقْنَا فى الجَنَّةِ، فَقَدْ وَجَدْتُ ما وَعَدَنِى رَبِّى حقًّا، وقد والله يَا رَسُولَ الله أَصْبَحْتُ مُشْتَاقًا إلى مُرَافَقَتِهِ فى الجَنَّةِ، وقَد كَبِرَتْ سِنِّى، وَرَقَّ عَظْمِى، وأحبَبْتُ لِقَاءَ رَبِّى، فَادْعُ الله يَا رَسُولَ الله أَنْ

---

(١) الحديث علقه البخاري (٧/ ٤٢٢)، ووصله مسلم (١٧٩١).
(٢) أخرجه البخاري (٢٨٠٥)، ومسلم (١٩٠٣)، وغيرهما.
(٣) أخرجه البخاري (٤٠٦٥).

يَرْزُقَنى الشَّهَادَة، ومُرافقة سَعْدٍ فى الجَنَّةِ، فَدَعَا له رسولُ الله ﷺ بِذَلِكَ، فَقُتِلَ بِأُحُدٍ شَهِيدًا».

وقال عبدُ الله بنُ جَحْشٍ فى ذلك اليوم: اللَّهُمَّ إِنِّى أُقْسِمُ عَلَيْكَ أَنْ أَلْقَى العَدُوَّ غَدًا، فَيَقْتُلُونِى، ثُمَّ يَبْقُرُوا بَطْنِى، ويَجْدعُوا أَنْفِى، وَأُذُنِى، ثُمَّ تَسْأَلُنِى: فِيمَ ذلِكَ، فَأَقُولُ فيكَ[1].

وَكَانَ عَمْرُو بنُ الجَمُوحِ أَعْرَجَ شَدِيدَ العَرَجِ، وكانَ له أربَعَةُ بَنِينَ شَبَابٍ يَغْزُونَ مَعَ رسولِ الله ﷺ إذَا غَزَا، فَلَمَّا تَوَجَّهَ إلى أُحُدٍ، أرادَ أن يَتَوجَّهَ مَعَهُ، فَقَالَ لَهُ بَنُوهُ: إنَّ اللهَ قد جعلَ لك رخصةً، فلو قَعَدْتَ ونحنُ نَكْفِيكَ، وقد وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الجِهَادَ، فأتى عَمْرُو بْنُ الجَمُوحِ رَسُولَ الله ﷺ، فقال: يا رَسُولَ الله؛ إنَ بَنِيَّ هؤلاء يمنعُونى أن أَخْرُجَ مَعَكَ، ووالله إنى لأَرْجُو أن أُسْتَشْهدَ فأطأَ بعَرْجَتِى هذه فى الجَنَّةِ، فَقَال له رسول الله ﷺ: «أَمَّا أَنْتَ، فَقَدْ وَضَعَ اللَّهُ عَنْكَ الجِهَادَ» وَقَالَ لِبَنِيهِ: «ومَا عَلَيْكُم أَنْ تَدَعُوهُ، لَعَلَّ اللهَ عَزَّ وجَلَّ أَنْ يَرْزُقَهُ الشَّهَادَةَ»، فخرجَ مَعَ رسولِ الله ﷺ، فَقُتِلَ يَوْمَ أُحُدٍ شهيدًا[2].

عباد الله...

كانت هذه هي أحداث «غزوة أحد»، وفيها كثير من الأحكام والفقه، نلتقي معها بعد قليل إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد اشتملت «غزوة أحد» عَلَى كثير من الأحكام والفقه:

---

(١) إسناده صحيح: أخرجه البيهقي (٦/ ٣٠٧)، وغيره.

(٢) إسناده صحيح: أخرجه أحمد (٥/ ٢٩٩).

«منها: أن الجهادَ يلزمُ الشُّروع فيه، حتى إن مَنْ لَبِسَ لأْمَتَه وَشَرَعَ فى أَسْبَابِهِ، وتَأَهَّبَ لِلخُروج، ليس له أن يَرْجِعَ عن الخروج حتى يُقاتِلَ عدوَّه.

ومنها: أنه لا يَجِبُ على المسلمين إذا طَرَقَهُمْ عدوُّهم فى ديارهم الخروجُ إليه، بل يجوزُ لهم أن يلزمُوا دِيارهم، ويُقاتلوهم فيها إذا كانَ ذلك أنصرَ لهم على عدوِّهم، كما أشار به رسولُ الله ﷺ عليهم يومَ أُحُد.

ومنها: جوازُ سُلُوكِ الإمام بالعسكرِ فى بعض أملاك رعيَّته إذا صادفَ ذلك طَريقَه، وإن لم يرضَ المالكُ.

ومنها: أنه لا يأذنُ لِمن لا يُطيق القِتَالَ من الصبيان غيرِ البالغين، بل يردُّهم إذا خرجوا، كما رد رسولُ الله ﷺ ابنَ عمر ومَن معه.

ومنها: جوازُ الغزوِ بالنساء، والاستعانةُ بِهِنَّ فى الجهاد.

ومنها: جوازُ الانغماس فى العدو، كما انغمسَ أنسُ بنُ النضر وغيرُه.

ومنها: أن الإمَامَ إذا أصابته جِراحة صلَّى بهم قاعدًا، وصلُّوا وراءه قعودًا، كما فَعَلَ رسولُ الله ﷺ فى هذِهِ الغزوة، واستمرت على ذلك سُـنَّته إلى حين وفاته.

ومنها: جوازُ دعاءِ الرجل أن يُقتَلَ فى سَبيلِ الله، وتمنيه ذلك، وليس هذا من تمنى الموت عنه، كما قال عبد الله بن جحش: اللَّهُمَّ لقِّنى من المشركين رجلًا عظيمًا كفره، شديدًا حَردُه، فأقاتله، فيقتلنى فيك. ويسلبنى، ثم يجدَع أنفى وأُذنى، فإذا لقيتُكَ، فقلتَ: يا عبدَ الله بن جحش، فيم جُدِعْتَ؟ قلت: فيك يا رَبِّ.

ومنها: أن المسلِمَ إذا قتل نفسه، فهو من أهلِ النار، لقوله ﷺ فى قُزْمَانَ الذى أبلى يومَ أُحُدٍ بلاءً شديدًا، فلما اشتدَّت بِهِ الجِراحُ، نَحَرَ نفسه، فقال ﷺ: «هُوَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ»[١].

ومنها: أن السُّـنَّةَ فى الشهيدِ أنه لا يُغَسَّل، ولا يُصلَّى عليه، ولا يُكَفَّن فى غير

(١) أخرجه ابن إسحاق عن عاصم بن عمر بن قتادة مرسلًا، والقصة في «صحيح البخاري» (٢٨٩٨)، ومسلم (١٧٩) (١١٢) دون ذكر اسم هذا المقاتل، وقال النووي: اسمه قزمان». انظر «صحيح مسلم بشرح النووي» (٢/ ٢٩٣).

ثيابه، بل يُدفَن فيها بدمه وكُلومه، إلا أن يُسْلَبَهَا، فيكفَّنَ فى غيرها.

ومنها: أنه إذا كان جُنبًا، غُسِّلَ كما غسَّلَتِ الملائكةُ حنظلةَ بن أبى عامر.

ومنها: أن السُّنَّة فى الشهداء أن يُدفنوا فى مصَارِعهم، ولا يُنقلوا إلى مكان آخر، فإن قومًا من الصحابة نقلوا قتلاهم إلى المدينة، فنادى منادى رسول الله ﷺ بالأمرِ بَردِّ القتلى إلى مصارعهم، قال جابر: بينا أنا فى النَّظَّارَةِ، إذ جاءت عمَّتى بأبى وخالى عَادَلَتْهُمَا على ناضِح، فدخَلَتْ بهما المدينة، لنَدْفِنَهُمَا فى مقابرنا، وجاء رجل يُنادى: ألا إنَّ رَسُولَ الله ﷺ يَأْمُرُكُـم أن تَرْجِعُوا بِالقَتْلَى، فَتَدْفِنُوهَا فى مَصَارِعِهَا حَيْثُ قُتِلَتْ. قال: فرجعنَا بِهِمَا، فدفنَّاهما فى القتلى حيثُ قُتِلا، فبينا أنا فى خلافةِ معاويةَ بنِ أبى سُفيان، إذ جاءنى رجلٌ، فقال: يا جابرُ؛ والله لقد أثار أَبَاكَ عُمَّالُ معاويَة فبدا، فخَرجَ طائفة منه، قال: فأتيتُه، فوجدتُه على النحو الذى تركته لم يتَغيَّرْ منهُ شيء. قال: فواريتُه، فصارت سُنَّة فى الشهداء أن يُدْفَنُوا فى مصارِعهم[1].

ومنها: جوازُ دفن الرجلينِ أو الثلاثة فى القبر الواحد، فإنَّ رسولَ الله ﷺ كانَ يَدْفِنُ الرجلين والثلاثة فى القبر، ويقول: «**أيُّهم أكْثَرُ أخذًا لِلقُرآنِ**»، فإذا أشاروا إلى رَجُلٍ، قَدَّمه فى اللحد[2].

ودفن عبدَ الله بنَ عَمْرِو بن حرام، وعمرَو بنَ الجموح فى قبر واحد، لِمَا كان بينهُمَا مِن المحبة فقال: «**ادْفِنُوا هَذَيْنِ المُتَحَابَّيْنِ فى الدُّنْيَا فى قَبْرٍ واحد**»[3]، ثمَّ حُفِرَ عنهما بعد زمنٍ طويل، ويدُ عبدِ الله بن عمرو بنِ حرام على جرحه كما وضعها حين جُرِحَ، فأُمِيطَتْ يدُه عن جرحه، فانبعثَ الدَّمُ، فَرُدَّت إلى مكانها، فسكن الدم.

وقد اختلف الفقهاء فى أمرِ النبيِّ ﷺ أن يُدفن شهداءُ أُحُد فى ثيابهم، هل هو

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣١٦٥).
(٢) صحيح.
(٣) انظر «البداية والنهاية» لابن كثير (٢/ ٤٥٥).

عى وجه الاستحبابِ والأولويَّة، أو على وجه الوجوب؟ على قولين. الثاني: ضهرُهما وهو المعروفُ عن أبى حنيفة، والأول: هو المعروف عن أصحاب شافعى وأحمد.

فإن قيل: فقد روى يعقوبُ بن شيبة وغيرُه بإسناد جيد، أن صفيَّةَ أرسلت إلى نبى ﷺ ثوبَيْنِ لِيكفِّن فيهما حمزة، فكفَّنه فى أحدهما، وكفَّن فى الآخر رجلًا آخر[1].

قيل: حمزةُ، كان الكفارُ قد سلبوه، ومثَّلُوا به، وبقَرُوا عن بَطنِه، واستخرجوا كَبدَه، فَلِذلِكَ كُفِّنَ فى كَفَـنٍ آخر. وهذا القولُ فى الضعف نظيرُ قول مَن قال: يُغسَّلُ الشهِيدُ، وسُـنَّةُ رسول الله ﷺ أَوْلى بالاتباع.

ومنها: أن شهيدَ المعركة لا يُصلَّى عليه، لأن رسول الله ﷺ لم يُصَلِّ على شُهدَاء أُحُد، ولم يُعرف عنه أنه صلَّى على أحد ممن استشهد معه فى مغازيه، وكذلك خلفاؤُه الراشِدُون، ونوابُهم مِن بعدهم.

فإن قيل: فقد ثبت فى «الصحيحين» من حديث عُقبة بنِ عامر، أن النبىَّ ﷺ خرج يومًا، فصلَّى على أهل أُحُدٍ صلاتَه على الميت، ثم انصرف إلى المنبر.

وقال ابنُ عباس: «صلَّى رسولُ الله ﷺ على قتلى أُحُد».

قيل: أما صلاتُه عليهم، فكانت بعد ثمانِ سنين مِن قتلهم قُرْبَ موته، كالمودِّع لهم، ويُشبِهُ هذا خروجُه إلى البقيع قبل موته، يستغفِرُ لهم كالمودِّع للأحياء والأموات، فهذه كانت توديعًا منه لهم، لا أنها سُـنَّةُ الصلاة على الميت، ولو كان ذلك كذلك، لم يُؤخِّرها ثمان سنين، لا سيما عند مَنْ يقول: لا يُصلَّى على القبر، أو يصلَّى عليه إلى شهر.

ومنها: أن مَن عذره الله فى التخلف عن الجهاد لمرض أو عرج، يجوز له الخروجُ إليه، وإن لم يجب عليه، كما خرج عمرُو بن الجموح، وهو أعرج.

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ١٦٥).

ومنها: أن المسلمين إذا قَتَلُوا واحدًا منهم في الجهاد يظنُّونه كافرًا، فعلى الإمام ديتُه مِن بيتِ المالِ، لأن رسولَ الله ﷺ أراد أن يَدِيَ اليمانَ أبا حُذيفة، فامتنع حُذيفَةُ من أخذ الدية، وتصدَّقَ بها على المسلمين». ا.هـ[1].

عباد الله...

وللحديث بقية إن شاء الله، فإلى اللقاء.

❖❖❖❖❖

(١) «زاد المعاد» (٣/ ١٩٤ - ١٩٨) باختصار يسير.

الخطبة السابعة والتسعون:

[جـ] غزوة أُحُد

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن «غزوة أُحُدٍ» سائلًا المولى - تبارك وتعالى - التوفيق لي ولكم.

عباد الله...

ونتكلم اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن بعض الحِكَم والغايات المحمودة التي كانت في وقعة «أُحُد».

لقد ذكر الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - بعض الحِكم والغايات التي كانت في

هَذِهِ الغزوة.

ولأهمية ما قَالَ، نذكر كلامه بتمامه - رَحِمَهُ الله -.

قَالَ - رَحِمَهُ الله تَعَالى - تحت عنوان:

فصل

فى ذكر بعضِ الحكم والغايات المحمودة التى كانت فى وقعة أُحُد

«وقد أشار اللَّهُ سبحانه وتعالى إلى أُمهاتِها وأُصولها فى سورة «آل عمران» حيث افتتح القصة بقوله: ﴿وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ [آل عمران: ١٢١] إلى تمام ستين آية.

فمنها: تعريفُهم سوءَ عاقبة المعصية، والفَشَل، والتنازُع، وأن الذى أصابهم إنما هو بشُؤم ذلِكَ، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ، حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ، مِنْكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُم مَّن يُرِيدُ الآخِرَةَ، ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ، وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

فلما ذاقُوا عاقبةَ معصيتهِم للرسول، وتنازعهم، وفشلهم، كانُوا بعد ذلك أشدَّ حذرًا ويقظة، وتحرُّزًا مِن أسبابِ الخِذلان.

ومنها: أن حِكمة الله وسُنَّته فى رُسله، وأتباعِهم، جرت بأن يُدَالوا مَرَّةً ويُدَالَ عليهم أُخرى، لكن تكونُ لهم العاقبةُ، فإنهم لو انتصرُوا دائمًا، دخلَ معهم المؤمنون وغيرُهم، ولم يتميَّز الصَّادِقُ مِن غيره، ولو انتُصِرَ عليهم دائمًا، لم يحصل المقصودُ من البعثة والرسالة، فاقتضت حِكمة الله أن جمع لهم بينَ الأمرين ليتميز مَن يتبعُهم ويُطيعهُم للحق، وما جاؤوا به ممن يتبعُهم على الظهور والغلبة خاصة.

ومنها: أن هذا مِن أعلام الرسل، كما قال هِرَقْلُ لأبى سفيان: هَلْ قَاتَلْتُمُوهُ؟ قال: نعم. قَالَ: كَيْفَ الحَرْبُ بَيْنَكُم وبَيْنَه؟ قَالَ: سِجَال، يُدالُ علينا المرة، ونُدالُ عليه الأخرى. قال: كَذلِكَ الرُّسُل تُبْتَلَى، ثُمَّ تَكُونُ لَهُمُ العَاقِبَةُ[1].

---

(١) أخرجه البخاري (٦).

ومنها: أن يتميَّز المؤمنُ الصَّادِقُ مِن المنافِقِ الكاذبِ، فإنَّ المسلمين لما أظهرهم الله على أعدائهم يومَ بدر، وطار لهم الصِّيتُ، دخل معهم فى الإسلام ظاهرًا مَنْ ليس معهم فيه باطنًا، فاقتضت حِكمةُ الله عَزَّ وجَلَّ أن سَبَّبَ لعباده مِحْنَةً ميَّزت بين المؤمن والمنافق، فأَطْلَعَ المنافقون رُؤوسَهم فى هذه الغزوة، وتكلَّموا بما كانوا يكتُمونه، وظهرت مُخَبَّآتهم، وعاد تلويحُهم تصريحًا، وانقسم الناسُ إلى كافر، ومؤمن، ومنافق، انقسامًا ظاهرًا، وعَرَفَ المؤمنون أن لهم عدوًا فى نفس دُورهم، وهم معهم لا يُفارقونهم، فاستعدُّوا لهم، وتحرَّزوا منهم. قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ، وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩]. أى: ما كان اللَّهُ ليذركم على ما أنتم عليه من التباسِ المؤمنين بالمنافقين، حتى يميزَ أهلَ الإيمانِ مِن أهلِ النفاق، كما ميَّزهم بالمحنة يومَ أُحُد، وما كان الله لِيُطلعكم على الغيب الذى يَميزُ به بينَ هؤلاء وهؤلاء، فإنهم متميِّزون فى غيبه وعلمه، وهو سبحانه يُريد أن يميزهم تمييزًا مشهودًا، فيقع معلومهُ الذى هو غيبٌ شهادةً. وقوله: ﴿وَلَكِنَّ اللهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ﴾ [آل عمران: ١٧٩] استدراك لما نفاه من اطلاع خلقه على الغيب، سوى الرسلِ، فإنه يُطلعهم على ما يشاء مِن غيبه، كما قال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا * إلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦، ٢٧] فحظكم أنتم وسعادتكم فى الإيمان بالغيبِ الذى يُطْلِعُ عليه رسله، فإن آمنتم به وأيقنتم، فلكم أعظمُ الأجر والكرامة.

ومنها: استخراجُ عبوديةِ أوليائه وحزبِه فى السَّراء والضَّراء، وفيما يُحبُّون وما يكرهون، وفى حال ظفرهم وظفر أعدائهم بهم، فإذا ثبتُوا على الطاعة والعبودية فيما يُحبون وما يكرهون، فهم عبيدهُ حقًا، وليسوا كمن يعبد الله على حرف واحد مِن السَّراء والنعمة والعافية.

ومنها: أنه سبحانه لو نصرهم دائمًا، وأظفرهم بعدوِّهم فى كُلِّ موطن، وجعل لهم التَّمْكِينَ والقهرَ لأعدائهم أبدًا، لطغتْ نفوسُهم، وشمخت وارتفعت، فلو بسط لهم النصرَ والظفرَ، لكانُوا فى الحال التى يكونون فيها لو بَسَطَ لهم الرِّزْقَ،

فلا يُصْلِحُ عِباده إلا السَّراءُ والضَّراءُ، والشدةُ والرخاءُ، والقبضُ والبسطُ، فهو المدبِّرُ لأمر عباده كما يليقُ بحكمته، إنه بهم خبير بصير.

ومنها: أنه إذا امتحنهم بالغَلَبَةِ، والكَسْرَةِ، والهزيمة، ذلُّوا وانكسروا، وخضعُوا، فاستوجبوا منه العِزَّ والنَّصْرَ، فإن خِلعة النصر إنما تكونُ مع ولاية الذُّلِّ والانكسارِ، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وقال: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُم شَيْئًا﴾ [التوبة: ٢٥]، فهوسبحانه إذا أراد أن يُعِزَّ عبدَه، ويجبُرَه، وينصُرَه، كسره أوَّلًا، ويكونُ جبرُه له ونصره، على مِقدار ذُلِّه وانكساره.

ومنها: أنه سبحانه هيَّأ لعباده المؤمنين منازِلَ فى دار كرامته، لم تبلُغْها أعمالهم، ولم يكونوا بالغيها إلا بالبلاء والمحنةِ، فقيَّض لهم الأسبابَ التى تُوصِلُهُم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التى هى من جملة أسباب وصولهم إليها.

ومنها: أن النفوسَ تكتسِبُ من العافية الدائمة والنصر والغنى طغيانًا وركونًا إلى العاجلة، وذلك مرض يَعُوقُها عن جِدِّها فى سيرها إلى الله والدارِ الآخرة، فإذا أراد بها ربُّهَا ومالِكُهَا وراحِمُهَا كرامته، قيَّض لها من الابتلاء والامتحان ما يكون دواء لذلك المرض العائق عن السيرِ الحثيث إليه، فيكون ذلك البلاء والمحنة بمنزلة الطبيب يسقى العليلَ الدواءَ الكريه، ويقطع منه العروقَ المؤلمةَ لاستخراج الأدواء منه، ولو تركه، لَغَلَبَتْهُ الأدواءُ حتى يكون فيها هلاكه.

ومنها: أن الشهادة عنده من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقرَّبون من عباده، وليس بعد درجة الصِّدِّيقيَّة إلا الشهادةُ، وهو سبحانه يُحب أن يتَّخِذَ مِن عباده شهداءَ، تُراقُ دماؤهم فى محبته ومرضاته، ويُؤْثرونَ رضاه ومحابَّه على نفوسهم، ولا سبيلَ إلى نيل هذه الدرجة إلا بتقدير الأسباب المفضية إليها من تسليط العدو.

ومنها: أن الله سبحانه إذا أراد أن يهلك أعداءه ويمحقهم، قيض لهم الأسباب

التي يستوجبون بها هلاكهم ومحقهم، ومن أعظمها بعد كفرهم بغيهم، وطغيانهم، ومبالغتهم في أذى أوليائه، ومحاربتهم، وقتالهم، والتسلط عليهم، فيتمحص بذلك أولياؤه من ذنوبهم وعيوبهم، ويزداد بذلك أعداؤه من أسباب محقهم وهلاكهم.

وقد ذكر سبحانه وتعالى ذلك فى قوله: ﴿وَلا تَهِنُواْ وَلا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ الأَعْلَوْنَ إن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ، وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا ويَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَاءَ، وَاللَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ * ولِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤١]، فجمع لهم فى هذا الخطاب بين تشجيعهم وتقوية نفوسهم، وإحياء عزائمهم وهممهم، وبينَ حُسنِ التسلية، وذكر الحِكم الباهِرَة التى اقتضت إدالة الكفار عليهم فقال: ﴿إن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ القَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، فقد استويتُم فى القرح والألَمِ، وتباينتم فى الرجاء والثواب، كما قال: ﴿إِن تَكُونُواْ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، فما بالكم تَهِنُونَ وتضعُفُون عند القرحِ والألمِ، فقد أصابهم ذلك فى سبيلِ الشيطان، وأنتم أُصِبتم فى سبيلى وابتغاء مرضاتى.

ثم أخبرَ أنه يُدَاوِلُ أيامَ هذه الحياة الدنيا بين الناسِ، وأنها عَرَضٌ حاضِر، يقسمها دُوَلًا بين أوليائه وأعدائِهِ بخلاف الآخِرةِ، فإن عزَّها ونصرَها ورجاءَها خالصٌ للذين آمنُوا.

ثم ذكر حِكمة أُخرى، وهى أن يتميَّزَ المؤمنون من المنافقين، فيعلمُهم عِلْمَ رؤية ومشاهدة بعد أن كانوا معلومِين فى غيبه، وذلك العلم الغيبى لا يترتَّب عليه ثوابٌ ولا عقاب، وإنَّما يترتب الثوابُ والعقابُ على المعلوم إذا صار مشاهدًا واقعًا فى الحسِ.

ثم ذكر حكمة أُخرى، وهى اتخاذُه سبحانه منهم شهداء، فإنه يُحبُّ الشهداء من عباده، وقد أعَدَّ لهم أعلى المنازل وأفضلَها، وقد اتخذهم لنفسه، فلا بدَّ أن يُنِيلَهم درجة الشهادة.

وقوله: ﴿واللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٧]، تنبيه لطيفُ الموقِع جدًا على

كراهته وبغضه للمنافقين الذين انخَذَلُوا عن نبيه يومَ أُحُد، فلم يشهدوه، ولم يَتَّخِذْ منهم شهداء، لأنه لم يُحبهم، فأركَسَهم وردَّهُم لِيَحْرِمَهُم ما خصَّ به المؤمنين فى ذلكَ اليوم، وما أعطاهُ مَن استُشهِدَ منهم، فثبط هؤلاء الظالمين عن الأسباب التى وفق لها أولياءَهُ وحِزبه.

ثم ذكر حِكمة أُخرى فيما أصابهم ذلك اليوم، وهو تمحيص الذين آمنوا، وهو تنقيتُهم وتخليصُهم من الذنوب، ومن آفاتِ النفوس، وأيضًا فإنه خلَّصهم ومحَّصهم من المنافقين، فتَمَيَّزوا منهم، فحصل لهم تمحيصان: تمحيص من نفوسهم، وتمحيص ممن كان يُظهِرُ أنه منهم، وهو عدوُّهم.

ثم ذكر حكمة أخرى، وهى محقُّ الكافرين بطغيانهم، وبغيهم، وعُدوانهم، ثم أنكر عليهم حُسبانَهم، وظنَّهُم أن يدخلُوا الجنَّة بدون الجهاد فى سبيله، والصبر على أذى أعدائه، وإن هذا ممتنع بحيثُ يُنْكَرُ على مَن ظنه وحَسِبَه.

فقال: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُواْ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، أى: ولما يَقَعْ ذلِكَ منكم، فيعلمه، فإنه لو وقع لعلمه، فجازاكم عليه بالجنة، فيكونَ الجزاء على الواقع المعلوم، لا على مجرد العلم، فإن الله لا يجزى العبدَ على مجرد علمه فيه دون أن يقعَ معلومُه، ثم وبَّخهم على هزيمتهم مِن أمر كانوا يتمنَّونه ويودُّون لِقاءه،فقال: ﴿وَلَقَدْ كُنتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣].

قال ابن عباس: ولما أخبرهم الله تعالى على لسان نبيه بما فعل بشهداء بدر من الكرامة، رغبوا فى الشهادة، فتمنوا قتالًا يستشهدُونَ فيه، فيلحقُونَ إخوانَهم. فأراهم الله ذلك يوم أُحُد، وسبّبه لهم، فلم يَلْبَثُوا أن انهزموا إلا مَن شاء الله منهم. فأنزل الله تعالى: ﴿ولَقَدْ كُنتُم تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِن قَبْلِ أَن تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٤٣]. ا.هـ[1].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

(١) «زاد المعاد» (١٩٤ - ٢٠٤).

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الحِكم والغايات التي كانت في «غزوة أُحُد»:

أن وقعةَ أُحُدٍ كانت مُقَدِّمَةً وإرهاصًا بين يدى موتِ رسول الله ﷺ، فثبَّتهم، ووبَّخهم على انقلابهم على أعقابهم أَنْ ماتَ رسولُ الله ﷺ، أو قُتِلَ، بل الواجبُ له عليهم أن يثبتُوا على دِينه وتوحِيدِهِ ويموتوا عليه، أو يُقتلُوا، فإنهم إنما يعبدُون ربَّ محمد، وهو حيٌّ لا يموت، فلو ماتَ محمد أو قُتِلَ، لا ينبغى لهم أن يَصْرِفَهم ذلِكَ عن دينه، وما جاء به، فكلُّ نفسٍ ذائِقةُ الموت، وما بُعِثَ محمد ﷺ لِيخلَّد لا هُوَ ولا هُم، بل لِيمُوتُوا على الإسلامِ والتَّوحيدِ، فإن الموت لا بُدَّ منه، سواء ماتَ رسول الله ﷺ أو بَقِىَ، ولهذا وبَّخَهُم على رجوع مَن رجع منهم عن دينه لما صرخ الشَّيْطَانُ: إنَّ محمدًا قد قُتِلَ[1]، فقال: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ، أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ، وَمَن يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللهَ شَيْئًا، وَسَيَجْزِى اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤].

والشاكرون: هم الذين عرفوا قدر النعمة، فثبتوا عليها حتى ماتوا أو قُتِلُوا، فظهر أثرُ هذا العِتَابِ، وحكمُ هذا الخطاب يومَ مات رسولُ الله ﷺ، وارتدَّ مَن ارتدَّ على عقبيه، وثبت الشاكِرُون على دينهم، فنصرهم الله وأعزَّهم وظفَّرهم بأعدائهم، وجعل العاقبة لهم.

ثم أخبر سبحانه أنه جعل لكل نفس أجلًا لا بُدَّ أن تستوفيه، ثم تلحَقَ به، فيَرِدُ الناسُ كُلُّهم حوضَ المنايا مَوْرِدًا واحِدًا، وإن تنوَّعت أسبابه، ويصدُرونَ عن موقف القِيامة مصادِرَ شتَّى، فريقٌ فى الجنة وفريقٌ فى السعير.

ثم أخبر سبحانه أن جماعةً كثيرةً من أنبيائه قُتِلُوا وقُتِلَ معهم أتباعٌ لهم كثيرون،

---

(١) تقدم، وذكرنا أنه حسن دون ذكر الشيطان.

فما وَهَنَ مَنْ بقىَ منهم لِما أصابهم فى سبيله، وما ضَعُفُوا، وما استكانُوا، وما وَهَنُوا عندَ القتال، ولا ضعفُوا، ولا استكانوا، بل تَلَقَّوا الشهادةَ بالقُوَّةِ، والعزيمةِ، والإقْدَام، فلم يُسْتَشْهَدُوا مُدَبِرِينَ مستكينين أذلةً، بل استُشْهِدُوا أعزَّةً كِرامًا مقبلينَ غير مدبرين، والصحيح: أن الآية تتناول الفريقين كليهما.

ثم أخبر سُبحانه عما استنصرت به الأنبياءُ وأُممهم على قومهم من اعترافهم وتوبتهم واستغفارهم وسؤالهم ربهم، أن يُثَبِّت أقدامَهم، وأن ينصُرَهم على أعدائهم فقال: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إلاَّ أَن قَالُواْ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإسْرَافَنَا فِى أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى القَوْمِ الكَافِرِينَ * فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوابِ الآخِرَةِ، وَاللَّهُ يُحِبُّ المُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧، ١٤٨].

لما علم القومُ أن العدو إنما يُدَالُ عليهم بذنوبهم، وأن الشيطانَ إنما يستزِلُّهم ويهزِمُهم بها، وأنها نوعان: تقصيرٌ فى حق أو تجاوزٌ لحد، وأن النصرةَ منوطة بالطاعة، قالُوا: ربنا اغفِرْ لنا ذنوبَنا وإسرافَنَا فى أمرنا، ثم عَلِمُوا أن ربَّهم تبارك وتعالى إن لم يُثَبِّتْ أقدامَهم ويَنْصُرْهم، لم يَقْدِرُوا هُم على تثبيتِ أقدام أنفسهم، ونصرها على أعدائهم، فسألوه ما يعلمون أنَّهُ بيده دُونهم، وأنه إنَ لم يُثَبِّتْ أقدامَهم وينصرهم لم يثبتُوا ولم ينتصِرُوا، فَوَفَّوا المَقَامَيْنِ حقَّهما: مقامَ المقتضى، وهو التوحيد والالتجاء إليه سبحانه، ومقامَ إزالةِ المانع من النصرة، وهو الذنوبُ والإسرافُ.

ثم حذَّرهم سبحانه مِن طاعة عدوِّهم، وأخبر أنَّهم إن أطاعوهم خَسِرُوا الدنيا والآخِرَة، وفى ذلك تعريضٌ بالمنافقينَ الذين أطاعوا المشركين لما انتصروا وظفِروا يومَ أُحُد.

ثم أخبر سبحانه أنه مولى المؤمنين، وهو خير الناصرين، فمَن والاه فهو المنصور.

ثم أخبرهم أنه سيُلقى فى قلوب أعدائهم الرعب الذى يمنعهم من الهُجُوم عليهم، والإقدام على حربهم، وأنَّه يُؤيِّد حزبَه بجند مِن الرعب ينتصِرونَ به على

أعدائهم، وذلك الرعبُ بسبب ما فى قلوبهم مِن الشركِ بالله، وعلى قدرِ الشركِ يكون الرعبُ، فالمشركُ بالله أشدُّ شىءٍ خوفًا ورُعبًا، والذين آمنوا ولم يَلْبِسُوا إيمانَهم بالشِّرْكِ، لهم الأمنُ والهُدى والفلاحُ، والمشركُ له الخوفُ والضلالُ والشقاءُ.

ثم أخبرهم أنه صَدَقَهُمْ وعدَه فى نُصرتهم على عدوهم، وهو الصادقُ الوعد، وأنهم لو استمرُّوا على الطاعةِ، ولزوم أمر الرسول لاستمرَّت نُصرتهم، ولكن انخلعوا عن الطاعة، وفارقُوا مركزهم، فانخلعوا عن عصمة الطاعة، ففارقتهم النصْرَةُ، فصرفهم عن عدوهم عقوبةً وابتلاءً، وتعريفًا لهم بسوء عواقِب المعصيةِ، وحُسنِ عاقبة الطاعة.

ثم أخبر أنه عَفَا عنهم بعد ذلك كُلِّه، وأنه ذو فضلٍ على عباده المؤمنين.

قيل للحسن: كيف يعفو عنهم، وقد سلَّط عليهم أعداءَهم حتى قتلُوا منهم مَن قتلوا، ومثَّلُوا بهم، ونالُوا منهم مَا نالوه؟ فقال: لولا عفوُه عنهم، لاستأصلَهم، ولكن بعفوه عنهم دَفَعَ عنهم عدوَّهم بعد أن كانوا مُجمعين على استئصالهم.

ثمَّ ذكَّرهم بحالهم وقتَ الفرارِ مُصعدينَ، أى: جادِّين فى الهربِ والذهاب فى الأرضِ، أو صاعدين فى الجبلِ لا يَلْوونَ على أحدٍ من نبيهم ولا أصحابهم، والرسولُ يدعوهم فى أُخراهم: «إلَىَّ عِبَادَ الله، أَنَا رسُولُ الله»، فأثابهم بهذا الهرب والفرارِ، غمًا بعدَ غَمٍّ: غمَّ الهزيمة والكسرةِ، وغمَّ صرخةِ الشيطان فيهم بأن محمدًا قد قُتل.

وقيل: جازاكم غمًا بما غممتُم رسولَه بفراركم عنه، وأسلمتمُوه إلى عدوِّهِ، فالغمُّ الذى حصل لكم جزاءً على الغمِّ الذى أوقعتموه بنبيه، والقولُ الأولُ أظهر لوجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لِكَيْلاَ تَحْزَنُواْ عَلَى مَا فَاتَكُم وَلا مَا أَصَابَكُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٣] تنبيهٌ على حِكمة هذا الغم بعدَ الغمِّ، وهو أن يُنسيَهم الحزنَ على ما فاتهم مِن

الظفر، وعلى ما أصابهم مِن الهزيمةِ والجِراحِ، فنسُوا بذلك السبب، وهذا إنما يحصُل بالغمِّ الذى يعقُبُه غمٌ آخر.

الثانى: أنه مطابق للواقع، فإنَّه حَصَلَ لهم غمُّ فواتِ الغنيمة، ثم أعقبه غمُّ الهزيمةِ، ثم غمُّ الجراح التى أصابتهم، ثم غَمُّ القتلِ، ثم غَمُّ سماعِهم أن رسولَ الله ﷺ قد قُتِلَ، ثم غَمُّ ظهور أعدائهم على الجبل فوقهم، وليس المراد غمَّين اثنين خاصة، بل غمًا متتابعًا لتمام الابتلاء والامتحان.

الثالث: أن قوله: ﴿بِغَمٍّ﴾ [آل عمران: ١٥٣]، من تمام الثوابِ، لا أنه سببُ جزاء الثواب، والمعنى: أثابكم غمًا متَّصِلًا بغمٍّ، جزاءً على ما وقع منهم من الهروب وإسلامهم نبيَّهم ﷺ وأصحابه، وترك استجابتهم له وهو يدعوهم، ومخالفتهم له فى لزومِ مركزهم، وتنازعهِم فى الأمر، وفشلهم، وكُلُّ واحد من هذه الأمور يُوجب غمًا يخصُّه، فترادفت عليهم الغمومُ كما ترادفت منهم أسبابُها وموجباتُها، ولولا أن تداركهم بعفوِه، لكان أمرًا آخَرَ.

وَمِن لطفه بهم، ورأفته، ورحمته، أن هذه الأمور التى صدرت منهم، كانت من موجبات الطباع، وهى من بقايا النفوس التى تمنع من النصرة المستقرة، فقيَّض لهم بلطفه أسبابًا أخرجها من القوة إلى الفعل، فترتَّب عليها آثارُها المكروهة، فعلموا حينئذ أن التوبةَ منها والاحترازَ مِن أمثالها، ودفعها بأضدادها أمرٌ متعيِّنٌ، لا يتم لهم الفلاحُ والنصرةُ الدائمة المستقرة إلا به، فكانوا أشدَّ حذرًا بعدها، ومعرفة بالأبوابِ التى دخل عليهم منها، ورُبَّمَا صَحَّتِ الأَجْسَامُ بِالعِلَلِ.

ثم إنه تداركهم سُبحانه برحمته، وخفَّف عنهم ذلك الغَمَّ، وغيَّبه عنهم بالنُّعاسِ الذى أنزله عليهم أمنًا منه ورحمة، والنعاسُ فى الحرب علامةُ النصرة والأمنِ، كما أنزله عليهم يومَ بدر، وأخبر أن مَن لم يُصبْه ذلك النعاسُ، فهو ممن أهمته نفسُه لا دِينُه ولا نبيُّه ولا أصحابُه، وأنهم يظنون بالله غيرَ الحقِّ ظنَّ الجاهلية.

وقد فُسِّرَ هذا الظنُّ الذى لا يليقُ بالله، بأنه سبحانه لا ينصُرُ رسولَه، وأن أمْرَهُ سيضمحِلُّ، وأنه يُسلِمُه للقتل، وقد فُسِّرَ بظنهم أن ما أصابَهم لم يكن بقضائه

وقدره، ولا حِكمة له فيه، ففسر بإنكارِ الحِكمة، وإنكارِ القدر، وإنكارِ أن يُتمَّ أمرَ رسوله ويُظْهِرَه على الدِّين كُلِّه، وهذا هو ظنُّ السَّوْءِ الذى ظَنَّهُ المنافقُونَ والمشرِكُونَ به سبحانه وتعالى فى «سورة الفتح» حيث يقول: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللهِ ظَنَّ السَّوْءِ، عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ، وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح: ٦]، وإنما كان هذا ظنَّ السَّوْءِ، وظنَّ الجاهلية المنسوب إلى أهل الجهل، وظنَّ غيرِ الحق، لأنه ظنَّ غير ما يليق بأسمائه الحسنى، وصفاتِهِ العُليا، وذاتِه المبَرَّأة من كُلِّ عيبٍ وسوء، بخلافِ ما يليقُ بحكمته وحمدِه، وتفرُّدِهِ بالربوبية والإلهيَّة، وما يَليق بوعده الصادِق الذى لا يُخلفُهُ، وبكلمته التى سبقت لرسله أنه ينصُرُهم ولا يخذُلُهم، ولجنده بأنهم هُمُ الغالبون، فمَن ظنَّ بأنه لا ينصرُ رسولَه، ولا يُتِمُّ أمرَه، ولا يؤيِّده، ويؤيدُ حزبه، ويُعليهم، ويُظفرهم بأعدائه، ويُظهرهم عليهم، وأنه لا ينصرُ دينه وكتابه، وأنه يُديل الشركَ على التوحيدِ، والباطلَ على الحقِّ إدالة مستقرة يضمحِلّ معها التوحيد والحق اضمحلالًا لا يقوم بعده أبدًا، فقد ظنَّ بالله ظن السَّوْءِ، ونسبه إلى خلاف ما يليقُ بكماله وجلاله، وصفاته ونعوته» ا.هـ[١].

عباد الله...

وللحديث بقية - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللقاء.

۞۞۞۞۞

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٠٤ - ٢٠٨).

الخطبة الثامنة والتسعون:

[د] غزوة أُحُدٍ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فمازال الحديث موصولًا عن «غزوة أُحُدٍ»، سائلًا المولى - تبارك وتعالى - التوفيق لي ولكم.

عباد الله...

ونَسْتَخلِص اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - الحِكم والفوائد التي كانت في غزوة أُحُد.

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله تَعَالَى -: «ثم أخبر سبحانه عن حِكمة أُخرى

فى هذا التقديرِ، هى ابتلاءُ ما فى صدورهم، وهو اختبار ما فيها منَ الإيمانِ والنفاق، فالمؤمنُ لا يزدادُ بذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، والمنافقُ ومَن فى قلبه مرضٌ، لابد أن يظهر ما فى قلبه على جوارحه ولسانه.

ثم ذكر حِكمة أُخرى: وهو تمحيصُ ما فى قلوب المؤمنين، وهو تخليصهُ وتنقيتُه وتهذيبه، فإن القلوبَ يُخالطها بِغلبات الطبائع، وميلِ النفوس، وحكمِ العادة، وتزيينِ الشيطانِ، واستيلاءِ الغفلة ما يُضادُّ ما أُودعَ فيها من الإيمانِ والإسلام والبر والتقوى، فلو تُركت فى عافية دائمة مستمرة، لم تَتخَلَّص من هذه المخالطة، ولم تتمحَّص منه، فاقتضت حِكمةُ العزيزِ أن قَيَّض لها مِن المِحن والبلايا ما يكون كالدواء الكريه لمن عرض له داء إن لم يتداركه طبيبه بإزالته وتنقيته من جسده، وإلا خِيف عليه منه الفسادُ والهلاكُ، فكانت نعمتُه سبحانه عليهم بهذه الكسرة والهزيمة، وقتل مَن قُتِل منهم، تُعادِلُ نعمتَه عليهم بنصرهم وتأييدهم وظفرهم بعدوهم، فله عليهم النعمةُ التامةُ فى هذا وهذا.

ثم أخبر سبحانه وتعالى عن توَلِّى مَنْ تَولَّى من المؤمنين الصادقين فى ذلك اليوم، وأنه بسبب كسبهم وذنوبهم، فاسْتَزَلَّهُمُ الشيطان بتلك الأعمال حتى تولَّوْا، فكانت أعمالهم جندًا عليهم، ازداد بها عدوُّهم قوة، فإن الأعمال جند للعبد وجندٌ عليه، ولا بُدَّ فللعبد كلَّ وقت سَرِيَّةٌ مِن نفسه تَهْزِمُه، أو تنصره، فهو يمُدُّ عدوَّه بأعماله من حيث يظن أنه يُقاتله بها، ويبعث إليه سرية تغزوه مع عدوه من حيث يظن أنه يغزو عدوه، فأعمالُ العبد تسوقُهُ قسرًا إلى مقتضاها مِن الخير والشر، والعبدُ لا يشعر أو يشعر ويتعامى، ففرارُ الإنسان من عدوه، وهو يُطيقه إنما هو بجُند مِن عمله، بعثه له الشيطان واستزلَّه به.

عباد الله...

ثم أخبر سبحانه: أنه عفا عنهم، لأن هذا الفرارَ لم يكن عن نفاق ولا شكٍ، وإنما كان عارضًا، عفا الله عنه، فعادت شجاعةُ الإيمانِ وثباتُه إليمركزها ونصابها

ثم كرَّر عليهم سُبحانه: أن هذا الذى أصابهم إنما أُتوا فيه مِن قِبَلِ أنفسهم،

وَبِسبب أعمالهم، فقال: ﴿أَوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا، قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ، إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:١٦٥]، وذكر هذا بعينه فيما هو أعمُّ من ذلك في السور المكِّية فقال: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠]، وقال: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ الله، وَمَا أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩]، فالحسنة والسيئة هاهنا: النعمة والمصيبةُ، فالنعمةُ مِن الله مَنَّ بها عليك، والمصيبةُ إنما نشأت مِن قِبَلِ نفسِك وعملِك، فالأول فضلُه، وَالثانى عدلُه، والعبد يتقلَّب بين فضلِه وعدله، جارٍ عليه فضلُهُ، ماضٍ فيه حكمه، عدلٌ فيه قضاؤه

وختم الآية الأولى بقوله: ﴿إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بعد قوله: ﴿قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ﴾، إعلامًا لهم بعموم قدرته مع عدله، وأنه عادلٌ قادر، وفى ذلك إثباتُ القدرِ والسببِ، فذكر السببَ، وأضافه إلى نفوسهم، وذكر عمومَ القدرة وأضافها إلى نفسه، فالأول ينفى الجَبْرَ، والثانى ينفى القولَ بإبطال القدر، فهو يشاكل قوله: ﴿لِمَن شَاءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ * وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ العَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٨-٢٩].

وفى ذكر قدرته هاهنا نكتة لطيفة، وهى أن هذا الأمر بيده وتحت قدرتِهِ، وأنه هو الذى لو شاء لصرفه عنكم، فلا تطلبُوا كشفَ أمثاله من غيره، ولا تتَّكِلُوا على سواه، وَكَشَفَ هذا المعنى وأوضَحَه كُلَّ الإيضاح بقوله: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَقَى الجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّه﴾ [آل عمران: ١٦٦]. وهو الإذن الكونى القدرى، لا الشرعى الدينى، كقوله فى السحر: ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلاَّ بِإِذْنِ الله﴾ [البقرة:١٠٢]..

ثم أخبر عن حِكمة هذا التقدير، وهى أن يعلَمَ المؤمنين مِن المنافقين عِلمَ عَيان ورؤية يتميز فيه أحدُ الفريقين من الآخر تمييزًا ظاهرًا، وكان مِن حكمة هذا التقديرِ تكلُّمُ المنافقين بما فى نفوسهم، فسمعه المؤمنون، وسمعوا ردَّ الله عليهم وجوابه لهم، وعرفوا مؤدَّى النفاق وما يؤول إليه، وكيف يُحرم صاحبُه سعادةَ الدنيا والآخرة، فيعودُ عليه بفساد الدنيا والآخرة.

فللَّهِ كم من حكمة فى ضِمن هذه القِصة بالغةٍ، ونعمة على المؤمنين سابغةٍ.

وَكَم فيها من تحذيرٍ وتخويفٍ وإرشاد وتنبيه، وتعريفٍ بأسباب الخير والشر ومآلهما وعاقبتهما.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ثم عزَّى نبيه وأولياءه عمن قُتل منهم فى سبيله أحسنَ تعزية، وألطفَها وأدعَاها إلى الرضى بما قضاه لها، فقال: ﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ الله أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ * فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩-١٧٠]، فجمع لهم إلى الحياة الدائمةِ منزلةَ القُربِ منه، وأنهم عنده، وجريان الرزق المستمر عليهم، وفرحَهم بما آتاهم من فضله، وهو فوق الرضى، بل هو كمال الرضى، واستبشارهم بإخوانهم الذين باجتماعهم بهم يَتمُّ سُرورُهم ونعيمُهم، واستبشارهم بما يُجدِّدُ لهم كُلَّ وقت مِن نعمته وكرامته.

وذَكَّرهم سبحانه فى أثناء هذه المحنة بما هو مِن أعظمِ مننه ونعمه عليهم التى إن قابلوا بها كُلَّ محنة تناهم وبلية، تلاشت فى جنب هذه المنة والنعمة، ولم يبق لها أثر البتة، وهى مِنَّته عليهم بإرسال رسولٍ من أنفسهم إليهم، يتلُو عليهم آياتِه، ويُزكيهم، ويُعلمهم الكتابَ والحِكمة، ويُنقذُهم مِن الضلال الذى كانُوا فيه قبل إرساله إلى الهدى، ومِن الشقاء إلى الفلاح، ومن الظُّلمة إلى النور، ومن الجهل إلى العلم، فكُلُّ بليةٍ ومحنةٍ تنالُ العبد بعد حصول هذا الخيرِ العظيم له أمرٌ يسيرٌ جدًا فى جنب الخير الكثير، كما ينالُ الناس بأذى المطرِ فى جنب ما يحصل لهم به من الخير، فأعلمهم أن سببَ المُصيبة من عند أنفسهم ليحذروا، وأنها بقضائه وقدره لِيوحِّدوا ويتَكِلُوا، ولا يخافوا غيره، وأخبرهم بما لهم فيها مِن الحكم لئلا يتهموه فى قضائه وقدره، وليتعرَّف إليهم بأنواع أسمائه وصفاته، وسلاَّهم بما أعطاهم مما

هو أجلُّ قدرًا، وأعظمُ خطرًا مما فاتهم من النصر والغنيمة، وعزَّاهم عن قتلاهم بما نالُوه من ثوابه وكرامته، لينافِسوهم فيه، ولا يحزنُوا عليهم، فله الحمدُ كما هو أهلُه، وكما ينبغي لكرم وجهه، وعزِّ جلاله» ا.هـ[1].

عباد الله...

وإلى هنا نُنهي الحديث عن غزوة أُحُد، وفي الجمعة القادمة - إن شاء الله - نتحدث عن وقعة بئر معونة، فإلى اللقاء.

۞۞۞۞۞

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢١٥ - ٢١٩).

الخطبة التاسعة والتسعون:

وقعة بئر معونة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَــا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُــوا اتَّقُــوا اللَّهَ حَــقَّ تُقَاتِــهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيّ الأمين ﷺ، ولقاؤنا اليوم - إن شاء الله تَعَالى - مع «وقعة بئر معونة».

فما هي أحداثها؟

وما هي العظَّات والعِبر والدروس المستفادة منها؟

هذا ما سوف نُبيِّنهُ - إن شاء الله تَعَالى - والله الموفق لا إله غيره، ولا رَبَّ سِواه.

عباد الله...

«لَمَّا كان صفر من السنة الرابعة من الهجرة، قَدِمَ عَلَى النبيِّ ﷺ قَوْمٌ مِن عَضَلٍ والقَارةِ، وذكروا أن فيهم إسلامًا، وسألُوهُ أن يَبْعثَ معهم مَن يُعَلِّمُهم الدِّينَ ويُقرئهُمُ القُرآن، فبعث معهم سِتَّة نَفَرٍ فى قول ابن إسحاق، وقال البخارى: كانُوا عشرة، وأَمَّر عليهم مَرْثَدَ بنَ أبى مَرْثَدٍ الغَنَوِى، وفيهم خُبيب بنُ عدى، فذهبوا معَهم، فلما كانُوا بالرَّجيع، وهو ماءٌ لهُذَيْلٍ بناحيةِ الحِجاز غدرُوا بهم، واستصرخوا عليهم هُذيلًا، فجاؤوا حتَّى أحاطُوا بهم، فقتلُوا عامَّتَهُم، واستأسرُوا خُبَيْبَ بْنَ عدِىٍّ، وزَيْدَ ابن الدّثِنَةِ، فذهبُوا بهما، وباعُوهما بمكة، وكانا قتلا مِن رؤوسهم يَوْمَ بدر.

فأما خُبيب، فمكث عندهم مسجونًا، ثم أجمعُوا قتله، فخرجُوا به مِن الحَرَمِ إلى التنعيم، فلما أجمعُوا على صَلبه، قال: دَعُونى حَتَّى أَرْكَعَ رَكْعَتَيْنِ، فتركُوهُ فصلاهما، فلمَّا سَلَّمَ قال: والله، لَوْلاَ أنْ تَقُولُوا إنَّ مَا بى جَزَعٌ، لَزِدْتُ، ثُمَّ قالَ: «اللَّهُمَّ أَحْصِهِمْ عَدَدًا، واقْتُلْهُمْ بِدَدًا، ولا تُبْقِ مِنْهُم أحدًا» ثم قال:

لَقَدْ أَجْمَعَ الأَحْزَابُ حَوْلى،وَأَلَّبُوا ... قَبَائِلَهُم واسْتَجْمَعُوا كُلَّ مجمَعِ
وكلُّهُمُ مبدى العداوةِ جاهدٌ ... عَلَىَّ لأنى فى وِثاقٍ بمَضْيَعِ
وقَدْ قَرَّبُوا أَبْنَاءَهُم ونساءَهُم ... وقُرِّبْتُ مِنْ جِذْعٍ طويلٍ مُمَنَّعِ
إلَى اللَّهِ أَشْكُوا غُرْبَتِى بَعْدَ كُرْبَتِى ... وَمَا أَرْصَدَ الأَحْزَابُ لى عِنْدَ مَصْرَعِى
فَذَا العَرْشِ صَبِّرْنى عَلَى ما يُرادُ بى ... فَقَدْ بَضَعُوا لحمى وَقَد يَاسَ مَطْمَعِى
وَقَدْ خَيَّرُونى الكُفْرَ، والمَوْتُ دُونَهُ ... فَقَدْ ذَرَفَتْ عَيْنَاىَ مِنْ غَيْرِمَجْزَعِ
وَمَا بِى حِذارُ المَوْت إنِّى لَمَيِّتٌ ... وإنَّ إلى ربِّى إيَابِى ومَرْجِعِى
وَلَسْتُ أُبالِى حِينَ أُقْتَلُ مُسْلِما ... عَلَى أىِّ شِقٍّ كان فى اللَّهِ مَضْجَعِى
وَذلِكَ فِى ذاتِ الإلهِ وإنْ يَشأْ ... يُبارِكْ عَلَى أَوْصَالِ شِلْوٍ مُمَزَّعِ
فَلَسْتُ بمبدٍ للعدوِّ تَخَشُّعًا ... ولا جَزَعًا، إنى إلى الله مَرجعى

فقال له أبو سفيان: أيسرُّك أنَّ محمدًا عندنا تُضْرَبُ عنقُه وإنك فى أهلك، فقال: لا والله، ما يسرُّنى أنى فى أهلى، وأنَّ محمدًا فى مكانِهِ الَّذِى هُوَ فيه تُصيبُهُ شَوْكَةٌ تُؤذِيه[1].

وفى «الصحيح»: أن خبيبًا أَوَّلُ مَنْ سنَّ الركعتين عِند القتل.ثم صَلبوا خُبَيْبًا، ووَكَلوا به مَن يَحْرُسُ جُثَّته، فجاء عمرو بنُ أُمية الضَّمْرِى، فاحتمله بجذعه ليلًا، فذهب به، فدفنه.

ورؤى خُبيبٌ وهو أسيرٌ يأكل قِطْفًا مِن العِنَبِ، وما بمكة ثَمَرَةٌ، وأما زيدُ بن الدَّثِنَةِ، فابتاعه صفوانُ بنُ أُمية، فقتله بأبيه[2].

وأما موسى بن عقبة، فذكر سبب هذه الوقعة، أن رسولَ الله ﷺ بعث هؤلاء الرهط يتحسَّسُون له أخبار قُريش، فاعترضهم بنو لَحيان.

عباد الله...

وفى هذا الشهر بعينه، وهو صفر من السنة الرابعة، كانت وقعة بِئر مَعُونة، وملخَّصُها أن أبا براء عامِرَ بنَ مالك المدعو ملاعبَ الأسِنَّة، قَدِمَ على رسول الله ﷺ المدينةَ، فدعاه إلى الإسلام، فلم يُسلم، ولم يبعد، فقال: يا رسولَ الله؛ لو بعثتَ أصحابَك إلى أهلِ نَجْدٍ يدعونَهُم إلى دِينك، لرجوتُ أن يُجيبُوهم. فقال: «إنى أخَافُ عَلَيْهِمْ أَهْلَ نَجْدٍ»، فقال أبو براء: أنا جارٌ لهم، فبعث معه أربعينَ رجلًا فى قول ابن إسحاق. وفى الصحيح: «أنَّهم كانُوا سبعينَ»[3]، والذى فى الصحيح: هو الصحيح.

وأمَّر عليهم المنذر بن عمروأحد بنى ساعِدة الملقب بالمُعْنِقِ ليموتوكانوا من خِيارِ المسلمينَ، وفُضلائهم، وساداتِهم، وقرائِهم، فسارُوا حتى نزلوا بئر مَعُونة، وهى بين أرض بنى عامر، وحرَّة بنى سُليم، فنزلوا هناك، ثم بعثوا حَرامَ بنَ

(١) أخرجه البخاري (٤٠٨٦) بنحوه.
(٢) أخرجه البخاري (٤٠٨٦).
(٣) أخرجه البخاري (٤٠٩٠).

ملحان أخا أُمِّ سليم بكتابِ رسول الله ﷺ إلى عدوِّ الله عامِرِ بن الطفيل، فلم ينظُرْ فيه، وأمرَ رجلًا، فطعنه بالحربةِ من خلفه، فلما أنفذها فيه، ورأى الدَّمَ، قال: «فُزْتُ وَرَبِّ الكَعْبَةِ». ثم استَنفَرَ عدوُّ الله لِفوره بنى عامر إلى قتال الباقين، فلم يُجيبُوهُ لأجل جِوار أبى بَراء، فاستنفر بنى سليم، فأجابته عُصَيَّةُ وَرِعْلٌ وذَكْوانُ. فجاؤوا حتى أحاطُوا بأصحابِ رسول الله ﷺ، فقاتلُوا حتى قُتِلُوا عن آخرهم إلا كعبَ بنَ زيدِ بن النجار، فإنه أرتُثَّ [١] بين القتلى، فعاش حتَّى قُتِل يوم الخندق، وكان عمرو بن أُمية الضمرى، والمنذرُ بن عقبة بن عامر فى سَرْح المسلمينَ، فرأيا الطيرَ تحومُ على موضع الوقعة، فنزل المنذر بن محمد، فقاتل المشركين حتى قُتِلَ مع أصحابه، وأُسِرَ عَمرُو بن أُمية الضَّمْرِى، فلما أخبر أنه من مُضَر، جَزَّ عامِرٌ ناصيتَه، وأعتقه عن رقبة كانت على أُمِّه، ورجع عمرُو بن أمية. فلما كان بالقَرْقَرَةِ مِن صدرِ قناة نزل فى ظِلِّ شجرة، وجاء رجلان من بنى كِلاب. فنزلا معه، فلما ناما، فتكَ بهما عمرُو، وهُو يرى أنه قد أصاب ثأرًا من أصحابه. وإذا معهما عهدٌ مِنْ رسولِ الله ﷺ لم يشعُرْ به، فلما قَدِمَ، أخبرَ رسولَ الله ﷺ بما فعلَ، فقال: «لَقَدْ قَتَلْتَ قَتِيلينِ لأَدِيَنَّهُمَا» [٢].

وأخرج البخاري عن أنس قَالَ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ خَالَهُ - أَخٌ لِأُمِّ سُلَيْمٍ - فِي سَبْعِينَ رَاكِبًا وَكَانَ رَئِيسَ الْمُشْرِكِينَ عَامِرُ بْنُ الطُّفَيْلِ، خَيَّرَ بَيْنَ ثَلَاثِ خِصَالٍ فَقَالَ: يَكُونُ لَكَ أَهْلُ السَّهْلِ وَلِي أَهْلُ الْمَدَرِ، أَوْ أَكُونُ خَلِيفَتَكَ أَوْ أَغْزُوكَ بِأَهْلِ غَطَفَانَ بِأَلْفٍ وَأَلْفٍ، فَطُعِنَ عَامِرٌ فِي بَيْتِ أُمِّ فُلَانٍ فَقَالَ: غُدَّةٌ كَغُدَّةِ الْبَكْرِ فِي بَيْتِ امْرَأَةٍ مِنْ آلِ فُلَانٍ، ائْتُونِي بِفَرَسِي فَمَاتَ عَلَى ظَهْرِ فَرَسِهِ فَانْطَلَقَ حَرَامٌ - أَخُو أُمِّ سُلَيْمٍ - وَهُوَ رَجُلٌ أَعْرَجُ وَرَجُلٌ مِنْ بَنِي فُلَانٍ. قَالَ: كُونَا قَرِيبًا حَتَّى آتِيَهُمْ فَإِنْ آمَنُونِي كُنْتُمْ وَإِنْ قَتَلُونِي أَتَيْتُمْ أَصْحَابَكُمْ، فَقَالَ: أَتُؤْمِنُونِي أُبَلِّغْ رِسَالَةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ؟ فَجَعَلَ يُحَدِّثُهُمْ وَأَوْمَئُوا إِلَى رَجُلٍ فَأَتَاهُ مِنْ خَلْفِهِ فَطَعَنَهُ، قَالَ: اللَّهُ أَكْبَرُ فُزْتُ وَرَبِّ الْكَعْبَةِ.

---

(١) ارتُثَّ: حمل من المعركة.

(٢) أخرجه ابن إسحاق كما في «تاريخ الإسلام» (١/ ٣٤٣).

لحِقَ الرَّجُلَ فَقُتِلُوا كُلُّهُمْ غَيْرَ الأَعْرَجِ كَانَ فِي رَأْسِ جَبَلٍ...» الحديث(١).

فكان هذا سببَ غزوة بنى النضير، فإنه خرج إليهم لِيعينوه فى ديتهما لما بينه وبينهم من الحلف، فقالوا: نعم، وجلَس هو وأبو بكر وعمر وعلى، وطائفة من أصحابه، فاجتمع اليهود وتشاوروا، وقالوا: مَن رجلٌ يُلقِى على محمَّدٍ هذه الرَّحى فيقتله؟ فانبعث أشقاها عمرو بن جِحاش لعنه الله، ونزل جبريلُ مِن عند رب العالمين على رسولِهِ يُعلمه بما همُّوا به، فنهض رسولُ الله ﷺ مِن وقته راجعًا إلى المدينة، ثم تجهَّز، وخرج بنفسه لِحربهم، فحاصرهم سِتَّ ليال، واستعمل على المدينة ابنَ أُمِّ مكتوم، وذلك فى ربيع الأول(٢).

قال ابن حزم: وحينئذ حُرِّمَتِ الخمرُ، ونزلوا على أن لهم ما حملت إبلُهم غيرَ السلاح، ويرحلُون مِن ديارهم، فترحَّل أكابِرُهم كحُيَىِّ بن أَخْطَبَ، وسلامِ بنِ أبى الحُقَيْق إلى خيبر، وذهبت طائفة منهم إلى الشام، وأسلم منهم رجلانِ فقط، يامين بن عمرو، وأبو سعد بن وهب، فأحرزا أموالهما، وقسم رسولُ الله ﷺ أموالَ بنى النضير بين المهاجرينَ الأوَّلين خاصة، لأنها كانت مما لم يُوجِفِ المسلمون عليه بخيلٍ ولا رِكاب(٣)، إلا أنه أعطى أبا دُجانة، وسهَل بنَ حُنَيْفٍ الأنصاريين لِفقرهما(٤).

وفى هذه الغزوة، نزلت سورةُ الحشر.

وقنت رسول الله ﷺ شَهْرًا يَدْعُو عَلَى الَّذِينَ قَتَلُوا القُرَّاءَ أَصْحَابَ بِئْرِ مَعُونَةَ بَعْدَ الرُّكُوعِ، ثم تَركَهُ، لَمَّا جَاؤوا تَائِبِينَ مُسْلِمِينَ». ا.هـ(٥).

---

(١) رواه البخاري (٤٠٩٠).

(٢) ذكره ابن إسحاق بدون إسناد.

(٣) انظر «صحيح البخاري» (٢٩٠٤).

(٤) أخرجه أبو داود (٣٠٠٤) دون تسمية الرجلين، وصححه الألباني، وأخرجه ابن إسحاق بهذا اللفظ، وإسناده ضعيف.

(٥) «زاد المعاد» (٣/ ٢٢٢ - ٢٢٦)، باختصار.

عباد الله...

كانت هَذِهِ أحداث ومأساة وقعة «بئر معونة»، وفيها كثير من العظات والدروس والعبر، نلتقي معها بعد قليل - إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الدروس والعظات والعبر المستفادة من وقعة «بئر معونة»:

١- شدة حُبّ الصحابة للنبيّ ﷺ:

يدلّ عَلَى ذلك: الحوار الذي دار بين أبي سفيان وبين خبيب، إذ قال أبو سفيان لخبيب: أيسرُّك أن محمدًا عندنا تُضربُ عُنقهُ، وإنك في أهلك؟ فقال: «لا والله ما يسرّني أني في أهلي وأن محمدًا في مكانه الذي هو فيه تُصيبه شوكةٌ تؤذيه». ومعلوم أن المحبَّة ثمرة المعرفة.

٢- لابد للدعوة من تضحيات:

فرغم عِظَمِ المصاب، وشدّة الفاجعة، إلا أن ذلك لم يفتّ في عَضُد المسلمين. بل واصلوا الزحرف عَلَى الشرك، وقويت عزائمهم في تقويض بنيانه.

٣- عدم معرفة النبيّ ﷺ للغيّب:

وهذا ظاهر في القصة، قال الله تَعَالى: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّـهُ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ الغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٨].

٤- يقين الصحابة:

يدل عَلَى ذَلِكَ: قول «حرام بن ملحان» حين طُعن: «فُزْتُ وربِّ الكعبة».

عباد الله...

هَذِهِ بعض الدروس والعظات والعِبر المستفادة من وقعة «بئر معونة».

وإلى اللقاء في الخطبة القادمة مع حدث آخر من أحداث السِّيرة العطرة، إن شاء الله.



الخطبة المائة:

غزوة المُرَيْسيع

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن السِّيرة العَطِرة، ولقاؤنا اليوم - إن شاء الله تَعَالى - مع «غزوة المريسيع»[١]، وما فيها من أحداث وعظات.

عباد الله...

كانت «غزوة المريسيع» في شعبان سنة خمس[٢]، وسببها:

---

(١) المريسيع: ماء لبني خُزاعة بينه وبين الفرع مسيرة يوم.

(٢) وقال ابن إسحاق: سنة ستّ، وقال غيره: سنة أربع.

«أنه لما بلغه ﷺ أن الحارث ابن أبى ضِرار سيِّدَ بنى المُصْطَلِق سار فى قومه ومن قَدَرَ عليه مِن العرب، يُريدونَ حربَ رسول الله ﷺ، فبعثَ بُرَيْدَةَ بنَ الحُصيب الأسلمى يَعْلَمُ له ذلك فأتاهم، ولقى الحارث بن أبى ضِرار، وكلَّمه، ورَجَعَ إلى رسولِ الله ﷺ، فأخبره خبرَهم، فندب رسولُ الله ﷺ الناسَ فأسرعوا فى الخروج، وخرج معهم جماعةٌ مِن المنافقين، لم يخرُجوا فى غَزاةٍ قبلَهَا، واستعمل على المدينة زيدَ بنَ حارِثَة، وقيل: أبا ذر، وقيل: نُمَيْلَةَ بن عبد الله اللَّيثى، وخرج يومَ الإثنين لليلتين خَلتَا من شعبان، وبلغ الحارثَ بن أبى ضرار ومَنْ معه مسيرُ رسولِ الله ﷺ، وقَتْلُه عينَه الذى كان وجَّهه لِيأتِيَه بخبرِهِ وخبرِ المسلمين، فخافُوا خوفًا شديدًا، وتفرَّق عنهم مَنْ كان معهم مِن العرب، وانتهى رسولُ الله ﷺ إلى المُرَيْسِيعِ، وهو مكانُ الماءِ، فضرب عليه قُبَّتَه، ومعه عائشةُ وأمُّ سَلَمة، فتهيؤوا لِلقتال، وصفَّ رسولُ الله ﷺ أصحابَه، ورايةُ المهاجِرِينَ مع أبى بكر الصِّدِّيق، ورايةُ الأنصارِ مع سعد بن عُبادة، فترامَوْا بالنَّبْلِ ساعةً، ثم أمَر رسولُ الله ﷺ أصحابَه، فحملوا حملةَ رجلٍ واحد، فكانت النُّصرةُ، وانهزم المشركون، وقُتِلَ مَنْ قُتِلَ منهم، وسَبَى رسولُ الله ﷺ النساءَ والذَّرارى، والنَّعَمَ والشَّاءَ، ولم يُقْتَلْ مِن المسلمين إلا رجلٌ واحد[١].

هكذا قال عبدُ المؤمن بن خلف فى «سيرته» وغيرُه، وهو وهم، فإنه لم يكن بينهم قِتال، وإنما أغارَ عليهم على الماء، فَسَبى ذَرَارِيَهم، وأموالَهم، كما فى «الصحيح»: أغارَ رسولُ الله ﷺ على بَنى المُصْطَلِقِ، وهُمْ غَارُّونَ.....»، وذكر الحديث[٢].

وكان مِن جُملة السبى جُوَيْرِيَةُ بنتُ الحارث سَيِّدِ القوم، وقعت فى سَهْم ثابتِ بنِ قيس، فكاتبها، فأدَّى عنها رسُولُ الله ﷺ، وتزوَّجها، فأعتَقَ المسلمون بسبب هذا التزويج مائة أهْلِ بيتٍ من بنى المُصْطَلِق قد أسلموا، وقالُوا: أصهارُ

(١) أخرج خبر هذه الغزوة ابن إسحاق مرسلاً.
(٢) أخرجه البخاري (٢٥٤١)، ومسلم (١٧٣٠)، وغيرهما.

رَسُولِ الله ﷺ[(١)].

قال ابنُ سعد: وفى هذه الغزوةِ سقط عِقْدٌ لعائِشَة، فاحتبسُوا على ضَوْئه فنزلت آيةُ التيمم[(٢)].

عباد الله...

وفي هَذِهِ الغزوة كانت قصة الإفك، بسبب فَقْد العِقْد والتماسه، وإليك القصَّة بتمامها:

قَالَ ابن القيم - رَحِمَهُ الله -: «إن عائشة رضى اللَّهُ عنها كانت قد خَرَجَ بها رسولُ الله ﷺ معه فى هذه الغَزوةِ بقُرعة أصابَتْهَا، وكانَت تِلكَ عادته مع نسائه، فلما رجعُوا مِن الغزوة، نزلُوا فى بعض المنازل، فخرجَتْ عائشةُ لحاجتها، ثم رجعت، ففقَدَتْ عِقْدًا لأُختِها كانت أعارتها إياه، فرجَعَتْ تلتمسُه فى الموضع الذى فَقَدَتْهُ فيه، فجاء النَّفَرُ الَّذِينَ كانُوا يَرْحَلُونَ هَوْدَجَهَا، فظنُّوها فيه، فحملوا الهودجَ[(٣)]، ولا يُنكرون خِفته، لأنها رضىَ الله عنها كانت فَتِيَّةَ السِّن، لم يغشها اللَّحْمُ الذى كان يُثْقِلُهَا، وأيضًا، فإن النفرَ لما تساعدوا على حمل الهودج، لم يُنكِروا خِفَّته، ولو كان الذى حمله واحدًا أو اثنين، لم يَخْفَ عليهما الحالُ، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابتِ العِقد، فإذا ليس بها داع ولا مُجيب، فقعدت فى المنزل، وظنَّت أنهم سيفقدونها، فيرجِعُون فى طلبها، واللَّهُ غالِبٌ على أمرِهِ، يُدبِّرُ الأمر فَوقَ عرشه كما يشاءُ، فغلبتها عيناهَا، فنامَتْ، فلم تستيقِظْ إلا بِقَوْل صَفْوَانَ بن المُعَطَّل[(٤)]: إنَّا لله وإنَّا إليه رَاجِعُونَ، زوجةُ رسول الله ﷺ.

وكان صفوان قد عرَّسَ[(٥)] فى أُخريات الجيش، لأنه كان كثيرَ النوم، كما جاء

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٩٣١).

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢٣٢، ٢٣٣).

(٣) الهودج: مركب النساء على الدابة.

(٤) صفوان بن المعطل، صحابيّ جليل، سكن المدينة، وشهد الخندق والمشاهد، غزا الروم في خلافة معاوية ومات بالغزو. «الإصابة» (٢/ ١٩١).

(٥) عرّس: نزل للاستراحة ليلًا.

عنه فى «صحيح أبى حاتم» وفى «السنن»: فلما رآها عَرفها، وكانَ يَراها قبلَ نزولِ الحِجَاب، فاسترجع، وأناخَ راحِلَته، فقرَّبها إليهَا، فركِبَتْهَا، وما كلَّمَها كلمةً واحدة، ولم تَسْمَعْ منه إلا استرجاعَه، ثم سار بها يَقُودُهَا حتَّى قَدِمَ بها، وقد نزل الجيشُ فى نحرِ الظهيرة، فلما رأى ذلك الناسُ، تكلَّم كُلٌ منهم بِشاكِلته، وما يَليقُ به، ووجد الخبيثُ عدوُّ الله ابنُ أُبىّ متنفَّسًا، فتنفَّس مِن كَرْبِ النفاق والحسدِ الذى بين ضُلوعه، فجعل يَستحكى الإفكَ، ويَستوشِيه، ويُشِيعه، ويُذِيعه، ويَجمعُه، ويُفرِّقه، وكان أصحابُه يتقرَّبُونَ به إليه.

فلما قَدِمُوا المدينةَ، أفاضَ أهلُ الإفكِ فى الحديثِ، ورسولُ الله ﷺ ساكِتٌ لا يتكلَّم ثم استشار أصحابَه فى فراقها، فأشار عليه علىٌ رضى الله عنه أن يُفارِقَهَا، ويأخُذَ غيرها تلويحًا لا تصريحًا، وأشار عليه أُسامةُ وغيرُه بإمساكِها، وألا يلتفِتَ إلى كلام الأعداء، فعلىٌّ لما رأى أن ما قِيل مشكوكٌ فيه، أشار بترك الشَّكِّ والرِّيبة إلى اليقين ليتخلَّص رسولُ الله ﷺ من الهمِّ والغمِّ الذى لحقه مِن كلام الناس، فأشار بحسم الداء، وأُسامة لما عَلِمَ حُبَّ رسولِ الله ﷺ لها ولأبيها، وعَلِمَ مِن عِفتها وبراءتها، وحَصانتها ودِيانتها ما هى فوقَ ذلك، وأعظمُ منه، وعرفَ مِن كرامةِ رَسُولِ الله ﷺ على ربِّه ومنزلته عنده، ودفاعِه عنه، أنه لا يجعلُ ربةَ بيته وحبيبته من النساء، وبنتَ صِدِّيقه بالمنزلة التى أنزلها بِهِ أربابُ الإفك، وأن رسولَ الله ﷺ أكرمُ على ربه، وأعزُّ عليه من أن يجعلَ تحته امرأة بَغيًّا، وعلم أنَّ الصِّدِّيقةَ حبيبةَ رسول الله ﷺ أكرمُ على ربها مِن أن يَبْتَلِيهَا بالفَاحِشَةِ، وهىَ تحتَ رسوله، ومَنْ قَوِيَتْ معرفته لله ومعرفته لرسوله وقدره عندَ الله فى قلبه، قال كما قال أبو أيوب وغيره مِن سادات الصحابة، لما سمعوا ذلك: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦].

وتأمل ما فى تسبيحهم لله، وتنزيههم له فى هذا المقام مِن المعرفةِ به، وتنزيهه عما لا يليقُ به، أن يجعلَ لِرسوله وخليلِه وأكرم الخلق عليه امرأةً خبيثةً بغيًا، فمن ظنَّ به سُبحانه هذا الظنَّ، فقد ظَنَّ به ظنَّ السَّوْءِ، وعرف أهلُ المعرفة بالله ورسوله أن المرأة الخبيثةَ لا تليقُ إلا بمثلها، كما قال تعالى: ﴿الخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ﴾ [النور: ٢٦]،

فقطعوا قطعًا لا يشُكُّونَ فيهِ أن هذا بُهتان عظيم، وفِريةٌ ظاهرة.

فإن قيل: فما بالُ رسولِ الله ﷺ توقَّفَ فى أمرها، وسألَ عنها، وبحَثَ، واستشارَ، وهو أعرفُ بالله، وبمنزلتِهِ عِندهُ، وبما يليقُ به، وهَلاَّ قال: ﴿سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: ١٦]، كما قاله فضلاءُ الصحابة؟

فالجوابُ: أن هذا مِن تمامِ الحِكَمِ البَاهِرةِ التى جعل اللَّهُ هذهِ القِصةَ سببًا لها، وامتحانًا وابتلاءً لرسولِهِ ﷺ، ولجميع الأمة إلى يوم القيامة، ليرفع بهذه القصة أقوامًا، ويضعَ بها آخرينَ، ويزيدَ اللَّهُ الذين اهتَدَوْا هُدَىً وإيمانًا، ولا يزيدُ الظالمين إلا خَسارًا، واقتضى تمامُ الامتحان والابتلاء أن حُبِسَ عن رسول الله ﷺ الوحيُ شهرًا فى شأنها، لا يُوحى إليه فى ذلك شيء لتتم حِكمتُهُ التى قدَّرها وقضاها، وتظهرَ على أكملِ الوجوه، ويزدادَ المؤمنونَ الصادِقُونَ إيمانًا وثباتًا على العدل والصدق، وحُسْنِ الظنِّ بالله ورسولِهِ، وأهلِ بيتِهِ، والصِّدِّقِينَ مِن عباده، ويزداد المنافقون إفكًا ونفاقًا، ويُظْهِرَ لِرسوله وللمؤمنين سرائرهم، ولتتم العبوديةُ المرادة مِن الصِّدِّيقةِ وأبويها، وتتمَ نعمةُ الله عليهم، ولِتشتد الفاقةُ والرغبةُ مِنها ومِن أبويها، والافتقارُ إلى الله والذلُّ له، وحُسن الظن به، والرجاء له، ولينقطع رجاؤها من المخلوقين، وتيأسَ مِن حصول النُّصرةِ والفرج على يد أحد من الخلق، ولهذا وفَّت هذا المقَام حقَّه، لما قال لها أبواها: قُومى إليه، وقد أنزلَ اللَّهُ عليه براءتَها. فقالت: والله لا أقُومُ إلَيْهِ، ولا أَحْمَدُ إلاَّ اللَّهَ، هُو الذى أنْزَلَ بَرَاءَتِى.

وأيضًا فكان مِن حكمةِ حَبْس الوحى شهرًا، أن القضية مُحِّصَتْ وتمحَّضتْ، واستشرفَتْ قلوبُ المؤمنين أعظَم استشرافٍ إلى ما يُوحيه اللَّهُ إلى رسوله فيها، وتطلَّعت إلى ذلك غايةَ التطلُّع، فوافى الوحىُ أحوجَ ما كان إليه رسولُ الله ﷺ وأهلُ بيته، والصِّدِّيقُ وأهلُه، وأصحابُه والمؤمنون، فورد عليهم ورودَ الغيثِ على الأرضِ أحوجَ ما كانت إليه، فوقع منهم أعظمَ موقع وألطَفَه، وسُرُّوا به أتمَّ السُّرورِ، وحصل لهم به غايةُ الهناء، فلو أطلع اللَّهُ رسولَه على حقيقة الحالِ مِن أول وَهلة، وأنزل الوحىَ على الفور بذلك، لفاتت هذه الحِكمُ وأضعافُها بل أضعافُ أضعافها.

وأيضًا فإن الله سُبحانه أحبَّ أن يُظْهِرَ منزلَةَ رسوله وأهلِ بيته عنده، وكرامتهم عليه، وأن يُخرِجَ رسولَه عن هذه القضية، ويتولَّى هو بنفسه الدفاعَ والمنافحَة عنه، والردَّ على أعدائه، وذمهم وعيبهم بأمر لا يكون له فيه عمل، ولا يُنسب إليه، بل يكونُ هو وحدَه المتولىَ لذلك، الثائرَ لرسوله وأهل بيته.

وأيضًا فإن رسولَ الله ﷺ كان هو المقصودَ بالأذى، والتى رُمِيَتْ زوجتُه، فلم يكن يليقُ به أن يشهد ببراءتها مع علمه، أو ظنه الظنَّ المقاربَ للعلم ببراءتها، ولم يظنَّ بها سُوءًا قطُّ، وحاشاه، وحاشاها، ولذلك لما استعذر مِن أهلِ الإفك، قال: «**مَنْ يَعْذِرُنى فى رَجُلٍ بَلَغَنِى أذَاهُ فى أَهْلى، والله مَا عَلِمْتُ عَلى أَهْلى إلاَّ خَيْرًا، ولَقَدْ ذَكَرُوا رَجُلًا ما عَلِمْتُ عَلَيْهِ إلاَّ خَيْرًا، ومَا كَانَ يَدْخُلُ عَلَى أَهْلى إلاَّ مَعى**»[(١)]، فكان عنده مِنَ القرائن التى تشهدُ ببراءة الصِّدِّيقة أكثر مما عند المؤمنين، ولكن لِكمال صبره وثباته، ورِفقه، وحُسنِ ظنه بربه، وثِقته به، وفَّى مقامَ الصبر والثبات، وحسن الظن بالله حقَّه، حتى جاءه الوحىُ بما أقرَّ عينَه، وسرَّ قلبَه، وعظَّمَ قدرَه، وظهر لأُمته احتفالُ ربه به، واعتناؤه بشأنه.

ولما جاء الوحىُ ببراءتها، أمرَ رسولُ الله ﷺ بمن صرَّح بالإفك، فَحُدُّوا ثمانين ثمانين، ولم يُحد الخبيثُ عبد الله بن أُبَىّ، مع أنه رأسُ أهلِ الإفك، فقيل: لأن الحدودَ تخفيفٌ عن أهلها وكفَّارة، والخبيثُ ليس أهلًا لذلك، وقد وَعَدَهُ الله بالعذابِ العظيمِ فى الآخرةِ، فيكفيهِ ذلك عن الحد، وقيل: بل كان يستوشى الحديثَ ويجمعُه ويحكيه، ويُخرجه فى قوالب مَن لا يُنسب إليه، وقيل: الحدُّ لا يثبتُ إلا بالإقرار، أو ببيِّنة، وهو لم يُقر بالقذف، ولا شهد به عليه أحد، فإنه إنما كان يذكُره بين أصحابه، ولم يشهدُوا عليه، ولم يكن يذكُره بين المؤمنين.

وقيل: حدُّ القذف حقُّ الآدمى، لا يُستوفى إلا بمطالبته، وإن قيل: إنه حقٌّ لله، فلا بُدَّ مِن مطالبة المقذوف، وعائشةُ لم تُطالب به ابنَ أُبَىَّ.

وقيل: بل تَرَك حدَّه لمصلحة هى أعظمُ مِن إقامته، كما ترك قتله مع ظهورِ

---

(١) صحيح: أخرجه البخاري (٤١٤١)، وغيره.

نفاقه، وتكلمِه بما يُوجب قتله مرارًا، وهى تأليفُ قومه، وعدمُ تنفيرهم عن الإسلام، فإنه كان مطاعًا فيهم، رئيسًا عليهم، فلم تُؤمن إثارةُ الفتنة فى حدِّه. ولعله تُرِكَ لهذِهِ الوجوهِ كُلِّهَا.

فجلد مِسْطَحَ بنَ أثاثة[1]، وحسانَ بن ثابت، وحَمْنَةَ بنتَ جَحْشٍ[2]، وهؤلاء مِن المؤمنين الصَّادقين تطهيرًا لهم وتكفيرًا، وترك عبد الله بن أُبَيٍّ إذًا، فليس هو من أهل ذاك.

عباد الله...

ومَن تأمَّل قولَ الصِّدِّيقةِ وقد نزلت براءتُها، فقال لها أبواها: قُومى إلى رسول الله ﷺ، فقالت: «والله لا أقومُ إلَيْهِ، ولا أَحْمَدُ إلا اللهَ»، علم معرفَتها، وقوةَ إيمانها. وتوليتها النعمة لربِّها، وإفرادَه بالحمد فى ذلك المقَام، وتجريدَها التوحيد، وقوة جأشها، وإدلاهَا ببراءة ساحتها، وأنها لم تفعل ما يُوجب قيامَها فى مقام الراغب فى الصُّلح، الطالب له، وثقتها بمحبة رسولِ الله ﷺ لها قالت ما قالت، إدلالًا للحبيب على حبيبه، ولا سيما فى مثل هذا المقام الذى هو أحسنُ مقامات الإدلال. فوضعتهُ موضِعَه، ولله ما كان أحبَّها إليه حين قالت: «لا أَحْمَدُ إلا الله، فإنه هو الذى أنزل براءتى»، ولله ذلك الثباتُ والرزانةُ منها، وهو أحبُّ شيء إليها، وقد صبرَ لها عنه، وقد تنكَّر قلبُ حبيبها لها شهرًا، ثم صادفَتِ الرِّضى منه والإقبال. فلم تُبادِرْ إلى القيام إليه، والسرور برضاه وقربه مع شدة محبتها له، وهذا غاية الثبات والقوة[3].

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) مات في خلافة عثمان رضي الله عنه، وقيل: عاش إلى خلافة عليّ رضي الله عنه، وشهد صفين رضي الله عنه.

(٢) أخت زينب بنت جحش رضي الله عنها.

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٢٣٤ - ٢٣٩)، والقصة في الصحيحين وغيرهما.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وفى مرجعهم مِن هذه الغزوة، قال رأسُ المنافقين ابنُ أُبَىّ: لئن رجعنا إلى المدينةِ، ليُخرِجَنَّ الأعزُّ منها الأذَلَّ، فبلَّغها زيدُ بن أرقم رسولَ الله ﷺ، وجاء ابنُ أُبَىّ يعتذِرُ ويحلِفُ ما قال: فَسَكَتَ عنهُ رَسُول الله ﷺ، فأنزل اللهُ تصديقَ زَيْدٍ فى سُورة المنافقين، فأخذ النبىُّ ﷺ بأُذنه، فقال: «أَبْشِرْ فَقَدْ صَدَقَكَ اللَّـهُ»، ثمَّ قَالَ: «هذَا الَّذِى وفى لله بأذنه»، فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يا رَسُولَ الله؛ مُرْ عبَّادَ بْنَ بشر، فَلْيَضْرِبْ عُنُقَه، فقال: «فَكَيْفَ إذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَه»[١].

قَالَ الحافظ ابن حَجر - رَحِمَهُ الله -: «وفي الحديث من فوائد:

- تَرك مُؤَاخَذَة كُبَرَاء القَوم باهَفَوَاتِ لِئَلَّا يَنفِر أَتبَاعهم وَالِاقتِصَار عَلَى مُعَاتَبَاتهم وَقَبُول أَعذَارهم وَتَصدِيق أَيمَانهم وَإِن كَانَت القَرَائِن تُرشِد إِلَى خِلَاف ذَلِكَ، لِمَا فِي ذَلِكَ مِن التَّأنِيس وَالتَّأْلِيف.
- وَفِيهِ جَوَاز تَبلِيغ مَا لَا يَجُوز لِلمَقُولِ فِيهِ، وَلَا يُعَدّ نَمِيمَة مَذمُومَة إِلَّا إِن قَصَدَ بِذَلِكَ الإِفسَاد المُطلَق، وَأَمَّا إِذَا كَانَت فِيهِ مَصلَحَة تُرَجَّح عَلَى المَفسَدَة فَلَا».ا.هـ[٢].

❁❁❁❁❁

(١) أخرجه البخاري (٤٩٠٠).
(٢) «فتح البخاري» (٨/ ٥١٤).

الخطبة الحادية بعد المائة:

غزوة الخندق

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].
﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].
اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيِّ ﷺ.

ولقاؤنا اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - مع «غزوة الخندق» وما فيها من دروس وعبر.

عباد الله...

كانت غزوة الخندق في سنة خمس من الهجرة في شوَّال عَلَى أصحِّ القولين[1].

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٣).

وكان سبب غزوة الخندق أن اليهودَ لما رَأُوا انتصارَ المشركين على المسلمين يَوْمَ أُحُد، وعلِمُوا بميعادِ أبى سفيان لِغزو المسلمين، فخرج لذلك، ثم رجع للِعام لُمْقْبِلِ، خرج أشرافُهم، كسلاَّم بن أبى الحُقيق، وسلاَّم بن مِشْكَم، وكِنَانة بن نَرَّبيع وغيرِهم إلى قريش بمكة يُحرِّضُونهم عَلَى غَزوِ رَسُولِ الله ﷺ، ويؤلِّبُونهم عليه، ووعدوهم مِن أنفسهم بالنَّصرِ لهم، فأجابَتْهُم قريشٌ، ثم خرجُوا إلى غَطَفَان فدعَوْهُم، فاستجابُوا لهم، ثمَّ طافُوا فى قبائل العربِ، يدعونَهم إلى ذلك، فاستجابَ لهم مَن استجاب، فخرجت قُريشٌ وقائدهم أبو سفيان فى أربعةِ آلافٍ، ووافَتْهُم بنو سليم بِمَرِّ الظَّهْرَان، وخرجت بنُو أسد، وفَزَارَة، وأشجع، وبنو مُرَّةَ، وجاءت غَطَفَانُ وقائدُهم عُيينةُ بنُ حِصْنٍ. وكان مَن وافى الخندقَ مِن الكفار عشرة آلاف.

فلما سَمِعَ رسولُ الله ﷺ بمسيرهم إليه، استشار الصحابةَ، فأشار عليه سلمانُ الفارسى بحفر خندقٍ يحُول بين العدوِّ وبينَ المدينة، فأمر به رسولُ الله ﷺ، فبادر إليه المسلمون، وعَمِلَ بنفسه فيه، وبادروا هجومَ الكُفّارِ عليهم، وكان فى حَفرِه من آياتِ نُبوته، وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبرُ به، وكان حفرُ الخندق أمامَ سَلْعٍ، وسَلْعٌ: جبل خلفَ ظهورِ المسلمين، والخندقُ بينهم وبين الكفار.

وخرج رسولُ الله ﷺ فى ثلاثة آلاف من المسلمين، فتحصَّن بالجبل من خلفه، وبالخندق أمامهم.

وأمر النبيُّ ﷺ بالنِّساءِ والذرارى، فَجُعِلُوا فى آطامِ المدينةِ، واستخلف عليها ابنَ أُمِّ مكتوم.

وانطلق حُيَيُّ بنُ أخْطَب إلى بنى قُريظة، فدنا مِن حصنهم، فأبى كعبُ بن أسد أن يفتَح له، فلم يَزَلْ يُكلِّمُهُ حتى فتح له، فلما دخل عليه، قال: لقد جئتُكَ بعزِّ الدهر، جئتُكَ بقريش وغَطَفَان وأَسَدٍ على قادتها لِحرب محمد، قال كعب: جِئْتَنى والله بذُلِّ الدهرِ، وبِجَهَامٍ[١] قد هراقَ مَاؤُه، فهو يَرْعُد ويَبْرُق ليس فيه

(١) الجهام: هو السَّحاب.

شىء. فلم يزل به حتَّى نقضَ العَهد الذى بينَه وبينَ رسول الله ﷺ، ودخل مع المشركين فى مُحاربته، فَسُرَّ بذلك المشركون، وشرط كعب على حُيَيٍّ أنه إن لم يظفُروا بمحمد أن يجيء حتى يدخُلَ معه فى حِصنه، فيصيبه ما أصابه، فأجابه إلى ذلك، ووفَّى له به.

وبلغ رسولَ الله ﷺ خبرُ بنى قُريظة ونقضهم للعهد، فبعث إليهم السَّعْدَيْن وخوَّاتَ بن جُبير، وعبدَ الله بن رواحة لِيَعْرِفُوا: هل هم على عهدهم، أو قد نقضُوه؟ فلما دَنوْا منهم، فوجدُوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسب والعداوة، ونالُوا مِن رسول الله ﷺ، فانصرفُوا عنهم، ولحَنُوا إلى رسول الله ﷺ لحنًا يُخبرونه أنهم قد نقضُوا العَهد، وغدَرُوا، فعظُمَ ذلك على المسلمين، فقال رسولُ الله ﷺ عند ذلك: «اللَّهُ أَكْبَرُ أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُسْلِمِينَ»(١)، واشتدَّ البلاء، ونَجَمَ النِّفَاقُ، واستأذن بعضُ بنى حارثة رسولَ الله ﷺ فى الذهاب إلى المدينة وقَالُوا: ﴿إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلاَّ فِرَارًا﴾ [الأحزاب: ١٣](٢). وهمَّ بنو سلمَةَ بالفَشَلِ، ثم ثبَّت اللَّهُ الطائفتين.

وأقام المشركُون محاصِرينَ رسولَ الله ﷺ شهرًا، ولم يكن بينهم قِتال لأجل ما حال اللَّهُ به مِن الخندق بينهم وبين المسلمين، إلا أن فَوارِسَ مِن قُريش، منهم عمْرو بن عبد وُدٍّ وجماعة معه أقبلُوا نحوَ الخندق، فلما وقفُوا عليه، قالوا: إن هذه مَكيدةٌ ما كانت العربُ تعرِفُها، ثم تيمَّمُوا مكانًا ضيِّقًا من الخندق، فاقتحمُوه، وجالت بهم خيلُهم فى السَّبخة بين الخندقِ وسَلْعٍ، وَدَعَوْا إلى البِرَاز، فانتدب لِعمرو علىُّ بن أبى طالب رضى الله عنه، فبارزهُ، فقتله اللَّهُ على يديه، وكان مِن شُجعان المشركين وأبطالِهم، وانهزمَ الباقون إلى أصحابهم، وكان شِعارُ المسلمين يومئذ «حم لا يُنْصَرُونَ»(٣).

---

(١) أخرجه البيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٢٩) من طريق ابن إسحاق، حدثنا عاصم بن عمر بن قتادة به، وإسناده مرسل صحيح.

(٢) «البداية» (٢/ ٥٢٤، ٥٢٥).

(٣) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٩٧)، والترمذي (١٦٨٢)، وغيرهما.

ولما طالت هذه الحالُ على المسلمين، أراد رسولُ الله ﷺ أن يُصالح عُيينةَ بنَ حِصْنٍ، والحارِثَ بنَ عوف رئيسى غَطَفَان، على ثُلثِ ثِمار المدينةِ، وينصرفا بقومهما، وجرت المراوضةُ على ذلك، فاستشار السَّعدينفى ذلك، فقالا: يا رسولَ الله؛ إن كان اللَّهُ أمَرَكَ بهذا، فسمعًا وطاعةً، وإن كان شيئًا تصنعُه لنا، فلا حاجةَ لنا فيه، لقد كُنَّا نحن وهؤلاء القومُ على الشِّركِ بالله وعِبادةِ الأوثان، وهم لا يطمعُون أن يأكلُوا منها ثمرة إلا قِرىً أو بيعًا، فحين أكرمنا اللَّهُ بالإسلام، وهدانا له، وأعَزَّنا بك، نُعطيهم أموالَنَا؟، والله لا نُعطيهم إلا السيفَ، فصوَّبَ رأيَهما، وقال: «**إنَّما هُوَ شَيءٌ أَصْنَعُهُ لَكُمْ لَمَّا رَأَيْتُ العَرَبَ قَدْ رَمَتْكُم عَنْ قَوْسٍ وَاحِدَةٍ**»[(١)].

ثم إنَّ الله عزَّ وجلَّ وله الحمدُ صنع أمرًا مِنْ عنده، خَذَلَ به العدوَّ، وهزم جموعَهم، وفلَّ حدَّهم، فكان مما هيَّأَ مِن ذلك، أن رجلًا مِن غَطَفَانَ يُقَال له: نُعَيْمُ ابنُ مسعود بنِ عامر رضى الله عنه، جاء إلى رسولِ الله ﷺ، فقال: يا رسول الله؛ إنى قد أسلمتُ، فمُرنى بما شئت، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**إنَّما أَنْتَ رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخَذِّلْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّ الحَرْبَ خَدْعَة**»، فذهب مِن فوره ذلك إلى بنى قُريظة، وكان عشيرًا لهم فى الجاهلية، فدخل عليهم، وهم لا يعلمون بإسلامه، فقال: يا بنى قُريظة؛ إنكم قد حاربتُم محمدًا، وإن قريشًا إن أصابُوا فُرصة انتهزوها، وإلا انشمَرُوا إلى بلادهم راجعين، وتركُوكُم ومحمدًا، فانتقم منكم. قالوا: فما العملُ يا نُعيم؟ قال: لا تُقاتِلُوا معهم حتى يُعطوكم رهائِن، قالوا: لقد أشرتَ بالرأى، ثم مضى على وجهه إلى قُريش، فقال لهم: تعلمون وُدِّى لكم، ونُصحى لكم، قالوا: نعم. قال: إن يهودَ قد نَدِمُوا على ما كان منهم من نقضِ عهد محمد وأصحابه، وإنهم قد راسلُوه أنهم يأخذون منكم رَهائِنَ يدفعونَها إليه، ثمَ يُمالِئُونه عليكم، فإن سألوكم رهائِنَ، فلا تُعطوهم، ثم ذهب إلى غَطَفَان، فقال لهم مِثْلَ ذلِكَ.

فلما كان ليلةُ السبت من شوَّال، بعثوا إلى اليهود: إنَّا لسنا بأرض مُقام، وقد

---

(١) أخرجه الطبري في «التاريخ» (٢/ ٩٤)، والبيهقي في «الدلائل» (٣/ ٤٣٠)، وابن سعد في «الطبقات» (٢/ ٧٣)، وإسناده مرسل.

هلك الكُراعُ والخُفُّ، فانهضُوا بنا حتى نُنَاجِزَ محمَّدًا، فأرسل إليهم اليهود: إن اليومَ يومُ السبت، وقد علمتم ما أصاب مَنْ قبلنا أحدثُوا فيه، ومع هذافإنَّا لا نُقاتِلُ معكم حتى تبعثوا إلينا رَهائِنَ، فلما جاءتهم رُسُلُهُم بذلك، قالت قُريش: صدقَكُم والله نُعيم، فبعثوا إلى يهود: إنَّا والله لا نُرسِلُ إليكم أحدًا، فاخرجُوا معنا حتى نُناجِزَ محمدًا، فقالت قُريظة: صدقكم والله نُعيم، فتخاذلَ الفريقانِ، وأرسلَ اللهُ على المشركين جُندًا من الريح، فجعلتْ تُقوِّضُ خِيامَهم، ولا تَدَعُ لهم قِدرًا إلا كَفَأَتْها، ولا طُنُبًا، إلا قَلَعَتْه، ولا يَقِرُّ لهم قرار، وجندُ الله مِن الملائكة يزلزلونهم، ويُلقون في قلوبهم الرُّعْبَ والخوفَ[(١)]، وأرسل رسولُ الله ﷺ حُذيفةَ بن اليمان يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال، وقد تهيؤوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره برحيل القوم[(٢)].

فأصبح رسولُ الله ﷺ، وقد ردَّ اللهُ عدوَّهُ بغيظه، لم ينالُوا خيرًا، وكفاهُ الله قِتالهم، فصدق وعدَه، وأعزَّ جندَه، ونصر عبدَه، وهزم الأحزابَ وحده، فدخل المدينةَ ووضعَ السلاحَ، فجاءه جبريلُ عليه السلامُ، وهو يغتسِلُ في بيت أُمِّ سلمة. فقال: أَوَضَعْتُمُ السِّلاحَ؟ إنَّ المَلائِكَةَ لَمْ تَضَعْ بَعْدُ أَسْلِحَتَهَا، انْهَضْ إِلَى غَزْوَةِ هؤلاءِ، يَعْنِي بني قُرَيْظَةَ[(٣)]، فَنادَى رسُولُ الله ﷺ: «**مَن كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلاَ يُصَلِّيَنَّ العَصْرَ إلا في بني قُرَيْظَة**»[(٤)]، فخرج المسلمون سِراعًا، وكان من أمره وأمر بني قُريظة ما قدَّمناه، واستشهد يومَ الخندق ويومَ قريظة نحْوُ عشرةٍ مِن المسلمين». ا.هـ[(٥)].

وأذلّ الله – سبحانه – الشِّرك والمشركين. والحمد لله ربِّ العالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، وله شواهد.
(٢) أخرجه مسلم (١٧٨٨).
(٣) أخرجه البخاري (٤١١٧).
(٤) أخرجه البخاري (٤١١٩)، ومسلم (١٧٧٠).
(٥) «زاد المعاد» (٣/ ٢٤٤– ٢٤٩) باختصار يسير.

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فقد يتساءل البعض: ما هي أسباب فشل الأحزاب؟

ويجيب عن هذا السؤال اللواء/ محمود شيت خطَّاب فيقول:

أسباب فشل الأحزاب:

١ - قيادة غير موحدة:

لم تكن للأحزاب قيادة موحدة تستطيع السيطرة عَلَى جميع القوات المتجمعة وتوجيهها للعمل الحاسم في الوقت الحاسم، كان لكل قبيلة قائد بل عدة قواد، ولم يستطع هؤلاء القادة تنظيم خطة موحدة للهجوم عَلَى المسلمين، وقَدْ كان من المستحيل اتفاقهم عَلَى قائد منهم ليسيطر عَلَى الجميع لأن هذا القائد سينال شرفًا عظيمًا يمتاز به عَلَى الآخرين، ولا يمكن للآخرين أن يرضوا بهذا الامتياز.

لقد كانت النعرة الجاهلية لا الهدف المشترك هي التي تسيطر عَلَى القيادة، ولا يمكن أن تنجح مثل هَذِهِ القيادة في أي موقف بأي معركة، حَتَّى ولو كانت لها كل الظروف المواتية كما في غزوة الخندق بالنسبة للأحزاب واليهود.

٢- المباغتة بالخندق:

لقد كان حفر الخندق مباغتة تامة للأحزاب، فلم تكن العرب تعرف هذا الأسلوب، كما لم تكن تعرف أسلوب القتال المناسب للتغلب عَلَى مثل هذا الموقف، لذلك بقيَ القتال مستكنًا طوال مدة الحصار، عدا محاولات قليلة قام بها المشركون لمحاولة اجتياز الخندق باءت كلها بالفشل.

٣- الطقس:

كان موسم القتال شتاءً، وكان الأعراب في العراء يعيشون في غير مواطنهم التي يستفيدون فيها من موادهم المتيسرة للتدفئة وللإعاشة وللسكنى، لذلك لم

يستطيعوا البقاء لحصار المدينة مدة طويلة.

٤ - انعدام الثقة:

كانت الثقة بين الأحزاب أنفسهم من جهة وبينهم وبين اليهود من جهة أخرى واهنة جدًّا، بل لم تكن هناك ثقة بينهم عَلَى الإطلاق.

قريش تريد القضاء عَلَى المسلمين بالإفادة من جهود القبائل الأخرى. واليهود والقبائل الأخرى تريد الأسلاب بالدرجة الأولى من أي مصدر كان. ولو وقعت أموال أحلافهم بني قريظة بأيديهم لأخذوها أيضًا.

واليهود لا يثقون في الجميع ويريدون القضاء عَلَى المسلمين بدماء قريش والقبائل الأخرى، وهكذا انعدمت الثقة بينهم لتفرق الأهداف والمقاصد.

٥ - الصبر عَلَى الحصار:

يحتاج الصبر عَلَى الحصار إلى قوات مدربة لها أهداف معلومة وقيادة مسيطرة. أما القبائل فلا صبر لها عَلَى الحصار، لأنها اعتادت عَلَى التنقل بين فترة وأخرى. كما أنها لا تطيق صبرًا عَلَى فراق وطنها وأهلها مدة طويلة، لذلك تذمّر الأعراب من طول مدة الحصار - عَلَى قصرها - وآثروا الارتحال عَلَى الصبر. ا.هـ.

قلت: وهناك أسباب أخرى، منها:

- حفر الخندق.
- وتعلّق المسلمين بربّهم، وثقتهم فيه سبحانه.
- وتسخير الله سبحانه تَعَالَى الريح فاقتلعت خيام المشركين، وكان من أمرها ما تقدّم.

عباد الله...

ومن الدروس المستفادة من غزوة «الخندق»:

١ - القيادة:

كان أسلوب القيادة المرتبك عند الأحزاب واليهود، له أسوأ الأثر عَلَى نتيجة

معركتهم، وبقدر ما كانت قيادة الأحزاب واهنة، كانت قيادة المسلمين قوية حازمة رشيدة، قرر الرسول ﷺ البقاء في المدينة، وأمر بحفر الخندق، وانتخب منطقة الحفر في السهول الكائنة شمال المدينة، ووزع أعمال الحفر بالتساوي بين أصحابه، وسيطر عَلَى العمال، فلا يستطيع أحد ترك واجبه إلا بأمر منه، حَتَّى أنجز أعمال حفر الخندق قبل وصول المشركين، واشتغل هو بنفسه بالحفر كبقية أصحابه تمامًا، بل استأثر دونهم بالمحلات الصلبة التي لم يستطع أصحابه التغلب عليها، كفلق الصخور القاسية.

ثم قسّم واجبات احتلال الموضع بين أصحابه، بحيث لا يغفل أحد عن شبر من الخندق ليلًا ونهارًا، عَلَى الرغم من برودة الطقس، وقَدْ كان هو بنفسه لا يترك مقره إلا ليقوم بتفتيش الحراس والمواضع الدفاعية وليشجعهم ويرفع من معنوياتهم، وأهم من ذَلِكَ كله سيطرته عَلَى أصحابه عندما تأزم الموقف حين وصلت الأحزاب إلى ضواحي المدينة بقوات متفوقة عَلَى المسلمين، وحين نكثت قريظة عهدها، فأصبح الخطر يهدد المسلمين من الداخل والخارج.

٢- تعبئة جديدة:

استفاد المسلمون من حفر الخندق للدفاع عن المدينة، وهذا الأسلوب الجديد من أساليب القتال يدخل في أساليب العرب الحربية لأول مرة في التاريخ.

إن القائد العبقري[١] هو الذي يستخدم أسلوبًا جديدًا أو سلاحًا جديدًا في القتال، والخندق هو الأسلوب الجديد الثاني الذي استخدمه الرسول ﷺ في القتال، بعد أن استخدم أسلوب الصفوف في معركة بدر.

٣- الحرب خدعة:

رأينا أثر الإشاعات التي بثها نعيم بن مسعود في تفريق كلمة الأحزاب، ولا يمكن نجاح الأحزاب أو غيرهم إلا بجمع الكلمة، فلما تفرقت كلمتهم فشلوا، إن

(١) رد العلماء عَلَى وصف النبي ﷺ بأنه كان عبقريًّا، وقالوا: «بل كان نبيًّا رسولًا» وفرقوا بين العبقرية والنبوة.

الحرب الحديثة تعتمد عَلَى بث الإشاعات المثيرة لتصديع الصفوف وبلبلة الأفكار. وقسم بث الإشاعات من أهم أقسام شعب الاستخبارات في تشكيلات الجيوش.

وبقدر ما كانت الإشاعة تعمل عملها في صفوف الأحزاب، فإن الإشاعة لم يكن لها أي أثر في صفوف المسلمين.

حاول المنافقون أن يبثوا سموم إشاعتهم لتحطيم معنويات المسلمين، ولكن محاولاتهم فشلت، وعندما أرسل الرسول ﷺ أصحابه لمعرفة موقف بني قريظة. وعاد هؤلاء إليه بعد أن تأكدوا من صحة إشاعة نكث بني قريظة بعهودها، حرصوا عَلَى أن يخبروا الرسول ﷺ بهذا الخبر بأسلوب من الكلام لا يفهمه غير الرسول ﷺ نفسه - أي بالرموز - حَتَّى لا يؤثّر هذا الخبر عَلَى معنويات المسلمين.

لقد عرّف المسلمون أثر الإشاعة عَلَى المعنويات قبل أربعة عشر قرنًا.

٤- المبادأة:

غزوة الخندق هي المعركة الحاسمة الثانية بعد معركة بدر الكبرى، فلو نجح المشركون واليهود في هَذِهِ المعركة لتغيرت وجهة التاريخ الإسلامي.

لقد استطاع اليهود أن يجمعوا الأحزاب حول المدينة، وعاونهم اليهود من بني قريظة للقضاء عَلَى المسلمين، وهذا التجمع فرصة لا تعود أبدًا، خاصة إذ فشلت الأحزاب.

إن معنى فشل الأحزاب بعد هذا التجمع الهائل، أنهم لن يجتمعوا مرة أخرى وأنهم لا يستطيعون القضاء عَلَى المسلمين بعد ذَلِكَ منفردين بعد أن عجزوا عن القضاء عليهم مجتمعين، ولهذه النتيجة أثر حاسم عَلَى انتشار الإسلام فيما بعد.

لقدانتقل الرسول ﷺ من دور الدفاع إلى دور الهجوم في اليوم الذي انتهت به غزوة الخندق، لذلك قَالَ الرسول ﷺ لأصحابه بعد انسحاب الأحزاب: «**الآن نغزوهم ولا يغزوننا**».

وانتقلت المبادأة إلى يد المسلمين بعد هَذِهِ الغزوة، ولم يتركوها حَتَّى شمل الإسلام شبه الجزيرة العربية كلها، وارتفعت راية الإسلام شرقًا وغربًا فوق كل

راية ﴿وَرَدَّ اللَّـهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّـهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّـهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ [الأحزاب: ٢٥].ا.هـ[١].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة نلتقي مع أحداث «غزوة بني قريظة» إن شاء الله، فإلى اللقاء.

(١) «الرسول القائد» باختصار وتصرّف يسير.

الخطبة الثانية بعد المائة:

غزوة بني قريظة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فلقاؤنا اليوم إن شاء الله تَعَالَى مع «غزوة بني قريظة» وما فيها من عظات وعبر ودروس:

عباد الله...

استطاع المسلمون الثبات أمام الأحزاب واليهود في ظروف قاسية جدًّا ضد قوات العدو المتفوقة عليهم تفوقًا ساحقًا، فثبتوا تجاه الخطر الداهم الذي يهددهم من خارج المدينة ومن داخلها، وهذا النجاح وهذا الثبات جعل معنويات

المسلمين في وضع ممتاز لم يسبق له مثيل من قبل، لقد تخلصوا من الأحزاب، وبقيَ أمامهم بنو قريظة جيرانهم في المدينة الذين لم يرعوا للجار حقًا ولم يحافظوا عَلَى العهد، وخانوا المسلمين في أشد أوقات محنتهم، فلابد من تصفية الحساب معهم.

لقد بقيَ اليهود من بني قريظة وحدهم بعد انسحاب الأحزاب، وبقيت معهم غدرتهم الشنيعة التي فضحت طواياهم، فأصبحوا كالمجرم الذي ثبتت إدانته فهو يرقب القصاص العادل، لقد كانت معنوياتهم منحطة للغاية، إذ كانوا يتوقعون هجوم المسلمين عليهم ويعرفون نتيجة هذا الهجوم.

عاد الرسول ﷺ إلى المدينة صباح الليلة التي انسحب الأحزاب فيها إلى ديارهم وأمر أصحابه ظهر ذلك اليوم بالحركة إلى بني قريظة والإسراع بالإطباق عَلَى حصونهم بحيث لا يصلون العصر إلا هناك، وعلى الرغم من تعب المسلمين الشديد لبقائهم مدة طويلة محاصرين، وعلى الرغم من برودة الطقس، فقد أسرع المسلمون لتنفيذ أمر الرسول ﷺ وأنجزوا تجمعهم حول حصون بني قريظة قبل أن يحل الظلام من ذلك اليوم، واستمر الحصار خمسًا وعشرين ليلة لم يقع خلالها إلا بعض المناوشات الطفيفة بالنبل والحجارة، كان من أثرها استشهاد أحد المسلمين مصابًا برحى رمته بها امرأة يهودية من فوق سطح منزلها.

لم يجرؤ بنو قريظة عَلَى الخروج من حصونهم طيلة مدة الحصار، وكانوا مترددين لا يستقر رأيهم عَلَى شيء من شدة الخوف، طلب منهم قائدهم أن يعتنقوا الإسلام، فرفضوا، فطلب منهم الخروج للقتال، فرفضوا أيضًا، وبقوا في حصونهم لا يفعلوا شيئًا.

وأخيرًا أرسل اليهود يعرضون الخروج إلى «أذرعات» تاركين وراءهم ما يملكونه، فأبى الرسول إلا أن يُسلموا بدون قيد أو شرط، وعاد اليهود يطلبون التسليم عَلَى أن يُحكِّم سعد بن معاذ في مصيرهم، وقد اختاروه لأنه سيد الأوس حلفائهم في الجاهلية، لعل الرسول ﷺ يقبل من حلفاء الأوس ما قبل من يهود بني قينقاع حلفاء الخزرج.

ورضي الرسول ﷺ بنزولهم عَلَى حكم سعد، وقَبِلَ سعد أن يقوم بالتحكيم

بين المسلمين من جهة واليهود من جهة أخرى بعد أن أخذ المواثيق عَلَى الطرفين أن يرضي كلاهما بقضائه، فلما أعطوه المواثيق، أمر بني قريظة أن ينزلوا من حصونهم وأن يضعوا السلاح، ففعلوا.

وكان حكم سعد فيهم: «أن يُقَتَّل المقاتلون، تقسّم الأموال، وتُسبى الذراري والنِّساء»؛ لأن سعدًا ذكر أن الأحزاب لو انتصرت بخيانة بني قريظة لكان مصير المسلمين الإبادة من الوجود، فجزاهم سعد بمثل ما عرضوا المسلمين له.

لم تكن حرب بني قريظة حرب ميدان إنما كانت حرب أعصاب، فلم يستطع اليهود أن يتحملوا الحصار عَلَى الرغم من توافر المواد الغذائية لديهم وتوافر الماء والآبار ومناعة حصونه وصعوبة اقتحامها، فآثروا التسليم عَلَى مكابدة الحصار.

والحق أن الموقف العسكري كان إلى جانبهم لتلك الأسباب كلها، ولشدة تعب المسلمين ولبرودة الطقس، ولكن معنوياتهم المنحطة انهارت، فلم يقاوموا طويلًا كما كان المؤمّل، وقتل مقاتلوا بني قريظة جميعًا ومعهم حيي بن أخطب الذي تزعم حركة تجميع الأحزاب ضد المسلمين، إلا ثلاثة رجال من اليهود أسلموا، ولم يقتل من الأطفال والنساء أحد عدا المرأة التي قتل الشهيد المسلم برحاها، فقتلت بجرمها هذا[(١)].

عباد الله...

وكان «أبو رافع عبد الله بن حقيق» اليهوديّ مِمَّن أَلَّب الأحزاب عَلَى رسول الله ﷺ.

ولم يُقتل من بني قُريظة كما قُتِل صَاحبُه حُيي بن أخطب، ورغبت الخزرجُ في قتله مساواةً للأوس في قتل كعبِ بن الأشرف، وكان اللَّـهُ سُبحانه وتعالى قَدْ جعل هذين الحيَّينِ يتصاولان بين يديِ رسول الله ﷺ في الخيراتِ، فاستأذنُوه في قتله. فَأذِنَ لهم، فانتدب له رِجالٌ كُلُّهُم من بني سلمة، وهم عبدُ الله بن عَتيكٍ، وهو أميرُ القوم، وعبد الله بنُ أُنيس، وأبو قتادة، والحارث بن رِبعي، ومسعود بن

---

(١) «الرسول القائد» باختصار.

سنان، وخُزاعِيُّ بنُ أسود، فساروا حَتَّى أتواه في خيبر في دار له، فنزلوا عليه ليلًا، فقتلُوه، ورجعوا إلى رسول الله ﷺ وكُلُّهُمُ ادَّعى قتله، فقال: «**أروني أسيَافَكُم**»، فلما أَرَوهُ إيَّاها، قَالَ لِسيف عبد الله بن أُنيس: «**هذا الَّذي قَتَلَهُ أرَى فيه أثرَ الطَّعام**»(١).

عباد الله...

وهكذا أجهز النبيُّ ﷺ عَلَى الطغاة ورءوس الفتن، لا عدوان إلَّا عَلَى الظَّالمين.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وتحت عنوان: «**دروس من غزوات محاسبة الغادرين**» قال اللواء/ محمود شيت الخطَّاب:

١- الوقت:

انسحبت الأحزاب عن المدينة، وعاد المسلمون إلى ديارهم صباح ليلة الإنسحاب، وإصدار الرسول ﷺ أمره الإنذاري للحركة إلى بني قريظة ظهر ذَلِكَ اليوم نفسه، عَلَى ألَّا يصلي المسلحون العصر إلا في ديار بني قريظة.

لقد أدرك الرسول ﷺ بثاقب فكره أهمية الوقت في الحصول عَلَى نتائج باهرة في القتال، فلو أن الرسول ﷺ أبطأ بحركته هَذِهِ، لاستفاد اليهود من الوقت في الاستعانة بحلفائها أو إقناع اليهود الآخرين بمعاونتهم، أو التشبث بالحصول عَلَى قوات من القبائل لتساند قوتهم، ولكان بإمكانهم إكمال قضاياهم الإدارية التي يحتاجون إليها في القتال، حَتَّى يستطيعوا الصمود في حصارهم أطول مدة ممكنة.

---

(١) أخرجه ابن إسحاق، والقصّة في «صحيح البخاري» (٤٠٣٨ - ٤٠٤٠) فانظرها هناك بتمامها.

ولكن إسراع الرسول ﷺ بحركة قواته لتطويقهم، حالت بين اليهود وبين كل ذَلِكَ، إذ لم يكن اليهود يعلمون بالموعد الأكيد لانسحاب الأحزاب ليسبقوا النظر في إعداد كافة متطلبات القتال المتوقع ضد المسلمين.

بل إن حركة المسلمين السريعة لم تترك لهم الوقت الكافي لليهود لتنظيم أي خطة عَلَى الإطلاق، فقد ظهر لنا من سير الحوادث في غزوة بني قريظة أن اليهود لم يفعلوا شيئًا، وكانوا مترددين في كل شيء، وأكثر من ذَلِكَ فإن حركة المسلمين المبكرة شلت معنويات اليهود وقضت عَلَى روح المقاومة فيهم، فلم يستطيعوا أن يستفيدوا من المحسنات العسكرية التي كانت بجانبهم والتي كان بإمكانهم - لو أحسنوا التصرف - الاستفادة من هَذِهِ المحسنات لكي يقاوموا المسلمين وقتًا غير قصير، حصونهم قوية ومنيعة وعددهم كبير، وسلاحهم وفير، والأرزاق والماء متيسران، كل ذَلِكَ يساعدهم عَلَى الصمود، ولكن هَذِهِ المحسنات العسكرية التي بجانب اليهود لا تفيد شيئًا مادامت معنوياتهم منحطة تمامًا، ولولا استفادة الرسول ﷺ من الوقت لتحسنت معنويات اليهود ولاستطاعوا أن يقوموا بدور أكثر حزمًا من الدور الذي قاموا به أثناء حصارهم.

ومِمَّا يزيد من قيمة حرص المسلمين عَلَى المحافظة عَلَى الوقت، أن ظروفهم لم تكن حسنة بعد انسحاب الأحزاب.

لقد كانوا منهوكي القوى لسهرهم عَلَى حراسة مواضعهم حوالي شهر في موقف عصيب يحطم أعصاب أشجع الشجعان.

وكان الطقس باردًا، وقَدْ تحملوا البرد في العراء وقتًا طويلًا أثناء حصارهم. فلما انسحبت الأحزاب آن لهم أن ينالوا بعض الدفء في بيوتهم القريبة، وكانت قضاياهم الإدارية بشكل لا يحسدون عليه، إذ ما هي إمكانات إعاشتهم مثلا وهي أهم ما يديم قوة المقاتلين؟ خاصة أن الجندي يمشي عَلَى بطنه كما يقولون.

إن عدم اكتراث المسلمين بكل هَذِهِ المشاكل بغرض الإسراع بتطويق حصون بني قريظة يدعو إلى الإعجاب والتقدير.

٢- المباغتة:

تكون المباغتة بالوقت والمكان والأسلوب.

المباغتة بالمكان: أن تقوم بحركة من مكان لا يتوقعه العدو.

والمباغتة بالزمان: أن تقوم بحركة في وقت لا يتوقعه العدو.

والمباغتة بالأسلوب: أن تقوم بالقتال بأسلوب جديد أو بسلاح جديد.

والقائد الناجح هو الذي يحاول أن يُباغت خصمه حَتَّى يقضي عليه ماديًا ومعنويًّا؛ لأن المباغتة الناجحة تشل حركة العدو وتقضي عليه كليًّا.

لقد طبّق الرسول ﷺ أساليب المباغتة، لقد رأينا كيف باغت الأحزاب بأسلوب جديد في القتال في حفر الخندق، كما رأينا كيف أَنَّهُ باغت قريشًا بالقتال بأسلوب الصفوف.

وفي غزوة بني قريظة باغت اليهود بالزمان في حركته بسرعة ما كانوا ليتوقعوها، فشل من معنوياتهم واحتفظ بالمبادأة بيده حَتَّى نهاية المعركة.

وقَدْ حرص المسلمون عَلَى تطبيق هذا المبدأ في أكثر غزواتهم، مِمَّا ساعدهم عَلَى النصر.

٣- القصاص:

القصاص العادل الذي أصاب بني قريظة بعد تسليمهم يُقرّه كل إنسان واقعي سليم التفكير والإنصاف.

لقد طعن هؤلاء اليهود المسلمين في أحرج وقت من أوقات محنتهم، ولو لم يكن هناك عهد بينهم وبين المسلمين لهان الخطب ولوجدنا بعض العذر لهم، ولكن أي عذر وقَدْ خانوا العهد في مثل تلك الظروف، وأحب أن أتساءل: لو نجح الأحزاب في غزوة الخندق، فماذا كانوا يفعلون بالمسلمين؟! ألم تكن عاقبة المسلمين الإبادة والتمثيل؟ فلماذا لا يبيدون الذين حاولوا معاونة أعدائهمُ عَلَى إبادتهم؟! لقد أفسح المسلمون المجال أمام بني قينقاع وبني النضير من اليهود للجلاء إلى خيبر أو إلى ضواحي الشام، فماذا كانت النتيجة؟ أثار هؤلاء اليهود

الأحزاب وحشدوهم أمام خندق المدينة للقضاء عَلَى المسلمين، ومع ذَلِكَ فالموقف جد مختلف بين هؤلاء اليهود وبين يهود بني قريظة، إذ أن خيانة هؤلاء ونكثهم عهودهم كان في أحرج الأوقات وأشدهم خطورة عَلَى مستقبل الإسلام والمسلمين.

فهل يبقى المسلمون سلمًا عَلَى بني قريظة ليقوموا بدور أسلافهم بني قينقاع وبني النضير؟!

يقول الحق سبحانه: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٤].

لقد كان بإمكان هؤلاء اليهود أن يتخلصوا من القتل لو أعلنوا إسلامهم كما فعل ثلاثة رجال منهم، فنجوا بحياتهم وأموالهم.

ولم يقض المسلمون بالقتل إلا عَلَى الرجال الذين قاتلوهم فعلًا بعد أن خانوا عهودهم وعرَّضوا المسلمين للإبادة، أما الأطفال والنساء فلم يصابوا بأذى، كما أن الذين ثبتوا عَلَى عهودهم من اليهود لم يصابوا بسوء.

والمرأة الوحيدة التي قتلت من بني قريظة هي التي قتلت مسلمًا بقذفه بالرحى من فوق سطحها، وإنما كان قتلها عَلَى جريمتها هذه لا بسبب آخر، أما قتل أبي رافع بن أبي الحقيق، فلأنه أحد رءوس اليهود الذين حرضوا الأحزاب، وقتله عبرة لغيره من الذين يحاولون محاولته في المستقبل، وحتى قوانين الحرب الدولية الحديثة تجيز القتل في مثل هذا الموقف، فهذا اليهودي كان من بني النضير الذين أرادوا اغتيال الرسول ﷺ فحاصرهم وتغلب عليهم واضطرهم إلى الاستسلام. ثم سمح لهم بالرحيل بعيدًا عن المدينة عَلَى ألا يعودوا إلى قتاله أو التحريض عليه، فإذا نكث هذا بالعهد وحرّض الأحزاب عَلَى تطويق المدينة، وحرّض بني قريظة عَلَى نكث عهدهم مع المسلمين، إذا كانت هذه أعماله بعد أن أطلقه الرسول ﷺ مع قومه بعد استسلامهم، فمن حقّ المسلمين أن يقتلوه كمجرم حرب لا كمحارب شريف.

لقد كان قصاص المسلمين من اليهود ومن غيرهم ضروريًا وعادلًا.

٤ - العقيدة:

ظهر لنا في هذه الفترة من كفاح الرسول ﷺ، أثر العقيدة في توحيد الصفوف للعمل للمصلحة العامة وحدها، وأثرها في اندفاع المسلمين، كلٌ يسابق أخاه إلى الشهادة.

وحكم سعد بن معاذ عَلَى بني قريظة بأن يقتل الرجال وتسبى الذرية وتقسّم الأموال يدل عَلَى عقيدته الراسخة أيضًا.

لقد كان سعد سيد الأوس حلفاء بني قريظة في الجاهلية، وقد توقع اليهود أن تنفعهم هذه الصلة القوية عند الحكم عليهم، كما توقع الأوس أيضًا أن يتساهل سعد مع أصدقائهم الأقدمين، بل استقبله الأوس حين قدومه للحكم هاتفين: أبا عمرو، أحسن في مواليك.

وقد أحسنت الخزرج قبل ذلك في مواليها اليهود عندما استسلموا للمسلمين، فلماذا لا يحسن الأوس في مواليهم مثلها أحسن الخزرج؟

ولكن سعدًا صاح بقومه وقد أكثروا عليه الرجاء: «قد آن لسعد ألا تأخذه في الله لومة لائم».

وأصدر سعد حكمه العادل غير متأثر بالأهواء بل بعقيدته الراسخة فقط وإيمانه العظيم، ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [البقرة: ١٧٧].

وماذا يعني دخول عبد الله بن عتيك وحده الحصن الذي يسكنه اليهودي أبو رافع بن أبي الحقيق في وسط أهله وعشيرته، وتعرض عبد الله نفسه للخطر الداهم بينما ترك أصحابه خارج الحصن في أمان؟!

هل يعني هذا العمل إلَّا استئثار القائد لنفسه بالخطر دون أصحابه طمعًا في الشهادة، فقد كان بإمكانه تكليف أحد أصحابه بهذا الواجب، ولكنه آثر أن يقوم بنفسه بهذا العمل كله، فنجح في القضاء عَلَى ابن أبي الحقيق، والتحق بأصحابه ليلًا بعد أن كسرت رجله أثناء نزوله من سطح الحصن.

هذه الأمثلة التي ظهرت لنا في هذه الفترة من حياة المسلمين ومثلها كثير،

تدل بوضوح عَلَى رسوخ العقيدة في نفوسهم، مِمَّا جعلهم يستهينون بكل شيء في سبيل عقيدتهم.

٥- القضايا الإدارية:

أ- الغنائم: قسمت غنائم بني قريظة عَلَى المسلمين؛ سهمٌ للراجل وثلاثة أسهم للفارس منها سهمان للفرس، وذلك تشجيعًا للإكثار من الخيل لفائدتها الكبيرة في القتال، وبقي الخُمس للرسول ﷺ لتوزيعه عَلَى المحتاجين ولتأمين إعاشة وركوب وسلاح المجاهدين الذين لا يجدون ما ينفقونه عَلَى أنفسهم في الجهاد.

لقد تحسنت الحالة الاقتصادية للمسلمين بهذه الغنيمة، فاستطاعوا الاستغناء عن بعضها لشراء الخيل والأسلحة من نجد، استعدادًا للحركات المقبلة.

ب - الماء: عندما وصل المسلمون إلى حصون بني قريظة، سيطروا عَلَى بئر تعود لبني قريظة بسرعة خاطفة للاستفادة من مائها في أيام الحصار.

ولولا سرعة المسلمين في الاستيلاء عَلَى هذه البئر، لكان من المؤكد أن تقوم قريظة بتدميرها حتى تُحرم المسلمين من مياهها الضرورية لهم في القتال». ا.هـ[1].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة نواصل الحديث عن السيرة العطرة - إن شاء الله - فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ إِنَّا نسألُك الثَّبات في الأَمر، والعزيمةَ عَلَى الرُّسلِ، ونسألك حُسن عبادتك. وشُكر نِعمَتِكَ.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

(١) «الرسول القائد» باختصار.

الخطبة الثالثة بعد المائة:

[أ] قصَّة الحُديبية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيِّ ﷺ، ونتكلم اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن «قصة الحُديبية»، وأسأل الله تَعَالَى التوفيق.

عباد الله...

كانت «قصة الحديبية» سنة ستّ في ذي القعدة.

فِي الصحيحين عن أنسٍ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: «اعْتَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَرْبَعَ عُمَرٍ كُلَّهُنَّ فِي ذِي القَعْدَةِ»، وذكر منها عُمرة الحُديبية.

وكان معهُ ألفٌ وخمسُمائة، هكذا فى «الصحيحين»عن جابر، وعنه فيهما: «كنا ألفًا وأربعمائة» وفيهما: عن عبد الله بن أبى أوفى: «كُنَّا أَلْفًا وثَلاثمائة»، قال قتادة: قلتُ لِسعيد بن المسيِّب: كم كان الذينَ شَهِدُوا بيعةَ الرِّضوان؟ قال: خمسَ عشرةَ مائة.

قال: قلتُ: فإن جابرَ بنَ عبد الله قال: كانُوا أربعَ عشرةَ مائة، قال: يرحمُه الله أوْهَمَ، هو حدَّثنى أنهم كانوا خمسَ عشرة مائة. **قلت**: وقد صح عن جابر القولانِ، وصح عنه أنَّهُم نحرُوا عام الحُديبية سبعينَ بَدَنَةً، البدنةُ عن سبعةٍ، فقيل له: كم كنتُم؟ قال: ألفًا وأربعمائة بخيلنا ورَجِلنا، يعنى فَارِسَهم وراجلهم[1]. والقلبُ إلى هذا أميل، وهو قولُ البراء بن عازب[2]، ومَعْقِلِ بنِ يسار، وسلمة بن الأكوعِ فى أصحِّ الروايتين، وقولُ المسيِّب بن حَزْن، قال شعبةُ: عن قتادة، عن سعيد بن المسيِّب، عن أبيه: كنَّا معَ رسولِ الله ﷺ تحتَ الشجرةِ ألفًا وأربَعمائة.

عباد الله...

فلما كانوا بذى الحُليفة، قلَّد رسولُ الله ﷺ الهَدْىَ وأشعَرَه، وأحرمَ بالعُمرة. وبعث بينَ يديه عَيْنًا له مِن خُزَاعَةَ يُخبِرُه عن قريش، حتى إذا كان قريبًا من عُسفان، أتاه عَيْنُه، فقال: إنى تركتُ كعبَ بنَ لُؤى قد جمعوا لك الأَحَابِيشَ. وجمعوا لك جموعًا، وهم مقاتِلوك وصادُّوك عن البيت ومانعوك، واستشار النبىُّ ﷺ أصحابَه، وقال: «**أترون أن نمِيلَ إلى ذَرارى هؤلاء الذين أعانُوهم فَنُصِيبَهم، فإن قعدُوا، قعدُوا موتُورين محروبين، وإن يجيؤوا تَكُنْ عُنقًا قطعها اللَّهُ، أم ترون أن نَؤُمَّ البيت، فمن صدَّنا عنه قاتلناه؟**».

فقالَ أبو بكر: اللَّهُ ورسولُه أعلم، إنما جِئنا معتمرِين، ولم نجئ لِقتال أحد. ولكن مَن حال بيننا وبينَ البيت، قاتلناه، فقال النبى ﷺ: «**فَرُوحُوا إذًا**»، فراحوا حتى إذا كانوا بِبعضِ الطريق، قال النبىُّ ﷺ: «**إنَّ خَالِدَ بْنَ الوَلِيدِ بالغَمِيمِ**[3] فى

(١) أخرجه أحمد (٣/ ٣٩٦).
(٢) أخرجه البخاري (٤١٥٠).
(٣) الغميم: موضع بين مكة والمدينة.

خَيْلٍ لِقُرَيْش طَلِيعَةً، فَخُذُوا ذَاتَ اليَمِينِ»، فوالله ما شعر بهم خالد حتى إذا هُمْ بِقَتَرَةِ الجَيش، فانطلق يركُض نذيرًا لقريش، وسار النبيُّ ﷺ حتى إذا كان بالثَّنِيَّةِ التى يُهْبَطُ عليهم مِنْهَا بركَتْ بِهِ رَاحِلتُه، فقال الناسُ: حَلْ حَلْ، فألَحَّتْ، فقالُوا: خَلأتِ القَصْوَاء، خَلأتِ القَصْواءُ، فقال النبيُّ ﷺ: «ما خَلأَتِ القَصْوَاء، ومَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلكِنْ حَبَسَهَا حَابسُ الفِيلِ»، ثم قال: «والَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لا يَسْأَلُونى خُطَّةً يُعَظِّمُونَ فيها حُرُماتِ الله، إلاَّ أعطيتُهم إيَّاها»، ثم زجرها، فوثَبَتْ به، فَعَدَلَ حتى نزل بأقصى الحُدَيبية على ثَمَدٍ قليل الماء، إنما يتبرَّضُهُ النَّاسُ تَبرُّضًا، فلم يُلْبِثْهُ النَّاسُ أن نَزحُوه، فَشَكَوْا إلى رسول الله ﷺ العَطَشَ، فانتزع سهمًا مِنْ كِنَانَتِهِ، ثمَّ أمرهم أن يَجْعلُوه فيه، قال: فوالله ما زالَ يَجِيشُ لهم بالرِّيِّ، حتى صدرُوا عنه[1].

وفَزِعَتْ قريشٌ لنزوله عليهم، فأحبَّ رسولُ الله ﷺ أن يبعَثَ إليهم رجلًا من أصحابه، فدعا عمر بنَ الخطَّاب لِيبعثه إليهم، فقال: يا رسولَ الله؛ ليس لى بمكة أحدٌ من بنى كعب يغضَبُ لى إن أوذيتُ، فَأَرْسِلْ عُثْمَانَ بن عفان، فإن عشيرَتَه بها، وإنه مبلِّغٌ ما أردتَ، فدعا رسولُ الله ﷺ عثمانَ بنَ عفان، فأرسله إلى قريش، وقال: «أخبرهم أنَّا لم نأتِ لقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا، وادعُهُم إلى الإسلام»، وأمره أن يأتىَ رجالًا بمكة مؤمنين، ونساءً مؤمناتٍ، فيدخُلَ عليهم، ويبشِّرَهم بالفتح، ويخبِرَهم أن الله عزَّ وجلَّ مظهِرٌ دينَه بمكة، حتى لا يُسْتَخْفى فيها بالإيمان.

فانطلق عثمان، فمرَّ على قريش ببلدح، فقالوا: أين تريد؟ فقال: بعثنى رسولُ الله ﷺ أدعوكُم إلى الله وإلى الإسلام، وأُخبِرُكُم أنَّا لم نأتِ لِقتال، وإنما جئنا عُمَّارًا، فقالوا: قد سمعنا ما تقُولُ، فانفُذْ لِحاجتك، وقام إليه أبانُ بنُ سعيد بن العاص، فرحَّب به، وأسرج فرسَه، فحمل عُثمانَ على الفرس، وأجاره، وأردفَه أبانُ حتى جاء مكة، وقال المسلمون قبل أن يَرْجِعَ عثمانُ: خَلَص عثمان قبلنا إلى البيت وطافَ به، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَا أَظنُّه طَافَ بالبَيْتِ ونَحنُ مَحْصُورُونَ»، فقالُوا:

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وغيره.

وما يمنعُه يا رسول الله وقد خَلَصَ؟ قال: «ذَاكَ ظَنِّي به، ألاَّ يَطُوفَ بِالكَعْبَةِ حَتَّى نَطُوفَ مَعَهُ».

واختلط المسلمون بالمشركين في أمر الصلح، فرمى رجلٌ من أحد الفريقين رجلًا مِن الفريق الآخر، وكانت معركة، وترامَوْا بالنَّبلِ والحِجارة، وصاح الفريقانِ كلاهما، وارتهن كُلُّ واحدٍ مِن الفريقين بمن فيهم، وبلغ رسُولَ الله ﷺ أن عثمانَ قد قُتِلَ، فدعا إلى البَيْعة، فثار المسلمون إلى رسول الله ﷺ وهو تحتَ الشجرة، فبايعُوه على ألاَّ يَفِرُّوا، فأخذ رسولُ الله ﷺ بيد نفسه، وقال: «هذِهِ عَنْ عُثْمان»(١).

ولما تَمَّتِ البيعة، رجع عُثمان، فقال له المسلمون: اشتفيتَ يا أبا عبد الله مِن الطواف بالبيت، فقال: بئس ما ظننتُم بي، والذي نفسي بيده، لو مكثت بها سنةً ورسولُ الله ﷺ مقيمٌ بالحُدَيْبِيَةِ، ما طُفْتُ بِها حتى يَطُوفَ بها رَسُولُ الله ﷺ. ولقد دعتني قريشٌ إلى الطوافِ بالبيت، فأبيتُ، فقال المسلمون: رسولُ الله ﷺ كان أعلمنَا بالله، وأحسننا ظَنا، وكان عمر آخِذًا بِيدِ رسول الله ﷺ لِلبَيْعةِ تحتَ الشجرة، فبايعه المسلمون كُلُّهُم إلا الجدَّ بْنَ قَيْسٍ(٢).

وكانَ مَعْقِلُ بنُ يسار آخذًا بِغصنها يرفَعهُ عن رسول الله ﷺ(٣)، وكان أوَّلَ من بايعه أبو سِنان الأسَدِي.

وبايعه سلمةُ بنُ الأكوع ثلاثَ مرات، في أول الناس، وأوسطِهم، وآخِرِهم(٤).

فبينما هم كذلك، إذ جاء بُدَيْلُ بنُ ورقاءَ الخُزاعي في نَفرٍ مِن خُزاعة، وكانُوا عَيْبَةَ نُصْحِ رسول الله ﷺ مِن أهل تِهامَة، فقال: إني تركتُ كعبَ بنَ لُؤَي، وعامر

(١) أخرجه البخاري (٣٦٩٨).
(٢) أخرجه مسلم (١٨٥٦).
(٣) أخرجه مسلم (١٨٥٨).
(٤) أخرجه مسلم (١٨٠٧).

بن لؤى نزلوا أعدادَ مِياه الحُدَيْبية معهم العُوذُ المَطَافِيلُ، وهم مقاتِلُوكَ، وصادُّوك عن البيت، قال رسول الله ﷺ: «إِنَّا لَمْ نَجِئْ لِقِتَالِ أَحَدٍ، ولَكِنْ جِئنا مُعْتَمِرِينَ، وإِنَّ قُرَيْشًا قَدْ نَهَكَتْهُمُ الحَرْبُ، وأَضَرَّتْ بِهِمْ، فَإِنْ شَاؤُوا مَادَدْتُهُم، ويُخَلُّوا بيْنى وبَيْنَ النَّاسِ، وَإِنْ شَاؤوا أَنْ يَدْخُلُوا فِيمَا دخل فيهِ النَّاس، فَعَلُوا وإلاَّ فَقَدْ جَمُّوا، وإِنْ هُم أَبَوْا إلاَّ القِتَالَ، فَوَالَّذِى نَفْسِى بِيَدِهِ، لأُقَاتِلَنَّهُم عَلَى أَمْرِى هذَا حَتَّى تَنْفَرِدَ سَالِفَتِى، أَوْ لَيُنْفِذَنَّ اللَّهُ أَمْرَهُ».

قال بُديل: سأبلغهم ما تقول، فانطلق حتى أتى قُريشًا، فقال: إنى قد جئتكم مِن عند هذا الرجل، وقد سمعتُه يقول قولًا، فإن شئتم عرضتُه عليكم. فقال سفهاؤهم: لا حاجةَ لنا أن تُحدِّثنا عنه بشىء. وقال ذوو الرأى منهم: هاتِ ما سمعته، قال: سمعتُه يقول كذا وكذا. فحدَّثهم بما قال النبىُّ ﷺ.

فقال عُروةُ بنُ مسعود الثَّقفى: إن هذَا قد عَرَضَ عليكم خُطَّةَ رُشد، فاقبلوها، ودعونى آتِه، فقالوا: ائته، فأتاه، فجعل يُكلمه، فقال له النبى ﷺ نحوًا من قوله لِبُديل، فقال له عروةُ عند ذلك: أى محمد؛ أرأيتَ لو استأصلتَ قومَك هل سمعتَ بأحدٍ مِن العرب اجتاح أهله قبلك؟ وإن تكن الأخرى، فوالله إنى لأرى وجوهًا، وأرى أوشَابًا من الناس خليقًا أن يَفِرُّوا ويدعوك، فقال له أبو بكر: امْصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ، أنحنُ نَفِرُّ عنه وندعه. قال: مَن ذا؟ قالُوا: أبو بكر. قال: أما والذى نفسى بيده، لولا يَدٌ كانت لكَ عندى لم أَجْزِكَ بها، لأجبتُك، وجعل يُكلِّم النبىَّ ﷺ، وكلما كلَّمه أخذَ بلحيته، والمغيرةُ بنُ شُعبة عِند رأسِ النبىِّ ﷺ، ومعه السيفُ، وعليه المِغفرُ، فكلما أهوى عُروةُ إلى لحية النبىِّ ﷺ، ضرب يَده بِنَعْلِ السيفِ، وقال: أَخِّرْ يَدَكَ عَنْ لِحِيةِ رسول الله ﷺ، فرفع عروة رأسه وقال: مَن ذا؟ قالوا: المغيرةُ بنُ شعبة. فقال: أَىْ غُدَرُ، أوَ لستُ أسعى فى غَدرتك؟ وكان المغيرةُ صحب قومًا فى الجاهلية، فقتلهم وأخذ أموالهم، ثم جاء فأسلم. فقال النبىُّ ﷺ: «أَمَّا الإِسْلامُ فأَقْبَلُ، وأَمَّا المَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فى شَىء».

ثم إن عروة جعلَ يَرْمُق أصحابَ رسول الله ﷺ بعينيه، فوالله مَا تَنَخَّمَ النبىُّ

ﷺ نُخامة إلا وقعت فى كفِّ رَجُلٍ منهم، فَدَلَكَ بها جِلدَه ووجهَه، وإذا أمرهم ابتدروا أمرَه، وإذا توضأ، كادُوا يقتتِلُون على وضوئه، وإذا تكلَّم خفضوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظرَ تعظيمًا له، فرجع عروةُ إلى أصحابه، فقال: أىْ قوم، والله لقد وفدتُ على الملوكِ: على كسرى، وقيصرَ، والنجاشيِّ، والله ما رأيتُ ملكًا يُعظمه أصحابُه ما يُعظِّمُ أصحابُ محمد محمدًا، والله إن تنخَّم نُخامة إلا وَقَعتْ في كفِّ رجلٍ منهم، فدلك بها وجهه وجلده، وإذا أمرهم ابتدروا أمره، وإذا توضأ كادُوا يقتتِلُون على وضوئه، وإذا تكلَّم، خفضُوا أصواتهم عنده، وما يُحِدُّون إليه النظرَ تعظيمًا له، وقد عرض عليكم خُطَّةَ رُشد، فاقبلُوها، فقال رجل من بني كِنانة: دعونى آتِهِ، فقالوا: ائْتِهِ، فلما أشرفَ على النبيِّ ﷺ وأصحابه. قال رسول الله ﷺ: «هذا فُلانٌ»، وهو من قوم يُعظِّمون البُدْنَ، فابعثُوها له، فبعثوها له. واستقبله القومُ يُلَبُّون، فلما رأى ذلك قال: «سُبْحَانَ الله، مَا يَنْبَغِي لِهَؤُلاَء أن يُصَدُّوا عَنِ البَيت»، فرجع إلى أصحابه، فقال: رأيتُ البُدن قد قُلِّدَتْ وأُشْعِرَتْ. وما أرى أن يُصَدُّوا عن البيت.

فقام مِكْرَزُ بنُ حَفص، فقال: دعونى آته. فقالوا: ائتِهِ. فلما أشرف عليهم. قال النبيُّ ﷺ: «هذا مِكْرَزُ بن حَفْصٍ، وهو رجل فاجر»، فجعل يُكَلِّم رسول الله ﷺ، فبينا هُوَ يكلمه، إذ جاء سُهيلُ بنُ عمرو، فقال النبى ﷺ: «قَدْ سُهِّلَ لَكُمْ من أمْرِكُم»، فقال: هاتِ، اكتُب بيننا وبينكم كِتابًا، فدعا الكاتب، فقال: «اكتُب بسم الله الرَّحْمنِ الرَّحيم». فقال سهيل: أما الرحمنُ، فوالله ما ندرى ما هُو، ولكن اكتب باسمِكَ اللَّهُمَّ كما كنتَ تكتبُ، فقال المسلمون: والله لا نكتُبها إلا بسمِ الله الرَّحمن الرحيم، فقال النبيُّ ﷺ: «اكْتُبْ باسْمِكَ اللَّهُمَّ»، ثم قال: «اكْتُبْ: هذا ما قاضى عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رسُولُ الله»، فقال سُهيل: فوالله لو كنَّا نعلمُ أنك رسولُ الله، ما صددناكَ عن البيت، ولا قاتلناك، ولكن اكتب:محمد بن عبد الله، فقال النبى ﷺ: «إنِّى رَسُولُ الله وإنْ كَذَّبْتُمُونى، اكْتُبْ: مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله» فَقَالَ النبيُّ ﷺ: «على أَنْ تخَلُّوا بَيْنَنَا وبَيْنَ البَيْتِ، فَنَطُوفَ بِهِ»، فقال سهيل: والله لا تتحدَّثُ العربُ أنَّا أُخِذْنَا ضَغْطَةً، ولكن ذلك مِن العام المقبل، فكتب، فقال سهيل: على أن لا يأتِيك مِنَّا رجل وإن كان

على دِينك إلا رددتَه إلينا، فقال المسلمون: سُبْحَانَ الله، كيف يُردُّ إلى المشركين، وقد جاء مسلمًا.

فبينا هُم كذلك، إذ جاء أبو جندل بن سهيل بن عمرو يرسُفُ فى قيوده قَدْ خَرَج من أسفل مكة حتى رَمَى بنفسه بين ظُهورِ المُسلمين، فقال سهيل: هذا يا محمدُ أول ما أقاضيكَ عليه أن تَرُدَّهُ إلىَّ، فقال النبى ﷺ: «إنَّا لم نقضِ الكتابَ بعد»، فقال: فوالله إذًا لا أُصَالحك على شىء أبدًا، فقال النبى ﷺ: «فَأَجِزْهُ لى»، قال: ما أنا بمجيزه لك. قال: «بلى فافعل»، قال: ما أنا بفاعل. قال مِكرز: بلى قد أجزناه. فقال أبو جندل: يا معشرَ المسلمين؛ أُرَدُّ إلى المشركين، وقد جِئتُ مسلمًا، ألا ترون ما لقيتُ؟ وكان قد عُذِّبَ فى الله عذابًا شديدًا، قال عُمَرُ بنُ الخطاب: والله ما شككتُ منذ أسلمتُ إلا يومئذ. فأتيتُ النبى ﷺ، فقلت:يا رسولَ الله؛ ألستَ نبى الله حقًّا؟ قال: «بلى»، قلتُ: ألسنا على الحق وعدوُّنا على الباطل؟ قال: «بلى»، فقلتُ: علامَ نُعطى الدَّنيَّةَ فى ديننا إذًا، ونَرْجِعَ ولما يَحْكُم اللَّهُ بيننا وبينَ أعدائنا؟ فقال: «إنِّى رَسُولُ الله، وَهُوَ نَاصِرِى، وَلَسْتُ أعْصِيه»، قلتُ: أوَ لستَ كنتَ تُحدثنا أنَّا سنأتى البيتَ ونطوفُ به؟ قال: «بَلَى، أَفَأَخْبَرْتُكَ أَنَّكَ تَأْتِيهِ العَام»؟، قلتُ: لا. قالَ: «فإنَّكَ آتيهِ ومُطَّوِّفٌ به». قال: فأتيتُ أبا بكر، فقلتُ له كما قلتُ لِرسول الله ﷺ، وردَّ علىَّ أبو بكر كما ردَّ علىّ رسول الله ﷺ سواء، وزاد: فاستَمْسِك بِغَرْزِهِ حَتَّى تَمُوتَ، فوالله إنَّه لَعَلى الحَقِّ. قال عُمر: فعملت لذلك أعمالًا.

عباد الله...

وللحديث بقية، فانتظروها بعد قليل، إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فلمَّا فرغ مِن قضية الكتاب، قال رسولُ الله ﷺ: «قُومُوا فَانْحَرُوا، ثم احْلِقُوا» فَوَالله مَا قَامَ مِنْهُمْ رجلٌ واحد حتى قال ذلك ثلاثَ مرات، فلما لم يَقُمْ مِنْهم أحد قام فدخل على أُمِّ سلمة، فذكر لها مَا لَقِيَ مِنَ الناس، فقالت أُمُّ سلمة: يا رسول الله؛ أَتُحِبُّ ذلك؟ اخرُجْ ثم لا تكلِّم أحدًا منهم كلمة حتى تَنْحَرَ بُدْنَك، وتدعو حَالِقَكَ فيحلقَكَ، فقام، فخرج، فلم يُكَلِّمْ أحدًا منهم حتى فعل ذلك: نحر بُدنه ودعا حَالِقه فحلقه، فلما رأى الناسُ ذلك، قامُوا فنحروا، وجعل بعضُهم يَحلق بعضًا، حتى كادَ بعضُهم يقتُلُ بعضًا غمًّا، ثم جاءه نسوةٌ مؤمناتٌ، فأنزل الله عز وجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا جَاءَكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ مُهَاجِرَاتٍ فَامْتَحِنُوهُنَّ﴾ حتى بلغ ﴿بِعِصَمِ الكَوَافِرِ﴾ [الممتحنة:١٠] فطلَّق عُمَرُ يومئذٍ امرأتين كانتا له في الشرك فتزوَّج إحداهُمَا معاوية، والأُخرى صفوان بن أُمية.

ثم رجع إلى المدينة، وفي مرجعه أنزل الله عليه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١، ٢]، فقال عمر: أَوَ فتحٌ هُوَ يا رسول الله؟ قال: «نعم»، فقال الصحابةُ: هنيئًا لكَ يا رَسُولَ الله، فما لَنَا؟ فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ...﴾ [الفتح: ٤] الآية.

ولما رجع إلى المَدِينة، جاءه أبو بصير رجل من قريش مسلمًا، فأرسلوا في طلبه رجلين، وقالوا: العهدَ الذي جعلتَ لنا، فدفعه إلى الرَّجلين، فخرجا به حتى بلغا ذا الحُلَيْفَةِ، فنزلوا يأكُلون مِن تمر لهم، فقال أبو بصير لأحد الرجلين: والله إني لأرى سيفَكَ هذا جيدًا، فاستلَّه الآخرُ، فقال: أَجَلْ والله إنه لجيد، لقد جربتُ به ثم جربت، فقال أبو بصير: أرني أنظر إليه، فأمكنه منه، فضربه به حتى برد، وفر الآخرُ بعدو حتى بلغ المدينة، فدخل المسجدَ، فقال رسولُ الله ﷺ حين رآه: «لقد

رأى هذا ذُعْرًا»، فلما انتهى إلى النبى ﷺ، قال: قُتِلَ والله صاحبى، وإنى لمقتول، فجاء أبو بصير، فقال: يا نبيَّ الله؛ قد والله أوفى الله ذِمَّتك، قد رددتنى إليهم، فأنجانى الله منهم، فقال النبيُّ ﷺ: «وَيْلُ أُمِّهِ مِسْعَرَ حَرْبٍ، لَوْ كَانَ لَهُ أَحَدٌ»، فلما سمِعَ ذلك، عرف أنه سيرده إليهم، فخرج حتى أتى سِيفَ البَحرِ، وينفلتُ منهم أبو جندل بنُ سهيل، فلحق بأبى بصير، فلا يخْرُجُ مِن قريش رجل قد أسلم إلا لحق بأبى بصير، حتى اجتمعت منهم عِصابة، فوالله لا يسمعُونَ بعيرٍ لقُريش خرجت إلى الشام إلا اعترضُوا لها، فقتلوهم، وأخذوا أموالهم، فأرسلت قريشٌ إلى النبيِّ ﷺ تُنَاشِدُهُ الله والرحم لـمَّا أرسل إليهم، فمَن أتاه منهم، فهو آمن، فأنزل الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ....﴾ حتى بلغ: ﴿حَمِيَّةَ الجَاهِلِيَّةِ﴾ [الفتح: ٢٤-٢٦]، وكانت حميتُهم أنهم لم يُقِرُّوا أنه نبى الله، ولم يُقروا بِبِسْمِ الله الرحمن الرحيم، وحالُوا بينهم وبين البيت(١).

وفي «الصحيح»: أن النبى ﷺ «توضأ، ومجَّ فى بئر الحديبية من فمه، فجاشتْ بالماءِ» كذلك قال البراء بنُ عازب، وسلمةُ بنُ الأكوع(٢).

وفى «صحيح البخارى»: عن جابر، قال: عَطِشَ الناسُ يومَ الحُديبية، ورسولُ الله ﷺ بين يديه رَكْوَة يتوضأ منها، إذ جَهَشَ الناسُ نحوه، فقال: «ما لكم؟» قالوا: يا رسُولَ الله؛ ما عندنا ماء نشرب، ولا ما نتوضأ إلا ما بينَ يديكَ، «فوضع يده فى الرَّكوة، فجعل الماءُ يفورُ من بين أصابعه أمثال العيون، فشربوا، وتوضؤوا، وكانوا خمسَ عشرة مائة(٣).

ثم ماذا؟

ثم جرى الصلح بين المسلمين وأهل مَكَّة، فعلى أيِّ شيء جرى هذا الصلح.

هذا ما سوف نبيِّنه في الخطبة القادمة - إن شاء الله تَعَالى- فإلى اللقاء.

---

(١) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢)، وأبو داود (٢٧٦٥)، وغيرهما.
(٢) أخرجه البخاري (٤١٥١)، ومسلم (١٨٠٧).
(٣) أخرجه البخاري (٤١٥٢)، وانظر «زاد المعاد» (٣/ ٢٦٠ - ٢٦٩).

الخطبة الرابعة بعد المائة:

[ب] قصَّة صُلح الحُديبية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «صلح الحديبية»، والدروس المستفادة منه.

عباد الله...

جرى الصلحُ بين المسلمين وأهلِ مكة على وضع الحربِ عشرَ سنين، وأن يأمنَ الناسُ بعضهم من بعض، وأن يَرجعَ عنهم عامَهُ ذلك، حتى إذا كان العامُ المقبل، قَدِمهَا، وخَلّوْا بينَه وبين مكَّة، فأقام بها ثلاثًا، وأن لا يدخُلَهَا إلا بسلاح الراكب، والسيوف فى القِرَب، وأنَّ مَن أتانا مِن أصحابكَ لم نرده عليك، ومَن

ـنكَ من أصحابنا رددتَه علينا، وأنَّ بيننا وبينَك عَيْبَةً مكفوفةً، وأنه لا إسْلالَ ولا غْلالَ[(١)]، فقالوا: يا رسولَ الله؛ نُعطيهم هذا؟ فقال: «مَنْ أتاهم منا فأبعَدَهُ اللَّهُ، ومَن تانا مِنهم فرددناه إليهم، جَعَلَ اللَّهُ له فَرَجًا ومخرجًا».

وفى قِصة الحُديبية، أنزل اللَّهُ عزَّ وجلَّ فِديةَ الأذى لمن حلق رأسَه بالصيام، أو صَدقة، أو النُّسك فى شأن كعب بن عُجرة[(٢)].

وفيها دعا رسولُ الله ﷺ للمُحَلِّقِينَ بالمَغْفِرَة ثلاثًا، ولِلمُقَصِّرِينَ مَرَّةً[(٣)].

وفيها نحرُوا البَدَنَةَ عن سَبْعَةٍ، والبَقَرَةَ عَنْ سَبْعَةٍ.

وفيها أهدى رسولُ الله ﷺ فى جملة هَدْيِهِ جملًا كان لأبى جهلٍ كان فى أنفه بُرَةٌ مِنْ فِضَّةٍ لِيغيظَ بِهِ المشركين.

وفيها أُنزِلَتْ سورةُ «الفتح»، ودخلت خُزاعة فى عَقْدِ رسولِ الله ﷺ وعهده، ودخلَتْ بنو بكر فى عقد قريش وعهدهم، وكان فى الشرط أن مَن شاء أن يدخل فى عقده ﷺ دخل، ومَن شاء أن يدخل فى عقد قريش دخل.

ولما رجع إلى المدينة جاءه نساء مؤمناتٌ، مِنهن أُمُّ كُلثُوم بنتُ عقبة بن أبي معيط، فجاء أهلُهَا يسألونها رسولَ الله ﷺ بالشرطِ الذى كانَ بينهم، فلم يَرْجِعْها إليهم، ونهاهُ اللَّهُ عزَّ وجلَّ عن ذلك، فقيل: هذا نسخ للشرط فى النساء. وقيلتخصيص للسُّـنَّة بالقرآن، وهو عزيزٌ جدًا. وقيل: لم يقع الشرطُ إلا على الرجال خاصة، وأراد المشركون أن يُعَمِّمُوهُ فى الصنفين، فأبى الله ذلك.

عباد الله...

وفي «قصة الحديبية» فوائد فقهية كثيرة[(٤)]:

فمنها: اعتمارُ النبى ﷺ فى أشهر الحجِّ، فإنه خرج إليها فى ذى القعدة.

---

(١) حديث صحيح.
(٢) حديث صحيح.
(٣) حديث صحيح.
(٤) هذه الفوائد، نقلناها من «زاد المعاد» بتمامها لأهميتها.

ومنها: أن الإحرامَ بالعُمرة من الميقات أفضلُ، كما أن الإحرامَ بالحجِّ كذلك، فإنه أحرم بهما مِن ذى الحُليفة، وبينها وبينَ المدينة ميلٌ أو نحوُه، وأما حديث: «مَنْ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ مِنْ بَيْتِ المَقْدِسِ، غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ ومَا تَأَخَّرَ» وفى لفظ: «كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ» فحديث لا يثبُت، وقد اضطرب فيه إسنادًا ومتنًا اضطرابًا شديدًا.

ومنها: أن سَوْقَ الهَدى مسنونٌ فى العُمرة المفرَدَة، كما هو مسنون فى القِران.

ومنها: أن إشْعَارَ الهَدى سُـنَّة لا مُثلَةٌ منهى عنها.

ومنها: استحبابُ مُغايظة أعداءِ الله، فإن النبىَّ ﷺ أهدى فى جُملة هَدْيه جملًا لأبى جهل فى أَنْفِهِ بُرَةٌ مِن فضةٍ يَغيظُ به المشركين، وقد قال تعالى فى صفة النبى ﷺ وأصحابه: ﴿وَمَثَلُهُمْ فِى الإنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فآزَرَهُ فاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال عزَّ وجلَّ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلا نَصَبٌ وَلاَ مَخْمَصَةٌ فِى سَبِيلِ الله وَلا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكُفَّارَ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍ نَيْلًا إلا كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ، إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْرَ المُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

ومنها: أن أميرَ الجيشِ ينبغى له أن يبعثَ العُيونَ أمامه نحوَ العدو.

ومنها: أن الاستعانَةَ بالمُشرِكِ المأمونِ فى الجهاد جائزةٌ عند الحاجة، لأن عَيْنَه الخزاعىَّ كَانَ كافرًا إذ ذاك، وفيه مِن المصلحة أنه أقربُ إلى اختلاطه بالعدوِّ، وأخذه أخبارهم.

ومنها: استحبابُ مشورةِ الإمام رعيَّته وجيشه، استخراجًا لوجه الرأى، واستطابةً لنفوسهم، وأمنًا لِعَتْبِهِم، وتعرفًا لمصلحةٍ يختصُّ بعلمها بعضُهم دون بعض، وامتثالًا لأمر الربِّ فى قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد مدَحَ سبحانه وتعالى عباده بقوله: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ [الشورى: ١٣٨].

ومنها: جواز سبى ذرارى المشركينَ إذا انفردُوا عن رجالهم قبل مقاتلة الرجال.

ومنها: ردُّ الكَلام الباطِل ولو نُسِبَ إلى غير مُكَلَّفٍ، فإنهم لما قالوا: خلأتِ القَصْوَاءُ، يعنى حَرَنَتْ وألَحَّتْ، فلَمْ تَسِرْ، والخِلاء فى الإبل بكسر الخاء والمدِّ نظير الحِران فى الخيل، فلما نسبُوا إلى الناقة ما ليس من خُلُقِهَا وطبعها، ردَّهُ عليهم، وقال: «ما خَلأَتْ ومَا ذَاكَ لَهَا بِخُلُق»، ثم أخبر ﷺ عن سبب بروكها، وأن الذى حَبَسَ الفيلَ عن مكة حبسها للحكمة العظيمة التى ظهرت بسبب حبسها، وما جرى بعده.

ومنها: أن تسميةَ ما يُلابسه الرجلُ مِن مراكبه ونحوها سُنَّة.

ومنها: جوازُ الحَلِف، بل استحبابُه على الخبر الدينى الذى يريد تأكيده، وقد حُفِظَ عن النبى ﷺ الحَلِف فى أكثر من ثَمانِينَ موضعًا، وأمره الله تعالى بالحَلِفِ على تصدِيقِ ما أخبر به فى ثلاثة مواضِعَ: فى «سورة يونس» (١)، و«سبأ» (٢)، و«التغابن» (٣).

ومنها: أن المُشْرِكين، وأهلَ البِدَع والفجور، والبُغَاة والظَّلَمة، إذا طَلَبُوا أمرًا يُعَظِّمُونَ فيه حُرمةً مِن حُرُماتِ الله تعالى، أُجيبُوا إليه وأُعطوه، وأُعينوا عليه، وإن مُنِعوا غيره، فيُعاوَنون على ما فيه تعظيم حرمات الله تعالى، لا على كفرهم وبَغيهم، ويُمنعون مما سوى ذلك، فكُلُّ مَن التمس المعاونةَ على محبوب لله تعالى مُرْضٍ له، أُجيبَ إلى ذلك كائنًا مَن كان، ما لم يترتَّب على إعانته علىَ ذلك المحبوبِ مبغوضٌ لله أعظمُ منه.

وهذا مِن أدقِّ المواضع وأصعبِهَا، وأشقِّهَا على النفوس، ولذلك ضاق عنه من الصحابة مَن ضاق، وقال عمر ما قال، حتَّى عَمِلَ له أعمالًا بعده (٤)، والصِّدِّيقُ تلقاه بالرضى والتسليم، حتى كان قلبُه فيه على قلبِ رسولِ الله ﷺ، وأجاب عُمَرَ

---

(١) قال تَعَالَى: ﴿وَيَسْتَنْبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾ [يونس: ٥٣].

(٢) قال تَعَالَى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لاَ تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾ [سبأ: ٣].

(٣) قال تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ﴾ [التغابن: ٧].

(٤) أخرجه البخاري (٢٧٢١، ٢٧٢٢).

عما سأل عنه من ذلك بعَيْن جوابِ رسول الله ﷺ، وذلك يدل على أن الصِّدِّيق رضى الله عنه أفضلُ الصحابة وأكملُهم، وأعرفُهم بالله تعالى ورسوله ﷺ، وأعلمُهم بدينه، وأقومُهم بمحابِّه، وأشدُّهم موافقةً له، ولذلك لم يسأل عمر عما عَرَضَ له إلا رسولَ الله ﷺ وصِدِّيقَه خاصة دونَ سائر أصحابه.

ومنها: أن النبى ﷺ عَدَلَ ذاتَ اليمين إلى الحُديبية. قال الشافعى: بعضُهَا مِن الحِل، وبعضُها مِن الحَرَم.

وروى الإمام أحمد فى هذه القصة أن النبى ﷺ كان يُصلِّى فى الحرم، وهو مضطرب فى الحِل[1]، وفى هذا كالدّلالة على أن مضاعفةَ الصلاة بمكة تتعلق بجميع الحرم لا يخصُّ بها المسجد الذى هو مكانُ الطواف، وأن قوله: «صَلاَةٌ فِى المَسْجِدِ الحَرَام أَفْضَلُ مِنْ مِائة صَلاةٍ فِى مَسْجِدى»[2].

كقوله تعالى: ﴿فَلا يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِى أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ [الإسراء: ١]، وكان الإسراء مِن بيت أُم هانئ.

ومنها: أن مَن نزل قريبًا مِن مكة، فإِنَّهُ ينبغى له أن ينزل فى الحِلِّ، ويصلى فى الحَرم، وكذلك كان ابنُ عمر يصنعُ.

ومنها: جوازُ ابتداءِ الإمام بطلب صلح العَدُوِّ إذا رأى المصلحةَ للمسلمين فيه، ولا يَتوقَّفُ ذلكَ على أن يكون ابتداءُ الطلب منهم.

وفى قِيام المغيرة بن شعبة على رأس رسول الله ﷺ بالسيف، ولم يكن عادته أن يُقام على رأسه، وهو قاعد، سُـنَّةٌ يُقتدى بها عند قدومِ رسل العدو من إظهار العزِّ والفخر، وتعظيم الإمام، وطاعته، ووقايته بالنفوس، وهذه هى العادة الجارية عند قدوم رسل المؤمنين على الكافرين، وقدوم رسل الكافرين على المؤمنين، وليس هذا من هذا النوع الذى ذمَّه النبى ﷺ بقوله: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يَتَمَثَّلَ لَهُ الرِّجَالُ

---

(١) صحيح: انظر السابق.

(٢) أخرجه البخاري (١١٩٠)، ومسلم (١٣٩٤).

قِيَامًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِن النَّار» (١)، كما أن الفخرَ والخُيلاء فى الحرب ليسا من هذا النوع المذموم فى غيره، وفى بعث البُدْنِ فى وجه الرسول الآخر دليل على استحباب إظهارِ شعائر الإسلام لرسل الكفار.

وفى قول النبى ﷺ للمغيرة: «أَمَّا الإِسْلامَ فَأَقْبلُ، وَأَمَّا المَالُ فَلَسْتُ مِنْهُ فى شىء» (٢)، دليل على أن مال المشرك المعاهَد معصوم، وأنه لا يملكُ، بل يُرد عليه، فإن المغيرةَ كان قد صحبهم على الأمان، ثم غدر بهم، وأخذ أموالهم، فلم يتعرَّض النبى ﷺ لأموالهم، ولا ذبَّ عنها، ولا ضمنها لهم، لأن ذلك كان قبل إسلام المغيرة.

وفى قول الصِّدِّيق لعروة: امصُصْ بَظْرَ اللاَّتِ، دليلٌ على جواز التصريح باسم العَوْرة إذا كان فيه مصلحة تقتضيها تلك الحال، كما أذن النبى ﷺ أن يُصرَّح لمن ادَّعى دعوى الجاهلية بِهَنِ أبيه، ويقال له: اعضُضْ أيْرَ أبيك، ولا يُكْنَى له، فلكل مقام مقال.

ومنها: احتمالُ قِلَّةِ أدبِ رسولِ الكُفار، وجهلِه وجفوته، ولا يقابَل على ذلك لما فيه من المصلحة العامة، ولم يُقابل النبيُّ ﷺ عُروةَ على أخذهِ بلحيته وقتَ خطابه، وإن كانت تلك عادَة العرب، لكن الوقارَ والتعظيمَ خلافُ ذلك.

وكذلك لم يُقابل رسولُ الله ﷺ رَسولى مسيلمةَ حين قالا: نشهدُ أنه رسول الله، وقال: «لَوْلا أَنَّ الرُّسُلَ لا تُقْتَلُ لَقَتَلْتُكُمَا» (٣).

ومنها: طهارة النُّخَامَةِ، سواء أكانت من رأسٍ أو صدرٍ.

ومنها: طهارةُ الماءِ المستعملِ.

ومنها: استحبابُ التفاؤُل، وأَنَّهُ ليس مِن الطِّيَرةِ المكْرُوهَة، لقوله لما جاء سهيل: «سَهُلَ أَمْرُكُم» (٤).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٥٢٢٩).
(٢) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).
(٣) صحيح.
(٤) أخرجه البخاري (٢٧٣١، ٢٧٣٢).

ومنها: أن المشهودَ عليه إذا عُرِفَ باسمه واسمِ أبيه، أغنى ذلك عن ذِكر الجَدِّ. لأن النبيَّ ﷺ لم يزد على محمد بن عبد الله، وقَنِعَ مِن سهيل بذكر اسمه واسم أبيه خاصة، واشتراطُ ذِكر الجد لا أصل له، ولما اشترى العَدَّاءُ بْنُ خالد منه ﷺ الغلامَ فكتب له: «هذا مَا اشْتَرَى العَدَّاءُ بْنُ خَالِدِ بن هَوْذَةَ»[(١)] فذكر جده، فهو زيادةُ بيان تَدُلُّ على أنه جائز لا بأس به، ولا تَدُلُّ على اشتراطه، ولما لم يكُنْ فى الشهرة بحيث يُكتفى باسمه واسم أبيه ذكر جده، فيُشترط ذِكْرُ الجد عند الاشتراك فى الاسم واسم الأب، وعند عدمِ الاشتراك، واكتُفى بذكر الاسم واسمِ الأب.. والله أعلم.

ومنها: أن مصالحةَ المشركين ببعض ما فيه ضَيْمٌ على المُسلمينَ جائزةٌ للمصلحة الراجحة، ودفع ما هو شر منه، ففيه دفعُ أعلى المفسدتينِ باحتمالِ أدناهما.

ومنها: أن مَن حَلَفَ على فِعْلِ شيء، أو نَذَره، أو وَعَدَ غيرَه به ولم يُعيِّن وقتًا، لا بلفظه، ولا بنيته، لم يكن على الفور، بل على التراخى.

عباد الله...

هَذِهِ بعض الدروس المستفادة من «صلح الحديبية»، وسيأتي المزيد بعد قليل، إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الدروس المستفادة من «صلح الحديبية» أيضًا:

أن الحلاقَ نُسُكٌ، وأنه أفضلُ من التقصير، وأنه نُسُكٌ فى العُمرةِ، كما هو

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١٢٢٠)، وابن ماجه (٢٢٥١).

نُسُكٌ فى الحجِّ، وأنه نُسُكٌ فى عُمرة المحصور، كما هو نُسُك فى عُمرة غيره.

ومنها: أن المُحْصَرَ ينحرُ هَدْيَه حيث أُحْصِرَ من الحِلِّ أو الحَرَم، وأنه لا يجب عليه أن يُواعِدَ مَن ينحرُهُ فى الحرم إذا لم يَصِل إليه، وأنه لا يتحلل حتى يصل إلى محله، بدليل قوله تعالى: ﴿وَالْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُ﴾ [الفتح: ٢٥].

ومنها: أن الموضِعَ الذى نحر فيه الهَدْى، كان من الحِلِّ لا من الحرم، لأن الحَرَمَ كُلَّهُ محلُّ الهَدْى.

ومنها: أن المُحْصَرَ لا يجب عليه القضاءُ، لأنه ﷺ أمرَهم بالحلق والنحر، ولم يأمر أحدًا منهم بالقضاء، والعُمْرةُ من العام القابل لم تكن واجبةً، ولا قضاءً عن عُمرة الإحصار، فإنهم كانُوا فى عُمرة الإحصار ألفًا وأربعمائة، وكانوا فى عُمرة القضيةِ دُون ذلك، وإنما سُمِّيت عُمرةَ القضية والقضاء، لأنها العُمرة التى قاضاهم عليها، فأُضيفت العُمرة إلى مصدر فعله.

ومنها: أن الأمر المطلقَ على الفور وإلا لم يَغْضَبْ لِتأخيرهم الامتثال عن وقت الأمر، وقد اعتذر عن تأخيرهم الامتثال بأنَّهُم كانوا يَرْجُون النسخ، فأخَّروا متأوِّلين لذلك، وهذا الاعتذارُ أولى أن يُعتذر عنه، وهو باطل، فإنه ﷺ لو فَهِمَ منهم ذلك، لم يشتَدَّ غضبُه لتأخير أمره، وإنما كان تأخيرُهم مِن السعى المغفور لا المشكور، وقد رضىَ الله عنهم، وغفر لهم، وأوجب لهم الجنَّة.

ومنها: أن الأصل مشارَكَةُ أُمَّتِهِ له فى الأحكام، إلا ما خصَّه الدليلُ، ولذلك قالت أُمُّ سلمة: «اخرُجْ ولا تُكَلِّمْ أحدًا حتى تَحْلِقَ رأسك وتنحر هَدْيك»، وعلمت أن الناس سيتابعونه.

فإن قيل: فكيف فعلوا ذلك اقتداءً بفعله، ولم يمتثِلُوه حين أمرهم به؟

قيل: هذا هو السببُ الذى لأجله ظنَّ مَن ظنَّ أنهم أخَّروا الامتثال طمعًا فى النسخ، فلما فعلَ النبىُّ ﷺ ذلك، عَلِمُوا حينئذ أنه حكم مُسْتَقِرٌ غيرُ منسوخ، وقد تقدم فسادُ هذا الظن، ولكن لما تغيَّظَ عليهم، وخرج ولم يُكلمهم، وأراهُم أنه بادر إلى امتثال ما أمر به، وأنه لم يُؤخِّر كتأخيرهم، وأن اتباعهم له وطاعتَهم تُوجِبُ

اقتداءهم به، بادرُوا حينئذ إلى الاقتداء به وامتثالِ أمره.

ومنها: جوازُ صُلحِ الكُفَّارِ على ردِّ مَن جاء منهم إلى المسلمين، وألا يُرد مَنْ ذهب من المسلمين إليهم، هذا فى غير النساء، وأما النساء، فلا يجوزُ اشتراطُ رَدِّهن إلى الكفار، وهذا موضعُ النسخ خاصة فى هذا العقد بنص القرآن، ولا سبيلَ إلى دعوى النسخ فى غيره بغير موجب.

ومنها: أن خُروجَ البُضع من ملك الزوج متقوَّم، ولذلك أوجبَ اللَّهُ سبحانه ردَّ المهر على مَن هاجرت امرأتُه، وحِيلَ بينَه وبينها، وعلى مَن ارتدَّت امرأتُه مِن المسلمين إذا استحق الكفارُ عليهم ردَّ مهورِ مَن هاجر إليهم مِن أزواجهم. وأخبر أن ذلك حُكمُه الذى حكم به بينهم، ثم لم ينسخه شىءٌ، وفى إيجابِه ردَّ ما أعطى الأزواجُ من ذلك دليلٌ على تقوُّمه بالمسمَّى، لا بمهر المثل.

ومنها: أن ردَّ مَن جاء من الكفار إلى الإمام لا يتناول مَن خرج منهم مسلمًا إلى غيرِ بلدِ الإمام، وأنه إذا جاء إلى بلد الإمام، لا يجبُ عليه ردُّه بدون الطلب، فإن النبى ﷺ لم يَرُدَّ أبا بصير حين جاءه، ولا أكرهه على الرجوع، ولكن لما جاؤوا فى طلبه، مكَّنهم من أخذه ولم يكرهْهُ على الرجوع.

ومنها: أن المعاهدين إذا تسلَّموه وتمكَّنُوا منه فقتل أحدًا منهم لم يضمنه بديةٍ ولا قَوَدٍ، ولم يضمنه الإمام، بل يكون حكمه فى ذلك حُكمَ قتله لهم فى ديارهم حيث لا حكم للإمام عليهم، فإن أبا بصيرٍ قتل أحد الرجلين المعاهَدَيْنِ بذى الحُلَيْفَةِ، وهى مِن حُكم المدينة، ولكن كان قد تسلَّموه، وفُصِلَ عن يد الإمام وحكمه.

ومنها: أن المعاهَدِينَ إذا عاهدوا الإمام، فخرجت منهم طائفة، فحاربتهم، وغَنِمَتْ أموالهم، ولم يَتَحَيَّزُوا إلى الإمام، لم يجب على الإمام دفعُهم عنهم، ومنعُهم منهم، وسواءٌ دخلوا فى عَقدِ الإمام وعهده ودينه، أو لم يدخلوا، والعهدُ الذى كان بين النبىِّ ﷺ وبين المشركين، لم يكن عهدًا بين أبى بصير وأصحابه وبينهم، وعلى هذا فإذا كان بين بعضِ ملوكِ المسلمين وبعضِ أهلِ الذِّمةِ من النصارى وغيرِهم

عهد، جاز لملك آخر مِن ملوك المسلمين أن يَغْزُوَهُم، ويغنَم أموالهم إذا لم يكن بينه وبينهم عهد، كما أفتى به شيخُ الإسلام فى نصارى مَلَطْيَةَ[١] وسبيهم، مستدلًا بقصة أبى بصير مع المشركين[٢].

عباد الله...

هَذِهِ بعض الدروس المستفادة من «صلح الحديبية»، وفي الخطبة القادمة نتكلم إن شاء الله تَعَالى، عن بعض الحكم التي تضمنتها هَذِهِ الهدنة، فإلى اللقاء.

اللَّهُمَّ أعنَّا عَلَى ذِكرِك، وشُكرك، وحُسْن عبادتك.

آمين... آمين... آمين

وآخر دعوانا أن الحمد لله ربِّ العالمين

❁❁❁❁❁

(١) ملطية: بلدة من بلاد الروم.

(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٢٦٩، ٢٧٩).

الخطبة الخامسة بعد المائة:

[جـ] قصّة صُلح الحُديبية

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنشير فِي هَذِهِ الخطبة - إن شاء الله تَعَالَى - إلى بعض الحِكم التي تضمنتها هُدنة صُلح الحُديبية، والله الموفق، لا إله غيره، ولا ربَّ سِواه.

عباد الله...

قَالَ الشيخ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - تحت عِنوان: **(فصل فى الإشارة إلى بعضِ الحِكم التى تضمَّنتها هذه الهدنة)**:

قال: وهى أكبرُ وأجَلُّ مِن أن يُحيط بها إلا اللهُ الذى أحكم أسبابَها، فوقعت

الغايةُ على الوجه الذى اقتضته حكمته وحمدُه.

فمنها: أنها كانت مُقَدِّمةً بين يدى الفتح الأعظم الذى أعزَّ اللهُ بهِ رسولَه وجندَه، ودخل الناس به فى دين الله أفواجًا، فكانت هذه الهُدنة بابًا له، ومفتاحًا، ومؤذِنًا بين يديه، وهذه عادةُ الله سبحانه فى الأُمور العظام التى يقضيها قدرًا وشرعًا، أن يُوطِّئَ لها بين يديها مقدمات وتوطئات، تُؤذِنُ بها، وتدُلُّ عليها.

ومنها: أن هذه الهُدنة كانت من أعظم الفُتوح، فإن الناسَ أَمِنَ بعضُهم بعضًا، واختلطَ المسلمون بالكفار، وبادؤوهم بالدعوة، وأسمعوهم القُرآن، وناظرُوهم على الإسلام جهرةً آمنين، وظهر مَن كان مختفيًا بالإسلام، ودخل فيه فى مُدة الهُدنة مَن شاء الله أن يدخل، ولهذا سماه الله ﴿فَتْحًا مُّبِينًا﴾. قال ابن قتيبة: قضينا لك قضاءً عظيمًا، وقال مجاهد: هو ما قضى الله له بالحُديبية.

وحقيقة الأمر: أن الفتح فى اللُّغة فتحُ المغلق، والصلح الذى حصل مع المشركين بالحديبية كان مسدودًا مُغلقًا حتى فتحه الله، وكان مِن أسباب فتحه صدُّ رسولِ الله ﷺ وأصحابهِ عن البيت، وكان فى الصورة الظاهرة ضيمًا وهضمًا للمسلمين، وفى الباطن عزًّا وفتحًا ونصرًا، وكان رسولُ الله ﷺ ينظر إلى ما وراءَهُ مِن الفتح العظيم، والعزِّ، والنصرِ من وراء ستر رقيق، وكان يُعطى المشركين كلَّ ما سألوه مِن الشروط، التى لم يحتملها أكثر أصحابه ورؤوسهم، وهو ﷺ يعلم ما فى ضمن هذا المكروه من محبوب: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُواْ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وَرُبَّمَا كَانَ مَكْرُوهُ النُّفُوسِ إلى ... مَحْبوبِهَا سَبَبًا مَا مِثْلُه سَبَبُ

فكان يَدْخُلُ على تلك الشروط دخولَ واثِق بنصر الله له وتأييده، وأن العاقِبَةَ له، وأن تلك الشروطَ واحتمالها هو عَيْنُ النصرة، وهو مِن أكبر الجند الذى أقامه المشترطون، ونصبُوه لحربهم، وهم لا يشعرون، فذلُّوا مِن حيث طلبوا العز، وقُهِرُوا من حيثُ أظهروا القدرة والفخر والغلبة، وعزَّ رسولُ الله ﷺ وعساكِرُ الإسلام من حيث انكسروا لله، واحتملُوا الضَّيْم له وفيهِ، فدار الدَّورُ، وانعكس الأمرُ، وانقلب العِزُّ بالباطل ذُلًا بحقٍ، وانقلبت الكَسرة لله عزًّا بالله، وظهرت

حِكمة الله وآياتُه، وتصديقُ وعده، ونصرةُ رسوله على أتمِّ الوجوهِ وأكملِها التى لا اقتراح للعقول وراءها.

ومنها: ما سبَّبه سبحانه للمؤمنين من زيادة الإيمان والإذعانِ، والانقيادِ على ما أحبُّوا وكرهوا، وما حصل لهم فى ذلك من الرضى بقضاء الله، وتصديقِ موعوده، وانتظارِ ما وُعِدُوا به، وشهودِ مِنَّة الله ونِعْمتِهِ عليهم بالسَّكِينَةِ التى أنزلها فى قُلوبهم، أحوج ما كانوا إليها فى تلك الحال التى تَزَعْزَعُ لها الجبالُ، فأنزل الله عليهم من سكينته ما اطمأنت به قلوبُهم، وقويت به نفُوسُهم، وازدادوا به إيمانًا.

ومنها: أنه سبحانه جعل هذا الحكم الذى حكم به لِرسوله وللمؤمنين سببًا لما ذكره مِن المغفرة لرسوله ما تقدَّم مِن ذنبه وما تأخَّر، ولإتمام نِعمتِهِ عليه،ولهدايته الصِّراطَ المستقيم، ونصره النصر العزيز، ورضاه به، ودخوله تحته، وانشراح صدره به مع ما فيهِ من الضيم، وإعطاءِ ما سألوه، كان من الأسباب التى نال بها الرسولُ وأصحابُه ذلك، ولهذا ذكره الله سبحانه جَزَاءً وغاية، وإنما يكون ذلك على فِعل قام بالرسول والمؤمنين عند حكمه تعالى، وفتحه.

وتأمل كيف وصفَ سبحانه النصرَ بأنه عزيزٌ فى هذا الموطن، ثم ذكر إنزالَ السكينة فى قلوبِ المؤمنين فى هذا الموطنِ الذى اضطربت فيهِ القلوبُ، وقَلِقَتْ أشدَّ القلق، فهى أحوجُ ما كانت إلى السكينةِ، فازدادوا بها إيمانًا إلى إيمانهم، ثم ذكر سُبحانه بَيْعتَهم لِرسوله، وأكَّدها بكونها بَيْعةً له سبحانه، وأن يَده تعالى كانت فوقَ أيديهم إذ كانت يدُ رسول الله ﷺ كذلك، وهو رسولُه ونبيُّه، فالعقدُ معه عقدٌ مع مُرْسِلِهِ، وبَيْعته بيعته، فمن بايعه، فكأنما بايع الله، ويدُ الله فوقَ يده.

ثم أخبر أن ناكِثَ هذه البيعة إنما يعود نكثُه على نفسه، وأن للمُوَفِّى بها أجرًا عظيمًا فَكُلُّ مؤمن فقد بايع الله على لسان رسوله بَيْعة على الإسلام وحقوقه، فناكِث ومُوفٍ.

ثم ذكرَ حالَ مَن تخلَّفَ عنه من الأعراب، وظنهم أسوأ الظَّنِّ بالله: أَنَّهُ يخذُل رسولَه وأولياءَه، وجندَه، ويُظْفِرُ بهم عدوَّهم، فلن ينقلبوا إلى أهليهم، وذلك مِن

جهلهم بالله وأسمائِهِ وصِفاتِه، وما يليق به، وجهلهم برسوله وما هُوَ أهل أن يُعامِلَه به ربُّه ومولاه.

ثم أخبرسبحانه عن رضاه عن المؤمنين بدخولهم تحت البَيْعة لرسوله، وأنه سبحانه علم ما فى قلوبهم حينئذ مِن الصِّدق والوفاء، وكمال الانقياد، والطاعة، وإيثار الله ورسولِهِ على ما سواهُ، فأنزل الله السكينةَ والطُّمَأْنِينة، والرِّضى فى قلوبهم، وأثابهم على الرِّضى بحُكمه، والصبرِ لأمره فتحًا قريبًا، ومغانِمَ كثيرة يأخذونها، وكان أوَّلُ الفتح والمغانم فتحَ خَيْبَرَ، ومغانمها، ثم استمرت الفتوحُ والمغانمُ إلى انقضاء الدهر.

ووعدهم سبحانه مغانِمَ كثيرة يأخذونها، وأخبرهم أنه عجَّل لهم هذه الغنيمة، وفيها قولان:

أحدهما: أنه الصلحُ الذى جرى بينهم وبين عدوهم.

والثانى: أنها فتحُ خيبر وغنائمُها.

ثم قال: ﴿وَكَفَّ أَيْدِىَ النَّاسِ عَنكُمْ﴾ [الفتح: ٢٠]، فقيل: أيدى أهلِ مكة أن يقاتلوهم، وقيل: أيدى اليهود حين همُّوا بأن يغتالُوا مَنْ بالمدينة بعد خروج رسول الله ﷺ بمن معه من الصحابة منها، وقيل: هم أهل خيبر وحلفاؤهم الذين أرادوا نصرهم من أسَد وغطفان. والصحيح تناول الآية للجميع.

وقوله: ﴿وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الفتح: ٢٠].قيل: هذه الفعلة التى فعلها بكم، وهى كفُّ أيدى أعدائكم عنكم مع كثرتهم، فإنَّهُم حينئذٍ كان أهل مكة ومَن حولها، وأهلُ خيبر ومَنْ حولها، وأسَدٌ وغَطَفَان، وجمهورُ قبائل العرب أعداء لهم، وهم بينَهم كالشَّامَةِ، فلم يَصِلُوا إليهم بسوء، فمِن آياتِ الله سبحانه كفُّ أيدى أعدائهم عنهم، فلم يصلوا إليهم بسوء مع كثرتهم، وشدةِ عداوتهم، وتولى حراستهم، وحفظهم فى مشهدهم ومغيبهم.

وقيل: هى فتح خيبر، جعلها آية لعباده المؤمنين، وعلامة على ما بعدها من الفتوح، فإن اللهَ سبحانه وعدهم مغانِم كثيرة، وفتوحًا عظيمة، فعجَّل لهم فتحَ

خيبر، وجعلها آية لما بعدها، وجزاءًا لِصبرهم ورضاهم يومَ الحديبية وشكرانًا، ولهذا خصَّ بها وبغنائمها مَنْ شهد الحدَيبية. ثم قال: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا﴾ [الفتح: ٢٠]، فجمع لهم إلى النصرِ والظَّفَرِ والغنائم الهداية، فجعلهم مهديِّين منصُورين غانمين، ثم وعدهم مغانِمَ كثيرة وفُتوحًا أُخرى، لم يكونوا ذلك الوقت قادرين عليها، فقيل: هى مكَّةُ، وقيل: هى فارِس والروم، وقيل: الفتوحُ التى بعد خيبر من مشارق الأرض ومغاربها.

ثم أخبرسبحانه أن الكفار لو قاتلوا أولياءَه، لولَّى الكفارُ الأدبارَ غيرَ منصورين، وأن هذه سُنَّته فى عباده قبلَهم، ولا تبديلَ لسُنَّته.

فإن قيل: فقد قاتلُوهم يوم أُحُد، وانتصروا عليهم، ولم يولُّوا الأدبار؟

قيل: هذا وعد معلَّق بشرطٍ مذكور فى غير هذا الموضع، وهو الصبر والتقوى، وفات هذا الشرط يومَ أُحُد بِفَشَلِهم المنافى للصبر، وتنازعهم، وعصيانهم المنافى للتقوى، فصرفهم عن عدوهم، ولم يحصُل الوعدُ لانتفاء شرطه.

عباد الله...

ثم ذكرسبحانه أنه هو الذى كفَّ أيدى بعضِهم عن بعض من بعد أن أظفر المؤمنين بهم، لما لَه فى ذلك من الحِكم البالغة التى منها: أنه كان فيهم رجالٌ ونساء قد آمنوا، وهم يكتُمون إيمانَهم، لم يعلمْ بهم المسلمون، فلو سلَّطكم عليهم، لأصبتم أُولئك بمعرَّة الجيش، وكان يُصيبكم منهم معرَّةُ العُدوان والإيقاع بمن لا يستحق الإيقاع به، وذكرسبحانه حصول المعرَّةِ بهم من هؤلاء المستضعفين المستخفِّين بهم، لأنها موجبُ المعرَّة الواقعة منهم بهم، وأخبرسبحانه أنهم لو زايلوهم وتميَّزوا منهم، لعذَّب أعداءه عذابًا أليمًا فى الدنيا، إما بالقتلِ والأسر، وإما بغيره، ولكن دفع عنهم هذا العذَابَ لوجود هؤلاء المؤمنين بَيْنَ أظهرهم، كما كان يدفعُ عنهم عذابَ الاستئصال، ورسولُه بين أظهرهم.

ثم أخبرسبحانه عما جعله الكفارُ فى قلوبهم مِن حَمِية الجاهليةِ التى مصدرها الجهلُ والظُّلم، التى لأجلها صدُّوا رسولَه وعِبادَه عن بيته، ولم يُقِرُّوا ببسم الله الرحمن الرحيم، ولم يُقِرُّوا لمحمد بأنه رسول الله مع تحققهم صدقه، وتيقنِهم صحةَ

رسالته بالبراهين التى شاهدوها وسمعوا بها فى مدة عشرين سنة، وأضاف هذَا الجَعْلَ إليهم وإن كان بقضائه وقدره، كما يُضاف إليهم سائرُ أفعالهم التى هى بقُدرتهم وإرادتهم.

ثم أخبر سبحانه أنه أنزل فى قلبِ رسوله وأوليائه مِن السكينة ما هو مقابل لما فى قلوب أعدائه مِن حَمِيَّة الجاهلية، فكانت السكينةُ حظَّ رسوله وحِزبه، وحَمِيةُ الجاهلية حظَّ المشركين وجندهم، ثم ألزم عِبادَه المؤمنين كلمة التقوى، وهى جِنس يَعُمُّ كُلَّ كلمةٍ يُتقى الله بها، وأعلى نوعِها كلمةُ الإخلاص، وقد فُسِّرَتْ ببسم الله الرحمن الرحيم، وهى الكلمةُ التى أبت قريش أن تلتزِمها، فألزمها اللَّهُ أولياءَهُ وحزبه، وإنما حَرَمَهَا أعداءَهُ صيانة لها عن غير كفئها، وألزمها مَن هو أحقُّ بهَا وأهلها، فوضعها فى موضعها، ولم يُضيعها بوضعها فى غير أهلها، وهو العليم بمحالِّ تخصيصه ومواضعه.

ثم أخبر سبحانه أنه صدَقَ رسُولَه رؤياه فى دخولهم المسجدَ آمنين، وأنه سيكون ولا بُدَّ، ولكن لم يكن قد آن وقت ذلك فى هذا العام، واللَّهُ سبحانه عَلِمَ مِن مصلحة تأخيره إلى وقته ما لم تعلموا أنتم، فأنتم أحببتُم استعجالَ ذلك، والربُّ تعالى يعلم من مصلحة التأخير وحكمته ما لم تعلمُوه، فقدَّم بين يدى ذلك فتحًا قريبًا، توطئة له وتمهيدًا.

عباد الله...

وللحديث بقية، ستأتي بعد قليل إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ثم أخبرهم بأنه هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودينِ الحقِّ لِيُظهره على الدِّين

كُلِّه، فقد تكفَّل الله لهذا الأمر بالتمام والإظهار على جميع أديان أهلِ الأرض، ففى هذا تقوية لقلوبهم، وبِشارة لهم وتثبيتٌ، وأن يكونوا على ثقة مِن هذا الوعد الذى لا بُدَّ أن ينجزه، فلا تظنُّوا أن ما وقع من الإغماض والقهرِ يومَ الحُديبية نُصرة لعدوه، ولا تخليًا عن رسوله ودينه، كيف وقد أرسله بدينه الحقِّ، ووعده أن يُظهِرَه على كل دِينٍ سواه.

ثم ذكرسبحانه رسولَه وحزبَه الذين اختارهم له، ومدحهم بأحسن المدح، وذكر صفاتِهم فى التوراة والإنجيل، فكان فى هذا أعظمُ البراهين على صدق مَن جاء بالتوراة والإنجيل والقرآن، وأن هؤلاء هم المذكورون فى الكتب المتقدمة بهذه الصفات المشهورة فيهم، لا كما يقول الكفار عنهم: إنهم متغلِّبون طالبُو ملك ودنيا، ولهذا لما رآهم نصارى الشام، وشاهدوا هَدْيَهم وسيرتَهم، وعدلهم وعلمهم، ورحمَتهم وزهدَهم فى الدنيا، ورغبتهم فى الآخرة، قالوا: ما الذين صَحِبُوا المسيحَ بأفضلَ مِن هؤلاء، وكان هؤلاء النصارى أعرفَ بالصحابة وفضلهم من الرافضة أعدائهم، والرافضةُ تصفِهُم بضد ما وصفهم الله به فى هذه الآية وغيرها، ﴿وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة نواصل الحديث عن السيرة العطرة، فإلى اللقاء إن شاء الله تعالى.



الخطبة السادسة بعد المائة:

[أ] غزوة خَيبر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن السِّيرة النبويّة، ونتكلّم اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن «غزوة خَيبر».

عباد الله...

قال موسى بنُ عقبة: ولما قدِمَ رسولُ الله ﷺ المدينةَ مِن الحُديبية، مَكَثَ بها عشرين ليلةً أو قريبًا منها، ثم خرج غازيًا إلى خيبر، وكان اللَّهُ عزَّ وجلَّ وعده إياها، وهو بالحُديبية.

وقال مالك: كان فتحُ خيبرَ فى السنة السادسة، والجمهور: على أنها فى السابعة. وقطع أبو محمد بنُ حزم: بأنها كانت فى السادسةِ بلا شك.

وقال ابنُ إسحاق: حدثنى الزُّهرى، عن عُروة، عن مروانَ بن الحكم، والمِسور بنِ مَخْرَمَة، أنهما حدَّثاه جميعًا، قالا: انصرفَ رسولُ الله ﷺ عامَ الحُديبية، فنزلت عليه سورةُ الفتح فيما بينَ مكة والمدينة، فأعطاه اللَّهُ عزَّ وجلَّ فيها خيبرَ: ﴿وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ﴾ [الفتح: ٢٠] خيبر، فقدِم رسولُ الله ﷺ المدينةَ فى ذى الحجة، فأقام بها حتى سار إلى خيبر فى المحرَّم، فنزلَ رسولُ الله ﷺ بالرَّجيعِ: وادٍ بين خيبرَ وغَطَفَان، فتخوَّف أن تمدهم غَطَفَانُ، فبات به حتَّى أصبح، فغدا إليهم... انتهى.

واستخلف على المدينة سِباعَ بنَ عُرْفُطَةَ، وقَدِمَ أبو هريرة حينئذ المدينة، فوافى سِباعَ بنَ عُرفُطة[1] فى صلاة الصُّبحِ، فسمِعه يقرأ فى الركعة الأولى: ﴿كهيعص﴾ [مريم: ١]، وفى الثانية: ﴿وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ﴾ [المطففين: ١]، فقال فى نفسه: ويل لأبى فلان، له مِكيالان، إذا اكتال اكتالَ بالوافى، وإذا كال كال بالناقِص، فلما فرغ من صلاته، أتى سباعًا، فزوَّده حتى قَدِمَ على رسول الله ﷺ وكلَّم المسلمينَ، فأشْركُوه وأصحابه فى سُهمانهم[2].

وقال سلمةُ بنُ الأكوع: «خرجنا مع رسول الله ﷺ إلى خيبر، فسِرْنا ليلًا، فقال رجلٌ مِن القَوم لعامر بنِ الأكوع: ألا تُسمِعُنَا مِن هُنَيْهَاتِك، وكان عامر رجلًا شاعرًا؟ فنزل يَحْدُو بالقوم يقول:

اللَّهُمَّ لَوْلاَ أَنْتَ مَا اهْتَدَيْنَا ... وَلاَ تَصَدَّقْنَا وَلاَ صَلَّيْنَا
فاغْفِر فِدَاءً لَكَ مَا اقْتَفَيْنَا ... وَثَبِّتِ الأَقْدَامَ إنْ لاَقَيْنَا
وَأَنْزِلَنْ سَكِينةً عَلَيْنَا ... إنَّا إذا صِيحَ بِنَا أَتَيْنَا
وبالصِّيَاح عَوَّلُوا عَلَيْنَا ... وإنْ أرَادُوا فِتْنَةً أَبَيْنَا

(١) أخرجه الحاكم (٤٣٣٧)، قال الحافظ ابن حجر في «الفتح» (٧/ ٥٣١): وهو أصح.
(٢) أخرجه أحمد (٢/ ٣٤٥، ٣٤٦).

فقال رسولُ الله ﷺ: «مَنْ هَذَا السَّائِقُ»؟ قالوا: عامر. فقال: «رَحِمَهُ اللَّهُ»، فقال رجلٌ مِن القوم: وجبت يا رسولَ الله لولا أمتعتَنَا به. قال: فأتينا خيبر، فحاصرناهم حتى أصابتنا مخمصةٌ شديدة، ثم إنَّ الله تعالى فتح عليهم، فلما أَمْسَوْا، أوقدوا نيرانًا كثيرة، فقال رسولُ الله ﷺ: «مَا هَذِهِ النِّيرانُ، عَلَى أَيِّ شَىءٍ تُوقِدُونَ»؟ قالوا: على لحم. قال: «عَلَى أَيِّ لَحمٍ»؟ قالوا: على لحم حُمُر أنسية. فقال رسولُ الله ﷺ: «أهْريقُوها واكْسِرُوها»، فقال رجل: يا رسول الله؛ أو نُهْرِيقُها ونغسِلُها؟ فقال: «أو ذَاكَ»، فلما تصافّ القومُ، خرج مَرْحَب يخطُر بسيفه وهو يقول:

قَد عَلِمَتْ خَيْبَرُ أنى مَرْحَبُ شَاكى السِّلاحِ بَطَلٌ مُجَرَّبُ
إذا الحُرُوبُ أَقْبَلَتْ تَلَهَّبُ

فنزل إليه عامر وهو يقول:

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّى عَامِرُ شاكِى السِّلاح بَطَلٌ مُغامِرُ

فاختلفا ضربتين، فوقع سيفُ مَرْحَب فى ترس عامر، فذهب عامر يَسْفُلُ له، وكان سيفُ عامر فيه قِصر، فرجع عليه ذُباب سيفه، فأصابَ عينَ ركبته، فمات منه، فقال سلمة للنبيِّ ﷺ: زعمُوا أن عامرًا حَبِطَ عملُه، فقال: «كَذَبَ مَنْ قَالَهُ، إنَّ لَهُ أَجْرَيْنِ – وجمع بين أصبعيه – إنه لَجَاهِدٌ مُجاهِدٌ، قلَّ عربىٌّ مشى بها مِثْلَه»[(١)].

عباد الله...

ولما قَدِمَ رسولُ الله ﷺ خيبر، صلَّى بها الصُّبحَ، وركب المسلمون، فخرج أهلُ خيبر بمساحِيهم ومكاتِلهم، ولا يَشْعُرونَ، بل خرجُوا لأرضهم، فلما رأوا الجيش، قالوا: محمَّدٌ والله، محمَّدٌ والخميسُ، ثم رجعوا هاربين إلى حصونهم، فقال النبيُّ ﷺ: «اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، اللَّهُ أَكْبَرُ خَرِبَتْ خَيْبَرُ، إنَّا إذَا نَزَلْنَا بِسَاحَةِ قَوْم، فَسَاءَ صَبَاحُ الْمُنْذَرِين»[(٢)].

---

(١) رواه البخاري (٤١٩٦)، ومسلم (١٨٠٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤١٩٧)، ومسلم (١٣٦٥)، وغيرهما.

ولما دنا النبيُّ ﷺ وأشرف عليها، قال: «قفوا» فوقف الجيشُ، فقال: «اللَّهُمَّ رَبَّ السَّمواتِ السَّبْعِ وَمَا أَظْلَلْنَ، ورَبَّ الأَرَضينَ السَّبْعِ ومَا أَقْلَلْنَ، وربَّ الشَّيَاطِينِ وَمَا أَضْلَلْنَ، فإنَّا نَسْأَلُكَ خَيْرَ هذِهِ القَرْيَةِ وخَيْرَ أَهْلِها وَخَيْرَ مَا فِيهَا، ونَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هذِهِ القَرْيَةِ وشَرِّ أَهْلِهَا وشَرِّ مَا فيها، أَقْدِمُوا بِسْم الله».

ولما كانت ليلة الدخول، قال: «**لأُعْطِيَنَّ هذِهِ الرَّايَةَ غَدًا رَجُلًا يُحِبُّ اللهَ وَرَسُولَهُ، ويُحِبُّهُ اللَّهُ ورَسُولُهُ، يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ**»، فبات الناسُ يدوكون أيهُّم يُعطاها، فلما أصبح الناسُ، غَدَوْا على رسول الله ﷺ كُلُّهم يَرْجُو أن يُعطاها، فقال: «**أَيْنَ عَلِيُّ ابْنُ أبى طَالب**»؟فقالُوا: يا رسُولَ الله؛ هو يَشتكى عينيه. قال: «**فأَرْسِلُوا إِلَيْهِ**»، فأُتى به، فبصق رسولُ الله ﷺ فى عينيه، ودعا لهُ، فَبَرَأ حتَّى كأنْ لم يَكُنْ به وَجَعٌ، فأعطاهُ الرايَةَ، فقال: يا رسولَ الله؛ أُقاتِلهم حتى يكُونوا مثلنا؟ قال: «**انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِم، ثُمَّ ادْعُهُمْ إلى الإسْلامِ، وأَخْبِرْهُم بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ الله فيهِ، فَوَالله لأَنْ يَهْدِىَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا، خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ**»[(١)].

فخرج مَرْحَبٌ وهو يقول:

أنَـا الَّـذى سَـمَّتْنى أُمِّـى مَـرْحَبُ شَـاكِى الـسِّلاحِ بَطَـلٌ مُجَـرَّبُ

إذا الحُـرُوبُ أَقْـبَلَتْ تَلَهَّـبُ

فبرز إليه عليٌّ وهو يقول:

أنَـا الَّـذِى سَـمَّتْنى أُمِّـى حَـيْدَرَهْ كَلَـيْثِ غَابَـاتٍ كَـرِيهِ المَنْظَـرَهْ

أوفـيهمُ بالـصَّاعِ كَـيْلَ الـسَّنْدَرَهْ

فضرب مَرْحَبًا، ففلَق هامتَه، وكان الفتح[(٢)].

ولما دنا عليٌّ رضىَ الله عنه من حُصونهم، اطلع يهوديٌّ مِن رأس الحصن، فقال: مَنْ أنت؟ فقال: أنا عليُّ بنُ أبى طالب. فقال اليهودى: علوتُم وما أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى.

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢١٠)، ومسلم (٢٤٠٦)، وغيرهما.
(٢) أخرجه مسلم (١٨٠٧).

هكذا فى «صحيح مسلم»: أن عليَّ بن أبى طالب رضى الله عنه هو الذى قتل مَرْحَبًا.

وقال موسى بن عُقبة، عن الزهرى وأبى الأسود، عن عروة ويونس بن بكير، عن ابن إسحاق: حدَّثنى عبد الله بن سهل أحد بنى حارثة عن جابر بن عبد الله، أن محمَّد بن مسلمة هو الذى قتله، قال جابر فى حديثه: خرج مَرْحبُ اليهوديُّ مِن حصن خيبر قد جمع سِلاحه، وهو يرتجزُ ويقول: مَن يُبارِزُ؟ فقال رسول الله ﷺ : «مَنْ لِهَذَا»؟ فقال محمَّدُ بنُ مسلمة: أنا له يا رسولَ الله، أنا والله المَوْتُورُ الثائرُ، قتلوا أخى بالأمسِ، يعنى محمودَ بن مسلمة، وكان قُتِل بخيبر، فقال: «قُمْ إِلَيْهِ، اللَّهُمَّ أَعِنْهُ عَلَيْهِ»، فلما دنا أحدُهما مِن صاحبه، دخلَتْ بينهما شجرةٌ، فجعل كُلُّ واحد منهما يلوذُ بها من صاحبه، كلما لاذ بها منه اقتطع صاحبه بسيفه ما دونه منها، حتى برز كُلُّ واحد منهما لصاحبه، وصارت بينهما كالرجُل القائم، ما فيها فَنَن، ثُمَّ حملَ على محمد فضربه، فاتقاه بالدَّرقة، فوقع سيفُه فيها، فعضَّتْ به، فَأَمْسَكَتْهُ، وضربه محمَّدُ بن مسلمة فقتله[1]، وكذلك قال سلمة بن سلاَّمة، ومجمع بن حارثة: إن محمد بن مسلمة قتل مرحبًا.

قال موسى بن عقبة: ثم دخل اليهودُ حِصنًا لهم منيعًا يقال له: القَمُوص، فحاصرهم رسولُ الله ﷺ قريبًا مِن عشرينَ ليلة، وكانت أرضًا وَخِمَةً شَدِيدَةَ الحرِّ، فجُهِدَ المسلمون جَهْدًا شديدًا، فذبحوا الحُمُرَ فنهاهم رسول الله ﷺ عن أكلها، وجاء عبدٌ أسود حبشى من أهل خيبر، كان فى غنم لسيده، فلما رأى أهلَ خيبر قد أخذوا السلاح، سألهم ما تُريدون؟ قالوا: نُقاتل هذا الذى يزعم أنه نبيٌّ، فوقع فى نفسه ذكر النبى ﷺ ، فأقبل بغنمه إلى رسول الله ﷺ ، فقال: ماذا تقول وما تدعو إليه؟ قال: «أَدْعُو إِلى الإِسْلام، وأَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا إِلهَ إلا الله، وأَنِّى رَسُولُ الله، وأَنْ لا تَعْبُدَ إلا الله». قال العبدُ: فمالى إن شهدتُ وآمنتُ بالله عَزَّ وجَلَّ؟ قال: «لَكَ الجَنَّةُ إنْ مِتَّ على ذلكَ»، فأسلم، ثم قال: يا نبيَّ الله؛ إن هذه الغنم عندى أمانة، فقال له

---

(١) إسناده حسن.

رسول الله ﷺ: «أَخْرِجْها مِنْ عِنْدِكَ وارْمِها بالحَصْباءِ، فإنَّ اللهَ سَيُؤَدِّى عَنْكَ أَمَانَتَكَ». ففعل، فرجعت الغنم إلى سيِّدها، فعلم اليهودى أن غلامه قد أسلم، فقام رسولُ الله ﷺ فى الناس، فوَعَظهم، وحضَّهم على الجهاد، فلما التقى المسلمون واليهودُ. قُتِلَ فيمن قُتِلَ العبدُ الأسود، فاحتمله المسلمون إلى معسكرهم، فأُدخل فى الفُسْطَاطِ، فزعموا أن رسول الله ﷺ اطلع فى الفُسطاط، ثم أقبل على أصحابه وقال: «لَقَدْ أَكْرَمَ اللَّهُ هذا العَبْدَ، وسَاقَهُ إلى خَيْرٍ، وَلَقَدْ رَأَيْتُ عِنْدَ رَأْسِهِ اثْنَتَيْنِ مِنَ الحُورِ العِينِ، وَلَمْ يُصَلِّ لله سَجْدَةً قَطُّ»[١].

قال حمَّاد بن سلمة، عن ثابت، عن أنس: أتى رسولَ الله ﷺ رجلٌ فقال: يا رسولَ الله؛ إنى رجل أسودُ اللَّون، قبيحُ الوجه، مُنْتِنُ الرِّيح، لا مالَ لى، فإن قاتلتُ هؤلاء حتى أُقْتَلَ، أأدخلُ الجنَّة؟ قال: «نعم»، فتقدَّم، فقاتلَ حتَّى قُتِلَ، فأتى عليه النبيُّ ﷺ وهو مقتول، فقال: «لَقَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ وَجْهَكَ، وَطَيَّبَ رِيحَكَ، وَكَثَّرَ مَالَكَ»، ثم قال: «لَقَدْ رَأَيْتُ زَوْجَتَيْهِ مِنَ الحُورِ العينِ يَنْزِعَانِ جُبَّتَهُ عَنْهُ، يدْخُلانِ فِيما بَيْنَ جِلْدِهِ وجُبَّتِه»[٢].

وقال شدَّادُ بنُ الهاد: جاء رجل من الأعرابِ إلى النبى ﷺ، فآمنَ به واتَّبعه. فقَالَ: أُهاجِرُ معكَ، فأوصى به بعضَ أصحابه، فلما كانت غزوةُ خيبر، غَنِمَ رسولُ الله ﷺ شيئًا، فقسمه، وقسم للأعرابى، فأعطى أصحابه ما قسمه له، وكان يَرعى ظهرَهم، فلما جاء، دفعُوهُ إليه، فقال: ما هذا؟ قالوا: قَسْمٌ قَسَمَهُ لَكَ رَسُولُ الله ﷺ، فأخذهُ، فجاء به إلى النبيِّ ﷺ، فقال: ما هَذَا يا رسول الله؟ قال: «قَسْمٌ قَسَمْتُهُ لَكَ»، قال: ما على هذا اتبعتُك، ولكن اتبعتُك على أن أُرمى هاهنا وأشار إلى حَلْقِه بسهم، فأموتَ فأدخل الجنَّة، فقال: «إنْ تَصْدُقِ اللهَ يَصْدُقْكَ»، ثم نهض إلى قتال العدو، فأُتِى به إلى النبى ﷺ وهو مقتول، فقال: «أهو هو»؟ قالوا: نعم. قال: «صَدَقَ اللهَ فَصَدَقَهُ»، فكفَّنه النبيُّ ﷺ فى جبته، ثم قدَّمه، فصلَّى عليه، وكان مِن

---

(١) مرسل بهذا اللفظ: وأخرجه ابن وهب عن جابر مختصرًا بنحوه، وقال الذهبي في «تاريخ الإسلام» (١/ ٤٢١): حديث حسن أو صحيح.

(٢) صحيح: أخرجه البيهقي.

دعائه له: «اللَّهُمَّ هذا عَبْدُكَ خَرَجَ مُهاجِرًا فى سَبِيلِكَ، قُتِلَ شَهِيدًا، وأَنَا عَلَيْهِ شَهِيدٌ»[١].

قال الواقدى: وتحوَّلت اليهود إلى قلعة الزبير: حصنٍ منيع فى رأس قُلّةٍ، فأقام رسولُ الله ﷺ ثلاثةَ أيام، فجاء رجل من اليهود يقال له «عزال» فقال: يا أبا القاسم؛ إنك لو أقمتَ شهرًا ما بَالوا، إن لهم شرابًا وعُيونًا، تحتَ الأرض، يخرجُون بالليل، فيشربُون منها، ثم يرجعون إلى قلعتهم، فيمتنعُون منك، فإن قطعْت مشربَهم عليهم أصحَرُوا لك، فسار رسول الله ﷺ إلى مائهم، فقطعه عليهم، فلما قُطِع عليهم،خرجوا، فقاتلُوا أشد القتال، وقُتِلَ مِن المسلمين نَفَرٌ، وأُصيب نحو العشرة من اليهود، وافتتحه رسول الله ﷺ، ثم تحوَّل رسولُ الله ﷺ إلى أهل الكُتَيْبَةِ والوَطِيح[٢] والسُّلالِمِ حصنِ ابن أبى الحُقيق، فتحصَّن أهلُه أشد التحصن، وجاءهم كُل فَلٍّ كان انهزم مِن النَّطاة والشَّق، فإن خيبر كانت جانبين:

الأول:الشَّق والنَّطاة، وهو الذى افتتحه أولًا.

والجانب الثانى: الكُتيبة والوطيح والسُّلالم.

فجعلوا لا يخرجُون مِن حُصونهم حتى همَّ رسولُ الله ﷺ أن ينصبَ عليهم المَنجنيق، فلما أيقنُوا بالهَلَكَةِ، وقد حصرهم رسولُ الله ﷺ أربعةَ عشر يومًا، سألُوا رسولَ الله ﷺ الصُّلْحَ، وأرسل ابنُ أبى الحُقيق إلى رسولِ الله ﷺ: أنْزلُ فَأُكَلِّمك؟ فقال رسولُ الله ﷺ: «نعم»، فنزل ابنُ أبى الحُقيق، فصالَحَ رسول الله ﷺ على حقن دِماء مَنْ فى حُصونهم من المقاتلة وتركِ الذُّرِّيَّة لهم، ويخرجُون من خيبر وأرضِها بذراريهم، ويُخلُّون بين رسول الله ﷺ وبينَ ما كان لهم من مال وأرض، وعلى الصفراء والبيضاء، والكُراع والحلقة إلا ثوبًا على ظهر إنسان، فقال رسولُ الله ﷺ: «وَبَرِئَتْ مِنْكُم ذِمَّةُ الله وَذِمَّةُ رَسُولِهِ إنْ كَتَمْتُمونى شَيْئًا»، فصالحوه على ذلك.

---

(١) صحيح: أخرجه النسائي (٤/ ٦٠، ٦١).

(٢) الوطيح: حصن بخيبر.

قال حَمَّادُ بن سلمة: أنبأنا عبيد الله بن عمر، عن نافع، عن ابن عمر: «أن رسولَ الله ﷺ قاتل أهل خيبر حتى ألجأهم إلى قصرهم، فغلبَ على الزرعِ والنخل والأرض، فصالحُوه على أن يُجلوا منها، ولهم ما حملت ركابُهم ولِرسولِ الله ﷺ الصفراءُ والبيضاءُ، واشترط عليهم أن لا يكتموا ولا يُغَيِّبُوا شيئًا، فإن فعلُوا فلا ذِمَّةَ لهم ولا عهد، فغيَّبوا مَسْكًا فيه مال وحُلى لحُيَىّ بن أَخْطَب، كان احتمله معه إلى خيبر حين أُجليت النضيرُ، فقال رسول الله ﷺ لِعم حُيى بن أخطب: «**ما فَعَلَ مَسْكُ حُيَىّ الذى جَاءَ بِهِ مِنَ النَّضِيرِ**»؟. قال: أذهبته النفقاتُ والحروب، فقال: «**العَهْدُ قَرِيبٌ، والمَالُ أَكْثَرُ مِنْ ذلِكَ**»، فدفعه رسولُ الله ﷺ إلى الزُّبير، فمسَّه بعذاب، وقد كان قبل ذلك دخل خربة فقال: «**قَدْ رأيْتُ حُيَيًّا، يَطُوفُ فى خربة هاهنا**».

فذهبوا، فطافوا، فوجدوا المَسْكَ فى الخربة، فقتل رسول الله ﷺ ابنى أبى الحُقيق، وأحدُهما زوج صفية بنت حُيَىّ بن أخطب، وسبى رسولُ الله ﷺ نساءهم وذراريهم، وقسم أموالَهم بالنَّكْثِ الذى نَكَثُوا، وأراد أن يُجليهم منها، فقالوا: يا محمد؛ دعنا نكُون فى هذه الأرض نُصلِحُها ونقوم عليها، فنحن أعلم بها منكم، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلمان يقومون عليها، وكانوا لا يفرغُون يقومون عليها، فأعطاهم خيبر على أن لهم الشطرَ مِن كل زَرعٍ وكل ثمرٍ ما بدا لرسول الله ﷺ أن يقرهم»[١].

وكان عبد الله بن رواحة يخرصُه عليهم كما تقدم. ولم يقتل رسول الله ﷺ بعد الصلح إلا ابنى أبى الحُقيق للنكث الذى نكثوا، فإنهم شرطوا إن غيَّبوا، أو كتموا، فقد برئت منهم ذِمَّة الله وذِمَّة رسوله، فغيَّبوا، فقال لهم: «أين المال الذى خرجتم به من المدينة حين أجليناكم»؟ قالوا: ذهب فحلفوا على ذلك، فاعترف ابن عم كنانه عليهما بالمال حين دفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير يعذبه، فدفع رسول الله ﷺ كنانة إلى محمد بن مسلمة فقتله ويقال: إن كنانة هو كان قتل أخاه محمود بن مسلمة.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٠٠٦).

عباد الله...

وللحديث بقية، ستأتي بعد قليل إن شاء الله تَعَالَى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وسبى رسول الله ﷺ صفيه بنت حيي بن أخطب وابنة عمتها، وكانت صفية تحت كنانه بن أبي الحقيق، وكانت عروسًا حديثة عهد بالدخول.

وعرض عليها رسول الله ﷺ الإسلام، فأسلمت، فاصطفاها لنفسه، وأعتقها، وجعل عِتْقَهَا صَدَاقها[١]، وبنى بها فى الطريق، وأولم عليها.

عباد الله...

أما عن غنائم خَيبر:

فقد قسم رسولُ الله ﷺ خيبرَ على ستة وثلاثين سهمًا، جمع كُلُّ سهم مائةَ سهمٍ، فكانت ثلاثةَ آلافٍ وستَّمائة سَهْم، فكان لِرسولِ الله ﷺ وللمسلمين النصفُ مِن ذلك، وهو ألف وثمانمائة سهم، لرسول الله ﷺ سهمٌ كسهمِ أحدِ المسلمين، وعَزَلَ النِّصفَ الآخر، وهو ألف وثمانمائة سهمٍ لنوائبه وما ينزلُ به من أُمور المسلمين[٢].

قَالَ البيهقي: وهذا لأن خَيبر فُتحَ شَطرُها عَنوَةً، وشطرُهَا صُلحًا، فقسّم ما فتح عَنوةً بين أهل الخمس والغانمين، وعزل ما فتح صلحًا لِنوائبه وما يحتاج إليه من أمور المسلمين[٣].

---

(١) أخرجه البخاري (٥٠٨٦).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٠١٠ - ٣٠١٤).

(٣) انتهى من «زاد المعاد» (٣/ ٢٨٦ - ٢٩٦) باختصار وتصرّف.

الخطبة السابعة بعد المائة:

[ب] غزوة خَيبر

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «غزوة خَيبر»، وما فيها من عظات وعِبرٍ ودروس.

عباد الله...

وفى هذه الغزاةِ، سُمَّ رسولُ الله ﷺ، أهدت له زينبُ بنتُ الحارث اليهوديةُ امرأةُ سلام بن مِشْكَم شاةً مشويَّةً قد سمَّتها، وسألت: أيُّ اللَّحم أحبُّ إليه؟ فقالوا: الذِّراعُ، فأكثرت من السُّمِّ فى الذراع، فلما انتهش من ذِراعها، أخبره

الذِّراعُ بأنه مسموم، فلفظ الأكلة[(١)]، ثم قال: «اجْمَعُوا لى مَنْ هاهنا من اليَهُودِ»، فجُمِعوا له، فقالَ لهم: «إنِّى سَائِلُكُم عَن شَىءٍ، فَهَلْ أنتمْ صَادِقِىَّ فيه»؟ قالوا: نَعَمْ يا أبا القاسم، فقال لهم رسول الله ﷺ: «مَنْ أَبُوكُم»؟ قالوا: أبونا فلان. قال: «كَذَبْتُمْ، أَبُوكُم فُلان». قالوا: صدقتَ وبَررْتَ، قال: «هَلْ أَنْتُمْ صَادِقِىَّ عَنْ شىءٍ إنْ سَأَلْتُكُم عَنْهُ»؟ قالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبْنَاكَ، عرفتَ كذبنا كما عرفتَه فى أبينا، فقال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَهْلُ النَّار»؟ فقالوا: نكون فيها يسيرًا، ثم تَخْلُفُونا فيها. فقال لهم رسولُ الله ﷺ: «اخْسَؤوا فيها، فَوالله لاَ نَخْلُفُكُم فيها أَبَدًا»، ثم قال: «هَلْ أَنْتُم صَادِقِىَّ عَن شَىءٍ إن سأَلْتُكُم عَنْهُ»؟ قالوا: نعم. قال: «أَجَعَلْتُمْ فى هذِهِ الشَّاةِ سُمًّا»؟ قالوا: نعم. قال: «فَمَا حَمَلَكُم على ذلكَ»؟ قالوا: أردنا إن كنت كاذِبًا نستريحُ منك، وإن كنت نبيًّا لم يضرَّك»[(٢)].

قَالَ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: وجيء بالمرأة إلى رسول الله ﷺ، فقالت: أردتُ قتلَكَ. فقال: «ما كان اللَّهُ لِيُسَلِّطَكِ عَلَىَّ»، قالوا: ألا نقتُلها؟ قال: «لا»، وَلم يتعرض لها، ولم يُعاقبها، واحتجم على الكاهِل، واختُلِف فى قتل المرأة، فقال الزهرى: أسلمت فتركها، ذكره عبد الرزاق، عن معمر، عنه، ثم قال معمر: والناسُ تقول: قتلها النبىُّ ﷺ[(٣)].

قال أبو داود: حدثنا وهب بن بقية، قال: حدثنا خالد، عن محمد بن عمرو، عن أبى سلمة: أن رسولَ الله ﷺ أهدت له يهوديةٌ بخيبرَ شاةً مَصْلِيَّةً.... وذكر القصة، وقال: فمات بشرُ بن البراء بن مَعرور، فأرسل إلى اليهودية: «ما حملكِ على الذى صنعتِ»؟ قال جابر: فأمر بها رسولُ الله ﷺ فَقُتِلَتْ[(٤)].

قلت: كلاهما مرسل، ورواه حمَّاد بن سلمة، عن محمد بن عمرو، عن أبى

---

(١) ذكره ابن إسحاق بدون إسناد.
(٢) أخرجه البخاري (٣١٦٩).
(٣) أخرجه البخاري (٢٦١٧)، ومسلم (٢١٩٠)، وغيرهما.
(٤) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٥١١)، وغيره.

سلمة، عن أبى هريرة متصلًا: «أنه قتلها لما مات بشر بن البراء»(١).

وقد وُفِّقَ بين الروايتين، بأنه لم يقتُلْها أولًا، فلما مات بشر، قتلها.

وقد اختُلِف: هل أكل النبيُّ ﷺ منها أو لم يأكل؟ وأكثرُ الروايات، أنه أكل منها، وبقي بعد ذلك ثلاثَ سنين حتى قال فى وجعه الذى مات فيه: «**مَا زِلْتُ أَجِدُ مِن الأُكْلَةِ الَّتى أَكَلْتُ مِنَ الشَّاةِ يَوْمَ خَيْبَر، فهذَا أوانُ انْقِطَاعِ الأَبْهَرِ منِّى**»(٢).

قال الزهرى: فتوفى رسول الله ﷺ شهيدًا». ا.هـ(٣).

عباد الله...

وفي هَذِهِ الغزوة كثيرٌ من الأحكام الفقهية(٤):

فمنها: محاربةُ الكفار ومقاتلتُهم فى الأشهر الحُرُم، فإن رسولَ الله ﷺ رجع مِن الحُديبية فى ذى الحِجَّة، فمكث بها أيَّامًا، ثم سار إلى خَيْبَرَ فى المحرَّم.

ومنها: قِسمة الغنائم، للفارس ثلاثة أسهم، وللراجل سهم(٥).

ومنها: أنه يجوز لآحادِ الجيش إذا وجد طعاماً أن يأكلَه ولا يُخمسَه، كما أخذ عبد الله بن المغفل جِراب الشحْمِ الذي دُلي يومَ خيبر، واختص به بمحضر النبي ﷺ(٦).

ومنها: تحريمُ لحوم الحُمُرِ الإِنسية، صح عنه تحريمُها يومَ خيبر(٧)، وصح عنه تعليلُ التحريم بأنها رِجسٌ(٨).

ولم تُحرم المتعةُ يومَ خيبر، وإنما كان تحريمُها عامَ الفتحِ هذا هو الصوابُ، وقد

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٥١٢)، وغيره.

(٢) صحيح: أخرجه البخاري (٤٤٢٨) معلقًا، وأبو داود (٤٥١٢).

(٣) «زاد المعاد» (٣/ ٣٠٣ - ٣٠٥).

(٤) انظر «زاد المعاد» (٣/ ٣٠٧ وما بعدها) باختصار شديد.

(٥) رواه البخاري ومسلم وغيرهما.

(٦) أخرجه البخاري (٣١٥٣)، ومسلم (١٧٧٢)، وغيرهما.

(٧) أخرجه البخاري (٤٢١٥).

(٨) أخرجه مسلم (١٤٠٧).

ظنَّ طائفة مِن أهل العلم أنه حرمها يومَ خيبر، واحتجوا بها في «الصحيحين» من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «أن رسولَ الله نَهى عن مُتعة النساء يومَ خيبر، وعَن أكل لحوم الحمر الإِنسية».

وفي «الصحيحين» أيضًا: أن عليًا رضي الله عنه، سمع ابن عباس يُلينُ في مُتعة النساء، فقال: مهلًا يا ابنَ عباس، فإن رسولَ الله ﷺ «نهى عنها يوم خيبر، وعن لحوم الحمر الإنسية»، وفي لفظ للبخاري عنه، أن رسول الله ﷺ نهى عن مُتعة النساء يومَ خيبر، وعن أكل لحوم الحمر الإِنسية.

ولما رأى هؤلاء أن رسولَ الله ﷺ أباحها عامَ الفتح، ثم حرَمها، قالوا: حُرِمَت، ثُم أبيحت، ثم حُرِّمَت.

قال الشافعي: لا أعلمُ شيئاً حُرم، ثم أبيح، ثم حُرمَ إلا المتعة، قالُوا: نُسِخَتْ مرتين، وخالفهم في ذلك آخرون، وقالوا: لم تُحرم إلا عامَ الفتح، وقبل ذلك كانت مباحة. قالوا: وإنما جمع علي بن أبي طالب رضي الله عنه بين الإخبار بتحريمها، وتحريم الحُمُر الأهلية، لأن ابن عباس كان يُبيحهما، فروى له علي تحرِيمَهما عن النبي ﷺ ردًا عليه، وكان تحريمُ الحُمُرِ يومَ خيبر بلا شك، وقد ذكر يومَ خيبر ظرفًا لتحريم الحُمُرِ، وأطلَقَ تحريمَ المتعة، ولم يقيده بزمن، كما جاء ذلك في «مسند» الإمام أحمد بإسناد صحيح: أن رسول الله ﷺ «حرَّم لحومَ الحُمُرِ الأهلية يومَ خَيْبَر، وحرَّم مُتعة النساء» وفى لفظ: «حرَّم مُتعة النساء، وحرَّم لحومَ الحُمُر الأهلية يومَ خَيْبَر»، هكذا رواه سفيان بن عيينة مفصلًا مميزًا، فظن بعضُ الرواة أن يومَ خَيْبَر زمنٌ للتحريمين، فقيَّدهما به، ثم جاء بعضُهم، فاقتصر على أحد المحرَّمين وهو تحريمُ الحُمُر، وقيَّده بالظرف، فمن هاهنا نشأ الوهم.

وقصة خَيْبَر لم يكن فيها الصحابةُ يتمتعون باليهوديات، ولا استأذنوا فى ذلك رسولَ الله ﷺ، ولا نقلَه أحدٌ قطُّ فى هذه الغزوة، ولا كان للمُتعة فيها ذِكرٌ البتة، لا فِعلًا ولا تحريمًا، بخِلاف غزاة الفتح، فإن قصةَ المتعة كانت فيها فِعلًا وتحريمًا مشهورة، وهذه الطريقة أصحُّ الطريقتين.

وفيها طريقة ثالثة: وهى أن رسولَ الله ﷺ لم يُحرِّمها تحريمًا عامًا البتة، بل

حرَّمها عند الاستغناء عنها، وأباحها عند الحاجة إليها، وهذه كانت طريقةَ ابن عباس حتى كان يُفتى بها ويقولُ: هى كالميتةِ والدمّ ولحمِ الخنزير، تُباح عند الضرورة وخشيةِ العنت، فلم يفهم عنه أكثرُ الناسِ ذلك، وظَنوا أنه أباحها إباحةً مطلقةً، وشبَّبوا فى ذلك بالأشعار، فلما رأى ابنُ عباس ذلك، رجع إلى القول بالتحريم.

ومنها: جوازُ عِتق الرجل أَمَتَه، وجعل عِتقها صَداقًا لها، ويجعلها زوجتَه بغير إذنها، ولا شهودٍ، ولا ولى غيره، ولا لفظِ إنكاح ولا تزويجٍ، كما فعل ﷺ بصفيَّة، ولم يقل قطّ: هذا خاصٌ بى، ولا أشار إلى ذلك، مع علمه باقتداء أُمَّته به، ولم يقُلْ أحد من الصحابه: إن هذا لا يصْلُح لغيره، بل رَوَوُا القِصة ونقلُوها إلى الأُمَّة، ولم يمنعوهم، ولا رسولُ الله ﷺ من الاقتداء به فى ذلك، والله سبحانه لـمَّا خصَّه فى النكاح بالموهوبة قال: ﴿خَالِصَةً لَّكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأحزاب: ٥٠]، فلو كانت هذه خالِصة له من دون أُمَّته، لكان هذا التخصيصُ أولى بالذِكر لكثرة ذلك من السادات مع إمائهم، بخلاف المرأة التى تَهَبُ نفسَها للرجل لنُدرته، وقِلَّته، أو مثله فى الحاجة إلى البيان، ولا سيما والأصل مشاركة الأُمَّة له، واقتداؤها به، فكيف يسكت عن منع الاقتداء به فى ذلك الموضع الذى لا يجوز مع قيام مقتضى الجواز، هذا شبهُ المحال، ولم تجتمع الأُمَّة على عدم الاقتداء به فى ذلك، فيجب المصيرُ إلى إجماعهم.. وبالله التوفيق.

والقياس الصحيحُ؛ يقتضى جوازَ ذلك، فإنه يملِكُ رقبتَها، ومنفعة وطئها، وخدمتها، فله أن يُسقِطَ حقَّه مِن ملك الرقبة، ويستبقى مِلك المنفعةِ، أو نوعًا منها، كما لو أعتق عبدَه، وشرط عليه أن يخدِمَه ما عاش، فإذا أخرج المالك رقبةَ ملكه، واستثنى نوعًا مِن منفعته، لم يُمنع من ذلِكَ فى عقد البيع، فكيف يُمنع منه فى عقد النكاح، ولما كانت منفعةُ البُضع، لا تُستباح إلا بعقدِ نكاح أو مِلك يمين، وكان إعتاقُها يُزِيلُ ملكَ اليمين عنها، كان مِن ضرورة استباحة هذه المنفعة، جعلُها زوجة، وسيدها كان يلى نكاحها، وبيعها ممن شاء بغير رضاها، فاستثنى لنفسه ما كان يَملِكُه منها، ولما كان مِن ضرورته عقدُ النكاح ملكَه، لأن بقاء ملكه

لمستثنى لا يَتِمُّ إلا به، فهذا محضُ القياس الصحيح الموافق للسُّـنَّة الصحيحة.. والله أعلم.

ومنها: جوازُ بناء الرجل بامرأته في السفر، وركوبها معه على دابة بين الجيش.

ومنها: أن مَنْ قتل غيره بسُمٍّ يَقْتُلُ مثله، قُتِلَ بِهِ قِصاصًا، كما قُتِلَتِ اليهوديةُ ببشر بن البراء.

عباد الله...

هذه بعض الأحكام الفقهية المستفادة من «غزوة خيبر»، وسيأتي المزيد بعد قليل إن شاء الله تعالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الفوائد الفقهية المستفادة أيضًا من «غزوة خيبر»:

جوازُ الأكل من ذبائح أهل الكتاب، وحِلُّ طعامهم، إلا ما حُرِّم علينا أكله.

ومنها: قبولُ هديةِ الكافر. **فإن قيل:** فلعل المرأةَ قُتِلَتْ لنقض العهد لِحرابها بالسُّمِّ لا قِصاصًا، **قيل:** لو كان قتلُها لنقض العهد، لقُتِلَت من حين أقرَّت أنها سمَّت الشاة، ولم يتوقف قتلُها على موت الآكل منها.

فإن قيل: فهلاَّ قُتِلَتْ بنقضِ العهد؟

قيل: هذا حُجَّةُ مَن قال: إن الإمام مخيَّر في ناقض العهد، كالأسير.

فإن قيل: فأنتم تُوجبون قتله حتمًا كما هو منصوص أحمد، وإنما القاضي أبو يعلى ومَن تبعه قالوا: يُخيَّر الإمامُ فيه.

قيل: إن كانت قِصةُ الشاة قبلَ الصُّلح، فلا حُجَّةَ فيها، وإن كانت بعدَ

الصلح، فقد اختُلِفَ فى نقضِ العهد بقتل المسلم على قولين، فمَن لم ير النقضَ به، فظاهر، ومَن رأى النقضَ به، فهل يتحتمُ قتلُهُ، أو يُخيَّر فيه، أو يفصِلُ بينَ بعض الأسباب الناقضة وبعضها، فيتحتم قتلُه بسبب السبب، ويُخيَّر فيه إذا نقضه بحرابه، ولحوقه بدار الحرب، وإن نقضه بسواهما كالقتل، والزنى بالمسلمة. والتجسُّس على المسلمين، وإطلاع العدو على عَوْراتهم؟ فالمنصوصُ: تَعيُّنُ القتل. وعلى هذا فهذه المرأةُ لما سمَّتِ الشاةَ، صارت بذلك محاربة، وكان قتلُها مُخيَّرًا فيه. فلما مات بعضُ المسلمين من السُّم، قُتِلَتْ حتمًا إما قِصاصًا، وإما لنقض العهد بقتلها المسلم، فهذا محتمل.. والله أعلم[١].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة، نواصل الحديث عن سيرة المصطفى ﷺ، فإلى اللقاء إن شاء الله تَعَالى.

۞۞۞۞۞

---

(١) انتهى من كلام ابن القيم – رحمه الله – مختصرًا.

الخطبة الثامنة بعد المائة:

غزوة مؤتة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيِّ ﷺ.

ونتكلم اليوم إن شاء الله تَعَالَى عن غزوة مؤتة، وما فيها من دروس وعبر.

عباد الله...

وخلاصة هَذِهِ القصة: «أنَّ رسول الله ﷺ بعث الحارث بن عمير الأزدي بكتابه إلى عظيم بُصرى، فعرض له شُرحبيل بن عمرو الغسّاني، وكان عاملًا عَلَى البلقاء من أرض الشام من قِبَلِ قَيصَر، فأوثقه رباطًا، ثم قدّمه، فضرب عنقه.

وكان قتل السُّفراء والرسل من أشنع الجرائم، فاشتد ذَلِكَ عَلَى رسول الله ﷺ حين جاء خبر مقتله، فجهز إليهم جيشًا قوامه ثلاثة مقاتل، وأمَّرَ عليه الأمراء الثلاثة قائلًا: «إن قُتل زيدٌ فجعفر، وإن قُتل جعفرٌ فعَبدُ الله بن رَواحة»، وعقد لهم لواء أبيض، ودفعه إلى زيد بن حارثة[1].

وأوصاهم أن يأتوا مقتل الحارث بن عمير، وأن يدعو مَن هناك إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا استعانوا بالله عليهم، وقاتلوهم، وقال لهم: «اغْزُوا بِسْمِ اللَّهِ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تُمَثِّلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[2].

وتحرَّك الجيش الإسلامي في اتجاه الشمال حَتَّى نزل «معان» من أرض الشام، مِمَّا يلي الحجاز الشمالي، وحينئذٍ نقلت إليهم الاستخبارات بأن هرقل نازل بمآب من أرض البلقاء في مائة ألف من الروم، وانضم إليهم من «لخم»، و«جذام»، و«بلقين»، و«بهراء»، و«بلي» مائة ألف.

وحار المسلمون، وأقاموا في «معان» ليلتين يفكرون في أمرهم، وينظرون ويتشاورون، ثم قالوا: نكتب إلى رسول الله ﷺ فنخبره بعدد عدوّنا، فإمَّا أن يمدّنا بالرجال، وإمَّا أن يأمرنا بأمره فنمضي له.

ولكن عبد الله بن رواحة عارض هذا الرأي، وقال: «يا قوم، والله إن التي تكرهون للتي خرجتم تطلبون الشهادة، وما نقاتل النَّاس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدِّين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا، فإنما هي إحدى الحُسنيين، إما ظهور - أي: نصر - وإما شهادة».

وأخيرًا استقر الرأي عَلَى ما دعا إليه عبد الله بن رواحة[3].

وتحرَّك الجيشان، وتزاحف الفريقان، وعند مؤتة نشب القتال، وحمي وطيس

---

(١) «مختصر سيرة الرسول» للشيخ عبد الله النجدي (٣٢٧).

(٢) حسن صحيح.

(٣) «الرحيق المختوم» (٣٥٥، ٣٥٦) باختصار.

المعركة، وسطَّر المسلمون ملاحم بطولية رائعة رغم عددهم، وبساطة عتادهم.

وها هو زيد بن حارثة الأمير الأول يحمل الراية، ويقاتل بضراوة، يصول هنا، ويجول هناك، وتترنحّ جثثُ المشركين تحت ضربات سيفه البتار، وظل هائجًا في القوم إلى أن أصابته ضربة، وقع عَلَى إثرها شهيدً.

فالتقط الراية منه جعفر بن أبي طالب الأمير الثاني، هو الآخر قاتل قتال الأبرار، وظل ثابتًا كالطود العظيم أمام جيش الروم الذي تدفق من كل مكان كالسّيل الجرار..

ولم يزل هو الآخر هائجًا، حَتَّى قُطعت يَمينُهُ، فأخذ الراية بشماله، ولم يزل بها حَتَّى قطعت شمالُه، فاحتضن الراية بعضُدَيه، فلم يزل رافعًا إيَّاها حَتَّى قُتل[١].

روى البخاري عن نافع: أَنَّ ابْنَ عُمَرَ أَخْبَرَهُ: أَنَّهُ وَقَفَ عَلَى جَعْفَرٍ يَوْمَئِذٍ وَهُوَ قَتِيلٌ فَعَدَدْتُ بِهِ خَمْسِينَ بَيْنَ طَعْنَةٍ وَضَرْبَةٍ، لَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ فِي دُبُرِهِ - يَعْنِي فِي ظَهْرِهِ.

فالتقط الراية عبد الله بن رواحة، وتقدَّم بها، وتردّد بعض التردّد، فخاطب نفسه قائلًا:

أقسمتُ يا نفس لتنزلنه ... كارهة أو لَتُطاوعنه
إن أجلَب النَّاسُ وشدّوا الرنّه ... ما لي أراكِ تَكرهِين الجَنَّة

ثم نزل، فأتاه ابن عمٍّ له بعرق من لحم، فقال: شدّ بهذا صُلبك، فإنك قَدْ لقيت في أيّامك هَذِهِ ما لقيت، فأخذه من يده فانتهس منه نهسة، ثم ألقاه من يده، ثم أخذ سهمه فتقدم، فقاتل حَتَّى قُتل.

فالتقط الراية ثابت بن أرقم ونادى: يا معشر المسلمين، اصطلحوا عَلَى رجلٍ منكم، قالوا: أنت، قَالَ: ما أنا بفاعل، فاصطلح النَّاس عَلَى خالد بن الوليد، فلما أخذ الراية قاتل أشدّ القتال.

---

(١) أبدله اللهُ تَعَالَى بذراعيه جناحين يطير بهما في الجَنَّة، عن عبد الله بن جعفر، قال: قال رسول الله ﷺ: «هنيئًا يا عبد الله بن جعفر، أبوك يطيرُ مع الملائكة في السماء». رواه الطبراني، وإسناده حسن.

روى البخاري عن خالد بن الوليد، قَالَ: «لقد انقطعت في يدي يوم مؤتة تسعة أسياف، فما بقي في يدي إلا صفيحة يمانية».

وبينما تدور المعركة عَلَى هذا النحو، كان الوحي ينقل للنبي ﷺ في المدينة تطوّرات القتال، فها هو النبيُّ ﷺ يخبر النَّاس في المدينة بما جرى في أرض القتال من أحداث.

ففي مسند أحمد أَنَّهُ ﷺ صعد المنبر، وأمر أن ينادى «**الصلاة جامعة**»، فلما اجتمع النَّاس قَالَ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ جَيْشِكُمْ؟ إِنَّهُمْ لَقُوا العَدُوَّ فَأُصِيبَ زَيْدٌ شَهِيدًا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَشَدَّ عَلَى القَوْمِ حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا، ثُمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأَثْبَتَ قَدَمَيْهِ حَتَّى أُصِيبَ شَهِيدًا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ، ثُمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ الأُمَرَاءِ هُوَ أَمَّرَ نَفْسَهُ**» (١)، فَرَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أُصْبُعَيْهِ وَقَالَ: «**اللَّهُمَّ هُوَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فَانْصُرْهُ**».

عن أَبِي قَتَادَةَ الأَنْصَارِيُّ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ جَيْشَ الأُمَرَاءِ (وهو جيش مؤتة) (٢) فَقَالَ: «**عَلَيْكُمْ زَيْدُ بْنُ حَارِثَةَ فَإِنْ أُصِيبَ زَيْدٌ فَجَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَإِنْ أُصِيبَ جَعْفَرٌ فعَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ الأَنْصَارِيُّ**» فَوَثَبَ جَعْفَرٌ فَقَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا كُنْتُ أَرْهَبُ أَنْ تَسْتَعْمِلَ عَلَيَّ زَيْدًا، قَالَ: «**امْضِهْ فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَيُّ ذَلِكَ خَيْرٌ**».

فَانْطَلَقُوا فَلَبِثُوا مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ صَعِدَ المِنْبَرَ وَأَمَرَ أَنْ يُنَادَى الصَّلَاةُ جَامِعَةٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**أَلَا أُخْبِرُكُمْ عَنْ جَيْشِكُمْ هَذَا الغَازِي إِنَّهُمْ انْطَلَقُوا فَلَقَوْا العَدُوَّ فَأُصِيبَ زَيْدٌ شَهِيدًا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ** - فَاسْتَغْفَرَ لَهُ النَّاسُ - **ثُمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ جَعْفَرُ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَشَدَّ عَلَى القَوْمِ حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا أَشْهَدُ لَهُ بِالشَّهَادَةِ فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَوَاحَةَ فَأَثْبَتَ قَدَمَيْهِ حَتَّى قُتِلَ شَهِيدًا فَاسْتَغْفِرُوا لَهُ ثُمَّ أَخَذَ اللِّوَاءَ خَالِدُ بْنُ الوَلِيدِ وَلَمْ يَكُنْ مِنْ الأُمَرَاءِ هُوَ أَمَّرَ نَفْسَهُ**» ثُمَّ رَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ

(١) لأن النبي ﷺ لم يؤمّر سوى الأمراء الثلاثة.

(٢) **مؤتة**: قرية بأدنى بلقاء الشام، بينها وبين بيت المقدس مرحلتان.

إِصْبَعَيْهِ فَقَالَ: «اللَّهُمَّ هُوَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِكَ فَانْصُرْهُ»، فَمِنْ يَوْمِئِذٍ سُمِّيَ خَالِدٌ سَيْفَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: «انْفِرُوا فَأَمِدُّوا إِخْوَانَكُمْ وَلَا يَتَخَلَّفَنَّ أَحَدٌ».

قَالَ: فَنَفَرَ النَّاسُ فِي حَرٍّ شَدِيدٍ مُشَاةً وَرُكْبَانًا[١].

وفي رواية: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ نَعَى زَيْدًا وَجَعْفَرًا وَابْنَ رَوَاحَةَ لِلنَّاسِ قَبْلَ أَنْ يَأْتِيَهُمْ خَبَرُهُمْ فَقَالَ: «أَخَذَ الرَّايَةَ زَيْدٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ جَعْفَرٌ فَأُصِيبَ ثُمَّ أَخَذَ ابْنُ رَوَاحَةَ فَأُصِيبَ وَعَيْنَاهُ تَذْرِفَانِ حَتَّى أَخَذَ سَيْفٌ مِنْ سُيُوفِ اللَّهِ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ»[٢].

عباد الله...

ونجح خالد في الصّمود بعض الوقت أمام العدوّ، ثم لجأ في الليل إلى حيلة يكسر بها الروح المعنوية للروم، وفي نفس الوقت يخلّص الجيش من هزيمة نكراء في هَذِهِ المعركة الغير متكافئة.

فماذا فعل؟

جعل مقدمة الجيش ساقه، وميمنته ميسرة، فلما استقبل العدوّ في الصباح، ظنوا أن مددًا جاءهم، ثم بتكتيك منظّم سحب جيشه وعاد به إلى المدينة.

ومن العجيب أن قتلى المسلمين يومئذٍ لم يزيدوا عَلَى اثنى عشر رجلًا، أما الروم فلم يُعرف عدد قتلاهم غير أن تفصيل المعركة يدل عَلَى كثرتهم.

قَالَ الشيخ/ مُحَمَّد الغزالي - رَحِمَهُ الله - عن خطة خالد رَضِيَ الله عَنْهُ: «وجعل هدفه مناوشة الرومان بحيث يحلق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش لالتحام عام، وقَدْ أفلحت هَذِهِ الخطة في إنقاذ الآلاف القليلة التي معه، وإنقاذ سمعة المسلمين في أوّل معركة لهم مع الدولة الكبرى، والعجيب أن الرومان أعياهم هذا القتال وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة، بل إن بعض فرقهم انكشف، وولّى مهزومًا، واكتفى خالد بهذه النتيجة، وآثر الانصراف بمن معه» ا.هـ[٣].

---

(١) صحيح: رواه أحمد (٥/ ٢٩٩)، وصححه الأرناؤوط.
(٢) رواه البخاري (٤٢٦٢).
(٣) «فقه السيرة» (٣٩٠).

عباد الله...

وبعد أن عاد الجيش إلى المدينة، واستقرّ بالمسلمين المقام تحدَّث النبيُّ ﷺ عن قادة الجيش الذين قتلوا، فقال لأصحابه: **«ما يَسُرُّهم أنَّهم عندنا»**(١).

أجل، إن الجوار الذي صاروا إليه أحبّ لنفوسهم، وأقرّ لعيونهم من الدنيا وما فيها، وأما أُسَرهم ففي كفالة الله، وهو نعم المولى ونعم النصير.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الدروس والعبر والفوائد المستفادة من هذه الغزوة:

١- حُبّ الشهادة باعث للتضحية:

وهذا واضح في فعل الأمراء الثلاثة.

٢- من فقه القيادة:

إنه درس عظيم يقدمه لنا الصحابيّ الجليل ثابت بن أقرم، عندما أخذ اللواء بعد استشهاد عبد الله بن رواحة آخر الأمراء، وذلك أداء منه للواجب، لأن وقع الراية معناه هزيمة الجيش، ثم نادى المسلمين أن يختاروا لهم قائدًا.

وفي زحمة الأحداث قالوا: أنت، قَالَ: ما أنا بفاعل، فاصطلح الناسُ عَلَى خالد.

وفي رواية: أن ثابتًا مشى باللواء إلى خالد فقال خالد: لا آخذه منك، أنت أحق به، فقال: والله ما أخذته إلا لك.

إن مضمون كل الروايتين واحد، أن ثابتًا جمع المسلمين أولًا، وأعطى القوس

---

(١) رواه البخاري.

باريها، فأعطى الراية خالدًا، ولم يقبل قول المسلمين: أنت أميرنا، ذَلِكَ أَنَّهُ يرى فيهم مَن هو أكفأ منه لهذا العمل، وحينما يتولَّى العمل مَن ليس له بأهل، فإن الفساد متوقع، والعمل حينما يكون لله تَعَالَى لا يكون فيه أثر لحبّ الشهرة، أو حظّ النَّفس.

إن ثابتًا رَضِيَ الله عَنْهُ لم يكن عاجزًا عن قيادة المسلمين، وهو ممن حضر بدّرا، ولكنه رأى من الظلم أن يتولى عملًا وفي المسلمين من هو أجدر به منه، حَتَّى ولو لم يمض عَلَى إسلامه أكثر من ثلاثة أشهر؛ لأن الغاية هي السعي لتنفيذ أوامر الله عَلَى الوجه الأحسن والطريقة الأمثل(١).

٣- من الحكمة أحيانًا الانسحاب من أرض المعركة:

إذا كان قائد المعركة «متحرِّفًا لقتال أو متحيّزًا إلى فئة» وذلك ليتمكن من إيقاع أفدح الخسائر بالعدوّ، ولا يكون صيدًا سهلاً له.

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة نواصل الحديث عن سيرة النبيّ ﷺ فإلى اللقاء إن شاء الله.



(١) «التاريخ الإسلامي» للحميدي (٧/ ١٢٤)، و«من معين السيرة» للشامي (١٣٧٦).

الخطبة التاسعة بعد المائة:

[أ] فتح مكة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة المصطفى ﷺ.

ونلتقي اليوم - إن شاء الله تَعَالى - مع «فتح مَكَّة».

«الفتح الذى أعزَّ اللَّهُ به دينَه، ورسولَه، وجنده، وحزبه الأمين، واستنقذ به بلده وبيتَه الذى جعله هُدىً للعالمين مِن أيدى الكفار والمشركين، وهو الفتحُ الذى استبشر به أهلُ السماءِ، وضربت أطنابُ عِزِّه على مَناكِبِ الجوزاء، ودخل الناسُ به فى دين الله أفواجًا، وأشرق به وجهُ الأرضِ ضِياءً وابتهاجًا، خرج له

رسولُ الله ﷺ بكتائِبِ الإسلام، وجُنود الرحمن سنةَ ثمانٍ لعشر مَضَيْنَ مِن رمضان، واستعمل على المدينة أبا رُهْم كُلثوم بن حُصين الغِفارى. وقال ابن سعد: بل استعمل عبدَ الله بْنَ أُمِّ مكتوم(١).

وكان السبب الذى جرَّ إليه، وحدا إليه فيما ذكر إمامُ أهل السير والمغازى والأخبار محمد بن إسحاق بن يسار، أن بنى بَكر بن عبدِ مناة بن كِنانة عَدَتْ على خُزاعة، وهُمْ على ماءٍ يُقال له: الوتير، فبيَّتُوهم وقتلُوا منهم، وكان الذى هاج ذلك أن رجلًا من بنى الحضرمى يقال له: مالكُ بن عبَّاد خرج تاجرًا، فلما توسَّط أرضَ خُزاعة، عَدَوْا عليه فقتلُوه، وأخذُوا مالَه، فعدت بنُو بكر على رجل من بنى خُزاعة فقتلُوه، فعدت خُزاعة على بنى الأسود، وهم سَلْمَى وكُلثوم وذُؤَيْب، فقتلوهُم بِعَرَفة عند أنصاب الحَرَم.

هذا كُلُّهُ قَبْلَ المبعث، فلما بُعِثَ رسولُ الله ﷺ وجاء الإسلام، حجز بينهم، وتشاغلَ الناسُ بشأنه، فلما كان صُلْحُ الحُديبية بينَ رسول الله ﷺ وبينَ قريش، وقع الشرطُ: أنه مَن أحبَّ أن يدخل فى عَقد رسول الله ﷺ وعهدِهِ، فَعَلَ، ومَن أحبَّ أن يدخلُ فى عَقد قريش وعَهدهم، فعل، فدخلت بنو بكر فى عَقد قُريش وعهدهم، ودخلت خُزاعة فى عَقد رسول الله ﷺ وعهده، فلما استمرَّت الهُدنة، اغتنمها بنو بكر من خُزاعة، وأرادوا أن يُصيبُوا منهم الثأرَ القديم، فخرج نوفلُ ابنُ معاوية الدِّيليفى جماعة مِن بنى بكر، فبيَّت خُزاعة وهم على الوَتير، فأصابُوا منهم رجالًا، وتناوشُوا واقتتلوا، وأعانت قُريش بنى بكر بالسِّلاح، وقاتلَ معهم مِن قريش مَن قاتل مستخفيًا ليلًا، ذكر ابن سعد منهم: صفوان بن أُمية، وحُويطب بن عبد العُزَّى، ومِكْرز بن حفص، حتى حازوا خُزاعة إلى الحرم، فلما انتهوا إليه، قالت بنو بكر: يا نوفل؛ إنَّا قد دخلنا الحرم، إلهك إلهك. فقال كلمة عظيمة: لا إله لَهُ اليوم، يا بنى بكر أصيبُوا ثأركم، فلعمرى إنكم لتسرِقُون فى الحرم أفلا تُصيبُونَ ثأركُم فيه؟ فلما دَخَلَتْ خُزاعة مكة، لجؤوا إلى دار بُديل بن

(١) «الطبقات» (٢/ ١٣٥).

ورقاء الخُزاعى ودار مولى لهم يقال له: رافع، ويخرج عمرو بن سالم الخُزاعى حتى قَدِمَ على رسولِ الله ﷺ المدينة، فوقف عليه، وهو جالس فى المسجد بين ظهرانى أصحابه فقال:

يــاربِّ إنِّـــى نَاشِـــدٌ مُحَمَّـدا حِلْـفَ أبيـنَا وَأبـيهِ الأتْلَـــدا

قَــدْ كُنْـتُمُ وُلْـدًا وكُـنَّا وَالِـدا ثُـمَّـتَ أَسْـلَمْنَا وَلَـمْ نَنْـزِعْ يَـدا

فَانْـصُرْ هَـدَاكَ اللَّـهُ نَـصْرًا أَبَـدا وادْعُ عِـبَـادَ اللَّـهِ يَأْتُـوا مَـدَدَا

فِـيهِمْ رَسُـولُ اللَّـهِ قَـدْ تَجَـرَّدا أَبْـيَضَ مِـثْلَ الـبَدْرِ يَـسْمُو صُـعُدَا

إنْ سِـيمَ خَـسْفًا وَجْهُـهُ تَـرَبَّدَا فـى فَـيْلَقٍ كالبَحْـرِ يَجْـرِى مُزْبِدا

إنَّ قُرَيْـــشًا أَخْلَفُـوكَ المَـوْعِدا ونَقَـضُوا مِيـثَاقَكَ المُـؤَكَّـدَا

وَجَـعَلُـوا لى فـى كَـدَاءٍ رَصَـدَا وَزَعَمُـوا أَنْ لَـسْتَ تَدْعُـو أحَـدَا

وَهُـمْ أَذَلُّ وَأَقَـلُّ عَـدَدَا هُـمْ بَيَّـتُونَا بالـوَتِيرِ هُـجَّـدَا

وَقَـتَلُونَا رُكَّعًـا وَسُـجَّدَا

يقول: قُتِلْنَا وقَدْ أَسْلَمْنَا، فقال رسولُ الله ﷺ: «نُصِرْتَ يَا عَمْرو بنَ سالم»، ثم عرضَتْ سحابةٌ لرسول الله ﷺ فقال: «إنَّ هذه السَّحَابَةَ لَتَسْتَهِلُّ بِنَصْرِ بنى كَعْبٍ»(١).

وأمر رسولُ الله ﷺ الناسَ بالجَهَازِ، وأمر أهله أن يُجهزوه، فدخل أبو بكر على ابنته عائشة رضى الله عنها، وهى تُحَرِّكُ بعضَ جهاز رسول الله ﷺ، فقال: أى بُنيَّة؛ أمركنّ رسول الله ﷺ بتجهيزه؟ قالت: نعم، فتجهز. قال: فأين تَرَيْنَهُ يُريد، قالت: لا والله ما أدرى(٢).

ثم إن رسول الله ﷺ أعلم الناس أنه سائر إلى مكة، فأمرهم بالجد والتجهيز، فكتب حاطِبُ بن أبى بَلْتَعَةَ إلى قُريش كتابًا يُخبرهم بمسيرِ رسول الله ﷺ إليهم، ثم أعطاه امرأة، وجعل لها جعلًا على أن تُبلغه قريشًا، فجعلته فى قُرون فى رأسها،

---

(١) إسناده حسن: أخرجه البيهقي في«الدلائل» (٥/ ٥ - ٧).
(٢) إسناده حسن: أخرجه ابن إسحاق.

ثم خرجَتْ به، وأتى رسول الله ﷺ الخبرُ مِن السماء بما صنع حاطب، فبعث عليًا والزُبير، وغير ابن إسحاق يقول: بعث عليًا والمقداد والزبير، فقال: «**انطلقا حتَّى تأتيا رَوْضَةَ خاخ، فإنَّ بها ظعينة معها كِتاب إلى قُريش**».

فانطلقا تَعَادى بهما خَيْلُهما، حتى وجدا المرأةَ بذلك المكانِ، فاستنزلاها، وقالا: معكِ كتابٌ؟ فقالت: ما معى كتاب، ففتشا رَحْلها، فلم يجدا شيئًا، فقال لها على رضى الله عنه: أحِلفُ بالله ما كذبَ رسولُ الله ﷺ ولا كذبنا، والله لَتُخْرِجِنَّ الكِتَابَ أو لنُجَرِّدَنَّكِ، فلما رأت الجدَّ منه، قالت: أَعْرِضْ، فأعرض، فحلَّت قُرون رأسها، فاستخرجت الكِتاب منها، فدفعته إليهما، فأتيا به رسولَ الله ﷺ، فإذا فيه: مِن حاطب ابن أبى بَلتعة إلى قريش يخبرهم بمسير رسول الله ﷺ إليهم، فدعا رسول الله ﷺ حاطبًا، فقال: «**ما هذا يا حَاطِبُ؟**» فقال: لا تَعْجَل علىَّ يا رسولَ الله، والله إنى لمؤمن بالله ورسوله، وما ارتددتُ، ولا بدَّلْتُ، ولكنى كُنْتُ امرءًا مُلْصَقًا فى قريش لستُ من أنفسهم، ولى فيهم أهل وعشيرة وولد، وليس لى فيهم قرابة، يحمونهم، وكان مَنْ معكَ لهم قراباتٌ يحمونهم، فأحببتُ إذ فاتنى ذلك أن أتخذ عندهم يدًا يحمون بها قرابتى، فقال عُمَرُ بنُ الخطاب: دعنى يا رسول الله أضرب عُنُقَهُ، فإنه قد خان اللهَ ورسوله، وقد نافق،فقال رسول الله ﷺ: «**إِنَّهُ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، وما يُدْرِيكَ يَا عُمَرُ، لَعَلَّ الله قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُم**»، فَذَرَفَتْ عَيْنَا عمر وقال: الله ورسوله أعلم[(١)].

ثم مضى رسولُ الله ﷺ وهُوَ صائم، والناسُ صِيامٌ، حتى إذا كانوا بالكُدَيد وهو الذى تسميه النَّاسُ اليومَ قُدَيْدًا أفطرَ وأفطرَ الناسُ معه[(٢)].

ثم مضى حتى نزلَ مرَّ الظَّهْرَانِ، وهو بطن مَرِّ، ومعه عشرةُ آلاف، وعمَّى اللَّهُ الأخبارَ عن قريش، فهم على وَجَلٍ وارتقاب، وكان أبو سفيان يخرج يتحسَّسُ الأخبار، فخرجَ هو وحكيمُ بنُ حِزام، وبُدَيْلُ بنُ ورقاء يتحسَّسُونَ الأخبار، وكان

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٧٤)، ومسلم (٢٧٩٤)، وغيرهما.
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٧٥)، ومسلم (١١١٣).

العبَّاسُ قد خرج قبل ذلك بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، فلقى رسولَ الله ﷺ بالجُحْفَةِ، وقيل: فوق ذلك، وكان مِمن لقيه فى الطريق ابنُ عمه أبو سفيان بن الحارث، وعبدُ الله بنُ أبى أُميَّة لقياه بالأبواء، وهما ابن عمِّه وابنُ عمَّته، فأعرض عنهما لِما كان يلقاه مِنهما مِن شِدَّةِ الأذى والهَجْوِ، فقالت له أُمُّ سَلَمة: لا يَكُن ابنُ عمِّكَ وابنُ عمَّتك أشقى الناس بك، وقال علىّ لأبى سفيان فيما حكاه أبو عمر: ائتِ رسول الله ﷺ مِنْ قِبَلِ وجهه، فقل له ما قال إخوةُ يوسف ليوسف: ﴿تَاللهِ لَقَدْ آثَرَكَ اللَّهُ عَلَيْنَا وَإِنْ كُنَّا لَخَاطِئِينَ﴾ [يوسف: ٩١]. فإنه لا يرضى أن يكون أحدٌ أحسنَ منه قولا، ففعل ذلك أبو سفيان، فقال له رسول الله ﷺ: ﴿لاَ تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ، يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ، وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [يوسف: ٩٢]، فأنشده أبو سفيان أبياتًا منها:

لَعَمْرُكَ إنِّى حينَ أحْمِلُ رايةً ... لِتَغْلِبَ خَيْلُ اللاَّتِ خَيْلَ مُحَمَّدِ
لَكالمُدْلِجِ الحَيْرَانِ أظْلَمَ لَيْلُه ... فَهذا أوانى حِينَ أُهْدَى فَأَهْتَدِى
هَدَانِى هَادٍ غَيْرُ نَفْسِى وَدَلَّنِى ... عَلى اللَّهِ مَنْ طَرَّدْتُ كُلَّ مُطَرَّدِ[1]

فضرب رسول الله ﷺ صدرَه وقال: «أَنْتَ طَرَّدْتَنِى كُلَّ مُطَرَّدٍ»، وحَسُنَ إسلامُه بعد ذلك.

ولما حضرته الوفاةُ، قال: لا تَبْكُوا علىَّ، فوالله ما نطقتُ بخطيئة منذ أسلمتُ.

فلما نزل رسولُ الله ﷺ مرَّ الظهران، نزله عشاء، فأمر الجيشَ، فأوقدوا النيران، فأُوقِدَت عشرةُ آلاف نار، وجعل رسولُ الله ﷺ على الحَرَس عُمَرَ بنَ الخطَّاب رضى الله عنه، وركب العباسُ بغلة رسول الله ﷺ البيضاء، وخرج يلتمِسُ لعله يجد بعضَ الحطَّابة، أو أحدًا يُخبر قريشًا ليخرجوا يستأمنون رسولَ الله ﷺ قبل أن يدخلَها عَنْوَةً، قال: والله إنى لأسير عليها إذ سمعتُ كلامَ أبى سفيان، وبُديل بن ورقاء وهُما يتراجعان، وأبو سفيان يقول: ما رأيتُ كالليلة

(١) حسن: أخرجه الحاكم، وحسنه الألباني.

نيرانًا قطُّ ولا عسكرًا، قال: يقولُ بديل: هذه والله خزاعة حَمَشَتْهَا الحَرْبُ، فيقول أبو سفيان: خُزاعة أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكَرها، قال: فعرفتُ صوته، فقلت: أبا حنظلة، فعرف صوتى، فقال: أبا الفضل؟ قلتُ: نعم، قال: مالك فِداك أبى وأُمى؟

قال: قلتُ: هذا رسول الله ﷺ فى الناس، واصباحَ قُريش والله، قال: فما الحيلةُ فِداك أبى وأُمى؟ قلت: والله لئن ظَفِرَ بك لَيَضْرِبَنَّ عُنقَكَ، فاركب فى عجزِ هذه البغلة حتى آتىَ بِكَ رسولَ الله ﷺ، فأستأمنه لك، فركب خَلْفِى ورجع صَاحِبَاه، قال: فجئتُ به، فكلما مررتُ به على نار من نيران المسلمين، قالوا: مَنْ هذَا؟، فإذا رأَوْا بغلةَ رسول الله ﷺ وأنا عليها، قالوا: عمُّ رسول الله ﷺ على بغلته، حتى مررتُ بنارِ عمر بن الخطاب، فقال: مَن هذا؟ وقام إلىَّ، فلما رأى أبا سفيان على عَجزِ الدابة، قال: أبو سفيان عَدُوُّ الله، الحمد لله الذى أمْكَنَ مِنْكَ بغير عقد ولا عهد، ثم خرج يشتد نحوَ رسول الله ﷺ، وركَضتُ البغلة، فَسَبَقَتْ، فاقتحمتُ عن البغلة، فدخلتُ على رسول الله ﷺ، ودخل عليه عُمَرُ، فقال: يا رسولَ الله؛ هذا أبو سفيان، فدعنى أَضْرِبْ عنقه.

قال: قلتُ: يا رسول الله؛ إنى قد أجرته، ثم جلستُ إلى رسول الله ﷺ، فأخذتُ برأسه، فقلتُ: والله لا يُناجيه الليلةَ أحد دونى، فلما أكثر عُمَرُ فى شأنه، قلتُ: مهلًا ياعمر، فوالله لو كان مِن رجال بنى عدى بْنِ كعب ما قُلْتَ مِثْلَ هذا، قال: مهلًا يا عبَّاسُ، فوالله لإِسْلامُكَ كَانَ أَحَبَّ إِلَىَّ مِنْ إِسْلام الخَطَّابِ لَوْ أَسْلَمَ، ومَا بى إلا أَنِّى قَدْ عَرَفْتُ أَنَّ إِسْلامَكَ كَانَ أحبَّ إلى رسول الله ﷺ من إسلام الخطَّاب، فقال رسول الله ﷺ: **«اذْهَبْ بِهِ يا عبَّاسُ إلى رَحْلِك، فإذا أَصْبَحْتَ فَأْتنى به»**، فذهبتُ فلما أصبحتُ، غدوتُ به إلى رسول الله ﷺ، فلما رآه رسولُ الله ﷺ قال: **«وَيْحَكَ يَا أَبَا سُفْيَان، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنْ لاَ إِلهَ إِلاَّ الله»**؟ قال: بأبى أنتَ وأُمى، ما أحلمكَ، وأكرمَكَ، وأوصلَكَ، لقد ظننتُ أن لو كان مع الله إلهٌ غيرُه، لقد أغنى شيئًا بعد، قال: **«ويحَكَ يا أبا سفيان، أَلَمْ يَأْنِ لَكَ أَنْ تَعْلَمَ أَنِّى رَسُولُ الله»**؟

قال: بأبى أنتَ وأُمى، ما أحلمكَ وأكرمَكَ وأوصلَكَ، أما هذه، فإن فى

النفس حتى الآن منها شيئًا، فقال له العباس: ويحكَ أسلم، واشهد أنْ لا إلهَ إلا الله، وأنَّ محمدًا رسول الله قبل أن تُضَرَبَ عُنقُك، فأسلم وشَهِدَ شهادةَ الحق، فقال العباسُ: يا رسولَ الله؛ إن أبا سفيان رَجُلٌ يُحِبُّ الفخر، فاجعل له شيئًا، قال: «نَعَمْ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أبى سُفيان، فهُوَ آمِنٌ، ومَنْ أغْلَقَ عَلَيْهِ بَابَه، فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ المَسْجِدَ الحَرام، فَهُوَ آمن».

وأمر العباسَ أن يَحبِسَ أبا سفيان بمضيقِ الوادى عند خَطْم الجبلِ حتى تَمُرَّ به جنودُ الله، فيراها، ففعل، فمرَّتِ القبائلُ على راياتها، كلما مرَّتْ به قبيلةٌ قال: يا عباسُ؛ مَنْ هذه؟ فأقول: سُليم، قال: فيقول: مالى ولِسُليم، ثم تمرُّ به القبيلة، فيقول: يا عباسُ؛ مَنْ هؤلاء؟ فأقول: مُزَيْنَة، فيقول: مالى ولمُزَيْنَة، حتى نَفَدَتِ القبائلُ، ما تَمُرُّ به قبيلة إلا سألنى عنها، فإذا أخبرتُه بهم قال: مالى ولبنى فلان، حتى مرَّ به رسولُ الله ﷺ فى كتيبتِه الخضراء، فيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحَدَق مِن الحديد، قال: سبحان الله يا عباس، مَن هؤلاء؟ قال: قلتُ: هذا رسولُ الله ﷺ فى المهاجرين والأنصار، قال: ما لأحد بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة، ثم قال: والله يا أبا الفضل؛ لَقَدْ أَصْبَحَ مُلْكُ ابن أخيك اليَوْمَ عظيمًا، قال: قلتُ: يا أبا سفيان؛ إنها النُّبوة، قال: فنعم إذًا، قال: قلتُ: النَّجاء إلى قومك[١].

وكانت رايةُ الأنصار مع سعد بن عُبادة، فلما مرَّ بأبى سفيان، قال له: اليَوْم يَوْمُ المَلْحَمَةِ، اليومَ تُسْتَحَلُّ الحُرْمةُ، اليَوْمَ أذَلَّ اللهُ قُرَيْشًا[٢].

فلما حاذى رسولُ الله ﷺ أبا سفيان، قال: يارسولَ الله؛ ألم تسمعْ ما قال سعد؟ قال: «وما قال»؟، فقال: كذا وكذا، فقال عثمان وعبد الرحمن بن عَوْف: يا رسولَ الله؛ ما نأمن أن يكون له فى قُريش صَوْلة، فقال رسول الله ﷺ: «بَلِ اليَوْمَ يَوْمٌ تُعَظَّمُ فيهِ الكَعْبَةُ، اليَوْمَ يَوْمٌ أَعَزَّ اللَّهُ فيه قُرَيْشًا». ثم أرسل رسول الله ﷺ إلى سعد، فنزع منه اللواء، ودفعه إلى قيس ابنه، ورأى أن اللواء لم يَخرُجْ عن سعد إذ

---

(١) صحيح: ذكره ابن حجر بطوله في «المطالب العالية» (٤٣٦٢).
(٢) أخرجه البخاري (٤٢٨٠).

صار إلى ابنه، قال أبو عمر: ورُوى أن النبى ﷺ لما نزع منه الراية، دَفَعَها إلى الزبير.

ومضى أبو سفيان حتى إذا جاء قُريشًا، صرخ بأعلى صوته: يا معشرَ قُريش؛ هذا محمد قد جاءكم فيما لا قِبَلَ لكم به، فمَن دخل دارَ أبى سفيان، فهو آمن، فقامت إليه هندُ بنتُ عتبة، فأخذت بشَاربه، فقالت: اقتلُوا الحَميت الدسم[١]، الأحْمَشَ[٢] السَّاقين، قُبِّح مِن طَلِيعَةِ قوم، قال: ويلكم، لا تغرَّنَّكم هذه مِن أنفسكم، فإنه قد جاءكم ما لا قِبَلَ لكم به، مَن دخل دار أبى سفيان، فهو آمن، ومَن دخل المسجد، فهو آمن، قالوا: قاتلكَ اللَّهُ، وما تُغنى عنا دارُك؟ قال: ومَن أغلق عليه بابه، فهو آمن، ومَن دخل المسجد، فهو آمن، فتفرَّق الناسُ إلى دورهم وإلى المسجد[٣].

عباد الله...

قال أبو هريرة: أقبل رسولُ الله ﷺ، فدخل مكة، فبعث الزبيرَ على إحدى المجنبتين، وبعث خالدَ بن الوليد على المجنبةِ الأُخرى، وبعث أبا عُبيدة بنَ الجراح على الحُسَّر، وأخذوا بطن الوادى ورسولُ الله ﷺ فى كتيبته، قال: وقد وبَّشت قريش أوباشًا لها، فقالوا: نُقَدِّم هؤلاء، فإن كان لِقريش شىء كنا معهم، وإن أُصيبُوا أعطينا الذى سُئِلنا، فقال رسول الله ﷺ: «**يا أبا هريرة**»، فقلتُ: لَبَّيْكَ رسولَ الله وسعدَيك، فقال: «**اهْتِفْ لى بالأنصار، ولا يَأْتِينى إلاَّ أنْصارى**»، فهتف بهم، فجاؤوا، فأطافوا برسول الله ﷺ، فقال: «**أَتَرَوْنَ إلى أَوْبَاشِ قُرَيْشٍ وَأَتْبَاعِهِم**»؟ ثمَّ قال بيديه إحداهما على الأُخرى: «**احْصُدُوهُم حَصْدًا حتَّى تُوافُونِى بالصَّفَا**»، فانطلقنا، فما يشاءُ أحد منا أن يقتُلَ منهم إلا شاء، وما أحد منهم وجَّه إلينا شيئًا[٤].

---

(١) الحميت الدسم: الحميت هو وعاء السّمن.
(٢) الأحمش الساقين: الدقيق الساقين.
(٣) «السيرة النبوية» لابن هشام (٤/ ٢٤).
(٤) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

ورُكِزَتْ رايةُ رسول الله ﷺ بالحَجُونِ عند مسجد الفَتْح[1].

ثم نهض رسولُ الله ﷺ والمهاجرون والأنصار بينَ يديه، وخلفَه وحولَه، حتى دخل المسجِدَ، فأقبل إلى الحجر الأسود، فاستلمه، ثم طافَ بالبيتِ، وفي يده قوس، وحول البيت وعليه ثلاثمائة وستون صنمًا، فجعل يطْعَنُها بالقوسِ ويقول: ﴿جَاءَ الحَقُّ وَزَهَقَ البَاطِلُ، إِنَّ البَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١]، ﴿جَاءَ الحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ البَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ [سبأ: ٤٩]، والأصنامُ تتسَاقَطُ على وجوهها[2].

وكان طوافُه على راحلته، ولم يكن محرمًا يومئذٍ، فاقتصر على الطَّوافِ، فلما أكملهُ، دعا عثمان بنَ طلحة، فأخذ منه مفتاحَ الكعبة، فأمر بها فَفُتحت، فدخلها فرأى فيها الصَّوَرَ، ورأى فيها صورةَ إبراهيم وإسماعيل يستقسمانِ بِالأزْلاَمِ، فقال: «قَاتَلَهُم اللَّهُ، والله إن اسْتَقْسما بِها قطُّ»[3].

ورأى في الكعبة حمامة من عِيدان، فكسرها بيده، وأمر بالصُّوَرِ فمُحيت.

وأخرج أبو داود[4] عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «خَطَبَ يَوْمَ الفَتْحِ بِمَكَّةَ فَكَبَّرَ ثَلَاثًا ثُمَّ قَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ، صَدَقَ وَعْدَهُ، وَنَصَرَ عَبْدَهُ، وَهَزَمَ الأَحْزَابَ وَحْدَهُ، أَلَا إِنَّ كُلَّ مَأْثُرَةٍ كَانَتْ فِي الجَاهِلِيَّةِ تُذْكَرُ وَتُدْعَى مِنْ دَمٍ أَوْ مَالٍ تَحْتَ قَدَمَيَّ إِلَّا مَا كَانَ مِنْ سِقَايَةِ الحَاجِّ وَسِدَانَةِ البَيْتِ»، ثُمَّ قَالَ: «أَلَا إِنَّ دِيَةَ الخَطَأ شِبْهِ العَمْدِ مَا كَانَ بِالسَّوْطِ وَالعَصَا مِائَةٌ مِنْ الإِبِلِ، مِنْهَا أَرْبَعُونَ فِي بُطُونِ أَوْلَادِهَا».

عباد الله...

وللحديث بقية إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

---

(١) أخرجه البخاري (٤٢٨٠).

(٢) أخرجه البخاري (٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١)، وغيرهما.

(٣) أخرجه البخاري (٤٢٨٨).

(٤) صحيح: أبو داود رقم (٤٥٤٧) في كتاب الديات، باب: في الخطأ شبه العمد، وحسنه الألباني في «صحيح سنن أبي داود».

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ثم ماذا؟

ثم دخل رسولُ الله ﷺ دارَ أُمِّ هانئ بنت أبى طالب، فاغتسل، وصلَّى ثمانَ ركعات فى بيتها، وكانت ضُحًى، فظنها مَن ظنها صلاةَ الضحى، وإنما هذه صلاةُ الفتح، وكان أُمراءُ الإسلام إذا فتحوا حِصنًا أو بلدًا، صلَّوْا عَقِيبَ الفتح هذه الصلاةَ اقتداءً برسول الله ﷺ، وفى القصة ما يدل على أنها بسبب الفتح شكرًا لله عليه، فإنها قالت: ما رأيتُه صلاها قبلَها ولا بعدَها[1].

وأجارت أُم هانئ حَمَوَيْنِ لها، فقال لها رسول الله ﷺ: «**قَدْ أَجَرْنَا مَنْ أَجَرْتِ يَا أُمَّ هانئ**»[2].

عباد الله...

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث عن «فتح مكة»، وما فيه من دروس وعظات وأحكام، فإلى اللقاء إن شاء الله.

❁❁❁❁❁

(١) أخرجه البخاري (١١٧٦).

(٢) إسناده حسن: أخرجه ابن إسحاق، وأصله عند البخاري (٣١٧١)، ومسلم (٣٣٦).

الخطبة العاشرة بعد المائة:

[ب] فتح مكّة

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «فتح مَكَّة» وما فيه من عظات ودروس.

عباد الله...

ولما استقر الفتح، أَمَّنَ رسولُ الله ﷺ النَّاسَ كُلَّهُم إلا تسعة نَفَر، فإنه أمر بقتلهم،وإن وُجِدُوا تحتَ أستارِ الكعبةِ، وهم عبدُ الله بن سعد بن أبى سَرْح، وعِكْرِمةُ بن أبى جهل، وعبد العُزَّى بن خَطَل، والحارثُ بنُ نُفيل ابن وهب، ومَقِيس بن صُبابة، وهَبَّار بن الأسود، وقينتان لابن خَطَل، كانتا تُغَنِّيان بهجاءِ

رسول الله ﷺ، وسارةُ مولاةٌ لبعض بنى عبد المطلب.

فأما ابنُ أبى سَرْح فأسلم، فجاء به عثمانُ بن عفان، فاستأمن له رسول الله ﷺ، فقبل منه بعد أن أمسك عنه رجاء أن يقومَ إليه بعضُ الصحابة فيقتله، وكان قد أسلم قبل ذلك، وهاجر، ثم ارتدَّ، ورجع إلى مكة.

وأما عِكرمةُ بنُ أبى جهل، فاستأمَنَت له امرأتُه بعد أن فرَّ، فأمَّنه النبى ﷺ، فَقَدِمَ وأسلم وحَسُنَ إسلامه.

وأما ابنُ خَطَل، والحارث، ومَقِيس، وإحدى القَينتين، فقُتِلُوا، وكان مقيسٌ، قد أسلم، ثم ارتدَّ وقَتَلَ، ولَحِقَ بالمشركين، وأما هَبَّار بن الأسود، فهو الذى عرض لزينبَ بنتِ رسول الله ﷺ حين هاجرت، فنخَس بها حتى سقطت على صخرة، وأسقطت جنينَها، ففرَّ، ثم أسلم وحَسُنَ إسلامُه.

واستؤمن رسولُ الله ﷺ لِسارة ولإحدى القَينتين، فأمَّنَهُما فأسلمتا[(١)].

فلما كان الغدُ مِن يوم الفتح، قامَ رسولُ الله ﷺ فى الناس خطيبًا، فَحَمِدَ اللهَ وأثنى عليه، ومجَّده بما هُوَ أهلُه، ثم قال: «**يا أَيُّهَا النَّاسُ؛ إنَّ اللهَ حَرَّمَ مَكَّةَ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَواتِ والأَرْضَ، فهى حَرَامٌ بِحُرْمَةِ الله إلى يَوْمِ القِيَامَةِ، فَلا يَحِلُّ لامْرِئٍ يُؤْمِنُ بِالله وَاليَوْمِ الآخِرِ أَنْ يَسْفِكَ فيها دَمًا أَوْ يَعْضُدَ بِهَا شَجَرَةً، فإنْ أَحَدٌ تَرَخَّصَ لِقِتَالِ رَسُول الله** ﷺ، **فقولوا: إنَّ اللهَ أَذِنَ لِرَسُولِهِ، ولَمْ يَأْذَنْ لَكُمْ، وإنَّما حَلَّتْ لى سَاعَةً مِنْ نَهارٍ، وقَدْ عَادَتْ حُرْمَتُهَا اليَوْمَ كحُرْمَتِهَا بالأمس، فَلْيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الغائبَ**»[(٢)].

ولما فتح اللهُ مكة على رسوله، وهى بلدُه، ووطنُه، ومولدُه، قال الأنصار فيما بينهم: أترون رسولَ الله ﷺ إذ فتحَ الله عليه أرضَه وبلدَه أن يُقيمَ بها، وهو يدعو على الصفا رافِعًا يديه؟ فلما فرغ من دُعائه، قال: «ماذا قلتم»؟ قالوا: لا شىء يا رسولَ الله، فلم يَزَلْ بهم حتَّى أخبروه، فقال رسولُ الله ﷺ: «**مَعَاذَ الله، المحْيَا**

(١) أخرجه البيهقي، وأخرج أبو داود بعضه (٢٦٨٣)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (١٠٤)، ومسلم (١٣٥٤).

مَحياكُم، والمَماتُ مَماتُكم»[(١)].

وفرَّ يومئذ صفوانُ بن أُميَّة، وعِكرمةُ بنُ أبى جهل، فأما صفوانُ، فاستأمن له عُميرُ بن وهب الجُمَحى رسولَ الله ﷺ، فأمَّنه وأعطاه عِمامته التى دخل بها مكة، فلحقه عميرٌ وهو يُريدُ أن يركب البحر فردَّه،فقال: اجعلنى فيه بالخيار شهرين، فقال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر[(٢)].

وبثَّ رسول الله ﷺ سراياه إلى الأوثان التى كانت حولَ الكعبة، فكُسِّرَتْ كُلُّهَا مِنها اللات والعُزَّى، ومنَاةُ الثالثةُ الأُخرى، ونادى منادِيهِ بمكة: «مَنْ كَانَ يُؤمِنُ بالله واليَوْمِ الآخِرِ، فلا يَدَعْ فى بَيْتِهِ صَنمًا إلا كسَره» ا.هـ[(٣)].

عباد الله...

وفي «فتح مَكَّة» فوائد ولطائف.

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «كان صلحُ الحديبية مقدِّمةً وتوطئة بينَ يدى هذا الفتح العظيم، أَمِنَ الناسُ به، وكلَّم بعضُهم بعضًا وناظره فى الإسلام، وتمكن مَن اختفى مِن المسلمين بمكة من إظهار دينه، والدعوةِ إليه، والمناظرةِ عليه، ودخل بسببه بَشَرٌ كثيرٌ فى الإسـلام، ولهذا سمَّاه الله فتحًا فى قوله: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا﴾ [الفتح: ١].

وأعاد سبحانه وتعالى ذكر كونه فتحًا، فقال: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُواْ فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ [الفتح:٢٧] وهذا شأنه- سبحانه - أن يُقدِّم بين يدى الأُمور العظيمة مقدِّماتٍ تكونُ كالمدخل إليها، المنبهة عليها، كما قدَّم بين يدى قصة المسيح وخلقه مِن غير أب، قِصة زكريا، وخلقِ الولد له مع كونه كبيرًا لا يُولد لمثله، وكما قدَّم بين يدى نسخ القِبْلة قصةَ البيت وبنائه وتعظيمه، والتنويه بِه، وذِكْر بانيه، وتعظِيمهِ، ومدحه،

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٨٠).

(٢) إسناده حسن: أخرجه ابن إسحاق.

(٣) «زاد المعاد» باختصار.

ووطأ قبل ذلك كُلَّه بذكر النسخ، وحكمته المقتضية له، وقُدرته الشاملة له، وهكذا ما قدَّم بين يدى مبعث رسوله ﷺ، من قصة الفيل، وبشارات الكُهَّان به، وغير ذلك، وكذلك الرُّؤيا الصالحة لرسول الله ﷺ كانت مقدِّمةً بين يدى الوحى فى اليقظة، وكذلك الهِجرة كانت مقدِّمةً بين يدى الأمر بالجهاد، ومَن تأمل أسرار الشرع والقدر، رأى من ذلك ما تَبْهَرُ حِكمتُه الألبابَ.

وفيها: أن أهل العهد إذا حاربُوا مَن هم فى ذمة الإمام وجواره وعهده، صارُوا حربًا له بذلك، ولم يبق بينهم وبينه عهدٌ، فله أن يُبَيِّتَهم فى ديارهم، ولا يحتاجُ أن يُعلِمَهُمْ على سواء، وإنما يكون الإعلامُ إذا خاف منهم الخيانَة، فإذا تحقَّقها، صاروا نابذين لعهده.

وفيها: انتقاضُ عهد جميعهم بذلك، رِدْئهم ومُباشِرِيهم إذا رضُوا بذلك، وأقرُّوا عليه ولم يُنكروه، فإن الذين أعانُوا بنى بكر مِن قُريش بعضُهم، لم يُقاتِلُوا كُلُّهم معهم، ومع هذا فغزاهم رسولُ الله ﷺ كلَّهم، وهذا كما أنهم دخلوا فى عقد الصلح تبعًا، ولم ينفرِدْ كلُّ واحد منهم بصُلح، إذ قد رَضُوا به وأقرُّوا عليه، فكذلك حُكم نقضهم للعهد، هذا هَدْىُ رسول الله ﷺ الذى لا شك فيه كما ترى.

وطردُ هذا جريانُ هذا الحكمِ على ناقضى العهد مِن أهل الذِّمة إذا رضى جماعتُهم به، وإن لم يُباشر كُلُّ واحد منهم ما ينقُضُ عهده، كما أجلى عُمَرُ يهودَ خيبر لما عدا بعضُهم على ابنه، ورَمَوْه مِن ظهر دار فَفَدَعُوا يده، بل قد قتل رسولُ الله ﷺ جميع مقاتلة بنى قُريظة، ولم يسأل عن كل رجل منهم: هل نقض العهد أم لا؟

وكذلك أجلى بنى النَّضير كُلَّهم، وإنما كان الذى هَمَّ بالقتل رجلان، وكذلك فعلَ ببنى قَيْنُقَاع حتى استوهبهم منه عبدُ الله ابن أُبَىّ، فهذه سيرتُه وهَدْيُه الذى لا شك فيه.

وقد أجمع المسلمون على أن حكم الرِّدء حكمُ المباشِرِ فى الجهاد، ولا يُشترط فى قسمة الغنيمة، ولا فى الثواب مباشرةُ كل واحدٍ واحدٍ القتال.

وهذا حكمُ قُطَّاع الطريق، حكمُ ردئهم حكمُ مباشرهم، لأن المباشِرَ إنما باشر

الإفساد بقوة الباقين، ولولاهم ما وصل إلى ما وصل إليه، وهذا هو الصوابُ الذى لا شك فيه، وهو مذهبُ أحمد، ومالك، وأبي حنيفة، وغيرهم.

وفيها: جوازُ صلح أهلِ الحرب على وضع القِتال عشرَ سنين، وهل يجوزُ فوق ذلك؟

الصواب: أنه يجوزُ للحاجة والمصلحة الراجِحة، كما إذا كان بالمسلمين ضعفٌ وعدوُّهم أقوى منهم، وفى العَقد لِما زاد عن العشر مصلحةٌ للإسلام.

وفيها: أن الإمام وغيرَه إذا سُئل ما لا يجوز بذلُه، أو لا يجبُ، فسكت عن بذله، لم يكن سكوتُه بذلًا له، فإن أبا سفيان سأل رسولَ الله ﷺ تجديدَ العهد. فسكتَ رسولُ الله ﷺ، ولم يجبه بشيء، ولم يكن بهذا السكوتِ معاهِدًا له.

وفيها: أن رسولَ الكفار لا يُقتل، فإن أبا سفيان كان ممن جَرَى عليه حُكْمُ انتقاضِ العهد، ولم يقتُلْه رسولُ الله ﷺ إذ كان رسولَ قومه إليه.

وفيها: جوازُ تبييتِ الكفار، ومُغافَضَتُهم[1] فى ديارهم إذا كانت قد بلغتهم الدعوةُ، وقد كانت سرايا رسول الله ﷺ يُبيِّتُون الكفَّار، ويُغيرون عليهم بإذنه بعد أن بلغتهم دعوتُه.

وفيها: جوازُ قتل الجاسوسِ وإن كان مسلمًا لأن عمر رضى الله عنه سأل رسولَ الله ﷺ قتلَ حاطب بن أبى بَلتعةَ لما بعثَ يُخبر أهلَ مكة بالخبر، ولم يقل رسولُ الله ﷺ: لا يَحِلُّ قتله إنه مسلم، بل قال: «**وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُم**»[2]، فأجاب بأن فيه مانعًا من قتله، وهو شهودهُ بدرًا، وفى الجواب بهذا كالتنبيه على جواز قتل جاسوسٍ ليس له مِثْلُ هذا المانع. وهذا مذهب مالك، وأحد الوجهين فى مذهب أحمد، وقال الشافعى وأبو حنيفة: لا يُقتل، وهو ظاهر مذهب أحمد، والفريقان يحتجون بقصة حاطب، والصحيح: أن قتله راجع إلى رأى الإمام، فإن رأى فى قتله مصلحة للمسلمين، قتله، وإن كان

---

(١) **مُغافَضتهم**؛ أي: أخذهم عَلَى غرة.

(٢) صحيح.

استبقاؤه أصلحَ، استبقاه.. والله أعلم.

وفيها: جوازُ تجريدِ المرأة كُلِّها وتكشيفها للحاجة والمصلحةِ العامة، فإن عليًّا والمقداد قالا للظعينة: لتُخْرِجِنَّ الكتابَ أو لنكْشِفَنَّك، وإذا جاز تجريدُها لحاجتها إلى حيث تدعو إليها، فتجريدُها لمصلحة الإسلام والمسلمين أولى.

وفيها: أن الرجل إذا نَسَبَ المسلم إلى النفاقِ والكُفْرِ متأوِّلًا وغضبًا لله ورسوله ودينه لا لهواه وحظه، فإنه لا يكفُر بذلك، بل لا يأثمُ به، بل يُثاب على نيِّته وقصده، وهذا بخِلاف أهل الأهواء والبدع، فإنهم يُكفِّرون ويُبدِّعُون لمخالفة أهوائهم ونحلهم، وهم أولى بذلك ممن كفَّروه وبدَّعوه.

عباد الله...

هَذِهِ بعض الفوائد واللطائف المستفادة من «فتح مَكَّة»، وسيأتي المزيد بعد قليل، إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الفوائد والعظات المستفادة من «فتح مكة» أيضًا:

أن الكبيرةَ العظيمَةَ مما دون الشركِ قد تُكَفَّرُ بالحسنةِ الكبيرةِ الماحية، كما وقع الجَسُّ مِن حاطب سكفَّرًا بشهوده بدرًا، فإن ما اشتملت عليه هذه الحسنةُ العظيمةُ مِن المصلحة، وتضمنتهُ مِن محبة الله لها ورضاه بها، وفرحِه بها، ومباهاتِه للملائكة بفاعلها، أعظمُ مما اشتملت عليه سيئةُ الجسِّ مِن المفسدة، وتضمَّنَتْهُ مِن بغضِ الله لها، فغلب الأقوى على الأضعفِ، فأزاله، وأبطل مقتضاه، وهذه حكمةُ الله فى الصحة والمرض الناشئين من الحسنات والسيئات، الموجبينِ لصحةِ القلب ومرضه، وهى نظيرُ حكمته تعالى فى الصحة والمرضِ اللاحِقين للبدن، فإن الأقوى

منهما يَقْهَرُ المغلوبَ، ويصير الحكمُ له حتى يذهبَ أثرُ الأضعف، فهذه حِكمتُه فى خلقه وقضائه، وتلك حِكمته فى شرعه وأمره.

وهذا كما أنه ثابت فى محو السيئاتِ بالحسنات، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود: ١٤]. وقوله تعالى: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [النساء: ٣١]، وقوله ﷺ: «وأتبع السَّيِّئَةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها» [1]، فهو ثابت فى عكسه لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى﴾ [البقرة: ٢٦٤]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لا تَرْفَعُواْ أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلاَ تَجْهَرُواْ لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ﴾ [الحجرات: ٢].

وكقوله ﷺ فى الحديث الذى رواه البخارى فى «صحيحه»: «مَنْ تَرَكَ صَلاَةَ العَصْرِ حَبِطَ عَمَلُهُ» [2]... إلى غير ذلك من النصوص والآثار الدالة على تدافُع الحسناتِ والسيئات، وإبطالِ بعضها بعضًا، وذهابِ أثر القوى منها بما دونَه، وعلى هذا مبنى الموازنة والإحباط.

وبالجملة؛ فقوة الإحسان ومرضُ العصيان متصاولان ومتحاربان، ولهذا المرض مع هذه القوة حالةُ تزايد وترام إلى الهلاك، وحالةُ انحطاط وتناقص، وهى خيرُ حالات المريض، وحالةُ وقوف وتقابل إلى أن يقهرَ أحدُهما الآخر.

وإذا دخل وقتُ البُحران[3] وهو ساعة المناجزة، فحظُّ القلب أحدُ الخطتين: إما السلامةُ وإما العطبُ، وهذا البُحران يكونُ وقتَ فعلِ الواجبات التى تُوجِبُ رِضَى الربِّ تعالى ومغفرتَه، أو تُوجبُ سُخْطَه وعقوبتَه، وفى الدعاء النبوى: «أَسْأَلُكَ مُوجِبَاتِ رَحْمَتِكَ» [4]، وقال عن طلحة يومئذ: «أَوْجَبَ طَلْحَةُ» [5].

(١) حسن: أخرجه الترمذي (١٩٩٤).
(٢) أخرجه البخاري (٥٥٣).
(٣) البُحران: هو التغيّر الذي يحدث للعليل في الأمراض الحمية الحادة.
(٤) أخرجه الحاكم (١٩٢٥).
(٥) صحيح.

وفى الحديث الصحيح «أَتَدْرُونَ مَا الْمُوجِبَتَان»؟ قالوا: اللَّهُ ورسولُه أعلم. قال: «**مَنْ مَاتَ لاَ يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ الجَنَّة، ومَنْ مَاتَ يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ النَّار**» [١]، يريد أن التوحيد والشِّرك رأس الموجبات وأصلها، فهما بمنزلة السمِّ القاتِل قطعًا، والترياق المنجى قطعًا.

وكما أن البدن قد تَعْرِضُ له أسبابٌ رديئة لازمة تُوهِنُ قوَّته وتُضعِفُها، فلا ينتفعُ معها بالأسباب الصالحة والأغذية النافعة، بل تُحيلُها تلك المواد الفاسدة إلى طبعها وقوَّتها، فلا يزدادُ بها إلا مرضًا، وقد تقومُ به موادٌ صالحة وأسبابٌ موافِقة تُوجِبُ قوَّتَه، وتُمَكِّنُه مِن الصحة وأسبابها، فلا تكادُ تضرُّه الأسبابُ الفاسِدةُ، بل تُحيلها تلك الموادُّ الفاضلة إلى طبعها، فهكذا موادُّ صحة القلبِ وفسادِه.

فتأمل قوة إيمانِ حاطبالتى حملته على شهودِ بدر، وبذلِه نفسَه مع رسولِ الله ﷺ، وإيثارِهِ اللهَ ورسولَه على قومه وعشيرتِهِ وقرابتِهِ وهم بين ظهرانى العدُوِّ، وفى بلدهم، ولم يَثْنِ ذلكَ عِنَانَ عزمِه، ولا فَلَّ مِن حَدِّ إيمانه ومواجهته للقتال لمن أهلُه وعشيرته وأقاربُه عندهم، فلما جاء مرضُ الجسِّ، برزت إليه هذه القوةُ، وكان البُحرانُ صالحًا، فاندفع المرض، وقام المريض، كأن لم يكن به قَلبَةٌ، ولما رأى الطبيبُ قوةَ إيمانه قد استعلت على مرض جَسِّه وقهرته، قال لمن أراد فصده: لا يحتاجُ هذا العارض إلى فصاد، «**ومَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللهَ اطَّلَعَ عَلَى أهل بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُم، فَقَدْ غَفرْتُ لَكُم**» [٢].

وعكس هذا ذو الخُوَيصِرَة التميمى وأضرابهِ مِن الخوارج الذين بلغ اجتهادُهم فى الصلاةِ والصِّيَام والقراءة إلى حد يَحْقِرُ أحدُ الصحابة عملَه معه كيف قال فيهم: «**لَئِنْ أدركْتُهُم لأَقْتَلَنَّهُم قَتْلَ عَادٍ**» [٣]، وقال: «**اقْتُلُوهُم فإنَّ فى قَتْلِهِمْ أَجْرًا عِنْدَ الله لِمَنْ قَتَلَهُمْ**» [٤].

---

(١) أخرجه مسام (٩٣).
(٢) صحيح.
(٣) أخرجه مسلم (١٠٦٣).
(٤) أخرجه مسلم (١٠٦٦).

وقال: «شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ»(١)، فلم ينتفِعُوا بتلك الأعمال العظيمةِ مع تلك المواد الفاسدة المهلكةِ واستحالت فاسدةً.

وتأمَّل فى حال إبليس لما كانت المادةُ المهلكة كامنة فى نفسه، لم ينتفعْ معها بما سَلَف مِن طاعاته، ورجع إلى شاكلته وما هُوَ أولى به.

وكذلك الذى آتاه اللَّهُ آياتِه، فانسلخَ مِنها، فأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ، فكان مِن الغاوين وأضرابُه وأشكالُه، فالمعوَّلُ على السرائر والمقاصد والنِّياتِ والهِمم، فهى الإكسير الذى يَقْلِبُ نحاسَ الأعمال ذهبًا، أو يرُدُّهَا خَبَثًا... وبالله التوفيق.

ومَن له لُبٌّ وعقل، يعلم قَدْرَ هذِهِ المسألة وشِدَّةَ حاجته إليها، وانتفاعه بها، ويطَّلِعُ منها على باب عظيم من أبواب معرفة الله سبحانه وحكمته فى خلقه، وأمره، وثوابِه، وعِقابه، وأحكامِ الموازنة، وإيصالِ اللَّذة والألم إلى الروح والبدن فى المعاش والمعاد، وتفاوتِ المراتب فى ذلك بأسباب مقتضية بالغة ممن هو قائمٌ على كُلِّ نفس بما كسبت.

وفى هذه القصة جوازُ مباغتة المعَاهَدِينَ إذا نقضُوا العهد، والإغارةُ عليهم، وألا يُعلمهم بمسيره إليهم، وأما ما داموا قائمين بالوفاء بالعهد، فلا يجوزُ ذلك حتى يَنْبِذَ إليهم على سواء.

وفيها: جواز بل استحباب كثرة المسلمين وقوتهم وشوكتهم وهيئتهم لرسل العدوِّ إذا جاؤوا إلى الإمام كما يفعل ملوك الإسلام، كما أمر النبى ﷺ بإيقاد النيران ليلة الدخول إلى مكة، وأمر العباسأن يحبس أبا سفيانعند خطم الجبل، وهو ما تضايق منه حتى عُرِضت عليه عساكر الإسلام، وعصابة التوحيد وجند الله، وعُرِضت عليه خاصِكيةرسول الله ﷺ وهم فى السلاح لا يُرى منهم إلا الحدق، ثم أرسله، فأخبر قريشًا بما رأى.

وفيها: جواز دخول مكة للقتال المباح بغير إحرام، كما دخل رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٣٠١١).

والمسلمون، وهذا لا خلاف فيه، ولا خلاف أنه لا يدخلها مَن أراد الحج أو العُمْرة إلا بإحرام، واختُلِفَ فيما سوى ذلك إذا لم يكن الدخولُ لحاجة متكررة، كالحشَّاشِ والحطَّاب، على ثلاثة أقوال:

أحدها: لا يجوزُ دخولُها إلا بإحرام، وهذا مذهبُ ابنِ عباس رضى الله عنه، وأحمد فى ظاهر مذهبه، والشافعى فى أحد قوليه.

والثانى: أنه كالحشَّاشِ والحطَّاب، فيدخُلها بغير إحرام، وهذا القولُ الآخر للشافعى، ورواية عن أحمد.

والثالث: أنه إن كان داخِلَ المواقيت، جاز دخولُه بغير إحرام، وإن كان خارجَ المواقيت، لم يدخُلْ إلا بإحرام، وهذا مذهب أبى حنيفة وهَدْيُ رسول الله ﷺ معلومٌ فى المجاهد، ومريدِ النُّسك، وأما مَنْ عداهما فلا واجبَ إلا ما أوجبه اللهُ ورسولُه، أو أجمعت عليه الأُمةُ» ا.هـ[١].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة نواصل الحديث عن السِّيرة العطرة - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللقاء.

---

(١) انتهى من «زاد المعاد» باختصار.

الخطبة الحادية عشرة بعد المائة:

[أ] غزوة حُنين

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سيرة النبيِّ ﷺ.

ونتكلم اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - عن «غزوة حُنين» وتُسمى «غزوة أوطاس»، وأسأل الله تَعَالَى التوفيق لطاعته.

عباد الله...

قال ابن إسحاق: ولما سمعت هَوازِنُ برسول الله ﷺ، وما فتح اللَّهُ عليه مِن مكة، جمعها مالكُ بنُ عوف النَّصْرِي، واجتمع إليه مع هَوازِن ثقيفٌ كُلُّها،

واجتمعت إليه مُضَرُ وجُشَمُ كُلُّها، وسعدُ بن بكر، وناسٌ من بنى هلال، وهم قليل، ولم يشهدها من قَيْس عَيلان إلا هؤلاء، ولم يحضُرْهَا مِن هَوازِن: كعبٌ، ولا كِلاب، وفى جشم: دريدُ بنُ الصِّمة، شيخ كبير ليس فيه إلا رأيُهُ ومعرفتُه بالحرب، وكان شجاعًا مجرَّبًا، وفى ثقيف سيِّدَانِ لهم، وفى الأحلاف: قاربُ بن الأسود، وفى بنى مالك: سُبيع بن الحارث وأخوه أحمر بن الحارث، وجِماعُ أمر الناس إلى مالك بن عوف النَّصْرى، فلما أجمع السيرَ إلى رسول الله ﷺ، ساق مع الناس أموالَهم ونساءَهم وأبناءهم، فلما نزل بأوطاس، اجتمع إليه الناسُ وفيهم دُرَيْدُ بن الصِّمة، فلما نزل قال: بأى واد أنتم؟ قالوا: بأوطاس. قال: نِعْمَ مَجَالُ الخيل، لا حَزْنٌ ضِرْس[1]، ولا سَهْلٌ دَهْسٌ[2]، مالى أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصبى، ويُعار الشاء؟

قالوا: ساق مالِكُ بن عوفٍ مع الناسِ نِساءَهُم وأموالَهم وأبناءهم. قال: أَيْنَ مالك؟ قيل: هذا مالك، ودُعى له. قال: يا مالك؛ إنك قد أصبحتَ رئيسَ قومك، وإن هذا يومٌ كائن له ما بعده من الأيام، مالى أسمع رُغاء البعير، ونُهاق الحمير، وبُكاء الصغير، ويُعار الشاء؟، قال: سقتُ مع الناس أبناءهم، ونساءَهم، وأموالَهم. قال: ولِمَ؟ قال: أردتُ أن أجعل خلفَ كُلِّ رجل أهلَه وماله ليقاتل عنهم. فقال: راعى ضأنٍ والله، وهل يردُّ المنهزمَ شىء، إنها إن كانت لك لم ينفعْك إلا رجلٌ بسيفه ورمحه، وإن كانت عليكَ، فُضِحْتَ فى أهلك ومالك، ثم قال: ما فعلت كعبٌ وكِلاب؟ قالوا: لم يشهدْها أحدٌ منهم. قال: غاب الحَدُّ والجِدُّ، لو كان يوم علاءٍ ورِفعة، لم تَغِبْ عنه كعبٌ ولا كِلاب، ولوَدِدْت أنكم فعلتم ما فعلت كعبٌ وكلاب، فمَن شهدها منكم؟ قالوا: عَمْرو بن عامر، وعَوْف بن عامر، قال: ذَانِكَ الجَذَعَان[3] من عامر، لا ينفعان ولا يضران. يا مالك؛ إنك لم

---

(١) ضرس: أي أرض نباتها ههنا وههنا.
(٢) دهس: المكان السهل ليس برمل ولا تراب.
(٣) الجذعان: الصغار.

تصنع بتقديم البَيْضةِ(١) بَيْضةِ هَوازِن إلى نحورِ الخيل شيئًا، ارفعهم إلى مُتمنَّع بلادهم وعُليا قومهم، ثم الق الصُّباة(٢) على متون الخيل، فإن كانت لك، لحقَ بك مَنْ وراءَك، وإن كانت عليك، ألْفاك ذلك، وقد أحرزتَ أهلك ومالك. قال: والله لا أفعلُ، إنك قد كَبِرْتَ وَكَبِرَ عَقلُكَ، والله لتُطِيعُنَّنى يا معشَرَ هَوازِن، أو لأتَّكِئِنَّ على هذا السيف حتى يخْرُجَ مِن ظهرى، وكره أن يكون لِدُريد فيها ذِكر ورأى، فقالوا: أطعناك، فقال دُريد: هذا يوم لم أشهده ولم يَفُتْنى.

يَا لَيْتَنِى فِيهَا جَذَعْ ... أَخُبُّ(٣) فِيهَا وَأَضَعْ
أَقُودُ وَطْفَاءَ(٤) الزَّمَعْ ... كَأَنَّهَا شَاةٌ صَدَعْ(٥)

ثم قال مالك للناس: إذا رأيتمُوهم فاكسروا جُفون سيوفكم، ثم شُدُّوا شدةَ رجل واحد.. وبعث عيونًا مِن رجاله، فأَتَوْه وقد تفرَّقت أوصالُهم، قال: ويلكم ما شأنكم؟ قالوا: رأينا رِجالًا بيضًا على خيل بُلقٍ، والله ما تماسكنا أن أصابَنَا ما ترى، فوالله ما ردَّه ذلك عن وجهه أن مَضَى على ما يُريدُ.

ولما سمع بهم نبيُّ الله ﷺ، بعث إليهم عبد الله بن أبى حَدْرَدٍ الأسلمى، وأمره أن يدخُل فى الناس، فيُقيم فيهم حتى يعلَم علمهم، ثم يأتيه بخبرهم، فانطلق ابن أبى حدرد، فدخل فيهم حتى سمِعَ وعلم ما قد جمعوا له من حرب رسول الله ﷺ، وسَمِعَ مِن مالك وأمر هوازن ما هُم عليه، ثم أقبل حتى أتى رسولَ الله ﷺ فأخبره الخبر

فلما أجمع رسولُ الله ﷺ السير إلى هَوازِن، ذُكِرَ له أن عند صفوان بنِ أُمية أدراعًا وسلاحًا، فأرسل إليه، وهو يومئذ مشرك، فقال: «يا أبا أُمية؛ **أعِرْنا سِلاحك**

---

(١) البيضة: جماعة القوم وأصلهم.
(٢) الصباة: جمع صابئ، ويقصدون بهم المسلمين، حيث إنهم كانوا يسمون مَن يخرج عن دينه: صابئ.
(٣) أخب: الخب ضرب من العَدو.
(٤) وطفاء: كثير الشعر، الزمع: شعرات خلف الثُّنَّة.
(٥) صَدِع: أي وسط.

هذا نلقى فيه عدونا غدًا»، فقال صفوان: أغصبًا يا محمد؟ قال: «بَلْ عَارِيَّةٌ مَضْمُونَةٌ حَتَّى نُؤَدِّيَهَا إِلَيْكَ»، فقال: ليس بهذا بأس، فأعطاه مائة دِرع بما يكفيها مِن السلاح، فزعموا أن رسول الله ﷺ سأله أن يكفيَهم حملها، ففعل[١].

ثم خرج رسولُ الله ﷺ معه ألفانِ مِن أهل مكة، مع عشرة آلاف من أصحابه الذين خرجوا معه، ففتح الله بهم مكة، وكانوا اثنى عشر ألفًا، واستعمل عتَّابَ بن أسيد على مكة أميرًا، ثم مضى يُريد لقاء هوازن.

قال ابن إسحاق: فحدَّثني عاصم بن عمر بن قتادة، عن عبد الرحمن بن جابر، عن أبيه جابر بن عبد الله، قال: لما استقبلنا وادى حُنَيْن، انحدرنا فى وادٍ من أودية تِهامة أجوفَ حَطُوط[٢]، إنما ننحدر فيه انحدارًا. قال: وفى عَماية الصبح[٣]، وكان القومُ قد سبقونا إلى الوادى، فكَمَنُوا لنا فى شِعابه وأحْنائه[٤] ومضايقه، قد أجمعوا، وتهيؤوا، وأعدوا فوالله ما راعناونحن منحطُّون[٥] إلا الكتائبُ، قد شدُّوا علينا شَدَّةَ رجلٍ واحد، وانشمرَ الناسُ[٦] راجعين لا يَلْوِى أحدٌ منهم على أحد، وانحاز رسولُ الله ﷺ ذاتَ اليمين، ثم قال: «إلى أَيْنَ أَيُّهَا النَّاسُ؟ هَلُمَّ إِلَيَّ، أنا رَسُولُ الله، أَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الله»، وبقى مع رسول الله ﷺ نَفَرٌ من المهاجرين والأنصارِ وأهلِ بيته، وفيمن ثبت معه من المهاجرين: أبو بكر وعمر، ومن أهل بيته: على والعباس وأبو سفيان بن الحارث وابنه، والفَضل بن العباس، وربيعةُ بن الحارث، وأُسامةُ بن زيد، وأيمن ابن أُم أيمن، وقُتِلَ يومئذ.

قال: ورجل من هَوازِن على جمل له أحمر بيده راية سوداء فى رأس رُمح طويل

---

(١) رواه ابن إسحاق كما في «البداية» (٢/ ٧٨١ - ٧٨٣) قال ابن كثير: هكذا أورد هذا ابن إسحاق من غير إسناد. ا.هـ. وقصة صفوان بن أمية أخرجه أبو داود (٣٥٦٢)، والنسائي في «الكبرى» (٥٧٧٩)، وغيرهما، وحسنه الألباني.

(٢) حطوط: منحدر.

(٣) عماية الصَبح: يقصد ظلامه الذي يسبق بياضه.

(٤) أحنائه: جوانبه.

(٥) منحطون: منحدرون.

(٦) انشمر الناس: انهزموا.

أمامَ هَوازِن، وهَوازِنُ خلفه، إذا أدرك، طعن برمحه، وإذا فاته الناسُ، رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه، فبينا هو كذلك إذ أهوى عليه على بن أبى طالب، ورجل من الأنصار يُريدانه، قال: فأتى على منْ خَلْفِهِ، فضرب عرقوبى الجمل، فوقع على عجزه[١]، ووثب الأنصاريُّ على الرجل، فضربه ضربةً أطن قدَمه[٢] بنصف ساقه، فانجعفَ[٣] عن رحله، قال: فاجتلد الناسُ، قال: فوالله ما رجعت راجعةُ الناس مِن هزيمتهم حتى وجدوا الأسارى عند رسول الله ﷺ[٤].

وقال ابن إسحاق: وحدَّثنى الزُّهْرى، عن كثير بن العباس، عن أبيه العباس ابن عبد المطلب، قال: إنى لمعَ رسولِ الله ﷺ آخذٌ بِحَكَمَةِ بغلته البيضاء، قد شَجَرْتُها بها، وكنت امرءًا جسيمًا شديدَ الصوت، قال رسُولُ الله ﷺ يقول حين رأى ما رأى من الناس: «إلى أيْنَ أيُّهَا النَّاسُ». قال: فلم أر الناس يَلْوُون على شيء، فقال: «**يا عَبَّاسُ اصْرَخْ: يا مَعْشَر الأنْصَارِ، يَامَعْشَرَ أَصْحَاب السَّمُرَةِ**»، فأجابوا: لَبَّيْكَ لَبَّيْكَ.قال: فيذهبُ الرجلُ ليثنى بعيرَه، فلا يقدِرُ على ذلك، فيأخذ دِرعه فيقذفها فى عُنُقه، ويأخذ سيفَه وقوسه وتُرسَه، ويقتحِمُ عن بعيره، ويُخلى سبيلَه، ويؤم الصوت حتى ينتهىَ إلى رسول الله ﷺ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة، استقبلُوا النَّاس، فاقتتلُوا فكانت الدعوة أوَّلَ ماكانت: يا للأنصار، ثم خلصت آخرًا: يا للخزرج، وكانوا صُبُرًا عند الحرب، فأشرف رسولُ الله ﷺ فى ركائبه، فنظر إلى مُجْتَلَدِ القوم، وهم يَجْتَلِدُونَ، فقال: «**الآنَ حَمِىَ الوَطِيسُ**»[٥]، وزَاد غيره:

أنَـا النَّبِـيُّ لاَ كَـذِبْ أنـا ابْـنُ عَـبْدِ المُطَّلِـبْ

وفى «صحيح مسلم»: ثم أخذ رسولُ الله ﷺ حَصيَاتٍ، فرمى بها فى وجوه الكُفَّارِ،ثم قال:«**انهَزَمُوا وَرَبِّ مُحَمَّدٍ**»، فما هو إلا أن رماهم، فما زِلْتُ أرى حَدَّهُم

---

(١) عجزه: مؤخرته.
(٢) أطن قدمه: أي سمع لها صوت.
(٣) انجعف: صرع.
(٤) إسناده حسن.
(٥) أخرجه مسلم (١٧٧٥).

كليلًا، وأمرَهم مُدْبِرًا[١].

وفى لفظ له: إنه نزل عن البغلة، ثم قبضَ قبضة مِن تُراب الأرض، ثم استقبل بها وجوهَهم، وقال: «شَاهَتِ الوُجُوهُ»، فما خلق اللَّهُ منهم إنسانًا إلا ملأ عينيه ترابًا بتلك القبضة، فولّوا مدبرين[٢].

عباد الله...

وهكذا أذلّ الله سبحانه الشّرك والمشركين، وأعزَّ الإسلام والمسلمين.

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصَّالحات.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

قال ابن إسحاق: ولما انهزم المشركون، أتوا الطائف، ومعهم مالكُ بن عَوْف، وعسكر بعضُهم بأوطاس، وتوجَّه بعضُهم نحو نخلةَ، وبعثَ رسولُ الله ﷺ فى آثار مَن توجَّه قِبل أوطاس أبا عامر الأشعرىَّ، فأدرك مِن الناس بعضَ مَن انهزم، فناوشُوه القِتَال، فرُمِى بسهم فقُتِل، فأخذ الراية أبو موسى الأشعرى، وهو ابن أخيه، فقاتلهم، ففتح الله عليه، فهزمهم اللَّهُ، وقتل قاتل أبى عامر، فقال رسولُ الله ﷺ: «**اللَّهُمَّ اغْفِرْ لعُبَيْدٍ أبى عَامِرٍ وَأَهْلِهِ، واجْعَلْهُ يَوْمَ القِيَامَةِ فَوْقَ كَثِيرٍ مِنْ خَلْقِكَ**» واستغفر لأبى موسى[٣].

ومضى مالكُ بن عوف حتى تحصَّن بحصن ثقيف، وأمر رسولُ الله ﷺ بالسَّبْى والغنائمِ أن تُجْمَعَ فَجُمِعَ ذلكَ كُلُّهُ، ووجَّهوه إلى الجِعْرَانَةِ، وكان السَّبىُ

---

(١) أخرجه مسلم (١٧٧٥).

(٢) أخرجه مسلم (١٧٧٧).

(٣) أخرجه البخاري (٤٣٢٣) بنحوه.

ستةَ آلاف رأس، والإبلُ أربعةً وعشرين ألفًا، والغنم أكثرَ من أربعين ألف شاة، وأربعة آلاف أُوقية فضة، فاستأنى بهم رسول الله ﷺ أن يقدَموا عليه مسلمين بِضْعَ عشرة ليلة.

ثم بدأ بالأموال فقسمها، وأعطى المؤلَّفةَ قلوبُهم أوَّلَ الناسِ، فأعطى أبا سفيان بنَ حرب أربعين أُوقية، ومائةً من الإبل، فقال: ابنى يزيد؟ فقال: «**أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً وَمِائَةً مِنَ الإِبلِ**»، فقال: ابنى معاوية؟ قال: «**أَعْطُوهُ أَرْبَعِينَ أُوقِيَّةً، وَمِائَةً من الإبل**»، وأعطى حكيم بن حِزام مائة من الإبل، ثم سأله مائة أُخرى فأعطاه، وأعطى النضر بن الحارث بن كلدة مائة من الإبل، وأعطى العلاء بن حارثة الثقفى خمسين، وذكر أصحاب المائة وأصحاب الخمسين وأعطى العباسَ بن مرداس أربعين، فقال فى ذلك شعرًا، فكمَّل له المائة.

ثم أمر زيد بن ثابت بإحصاءِ الغنائم والناس، ثم فضَّها على الناس، فكانت سهامُهم لكل رجل أربعًا من الإبل وأربعينَ شاة، فإن كان فارسًا أخذ اثنى عشر بعيرًا وعشرين ومائة شاة[1].

قال ابن إسحاق: وحدَّثنى عاصم بن عمر بن قتادة، عن محمود بن لبيد، عن أبى سعيد الخدرى قال: لما أعطى رسولُ الله ﷺ ما أعطى مِن تلك العطايا فى قريش، وفى قبائل العرب، ولم يكن فى الأنصار منها شىء، وَجَدَ هذا الحىُّ من الأنصار فى أنفسهم، حتى كَثُرت فيهم القالةُ، حتى قال قائلُهم: لقى والله رسولُ الله ﷺ قومَه، فدخل عليه سعدُ بنُ عبادة، فقال: يا رسول الله؛ إن هذا الحىَّ من الأنصار قد وَجَدوا عليك فى أنفسهم لِما صنعتَ فى هذا الفيء الذى أصبتَ، قسمتَ فى قومك، وأعطيتَ عطايا عِظامًا فى قبائل العرب، ولم يكن فى هذا الحىِّ من الأنصار منها شىء. قال: «**فَأَيْنَ أَنْتَ مِنْ ذَلِكَ يَا سَعْدُ**»؟ قال: يا رسولَ الله؛ ما أنا إلا مِن قومِى. قال: «**فَاجْمَعْ لِى قَومَكَ فى هذِهِ الحَظِيرَةِ**» قال: فجاء رجالٌ من المهاجرينَ، فتركهم، فدخلوا، وجاء آخرون فردَّهم، فلما اجتمعوا، أتى سعدٌ،

---

(١) ذكره ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٥٢).

فقال: قد اجتمع لك هذا الحيُّ من الأنصار، فأتاهم رسولُ الله ﷺ، فَحَمِدَ الله، وأثنى عليه بما هو أهله.

ثم قال: «يَا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ؛ مَا قَالَةٌ بَلَغَتْنى عَنْكُم، وجِدَةٌ وَجَدْتُمُوهَا فى أَنْفُسِكُمْ، أَلَمْ آتِكُمْ ضُلاَّلًا فَهَداكُم اللَّهُ بى، وعَالَةً فَأَغْنَاكُمُ اللَّهُ بى، وأَعْدَاءً فَأَلَّفَ اللَّهُ بَيْنَ قُلُوبكُم»؟ قالوا: الله ورسولُه أَمَنُّ وأفضلُ، ثم قال: «أَلاَ تُجِيبُونى يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ»؟ قالوا: بماذَا نجيبُك يا رسولَ الله، لله ولِرسُولِه المنُّ والفَضْلُ؟ قال: «أَمَا والله لَوْ شِئْتُم، لَقُلْتُم، فَلَصَدَقْتُم ولَصُدِّقْتُمْ: أَتَيْتَنَا مُكَذَّبًا فَصَدَّقْنَاكَ، ومَخْذُولًا فَنَصَرْنَاكَ، وَطَرِيدًا فَآوَيْنَاكَ، وعائِلًا فآسيناكَ، أَوجَدْتم عليَّ يَا مَعْشَرَ الأنصارِ فى أَنْفُسِكُم فى لُعَاعَةٍ مِنَ الدُّنْيَا تَأَلَّفْتُ بِهَا قومًا لِيُسْلِمُوا، وَوكَلْتُكُم إلى إسْلامِكُم، ألا تَرْضَوْنَ يا مَعْشَرَ الأَنْصَارِ أَنْ يَذْهَبَ النَّاسُ بالشَّاء والبَعير، وتَرْجِعُونَ بِرَسُولِ الله إلى رحالِكم، فوالَّذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بيَدِهِ لَمَا تَنْقَلِبُون بِهِ خيرٌ مِمَّا يَنْقَلِبُونَ بِهِ، وَلَوْلا الهِجْرَةُ، لَكُنْتُ امْرُءًا مِن الأَنْصارِ، وَلَوْ سَلَكَ النَّاسُ شِعْبًا وَوَاديًا، وسَلَكَت الأنصار شِعْبًا وَوَاديًا لَسَلكْتُ شِعْبَ الأَنْصارِ وواديها، الأنصارُ شِعَارٌ، والنَّاسُ دِثارٌ، اللَّهُمَّ ارْحَمِ الأَنْصَارَ وَأَبْنَاءَ الأَنْصار، وأبناءَ أبناءِ الأَنْصار».

قال: فبكى القومُ حتَّى أخضلُوا لِحاهم، وقالوا: رَضينَا برسُولِ الله ﷺ قَسْمًا وحظًّا، ثم انصرف رسولُ الله ﷺ وتفرَّقوا[(١)(٢)].

عباد الله..

وفي الجمعة القادمة نواصل الحديث إن شاء الله عن غزوة حُنين، فإلى اللقاء.

۞۞۞۞۞

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٣/ ٧٦)، وصححه ابن كثير.
(٢) «زاد المعاد» باختصار.

الخطبة الثانية عشرة بعد المائة:

[ب] غزوة حُنين

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فنواصل الحديث اليوم - إن شاء الله - عن «غزوة حُنين»، وما فيها من فقه وحِكَم.

عباد الله...

وبعد أن هزم الله تَعَالَى هَوَازِن، ماذا حَدث؟

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وقدم وفد هَوازِنَ على رسول الله ﷺ، وهم أربعةَ عشر رجلًا، ورأسُهم زُهَيرُ بن صُرَد، وفيهم أبو بُرقان عمُّ رسول الله

ﷺ من الرضاعة، فسألوه أن يَمُنَّ عليهم بالسَّبْى والأموال، فقال: «**إنَّ مَعِي مَنْ تَرَوْنَ، وإنَّ أحَبَّ الحَدِيث إِلىَّ أَصْدَقُهُ، فَأَبْنَاؤُكُم ونِسَاؤُكُمْ أحَبُّ إلَيْكُم أمْ أمْوَالُكُمْ**»؟ قالوا: ما كنا نعدِلُ بالأحساب شيئًا فقال: «إذا صَلَّيْتُ الغَدَاةَ فَقُومُوا فقولوا: إنَّا نَسْتَشْفِعُ بِرَسُولِ الله ﷺ إلى المُؤمِنِينَ، ونَسْتَشْفِعُ بِالمُؤمنين إلى رَسُولِ الله ﷺ أنْ يَرُدُّوا عَلَيْنَا سَبْيَنَا»، فلما صلَّى الغداة، قاموا فقالُوا ذلِكَ، فقال رسولُ الله ﷺ: «**أَمَّا مَا كَانَ لى ولبنى عَبْدِ المُطَّلِبِ، فَهُوَ لَكُمْ، وَسَأَسْأَلُ لَكُمُ النَّاسَ**»، فقال المهاجِرُونَ والأنصار: ما كان لنا فهو لِرسول الله ﷺ، فقال الأقرعُ بنُ حابس: أما أنا وبنو تميم فلا، وقال عُيينة بن حِصن: أما أنا وبنو فَزارة فلا، وقال العباسُ بنُ مرداس: أما أنا وبنُو سليم فلا، فقالت بنو سليم: ما كان لنا فهو لرسول الله ﷺ، فقال العباسُ بنُ مرداس: وهَّنتمونى، فقال رسولُ الله ﷺ: «**إنَّ هؤلاء القَوْمَ قَدْ جَاؤوا مُسْلِمِينَ، وقَدْ كُنْتُ اسْتَأنَيْتُ سَبْيَهُم، وقَد خَيَّرْتُهم، فَلَمْ يَعْدِلُوا بالأبناء والنِّساء شَيئًا، فمنْ كانَ عِنْدَهُ مِنْهُنَّ شيء، فَطَابَتْ نَفْسَهُ بأن يَرُدَّه، فسبيلُ ذلكَ، وَمَنْ أحَبَّ أنْ يَسْتَمْسِكَ بِحَقِّهِ، فليردَّ عليهِمْ، ولَهُ بِكُلِّ فَرِيضَةٍ ستُّ فرائضَ منْ أوَّلِ ما يفيء اللَّهُ علينا**»، فقال الناسُ: قد طيبنا لرسول الله ﷺ. فقال: «**إنَّا لا نعرِفُ مَنْ رَضِيَ مِنْكُمْ مِمَّنْ لَمْ يَرْضَ، فارْجِعُوا حَتَّى يَرفَعَ إلينَا عرفاؤُكم أَمْرَكُم**»، فردوا عليهم نساءهم وأبناءهم(١).

ولم يتخلف منهم أحد غير عُيينة بن حصن، فإنه أبى أن يرد عجوزًا صارت فى يديه، ثم ردَّها بعد ذلك، وكسا رسولُ الله ﷺ السَّبىَ قُبطية قُبطية.

عباد الله...

وقَدْ تضمّنت غزوة حُنين مسائل فقهية، ونكت حكيمة كثيرة:

قَالَ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «كان اللَّهُ عَزَّ وجَلَّ قد وعد رسولَه، وهو صادقُ الوعد، أنه إذا فتح مكَّة، دخل النَّاسُ فى دينه أفواجًا، ودانت له العربُ بأسرها، فلما تمَّ له الفتحُ المبين، اقتضت حِكمتُه تعالى أن أمسك قلوبَ هَوازِنَ ومَن تَبِعَهَا

(١) أخرجه ابن إسحاق.

عن الإسلام، وأن يجمعوا ويتألَّبوا لحرب رسول الله ﷺ والمسلمين، لِيظهر أمرُ الله، وتمامُ إعزازه لرسوله، ونصره لدينه، ولِتكون غنائمُهم شكرانًا لأهل الفتح، وليُظهرَ اللَّهُ سبحانه رسولَه وعِبادَه، وقهرَه لهذه الشَّوْكة العظيمة التى لم يلق المسلمون مثلها، فلا يُقاومهم بعدُ أحدٌ من العرب، ولغير ذلك مِن الحكم الباهرة التى تلوحُ للمتأملين، وتبدو للمتوسمين

واقتضت حكمتُه سبحانه أن أذاق المسلمين أولًا مرارةَ الهزيمة والكسرة مع كثرة عَددهم، وعُددهم، وقوةِ شَوْكتهم لِيُطامِنَ رُؤوسًا رُفِعت بالفتح، ولم تدخل بلدَه وحرمه كما دخله رسولُ الله ﷺ واضعًا رأسه منحنيًا على فرسه، حتى إنَّ ذقنه تكادُ تَمَسُّ سرجه تواضعًا لربه، وخضوعًا لعظمته، واستكانةً لعزَّته، أن أحلَّ له حَرَمهُ وبلده، ولم يَحِلَّ لأحد قبله ولا لأحد بعدَه، ولِيبين سُبحانه لمن قال: «لَنْ نُغْلَبَ اليَوْمَ عن قِلَّةٍ» أن النصرَ إنما هو من عنده، وأنه مَن ينصرُه، فلا غالب له، ومَن يخذُله، فلا ناصر له غيره، وأنه سبحانه هو الذى تولَّى نصر رسوله ودينه، لا كثرتُكم التى أعجبتكم، فإنها لم تُغن عنكم شيئًا، فوليتُم مُدبرين، فلما انكسرت قلوبُهم، أُرسلت إليها خِلَعُ الجبر مع بَرِيدِ النصر، فأنزل الله سكينتَه على رسوله وعلى المؤمنين، وأنزل جنودًا لم تروها، وقد اقتضت حكمتُه أن خِلَعَ النصر وجوائزَه إنما تفِيضُ على أهل الانكسار: ﴿**وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِى الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الوَارِثِينَ * ونُمَكِّنَ لَهُمْ فِى الأَرْضِ وَنُرِىَ فِرْعَوْنَ وهَامَانَ وجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُواْ يَحْذَرُون**﴾ [القصص: ٦].

ومنها: أن الله سبحانه لما منع الجيش غنائمَ مكة، فلم يغنمُوا منها ذهبًا، ولا فضةً، ولا متاعًا، ولا سبيًا، ولا أرضًا كما روى أبو داود، عن وهب ابن منبِّه، قال: سألتُ جابرًا: هَلْ غَنِمُوا يَوْمَ الفَتْحِ شَيْئًا؟ قال: لا[1].

وكانوا قد فتحوها بإيجافِ الخيل والركاب، وهُم عشرةُ آلاف، وفيهم حاجة إلى ما يحتاج إليه الجيشُ مِن أسباب القوة، فحرَّك سبحانَه قلوبَ المشركين

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٠٢٣).

لغزوهم، وقذفَ فى قلوبهم إخراجَ أموالهم، ونَعمهم، وشائهم، وسَبيهم معهم نُزُلًا، وضِيافةً، وكرامةً، لِحزبه وجنده، وتَمَّمَ تقديرَه سبحانه بأن أطمعهم فى الظفر، وألاح لهم مبادئ النصر، ليقضى اللَّهُ أمرًا كان مفعولًا، فلما أنزل اللَّهُ نصرَهُ على رسوله وأوليائه، وبردت الغنائمُ لأهلها، وجرت فيها سهامُ الله ورسوله، قيل: لا حاجةَ لنا فى دمائكم، ولا فى نسائكم وذراريكم، فأوحى اللَّهُ سبحانه إلى قلوبهم التوبةَ والإنابةَ، فجاؤوا مسلمين. فقيل: إن مِن شُكْرِ إسلامِكم وإتيانكم أن نَرُدَّ عَلَيْكُمْ نِسَاءَكُم وأَبْنَاءَكُم وَسَبْيَكُم، و﴿إِن يَعْلَمِ اللَّهُ فِى قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِّمَّا أُخِذَ مِنكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنفال: ٧٠].

ومنها: أن الله سبحانه افتتح غزو العرب بغزوةِ بدر، وختم غزوهم بغزوة حُنَيْن، ولهذا يُقْرَنُ بين هاتين الغزاتين بالذكر، فيقال: بدرٌ وحُنَيْن، وإن كان بينهما سبعُ سنين، والملائكة قاتلت بأنفسها مع المسلمين فى هاتين الغزاتين، والنبىُّ ﷺ رمى فى وجوه المشركين بالحصباء فيهما، وبهاتين الغزاتين طُفِئَت جمرةُ العرب لغزو رسول الله ﷺ والمسلمين، فالأُولى:خوَّفتهم وكسرت مِن حَدِّهم، والثانية: استفرغت قواهم، واستنفدت سهامَهم، وأذلَّت جمعهم حتى لم يجدوا بُدًّا من الدخول فى دين الله.

ومنها: أن الله سبحانه جَبَرَ بها أهلَ مكة، وفرَّحهم بما نالُوه من النصر والمغنم، فكانت كالدواء لما نالهم من كسرهم، وإن كان عينَ جبرهم، وعرَّفهم تمامَ نعمته عليهم بما صرف عنهم من شر هَوازِن، فإنه لم يكن لهم بهم طاقة، وإنما نُصِرُوا عليهم بالمسلمين، ولو أُفردوا عنهم، لأكلهم عدوُّهم... إلى غير ذلك من الحكم التى لا يُحيط بها إلا الله تعالى.

وفيها من الفقه: أن الإمام ينبغى له أن يبعث العيونَ ومَنْ يدخلُ بين عدوه ليأتيه بخبرهم، وأن الإمام إذا سمع بقصد عدوِّه له، وفى جيشه قوة ومَنَعَة لا يقعُد ينتظرهم، بل يسيرُ إليهم، كما سار رسولُ الله ﷺ إلى هَوازِن حتى لقيهم بحُنَيْن.

ومنها: أن الإمام له أن يستعيرَ سلاحَ المشركين وعُدَّتهم لِقتال عدوه، كما استعار رسولُ الله ﷺ أدراع صفوان، وهو يومئذ مشركٌ.

ومنها: أن مِن تمام التوكل استعمالَ الأسبابِ التى نصبها الله لمسبباتها قدراً وشرعًا، فإن رسولَ الله ﷺ وأصحابه أكملُ الخلق توكُّلًا، وإنما كانوا يَلْقَوْنَ عدوَّهم، وهم متحصِّنُون بأنواع السِّلاح، ودخل رسولُ الله ﷺ مكَّة، والبَيْضَةُ على رأسه، وقد أنزل الله عليه: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة: ٦٧].

وكثير ممن لا تحقيق عنده، ولا رسوخ فى العلم يستشكلُ هذا، ويتكايس فى الجواب تارة بأن هذا فعله تعليمًا للأُمة، وتارة بأن هذا كان قبلَ نزول الآية. ووقعت فى مصر مسألة سأل عنها بعضُ الأمراء، وقد ذُكِرَ له حديثٌ ذكره أبو القاسم بن عساكر فى «تاريخه الكبير» أن رسولَ الله ﷺ كان بعد أن أهدت له اليهوديةُ الشاةَ المسمومةَ لا يأكل طعامًا قُدِّمَ له حتى يأكل منه مَن قدَّمه.

قالوا: وفى هذا أُسوة للملوك فى ذلك. **فقال قائل**: كيف يُجمع بين هذا وبين قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾؟ فإذا كانَ الله سبحانه قد ضمن له العِصْمةَ، فهو يعلم أنه لا سبيلَ لبَشَرٍ إليه.

وأجاب بعضهُم بأن هذا يدل على ضعف الحديث، وبعضُهم بأن هذا كان قبلَ نزولِ الآية، فلما نزلت لم يكن لِيفعل ذلك بعدَها، ولو تأمل هؤلاء أن ضمان الله له العِصمة، لا يُنافى تعاطيه لأسبابها، لأغناهم عن هذا التكلُّف، فإن هذا الضمانَ له من ربه تبارك وتعالى لا يُناقِضُ احتراسَه مِن الناس، ولا يُنافيه، كما أن إخبارَ الله سبحانه له بأنه يُظهر دينَه على الدِّينِ كُلِّه، ويُعليه، لا يُناقض أمره بالقتال، وإعدادِ العُدَّة، والقوة، ورباط الخيل، والأخذ بالجد، والحذر، والاحتراس من عدوه، ومحاربته بأنواع الحرب، والتورية، فكان إذا أراد الغزوة، ورَّى بغيرها، وذلك لأن هذا إخبار من الله سبحانه عن عاقبة حاله ومآله بما يتعاطاه من الأسباب التى جعلها الله مُفضية إلى ذلك، مقتضية له، وهو ﷺ أعلمُ بربِّه، وأتبعُ لأمره من أن يعطِّل الأسبابَ التى جعلها الله له بحكمته موجبة لما وعده به من النصر والظفر، وإظهار دينه، وغلبته لعدوه، وهذا كما أنه سبحانه ضمن له حياتَه حتَّى يُبلِّغ رسالاتِه، ويُظهر دينه، وهو يتعاطى أسبابَ الحياة مِن المأكل والمشرب، والملبس والمسكن.

وهذا موضِعٌ يغلَطُ فيه كثير مِن الناس، حتى آل ذلك ببعضهم إلى أن ترك الدُّعاء، وزعم أنه لا فائدةَ فيه، لأن المسؤول إن كان قد قُدِّر، ناله ولا بد، وإن لم يُقدَّر، لم ينله، فأى فائدة فى الاشتغال بالدعاء؟ ثم تكايسَ فى الجواب، بأن قال: الدعاءُ عبادة، فيقال لهذا الغالِط: بقى عليك قسم آخر وهو الحقُّ أنه قد قدَّر له مطلوبَه بسببٍ إن تعاطاه، حصل له المطلوبُ، وإن عطل السبب، فاته المطلوب، والدعاء من أعظم الأسباب فى حصول المطلوب، وما مثل هذا الغالط إلا مثلُ مَن يقول: إن كان الله قد قدَّر لى الشبع، فأنا أشبع، أكلتُ أو لم آكل، وإن لم يُقدِّر لى الشبع، لم أشبع أكلتُ أو لم آكل، فما فائدة الأكل؟ وأمثال هذه التُّرَّهات الباطلة المنافية لحكمة الله تعالى وشرعه.. وبالله التوفيق» ا.هـ[1].

عباد الله...

هَذِهِ بعض الفوائد الفقهية، والنكت الحكمية المستفادة من غزوة «حنين»، وسيأتي المزيد إن شاء الله بعد قليل.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الفوائد الفقهية والنكت الحكمية المستفادة من غزوة حُنين أيضًا:

أن النبى ﷺ شرط لصفوان فى العارية الضمان، فقال: «**بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ**» فهل هذا إخبار عن شرعه فى العارية، ووصف لها بوصفٍ شرعه الله فيها، وأن حكمها الضمانُ كما يُضمن المغصوب، أو إخبار عن ضمانها بالأداء بعينها، ومعناه: أنى ضامن لك تأديَتَها، وأنها لا تذهب، بل أردها إليك بعينها؟ هذا مما اختلف فيه الفقهاء.

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٣٣ - ٤٣٨).

فقال الشافعي وأحمد بالأول، وأنها مضمونة بالتلف، وقال أبو حنيفة ومالك بالثاني، وأنها مضمونة بالرد على تفصيل في مذهب مالك، وهو أن العَيْن إن كانت مما لا يُغاب عليه، كالحيوان والعَقار، لم تُضمن بالتلف إلا أن يظهر كَذِبه، وإن كانت مما يُغاب عليه كالحلي ونحوه، ضُمنت بالتلف إلا أن يأتىَ ببينة تشهد على التلف، وسر مذهبه أن العارية أمانة غيرُ مضمونة كما قال أبو حنيفة، إلا أنه لا يُقبل قوله فيما يخالف الظاهر، فلذلك فرَّق بين ما يُغاب عليه، وما لا يُغاب عليه.

ومأخذ المسألة أن قوله ﷺ لصفوان: «بَلْ عَارِيَةٌ مَضْمُونَةٌ»، هل أراد به أنها مضمونة بالرد أو بالتلف؟ أى: أضمنها إن تلفت، أو أضمن لك ردَّها، وهو يحتمل الأمرين، وهو فى ضمان الرد أظهرُ لثلاثة أوجه:

أحدها: أنَّ فى اللَّفظ الآخر: «بَلْ عَارِيَةٌ مُؤَدَّاةٌ» (١)، فهذا يبينُ أن قوله: «مضمونة»، المراد به: المضمونة بالأداء.

الثانى: أنَّه لم يسأله عن تلفها، وإنما سأله هل تأخذها منى أخذَ غصب تحولُ بينى وبينها؟ فقال: «**لا بل أخذ عارية أُؤديها إليك**» (٢). ولو كان سأله عن تلفها وقال: أخاف أن تذهب، لناسب أن يقول: أنا ضامن لها إن تلفت.

الثالث: أنَّه جعل الضمانَ صِفة لها نفسها، ولو كان ضمانَ تلف، لكان الضمانُ لِبدلها، فلما وقع الضمانُ على ذاتها، دل على أنه ضمانُ أداء.

فإن قيل: ففى القصة أن بعض الدروع ضاع، فعرض عليه النبى ﷺ أن يضمنها، فقال: أنا اليوم فى الإسـلام أرغبُ.

قيل: هل عرض عليه أمرًا واجبًا أو أمرًا جائزًا مُستحَبًا الأَوْلى فعلُه، وهو من مكارم الأخلاق والشيم، ومن محاسن الشريعة؟ وقد يترجح الثانى بأنه عرض عليه الضمان، ولو كان الضمان واجبًا، لم يعرضه عليه، بل كان يفى له به، ويقول: هذا حقُّك، كما لو كان الذاهب بعينه موجودًا، فإنه لم يكن ليعرض عليه رده

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (٣٥٦٦)، والنسائي (٥٧٧٦)، وغيرهما.
(٢) تقدم بلفظ «بل عارية مضمونة أؤدّيها إليك».

فتأمله.

وفيها: عفُو رسولِ الله ﷺ عمن همَّ بقتله، ولم يُعاجله، بل دعا له ومسح صدره حتى عاد، كأنه ولى حميم.

ومنها: ما ظهر فى هذه الغزاة من معجزات النبوة وآيات الرسالة، من إخباره لشيبة بما أضمر فى نفسه، ومن ثباته، وقد تولَّى عنه الناسُ، وهو يقول:

أنَـــا النَّبِـــيُّ لاَ كَـــذِبْ أنَـــا ابْـــنُ عَـــبْدِ الْمُطَّلِـــبْ

وقد استقبلته كتائبُ المشركين.

ومنها: إيصالُ الله قبضته التى رمى بها إلى عيون أعدائه على البُعْدِ منه، وبركتُه فى تلك القبضة، حتى ملأت أعينَ القوم، إلى غير ذلك من معجزاته فيها، كنزول الملائكة للقتال معه، حتى رآهم العدوُّ جهرة، ورآهم بعض المسلمين» ا.هـ[١].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة - إن شاء الله - نواصل الحديث عن السِّيرة العطرة، فإلى اللقاء.

۞۞۞۞۞

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٣٩، ٤٤٠).

الخطبة الثالثة عشرة بعد المائة:

غزوة الطائف

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن السِّيرة العطرة.

ونلتقي اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - مع «غزوة الطَّائف»، والله الموفق لما يُحِبّ ويَرضَى.

عباد الله...

فى شوَّال سنة ثمان قال ابن سعد: قالوا: ولما أراد رسولُ الله ﷺ المسير إلى الطائف، بعث الطُّفيل بن عمرو إلى ذى الكَفَّيْنِ: صنم عمرو بن حُمَمَة الدوسى،

يَهدِمه، وأمره أن يستمدَّ قومه، ويُوافيه بالطائف، فخرج سريعًا إلى قومه، فهدم ذا الكَفَّيْنِ، وجعل يَحُشُّ النار فى وجههِ ويُحَرِّقه ويقول:

يَـا ذَا الكَفَـيْنِ لَـسْتُ مِـنْ عُـبَّادِكا ... مِـيلادُنَا أقْـدَمُ مِـنْ مِـيلاَدِكَا

إنـى حَشَـشْتُ الـنَّار فـى فُـؤادِكَا

وانحدر معه من قومه أربعمائة سراعًا، فوافَوا النبى ﷺ بالطائف بعد مقدمه بأربعة أيام، وقدم بِدَبَّابَةٍ ومنجنيق.

قال ابن سعد: ولما خرجَ رسولُ الله ﷺ مِن حُنَيْن يُريد الطائفَ، قَدِمَ خالدُ ابن الوليد على مقدمته، وكانت ثقيف قد رَمُّوا حِصنهم، وأدخلوا فيه ما يصلُح لهم لسنة، فلما انهزموا من أوطاس، دخلوا حِصنهم وأغلقوه عليهم، وتهيؤوا للقتال، وسار رسول الله ﷺ، فنزل قريبًا من حصن الطائف، وعسكر هناك، فرَمَوا المسلمين بالنبل رميًا شديدًا، كأنه رِجْلُ جَرَادٍ حتى أُصيب ناسٌ من المسلمين بجراحة، وقُتِلَ منهم اثنا عشر رجلًا، فارتفع رسولُ الله ﷺ إلى موضع مسجد الطائف اليومَ، وكان معه من نسائه أمُّ سلمة وزينب، فضرب لهما قُبَّتين، وكان يُصَلِّي بين القُبَّتين مدة حصار الطائف، فحاصرهم ثمانية عشر يومًا، وقال ابن إسحاق: بِضعًا وعشرين ليلة.

وقال ابن سعد: حدَّثنا قبيصة، حدثنا سفيان، عن ثور بن يزيد، عن مكحول أن النبى ﷺ نصب المنجنيق على أهل الطائف أربعين يومًا[1].

قال ابن إسحاق: حتى إذا كان يوم الشَّدْخَةِ عند جِدار الطائف، دخل نَفَر مِن أصحابِ رسولِ الله ﷺ تحتَ دبابةٍ، ثم دخلوا بها إلى جدار الطائف ليحرقوه، فأرسلت عليهم ثقيف سِكَكَ الحديد مُحماة بالنار، فخرجوا من تحتها، فرمتهم ثقيف بالنَّبل، فقتلُوا منهم رجالًا، فأمر رسولُ الله ﷺ بقطعِ أعناب ثقيف، فوقع الناسُ فيها يقطعون.

(١) مرسل بهذا اللفظ: أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٥٩)، وأخرجه مسلم (١٠٥٩) بنحوه.

قال ابن سعد: فسألوه أن يدعها لله وللرَّحم، فقال رسولُ الله ﷺ :«**فإني أدَعُهَا لله ولِلرَّحمِ**» فَنَادى منادى رسول اللَّه ﷺ : أَيُّما عبدٍ نزل من الحِصن وخرج إلينا فهوَ حر، فخرج منهم بضعةَ عشر رجلًا، منهم أبو بكرة، فأعتقهم رسولُ الله ﷺ ودفع كُلَّ رجل منهم إلى رجل من المسلمين يمونهُ، فشَقَّ ذلك على أهلِ الطائف مشقةً شديدة.

ولم يُؤذَن لرسول الله ﷺ فى فتح الطائف، واستشار رسولُ الله ﷺ نوفلَ بنَ معاوية الدِّيلى، فقال: «ما ترى»؟ فقال: ثَعْلَبٌ فى جُحْرٍ، إن أقمتَ عليه أخذتَه، وإن تركتَه لم يضرك. فأمر رسولُ الله ﷺ عمرَ بن الخطاب، فأذَّن فى الناس بالرحيل، فضجَّ الناسُ من ذلك، وقالوا: نرحل ولم يُفتح علينا الطائف؟ فقال رسول الله ﷺ : «**فاغدُوا على القتال**» فَغَدَوْا فأصابت المسلمين جراحات، فقال رسول الله ﷺ : «**إنَّا قَافِلُونَ غدًا إن شاء اللَّهُ**»، فسُرُّوا بذلك وأذعنوا، وجعلوا يرحلون، ورسولُ الله ﷺ يضحك، فلما ارتحلوا واستقلُّوا، قال: «**قولوا: آيبُون تَائِبُونَ، عَابِدُونَ لِرَبِّنَا حَامِدُونَ**»، وقيل: يا رسول الله؛ ادعُ الله على ثقيف، فقال: «**اللَّهُمَّ اهْدِ ثَقيفًا وائتِ بِهِمْ**»[1].

واستشهدَ مع رسول الله ﷺ بالطائف جماعةٌ، ثم خرج رسول الله ﷺ من الطائف إلى الجِعرانة، ثم دخل منها محرمًا بعُمْرَة، فقضى عُمْرتَه، ثم رجع إلى المدينة[2].

عباد الله...

ويمكن إجمال أسباب ترك المسلمين محاصرة الطائف بما يلي:

١- قوة حصون الطائف وشجاعة بني ثقيف، وتكديس المواد الغذائية فيها، كل ذَلِكَ جعل استسلامها للمسلمين صعبًا يحتاج إلى مدة طويلة.

٢- أصبحت الفترة بين ترك المسلمين المدينة في رمضان حَتَّى حصار الطائف

---

(١) أخرجه ابن سعد في «الطبقات» (٢/ ١٥٩)، وهو عند البخاري (٤٣٢٥) مختصرًا عَلَى آخره.
(٢) «زاد المعاد» (٣/ ٤٥١ - ٤٥٥).

والبقاء هناك حوالي شهر واحد، أصبحت الفترة حوالي شهرين تقريبًا، وهذه المدة ليست قليلة بالنسبة للمسلمين الذين دخلوا الإسلام حديثًا، مِمَّا جعل بعضهم يرغب في سرعة الرجوع، كما أن الوقت ثمين بالنسبة للرسول ﷺ لتوطيد دعائم الإسلام.

٣- قرب حلول الشهر الحرام «ذي القعدة».

٤- انتشار الإسلام في ثقيف مِمَّا جعل دخول ثقيف كلها في الإسلام أكيدًا لا يحتاج إلا إلى الوقت(١).

عباد الله...

وقَدْ تضمّنت هَذِهِ الغزوة من المسائل الفقهية الشيء الكثير.

قَالَ ابن القيم - رَحِمَهُ الله -: «فيها مِن الفقه:

جوازُ القتال فى الأشهر الحُرُم، ونسخُ تحريم ذلك، فإنَّ رسول الله ﷺ خرج من المدينة إلى مكة فى أواخر شهر رمضان بعد مضى ثمان عشرة ليلة منه، والدليل عليه ما رواه أحمد فى «مسنده»: حدثنا إسماعيل عن خالد الحذَّاء، عن أبى قِلابة، عن أبى الأشعث، عن شدادِ بن أوس، أنه مَرَّ مع رسول الله ﷺ زمَنَ الفتح على رجل يَحتجِمُ بالبقيع لثمان عشرة ليلة خلت من رمضان، وهو آخذ بيدى، فقال: «**أفْطَرَ الحَاجِمُ والمَحْجومُ**»(٢)، وهذا أصح مِن قول مَن قال: إنه خرج لعشر خلون من رمضان، وهذا الإسناد على شرط مسلم، فقد رَوى به بعينه: «**إنَّ اللهَ كَتَبَ الإحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيء**»(٣).

وأقام بمكة تسع عشرة ليلة يقصرُ الصلاة(٤)، ثم خرج إلى هوازن، فقاتلهم، وفرغ منهم، ثم قصد الطائف، فحاصرهم بضعًا وعشرين ليلة فى قول ابن

---

(١) «الرسول القائد» للواء: محمود شيت خطاب.
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٣٦٨، ٢٣٦٩)، وغيره.
(٣) أخرجه مسلم (١٩٥٥).
(٤) صحيح.

إسحاق، وثمان عشرة ليلة فى قول ابن سعد، وأربعين ليلة فى قول مكحول[1].

فإذا تأملت ذلك، علمتَ أن بعض مدةِ الحصار فى ذى القعدة، ولا بُد، ولكن قد يُقال: لم يبتدئ القتال إلا فى شوَّال، فلما شرع فيه، لم يقطعه للشهر الحرام، ولكن من أين لكم أنه ﷺ ابتدأ قِتالًا فى شهر حرام، وفرق بين الابتداء والاستدامة.

ومنها: جواز غزوِ الرجل وأهلُه معه، فإن النبى ﷺ كان معه فى هذه الغزوة أُم سلمة وزينب.

ومنها: جواز نصب المنجنيق على الكفار، ورميهم به وإن أفضى إلى قتل مَن لم يُقاتل مِن النساء والذُرِّية.

ومنها: جوازُ قطع شجر الكُفار إذا كان ذلك يُضعفهم ويَغيظهم، وهو أنكى فيهم.

عباد الله...

هَذِهِ بعض الفوائد الفقهية المستفادة من «حصار الطائف»، وسيأتي بعد قليل المزيد إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الفوائد الفقهية المستفادة من «حصار الطائف» أيضًا:

أن الإمام إذا حاصر حِصنًا، ولم يُفتح عليه، ورأى مصلحةَ المسلمين فى الرحيل عنه، لم يَلزمه مصابرتُه، وجاز له ترك مصابرته، وإنما تلزم المصابرةُ إذا كان

---

(١) صحيح.

فيها مصلحة راجحة على مفسدتها[1].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة نواصل الحديث عن السِّيرة العطرة، فإلى اللقاء إن شاء الله.

✧✧✧✧✧

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٤٥٧ - ٤٥٩) باختصار شديد.

الخطبة الرابعة عشرة بعد المائة:

[أ] غزوة تَبوك

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن سِيرة المُصطفى ﷺ.

ولقاؤنا اليوم - إن شاء الله تَعَالَى - مع «غزوة تبوك»، آخر غزوات النَّبيِّ ﷺ.

عباد الله...

وكانت غزوة تَبُوكَ فى شهر رجَب سنةَ تسع.

قال ابن إسحاق: وكانت فى زمن عُسْرَةٍ مِنَ الناس، وجَدْبٍ من البلاد، وحين طابت الثمارُ، والناس يُحبون المُقام فى ثمارهم وظِلالهم، ويكرهون شُخوصهم[1]

(١) شخوصهم: أي سفرهم.

على تلك الحال، وكان رسولُ الله ﷺ قلَّما يخرج فى غزوة إلا كنَّى عنها، وورَّى بغيرها، إلا ما كان مِن غزوة تَبُوك، لبُعْد الشُّقة، وشِدة الزمان.

ثُم إنَّ رسول الله ﷺ جدَّ فى سفره، وأمر الناسَ بالجَهَاز، وحضَّ أهلَ الغِنَى على النفقة والحُملان فى سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغِنَى واحتسبُوا، وأنفق عثمانُ بن عفانُ فى ذلك نفقةً عظيمة لم يُنفِقْ أحدٌ مِثلها.

قلت: كانت ثلاثمائة بعير بأحْلاسها وأقتابِها وعُدَّتها، وألفَ دينار عَيْنًا.

وذكر ابنُ سعد قال: بلغ رسولَ الله ﷺ أنَّ الرومَ قد جمعت جموعًا كثيرة بالشام، وأن هِرَقْل قد رَزَق أصحابَه لسنة، وأجلبت معه لَخْمٌ، وجُذام، وعَامِلَة، وغسان، وقَدَّموا مقدماتهم إلى البلقاء.

وجاء البكَّاؤون وهم سبعة يستحمِلُون رسولَ الله ﷺ، فقال: «**لا أجدُ مَا أَحْمِلُكم عَلَيْه**»، فتولَّوْا وأعينُهم تفيضُ من الدمع حزنًا أن لا يجدوا ما يُنفقون، وهم سالمُ بن عُمير، وعُلْبَةُ بنُ زيد، وأبو ليلى المازنى، وعمرو بن عَنَمَة، وسلمة بن صخر، والعِرباض بن سارية.

وفى بعض الروايات: وعبد الله بن مُغَفَّل، ومعقِلُ بن يسار.

وبعضهم يقول: البكَّاؤون بنو مُقَرِّن السبعة، وهم من مُزينة. وابن إسحاق: يعدُّ فيهم عَمْرو بن الحُمام بن الجَموح.

وأرسل أبا موسى أصحابُه إلى رسولِ الله ﷺ ليحمِلهم، فوافاه غضبان، فقال: «**والله لا أحملكم، ولا أَجدُ ما أحمِلُكم عليه**»، ثم أتاه إبل، فأرسل إليهم، ثم قال: «**مَا أَنَا حَمَلْتُكُم، ولكِنَّ الله حَمَلَكُم، وإنِّى وَالله لاَ أَحْلِفُ عَلَى يَمِينٍ، فَأَرَى غَيْرَهَا خَيْرًا مِنْهَا، إلاَّ كَفَّرْتُ عَنْ يَمِينى وَأَتَيْتُ الَّذى هُوَ خَيْرٌ**»[1].

عباد الله...

وقام عُلبة بن زيد فصلَّى من الليل وبكى، وقال: اللَّهُمَّ إنَّك قد أمرتَ

---

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٥).

بالجهاد، ورغَّبتَ فيه، ثم لم تجعل عندى ما أتقوَّى به مع رسولك، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحمِلُنى عليه، وإنى أتصدَّق على كل مسلم بكل مَظْلِمَةٍ أصابنى فيها مِن مال، أو جسد، أو عِرض، ثم أصبح مع الناس، فقال النبى ﷺ : «**أيْنَ المُتَصَدِّقُ هذِهِ اللَّيْلَةَ**»؟. فلم يقم إليه أحد، ثم قال: «**أَيْنَ المُتَصَدِّقُ فَلْيَقُمْ**»، فَقَام إليه، فأخبرَه، فقال النبى ﷺ : «**أَبْشِرْ فَوالذى نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَقَدْ كُتِبَتْ فى الزَّكَاةِ المتَقَبَّلَة**»[1].

وجاءَ المعذِّرُونَ من الأعرابِ ليؤذن لهم، فلم يَعْذِرْهم.

قال ابن سعد: وهم اثنان وثمانون رجلًا، وكان عبدُ الله بنُ أُبَىّ بن سَلول قد عسكر على ثنية الوَداع فى حُلفائه من اليهود والمنافقين، فكان يقال: ليس عسكره بأقلِّ العسكرين، واستخلف رسولُ الله ﷺ على المدينة محمد بن مسلمة الأنصارى. وقال ابن هشام: سباع بن عُرْفُطَةَ، والأول أثبت.

فلما سار رسولُ الله ﷺ، تخلَّف عبدُ الله بن أُبَىّ ومَنْ كان معه، وتخلَّف نَفَر مِن المسلمين مِن غير شك ولا ارتياب، منهم: كعبُ بن مالك، وهِلالُ بن أُمية، ومُرَارَةُ بنُ الربيع وأبو خَيثمة السالمى، وأبو ذر، ثم لحقه أبو خيثمة، وأبو ذر، وشهدها رسولُ الله ﷺ فى ثلاثين ألفًا مِن الناس، والخيلُ عشرة آلاف فرس، وأقام بها عشرين ليلة يقصُر الصَّلاة، وهِرَقْلُ يومئذٍ بحمص.

قال ابن إسحاق: ولما أراد رسولُ الله ﷺ الخروجَ، خلَّف عليَّ بنَ أبى طالب على أهله، فأرْجَفَ به المنافقون، وقالوا: ما خلَّفه إلا استثقالًا وتخففًا منه، فأخذ عليٌّ رضى الله عنه سِلاحه، ثم خرج حتى أتى رسولَ الله ﷺ وهو نازل بالجُرْفِ، فقال: يا نبيَّ الله؛ زعم المنافقون أنك إنما خلَّفتنى لأنك استثقلتنى وتخففتَ منى، فقال: «**كَذَبُوا، ولكِنِّى خَلَّفْتُكَ لما تركْتُ وَرَائِى، فارْجعْ فَاخْلُفْنى فى أهْلِى وَأَهْلِكَ، أَفَلاَ تَرْضَى أنْ تَكُونَ مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هَارُون مِنْ مُوسى؟ إلا أنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدِى**» فرجع عليٌّ إلى المدينة[2].

---

(١) صحيح: رواه ابن إسحاق، وصححه الألباني في تخريجه لأحاديث «فقه السيرة» للغزالي (٤٥١).
(٢) ذكره ابن إسحاق، والبخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) بنحوه.

ثُمَّ إنَّ أبا خيثمة رجع بعد أن سار رسولُ الله ﷺ أيامًا إلى أهله فى يوم حار، فوجد امرأتين له فى عريشينِ لهما فى حائطه، قد رشَّت كُلُّ واحدة منهما عريشَها، وبرَّدَتْ له ماء، وهيأت له فيه طعامًا، فلما دخل، قام على باب العريش، فنظر إلى امرأتيه وما صنعتا له، فقال: رسولُ الله ﷺ فى الضِّحِّ(١)، والرِّيح، والحر، وأبو خيثمة فى ظِلٍّ بارد، وطعام مُهَيأ، وامرأة حسناء، فى ماله مقيم؟ ما هذا بالنَّصَفِ.

ثم قال: والله لا أدخل عريشَ واحدة منكما حتى ألحقَ برسولِ الله ﷺ، فهيِّئا لى زادًا، ففعلتا، ثم قدَّم ناضِحه، فارتحله، ثم خرج فى طلب رسول الله ﷺ حتى أدركه حين نزل تَبُوك، وقد كان أدرك أبا خيثمة عُميرُ بن وهب الجمحى فى الطريق يطلُب رسولَ الله ﷺ، فترافقا حتى إذا دنوا من تَبُوك، قال أبو خيثمة لِعُميرِ بن وهب: إنَّ لى ذنبًا، فلا عليك أن تتخلَّف عنى حتى آتىَ رسولَ الله ﷺ، ففعل حتى إذا دنا مِن رسولِ الله ﷺ وهو نازل بتَبُوك، قال الناس: هذا راكبٌ على الطريق مُقبل، فقال رسول الله ﷺ: «**كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ**» قالوا: يا رسول الله؛ هو والله أبو خيثمة، فلما أناخَ أقبل، فسلَّم على رسول الله ﷺ، فقال له رسولُ الله ﷺ: «**أَوْلى لَكَ يَا أَبَا خَيْثَمَة**»، فأخبرَ رسولَ الله ﷺ خبرَه، فقال له رسول الله ﷺ خَيْرًا ودعا له بخير.

عباد الله...

ومرَّ النبيُّ ﷺ بالحِجر بديار ثمود، فقال لأصحابه: «**لَا تَدْخُلُوا عَلَى هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ الْمُعَذَّبِينَ إِلَّا أَنْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا بَاكِينَ فَلَا تَدْخُلُوا عَلَيْهِمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَهُمْ**»(٢).

وفى «صحيح البخارى» أنه أمرهم بإلقاء العجين وطرحه.

وفى «الصحيحين»: أنه أمرهم أن يَعْلِفوا الإبلَ العَجِينَ، وأن يُهرِيقُوا الماءَ، ويستقوا من البئر التى كانت تَرِدُها الناقة.

(١) الضح: الشمس وقت الضحى.
(٢) أخرجه البخاري (٤٤١٩)، ومسلم (٢٩٨٠).

وفي «صحيح مسلم» من حديث أبي حُميد: وَانْطَلَقْنَا حَتَّى قَدِمْنَا تَبُوكَ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «**سَتَهُبُّ عَلَيْكُمْ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَلَا يَقُمْ فِيهَا أَحَدٌ مِنْكُمْ، فَمَنْ كَانَ لَهُ بَعِيرٌ فَلْيَشُدَّ عِقَالَهُ**»، فَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ فَقَامَ رَجُلٌ فَحَمَلَتْهُ الرِّيحُ حَتَّى أَلْقَتْهُ بِجَبَلَيْ طَيِّئٍ.

قال ابن إسحاق: وأصبح الناسُ ولا ماء معهم، فَشكَوْا ذلك إلى رسول الله ﷺ، فدعا رسولُ الله ﷺ، فأرسلَ الله سُبحانه سحابةً، فأمطرت حتى ارتوى الناسُ، واحتملُوا حاجَتهم من الماء(١).

ثم سار النبيُّ ﷺ بأصحابه الكرام.

وذكر ابن عائذ فى «مغازيه»، أنَّ رسول الله ﷺ نزل تَبُوكَ فى زمان قلَّ ماؤُها فيه، فاغترف رسولُ الله ﷺ غَرفةً بيده من ماء، فمضمض بها فاه، ثم بصقه فيها، ففارت عينُها حتى امتلأت، فهى كذلك حتى الساعة.

وفى «صحيح مسلم» أنه قال قبل وصوله إليها: «**إنَّكُم سَتَأْتُونَ غدًا إنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالى عَيْنَ تَبُوك، وإنَّكُم لَنْ تَأْتُوها حَتَّى يُضْحِيَ النَّهارُ، فمَن جَاءَهَا فلا يَمَسنَّ مِنْ مائِها شيئًا حتى آتى**». قال: فجئناها وقَدْ سَبَق إليها رَجُلانِ، والعَيْن مِثْلُ الشِّرَاكِ تَبِضُّ بشىء من ماءٍ، فسألهما رسولُ الله ﷺ: «**هل مَسَسْتُما مِن مائها شيئًا**»؟ قالا: نَعم، فسبَّهُما النبى ﷺ، وقال لهما ما شاء اللَّهُ أن يقول، ثُمَّ غرفُوا مِن العَيْن قليلًا قليلًا حتى اجتمع فى شيء، وغسل رسول الله ﷺ فيه وجهَه ويَدَيْه، ثم أعاده فيها، فجرت العين بماء مُنْهمِرٍ، حتى استقى النَّاسُ، ثم قال رسول الله ﷺ: «**يُوشِكُ يا مُعاذُ إن طالتْ بكَ حَياةٌ أن ترى ما هاهنا قدْ مُلِئ جِنَانًا**»(٢).

عباد الله...

وكان النبيّ ﷺ يجمع بين الصلاتين في هَذِهِ الغزوة.

---

(١) حسن: رواه البزار والطبراني في «الأوسط»، وغيرهما.

(٢) أخرجه مسلم (٧٠٦).

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ فِي غَزْوَةِ تَبُوكَ إِذَا ارْتَحَلَ قَبْلَ زَيْغِ الشَّمْسِ أَخَّرَ الظُّهْرَ حَتَّى يَجْمَعَهَا إِلَى العَصْرِ فَيُصَلِّيهِمَا جَمِيعًا، وَإِذَا ارْتَحَلَ بَعْدَ زَيْغِ الشَّمْسِ صَلَّى الظُّهْرَ وَالعَصْرَ جَمِيعًا ثُمَّ سَارَ، وَكَانَ إِذَا ارْتَحَلَ قَبْلَ المَغْرِبِ أَخَّرَ المَغْرِبَ حَتَّى يُصَلِّيَهَا مَعَ العِشَاءِ، وَإِذَا ارْتَحَلَ بَعْدَ المَغْرِبِ عَجَّلَ العِشَاءَ فَصَلاَّهَا مَعَ المَغْرِبِ(١).

قَالَ ابن إسحاق: «أقام رسول الله ﷺ بضع عشرة ليلة بتبوك لم يجاوزها، ثم انصرف قافلاً إلى المدينة»(٢).

و ذكر أبو الأسود في «مغازيه» عن عُرْوَة قال: ورجع رسولُ الله ﷺ قافلًا مِن تَبُوكَ إلى المدينة، حتى إذا كان ببعض الطريق، مكر برسولِ الله ﷺ ناسٌ من المنافقين، فتآمرُوا أن يطرحُوه من رأسِ عَقَبَةٍ في الطريق، فلما بلغوا العقبة، أرادوا أن يسلكُوها معه، فلما غشيَهم رسولُ الله ﷺ، أُخبر خبرهم، فقال: «**مَنْ شَاءَ مِنْكُم أَنْ يَأْخُذَ بِبَطْنِ الوَادِي، فإنَّه أَوْسَعُ لَكُمْ**» وأَخذ رسولُ الله ﷺ العَقَبة، وأخذ الناسُ ببطنِ الوادي إلا النَّفَرَ الذين هَمُّوا بالمكر برسول الله ﷺ، لما سمعوا بذلك، استعدُّوا وتلثَّموا، وقد همُّوا بأمر عظيم، وأمر رسُولُ الله ﷺ حُذيفةَ بنَ اليمان، وعمَّارَ بن ياسر، فمشيا معه، وأمر عمَّارًا أن يأخذ بزِمام الناقة، وأمر حُذيفة أن يسوقها، فبينا هُم يسيرون، إذ سمعوا وكزة القومِ مِن ورائهم قد غَشَوْه، فَغَضِبَ رسولُ الله ﷺ، وأمر حُذيفة أن يردهم، وأبصرَ حذيفة غضبَ رسول الله ﷺ، فرجع ومعه مِحجن، واستقبل وجوهَ رواحلهم، فضربها ضربًا بالمحجن، وأبصرَ القومَ، وهم متلثِّمون، ولا يشعرُ إلا أن ذلك فعل المسافر، فأرعبهم اللَّهُ سبحانه حين أبصروا حُذيفة، وظنوا أنَّ مكرهم قد ظهر عليه، فأسرعُوا حتى خالَطُوا الناسَ، وأقبل حُذيفة حتى أدرك رسول الله ﷺ، فلما أدركه، قال: «**اضْرِب الرَّاحِلَة يا حُذَيْفَة، وامْشِ أنْتَ ياعَمَّارُ**»، فأسرعوا حتى استووا بِأَعْلاها، فخرجوا من العَقَبَةِ ينتظرون الناسَ، فقال النبي ﷺ لحذيفَة: «**هَلْ عَرَفْتَ مِنْ هؤُلاءِ الرَّهْطِ أو الرَّكْبِ**

(١) صحيح: أخرجه أبو داود (١٢٢٠).
(٢) «البداية والنهاية» (٥/ ٨٣).

أحَدًا»؟ قال حُذيفة: عرفتُ راحِلة فلان وفلان، وقال: كانت ظلمة الليل، وغشيتُهم، وهم متلثِّمون، فقال رسول الله ﷺ : «**هل عَلِمْتُم ما كانَ شأن الرَّكْبِ وما أرادوا**»؟ قالوا: لا والله يا رسول الله، قال: «**فإنهم مَكَرُوا لِيَسِيرُوا مَعِى، حَتَّى إذا اطَّلعتُ فى العَقَبَةِ طَرحُونى منها**» قالوا: أَوَ لا تأمُرُ بهم يا رسول الله إذًا، فنضرِبَ أعناقهم، قال: «**أكره أن يتحدَّث الناسُ ويقولوا: إنَّ محمدًا قد وضع يده فى أصحابه**»، فسماهم لهما، وقال: «**اكتماهم**» (١).

عباد الله...

وللحديث بقية إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وأقبل رسول الله ﷺ مِنْ تَبُوك، حتى نزل بذى أَوَان، وبينها وبين المدينة ساعة، وكان أصحابُ مسجد الضِّرار أَتَوْه وهو يتجهَّز إلى تَبُوك، فقالوا: يا رسولَ الله؛ إنَّا قد بنينا مسجدًا لِذى العِلَّة والحاجة، واللَّيلة المطيرة الشاتية، وإنَّا نُحِبُّ أن تأتِينا فتُصَلِّيَ لنا فيه، فقال: «**إنِّى عَلى جَناح سَفَر، وحَالِ شُغْلٍ، وَلَوْ قَدِمْنا إنْ شَاءَ اللَّهُ لأَتَيْنَاكُم فَصَلَّيْنَا لَكُم فيه**»، فلما نزل بذى أوانَ جاءه خبرُ المسجد من السماء، فدَعا مالك بن الدُّخْشم أخا بنى سلمة بن عوف، ومَعن بن عدى العجلانى، فقال: «**انطلقا إلى هذا المسجدِ الظالِمِ أهلُه، فاهدِماه، وحرِّقاه**»، فخرجا مُسرعَين، حتى أتيا بنى سالم بن عوف، وهم رهطُ مالك بن الدُّخشم، فقال مالك لمعن: أنْظِرْنى حتى أخرُج إليك بنارٍ مِن أهلى، ودخل إلى أهله، فأخذ سعفًا من النخل، فأشعل فيه نارًا، ثم خرجا يشتدَّان حتى دخلاه وفيه أهلُه، فحرقاه وهدماه، فتفرَّقوا عنه،

(١) مرسل: أخرجه الإمام أحمد (٥/ ٤٥٣) بنحوه، بإسناد قويّ.

فأنزل الله فيه: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٠٧] إلى آخر القصة(١).

وذكر ابن إسحاق الذين بنوه، وهم اثنا عشر رجلًا، منهم: ثعلبةُ بن حاطب.

وذكر عثمان بن سعيد الدارمي: حدَّثنا عبد الله بن صالح، حدَّثني معاوية بن صالح، عن عليّ بن أبي طلحة، عن ابن عباس في قوله: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وكُفْرًا﴾، هم أُناس من الأنصار ابتَنَوْا مسجدًا فقال لهم أبو عامر: ابنُوا مسجدكم، واستمِدُّوا ما استطعتم مِن قوة ومِن سلاح، فإني ذاهبٌ إلى قَيْصرَ ملكِ الروم، فآتي بجند من الروم، فأُخْرِجُ محمدًا وأصحابه، فلما فرغوا مِن مسجدهم، أتوا النبي ﷺ فقالوا: إنَّا قد فرغنا من بناء مسجدنا، فنُحب أن تُصَلِّي فيه، وتدعو بالبركة، فأنزلَ الله عَزَّ وجَلَّ: ﴿لا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ﴾ يعني مسجد قُبَاء ﴿أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ﴾ [التوبة: ١٠٨] إلى قوله: ﴿فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾ [التوبة: ١٠٩] يعني قواعده، ﴿لاَ يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْاْ رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ﴾ يعني: الشكَ ﴿إلا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ﴾ يعني بالموت(٢).

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة، نواصل الحديث عن غزوة تبوك - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللقاء.

(١) أخرجه ابن مردويه من طريق ابن إسحاق، وحسنه صاحب «المقبول من أسباب النزول»، د. أبو عمر نادي الأزهري (٣٩٠)، وقال: وللحديث شواهد ومتابعات كثيرة. ا.هـ.

(٢) أخرجه الطبري في «تفسيره» (١٤/ ٤٧٠)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ١٨٧٨)، وابن مردويه، والسيوطي في «الدر» (٣/ ٢٧٦)، وعزاه لابن المنذر والبيهقي في «الدلائل»، وقال صاحب «المقبول» (٣٩١): إسناده حسن.

الخطبة الخامسة عشرة بعد المائة:

[ب] غزوة تَبوك

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «غزوة تبوك»، وما فيها من أحكام ودروس وعظات.

عباد الله...

ولما دخل رسولُ الله ﷺ المدينَة، بدأ بالمسجد فصلَّى فيه ركعتين، ثم جلس للنَّاس، فجاءه المخلَّفون، فطفِقُوا يعتذِرون إليه، ويحلِفُون له، وكانوا بضعةً وثمانين رجلًا، فقبل منهم رسولُ الله ﷺ علانيتهم، وبايعهم، واستغفر لهم،

وَوَكَل سَرائِرَهم إلى الله.

وجاءه كعبُ بنُ مالك، فلما سلَّم عليه، تبسم تبسُّمَ المُغْضَبِ، ثم قال له: «**تعال**». قال: فجئتُ أمشى حتى جلستُ بين يديه، فقال لى:«**ماخَلَّفَكَ، ألم تَكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهرَك**»؟ فقلتُ: بَلَى إنى والله لو جلستُ عندَ غيرِك من أهل الدنيا، لرأيتُ أن أخرُجَ مِن سخطه بعُذرٍ، ولقد أُعطِيتُ جدلًا، ولكنى والله لقد عَلِمْتُ إن حدثتُك اليومَ حديثَ كذب تَرضى به علىَّ، ليوشِكَنَّ اللهُ أَن يُسْخِطَك عَلىَّ، ولئن حدَّثْتُكَ حَديثَ صِدقٍ، تَجِدُ علىَّ فيه، إنِّى لأرجُو فيه عفوَ الله عنى، والله ما كان لى مِن عذر، والله ما كنتُ قَطُّ أقوى ولا أيسرَ مِنى حين تخلَّفتُ عنك. فقال رسول الله ﷺ : «**أما هذَا فَقَدْ صَدَقَ، فقُم حتى يقضِيَ اللَّهُ فيك**». فقمتُ، وثار رِجالٌ من بنى سلمة، فاتبعونى يُؤنِّبونى، فقالوا لى: والله ما علمناكَ كنتَ أذنبتَ ذنبًا قبلَ هذا، ولقد عَجَزْتَ ألا تكونَ اعتذرتَ إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المخلَّفون، فقد كان كافيَك ذنبَك استغفارُ رسولِ الله ﷺ لك. قال: فوالله ما زالوا يُؤنبونى حتى أردتُ أن أرجع، فأكذِبَ نفسى، ثم قلتُ لهم: هل لقى هذا معى أحدٌ؟ قالوا: نعم رَجُلانِ قالا مِثْلَ ما قلتَ، فقيل لهما مثلَ ما قيل لك، فقلتُ: مَن هما؟ قالوا: مُرارة ابنُ الربيع العامرى، وهِلالُ بنُ أُمية الواقفى، فذكروا لى رجلين صالحِين شهدا بدرًا فيهما أُسوةٌ، فمضيتُ حين ذكروهما لى.

ونهى رسولُ الله ﷺ المسلمينَ عن كلامِنا أَيُّها الثَّلاثَةُ مِن بين مَنْ تخلَّفَ عنه، فاجْتَنَبَنَا النَّاسُ، وتغيَّروا لنا، حتى تنكرت لى الأرضُ، فما هى بالتى أعرِفُ، فلبثنا على ذلك خمسينَ ليلةً، فأما صاحباى، فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يَبكيانِ، وأما أنا فكنتُ أشبَّ القوم وأجلدَهم، فكنتُ أخرج، فأشهدُ الصلاةَ مع المسلمين، وأطوفُ فى الأسواق، ولا يُكلِّمنى أحد، وآتى رسول الله ﷺ ، فأُسَلِّمُ عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول فى نفسى: هل حرَّكَ شفتيه بردِّ السلام علىَّ أم لا؟ ثم أُصَلِّى قريبًا منه، فأسارِقه النظر، فإذا أقبلتُ على صلاتى، أقبل إلَىَّ، وإذا التفتُّ نحوه، أعرضَ عنى، حتى إذا طالَ علىَّ ذلك مِن جفوة المسلمين، مشيتُ حتى

تسوَّرتُ(١) جدار حائط أبى قتادة، وهو ابنُ عمى، وأحبُّ الناسِ إلَيَّ، فسلَّمتُ عليه، فوالله ما ردَّ علَيَّ السلامَ، فقلت: يا أبا قتادة؛ أنشدُك بالله، هل تعلَمُنى أُحِبُّ الله ورسولَه ﷺ ؟ فسكت، فعُدت، فناشدتُه، فسكت، فعُدت فناشدتُه، فقال: اللَّهُ ورَسُولُه أعلمُ، ففاضت عيناى، وتولّيتُ حتَّى تسورتُ الجِدَار.

فبينا أنا أمشى بسوق المدينة، إذا نَبَطِى من أنباطِ الشام(٢) ممن قَدِمَ بالطعام يَبيعه بالمدينة يقولُ: مَنْ يدُلُّ على كعبِ بْنِ مالك، فطفِقَ الناسُ يُشِيرونَ لهُ حتَّى إذا جاءنى، دفع إلَيَّ كتابًا من ملك غَسَّان، فإذا فيه:

أما بعدُ.. فإنه بلغنى أن صاحبك قد جفاك، ولم يجعلك الله بدار هوان، ولا مضيعة، فالحق بنا نُواسِك.

فَقُلْتُ لما قرأتها: وهذا أيضًا مِن البلاء، فتيممتُ(٣) بها التنور، فسجرتُها(٤) حتى إذا مضت أربعون ليلةً مِن الخمسين، إذا رسولُ رسولِ الله ﷺ يأتينى، فقال: إنَّ رسولَ الله ﷺ يأمُرُك أن تعتزِلَ امرأتَك، فقلتُ: أُطلقها أم ماذا؟ قال: لا ولكن اعتزلها ولا تقربْها، وأرسل إلى صاحبيَّ مثل ذلك، فقلتُ لامرأتى: الحقى بأهلك، فكونى عندهم حتى يَقْضِيَ اللَّهُ فى هذا الأمر، فجاءت امرأةُ هلال ابن أُمية، فقالت: يا رسول الله؛ إنَّ هلالَ بنَ أُمية شيخ ضائع ليس له خادم، فهل تكره أن أخدُمه قال: «**لا ولكن لا يقرَبْك**»، قالت: إنه والله ما بِه حركة إلى شىء، والله ما زال يبكى منذ كان مِن أمره ما كان إلى يومه هذا، قال كعب: فقال لى بعضُ أهلى: لو استأذنتَ رسولَ الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هِلال بن أُمية أن تخدُمه، فقلت: والله لا أستأذِنُ فيها رسولَ الله ﷺ، وما يُدرينى ما يقولُ رسول الله ﷺ إذا استأذنتُه فيها، وأنا رجل شاب، ولبثتُ بعد ذلك عشرَ ليالٍ حتى كَمُلَت لنا خمسون ليلةً من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا، فلما صَلَّيتُ

---

(١) تسورت: أي علوت.
(٢) أنباط الشام: هم أهل الفلاحة.
(٣) فتيممت: فقصدت.
(٤) فسجرتها: أوقدتها.

صلاةَ الفجر صُبْحَ خمسين ليلةً على سطح بيت من بيوتنا، بينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى، قد ضاقت علىَّ نفسى، وضاقت علىَّ الأرضُ بما رحُبت، سمعتُ صوتَ صارخ أوفى على جبل سَلْعٍ بأعلى صوتِه: يا كعبَ بنَ مالك؛ أبشر، فخررتُ ساجدًا، فعرفتُ أن قد جاء فرجٌ مِن الله، وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صَلَّى الفجر، فذهب الناسُ يُبشرونَنا، وذهب قِبَلَ صاحبىَّ مبشرون، وركضَ إلىَّ رجل فرسًا، وسعى ساع مِن أسلمَ، فأوفى على ذِرْوة الجبل، وكان الصوتُ أسرعَ مِن الفرس، فلما جاءنى الذى سمعتُ صوته يبشرنى، نزعتُ له ثوبىَّ فكسوتُه إياهما ببُشراه، والله ما أملك غيرهما، واستعرتُ ثوبين، فلبستُهما، فانطلقتُ إلى رسول الله ﷺ، فتلقانى الناسُ فوجًا فوجًا يُهنئوننى بالتوبة يقولون: لِيهْنِكَ توبةُ الله عليك.

قال كعب: حتى دخلتُ المسجد، فإذا رسولُ الله ﷺ جالس حولَه الناس، فقام إلىَّ طلحةُ بنُ عُبيد الله يُهرولُ حتى صافحنى وهنَّأنى، والله ما قام إلىَّ رجل من المهاجرين غيره، ولستُ أنساها لِطلحة، فلما سلَّمتُ على رسول الله ﷺ، قال وهو يَبْرُقُ وجهُه من السرور: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْم مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**». قال قلتُ: أمِن عندك يا رسولَ الله، أم مِن عند الله؟ قال: «**لا بَلْ مِنْ عِنْدِ الله**»، وكان رسولُ الله ﷺ إذا سُرَّ استنار وجهُه حتى كأنه قِطعةُ قمر، وكنا نعرفُ ذلك منه، فلما جلستُ بين يديه، قلت: يا رسول الله؛ إنَّ مِن توبتى أن أنخلِع مِن مالى صَدَقة إلى الله، وإلى رسوله، فقال: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، قلت: فإنى أُمسِكُ سهمى الذى بخَيْبرَ. فقلتُ: يا رسول الله؛ إنَّ الله إنما نجانى بالصدق، وإنَّ من توبتى ألاَّ أُحَدِّثُ إلا صدقًا ما بقيتُ، فواللهِ ما أعلم أحدًا من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرتُ ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ما أبلانى، والله ما تعمدتُ بعد ذلك إلى يومى هذا كذبًا، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله فيما بقيتُ، فأنزلَ الله تعالى على رسوله: ﴿**لَقَد تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ**﴾ [التوبة: ١١٧] إلى قوله: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩]، فوالله ما أنعم الله علىَّ نعمة قَطُّ بعد أن هدانى للإسلام، أعظمَ فى

نفسى من صدقى رسولَ الله ﷺ، أن لا أكون كذبته، فأهْلِكَ كما هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا، فإن الله قال للذين كذَبُوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد قال: ﴿سَيَحْلِفُونَ بالله لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ﴾ [التوبة:٩٥] إلى قوله: ﴿فَإِنَّ اللهَ لا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٩٦].

قال كعب: وكان تخلُّفنا أيُّها الثَّلاثَةُ عن أمر أُولئك الذين قبل منهم رسولُ الله ﷺ حين حلفوا له، فبايعهم، واستغفر لهم، وأرجأ أمرَنا حتى قضى اللَّهُ فيه، فبذلك قال الله: ﴿وعَلَى الثَّلاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨]، وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو، وإنما هو تخليفُه إيَّانا، وإرجاؤُه أمرنا عمن حلف له، واعتذر إليه فقبل منه[1].

عباد الله...

وقَدْ تضمنت هَذِهِ الغزوة من الفقه والفوائد الشيء الكثير.

قَالَ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله - ما مختصره [2]:

الإشارة إلى بعض ما تضمنته هذه الغزوة من الفقه والفوائد:

منها: تصريحُ الإمام للرعية، وإعلامُهم بالأمر الذى يضرُّهم سترُه وإخفاؤُه، ليتأهبوا له، ويُعِدُّوا له عُدته، وجوازُ ستر غيره عنهم والكناية عنه للمصلحة.

ومنها: أنَّ الإمام إذا استنفر الجيش، لزمهم النفيرُ، ولم يجز لأحد التخلفُ إلا بإذنه، ولا يُشترطُ فى وجوب النفير تعيينُ كلِّ واحد منهم بعينه، بل متى استنفر الجيش، لزم كُلَّ واحد منهم الخروجُ معه، وهذا أحدُ المواضع الثلاثة التى يصير فيها الجهاد فرض عَيْن. **والثانى**: إذا حضر العدوُّ البلد. **والثالث**: إذا حضر بين الصفين.

ومنها: وجوبُ الجهاد بالمال، كما يجبُ بالنفس، وهذا إحدى الروايتين عن

(١) أخرجه البخاري (٤٤١٨).
(٢) في «زاد المعاد» (٣/ ٥٠٦، وما بعدها).

أحمد، وهى الصوابُ الذى لا ريب فيه، فإن الأمر بالجهاد بالمال شقيقُ الأمر بالجهاد بالنفس فى القرآن وقرينُه، بل جاء مقدَّمًا على الجهاد بالنفس فى كُلِّ موضع، إلا موضعًا واحدًا، وهذا يدل على أن الجهاد به أهم وآكدُ من الجهاد بالنفس، ولا ريبَ أنه أحدُ الجهادين، كما قال النبى ﷺ: «مَنْ جَهَّزَ غَازِيًا فَقَدْ غَزَا»(١)، فيجب على القادر عليه، كما يجب على القادر بالبدن، ولا يَتِمُّ الجهاد بالبدن إلا ببذله، ولا ينتصر إلا بالعدد والعُدد، فإن لم يقدر أن يكثر العَدد، وجب عليه أن يمد بالمال والعُدة، وإذا وجب الحجُّ بالمال على العاجز بالبدن، فوجوبُ الجهاد بالمال أَوْلى وأحرى.

ومنها: ما برز به عُثمانُ بن عفان من النفقةِ العظيمة فى هذه الغزوة، وسبق به الناس، فقال النبى ﷺ: «غَفَرَ اللَّهُ لَكَ يا عُثْمانُ ما أَسْرَرْتَ، ومَا أَعْلَنْتَ، ومَا أَخْفَيْتَ، وما أَبْدَيْتَ». ثم قال: «ما ضَرَّ عُثْمَانَ مَا فَعَلَ بَعْدَ اليَوْمِ»(٢)، وكان قد أنفق ألفَ دينار(٣).

ومنها: أن العاجزَ بماله لا يُعذرُ حتى يَبْذُلَ جهده، ويتحقَّقَ عجزُهُ، فإن الله سبحانه إنما نفى الحَرَجَ عن هؤلاء العاجزين بعد أن أَتَوْا رسولَ الله ﷺ ليحملهم، فقال: ﴿لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ﴾ [التوبة: ٩١]، فرجعوا يبكون لما فاتهم من الجهاد، فهذا العاجز الذى لا حَرَج عليه.

ومنها: استخلافُ الإمام إذا سافر رجلًا من الرعية على الضعفاء، والمعذورين، والنساء، والذُرِّية، ويكون نائبه مِن المجاهدين، لأنه من أكبر العون لهم. وكان رسولُ الله ﷺ يستخلِف ابنَ أُمِّ مكتوم، فاستخلفه بضعَ عشرة مرة، وأما فى غزوة تَبُوكَ.

فالمعروفُ عند أهل الأثر أنه استخلف عليَّ بن أبى طالب، كما فى «الصحيحين»

(١) أخرجه البخاري (٢٨٤٣)، ومسلم (١٨٩٥)، وغيرهما.
(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٣٧٢١)، وأحمد (٥/ ٦٣).
(٣) حسن.

عن سعد بن أبى وقاص، قال: خلَّف رسولُ الله ﷺ عليًا رضى الله عنه فى غزوة تَبُوك، فقال: يا رسول الله؛ تُخَلِّفُنى مَعَ النساءِ والصبيان، فقال: «**أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّى بِمَنْزِلَةِ هارُونَ مِنْ مُوسَى، غَيْرَ أَنَّهُ لاَ نَبِىَّ بَعْدِى**». ولكن هذه كانت خلافةً خاصة على أهله ﷺ، وأما الاستخلافُ العام، فكان لمحمد بن مسلمة الأنصارى، ويدل على هذا أن المنافقين لما أرجفُوا به، وقالوا: خلَّفه استثقالًا، أخذ سلاحه ثم لحق بالنبى ﷺ، فأخبره، فقال: «**كَذَبُوا، ولكِنْ خَلَّفْتُكَ لِمَا تَرَكْتُ وَرائى، فارْجِعْ فاخْلُفْنى فى أَهْلِى وَأَهْلِكَ**».

ومنها: أنَّ الماء الذى بآبار ثمود، لا يجوز شُربه، ولا الطبخُ منه، ولا العجينُ به، ولا الطهارةُ به، ويجوز أن يُسقى البهائم إلا ما كان من بئر الناقة. وكانت معلومةً باقية إلى زمن رسول الله ﷺ، ثم استمر عِلْمُ الناسِ بها قرنًا بعد قرن إلى وقتنا هذا، فلا يرِدُ الركوبُ بئرًا غيرها، وهى مطويَّةٌ محكمة البناء، واسعة الأرجاء، آثار العِتق عليها بادية، لا تشتبِه بغيرها.

ومنها: أنَّ مَن مرَّ بديار المغضوب عليهم والمعذَّبين، لم ينبغ له أن يدخُلَها، ولا يُقيم بها، بل يُسرع السير، ويتقنَّع بثوبه حتى يُجاوِزَها، ولا يدخل عليهم إلا باكيًا معتبرًا.

ومن هذا إسراعُ النبى ﷺ السير فى وادى مُحَسِّر بين مِنَى وعَرَفة، فإنه المكانُ الذى أهلك الله فيه الفيلَ وأصحابه.

عباد الله...

هَذِهِ بعض الفوائد الفقهية والدروس والعبر المستفادة من غزوة «تبوك»، وسيأتي المزيد بعد قليل إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الفوائد والعظات والدروس المستفادة من غزوة «تبوك» أيضًا:

أنَّ النبى ﷺ كان يجمعُ بين الصلاتين فى السفر، وقد جاء جمعُ التقديم فى هذه القصة فى حديث معاذ، كما تقدَّم، وذكرنا عِلَّة الحديث. ومَن أنكره، ولم يجيء جمع التقديم عنه فى سفر إلا هذا، وصح عنه جمعُ التقديم بعَرَفة قبل دخوله إلى عَرَفة[١]، فإنه جَمَعَ بين الظهر والعصر فى وقت الظهر، فقيل: ذلك لأجل النُّسُك، كما قال أبو حنيفة. وقيل: لأجل السفر الطويل، كما قاله الشافعى وأحمد. وقيل: لأجل الشغل، وهو اشتغالُه بالوقوف، واتصالُه إلى غروب الشمس. قال أحمد: يجمع للشغل، وهو قول جماعة من السَّلَف والخَلَف، وقد تقدَّم.

ومنها: جوازُ التَّيَمُّم بالرمل، فإن النبى ﷺ وأَصحابَه، قطعوا الرمال التى بين المدينة وتَبُوك، ولم يحملوا معهم ترابًا بلا شك، وتلك مفاوز مُعْطِشة شكوا فيها العطشَ إلى رسول الله ﷺ، وقطعًا كانوا يتيممون بالأرض التى هم فيها نازلون، هذا كُلُّه مما لا شك فيه مع قوله ﷺ: **«فَحَيْثُمَا أَدْرَكَتْ رَجُلًا مِنْ أُمَّتِى الصَّلاةُ، فَعِنْدَهُ مَسْجِدُه وَطَهُورُه»**[٢].

ومنها: أنَّه ﷺ أقام بتَبُوك عشرين يومًا يَقْصُر الصلاة، ولم يَقل للأُمَّة: لا يقصر الرجل الصلاة إذا أقام أكثرَ من ذلك، ولكن اتفقت إقامتُه هذه المدة، وهذه الإقامة فى حال السفر لا تخرج عن حكم السفر، سواءٌ طالت أو قصرت إذا كان غيرَ مستوطن، ولا عازم على الإقامة بذلك الموضع.

---

(١) صحيح.
(٢) أخرجه أحمد (٥/ ٢٤٨).

وقد اختلف السَّلَفُ والخَلَف فى ذلك اختلافًا كثيرًا، ففى «صحيح البخارى» عن ابن عباس، قال: أقامَ رسولُ الله ﷺ فى بعض أسفاره تسعَ عشرةَ يُصلِّى ركعتين، فنحن إذا أقمْنا تِسْعَ عشرةَ نُصَلِّى ركعتين، وإن زدنا على ذلك أتممنا، وظاهرُ كلام أحمد أن ابن عباس أراد مدة مقامه بمكة زمنَ الفتح، فإنه قال: أقام رسولُ الله ﷺ بمكة ثمان عشرة زمنَ الفتح، لأنه أراد حُنَيْنًا، ولم يكن ثَمَّ أجمعَ المُقام، وهذه إقامته التى رواها ابنُ عباس. وقال غيرُه: بل أراد ابنُ عباس مقامه بتَبُوك، كما قال جابر بن عبد الله: أقام النبىُّ ﷺ بتَبُوك عشرينَ يومًا يقصُر الصلاة، رواه الإمام أحمد فى «مسنده».

وقال عبد الرحمن بن المِسور بن مَخْرَمَة: أقمنا مع سعد ببعض قرى الشام أربعين ليلة يقصُرُها سعد ونُتِمُّها.

وقال نافعُ: أقام ابنُ عمر بأذَربيجَانَ ستةَ أشهر يُصَلِّى ركعتين، وقد حال الثلجُ بينه وبين الدخول.

وقال حفصُ بن عُبيد الله: أقام أنسُ بنُ مالك بالشام سنتين يُصَلِّى صلاةَ المسافر.

وقال أنسُ: أقام أصحابُ رسولِ الله ﷺ بِرَامَهُرْمُزَ سَبعة أشهر يقصُرون الصلاة.

وقال الحسن: أقمتُ مع عبد الرحمن بن سَمُرة بكابُل سنتينِ يقصرُ الصلاة ولا يجمع.

وقال إبراهيم: كانوا يُقيمون بالرَّىِّ السنة، وأكثر من ذلك، وسجستان السنتين.

فهذا هَدْى رسول الله ﷺ وأصحابه كما ترى، وهو الصوابُ.

وأما مذاهبُ الناس، فقال الإمام أحمد: إذا نوى إقامةَ أربعة أيام، أتم، وإن نوى دونها، قصر، وحمل هذه الآثار على أن رسول الله ﷺ وأصحابه لم يُجمعوا الإقامة ألبتة، بل كانوا يقُولون: اليوم نخرج، غدًا نخرج. وفى هذا نظر لا يخفى،

فإنَّ رسولَ الله ﷺ فتح مكة، وهى ما هى، وأقام فيها يُؤَسِّسُ قواعِدَ الإسلام، ويهدِمُ قواعِدَ الشِّرك، ويُمهِّد أمر ما حولها مِن العرب، ومعلوم قطعًا أن هذا يحتاج إلى إقامة أيام لا يتأتَّى فى يوم واحد، ولا يومين، وكذلك إقامتُه بتَبُوك، فإنه أقام ينتظر العدو، ومن المعلوم قطعًا، أنه كان بينه وبينهم عِدَّةُ مراحل يحتاج قطعها إلى أيام، وهو يعلم أنهم لا يُوافون فى أربعة أيام، وكذلك إقامة ابن عمر بأذربيجان ستة أشهر يقصُر الصلاة من أجل الثلج، ومن المعلوم أن مثل هذا الثلج لا يتحللُ ويذوب فى أربعة أيام، بحيث تنفتح الطُّرُق، وكذلك إقامة أنس بالشام سنتين يقصُر، وإقامةُ الصحابة بِرَامَهُرْمُزَ سبعة أشهر يقصُرون، ومن المعلوم أن مثل هذا الحِصار والجهاد يُعلَم أنه لا ينقضى فى أربعة أيام. وقد قال أصحاب أحمد: إنه لو أقام لجهاد عدو، أو حبس سلطان، أو مرض، قصر، سواء غلب على ظنِّه انقضاءُ الحاجة فى مدة يسيرة أو طويلة، وهذا هو الصواب، لكن شرطوا فيه شرطًا لا دليل عليه من كتاب، ولا سُنَّة، ولا إجماع، ولا عمل الصحابة. فقالُوا: شرط ذلك احتمالُ انقضاء حاجته فى المدة التى لا تقطع حكم السفر، وهى ما دُون الأربعة الأيام، فيقال: من أين لكم هذا الشرط، والنبىُّ لما أقام زيادة على أربعة أيام يقصُر الصلاة بمكة وتَبُوك لم يقل لهم شَيْئًا، ولم يُبين لهم أنه لم يَعزم على إقامة أكثر من أربعة أيام، وهو يعلمُ أنهم يقتدون به فى صلاته، ويتأسَّوْنَ به فى قصرها فى مدة إقامته، فلم يقل لهم حرفًا واحدًا: لا تقصروا فوق إقامة أربع ليال، وبيان هذا مِن أهم المهمات، وكذلك اقتداءُ الصحابة به بعدَه، ولم يقولُوا لمن صَلَّى معهم شيئًا من ذلك.

وقال مالك والشافعى: إنْ نوى إقامةَ أكثرَ مِن أربعة أيام أتمَّ، وإن نوى دونها قصر.

وقال أبو حنيفة: إنْ نوى إقامة خمسة عشر يومًا أتمَّ، وإن نوى دونها قصر، وهو مذهب الليث بنِ سعد، ورُوى عن ثلاثة من الصحابة: عمر، وابنه، وابن عباس. وقال سعيد بن المسيَّب: إذا أقمتَ أربعًا فصَلِّ أربعًا، وعنه: كقول أبى حنيفة.

وقال عليٌّ بن أبى طالب: إنْ أقامَ عشرًا، أتمَّ، وهو روايةٌ عن ابن عباس.

وقال الحسن: يقصُر ما لم يقدَم مصرًا.

وقالت عائشةُ: يقصُر ما لم يضع الزاد والمزاد.

والأئمة الأربعة متفقون على أنه إذا أقام لحاجة ينتظر قضاءها يقول: اليوم أخرج، غدًا أخرج، فإنه يقصر أبدًا، إلا الشافعىّ فى أحد قوليه، فإنه يقصُر عنده إلى سبعة عشر، أو ثمانية عشر يومًا، ولا يقصُر بعدها. وقد قال ابن المنذر فى «إشرافه»: أجمع أهل العلم أن للمسافر أن يقصر ما لم يُجْمِع إقامة وإن أتى عليه سنون» ا.هـ[1].

عباد الله...

وإلى هنا نأتي إلى ختام خطبة اليوم، ونستكمل حديثنا - إن شاء الله تَعَالى - عن غزوة تبوك في الجمعة القادمة.

❖❖❖❖❖

(١) انتهى من «زاد المعاد» باختصار.

الخطبة السادسة عشرة بعد المائة:

[جـ] غزوة تبوك

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].
وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.
﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن «غزوة تبوك» وما فيها من أحكام فقهية، ودروس وعظات.

عباد الله...

ومن الأحكام الفقهية، والدروس المستفادة من غزوة تبوك:

قَالَ الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -:

منها: قولُه ﷺ: «إِنَّ بالمَدِينَةِ أقوامًا مَا سِرْتُمْ مَسيرًا، وَلا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إلاَّ كَانُوا

مَعَكُم»، فهذه المعية هى بقلوبهم وهممهم، لا كما يظنه طائفة من الجُهَّال أنهم معهم بأبدانهم، فهذا محال، لأنهم قالوا له: وهم بالمدينة؟ قال: «وهم بالمدينة حَبَسَهُمُ العُذْرُ» (١)، وكانوا معه بأرواحهم، وبدار الهجرة بأشباحهم، وهذا مِن الجهاد بالقلب، وهو أحد مراتبه الأربع، وهى القلب، واللِّسان، والمال، والبدن. وفى الحديث: «جَاهِدُوا المُشْرِكينَ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَقُلُوبِكُم وأَمْوالِكُم» (٢).

ومنها: تحريقُ أمكنة المعصية التى يُعصى اللّهُ ورسولُه فيها وهدمُها، كما حرقَ رسول الله ﷺ مسجد الضِّرار، وأمر بهدمه، وهو مسجدٌ يُصلَّى فيه، ويُذكر اسمُ الله فيه، لما كان بناؤه ضِرارًا وتفريقًا بين المؤمنينَ، ومأوى للمنافقين، وكُلُّ مكان هذا شأنه، فواجب على الإمام تعطيلُه، إما بهدم وتحريق، وإما بتغيير صورته وإخراجه عما وُضِعَ له. وإذا كان هذا شأنَ مسجد الضِّرارِ، فمشاهِدُ الشِّرْكِ التى تدعو سدنتُها إلِى اتخاذ مَنْ فيها أندادًا من دون الله أحقُّ بالهدمِ وأوجب، وكذلك محالُّ المعاصى والفسوق، كالحانات، وبُيوت الخَمَّارين، وأرباب المنكرات، وقد حرق عمرُ بن الخطاب قريةً بكمالها يُباع فيها الخمر، وحرق حانوت رُويشد الثقفى وسماه فويسقًا، وحرق قصرَ سعد عليه لما احتجب فيه عن الرعية، وهمَّ رسول الله ﷺ بتحريق بيوت تَاركى حضور الجماعة والجُمُعة(٣)، وإنما منعه مَن فيها من النساء والذُّرِّية الذين لا تجبُ عليهم كما أخبر هو عن ذلك.

ومنها: أن الوقف لا يصح على غير برٍّ ولا قُربة، كما لم يصحَّ وقفُ هذا المسجد، وعلى هذا: فيُهدم المسجد إذا بُنى على قبر، كما يُنبش الميتُ إذا دُفِنَ فى المسجد، نص على ذلك الإمام أحمد وغيرُه، فلا يجتمع فى دين الإسلام مسجدٌ وقبر، بل أيُّهما طرأ على الآخر. منع منه، وكان الحكم لِلسابق، فلو وُضِعا معًا، لم يجز، ولا يصح هذا الوقف ولا يجوز، ولا تَصِحُّ الصلاة فى هذا المسجد لنهى

(١) صحيح.
(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٢٥٠٤) وغيره.
(٣) أخرجه البخاري (٦٤٤)، ومسلم (٦٥١) وغيرهما.

رسولِ الله ﷺ عن ذلك، ولعنه مَن اتخذ القبر مسجدًا[١] أو أوقد عليه سراجًا، فهذا دينُ الإسلام الذى بعث الله به رسوله ونبيه، وغربتُه بينَ الناس كما ترى.

ومنها: ما اشتملت عليه قصةُ الثلاثة الذين خُلِّفُوا مِن الحِكَم والفوائد الجمَّة، فنشيرُ إلى بعضُها:

فمنها: جوازُ إخبار الرجل عن تفريطه وتقصِيرِه فى طاعة الله ورسوله، وعن سبب ذلك، وما آل إليه أمرُه، وفى ذلك مِن التحذير والنصيحة، وبيانِ طُرُقِ الخير والشر، وما يترتب عليها ما هو من أهم الأُمور.

ومنها: جوازُ مدح الإنسان نفسه بما فيه من الخير إذا لم يكن على سبيل الفخر والترفع.

ومنها: تسلية الإنسان نفسَه عما لم يُقدَّر له من الخير بِما قُدِّر له مِن نظيره أو خير منه.

ومنها: أن بَيْعةَ العَقَبَةِ كانت مِن أفضل مشاهد الصحابة، حتى إن كعبًا كان لا يراها دونَ مشهد بدر.

ومنها: أن الإمام إذا رأى المصلحة فى أن يستر عن رعيته بعضَ ما يهم به ويقصِدُه من العدو، ويُورِّى به عنه، استُحِبَّ له ذلك، أو يتعين بحسب المصلحة.

ومنها أن السِّترَ والكِتمان إذا تضمن مفسدة، لم يجز.

ومنها: أن الجيشَ فى حياة النبى ﷺ لم يكن لهم دِيوان، وأول مَن دوَّن الدِّيوان عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وهذا مِن سُنَّته التى أمر النبى ﷺ باتباعها[٢]، وظهرت مصلحتُها، وحاجةُ المسلمين إليها.

ومنها: أن الرجلَ إذا حضرت له فُرصةُ القُربة والطاعة، فالحزمُ كُلُّ الحزم فى انتهازها، والمبادرة إليها، والعجزُ فى تأخيرها، والتسويف بها، ولا سيما إذا لم يثق

(١) أخرجه البخاري (٤٣٥).

(٢) صحيح: أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٨)، وغيرهما.

بقدرته وتمكنه من أسباب تحصيلها، فإن العزائم والهمم سريعةُ الانتقاض قلَّما ثبتت، والله سُبحانه يُعاقب مَنْ فتح له بابًا من الخير فلم ينتهزه، بأن يحول بين قلبه وإرادته، فلا يُمكنه بعد من إرادته عقوبةً له، فمن لم يَستَجِبْ لله ورسوله إذا دعاه، حالَ بينه وبين قلبه وإرادته، فلا يمكنه الاستجابةُ بعد ذلك. قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ لله وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ، وَاعْلَمُواْ أَنَّ اللهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقد صرَّح الله سبحانه بهذا فى قوله: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُواْ بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا زَاغُواْ أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ﴾ [الصف: ٥]. وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، وهو كثير فى القرآن.

ومنها: أنه لم يكن يتخلَّفُ عن رسول الله ﷺ إلا أحد رجال ثلاثة: إما مغموصٌ عليه فى النفاق، أو رجلٌ من أهل الأعذار، أو من خلَّفَهُ رسولُ الله ﷺ واستعمله على المدينة، أو خَلَّفه لمصلحة.

ومنها: أن الإمام والمطاعَ لا ينبغى له أن يُهمِلَ مَنْ تخلَّفَ عنه فى بعض الأُمور، بل يُذكِّره ليراجع الطاعة ويتوب، فإن النبى ﷺ قال بتبوك: «مَا فَعَلَ كَعْبٌ»؟ ولم يذكر سِواه من المخلَّفين استصلاحًا له، ومُرعاةً وإهمالًا للقوم المنافقين.

ومنها: جوازُ الطعنِ فى الرجل بما يغلِبُ على اجتهادِ الطاعن حميةً، أو ذبًّا عن الله ورسوله، ومن هذا طعنُ أهل الحديث فيمن طعنوا فيه من الرواة، ومن هذا طعنُ ورثة الأنبياء وأهل السُّـنَّة فى أهل الأهواء والبِدَع لله لا لحظوظهم وأغراضهم.

ومنها: جوازُ الرد على الطاعن إذا غلب على ظن الرادِّ أنه وهم وغلط، كما قال معاذ للذى طعن فى كعب: بئس ما قلتَ، والله يا رسولَ الله ما علمنا عليه إلاَّ خيرًا، ولم يُنْكِرْ رسولُ الله ﷺ على واحد منهما.

ومنها: أن السُّـنَّة للقادم من السفر أن يدخل البلَد على وضوء، وأن يبدأ ببيت

الله قبل بيته، فيُصَلِّى فيه ركعتين، ثم يجلس للمسلِّمين عليه، ثم ينصرفُ إلى أهله.

ومنها: أن رسول الله ﷺ كان يقبل علانية مَن أظهر الإسلام من المنافقين، ويَكِلُ سريرته إلى الله، ويُجرى عليه حكم الظاهر، ولا يُعاقبه بما لم يعلم مِن سِرِّه.

ومنها: تركُ الإمام والحاكم ردَّ السلام على مَن أحدث حَدَثًا تأديبًا له، وزجرًا لغيره، فإنه ﷺ لم يُنقل أنه رَدَّ على كعب، بل قابل سلامه بتبسم المُغْضَبِ.

ومنها: أن التبسم قد يكون عن الغضب، كما يكون عن التعجب والسرور، فإن كلاً منهما يُوجب انبساط دمِ القلب وثورانه، ولهذا تظهر حمرةُ الوجه لسرعة ثورانِ الدم فيه، فينشأ عن ذلك السرور، والغضب تعجُّبٌ يتبعهُ ضحك وتبسم، فلا يغتر المغتر بضحك القادر عليه فى وجهه، ولا سيما عند المَعتَبَةِ كما قيل:

إذا رَأَيْتَ نُيُوبَ اللَّيْثِ بَارِزَة فَلا تَظُنَّنَّ أنَّ اللَّيْثَ مُبْتَسِمُ

ومنها: معاتبةُ الإمام والمطاع أصحابه، ومَن يعز عليه، ويَكْرُم عليه، فإنه عاتَب الثلاثة دونَ سائِر مَنْ تخلَّف عنه، وقد أكثر الناسُ من مدح عتاب الأحبة، واستلذاذه، والسرور به، فكيف بعتاب أحبِّ الخلق على الإطلاق إلى المعتوب عليه، ولله ما كان أحلى ذلك العتاب، وما أعظم ثمرتَه، وأجلَّ فائدتَه، ولله ما نال به الثلاثةُ مِن أنواع المسرَّات، وحلاوةِ الرضى، وخِلَعِ القبول.

ومنها: توفيقُ الله لكعب وصاحبيه فيما جاؤوا به من الصدق، ولم يخذلهم حتى كذبوا واعتذروا بغير الحق، فصلُحت عاجلتهم، وفسدت عاقبتهُم كلَّ الفساد، والصادقون تعبوا فى العاجلة بعضَ التعب، فأعقبهم صلاح العاقبة، والفلاح كُلَّ الفلاح، وعلى هذا قامت الدنيا والآخرة، فمراراتُ المبادى حلاوات فى العواقب، وحلاوات المبادى مرارات فى العواقب. وقول النبىِّ ﷺ لكعب: «**أما هذا، فقد صدق**»، دليلٌ ظاهر فى التمسك بمفهوم اللَّقب عند قيام قرينة تقتضى تخصيص المذكور بالحكم، كقوله تعالى: ﴿**وَداوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى الحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ القَوْمِ وكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ * فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ**﴾ [الأنبياء: ٧٨، ٧٩]، وقوله

ﷺ : «**جُعِلت لى الأرضُ مسجدًا وتُرْبَتُها طهورًا**» (١)، وقوله فى هذا الحديث: «**أما هذا فقد صدق**»، وهذا مما لا يشك السامع أن المتكلم قصد تخصيصه بالحكم.

وقول كعب: هل لقى هذا معى أحد؟ فقالوا: نعم، مرارة بن الربيع، وهلال ابن أُمية، فيه أن الرجل ينبغى له أن يردَّ حرَّ المصيبة بروح التأسى بمن لقى مثل ما لقى، وقد أرشد سبحانه إلى ذلك بقوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَهِنُواْ فِى ابْتِغَاءِ القَوْمِ إِنْ تَكُونُواْ تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ، وَتَرْجُونَ مِنَ اللهِ مَا لاَ يَرْجُونَ**﴾ [النساء: ١٠٤]، وهذا هو الروح الذى منعه الله سبحانه أهلَ النارِ فيها بقوله: ﴿**وَلَن يَنْفَعَكُمُ اليَوْمَ إذ ظَّلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِى العَذَابِ مُشْتَرِكُونَ**﴾ [الزخرف: ٣٩].

وقوله: «فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدرًا لى فيهما أُسوة» هذا الموضع مما عُدَّ من أوهام الزُّهْرى، فإنه لا يُحفظ عن أحد من أهل المغازى والسير البتة ذِكرُ هذين الرجلين فى أهل بدر، لا ابن إسحاق ولا موسى بن عقبة، ولا الأموى، ولا الواقدى، ولا أحد ممن عدَّ أهل بدر، وكذلك ينبغى ألاَّ يكونا من أهل بدر، فإن النبى ﷺ لَمْ يَهْجُرْ حاطبًا، ولا عاقبه وقد جسَّ عليه، وقال لعمر لما هَمَّ بقتله: «**وما يُدريكَ أن الله اطلع على أَهْلِ بدرٍ فقال: اعملوا ما شِئتُم فقد غفرتُ لكم**» (٢)، وأين ذنبُ التخلف من ذنب الجسِّ.

عباد الله...

وفى نهى النبىِّ ﷺ عن كلام هؤلاء الثلاثة من بين سائر مَن تخلَّف عنه دليلٌ على صدقهم وكذب الباقين، فأراد هجرَ الصادقين وتأديبَهم على هذا الذنب، وأما المنافِقون، فجُرمهم أعظمُ من أن يُقابَل بالهجر، فدواء هذا المرض لا يعمل فى مرض النفاق، ولا فائدةَ فيه، وهكذا يفعلُ الرب سبحانه بعباده فى عقوبات جرائمهم، فيؤدِّبُ عبده المؤمن الذى يحبُه وهو كريم عنده بأدنى زَلَّة وهفوة، فلا يزال مستيقظًا حَذِرًا، وأما مَن سقط من عينه وهان عليه، فإنه يُخلِّى بينَه وبين

---

(١) رواه أحمد.

(٢) صحيح.

معاصيه، وكلما أحدث ذنبًا أحدث له نِعمة، والمغرورُ يظن أن ذلك مِن كرامته عليه، ولا يعلم أن ذلك عينُ الإهانة، وأنه يُريد به العذابَ الشديد، والعقوبةَ التى لا عاقبة معها، كما فى الحديث المشهور: «إِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِعَبْدٍ خَيْرًا عَجَّلَ لَهُ عُقُوبَتَهُ فى الدُّنْيَا، وإِذَا أَرادَ بِعَبْدٍ شَرًّا، أَمْسَكَ عَنْهُ عُقُوبَتَهُ فى الدُّنْيَا، فَيَرِدُ يَوْمَ القِيَامَة بِذُنُوبِه»[1].

عباد الله...

هَذِهِ بعض الأحكام الفقهية، والدروس والعظات المستفادة من «غزوة تبوك».

وسيأتي بعد قليل المزيد، إن شاء الله تَعَالى.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

ومن الأحكام الفقهية والدروس المستفادة من غزوة «تبوك» أيضًا:

أن فيها دليل على هِجران الإمام، والعالِم، والمطاعِ لمن فعل ما يستوجِبُ العَتب، ويكون هِجرانه دواء له بحيث لا يضعُف عن حصولِ الشفاء به، ولا يزيدُ فى الكمية والكيفية عليه فيهلكه، إذ المرادُ تأديبُه لا إتلافُه.

وقوله: «حتى تنكرت لى الأرض، فما هِىَ بالتى أعرِفُ» هذا التنكرُ يجده الخائفُ والحزينُ والمهمومُ فى الأرض، وفى الشجر، والنبات حتى يجدَه فيمن لا يُعلم حاله من الناس، ويجده أيضًا المذنبُ العاصى بحسب جُرمه حتى فى خُلُقِ زوجته وولده، وخادمه ودابته، ويَجِدُه فى نفسه أيضًا، فتتنكر له نفسُه حتى ما كأنَّه هو، ولا كأنَّ أهلَه وأصحابَه، ومَن يُشْفِقُ عليه بالَّذِينَ يعرِفُهم، وهذا سر من الله

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٢٤٠٤).

لا يخفى إلا على مَن هو ميتُ القلب، وعلى حسب حياة القلب، يكون إدراكُ هذا التنكر والوحشة. وما لجرح بميت إيلام.

ومن المعلوم، أن هذا التنكرَ والوحشة كانا لأهل النفاق أعظم، ولكن لموت قلوبهم لم يكونوا يشعرون به، وهكذا القلبُ إذا استحكم مرضُه، واشتد ألـمُه بالذنوب والإجرام، لم يجد هذه الوحشة والتنكر، ولم يحس بها، وهذه علامةُ الشقاوة، وأنه قد أيسَ من عافية هذا المرض، وأعيا الأطباء شِفاؤه، والخوفُ والهمُّ مع الريبة، والأمنُ والسرورُ مع البراءةِ مِن الذنب.

فَمَا فِي الأَرْضِ أَشْجَعُ مِنْ بَرِيءٍ وَلا فِي الأَرْضِ أَخْوَفُ مِنْ مُرِيبِ

وهذا القدرُ قد ينتفع به المؤمنُ البَصيرُ إذا ابتُلِيَ به ثم راجع، فإنه ينتفع به نفعًا عظيمًا مِن وجوه عديدة تفوتُ الحصرَ، ولو لم يكن منها إلا استثمارُه من ذلك أعلام النبوة، وذوقُه نفس ما أخبر به الرسولُ فيصير تصديقه ضروريًا عنده، ويصيرُ ما ناله مِن الشر بمعاصيه، ومن الخير بطاعاته من أدلة صدق النبوة الذوقية التى لا تتطرقُ إليها الاحتمالات، وهذا كمن أخبرك أن فى هذه الطريق من المعاطب والمخاوف كيتَ وكيتَ على التفصيل، فخالفته وسلكتها، فرأيتَ عَيْن ما أخبرَكَ به، فإنك تَشْهَدُ صِدقَه فى نفس خِلافك لهُ، وأما إذا سلكت طريقَ الأمن وحدها، ولم تجد من تلك المخاوف شيئًا، فإنه وإن شهد صدق المخبر بما ناله من الخير والظفر مفصلًا، فإن علمه بتلك يكون مجملًا»[1].

عباد الله...

لم تنته الأحكام الفقهية والدروس المستفادة من «غزوة تبوك» بعد.

لذا، فنحن عَلَى أمل اللقاء في الخطبة القادمة، لنستكمل ما تبقى - إن شاء الله تَعَالى - فإلى اللقاء.

---

(١) انتهى ملخصًا من «زاد المعاد».

الخطبة السابعة عشرة بعد المائة:

[د] غزوة تبوك

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن الأحكام الفقهية والدروس المستفادة من «غزوة تبوك».

عباد الله...

قَالَ الإمامُ ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «منها - يعني من الأحكام والدروس المستفادة من غزوة تبوك -:

أن هلال بنَ أُمية ومرارة قعدا في بيوتهما، وكانا يُصلِّيان في بيوتهما، ولا

يحضُران الجماعة، وهذا يدل على أن هِجران المسلمين للرجل عذر يُبيح له التخلف عن الجماعة، أو يقال: من تمام هجرانه أن لا يحضر جماعة المسلمين، لكن يقال: فكعب كان يحضر الجماعة ولم يمنعه النبى ﷺ، ولا عتب عليهما على التخلف، وعلى هذا فيُقال: لما أُمِرَ المسلمون بهجرهم تُركوا: لم يُؤمروا، ولم يُنهوا، ولم يُكلَّموا، فكان مَن حضر منهم الجماعة لم يُمنع، ومَن تركها لم يُكلَّم، أو يقال: لعلهما ضَعُفَا وعَجَزا عن الخروج، ولهذا قال كعب: وكنتُ أنا أجلدَ القوم وأشبَّهم، فكنتُ أخرج فأشهدُ الصلاة مع المسلمين.

وقوله: «وآتى رسول الله ﷺ فأُسلِّم عليه، وهو فى مجلسه بعد الصلاة، فأقول: هل حرَّك شفتيه برد السلام علىَّ أم لا»؟ فيه دليل على أن الرد على مَن يستحق الهجرَ غيرُ واجب، إذ لو وجب الرد لم يكن بُد من إسماعه.

وقوله: «حتى إذا طال ذلك علىَّ، تسورتُ جدار حائط أبى قتادة»، فيه دليل على دخول الإنسان دارَ صاحبه وجاره إذا علم رضاه بذلك، وإن لم يستأذِنْه.

وفى قول أبى قتادة له: «الله ورسوله أعلم»، دليل على أن هذا ليس بخطاب ولا كلام له، فلو حلف لا يُكلِّمه، فقال مثلَ هذا الكلام جوابًا له لم يحنث، ولا سيما إذا لم ينو به مكالمته، وهو الظاهر من حال أبى قتادة.

وفى إشارة الناس إلى النَّبطى الذى كان يقول: مَن يدل على كعب بن مالك دون نطقهم له تحقيقٌ لمقصود الهجر، وإلا فلو قالوا له صريحًا: ذاك كعب بن مالك، لم يكن ذلك كلامًا له، فلا يكونون به مخالفين للنهى، ولكن لِفرط تحرِّيهم وتمسكهم بالأمر، لم يذكروه له بصريح اسمه. وقد يقال: إن فى الحديث عنه بحضرته وهو يسمع نوع مكالمة له، ولا سيما إذا جعل ذلك ذريعة إلى المقصود بكلامه، وهى ذريعةٌ قريبة، فالمنع من ذلك من باب منع الحيل وسد الذرائع، وهذا أفقه وأحسن.

وفى مكاتبة ملك غسَّان له بالمصير إليه ابتلاء من الله تعالى، وامتحان لإيمانه ومحبته لله ورسوله، وإظهار للصحابة أنه ليس ممن ضعف إيمانُه بهجر النبى ﷺ

والمسلمين له، ولا هو ممن تحمِلُه الرغبة فى الجاه والملك مع هجران الرسول والمؤمنين له على مفارقة دينه، فهذا فيه من تبرئة الله له مِن النفاق، وإظهار قوة إيمانه، وصدقه لرسوله وللمسلمين ما هو من تمام نعمة الله عليه، ولطفه به، وجبره لكسره، وهذا البلاءُ يُظهر لُبَّ الرجل وسره، وما ينطوى عليه، فهو كالكِير الذى يُخرج الخبيث من الطيب.

وقوله: «فتيممتُ بالصحيفة»: التنورَ فيه المبادرة إلى إتلاف ما يُخشى منه الفساد والمضرَّة فى الدين، وأن الحازم لا ينتظر به ولا يُؤخره، وهذا كالعصير إذا تخمَّر، وكالكتاب الذى يُخشى منه الضررُ والشر، فالحزم المبادرة إلى إتلافه وإعدامه.

وكانت غسَّان إذ ذاك وهُم ملوك عرب الشام حربًا لرسول الله ﷺ، وكانوا ينعلُون خيولَهم لمحاربته، وكان هذا لما بعث شجاع بن وهب الأسدى إلى ملكهم الحارث بن أبى شمر الغسَّانى يدعوه إلى الإسلام، وكتب معه إليه، قال شجاع: فانتهيتُ إليه وهو فى غَوْطة دمشق، وهو مشغول بتهيئة الأنزال والألطاف لِقيصر، وهو جاءٍ من حمصَ إلى إيلياء، فأقمتُ على بابه يومين أو ثلاثة، فقلتُ لِحاجبه: إنى رسول رسولِ الله ﷺ إليه، فقال: لا تَصِلُ إليه حتى يخْرُجَ يومَ كذا وكذا، وجعل حاجبُه وكان روميًا اسمه مرى يسألُنى عن رسول الله ﷺ، وكنتُ أُحدِّثُه عن رسول الله ﷺ، وما يدعو إليه، فيرِقُّ حتى يغلِبَ عليه البكاء، ويقول: إنى قرأتُ الإنجيل، فأجدُ صفة هذا النبى بعَيْنه، فأنا أُؤمن به وأُصدِّقه، فأخافُ من الحارث أن يقتلنى، وكان يُكرمنى ويُحسن ضيافتى، وخرج الحارث يومًا فجلس، فوضع التاجَ على رأسه، فأذِن لى عليه، فدفعتُ إليه كتابَ رسول الله ﷺ، فقرأه، ثمَّ رمى به، قال: مَن ينتزعُ مِنى ملكى، وقال: أنا سائر إليه، ولو كان باليمن جئتُه، علىَّ بالناس، فلم تزل تُعرض حتى قام، وأمر بالخيول تُنعل، ثم قال: أخبر صاحِبَكَ بما ترى، وكتب إلى قيصر يخبره خبرى، وما عزم عليه، فكتب إليه قيصر: أن لا تَسِرْ، ولا تَعْبُرْ إليه، والهُ عنه، ووافنى بإيلياء، فلما جاءه جوابُ كتابه، دعانى فقال: متى تُريد أن تخرُج إلى صاحبك؟ فقلت: غدًا، فأمر لى بمائةِ مثقالٍ ذهبًا، ووصلنى

حاجبُه بنفقة وكُسوةٍ، وقال: اقرأ على رسول الله ﷺ منى السلام، فقدمتُ على رسول الله ﷺ، فأخبرته، فقال: «بَادَ مُلْكُه»، وأقرأته من حاجبه السلام، وأخبرته بما قال، فقال رسولُ الله ﷺ: «صدق»، ومات الحارث بن أبى شمر عام الفتح، ففى هذه المدة أرسل ملكُ غسَّان يدعو كعبًا إلى اللحاق به، فأبت له سابقة الحسنى أن يرغب عن رسول الله ﷺ ودِينه.

أيُّهَا المسلمون...

إن في أمر رسول الله ﷺ لهؤلاء الثلاثة أن يعتزلوا نساءهم لما مضى لهم أربعون ليلة، كالبشارة بمقدمات الفَرَج والفتح مِن وجهين:

أحدهما: كلامُه لهم، وإرساله إليهم بعد أن كان لا يكلمهم بنفسه ولا برسوله.

الثانى: مِن خصوصية أمرهم باعتزال النساء، وفيه تنبيه وإرشاد لهم إلى الجد والاجتهاد فى العبادة، وشد المئزر، واعتزال محل اللَّهو واللَّذة، والتعوض عنه بالإقبال على العبادة، وفى هذا إيذان بقرب الفَرَج، وأنه قد بقى من العتب أمر يسير.

وفقه هذه القصة، أن زمن العبادات ينبغى فيه تجنبُ النساء، كزمن الإحرام، وزمن الاعتكاف، وزمن الصيام، فأراد النبيُّ ﷺ أن يكون آخرُ هذه المدة فى حق هؤلاء بمنزلة أيام الإحرام والصيام فى توفرها على العبادة، ولم يأمرهم بذلك من أول المدة رحمةً بهم، وشفقةً عليهم، إذ لعَلهم يضعف صبرهم عن نسائهم فى جميعها، فكان من اللُّطف بهم والرحمة، أن أُمروا بذلك فى آخر المدة، كما يؤمر به الحاج من حين يُحرم، لا من حين يعزم على الحج.

وقول كعب لامرأته: «الحقى بأهلك»، دليل على أنه لم يقطع بهذه اللَّفظة وأمثالها طلاق ما لم ينوه. والصحيح: أن لفظ الطلاق والعتاق والحرية كذلك إذا أراد به غير تسييب الزوجة، وإخراج الرقيق عن ملكه، لا يقع به طلاقٌ ولا عتاق، هذا هو الصواب الذى ندينُ الله به، ولا نرتابُ فيه ألبتة. فإذا قيل له: إن غلامك

فاجر أو جاريتك تزنى، فقال: ليس كذلك، بل هو غلام عفيف حر، وجارية عفيفة حرة، ولم يُرد بذلك حرية العتق، وإنما أراد حرية العفة، فإن جاريته وعبده لا يُعتقان بهذا أبدًا، وكذا إذا قيل له: كم لغلامك عندك سنة؟ فقال: هو عتيق عندى، وأراد قدم ملكه له، لم يُعتق بذلك، وكذلك إذا ضرب امرأته الطلق، فسئل عنها، فقال: هى طالق، ولم يخطر بقلبه إيقاع الطلاق، وإنما أراد أنها فى طلق الولادة، لم تُطلَّق بهذا، وليست هذه الألفاظ مع هذه القرائن صريحة إلا فيما أُريد بها، ودل السياق عليها، فدعوى أنها صريحة فى العتاق والطلاق مع هذه القرائن مكابرة، ودعوى باطلة قطعًا.

وفى سجود كعب حين سمع صوت المبشِّر دليل ظاهر أن تلك كانت عادة الصحابة، وهى سجودُ الشكر عند النعم المتجددة، والنقم المندفعة، وقَدْ سجد رسول الله ﷺ حين أتاه بشير فبشَّره بظفر جند له على عدوهم ورأسه فى حَجر عائشة، فقام فخرَّ ساجدًا، وقال أبو بكرة: كان رسول الله ﷺ إذا أتاه أمر يسُرُّه خرَّ لله ساجدًا[1]، وهى آثار صحيحة لا مطعن فيها.

وفى استباق صاحب الفرس والراقى على سلع[2] ليبشِّرا كَعبًا دليل على حرص القوم على الخير، واستباقهم إليه، وتنافُسهم فى مسَّرة بعضهم بعضًا.

وفى نزع كعب ثوبيه وإعطائهما للبشير، دليل على أن إعطاء المبشِّرين من مكارم الأخلاق والشيم، وعادة الأشراف، وقد أعتق العباس غلامه لما بشَّره أن عند الحجاج بن علاط من الخبر عن رسول الله ﷺ ما يسره.

وفيه دليل على جواز إعطاء البشير جميع ثيابه.

وفيه دليل على استحباب تهنئة مَن تجدَّدت له نعمة دينية، والقيام إليه إذا أقبل، ومصافحته، فهذه سُنَّة مستحَبة، وهو جائز لمن تجددت له نِعمةٌ دنيوية، وأن الأَوْلى أن يقال له: لِيهنك ما أعطاك الله، وما مَنَّ الله به عليك، ونحو هذا الكلام،

(١) حسن: أخرجه أبو داود (٢٧٧٤)، والترمذي (١٥٨٤)، وغيرهما.
(٢) سلع: جبل بسوق المدينة.

فإن فيه تولية النعمة ربَّها، والدعاء لمن نالها بالتهنى بها.

وفيه دليل على أن خير أيام العبد على الإطلاق وأفضلها يومُ توبته إلى الله، وقبول الله توبته، لقول النبى ﷺ: «**أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُنْذُ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ**».

فإن قيل: فكيف يكون هذا اليوم خيرًا من يوم إسلامه؟

قيل: هو مكمل ليوم إسلامه، ومن تمامه، فيومُ إسلامه بداية سعادته، ويومُ توبته كمالها وتمامها.. والله المستعان.

وفى سرور رسول الله ﷺ بذلك وفرحه به واستنارة وجهه دليل على ما جعل الله فيه من كمال الشفقة على الأُمة، والرحمة بهم والرأفة، حتى لعل فرحه كان أعظم مِن فرح كعب وصاحبيه.

وقول كعب: «يا رسول الله؛ إن من توبتى أن أنخلع من مالى»، دليل على استحباب الصدقة عند التوبة بما قدر عليه من المال.

وقول رسول الله ﷺ: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ، فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ**»، دليل على أن مَن نذر الصدقة بكُلِّ ماله، لم يلزمه إخراجُ جميعه، بل يجوز له أن يُبقى له منه بقية، وقد اختلفت الرواية فى ذلك، ففى «الصحيحين» أن النبى ﷺ قال له: «**أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ**» ولم يُعيِّن له قدرًا، بل أطلق ووكله إلى اجتهاده فى قدر الكفاية، وهذا هو الصحيح، فإن ما نقص عن كفايته وكفاية أهله لا يجوز له التصدق به، فنذره لا يكون طاعة، فلا يجب الوفاء به، وما زاد على قدر كفايته وحاجته، فإخراجه والصدقة به أفضل، فيجب إخراجُه إذا نذره، هذا قياسُ المذهب، ومقتضى قواعِد الشريعة.

عباد الله...

هَذِهِ بعض الأحكام والدروس المستفادة من «غزوة تبوك»، و«قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا»، وسيأتي بعد قليل المزيد، إن شاء الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

فمن الأحكام والدروس المستفادة من «قصة الثلاثة الذين خُلِّفوا» أيضًا:

عِظَم مقدارِ الصِّدق، وتعليقُ سعادة الدنيا والآخرة، والنجاة مِن شرهما به، فما أنجى الله مَن أنجاه إلا بالصدق، ولا أهلك مَن أهلَكه إلا بالكذب، وقد أمر اللهُ سبحانه عِباده المؤمنين أن يكونوا مع الصادقين، فقال: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اتَّقُواْ اللهَ وَكُونُواْ مَعَ الصَّادِقِينَ**﴾ [التوبة: ١١٩].

وقد قسم سبحانه الخلق إلى قسمين: سعداء وأشقياء، فجعل السعداء هم أهلَ الصدق والتصديق، والأشقياء هم أهلَ الكذب والتكذيب، وهو تقسيم حاصِر مطَّرد منعكِس. فالسعادةُ دائرة مع الصدق والتصديقِ، والشقاوةُ دائرة مع الكذب والتكذيب.

وأخبر سبحانه وتعالى: أنه لا ينفعُ العبادَ يومَ القيامة إلا صدقهم، وجعل عَلَم المنَافقين الذى تميزوا به هو الكذبَ فى أقوالهم وأفعالهم، فجميعُ ما نعاه عليهم أصلُه الكذبُ فى القول والفعل، فالصدق بريدُ الإيمان، ودليله، ومركبه، وسائقه، وقائده، وحِليته، ولباسُه، بل هو لبُّه وروحه. والكذب: بريدُ الكفر والنفاق، ودليلهُ، ومركبه، وسائقه، وقائدُه، وحليته، ولباسه، ولبُّه، فمضادة الكذبِ للإيمان كمضادة الشِّرك للتوحيد، فلا يجتمعُ الكذب والإيمان إلا ويطرُد أحدهما صاحبه، ويستقِرُّ موضعه، والله سبحانه أنجى الثلاثَةَ بصدقهم، وأهلكَ غيرَهم من المخلَّفين بكذبهم، فما أنعم اللهُ على عبدٍ بعد الإسلام بنعمة أفضل من الصدق الذى هو غِذاء الإسلام وحياتُه، ولا ابتلاه ببلية أعظمَ من الكذب الذى هو مرضُ الإسلام وفساده. والله المستعان.

وقوله تعالى: ﴿لَقَد تَّابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِن بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ. إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة: ١١٧]، هذا من أعظَم ما يُعَرِّفُ العبد قدرَ التوبة وفضلَها عند الله، وأنها غاية كمال المؤمن، فإنَّه سبحانه أعطاهم هذا الكمال بعد آخر الغزواتِ بعد أن قَضَوْا نحبَهم، وبذلوا نفوسهم، وأموالهم، وديارهم لله، وكان غايةَ أمرهم أن تاب عليهم، ولهذا جعل النبى ﷺ يومَ توبةِ كعب خيرَ يوم مَرَّ عليه منذ ولدته أُمه، إلى ذلك اليوم، ولا يعرِفُ هذا حق معرفته إلا مَن عرف الله، وعرف حقوقَه عليه، وعرف ما ينبغى له من عُبوديته، وعرف نفسَه وصفاتِها وأفعالها، وأن الذى قام به مِن العبودية بالنسبة إلى حق ربه عليه، كقَطْرة فى بحرٍ، هذا إذا سلم من الآفات الظاهرة والباطنة، فسُبحان مَن لا يسعُ عبادَه غيرُ عفوه ومغفرته، وتغمده لهم بمغفرته ورحمته، وليس إلا ذلك أو الهلاك، فإن وضع عليهم عدله، فعذَّب أهلَ سماواته وأرضه عذَّبهم، وهو غيرُ ظالم لهم، وإن رحمهم، فرحمتُه خير لهم من أعمالهم، ولا يُنجى أحدًا منهم عملُه.

وتأمل تكريرَه سبحانه توبتَه عليهم مرتين فى أول الآية وآخِرها، فإنه تاب عليهم أولًا بتوفيقهم للتوبة، فلما تابوا، تاب عليهم ثانيًا بقبولها منهم، وهو الذى وفقهم لِفعلها، وتفضَّل عليهم بقبولها، فالخير كله منه وبه، وله وفى يديه، يعطيه مَن يشاءُ إحسانًا وفضلًا، ويحرمه مَن يشاء حكمةً وعدلًا.

أيها المسلمون...

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَى الثَّلاَثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ [التوبة: ١١٨]، قد فسَّرها كعبٌ بالصواب، وهو أنهم خُلِّفُوا من بين مَن حلفَ لرسول الله ﷺ، واعتذر من المتخلفين، فخلَّف هؤلاء الثلاثة عنهم، وأرجأ أمرهم دونهم، وليس ذلك تخلُّفهم عن الغزو، لأنه لو أراد ذلك، لقال: تخلَّفوا، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ لأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُم مِّنَ الأَعْرَابِ أَن يَتَخَلَّفُواْ عَن رَّسُولِ الله﴾ [التوبة: ١٢٠]، وذلك لأنهم تخلَّفوا بأنفسهم بخلاف تخليفهم عَن أمر المتخلِّفين سواهم، فإن الله سبحانه هو

الذى خلَّفهم عنهم، ولم يتخلَّفوا عنه بأنفسهم.. والله أعلم[١].

عباد الله...

وفي الخطبة القادمة نواصل الحديث عن السِّيرة العطرة - إن شاء الله - فإلى اللقاء.

❁❁❁❁❁

(١) انتهى من «زاد المعاد» مختصرًا.

الخطبة الثامنة عشرة بعد المائة:

حجّة النّبيّ ﷺ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فما زال الحديث موصولًا عن السِّيرة العطرة.

ولقاؤنا اليوم -إن شاء الله تَعَالى - مع «حجّة النبيّ ﷺ».

عباد الله...

قال ابن إسحاق: ثم أقام رسولُ الله ﷺ منصرَفه مِن تَبُوك بقيةَ رمضانَ وشوَّالًا وذا القَعدة، ثم بعث أبا بكر أميرًا على الحج سنةَ تسع لِيقيم للمسلمين حَجَّهم، والناس من أهل الشِّرك على منازلهم من حَجِّهم، فخرج أبو بكر

والمؤمنون.

قال ابن سعد: فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة، وبعث معه رسول الله ﷺ بعشرين بدنة، قلَّدها وأشعرها بيده، عليها ناجية بن جُندب الأسلمى، وساق أبو بكر خمس بدنات.

قال ابن سعد: فلما كان بالعَرْج وابن عائذ يقول: بضَجَنان لحقه عليٌّ بن أبى طالب رضى الله عنه على العضباء، فلما رآه أبو بكر، قال: أميرٌ أو مأمورٌ؟ قال: لا بل مأمور، ثم مضيا.

وقال ابن سعد: فقال له أبو بكر: أستعملك رسولُ الله ﷺ على الحج؟ قال: لا، ولكن بعثنى أقرأ براءة على الناس، وأنبذ إلى كل ذى عَهدٍ عهده.

قال الحميدى: حدَّثنا سفيان، قال: حدَّثنى أبو إسحاق الهَمْدَانى، عن زيد بن يُثَيْع، قال: سألنا عليًا، بأى شئ بُعِثْتَ فى الحَجَّة؟ قال: بُعِثْتُ بأربع: لا يَدْخُلُ الجَنَّةَ إلا نفسٌ مُؤمِنة، ولا يَطُوفُ بالبيت عُريان، ولا يجتمِعُ مُسلم وكافر فى المسجد الحرام بعد عامِه هذا، ومَنْ كان بينَه وبَيْن النبىِّ ﷺ عهد، فعهده إلى مُدَّته، ومَن لم يكن له عهد، فأجلُه إلى أربعةِ أشهرٍ[١].

وفى «الصحيحين»: عن أبى هُريرة، قال: بعثنى أبو بكر فى تلك الحَجَّة فى مُؤذِّنِينَ بعثهم يومَ النحر يؤذِّنون بمِنَى: ألاَّ يَحُجَّ بعدَ هذا العام مُشرِك، ولا يَطُوفَ بالبيت عُريان، ثم أردف النبيُّ ﷺ أبا بَكر بعليِّ بنِ أبى طالِب رضى الله عنهما، فأمره أن يُؤذِّن ببراءة، قال: فأذَّن معنا عليٌّ فى أهل مِنَى يَوْمَ النحرِ ببراءة، وألاَّ يَحُجَّ بَعْدَ العَامِ مُشْرِكٌ، ولا يَطُوفَ بالبَيْتِ عُرْيان[٢].

قَالَ الإمام ابن القيِّم - رَحِمَهُ الله -: «وفي هَذِهِ القصة دليل عَلَى أن يوم الحجّ الأكبر يومُ النَّحر، واختلف في حجّة الصِّدِّيق هَذِهِ، هل هي التي أسقطت الفرض، أو المسقطة هي حجّة الوداع مع النبي ﷺ، عَلَى قولين: أصحهما

(١) صحيح: أخرجه الترمذي (٨٧٢)، وصححه الألباني.
(٢) أخرجه البخاري (٤٣٦٣)، ومسلم (١٣٤٧)، وغيره.

الثاني». ا.هـ[(١)].

وفي العام الثاني - يعني العام العاشر من الهجرة - كانت حجّة الوداع، وإليكم قصتها بتمامها:

روى مسلم وغيره، عن جعفر بن مُحَمَّد، عن أبيه قَالَ: دخلنَا عَلَى جَابِر بن عبد الله - وهو أعمى -... فَقُلتُ: أَخبِرنِي عَن حَجَّةِ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَ بِيَدِهِ فَعَقَدَ تِسعًا، فقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ مَكَثَ تِسعَ سِنِينَ لَم يَحُجّ، ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاسِ فِي العَاشِرَةِ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ حَاجٌّ، فَقَدِمَ المَدِينَةَ بَشَرٌ كَثِيرٌ كُلُّهُم يَلتَمِسُ أَن يَأتَمَّ بِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَيَعمَلَ مِثلَ عَمَلِهِ، فَخَرَجنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَينَا ذَا الحُلَيفَةِ فَوَلَدَت أَسمَاءُ بِنتُ عُمَيسٍ مُحَمَّدَ بنَ أَبِي بَكرٍ فَأَرسَلَت إِلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ كَيفَ أَصنَعُ؟ قَالَ: «اغتَسِلِي وَاستَثفِرِي[(٢)] بِثَوبٍ وَأَحرِمِي[(٣)]».

فَصَلَّى رَسُولُ اللهِ ﷺ فِي المَسجِدِ ثُمَّ رَكِبَ القَصوَاءَ[(٤)] حَتَّى إِذَا استَوَت بِهِ نَاقَتُهُ عَلَى البَيدَاءِ نَظَرتُ إِلَى مَدِّ بَصَرِي بَينَ يَدَيهِ مِن رَاكِبٍ وَمَاشٍ وَعَن يَمِينِهِ مِثلَ ذَلِكَ وَعَن يَسَارِهِ مِثلَ ذَلِكَ وَمِن خَلفِهِ مِثلَ ذَلِكَ وَرَسُولُ اللهِ ﷺ بَينَ أَظهُرِنَا وَعَلَيهِ يَنزِلُ القُرآنُ وَهُوَ يَعرِفُ تَأوِيلَهُ وَمَا عَمِلَ بِهِ مِن شَيءٍ عَمِلنَا بِهِ فَأَهَلَّ بِالتَّوحِيدِ لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لَبَّيكَ لَبَّيكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيكَ إِنَّ الحَمدَ وَالنِّعمَةَ لَكَ وَالمُلكَ لَا شَرِيكَ لَكَ وَأَهَلَّ النَّاسُ بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ فَلَم يَرُدَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ عَلَيهِم شَيئًا مِنهُ وَلَزِمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ تَلبِيَتَهُ.

قَالَ جَابِرٌ رَضِيَ اللهُ عَنهُ: لَسنَا نَنوِي إِلَّا الحَجَّ لَسنَا نَعرِفُ العُمرَةَ حَتَّى إِذَا أَتَينَا البَيتَ مَعَهُ استَلَمَ الرُّكنَ فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَربَعًا ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَامِ إِبرَاهِيمَ عَلَيهِ

---

(١) «زاد المعاد» (٣/ ٥٤٠).

(٢) **الاستثفار**: أن تشدّ المرأة في وسطها شيئًا، وتأخذ خرقة عريضة تجعلها عَلَى محلّ الدم، وتشدّ طرفيها من قُدّامها، ومن ورائها في ذلك المشدود في وسطها. انظر «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٣٣١).

(٣) **ذو الحليفة**: ميقات أهل المدينة، لا يجوز للحاج والمعتمر اجتيازه إلا بعد إحرامه.

(٤) **القَصواء**: ناقة النبي ﷺ وكانت لا تُسبق.

السَّلَام فَقَرَأَ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾: فَجَعَلَ المَقَامَ بَينَهُ وَبَينَ البَيتِ فَكَانَ أَبِي يَقُولُ وَلَا أَعلَمُهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَانَ يَقرَأُ فِي الرَّكعَتَينِ ﴿قُل هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ وَ﴿قُل يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ﴾[١] ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الرُّكنِ فَاستَلَمَهُ.

ثُمَّ خَرَجَ مِن البَابِ إِلَى الصَّفَا فَلَمَّا دَنَا مِن الصَّفَا قَرَأَ: ﴿إِنَّ الصَّفَا والمَروَةَ مِن شَعَائِرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٥٨]، «أَبدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ» فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقِيَ عَلَيهِ حَتَّى رَأَى البَيتَ، فَاستَقبَلَ القِبلَةَ فَوَحَّدَ اللَّهَ وَكَبَّرَهُ وَقَالَ: «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَهُ المُلكُ وَلَهُ الحَمدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحدَهُ أَنجَزَ وَعدَهُ وَنَصَرَ عَبدَهُ وَهَزَمَ الأَحزَابَ وَحدَهُ» ثُمَّ دَعَا بَينَ ذَلِكَ، قَالَ مِثلَ هَذَا ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ثُمَّ نَزَلَ إِلَى المَروَةِ حَتَّى إِذَا انصَبَّت قَدَمَاهُ فِي بَطنِ الوَادِي سَعَى، حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا مَشَى حَتَّى أَتَى المَروَةَ فَفَعَلَ عَلَى المَروَةِ كَمَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا، حَتَّى إِذَا كَانَ آخِرُ طَوَافِهِ عَلَى المَروَةِ فَقَالَ: «لَو أَنِّي استَقبَلتُ مِن أَمرِي مَا استَدبَرتُ لَم أَسُقِ الهَديَ وَجَعَلتُهَا عُمرَةً فَمَن كَانَ مِنكُم لَيسَ مَعَهُ هَديٌ فَليَحِلَّ وَليَجعَلهَا عُمرَةً».

فَقَامَ سُرَاقَةُ بنُ مَالِكِ بنِ جُعشُمٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلِعَامِنَا هَذَا أَم لِأَبَدٍ؟ فَشَبَّكَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَصَابِعَهُ وَاحِدَةً فِي الأُخرَى وَقَالَ: «دَخَلَت العُمرَةُ فِي الحَجِّ مَرَّتَينِ لَا بَل لِأَبَدِ أَبَدٍ».

وَقَدِمَ عَلِيٌّ مِن اليَمَنِ بِبُدنِ النَّبِيِّ ﷺ فَوَجَدَ فَاطِمَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا مِمَّن حَلَّ وَلَبِسَت ثِيَابًا صَبِيغًا وَاكتَحَلَت، فَأَنكَرَ ذَلِكَ عَلَيهَا، فَقَالَت: إِنَّ أَبِي أَمَرَنِي بِهَذَا، قَالَ: فَكَانَ عَلِيٌّ يَقُولُ بِالعِرَاقِ: فَذَهَبتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ مُحَرِّشًا[٢] عَلَى فَاطِمَةَ لِلَّذِي صَنَعَت مُستَفتِيًا لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِيمَا ذَكَرَت عَنهُ، فَأَخبَرتُهُ أَنِّي أَنكَرتُ ذَلِكَ عَلَيهَا فَقَالَ: «صَدَقَت صَدَقَت مَاذَا قُلتَ حِينَ فَرَضتَ الحَجَّ؟» قَالَ: قُلتُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُهِلُّ بِمَا أَهَلَّ بِهِ رَسُولُكَ» قَالَ: فَإِنَّ مَعِيَ الهَديَ فَلَا تَحِلَّ.

قَالَ: فَكَانَ جَمَاعَةُ الهَديِ الَّذِي قَدِمَ بِهِ عَلِيٌّ مِن اليَمَنِ وَالَّذِي أَتَى بِهِ النَّبِيُّ ﷺ

---

(١) يعني سورتي الإخلاص والكافرون.

(٢) مُحَرِّشًا: التحريش: الإغراء، و المراد هنا: أن يذكر له ما يقتضي عتابها.

مِائَةً، قَالَ: فَحَلَّ النَّاسُ كُلُّهُم وَقَصَّرُوا إِلَّا النَّبِيَّ ﷺ وَمَن كَانَ مَعَهُ هَديٌ، فَلَمَّا كَانَ يَومُ التَّروِيَةِ تَوَجَّهُوا إِلَى مِنًى فَأَهَلُّوا بِالحَجِّ، وَرَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَصَلَّى بِهَا الظُّهرَ وَالعَصرَ وَالمَغرِبَ وَالعِشَاءَ وَالفَجرَ، ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَتِ الشَّمسُ وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِن شَعَرٍ تُضرَبُ لَهُ بِنَمِرَةَ[1]، فَسَارَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَلَا تَشُكُّ قُرَيشٌ إِلَّا أَنَّهُ وَاقِفٌ عِندَ المَشعَرِ الحَرَامِ كَمَا كَانَت قُرَيشٌ تَصنَعُ فِي الجَاهِلِيَّةِ، فَأَجَازَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَةَ فَوَجَدَ القُبَّةَ قَد ضُرِبَت لَهُ بِنَمِرَةَ، فَنَزَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاغَتِ الشَّمسُ أَمَرَ بِالقَصوَاءِ فَرُحِلَت[2] لَهُ فَأَتَى بَطنَ الوَادِي فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ:

«**إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَموَالَكُم حَرَامٌ عَلَيكُم كَحُرمَةِ يَومِكُم هَذَا فِي شَهرِكُم هَذَا فِي بَلَدِكُم هَذَا أَلَا كُلُّ شَيءٍ مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحتَ قَدَمَيَّ مَوضُوعٌ[3] وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعَةٌ وَإِنَّ أَوَّلَ دَمٍ أَضَعُ مِن دِمَائِنَا دَمُ ابنِ رَبِيعَةَ بنِ الحَارِثِ كَانَ مُستَرضِعًا فِي بَنِي سَعدٍ فَقَتَلَتهُ هُذَيلٌ وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوضُوعٌ كُلُّهُ فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُم أَخَذتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاستَحلَلتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ وَلَكُم عَلَيهِنَّ أَن لَا يُوطِئنَ فُرُشَكُم أَحَدًا تَكرَهُونَهُ فَإِن فَعَلنَ ذَلِكَ فَاضرِبُوهُنَّ ضَربًا غَيرَ مُبَرِّحٍ[4] وَلَهُنَّ عَلَيكُم رِزقُهُنَّ وَكِسوَتُهُنَّ بِالمَعرُوفِ وَقَد تَرَكتُ فِيكُم مَا لَن تَضِلُّوا بَعدَهُ إِنِ اعتَصَمتُم بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنتُم تُسأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنتُم قَائِلُونَ؟**»

قَالُوا: نَشهَدُ أَنَّكَ قَد بَلَّغتَ وَأَدَّيتَ وَنَصَحتَ.

فَقَالَ بِإِصبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «**اللَّهُمَّ اشهَد اللَّهُمَّ اشهَد**» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ.

ثُمَّ أَذَّنَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهرَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العَصرَ وَلَم يُصَلِّ بَينَهُمَا شَيئًا ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى أَتَى المَوقِفَ فَجَعَلَ بَطنَ نَاقَتِهِ القَصوَاءِ إِلَى الصَّخَرَاتِ وَجَعَلَ حَبلَ المُشَاةِ بَينَ يَدَيهِ وَاستَقبَلَ القِبلَةَ فَلَم يَزَل وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمسُ

---

(١) نَمِرَة: موضع بجنب عرفات، وليست من عرفات.
(٢) فَرُحِلَت: بتخفيف الحاء: أي جُعل عليها الرَّحل.
(٣) المراد بالوضع: الرَّدُّ والإبطال.
(٤) المُبرح: الشديد الشاق.

وَذَهَبَت الصُّفرَةُ قَلِيلًا حَتَّى غَابَ القُرصُ وَأَردَفَ أُسَامَةَ خَلفَهُ وَدَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَقَد شَنَقَ[١] لِلقَصوَاءِ الزِّمَامَ حَتَّى إِنَّ رَأسَهَا لَيُصِيبُ مَورِكَ رَحلِهِ[٢] وَيَقُولُ بِيَدِهِ اليُمنَى: «**أَيُّهَا النَّاسُ السَّكِينَةَ السَّكِينَةَ**»، كُلَّمَا أَتَى حَبلًا مِن الحِبَالِ أَرخَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصعَدَ، حَتَّى أَتَى المُزدَلِفَةَ فَصَلَّى بِهَا المَغرِبَ وَالعِشَاءَ بِأَذَانٍ وَاحِدٍ وَإِقَامَتَينِ وَلَم يُسَبِّح بَينَهُمَا شَيئًا، ثُمَّ اضطَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَتَّى طَلَعَ الفَجرُ وَصَلَّى الفَجرَ حِينَ تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبحُ بِأَذَانٍ وَإِقَامَةٍ.

ثُمَّ رَكِبَ القَصوَاءَ حَتَّى أَتَى المَشعَرَ الحَرَامَ فَاستَقبَلَ القِبلَةَ فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ، فَلَم يَزَل وَاقِفًا حَتَّى أَسفَرَ جِدًّا، فَدَفَعَ قَبلَ أَن تَطلُعَ الشَّمسُ وَأَردَفَ الفَضلَ بنَ عَبَّاسٍ وَكَانَ رَجُلًا حَسَنَ الشَّعرِ أَبيَضَ وَسِيمًا، فَلَمَّا دَفَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَرَّت بِهِ ظُعُنٌ يَجرِينَ فَطَفِقَ الفَضلُ يَنظُرُ إِلَيهِنَّ، فَوَضَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ عَلَى وَجهِ الفَضلِ فَحَوَّلَ الفَضلُ وَجهَهُ إِلَى الشِّقِّ الآخَرِ يَنظُرُ، فَحَوَّلَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَدَهُ مِن الشِّقِّ الآخَرِ عَلَى وَجهِ الفَضلِ يَصرِفُ وَجهَهُ مِن الشِّقِّ الآخَرِ يَنظُرُ حَتَّى أَتَى بَطنَ مُحَسِّرٍ[٣]، فَحَرَّكَ قَلِيلًا ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيقَ الوُسطَى الَّتِي تَخرُجُ عَلَى الجَمرَةِ الكُبرَى، حَتَّى أَتَى الجَمرَةَ الَّتِي عِندَ الشَّجَرَةِ فَرَمَاهَا بِسَبعِ حَصَيَاتٍ يُكَبِّرُ مَعَ كُلِّ حَصَاةٍ مِنهَا مِثلِ حَصَى الخَذفِ رَمَى مِن بَطنِ الوَادِي.

ثُمَّ انصَرَفَ إِلَى المَنحَرِ فَنَحَرَ ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بِيَدِهِ ثُمَّ أَعطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ[٤] وَأَشرَكَهُ فِي هَديِهِ، ثُمَّ أَمَرَ مِن كُلِّ بَدَنَةٍ بِبَضعَةٍ فَجُعِلَت فِي قِدرٍ فَطُبِخَت، فَأَكَلَا مِن لَحمِهَا وَشَرِبَا مِن مَرَقِهَا، ثُمَّ رَكِبَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَفَاضَ إِلَى البَيتِ فَصَلَّى بِمَكَّةَ الظُّهرَ فَأَتَى بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ يَسقُونَ عَلَى زَمزَمَ فَقَالَ: «**انزِعُوا[٥] بَنِي عَبدِ المُطَّلِبِ فَلَولَا أَن يَغلِبَكُم النَّاسُ عَلَى سِقَايَتِكُم لَنَزَعتُ مَعَكُم**»، فَنَاوَلُوهُ دَلوًا فَشَرِبَ مِنهُ.

---

(١) **شنق**: ضَمّ وضَيَّق.
(٢) **مورك الرَّحل**: الموضع الذي يثني الرَّاكب رجله عليه قُدَّام واسطة الرَّحل إذا مَلَّ من الرّكوب.
(٣) سُمي بذلك؛ لأن فيل أصحاب الفيل حسر فيه أي: أعيي وَكَلّ.
(٤) **ما غبر**: ما بقي.
(٥) **انزعوا** - بكسر الزاي - أي: ا ستقوا بالدّلاء، وانزعوها بالرّشاء.

وفي رواية: قَالَ: «نَحَرْتُ هَاهُنَا وَمِنًى كُلُّهَا مَنْحَرٌ فَانْحَرُوا فِي رِحَالِكُمْ وَوَقَفْتُ هَاهُنَا وَعَرَفَةُ كُلُّهَا مَوْقِفٌ وَوَقَفْتُ هَاهُنَا وَجَمْعٌ كُلُّهَا مَوْقِفٌ...»[1].

عباد الله...

هَذِهِ قصة حجّة النبي ﷺ وهي الحجّة الوحيدة التي أدّاها طَوَال حياته.

وقَدْ تناول الإمام النووي - رَحِمَهُ الله - هذا الحديث بالشّرح والبيان، فقال ما مختصره:

حَدِيث جَابِر رَضِيَ اللَّه عَنهُ حَدِيث عَظِيم مُشتَمِل عَلَى جُمَل مِن الفَوَائِد، وَنَفَائِس مِن مُهِمَّات القَوَاعِد.

قَالَ القَاضِي: وَقَد تَكَلَّمَ النَّاس عَلَى مَا فِيهِ مِن الفِقه، وَأَكثَرُوا، وَصَنَّفَ فِيهِ أَبُو بَكر بن المُنذِر جُزءًا كَبِيرًا، وَخَرَّجَ فِيهِ مِن الفِقه مِائَة وَنَيِّفًا وَخَمسِينَ نَوعًا، وَلَو تُقُصِّيَ لَزِيدَ عَلَى هَذَا القَدر قَرِيب مِنهُ، وَسَنَذكُرُ مَا يَحتَاج إِلَى التَّنبِيه عَلَيهِ عَلَى تَرتِيبه إِن شَاءَ اللَّه تَعَالَى.

قَوله: (أَخبِرنِي عَن حَجَّة رَسُول اللَّه ﷺ) المُرَاد: حَجَّة الوَدَاع

قَوله: (إِنَّ رَسُول اللَّه ﷺ مَكَثَ تِسع سِنِينَ لَم يَحُجّ) يَعنِي: مَكَثَ بِالمَدِينَةِ بَعد الهِجرَة.

قَوله: (ثُمَّ أَذَّنَ فِي النَّاس فِي العَاشِرَة أَنَّ رَسُول اللَّه ﷺ حَاجّ) مَعنَاهُ: أَعلَمَهُم بِذَلِكَ وَأَشَاعَهُ بَينهم لِيَتَأَهَّبُوا لِلحَجِّ مَعَهُ، وَيَتَعَلَّمُوا المَنَاسِك وَالأَحكَام، وَيَشهَدُوا أَقوَاله وَأَفعَاله، وَيُوصِيهِم لِيُبَلِّغ الشَّاهِد الغَائِب وَتَشِيع دَعوَة الإِسلَام، وَتَبلُغ الرِّسَالَة القَرِيبَ وَالبَعِيدَ.

قَوله: (كُلّهم يَلتَمِس أَن يَأتَمّ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ) قَالَ القَاضِي: هَذَا مَا يَدُلّ عَلَى أَنَّهُم كُلّهم أَحرَمُوا بِالحَجِّ لِأَنَّهُ ﷺ أَحرَمَ بِالحَجِّ وَهُم لَا يُخَالِفُونَهُ.

قَوله ﷺ لِأَسمَاءَ بِنت عُمَيس وَقَد وَلَدَت: «**اِغتَسِلِي وَاستَثفِرِي بِثَوبٍ وَأَحرِمِي**»

---

(١) رواه مسلم (١٢١٨).

فِيهِ اِستِحبَاب غُسل الإِحرَام لِلنُّفَسَاءِ، وَفِيهِ صِحَّة إِحرَام النُّفَسَاء وَهُوَ مُجمَع عَلَيهِ. وَاَللَّه أَعلَم.

قَوله: (فَصَلَّى رَكعَتَينِ) فِيهِ اِستِحبَاب رَكعَتَي الإِحرَام.

قَوله: (ثُمَّ رَكِبَ القَصوَاء) يعني: ناقته ﷺ، قَالَ أبو عبيد: القصواء المقطوعة الأُذُن عَرضًا.

قَوله: (نَظَرت إِلَى مَدّ بَصَرِي) مَعنَاهُ: مُنتَهَى بَصَرِي.

قَوله: (بَين يَدَيهِ مِن رَاكِب وَمَاشٍ) فِيهِ جَوَاز الحَجّ رَاكِبًا وَمَاشِيًا وَهُوَ مُجمَع عَلَيهِ، قَالَ مَالِك وَالشَّافِعِيّ وَجُمهُور العُلَمَاء: الرُّكُوب أَفضَل اِقتِدَاء بِالنَّبِيِّ ﷺ، وَلِأَنَّهُ أَعوَن لَهُ عَلَى وَظَائِف مَنَاسِكه، وَلِأَنَّهُ أَكثَر نَفَقَة.

قَوله: (وَعَلَيهِ يَنزِل القُرآن وَهُوَ يَعرِف تَأوِيله) مَعنَاهُ: الحَثّ عَلَى التَّمَسُّك بِمَا أُخبِركُم عَن فِعله فِي حَجَّته تِلكَ.

قَوله: (فَأَهَلَّ بِالتَّوحِيدِ) يَعنِي قَوله (لَبَّيكَ لَا شَرِيك لَك)

قَوله: (فَأَهَلَّ بِالتَّوحِيدِ لَبَّيكَ اللَّهُمَّ لَبَّيكَ لَا شَرِيك لَك لَبَّيكَ إِنَّ الحَمد وَالنِّعمَة لَك وَالمُلك لَا شَرِيك لَك، وَأَهَلَّ النَّاس بِهَذَا الَّذِي يُهِلُّونَ بِهِ فَلَم يَرُدّ رَسُول اللَّه ﷺ شَيئًا مِنهُ، وَلَزِمَ رَسُول اللَّه ﷺ تَلبِيَته).

قَالَ القَاضِي عِيَاض - رَحِمَهُ اللَّه -: فِيهِ إِشَارَة إِلَى مَا رُوِيَ مِن زِيَادَة النَّاس فِي التَّلبِيَة مِن الثَّنَاء وَالذِّكر كَمَا رُوِيَ عَن أَنَس رَضِيَ اللَّه عَنهُ أَنَّهُ كان يزيد: (لَبَّيكَ حَقًّا تَعَبُّدًا وَرِقًّا). وقَالَ أَكثَر العُلَمَاء: المُستَحَبّ الاِقتِصَار عَلَى تَلبِيَة رَسُول اللَّه ﷺ.

قَوله: (قَالَ جَابِر لَسنَا نَنوِي إِلَّا الحَجّ لَسنَا نَعرِف العُمرَة) فِيهِ دَلِيل لِمَن قَالَ بِتَرجِيح الإِفرَاد. قَوله: (حَتَّى أَتَينَا البَيت) فِيهِ بَيَان أَنَّ السُّنَّة لِلحَاجّ أَن يَدخُلُوا مَكَّة قَبل الوُقُوف بِعَرَفَاتٍ لِيَطُوفُوا لِلقُدُوم وَغَير ذَلِكَ.

قَوله: (حَتَّى إِذَا أَتَينَا البَيت مَعَهُ اِستَلَمَ الرُّكن[١] فَرَمَلَ ثَلَاثًا وَمَشَى أَربَعًا) فِيهِ

---

(١) الرّكن هنا: الحجر الأسود.

أَنَّ المُحرِم إِذَا دَخَلَ مَكَّة قَبل الوُقُوف بِعَرَفَاتٍ يُسَنّ لَهُ طَوَاف القُدُوم، وَهُوَ مُجمَع عَلَيهِ، وَفِيهِ أَنَّ الطَّوَاف سَبع طَوَافَات، وَفِيهِ أَنَّ السُّنَّة أَيضًا الرَّمَل فِي الثَّلَاث الأُوَل[١]، وَيَمشِي عَلَى عَادَته فِي الأَربَع الأَخِيرَة. قَالَ العُلَمَاء: الرَّمَل هُوَ أَسرَع المَشي مَعَ تَقَارُب الخُطَى، وَهُوَ الخَبَب، قَالَ أَصحَابنَا: وَلَا يُستَحَبّ الرَّمَل إِلَّا فِي طَوَاف وَاحِد فِي حَجّ أَو عُمرَة.

قَالَ أَصحَابنَا: وَالِاضطِبَاع سُنَّة فِي الطَّوَاف، وَهُوَ أَن يَجعَل وَسَط رِدَائِهِ تَحت عَاتِقه الأَيمَن، وَيَجعَل طَرَفَيهِ عَلَى عَاتِقه الأَيسَر، وَيَكُون مَنكِبه الأَيمَن مَكشُوفًا. قَالُوا: وَإِنَّمَا يُسَنّ الِاضطِبَاع فِي طَوَاف يُسَنّ فِيهِ الرَّمَل.

وَأَمَّا قوله: (اِستَلَمَ الرُّكن) فَمَعنَاهُ: مَسَحَهُ بِيَدِهِ، وَهُوَ سُنَّة فِي كُلّ طَوَاف.

قوله: (ثُمَّ نَفَذَ إِلَى مَقَام إِبرَاهِيم عَلَيهِ السَّلَام فَقَرَأَ ﴿**وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبرَاهِيمَ مُصَلًّى**﴾ فَجَعَلَ المَقَام بَينه وَبَين البَيت).

هَذَا دَلِيل لِمَا أَجمَعَ عَلَيهِ العُلَمَاء أَنَّهُ يَنبَغِي لِكُلِّ طَائِف إِذَا فَرَغَ مِن طَوَافه أَن يُصَلِّي خَلف المَقَام رَكعَتَي الطَّوَاف، وَاختَلَفُوا هَل هُمَا وَاجِبَتَانِ أَم سُنَّة؟ وَعِندنَا فِيهِ خِلَاف حَاصِله ثَلَاثَة أَقوَال أَصَحّهَا أَنَّهُمَا سُنَّة، وَالسُّنَّة أَن يُصَلِّيهِمَا خَلف المَقَام، فَإِن لَم يَفعَل فَفِي الحِجر[٢]، وَإِلَّا فَفِي المَسجِد وَإِلَّا فَفِي مَكَّة وَسَائِر الحَرَم.

قوله: (فَكَانَ أَبِي يَقُول: وَلَا أَعلَمهُ ذَكَرَهُ إِلَّا عَن النَّبِيّ ﷺ كَانَ يَقرَأ فِي الرَّكعَتَينِ ﴿**قُل هُوَ اللَّه أَحَد**﴾ وَ ﴿**قُل يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ**﴾).

مَعنَى هَذَا الكَلَام: أَنَّ جَعفَر بن مُحَمَّد رَوَى هَذَا الحَدِيث عَن أَبِيهِ عَن جَابِر، ومَعنَاهُ: قَرَأَ فِي الرَّكعَة الأُولَى بَعد الفَاتِحَة ﴿**قُل يَا أَيُّهَا الكَافِرُونَ**﴾ وَفِي الثَّانِيَة بَعد الفَاتِحَة ﴿**قُل هُوَ اللَّه أَحَد**﴾.

قوله: (ثُمَّ رَجَعَ إِلَى الرُّكن فَاستَلَمَهُ ثُمَّ خَرَجَ مِن البَاب إِلَى الصَّفَا)، فِيهِ دَلَالَة أَنَّهُ يُستَحَبّ لِلطَّائِفِ طَوَاف القُدُوم إِذَا فَرَغَ مِن الطَّوَاف وَصَلَاته خَلف المَقَام أَن

---

(١) هذا خاص بالرجال دون النساء.

(٢) يعني حجر إسماعيل.

يَعُود إِلَى الحَجَر الأَسوَد فَيستَلِمهُ، ثُمَّ يَخرُج بَاب الصَّفَا لِيَسعَى. وهَذَا الِاستِلَام سُنَّة لَو تَرَكَهُ لَم يَلزَمهُ دَم.

قَوله: (ثُمَّ خَرَجَ مِن البَاب إِلَى الصَّفَا فَلَمَّا دَنَا مِن الصَّفَا قَرَأَ ﴿**إِنَّ الصَّفَا وَالمَروَة مِن شَعَائِر اللَّه**﴾ أَبدَأ بِمَا بَدَأَ اللَّه بِهِ فَبَدَأَ بِالصَّفَا فَرَقَى عَلَيهِ حَتَّى رَأَى البَيت فَاستَقبَلَ القِبلَة فَوَحَّدَ اللَّه وَكَبَّرَ وَقَالَ: «**لَا إِلَه إِلَّا اللَّه وَحده لَا شَرِيك لَهُ لَهُ المُلك وَلَهُ الحَمد وَهُوَ عَلَى كُلّ شَيء قَدِير لَا إِلَه إِلَّا اللَّه وَحده أَنجَزَ وَعده وَنَصَرَ عَبده وَهَزَمَ الأَحزَاب وَحده**» ثُمَّ دَعَا بَين ذَلِكَ قَالَ مِثل هَذَا ثَلَاث مَرَّات ثُمَّ نَزَلَ إِلَى المَروَة).

فِي هَذَا اللَّفظ أَنوَاع مِن المَنَاسِك:

مِنهَا: أَنَّ السَّعي يُشتَرَط فِيهِ أَن يُبدَأ مِن الصَّفَا.

وَمِنهَا: أَنَّهُ يَنبَغِي أَن يَرقَى عَلَى الصَّفَا وَالمروَة، وَفِي هَذَا الرُّقِيّ خِلَاف، قَالَ جُمهُور أَصحَابنَا: هُوَ سُنَّة لَيسَ بِشَرطٍ وَلَا وَاجِب، فَلَو تَرَكَهُ صَحَّ سَعيه لَكِن فَاتَتهُ الفَضِيلَة. وقالوا: لَكِن يُشتَرَط أَلَّا يَترُك شَيئًا مِن المَسَافَة بَين الصَّفَا وَالمَروَة فَليُلصِق عَقِبَيهِ بِدَرَج الصَّفَا، إِذَا وَصَلَ المَروَة أَلصَقَ أَصَابع رِجلَيهِ بِدَرَجِهَا، وَهَكَذَا فِي المَرَّات السَّبع.

وَمِنهَا أَنَّهُ يُسَنّ أَن يَقِف عَلَى الصَّفَا مُستَقبِل الكَعبَة وَيَذكُر اللَّه تَعَالَى بِهَذَا الذِّكر المَذكُور.

قَوله: (ثُمَّ نَزَلَ إِلَى المَروَة حَتَّى اِنصَبَّت قَدَمَاهُ فِي بَطن الوَادِي حَتَّى إِذَا صَعِدَتَا مَشَى حَتَّى أَتَى المَروَة). فيه اِستِحبَاب السَّعي الشَّدِيد فِي بَطن الوَادِي حَتَّى يَصعَد[1]، ثُمَّ يَمشِي بَاقِي المَسَافَة إِلَى المَروَة عَلَى عَادَة مَشيه، وَهَذَا السَّعي مُستَحَبّ فِي كُلّ مَرَّة مِن المَرَّات السَّبع فِي هَذَا المَوضِع.

قَوله: (فَفَعَلَ عَلَى المَروَة مَا فَعَلَ عَلَى الصَّفَا) فِيهِ: أَنَّهُ يُسَنّ عَلَيهَا مِن الذِّكر وَالدُّعَاء وَالرُّقِيّ مِثل مَا يُسَنّ عَلَى الصَّفَا.

قَوله: (حَتَّى إِذَا كَانَ آخِر طَوَاف عَلَى المَروَة) فِيهِ دَلَالَة عَلَى أَنَّ الذَّهَاب مِن

---

(١) هو اليوم ما بين الميلين الأخضرين.

الصَّفَا إِلَى المَروَة يُحسَب مَرَّة وَالرُّجُوع إِلَى الصَّفَا ثَانِيَة وَالرُّجُوع إِلَى المَروَة ثَالِثَة وَهَكَذَا.

قوله: (فَوَجَدَ فَاطِمَة مِمَّن حَلَّ وَلَبِسَت ثِيَابًا صَبِيغًا وَاكتَحَلَت فَأَنكَرَ ذَلِكَ عَلَيهَا) فِيهِ إِنكَار الرَّجُل عَلَى زَوجَته مَا رَآهُ مِنهَا مِن نَقص فِي دِينهَا لِأَنَّهُ ظَنَّ أَنَّ ذَلِكَ لَا يَجُوز فَأَنكَرَهُ.

قوله: (فَذَهَبت إِلَى رَسُول الله ﷺ مُحَرِّشًا عَلَى فَاطِمَة) التَّحرِيش: الإِغرَاء وَالمُرَاد هُنَا: أَن يَذكُر لَهُ مَا يَقتَضِي عِتَابهَا.

قوله: (فَحَلَّ النَّاس كُلّهم وَقَصَّرُوا إِلَّا النَّبِيّ ﷺ وَمَن كَانَ مَعَهُ هَدي[1]) وَالمُرَاد بِقَولِهِ: (حَلَّ النَّاس كُلّهم) أَي مُعظَمهم.

وَأَمَّا قَوله: (وَقَصَّرُوا) فَإِن قَصَّرُوا وَلَم يَحلِقُوا مَعَ أَنَّ الحَلق أَفضَل لِأَنَّهُم أَرَادُوا أَن يَبقَى شَعر يُحلَق فِي الحَجّ، فَلَو حَلَقُوا لَم يَبقَ شَعر فَكَانَ التَّقصِير هُنَا أَحسَن لِيَحصُل فِي النُّسُكَينِ إِزَالَة شَعر. وَاللَّه أَعلَم.

قوله: (فَلَمَّا كَانَ يَوم التَّروِيَة تَوَجَّهُوا إِلَى مِنًى فَأَهَلُّوا بِالحَجِّ) يَوم التَّروِيَة: هُوَ الثَّامِن مِن ذِي الحِجَّة، وَفِي هَذَا بَيَان أَنَّ السُّنَّة أَلَّا يَتَقَدَّم أَحَد إِلَى مِنًى قَبل يَوم التَّروِيَة.

قوله: (وَرَكِبَ النَّبِيّ ﷺ فَصَلَّى بِهَا الظُّهر وَالعَصر وَالمَغرِب وَالعِشَاء وَالفَجر) فِيهِ بَيَان سُنَن:

إِحدَاهَا: أَنَّ الرُّكُوب فِي تِلكَ المَوَاطِن أَفضَل مِن المَشي.

وَالسُّنَّة الثَّانِيَة: أَن يُصَلِّي بِمِنًى هَذِهِ الصَّلَوَات الخَمس.

وَالثَّالِثَة: أَن يَبِيت بِمِنًى هَذِهِ اللَّيلَة وَهِيَ لَيلَة التَّاسِع مِن ذِي الحِجَّة، وَهَذَا المَبِيت سُنَّة لَيسَ بِرُكنٍ وَلَا وَاجِب، فَلَو تَرَكَهُ فَلَا دَم عَلَيهِ بِالإِجمَاع.

قوله: (ثُمَّ مَكَثَ قَلِيلًا حَتَّى طَلَعَت الشَّمس) فِيهِ: أَنَّ السُّنَّة أَلَّا يَخرُجُوا مِن

---

(١) كان ﷺ أولًا مفردًا، ثم صار قارنًا، ومن ساق الهدي شُرع له القران بين الحج والعمرة، ويبقى عَلَى إحرامه حتى يحلّ منهما جميعًا يوم النحر.

مِنًى حَتَّى تَطلُع الشَّمس.

قَوله: (وَأَمَرَ بِقُبَّةٍ مِن شَعر تُضرَب لَهُ بِنَمِرَة) فِيهِ اِستِحبَاب النُّزُول بِنَمِرَة إِذَا ذَهَبُوا مِن مِنًى، لِأَنَّ السُّنَّة أَلَّا يَدخُلُوا عَرَفَات إِلَّا بَعد زَوَال الشَّمس وَبَعد صَلَاتَي الظُّهر وَالعَصر جَمعًا، فَالسُّنَّة أَن يَنزِلُوا بِنَمِرَة، فَمَن كَانَ لَهُ قُبَّة ضَرَبَهَا، وَيَغتَسِلُونَ لِلوُقُوفِ قَبلَ الزَّوَال، فَإِذَا زَالَت الشَّمس سَارَ بِهِم الإِمَام إِلَى مَسجِد إِبرَاهِيم عَلَيهِ السَّلَام، وَخَطَبَ بِهِم خُطبَتَينِ خَفِيفَتَينِ، وَيُخَفِّف الثَّانِيَة جِدًّا، فَإِذَا فَرَغَ مِنهَا صَلَّى بِهِم الظُّهر وَالعَصر جَامِعًا بَينهمَا، فَإِذَا فَرَغَ مِن الصَّلَاة سَارَ إِلَى المَوقِف.

وَفِي هَذَا الحَدِيث جَوَاز الِاستِظلَال لِلمُحرِمِ بِقُبَّةٍ وَغَيرهَا[1].

و(نَمِرَة) هِيَ مَوضِع بِجَانِبِ عَرَفَات، وَلَيسَت مِن عَرَفَات.

قَوله: (وَلَا تَشُكّ قُرَيش إِلَّا أَنَّهُ وَاقِف عِند المَشعَر الحَرَام كَمَا كَانَت قُرَيش تَصنَع فِي الجَاهِلِيَّة).

مَعنَى هَذَا: أَنَّ قُرَيشًا كَانَت فِي الجَاهِلِيَّة تَقِف بِالمَشعَرِ الحَرَام، وَهُوَ جَبَل فِي المُزدَلِفَة، وَقِيلَ: إِنَّ المَشعَر الحَرَام كُلّ المُزدَلِفَة، وَكَانَ سَائِر العَرَب يَتَجَاوَزُونَ المُزدَلِفَة وَيَقِفُونَ بِعَرَفَاتٍ، فَظَنَّت قُرَيش أَنَّ النَّبِيّ ﷺ يَقِف فِي المَشعَر الحَرَام عَلَى عَادَتهم وَلَا يَتَجَاوَزهُ فَتَجَاوَزَهُ النَّبِيّ ﷺ إِلَى عَرَفَات لِأَنَّ الله تَعَالَى أَمَرَ بِذَلِكَ فِي قَوله تَعَالَى: ﴿ثُمَّ أَفِيضُوا مِن حَيثُ أَفَاضَ النَّاس﴾ أَي: سَائِر العَرَب غَير قُرَيش، وَإِنَّمَا كَانَت قُرَيش تَقِف بِالمُزدَلِفَةِ لِأَنَّهَا مِن الحَرَم، وَكَانُوا يَقُولُونَ: نَحنُ أَهل حَرَم الله فَلَا نَخرُج مِنهُ.

قَوله: (فَأَجَازَ رَسُول الله ﷺ حَتَّى أَتَى عَرَفَة فَوَجَدَ القُبَّة قَد ضُرِبَت لَهُ بِنَمِرَة فَنَزَلَ بِهَا حَتَّى إِذَا زَاغَت الشَّمس).

أَمَّا (أَجَازَ) فَمَعنَاهُ جَاوَزَ المُزدَلِفَة وَلَم يَقِف بِهَا بَل تَوَجَّهَ إِلَى عَرَفَات.

وَأَمَّا قَوله: (حَتَّى أَتَى عَرَفَة) فَمَجَاز وَالمُرَاد: قَارَبَ عَرَفَات لِأَنَّهُ فَسَّرَهُ بِقَولِهِ: (وَجَدَ القُبَّة قَد ضُرِبَت بِنَمِرَة فَنَزَلَ بِهَا)، وَقَد سَبَقَ أَنَّ نَمِرَة لَيسَت مِن عَرَفَات.

---

(١) أما تغطية رأس الرجل بملاصق فمن محظورات الإحرام.

قَوله: (حَتَّى إِذَا زَاغَت الشَّمس أَمَرَ بِالقَصوَاءِ فَرُحِلَت لَهُ فَأَتَى بَطن الوَادِي فَخَطَبَ النَّاس).

قَوله: (فَرُحِلَت) أَي: جُعِلَ عَلَيهَا الرَّحل. وَقَوله: (بَطن الوَادِي) هُوَ وَادِي (عُرَنَة) وَلَيسَت عُرَنَة مِن أَرض عَرَفَات، وَقَوله: (فَخَطَبَ النَّاس) فِيهِ اِستِحبَاب الخُطبَة لِلإِمَام بِالحَجِيج يَوم عَرَفَة فِي هَذَا المَوضِع، وَهُوَ سُنَّة بِاتِّفَاقِ جَمَاهِير العُلَمَاء.

قَوله ﷺ: «**إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَموَالكُم حَرَام عَلَيكُم كَحُرمَةِ يَومكُم هَذَا فِي شَهركُم هَذَا...**» إلخ.

قَوله: (فَقَالَ بِإِصبَعِهِ السَّبَّابَة يَرفَعهَا إِلَى السَّمَاء وَيَنكُتهَا إِلَى النَّاس «**اللَّهُمَّ اِشهَد**»).

قَوله: (ثُمَّ أَذَّنَ ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى الظُّهر ثُمَّ أَقَامَ فَصَلَّى العَصر وَلَم يُصَلِّ بَينهمَا شَيئًا) فِيهِ أَنَّهُ يُشرَع الجَمع بَين الظُّهر وَالعَصر هُنَاكَ فِي ذَلِكَ اليَوم، وَقَد أَجمَعَت الأُمَّة عَلَيهِ.

وَفِيهِ: أَنَّ الجَامِع بَين الصَّلَاتَينِ يُصَلِّي الأُولَى أَوَّلًا، وَأَنَّهُ يُؤَذِّن لِلأُولَى، وَأَنَّهُ يُقِيم لِكُلِّ وَاحِدَة مِنهُمَا، وَأَنَّهُ لَا يُفَرِّق بَينهمَا.

قَوله: (ثُمَّ رَكِبَ رَسُول اللَّه ﷺ حَتَّى أَتَى المَوقِف فَجَعَلَ بَطن نَاقَته القَصوَاء إِلَى الصَّخَرَات، وَجَعَلَ حَبل المُشَاة بَين يَدَيهِ، وَاستَقبَلَ القِبلَة فَلَم يَزَل وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَت الشَّمس، وَذَهَبَت الصُّفرَة قَلِيلًا حَتَّى غَابَ القُرص).

فيه: أَنَّهُ يُستَحَبّ أَن يَقِف عِند الصَّخَرَات المَذكُورَات، وَهِيَ صَخَرَات مُفتَرِشَات فِي أَسفَل جَبَل الرَّحمَة، وَهُوَ الجَبَل الَّذِي بِوَسَطِ أَرض عَرَفَات، فَهَذَا هُوَ المَوقِف المُستَحَبّ، وَأَمَّا مَا اُشتُهِرَ بَين العَوَامّ مِن الِاعتِنَاء بِصُعُودِ الجَبَل وَتَوَهُّمهم أَنَّهُ لَا يَصِحّ الوُقُوف إِلَّا فِيهِ فَغَلَط[1].

وفيه: اِستِحبَاب اِستِقبَال الكَعبَة فِي الوُقُوف.

وفيه: أَنَّهُ يَنبَغِي أَن يَبقَى فِي الوُقُوف حَتَّى تَغرُب الشَّمس وَيَتَحَقَّق كَمَال

(١) وصعوده ليس بالسنة.

غُرُوبهَا، ثُمَّ يُفِيض إِلَى مُزدَلِفَة، فَلَو أَفَاضَ قَبل غُرُوب الشَّمس صَحَّ وُقُوفه وَحَجّه، وَيُجبَر ذَلِكَ بِدَم.

وَهَل الدَّم وَاجِب أَم مُستَحَبّ؟ فِيهِ قَولَانِ لِلشَّافِعِيِّ أَصَحّهمَا أَنَّهُ سُنَّة، وَالثَّانِي وَاجِب.

وَأَمَّا قَوله: (وَجَعَلَ حَبل المُشَاة بَين يَدَيهِ) أَي مُجتَمَعهم.

وَأَمَّا قَوله: (فَلَم يَزَل وَاقِفًا حَتَّى غَرَبَت الشَّمس وَذَهَبَت الصُّفرَة قَلِيلًا حَتَّى غَابَ القُرص [يعني قرص الشمس]).

قَوله: (وَأَردَفَ أُسَامَة[1] خلفه) فِيهِ جَوَاز الإِردَاف إِذَا كَانَت الدَّابَّة مُطِيقَة.

قَوله: (وَقَد شَنَقَ لِلقَصوَاءِ الزِّمَام حَتَّى أَنَّ رَأسهَا لَيُصِيب مَورك رَحله).

مَعنَى (شَنَقَ) ضَمّ وَضَيَّقَ، وَ (مَورك الرَّحل) هُوَ المَوضِع الَّذِي يُثنِي الرَّاكِب رِجله عَلَيهِ قُدَّام وَاسِطَة الرَّحل إِذَا مَلَّ مِن الرُّكُوب.

وَفِي هَذَا اِستِحبَاب الرِّفق فِي السَّير مِن الرَّاكِب بِالمُشَاةِ، وَبِأَصحَابِ الدَّوَابّ الضَّعِيفَة.

قَوله: (يَقُول بِيَدِهِ السَّكِينَة السَّكِينَة) أَي: اِلزَمُوا السَّكِينَة، وَهِيَ الرِّفق وَالطُّمَأنِينَة. فَفِيهِ أَنَّ السَّكِينَة فِي الدَّفع مِن عَرَفَات سُنَّة، فَإِذَا وَجَدَ فُرجَة يُسرِع.

قَوله: (كُلَّمَا أَتَى حَبلًا مِن الحِبَال أَرخَى لَهَا قَلِيلًا حَتَّى تَصعَد حَتَّى أَتَى المُزدَلِفَة).

(الحِبَال) هُنَا جَمع حَبل، وَهُوَ التَّلّ اللَّطِيف مِن الرَّمل الضَّخم.

وَأَمَّا المُزدَلِفَة فَمَعرُوفَة سُمِّيَت بِذَلِكَ مِن التَّزَلُّف وَالِازدِلَاف، وَهُوَ التَّقَرُّب، لِأَنَّ الحُجَّاج إِذَا أَفَاضُوا مِن عَرَفَات اِزدَلَفُوا إِلَيهَا أَي مَضَوا إِلَيهَا وَتَقَرَّبُوا مِنهَا، وقيل: سُمِّيَت بِذَلِكَ لِاجتِمَاعِ النَّاس فِيهَا،

قَوله: (حَتَّى أَتَى المُزدَلِفَة فَصَلَّى بِهَا المَغرِب وَالعِشَاء بِأَذَانٍ وَاحِد وَإِقَامَتَينِ وَلَم

---

(١) هو أسامة بن زيد رضي الله عنه.

يُسَبِّح بَينهما شَيئًا).

فِيهِ فَوَائِد:

مِنهَا: أَنَّ السُّنَّة لِلدَّافِعِ مِن عَرَفَات أَن يُؤَخِّر المَغرِب إِلَى وَقت العِشَاء، وَيَكُون هَذَا التَّأخِير بِنِيَّةِ الجَمع، ثُمَّ يَجمَع بَينهمَا فِي المُزدَلِفَة فِي وَقت العِشَاء.

قَالَ أَصحَابنَا: وَلَو جَمَعَ بَينهمَا فِي وَقت المَغرِب فِي أَرض عَرَفَات، أَو فِي الطَّرِيق، أَو فِي مَوضِع آخَر، وَصَلَّى كُلّ وَاحِدَة فِي وَقتهَا جَازَ جَمِيع ذَلِكَ، لَكِنَّهُ خِلَاف الأَفضَل.

وَمِنهَا: أَن يُصَلِّي الصَّلَاتَينِ فِي وَقت الثَّانِيَة بِأَذَانٍ لِلأُولَى، وَإِقَامَتَينِ لِكُلِّ وَاحِدَة إِقَامَة.

وَأَمَّا قَوله: (لَم يُسَبِّح بَينهمَا) فَمَعنَاهُ لَم يُصَلِّ بَينهمَا نَافِلَة، وَالنَّافِلَة تُسَمَّى سُبحَة لِاشتِمَالِهَا عَلَى التَّسبِيح.

قَوله: (ثُمَّ اِضطَجَعَ رَسُول اللَّه ﷺ حَتَّى طَلَعَ الفَجر فَصَلَّى الفَجر حِين تَبَيَّنَ لَهُ الصُّبح بِأَذَانٍ وَإِقَامَة)

فِيه مَسَائِل:

إِحدَاهَا: أَنَّ المَبِيت بِمُزدَلِفَة لَيلَة النَّحر بَعد الدَّفع مِن عَرَفَات نُسُك، وَهَذَا مُجمَع عَلَيهِ، لَكِن اِختَلَفَ العُلَمَاء هَل هُوَ وَاجِب أَم رُكن أَم سُنَّة؟ وَالصَّحِيح مِن قَولَي الشَّافِعِيّ أَنَّهُ وَاجِب لَو تَرَكَهُ أَثِمَ وَصَحَّ حَجّه وَلَزِمَهُ دَم. وَالثَّانِي: أَنَّهُ سُنَّة لَا إِثم فِي تَركه وَلَا يَجِب فِيهِ دَم، وَلَكِن يُستَحَبّ.

وَقَالَ جَمَاعَة مِن أَصحَابنَا: هُوَ رُكن لَا يَصِحّ الحَجّ إِلَّا بِهِ كَالوُقُوفِ بِعَرَفَاتٍ.

وَالسُّنَّة أَن يَبقَى بِالمُزدَلِفَةِ حَتَّى يُصَلِّي بِهَا الصُّبح إِلَّا الضَّعَفَة، فَالسُّنَّة لَهُم الدَّفع قَبل الفَجر كَمَا سَيَأتِي فِي مَوضِعه إِن شَاءَ اللَّه تَعَالَى.

وَفِي أَقَلّ المُجزِي مِن هَذَا المَبِيت ثَلَاثه أَقوَال عِندنَا:

الصَّحِيح: سَاعَة فِي النِّصف الثَّانِي مِن اللَّيل.

وَالثَّانِي: سَاعَة فِي النِّصف الثَّانِي أَو بَعد الفَجر قَبل طُلُوع الشَّمس.

وَالثَّالِث: مُعظَم اللَّيل، وَاَللَّه أَعلَم.

المَسأَلَة الثَّانِيَة: السُّنَّة أَن يُبَالِغ بِتَقدِيم صَلَاة الصُّبح فِي هَذَا المَوضِع وَيَتَأَكَّد التَّبكِير بِهَا فِي هَذَا اليَوم أَكثَر مِن تَأَكُّده فِي سَائِر السَّنَة لِلاقتِدَاءِ بِرَسُولِ اللَّه ﷺ (١).

المسألة الثَّالِثَة: يُسَنّ الأَذَان وَالإِقَامَة لِهَذِهِ الصَّلَاة وَكَذَلِكَ غَيرهَا مِن صَلَوَات المُسَافِر.

قَوله: (ثُمَّ رَكِبَ القَصوَاء حَتَّى أَتَى المَشعَر الحَرَام فَاستَقبَلَ القِبلَة فَدَعَاهُ وَكَبَّرَهُ وَهَلَّلَهُ وَوَحَّدَهُ فَلَم يَزَل وَاقِفًا حَتَّى أَسفَرَ جِدًّا وَدَفَعَ قَبل أَن تَطلُع الشَّمس).

وَأَمَّا (المَشعَر الحَرَام) فالمُرَاد بِهِ هُنَا (قُزَح) وَهُوَ جَبَل مَعرُوف فِي المُزدَلِفَة.

وَأَمَّا قَوله: (فَاستَقبَلَ القِبلَة) يَعنِي: الكَعبَة، (فَدَعَاهُ...) إِلَى آخِره.

فِيهِ: أَنَّ الوُقُوف عَلَى قُزَح مِن مَنَاسِك الحَجّ، وَهَذَا لَا خِلَاف فِيهِ.

وَقَوله: (أَسفَرَ جِدًّا) الضَّمِير فِي (أَسفَرَ) يَعُود إِلَى الفَجر المَذكُور أَوَّلًا.

قَوله: (جِدًّا) أَي: إِسفَارًا بَلِيغًا.

قَوله فِي صِفَة الفَضل بن عَبَّاس: (أَبيَض وَسِيمًا) أَي حَسَنًا.

قَوله: (مَرَّت بِهِ ظُعُن يَجرِينَ) الظُّعُن جَمع ظَعِينَة، وَأَصل الظَّعِينَة: البَعِير الَّذِي عَلَيهِ اِمرَأَة، ثُمَّ تُسَمَّى بِهِ المَرأَة مَجَازًا لِمُلَابَسَتِهَا البَعِير.

قَوله: (فَطَفِقَ الفَضل يَنظُر إِلَيهِنَّ فَوَضَعَ رَسُول اللَّه ﷺ يَده عَلَى وَجه الفَضل) فِيهِ الحَثّ عَلَى غَضّ البَصَر عَن الأَجنَبِيَّات، وَغَضّهنَّ عَن الرِّجَال الأَجَانِب.

وَفِيهِ: أَنَّ مَن رَأَى مُنكَرًا وَأَمكَنَهُ إِزَالَته بِيَدِهِ لَزِمَهُ إِزَالَته، فَإِن قَالَ بِلِسَانِهِ وَلَم يَنكَفّ المَقُول لَهُ وَأَمكَنَهُ بِيَدِهِ أَثِمَ مَا دَامَ مُقتَصِرًا عَلَى اللِّسَان وَاَللَّه أَعلَم.

قَوله: (حَتَّى أَتَى بَطن مُحَسِّر فَحَرَّكَ قَلِيلًا) أَمَّا مُحَسِّر فسُمِّيَ بِذَلِكَ لِأَنَّ فِيل أَصحَاب الفِيل حُسِرَ فِيهِ أَي أُعيِيَ وَكَلَّ.

---

(١) التبكير هنا يعني: التعجل بإقامة الصلاة.

وَأَمَّا قوله: (فَحَرَّكَ قَلِيلًا) فَهِيَ سُنَّة مِن سُنَن السَّير فِي ذَلِكَ المَوضِع.

قَالَ أَصحَابنَا: يُسرِع المَاشِي وَيُحَرِّك الرَّاكِب دَابَّته فِي وَادِي مُحَسِّر، وَيَكُون ذَلِكَ قَدر رَميَة حَجَر. وَاَللَّه أَعلَم.

قَوله: (ثُمَّ سَلَكَ الطَّرِيق الوُسطَى الَّتِي تَخرُج عَلَى الجَمرَة الكُبرَى حَتَّى أَتَى الجَمرَة الَّتِي عِند الشَّجَرَة فَرَمَاهَا بِسَبعِ حَصَيَات يُكَبِّر مَعَ كُلّ حَصَاة مِنهَا حَصَى الخَذف رَمَى مِن بَطن الوَادِي).

أَمَّا قَوله: (سَلَكَ الطَّرِيق الوُسطَى) فَفِيهِ أَنَّ سُلُوك هَذَا الطَّرِيق فِي الرُّجُوع مِن عَرَفَات سُنَّة، وَهُوَ غَير الطَّرِيق الَّذِي ذَهَبَ فِيهِ إِلَى عَرَفَات.

وَأَمَّا الجَمرَة الكُبرَى فَهِيَ جَمرَة العَقَبَة، وَهِيَ الَّتِي عِند الشَّجَرَة.

وَفِيهِ: أَنَّ السُّنَّة لِلحَاجّ إِذَا دَفَعَ مِن مُزدَلِفَة فَوَصَلَ مِنًى أَن يَبدَأ بِجَمرَةِ العَقَبَة، وَلَا يَفعَل شَيئًا قَبل رَميهَا، وَيَكُون ذَلِكَ قَبل نُزُوله.

وَفِيهِ: أَنَّ الرَّمي بِسَبعِ حَصَيَات، وَأَنَّ قَدرهنَّ بِقَدرِ حَصَى الخَذف، وَهُوَ نَحو حَبَّة البَاقِلَّاء.

وَفِيهِ: أَنَّهُ يُسَنّ التَّكبِير مَعَ كُلّ حَصَاة.

وَفِيهِ: أَنَّهُ يَجِب التَّفرِيق بَين الحَصَيَات فَيَرمِيهُنَّ وَاحِدَة وَاحِدَة، فَإِن رَمَى السَّبعَة رَميَة وَاحِدَة حُسِبَ ذَلِكَ كُلّه حَصَاة وَاحِدَة عِندنَا وَعِند الأَكثَرِينَ[1].

وَفِيهِ: أَنَّ السُّنَّة أَن يَقِف لِلرَّمي فِي بَطن الوَادِي بِحَيثُ تَكُون مِنًى وَعَرَفَات وَالمُزدَلِفَة عَن يَمِينه، وَمَكَّة عَن يَسَاره، وَقِيلَ: يَقِف مُستَقبِل الكَعبَة، وَكَيفَمَا رَمَى أَجزَأَهُ بِحَيثُ يُسَمَّى رَميًا بِمَا يُسَمَّى حَجَرًا. وَاَللَّه أَعلَم.

وَأَمَّا حُكم الرَّمي: فَالمَشرُوع مِنهُ يَوم النَّحر رَمي جَمرَة العَقَبَة لَا غَير بِإِجمَاعِ المُسلِمِينَ، وَهُوَ نُسُك بِإِجمَاعِهِم، وَمَذهَبنَا أَنَّهُ وَاجِب لَيسَ بِرُكنٍ، فَإِن تَرَكَهُ حَتَّى

---

(١) ولابد أن يقع الحصى في الحوض، فإن لم يقع في الحوض لم يجز. انظر «مرشد المعتمر والحاج والزائر» للشيخ/ سعيد القحطاني (٢٥).

فَاتَتهُ أَيَّام الرَّمي عَصَى وَلَزِمَهُ دَم وَصَحَّ حَجّه. وَيَجِب رَميهَا بِسَبعِ حَصَيَات. فَلَو بَقِيَت مِنهُنَّ وَاحِدَة لَم تَكفِهِ السِّتّ.

قَوله: (ثُمَّ اِنصَرَفَ إِلَى النَّحر ثَلَاثًا وَسِتِّينَ بِيَدِهِ، ثُمَّ أَعطَى عَلِيًّا فَنَحَرَ مَا غَبَرَ، وَأَشرَكَهُ فِي هَديه).

قَالَ القَاضِي: فِيهِ دَلِيل عَلَى أَنَّ المَنحَر مَوضِع مُعَيَّن مِن مِنًى، وَحَيثُ ذَبَحَ مِنهَا أَو مِن الحَرَم أَجزَأَهُ.

وَفِيهِ: اِستِحبَاب ذَبح المُهدِي هَديه بِنَفسِهِ، وَجَوَاز الِاستِنَابَة فِيهِ، وَذَلِكَ جَائِز بِالإِجمَاعِ إِذَا كَانَ النَّائِب مُسلِمًا.

وَقَوله: (مَا غَبَرَ) أَي مَا بَقِيَ.

وَفِيهِ: اِستِحبَاب تَعجِيل ذَبح الهَدَايَا وَإِن كَانَت كَثِيرَة فِي يَوم النَّحر، وَلَا يُؤَخِّر بَعضهَا إِلَى أَيَّام التَّشرِيق.

وَأَمَّا قَوله: (وَأَشرَكَهُ فِي هَديه) فَظَاهِره أَنَّهُ شَارَكَهُ فِي نَفس الهَدي.

قَالَ القَاضِي عِيَاض: وَعِندِي أَنَّهُ لَم يَكُن تَشرِيكًا حَقِيقَة، بَل أَعطَاهُ قَدرًا يَذبَحهُ، وَالظَّاهِر أَنَّ النَّبِيّ ﷺ نَحَرَ البُدن الَّتِي جَاءَت مَعَهُ مِن المَدِينَة، وَكَانَت ثَلَاثًا وَسِتِّينَ كَمَا جَاءَ فِي رِوَايَة التِّرمِذِيّ وَأَعطَى عَلِيًّا البَدَن الَّتِي جَاءَت مَعَهُ مِن اليَمَن، وَهِيَ تَمَام المِائَة. وَاَللَّه أَعلَم.

قَوله: (أَمَرَ مِن كُلّ بَدَنَة بِبَضعَةٍ فَجُعِلَت فِي قِدر فَطُبِخَت فَأَكَلَا مِن لَحمهَا وَشَرِبَا مِن مَرَقهَا).

البَضعَة: هِيَ القِطعَة مِن اللَّحم.

وَفِيهِ: اِستِحبَاب الأَكل مِن هَدي التَّطَوُّع وَأُضحِيَّته.

قَالَ العُلَمَاء: لَمَّا كَانَ الأَكل مِن كُلّ وَاحِدَة سُنَّة، وَفِي الأَكل مِن كُلّ وَاحِدَة مِن المِائَة مُنفَرِدَة كُلفَة جُعِلَت فِي قِدر لِيَكُونَ آكِلًا مِن مَرَق الجَمِيع الَّذِي فِيهِ جُزء مِن كُلّ وَاحِدَة، وَيَأكُل مِن اللَّحم المُجتَمِع فِي المَرَق مَا تَيَسَّرَ، وَأَجمَعَ العُلَمَاء عَلَى أَنَّ الأَكل مِن هَدي التَّطَوُّع وَأُضحِيَّته سُنَّة لَيسَ بِوَاجِبٍ.

قَوله: (ثُمَّ رَكِبَ رَسُول الله ﷺ فَأَفَاضَ إِلَى البَيت فَصَلَّى بِمَكَّة الظُّهر).

هَذَا الطَّوَاف هُوَ طَوَاف الإِفَاضَة، وَهُوَ رُكن مِن أَركَان الحَجّ بِإِجمَاعِ المُسلِمِينَ.

وَأَفضَله بَعد رَمي جَمرَة العَقَبَة وَذَبح الهَدي وَالحَلق، وَيَجُوز فِي جَمِيع يَوم النَّحر بِلَا كَرَاهَة، وَيُكرَه تَأخِيره عَنهُ بِلَا عُذر، وَتَأخِيره عَن أَيَّام التَّشرِيق أَشَدّ كَرَاهَة.

وَاعلَم أَنَّ طَوَاف الإِفَاضَة لَهُ أَسمَاء فَيُقَال أَيضًا طَوَاف الزِّيَارَة، وَطَوَاف الفَرض وَالرُّكن.

وَقَوله: (فَأَفَاضَ إِلَى البَيت فَصَلَّى الظُّهر) فِيهِ مَحذُوف تَقدِيره: فَأَفَاضَ فَطَافَ بِالبَيتِ طَوَاف الإِفَاضَة ثُمَّ صَلَّى الظُّهر بمكة.

قَوله: (فَأَتَى بَنِي عَبد المُطَّلِب يَسقُونَ عَلَى زَمزَم فَقَالَ: «**انزِعُوا بَنِي عَبد المُطَّلِب فَلَولَا أَن يَغلِبكُم النَّاس عَلَى سِقَايَتكُم لَنَزَعت مَعَكُم**» فَنَاوَلُوهُ دَلوًا فَشَرِبَ مِنهُ).

أَمَّا قَوله ﷺ: «**انزِعُوا**» مَعنَاهُ: اِستَقُوا بِالدِّلَاءِ وَانزِعُوهَا بِالرِّشَاءِ.

وَأَمَّا قَوله: (فَأَتَى بَنِي عَبد المُطَّلِب) فَمَعنَاهُ: أَتَاهُم بَعد فَرَاغه مِن طَوَاف الإِفَاضَة.

وَقَوله: (يَسقُونَ عَلَى زَمزَم) مَعنَاهُ يَغرِفُونَ بِالدِّلَاءِ وَيَصُبُّونَهُ فِي الحِيَاض وَنَحوهَا وَيُسبِلُونَهُ لِلنَّاسِ.

وَقَوله ﷺ: «**لَولَا أَن يَغلِبكُم النَّاس لَنَزَعت مَعَكُم**» مَعنَاهُ: لَولَا خَوفِي أَن يَعتَقِد النَّاس ذَلِكَ مِن مَنَاسِك الحَجّ وَيَزدَحِمُونَ عَلَيهِ بِحَيثُ يَغلِبُونَكُم وَيَدفَعُونَكُم عَن الِاستِقَاء لَاستَقَيت مَعَكُم لِكَثرَةِ فَضِيلَة هَذَا الِاستِقَاء.

وَفِيهِ: فَضِيلَة العَمَل فِي هَذَا الِاستِقَاء، وَاستِحبَاب شُرب مَاء زَمزَم.

قَوله ﷺ: «**نَحَرت هَاهُنَا، وَمِنًى كُلّهَا مَنحَر، فَانحَرُوا فِي رِحَالكُم، وَوَقَفت هَاهُنَا، وَعَرَفَة كُلّهَا مَوقِف، وَوَقَفت هَاهُنَا، وَجَمع كُلّهَا مَوقِف**».

فِي هَذِهِ الأَلفَاظ بَيَان رِفق النَّبِيّ ﷺ بِأُمَّتِهِ وَشَفَقَته عَلَيهِم فِي تَنبِيههم عَلَى مَصَالِح دِينهم وَدُنيَاهُم فَإِنَّهُ ﷺ ذَكَرَ لَهُم الأَكمَل وَالجَائِز.

فَالأَكمَل: مَوضِع نَحره وَوُقُوفه، وَالجَائِز كُلّ جُزء مِن أَجزَاء المَنحَر، وَجُزء

مِن أَجزَاء عَرَفَات، وَخَيرهنَّ أَجزَاء المُزدَلِفَة وَهِيَ «جَمع» وَأَمَّا عَرَفَات فَحَدّهَا مَا جَاوَزَ وَادِي عُرَنَة إِلَى الجِبَال القَابِلَة مِمَّا يَلِي بَسَاتِين ابن عَامِر.

قَالَ الشَّافِعِيّ: يَجُوز نَحر الهَدي وَدِمَاء الحَيَوَانَات فِي جَمِيع الحَرَم، لَكِن الأَفضَل فِي حَقّ الحَاجّ النَّحر بِمِنًى.

وَأَمَّا قَوله ﷺ: «وَمِنًى كُلّهَا مَنحَر فَانحَرُوا فِي رِحَالكُم» فَالمُرَاد بِالرِّحَالِ المَنَازِل.

وَمَعنَى الحَدِيث: مِنًى كُلّهَا مَنحَر يَجُوز النَّحر فِيهَا فَلَا تَتَكَلَّفُوا النَّحر فِي مَوضِع نَحرِي، بَل يَجُوز لَكُم النَّحر فِي مَنَازِلكُم مِن مِنًى» ا.هـ[(١)].

عباد الله...

كانت هَذِهِ قصة «حجة النبي ﷺ» كأنكم ترونها.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وخلاصة أعمال الحج:

١- يلزم الحاج أن يبيت بمنًى ليلة الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر لمن تأخر، والمبيت يعني أن يبقى في منى أكثر الليل، فإن تعجّل لزمه المبيت ليلة الحادي عشر والثاني عشر فقط.

٢- يلزم الحاج أن يرمي الجمرات يوم الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر لمن تأخّر، فإن تعجّل: رمى يوم الحادي عشر والثاني عشر فقط.

٣- يبدأ وقتُ الرّمي في أيام التشريق من بعد الزوال، ولا يجوز الرمي قبل الزوال.

٤- **وصفة رمي الجمرات:** أن يبدأ بالصغرى وهي القريبة من منى، فيرميها بسبع

---

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٣٣٠ - ٣٥٠) باختصار شديد مع بعض الإيضاحات.

حصيات بالكيفية التي تقدّمت.

٥- ثم يأخذ يمينًا قليلاً، ويقف مستقبلًا القبلة، ويدعو، وهذه سُنّة غفل عنها كثير من الحجّاج.

٦- ثم يذهب إلى الجمرة الوسطى، فيرميها أيضًا بسبع حصيات.

٧- ثم يأخذ ذات الشمال ويقف ويدعو مستقبلًا القبلة.

٨- ثم يذهب إلى «الكبرى» التي تلي مَكَّة، فيرميها بسبع حصيات.

٩- لا حرج أن يرمي بالليل، لاسيما إذا كان معه نساء أو أطفال.

١٠- لا يسوغ التوكيل في الرّمي إلا لحاجة قائمة، كأن يكون الموكِّلُ مريضًا، أو كبيرًا عاجزًا، أو تكون المرأة حاملًا.

١١- إذا كان الشخص موكلًا في الرمي فينبغي أن يرمي عن نفسه أولًا، فإذا أتمّ سبع حصيات، رمى عن موكله في نفس موقفه.

١٢- لو أَخَّرَ الجمرات إلى آخر أيام التشريق أو أخّر يوم الحادي عشر للثاني عشر أو أخّر الثاني عشر للثالث عشر، فلا حرج عليه إن شاء الله، لأن وقت الرمي ممتدّ إلى غروب شمس اليوم الثالث عشر.

١٣- حصى الجمرات أيام التشريق تلتقط من منى من مكان الشخص الذي يسكن فيه، أو أي مكان من منى(١).

تنبيه آخر:

لم يذكر حديث جابر رضي الله عنه أيضًا «طواف الوداع»، وقد ثبت فيه أحاديث، منها:

عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: «أُمِرَ النَّاسُ أَنْ يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِمْ بِالبَيْتِ إِلَّا أَنَّهُ خُفِّفَ عَنْ الحَائِضِ»(٢).

فالحائض ليس عليها طواف وداع وكذلك النّفساء.

---

(١) «كيف يحج المسلم ويعتمر» د. عبد الله بن محمد الطيار (٧٦ - ٨٠) باختصار.

(٢) رواه البخاري ومسلم.

وقال ﷺ: «**لَا يَنْفِرَنَّ أَحَدٌ حَتَّى يَكُونَ آخِرُ عَهْدِهِ بِالبَيْتِ**»[١].

وعلى ما تقدَّم، فعلى الحاج أن يطوف طواف الوداع بعد انتهاء مناسكه، وقبل خروجه من مكة عائدًا لأرض الوطن.

عباد الله...

وبعد أن فرغ النبيُّ ﷺ من إلقاء الخطبة، نزل عليه قولُهُ تَعَالَى: ﴿**الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا**﴾ [المائدة: ٣].

وعندما سمعها أبو بكر بكى، فقيل له: ما يبكيك؟ قال: إنه ليس بعد الكمال إلا النُّقصان[٢].

وكأنه استشعر وفاة النبيّ ﷺ.

ولم يمض بعدها سوى خمسين يومًا، ولبّى النبيُّ ﷺ نداء مولاه.

❖❖❖❖❖

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه البخاري.

الخطبة التاسعة عشرة بعد المائة:

دروس وعبر من خطبة الوداع

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الـحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَـا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُـوا اتَّقُـوا اللَّهَ حَـقَّ تُقَاتِـهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

عن جابر بن عبد الله رَضِيَ الله عَنْهُ: أنَّ رسول الله ﷺ أَتَى بَطنَ الوَادِي[١] فَخَطَبَ النَّاسَ وَقَالَ:

«إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَموَالَكُم حَرَامٌ عَلَيكُم كَحُرمَةِ يَومِكُم هَذَا فِي شَهرِكُم هَذَا فِي بَلَدِكُم هَذَا. أَلَا كُلُّ شَيءٍ مِن أَمرِ الجَاهِلِيَّةِ تَحتَ قَدَمَيَّ مَوضُوعٌ وَدِمَاءُ الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعَةٌ وَإِنَّ

(١) هو وادي عرفة.

أَوَّلَ دَم أَضَعُ مِن دِمَائِنَا دَمُ ابنِ رَبِيعَةَ بنِ الحَارِثِ كَانَ مُستَرضِعًا فِي بَنِي سَعدٍ فَقَتَلَتهُ هُذَيلٌ وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوضُوعٌ كُلُّهُ.

فَاتَّقُوا اللَّهَ فِي النِّسَاءِ فَإِنَّكُم أَخَذتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ اللَّهِ وَاستَحلَلتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ، وَلَكُم عَلَيهِنَّ أَن لَا يُوطِئنَ فُرُشَكُم أَحَدًا تَكرَهُونَهُ فَإِن فَعَلنَ ذَلِكَ فَاضرِبُوهُنَّ ضَربًا غَيرَ مُبَرِّحٍ وَلَهُنَّ عَلَيكُم رِزقُهُنَّ وَكِسوَتُهُنَّ بِالمَعرُوفِ.

وَقَد تَرَكتُ فِيكُم مَا لَن تَضِلُّوا بَعدَهُ إِن اعتَصَمتُم بِهِ كِتَابُ اللَّهِ وَأَنتُم تُسأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنتُم قَائِلُونَ؟»

قَالُوا: نَشهَدُ أَنَّكَ قَد بَلَّغتَ وَأَدَّيتَ وَنَصَحتَ.

فَقَالَ بِإِصبَعِهِ السَّبَّابَةِ يَرفَعُهَا إِلَى السَّمَاءِ وَيَنكُتُهَا إِلَى النَّاسِ: «اللَّهُمَّ اشهَد اللَّهُمَّ اشهَد» ثَلَاثَ مَرَّاتٍ[١].

معاني الكلمات:

أضع: المراد بالوضع: الرّدّ والإبطال.

«وَاستَحلَلتُم فُرُوجَهُنَّ بِكَلِمَةِ اللَّهِ» أي: بإباحة الله، والكلمة قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [النساء: ٣].

«ضَربًا غَيرَ مُبَرِّحٍ» أي: ضربًا غير شديد.

«وَيَنكُتُهَا إِلَى النَّاسِ» أي: يقلبها ويرددها إلى الناس مشيرًا إليهم[٢].

عباد الله...

في اليوم التاسع من ذي الحجّة سنة ١٠ هـ تحرّك رسولُ الله ﷺ من مِنًى بعد طلوع الشمس متجهًا إلى «عرفات» قبل وفاته ﷺ بأسابيع، فأتى بطن وادي «عُرَنَة» بالنون، وقَدْ اجتمع مائة ألف وأربعة وعشرون أو أربعة وأربعون ألفًا من النَّاس.

---

(١) رواه مسلم.

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٣٤١).

«ونظر رسول الله ﷺ إلى هَذِهِ الألوف المؤلَّفة وهي تُلبِّي وتُهرع إلى طاعة الله، فشرح صدره انقيادُها للحق، واهتداؤها إلى الإسلام، وعزم أن يغرس في قلوبهم لُباب الدِّين، وأن ينتهز ها الجمع ليقول كلمات تُبدّد آخر ما أبقت الجاهليةُ من مُخلَفات في النفوس، وتؤكّد ما يحرص الإسلام عَلَى إشاعته من آداب وعلائق وأحكام»[(١)].

كان الرسول ﷺ يشعر بأنه قارب النهاية، وأن الأُمّة التي أنشأها قَدْ تشبثت بظهر الأرض، وفرضت نفسها عَلَى التاريخ، وانتقل الأذان مع الرياح الأربع، وتوزّعت جماعات الصَّلاة عَلَى أطراف الزمان، فهي تلتقي عَلَى طاعة الله قبل طلوع الشمس وقبل الغروب.

ماذا بقي له؟

لا يريد لنفسه شيئًا، صحيح أَنَّهُ مُرسلٌ للعالمين، ليكن، فهؤلاء الذين ربَّاهم سيمدّون النور إلى ما بقيَ من أرض الله، إن الجيل الذي ربَّاه جزء من الرسالة التي أدَّاها، من أجل ذَلِكَ كان يُحدِّث وفي الوقت نفسه كان يودِّع، وفي تضاعيف حديثه كان يفرغ ما في فؤاده من نصح وحُبّ وإخلاص.

والعرب قبل غيرهم من النَّاس أجدر أهل الأرض أن يعوا هَذِهِ الوصايا، فإن النبيَّ الخاتم عانى معاناة طويلة، وهو يخرجهم من الظلمات إلى النور، ويبرئهم من علل يكاد يكون الشفاء منها مستحيلًا، وعندما صنع منهم بالإسلام أمة جديدة أراد أن تكون هَذِهِ الأمة عنوانًا ظيمًا عَلَى حقيقة عظيمة، أي أن دعايتها للإسلام ليست نشرات مكتوبة توزِّعها وزارة السياحة، أو خطبًا تعتمد عَلَى إحصاءات مكذوبة، أو أنباء مختلقة، لا.. لا.. إن جمال عملها بالإسلام، وصدق بلاغها عنه هو الذي يصنع لها القبول ويجمع حولها الأنصار[(٢)].

كان ﷺ يحسّ أن هذا الرّكب سينطلق في بيداء الحياة وحده، فهو يصرخ به

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٤٧٥).

(٢) «الطريق من هنا» للشيخ محمد الغزالي (١٤٤، ١٤٥).

كما يصرخ الوالد بابنه الذي انطلق به القطار، يوصيه بالرُّشد، ويذكّره بما ينفعه أبدًا.

وكان هذا النبيُّ الطّيب كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس، أعاد صيحات الإنذار، واستثار أقصى ما في الأعماق من انتباه، ثم ساق الهدى والعلم، وقطع المعاذير المنتحلة، وانتزع بعد ذَلِكَ شهادة من النَّاس عَلَى أنفسهم وعليه أنهم قَدْ سمعوا، وأَنَّهُ قَدْ بلَّغ، لقد ظل ثلاثًا وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء، ويتلو عَلَى القاصي والدّاني، أي: الكتاب، الذي نزل به الروح الأمين عَلَى قلبه، ويغسل أدران الجاهلية التي التاث بها كلّ شيء، ويُربِّي من هؤلاء العرب الجيل الذي يفقه الحقائق، ويفقه العالم فيها.

وها هو ذا يقود الحجيج في أوّل موسى يخلص فيه من الشّرك، ويتمحض فيه لله الواحد القهار.

وها هو ذا عَلَى ناقته «القَصواء» يستنصت الجماهير المائجة، ليؤكد المعاني التي بُعث بها، والتي عرّفهم عليها، ويُخلي ذمته من عهدة البلاغ والتبيان التي نِيطت بِعُنقه[١].

وفي هذا المشهد المهيب، خطب فقال:

[١] **«إِنَّ دِمَاءَكُم وَأَموَالكُم حَرَام عَلَيكُم كَحُرمَةِ يَومكُم هَذَا فِي شَهركُم هَذَا في بلدكم هذا»**.

قَالَ الإمام النووي: «مَعنَاهُ: مُتَأَكِّدَة التَّحرِيم شَدِيدَته»[٢].

لكن بعض الجبَّارين، حُكّامًا كانوا أم محكومين، تحملهم قوّتهم عَلَى اجتياح الضعفاء، ونكبتهم في حقوقهم المادية والأدبية، وقَدْ اشتعلت ثورات هائلة للثأر من الظلمة، ووقعت حمّامات دم، لم يكن القِصاص فيها من الظّلمة بقدر ما كان من ذراريهم وحواشيهم، ثم اتسع الخرق فهلكت ألوف مؤلّفة من الأبرياء،

---

(١) «فقه السيرة» للغزالي (٤٧٨).

(٢) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٣٣٩).

وقامت حكومات جديدة ونشأت أنظمة أخرى، وتكرّرت المأساة نفسها حَتَّى لكأنَّ التاريخ سلسلة من المظالم مَن يَفِرّ فيها من الجُناة أضعاف مَن تُحيط بهم خطاياهم[١].

[٢] قوله ﷺ: «أَلَا كُلّ شَيء مِن أَمر الجَاهِلِيَّة تَحت قَدَمَيَّ مَوضُوع».

يعني باطل ومرفوض، إنه إعلان حرب عَلَى الجاهلية بكل أشكالها وألوانها.

والجاهلية عَلَى نوعين:

الأوّل: جاهلية الاعتقاد: وهي الكفر بالله أو الشرك به، سواء الشرك به في ربوبيّته أو الشرك به في ألوهيته، أو الإلحاد في أسمائه وصفاته.

الثاني: جاهلية السلوك: ومعنى ذَلِكَ: أن يصدر من العبد سلوك مخالف لمنهج الله سبحانه الذي شرعه لعباده، ويكون هذا السلوك مشابهًا لمسلك أهل الكفر من غير استباحة له، فإذا استباحه أو أنكر تحريمه أو سخَّر بأمر الله فيه، فعند ذَلِكَ يتحوّل العبدُ من جاهلية السلوك إلى جاهلية الاعتقاد فيخرج بذلك من الإسلام، نسأل الله السّلامة والعافية[٢].

[٣] قوله ﷺ: «وَدِمَاء الجَاهِلِيَّة مَوضُوعَة، وَإِنَّ أَوَّل دَم أَضَع دَم اِبن رَبِيعَة بن الحَارِث كَانَ مُستَرضِعًا فِي بَنِي سَعد فَقَتَلَتهُ هُذَيل».

قَالَ الإمامُ النووي: «فِي هَذِهِ الجُملَة إِبطَال أَفعَال الجَاهِلِيَّة وَبُيُوعهَا الَّتِي لَم يَتَّصِل بِهَا قَبض، وَأَنَّهُ لَا قِصَاص فِي قَتلهَا، وَأَنَّ الإِمَام وَغَيره مِمَّن يَأمُر بِمَعرُوفٍ أَو يَنهَى عَن مُنكَر يَنبَغِي أَن يَبدَأ بِنَفسِهِ وَأَهله فَهُوَ أَقرَب إِلَى قَبُول قَوله، وَإِلَى طِيب نَفس مَن قَرُبَ عَهده بِالإِسلَام».

وَأَمَّا قَوله ﷺ: «تَحت قَدَمَيَّ» فَإِشَارَة إِلَى إِبطَاله.

وَأَمَّا قَوله ﷺ: «وَإِنَّ أَوَّل دَم أَضَع دَم اِبن رَبِيعَة» قَالَ المحققون الجُمهُور: اِسم هَذَا الِابن: إِيَاس بن رَبِيعَة بن الحَارِث بن عَبد المُطَّلِب.

---

(١) «الطريق من هنا» (١٤٧).

(٢) «المنهاج للمعتمر والحاج» للشيخ سعود الشريم (٩٥)، بتصرّف.

قالوا: وكان هذا الابن المقتول طفلًا صغيرًا يحبو بين البيوت، فأصابه حَجَرٌ في حرب كانت بين بني سعد، وبني ليث بن بكر»ا.هـ[١].

وفيها: التأكيد عَلَى صيانة الدماء وحرمتها، وعندما كتب اللَّـهُ القصاص في القتل والجراحات، كان يريد زجر المجرمين عن العدوان، وعندما يعلم امرؤ أَنَّهُ لاق حتمًا المصير الذي يوقعه بغيره، سيتردد طويلًا في قتل هذا أو جرح ذاك، وإذا غلبه الطيش فاعتدى فإن منظره مقتولًا أو معاقبًا سيوقع الرهبة في قلوب الآخرين، وقَدْ قيل: القتل أنفى للقتل. وقال الله تَعَالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩].

وأغلب الدول العظمى الآن ألغت القصاص، واكتفت بعقوبات تافهة لم تُجِدِ في حماية المجتمع، وأصابتنا حُمّى التقليد، فشاعت بيننا الجرائم، وانشغل المظلومون بطلب الثأر لمن ينتمي إليهم أو ينتمون إليه، وقد حسم الإسلامُ هذه الفوضى، بشرائعه العادلة[٢].

وفيها: أن النبي ﷺ أراد بوضع دماء الجاهلية، ودم ابن ربيعة؛ أن يفتح العرب بالإسلام صفحة جديدة تَجُبُّ الماضي، ويبدأ بها عهد جديد.

[٤] قوله ﷺ: «وَرِبَا الجَاهِلِيَّةِ مَوضُوعٌ وَأَوَّلُ رِبًا أَضَعُ رِبَانَا رِبَا عَبَّاسِ بنِ عَبدِ المُطَّلِبِ فَإِنَّهُ مَوضُوعٌ كُلُّهُ».

قال الشيخ محمد الغزالي رحمه الله: «كان الربا قديمًا رذيلة ساذجة، أساسها إمهال المُعسر بثمن يسير أو فاحش، ثم أمسى في المؤسسات العالميت رذيلة مُعقّدة مدروسة تطيح فيها شعوب وجماعات، الدولة الفقيرة الآن تريد بناء مرفق هي في حاجة إليه، فتقترض المال المطلوب من دولة غنية، ثم تأخذه عَلَى شرط شراء مواد البناء من الدولة المقرضة، وجعل الجهاز العامل من أبناء هذه الدولة، وبعد أن تحدّد سعر الفائدة الربوية كما تشاء، تُحدِّد أجور الموظّفين من بينها، وأسعار المواد

(١) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٣٩٩).
(٢) «الطريق من هنا» (١٤٩).

التي تقدَّمها، وتصرف القرض مائة ليعود إليها عدّة مئات.

وجمهور الدول الفقيرة الآن مُعرّضة للإفلاس من جرَّاء هذه السياسة الجشعة، وهي تترنح تحت وطأة الوفاء بها يبهظ كاهلها أو يقصم ظهرها.

وددتُ لو تبنّت الدول كلّها مبدأ تحريم الربا، وتقرير مصاريف إدارية معقولة للصّناديق أو المصارف التي تشتغل بالإقراض، هكذا علَّم النبيُّ ﷺ البشرية من خمسة عشر قرنًا عندما قال: «**ألا وَإِنَّ كُلَّ رِبًا كَانَ فِي الجَاهِلِيَّةِ مَوْضُوعٌ، وَإِنَّ لَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ، قَضَى اللَّهَ ألا ربا، وإن أَوَّلَ رِبًا أبدأ به - أسقطه - رِبَا عمي العَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ**» [١]. وكان من كبار التجار المتعاملين بالرّبا[٢].

وقد رأيت أن تحريم الربا لا يستريح له إلا من خشي ربّه، وقد قال بشناعة الربا «كارل ماركس» [٣]، فهل نَفَذ التحريم مَن حَكَمَ باسمه من الشيوعيين؟

كان الروس يبيعون السلاح للدول التابعة لهم بأغلى الأسعار، ثم يتقاضون الثمن المؤجّل مضافًا إليه ربا فاحش.

إن الحضارة الماديّة التي تقود العالم لا تعرف إلا اليوم الحاضر والرّبح العاجل، أما قوله تَعَالَى: ﴿**وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ**﴾ [البقرة: ٢٨٠]. فحديثٍ خرافة عندهم» ا.هـ[٤].

عباد الله...

إن الرّبا خطر عظيم، ويكفي في الزّجر عنه قولهُ تَعَالَى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ**﴾. [البقرة: ٢٧٨، ٢٧٩].

---

(١) هذه رواية أخرى غير رواية مسلم.
(٢) يعني في الجاهلية.
(٣) زعيم الشيوعيين الذين يقولون: «لا إله، والحياة مادية»، عياذًا بالله تَعَالَى.
(٤) «الطريق من هنا» (١٤٨).

[٥] قوله ﷺ: «**فَاتَّقُوا اللَّه فِي النِّسَاء فَإِنَّكُم أَخَذتُمُوهُنَّ بِأَمَانِ**[(١)] **اللَّه، وَاستَحلَلتُم فُرُوجهنَّ بِكَلِمَةِ اللَّه**».

ومعنى «**بِكَلِمَةِ اللَّه**» أي: بإباحة الله، وقيل: المراد بالكلمة: الإيجاب والقبول، ومعناه عَلَى هذا: الكلمة التي أمر الله تَعَالى بها.

لقد كانت المرأة في الجاهلية تعيسة مُهانة مهضومة الحق، كسيرة الجناح في الأسرة والمجتمع.

إن سألت لا تُجاب، وإن احتيج إليها فللسّقى والاحتطاب.

وُئدت وهي بنت، وعُضلت[(٢)] وهي زوجة، وظُلمت وهي أم.

قال ابن عباس: إذا سرّك أن تعلم جهل العرب فأقرأ قول الله عز وجل: ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ قَتَلُوا أَوْلادَهُمْ سَفَهًا بِغَيْرِ عِلْمٍ**﴾ [الأنعام: ١٤٠].

[٦] قوله ﷺ: «**وَلَكُم عَلَيهِنَّ أَن لَا يُوطِئنَ فُرُشكُم أَحَدًا تَكرَهُونَهُ، فَإِن فَعَلنَ ذَلِكَ فَاضرِبُوهُنَّ ضَربًا غَير مُبَرِّح**».

قَالَ الإمام النووي - رَحِمَهُ الله -: «قَالَ المازري: قيل: المراد بذلك: أن لا يَستخلين بالرجال، ولم يُرد زناها[(٣)].

وقال القاضي عياض: كانت عادة العرب حديث الرجال مع النساء، ولم يكن ذَلِكَ عيبًا ولا ريبة عندهم، فلما نزلت آية الحجاب نهوا عن ذَلِكَ.

والمختارأن مَعنَاهُ: أَلَّا يَأذَنَّ لِأَحَدٍ تَكرَهُونَهُ فِي دُخُول بُيُوتكُم وَالجُلُوس فِي مَنَازِلكُم سَوَاء كَانَ المَأذُون لَهُ رَجُلًا أَجنَبِيًّا أَو اِمرَأَة أَو أَحَدًا مِن مَحَارِم الزَّوجَة. فَالنَّهي يَتَنَاوَل جَمِيع ذَلِكَ. لأن الأصل تحريم دخول منزل الإنسان حَتَّى يوجد الإذن في ذَلِكَ منه أو ممَّن أذن له في الإذن في ذَلِكَ، أو عُرف رضاه باطراد العُرف بذلك ونحوه[(٤)].

---

(١) وفي رواية: «بأمانة الله».
(٢) العضل: منع المرأة المطلّقة طلاقًا رجعيًّا من الرجوع لزوجها مع رغبتها في ذلك.
(٣) لأن حدّ الزنا معروف.
(٤) ولا يسمح للأجنبي بالدخول في غياب الزّوج، لورود الأدلة الناهية عن ذلك.

أَمَّا الضَّرب الْمُبَرِّح فَهُوَ الضَّرب الشَّدِيد الشَّاقّ، وَمَعنَاهُ: اِضرِبُوهُنَّ ضَربًا لَيسَ بِشَدِيدٍ وَلَا شَاقّ(١).

وَفِي هَذَا الحَدِيث إِبَاحَة ضَرب الرَّجُل اِمرَأَته لِلتَّأدِيب، فَإِن ضَرَبَهَا الضَّرب المَأذُون فِيهِ فَمَاتَت مِنهُ وَجَبَت دِيَتهَا عَلَى عَاقِلَة الضَّارِب(٢)، وَوَجَبَت الكَفَّارَة فِي مَاله». ا.هـ(٣).

[٧] قوله ﷺ: «وَلَهُنَّ عَلَيكُم رِزقهنَّ وَكِسوَتهنَّ بِالمَعرُوفِ».

قَالَ الإمام النووي - رَحِمَهُ الله -: «فِيهِ وُجُوب نَفَقَة الزَّوجَة وَكِسوَتهَا وَذَلِكَ ثَابِت بِالإِجمَاعِ».

قلت: فإن فرَّط الزوج في ذَلِكَ، فهو آثم، قَالَ ﷺ: «**كفى بالمرء إثمًا أن يُضَيِّع مَن يَقُوتُ**»(٤). وفي رواية: «**مَن يَعولُ**»(٥).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ يَوْمًا لأَصْحَابِهِ: «**تَصَدَّقُوا**»، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ الله عِنْدِي دِينَارٌ.

قَالَ: «**أَنْفِقْهُ عَلَى نَفْسِكَ**»، قَالَ: إِنَّ عِنْدِي آخَرَ.

قَالَ: «**أَنفِقْهُ عَلَى زَوْجَتِكَ**»، قَالَ: إِنَّ عِنْدِي آخَرَ.

قَالَ: «**أَنْفِقْهُ عَلَى وَلَدِكَ**»، قَالَ: إِنَّ عِنْدِي آخَرَ.

قَالَ: «**أَنْفِقْهُ عَلَى خَادِمِكَ**»، قَالَ: إِنَّ عِنْدِي آخَرَ.

قَالَ: «**أَنْتَ أَبْصَرُ**»(٦).

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

---

(١) قال ﷺ: «**يعمد أحدكم فيجلد امرأته جلد العبد، فلعلّه يضاجعها من آخر يومه**». رواه البخاري ومسلم.

(٢) **العاقلة**: أقارب الزوج.

(٣) «صحيح مسلم بشرح النووي» (٨/ ٣٤٠).

(٤) **حسن**: رواه أبو داود.

(٥) رواه الحاكم، وصححه.

(٦) **صحيح**: رواه ابن حبان في «صحيحه».

[٨] قوله ﷺ: «**وَقَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا لَنْ تَضِلُّوا بَعْدَهُ إِنْ اعْتَصَمْتُمْ بِهِ؛ كِتَابُ اللَّهِ**».

ووصية النبيّ ﷺ في هذه الخطبة بالقرآن يدخل معها الوصية بالسُّنة، لأن الله تعالى قال: ﴿**وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا**﴾ [الحشر: ٧].

وقال: ﴿**وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى**﴾ [النجم: ٣، ٤].

هذا، ولن تنهض الأُمَّةُ اليومَ من كبوتها التي أدخَلَت نفسها فيها، ولن يعود إليها مجدُها، ولن تتبوأ الصّدارة التي أُقصِيت عنها، ولن ترفع رأسها بين الأمم، إلا إذا عادت إلى كتاب ربِّها وسنة نبيها ﷺ، عقيدة، وشريعة، وسلوكًا، فإن لم تفعل لم تزدد بمرور الأيام والأعوام إلا خبالًا وهُزَالاً وانهزامًا.

نسأل الله العفو والعافية.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبهذا المنهج الجامع، بينِ العدل والرحمة، أخذت رقعة الباطل تنكمش رويدًا رويدًا حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها، وثبت الإسلام، ثم أصاخ العرب بعد ما لان قيادهم إلى صوت الحق الأخير في حجة الوداع.

فما أحوجنا إلى تطبيق هذه المبادئ التي أرسى دعائمها النبي ﷺ طول عمر دعوته، ثم صاغها في خطبة الوداع. ما أحوجنا إلى ترجمة أقوالنا إلى أفعال.

وها هو النبيُّ ﷺ يقول في آخر بيانه: «**وَأَنْتُمْ تُسْأَلُونَ عَنِّي فَمَا أَنْتُمْ قَائِلُونَ؟**».

فيا ترى كيف نُجيب اليوم عن سؤاله، وهذا حالنا.

اللَّهُمَّ هيئ لهذه الأُمة أمر رشدٍ يعزّ فيه أهلُ طاعتك، ويذلّ فيه أهل معصيتك، ويؤمر فيه بالمعروف وينهى فيه عن المنكر.

❖❖❖❖❖

الخطبة العشرون بعد المائة:

وفاة النَّبيِّ ﷺ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

نتحدث اليوم إن شاء الله تَعَالَى عن أعظم المصائب. نتكلم عن «وفاة النبيِّ ﷺ».

عباد الله...

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: فَتَحَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بَابًا بَيْنَهُ وَبَيْنَ النَّاسِ، أَوْ كَشَفَ سِتْرًا[1]، فَإِذَا النَّاسُ يُصَلُّونَ وَرَاءَ أَبِي بَكْرٍ فَحَمِدَ اللَّهَ عَلَى مَا رَأَى مِنْ حُسْنِ حَالِهِمْ

---

(١) كان ذلك في مرض موته ﷺ.

رَجَاءَ أَنْ يَخْلُفَهُ اللهُ فِيهِمْ بِالَّذِي رَآهُمْ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَيُّمَا أَحَدٍ مِنْ النَّاسِ أَوْ مِنْ الْمُؤْمِنِينَ أُصِيبَ بِمُصِيبَةٍ فَلْيَتَعَزَّ بِمُصِيبَتِهِ بِي عَنْ الْمُصِيبَةِ الَّتِي تُصِيبُهُ بِغَيْرِي فَإِنَّ أَحَدًا مِنْ أُمَّتِي لَنْ يُصَابَ بِمُصِيبَةٍ بَعْدِي أَشَدَّ عَلَيْهِ مِنْ مُصِيبَتِي»(١).

فيا أيها المصاب...

اصبِر لكلِّ مُصيبة وتجلَّد ... واعلم بأن المرءَ غير مُخلَّد

فإذا ذكرت مصيبةً تَسلو بها ... فاصبر مُصَابَك بالنَّبيِّ مُحَمَّد

وعَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ جَلَسَ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ: «إِنَّ عَبْدًا خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَهُ فَاخْتَارَ مَا عِنْدَهُ».

فَبَكَى أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ وقَالَ: فَدَيْنَاكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا.

قَالَ: فَعَجِبْنَا، فَقَالَ النَّاسُ: انْظُرُوا إِلَى هَذَا الشَّيْخِ يُخْبِرُ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ عَبْدٍ خَيَّرَهُ اللَّهُ بَيْنَ أَنْ يُؤْتِيَهُ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا مَا شَاءَ وَبَيْنَ مَا عِنْدَ اللَّهِ وَهُوَ يَقُولُ: فَدَيْنَاكَ بِآبَائِنَا وَأُمَّهَاتِنَا. فَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ هُوَ الْمُخَيَّرُ، وَكَانَ أَبُو بَكْرٍ هُوَ أَعْلَمَنَا بِهِ.

فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ(٢) إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ»(٣).

قَالَ الحافظ ابن رجب - رَحِمَهُ الله -: «لَـمَّا عرّض الرسول ﷺ عَلَى المنبر باختياره اللقاء عَلَى البقاء ولم يصرّح، خفي المعنى عَلَى كثير ممن سمع ولم يفهم المقصود غير صاحبه الخصيص به، ﴿ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ﴾ [التوبة: ٤٠]، وكان أعلم الأمة بمقاصد الرسول ﷺ، فلما فهم المقصود من الإشارة بكى، وقال: نفديك بأموالنا وأنفسنا وأولادنا.

فسكّن الرسولُ ﷺ جزعه، وأخذ في مدحه والثناء عليه عَلَى المنبر، ليَعلم

---

(١) صحيح: «صحيح سنن ابن ماجه» (١/ ٢٦٧).

(٢) الخوخة: باب.

(٣) رواه البخاري (٣٩٠٤)، ومسلم (٦٠٥٣).

النَّاس كلّهم فضله، فلا يقع عليه اختلاف، فقال: «إِنَّ مِنْ أَمَنِّ النَّاسِ عَلَيَّ فِي صُحْبَتِهِ وَمَالِهِ أَبُو بَكْرٍ وَلَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا لَاتَّخَذْتُ أَبَا بَكْرٍ خَلِيلًا وَلَكِنْ أُخُوَّةُ الإِسْلَامِ».

لَـمَّا كان الرسول ﷺ خليل الله، لم يصلح له أن يخالل مخلوقًا، فإن الخليل مَن جَرَت محبَّةُ خليله منه مجرى الروح، ولا يصلح هذا لِبشرٍ، كما قيل:

قَـدْ تَخَلَّلـت مَسلك الـروح منِّي وبـــذا سُـــمِّي الخلـــيل خلـــيلا

ثم قَالَ ﷺ: «لَا تُبْقَيَنَّ فِي المَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ».

وفي هذا إشارة إلى أن أبا بكر هو الإمام بعده، ثم أكَّدَ هذا المعنى بقوله: «مُروا أبا بكر يُصَلِّي بالناس».

ولهذا قالت الصحابة عند بيعة أبي بكر: رضيه رسولُ الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا؟!» ا.هـ[1].

كان هذا الموقف أوّل طلائع دُنوّ الأجل، وقُرب الرَّحيل، وكانت هناك مؤشرات عَلَى قرب هذا الوداع «يوم عرفة»، قبل أن يلحق بالرفيق الأعلى بخمسين يومًا لَـمَّا قَالَ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

أيُّها المسلمون...

وتحكي عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا ابتداء مرض النبيّ ﷺ فتقول: «رَجَعَ إِلَيَّ رَسُولُ اللهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ مِنْ جَنَازَةٍ بِالبَقِيعِ وَأَنَا أَجِدُ صُدَاعًا فِي رَأْسِي وَأَنَا أَقُولُ: وَارَأْسَاهْ، قَالَ: «بَلْ أَنَا وَارَأْسَاهْ»، قالت: ثم قَالَ: «مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ؟»، قُلْتُ: لَكَأَنِّي بِكَ وَاللهِ لَوْ فَعَلْتَ ذَلِكَ، لَقَدْ رَجَعْتَ إِلَى بَيْتِي فَأَعْرَسْتَ فِيهِ بِبَعْضِ نِسَائِكَ، قَالَتْ: فَتَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وتتام به وَجَعُهُ، وهو يدور عَلَى نسائه، حَتَّى استعذَّبه[2] وهو في بَيت مَيمُونة، فدعا

(١) «لطائف المعارف» (١٦٨، ١٦٩) باختصار.

(٢) استعذبه، أي: اشتد عليه المرض.

نساءه، فاستأذَنَهنّ في أن يُمرَّض في بَيتي فَأذِنَّ له[١].

ولما انتقل النبيُّ ﷺ إلى بيت عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا اشتدّ به وجعه، حَتَّى قَالَ: «إني أُعَك[٢] كما يُوعك رَجُلان منكم»[٣].

ويصف أبو سعيد الخدريّ رَضِيَ الله عَنْهُ شدّة الحُمَّى التي أصابت النبيَّ ﷺ فيقول: دَخَلْتُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَهُوَ يُوعَكُ فَوَضَعْتُ يَدِي عَلَيْهِ فَوَجَدْتُ حَرَّهُ بَيْنَ يَدَيَّ فَوْقَ اللِّحَافِ فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ مَا أَشَدَّهَا عَلَيْكَ.

قَالَ: «**إِنَّا كَذَلِكَ يُضَعَّفُ لَنَا البَلَاءُ وَيُضَعَّفُ لَنَا الأَجْرُ**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ أَيُّ النَّاسِ أَشَدُّ بَلَاءً؟

قَالَ: «**الأَنْبِيَاءُ**».

قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ ثُمَّ مَنْ؟

قَالَ: «**ثُمَّ الصَّالِحُونَ إِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيُبْتَلَى بِالفَقْرِ حَتَّى مَا يَجِدُ أَحَدُهُمْ إِلَّا العَبَاءَةَ يُحَوِّيهَا، وَإِنْ كَانَ أَحَدُهُمْ لَيَفْرَحُ بِالبَلَاءِ كَمَا يَفْرَحُ أَحَدُكُمْ بِالرَّخَاءِ**»[٤].

وكان من شدّة الحمَّى يجلس في مخْضب ويُصَبّ عليه الماء من سبع قُرَب يَتَبرّد بذلك.

عن عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا: «أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَمَّا دَخَلَ بَيْتِي وَاشْتَدَّ بِهِ وَجَعُهُ قَالَ: «**هَرِيقُوا[٥] عَلَيَّ مِنْ سَبْعِ قِرَبٍ لَمْ تُحْلَلْ أَوْكِيَتُهُنَّ[٦] لَعَلِّي أَعْهَدُ إِلَى النَّاسِ**»، فَأَجْلَسْنَاهُ فِي مِخْضَبٍ[٧] لِحَفْصَةَ زَوْجِ النَّبِيِّ ﷺ ثُمَّ طَفِقْنَا نَصُبُّ عَلَيْهِ مِنْ تِلْكَ القِرَبِ حَتَّى طَفِقَ[٨] يُشِيرُ إِلَيْنَا بِيَدِهِ أَنْ قَدْ فَعَلْتُنَّ، قَالَتْ: ثُمَّ خَرَجَ إِلَى النَّاسِ فَصَلَّى

---

(١) **صحيح**: رواه أحمد، وغيره.
(٢) **الوعك**: الحمى، وقيل: ألمها.
(٣) رواه البخاري (٥٦٤٧)، ومسلم (٣٢٦٦).
(٤) **صحيح**: «صحيح سنن ابن ماجه» (٣٢٦٦).
(٥) **هريقوا**: صُبّوا.
(٦) **الوكاء**: الغطاء.
(٧) **المخضب**: المكان المُعَدُّ للاغتسال.
(٨) **طفق**: جعل.

بِهِمْ وَخَطَبَهُمْ»[١].

وممَّا زاد في مرضه: أَنَّهُ كان قَدْ أكل من الشّاة المسمومة لَـمَّا فتح خيبر، وكان اليهود - عليهم لعائنُ الله - هم الذين دسّوا له السُّم في الشاة لقتله ﷺ، فنجَّاه الله من كيدهم وشرّهم، ولكن بقي أثر هذا السُّم حَتَّى ظهر عليه أثره في مرض موته.

عن عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «**يَا عَائِشَةُ مَا أَزَالُ أَجِدُ أَلَمَ الطَّعَامِ[٢] الَّذِي أَكَلْتُ بِخَيْبَرَ، فَهَذَا أَوَانُ وَجَدْتُ انْقِطَاعَ أَبْهَرِي[٣] مِنْ ذَلِكَ السُّمِّ**»[٤].

وكان ابن مسعود وغيره يقولون: «إنه ﷺ مات شهيدًا من السُّم».

وفي أثناء مرضه أوصى بأشياء، من هَذِهِ الوصايا:

١- النَّهي عن اتخاذ القبور مساجد:

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا أَنَّ رَسُول الله ﷺ لَـمَّا حضرته الوفاة طَفِقَ يُلْقِي خَمِيصَةً عَلَى وَجْهِهِ، فَلَمَّا اغْتَمَّ رَفَعْنَاهَا عَنْهُ وَهُوَ يَقُولُ: «**لَعَنَ اللَّهُ الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ**». تَقُولُ عَائِشَةُ: يُحَذِّرُهُمْ مِثْلَ الَّذِي صَنَعُوا[٥].

٢- إغلاق الأبواب المفتحة عَلَى المسجد إلا باب أبي بكر:

وهو قوله ﷺ: «**لَا تُبْقَيَنَّ فِي الْمَسْجِدِ خَوْخَةٌ إِلَّا خَوْخَةُ أَبِي بَكْرٍ**».

٣- إخراج اليهود والنصارى من أرض الجزيرة:

عَنْ أَبِي عُبَيْدَةَ رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: آخِرُ مَا تَكَلَّمَ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْرِجُوا يَهُودَ أَهْلِ الْحِجَازِ وَأَهْلِ نَجْرَانَ مِنْ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ شِرَارَ النَّاسِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا**

---

(١) رواه البخاري.

(٢) أي: أحسّ الألم في جوفي بسبب الطعام.

(٣) الأبهر: عِرق مستبطن بالظهر متصل بالقلب إن انقطع مات صاحبه.

(٤) رواه البخاري (٤٤٢٨).

(٥) رواه البخاري ومسلم.

قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[١].

٤- حُسن الظنّ بالله تَعالى:

عَنْ جَابِرٍ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ قَبْلَ مَوْتِهِ بِثَلَاثٍ يَقُولُ: «لَا يَمُوتَنَّ أَحَدُكُمْ إِلَّا وَهُوَ يُحْسِنُ الظَّنَّ بِاللَّهِ تعالى»[٢].

٥- الصلاة، ومِلْك اليَمين:

فعن أنس رَضِيَ الله عَنْهُ قَالَ: كانت عامّة وصية رسول الله ﷺ حين حضرته الوفاة: «الصَّلاة وما مَلكَت أيمانكم». حَتَّى جعل يُغرغر بها وما يفصح بها لسانُه[٣].

٦- وصيته لعثمان بن عفّان:

فَعَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ: «وَدِدْتُ أَنَّ عِنْدِي بَعْضَ أَصْحَابِي».

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا نَدْعُو لَكَ أَبَا بَكْرٍ؟ فَسَكَتَ.

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا نَدْعُو لَكَ عُمَرَ؟ فَسَكَتَ.

قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَلَا نَدْعُو لَكَ عَلِيًّا؟ فَسَكَتَ.

قُلْنَا: أَلَا نَدْعُو لَكَ عُثْمَانَ؟ قَالَ: «بَلَى».

فَأَرْسَلْنَا إِلَى عُثْمَانَ، فَجَاءَ فَخَلَا بِهِ فَجَعَلَ يُكَلِّمُهُ وَوَجْهُ عُثْمَانَ يَتَغَيَّرُ.

قَالَ قيس: فحدَّثني أبو سهلة مولى عثمان، أنَّ عثمان بن عفَّان قَالَ يوم الدَّار[٤]: إنَّ رسول الله ﷺ عهد إليَّ عهدًا فأنا صائر إليه.

قَالَ قيس: فكانوا يرونه ذَلِكَ اليوم[٥].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١/ ١٩٥).

(٢) رواه مسلم وغيره.

(٣) صحيح: رواه النسائي وغيره.

(٤) يعني: يوم أن حاصره الثوّار في داره.

(٥) صحيح: رواه ابن ماجه وغيره، وصححه الألباني.

٧- استخلاف أبي بكر ليصلّي بالناس:

فعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قَالَتْ: لَمَّا ثَقُلَ رَسُولُ اللهِ ﷺ جَاءَ بِلَالٌ يُؤْذِنُهُ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: «**مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ**»(١).

٨- وصيته بالأنصار:

عن أنسِ بنِ مالك رَضِيَ الله عَنْهُ: أنَّ النبيَّ ﷺ قالَ: «**إنَّ الأنصارَ قَدْ قَضَوُا الذي عَلَيْهِمْ، وبَقِيَ الذي عَلَيْكُمْ، فأَحْسِنُوا إلى مُحْسِنِهِمْ، وتَجاوَزُوا عَنْ مُسِيئِهِمْ**»(٢).

ثم اشتدّ المرضُ به صلوات ربِّي وسلامُهُ عليه حَتَّى كان لا يستطيع أن يُرقي نفسه كما كان يفعل قبل ذَلِكَ.

قالت عائشة: «كَانَ رَسول الله ﷺ إِذَا اشْتَكَى نَفَثَ(٣) عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ(٤) وَمَسَحَ عَنْهُ بِيَدِهِ، فَلَمَّا اشْتَكَى وَجَعَهُ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، طَفِقْتُ(٥) أَنْفِثُ عَلَى نَفْسِهِ بِالْمُعَوِّذَاتِ الَّتِي كَانَ يَنْفِثُ، وَأَمْسَحُ بِيَدِ النَّبِيِّ ﷺ عَنْهُ رجاء بَرَكَتها، لأن يده أعظَم بركةً مِن يَدي»(٦).

وغلبه الشوق لحضور صلاة الجماعة ورؤية الأصحاب، فتحامل عَلَى جسمه المنهوك، وانسلّ إلى المسجد من حجرة عائشة، فصلّى بالناس وهو قاعد.

قال ابْنِ عَبَّاسٍ: لَمَّا مَرِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ أَمَرَ أَبَا بَكْرٍ أَنْ يُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ وَجَدَ خِفَّةً فَخَرَجَ، فَلَمَّا أَحَسَّ بِهِ أَبُو بَكْرٍ أَرَادَ أَنْ يَنْكُصَ فَأَوْمَأَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَجَلَسَ إِلَى جَنْبِ أَبِي بَكْرٍ عَنْ يَسَارِهِ وَاسْتَفْتَحَ مِنْ الآيَةِ الَّتِي انْتَهَى إِلَيْهَا أَبُو بَكْرٍ، فَكَانَ أَبُو بَكْرٍ يَأْتَمُّ بِالنَّبِيِّ ﷺ وَالنَّاسُ يَأْتَمُّونَ بِأَبِي بَكْرٍ(٧).

---

(١) رواه البخاري ومسلم.
(٢) صحيح: رواه البيهقي وغيره، وانظر «صحيح الجامع» (١٥٨٧).
(٣) النفث: هواء نفخ يخرج من الجوف بلا ريق.
(٤) المعوّذات: هي سورة الإخلاص وسورة الفلق وسورة الناس.
(٥) طفقت: جعلت.
(٦) رواه البخاري (٤٤٣٩)، ومسلم (٥٦١٠).
(٧) صحيح: أخرجه أحمد، وغيره، وصححه الألباني في تخريج أحاديث «فقه السيرة» للغزالي (٤٨٩).

ثم ظلّ أبو بكر يصلّي بالناس الأوقات طوال فترة مرض النبيّ ﷺ.

واجتمع نساء النبيّ ﷺ عنده لـمّا شعرن بدنوّ أجله، فلم تغادر منهنّ واحدة.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «اجْتَمَعْنَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فَلَمْ تُغَادِرْ مِنْهُنَّ امْرَأَةٌ، فَجَاءَتْ فَاطِمَةُ كَأَنَّ مِشْيَتَهَا مِشْيَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَقَالَ: «مَرْحَبًا بِابْنَتِي». ثُمَّ أَجْلَسَهَا عَنْ شِمَالِهِ ثُمَّ إِنَّهُ أَسَرَّ إِلَيْهَا حَدِيثًا فَبَكَتْ فَاطِمَةُ ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّهَا فَضَحِكَتْ أَيْضًا، فَقُلْتُ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ قَالَتْ: مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ.

فَقُلْتُ: مَا رَأَيْتُ كَالْيَوْمِ فَرَحًا أَقْرَبَ مِنْ حُزْنٍ. فَقُلْتُ لَهَا حِينَ بَكَتْ: أَخَصَّكِ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِحَدِيثٍ دُونَنَا ثُمَّ تَبْكِينَ وَسَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ.

فَقَالَتْ: مَا كُنْتُ لأُفْشِيَ سِرَّ رَسُولِ اللهِ ﷺ حَتَّى إِذَا قُبِضَ سَأَلْتُهَا عَمَّا قَالَ فَقَالَتْ: إِنَّهُ كَانَ يُحَدِّثُنِي أَنَّ جِبْرَائِيلَ كَانَ يُعَارِضُهُ بِالْقُرْآنِ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً وَأَنَّهُ عَارَضَهُ بِهِ الْعَامَ مَرَّتَيْنِ «وَلاَ أُرَانِي إِلاَّ قَدْ حَضَرَ أَجَلِي وَأَنَّكِ أَوَّلُ أَهْلِي لُحُوقًا بِي وَنِعْمَ السَّلَفُ أَنَا لَكِ». فَبَكَيْتُ ثُمَّ إِنَّهُ سَارَّنِي فَقَالَ: «أَلاَ تَرْضَيْنَ أَنْ تَكُونِي سَيِّدَةَ نِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ - أَوْ نِسَاءِ هَذِهِ الأُمَّةِ - ». فَضَحِكْتُ لِذَلِكَ[(١)].

فكانت أوّل مَن مات مِن أهل بيت النبيّ بعده حتَّى مِن أزواجه.

عباد الله...

وفي يوم الاثنين وبالتحديد في فَجرِه، حَدَث ما يلي:

عَنْ أَنَسِ بْنُ مَالِكٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ كَانَ يُصَلِّي لَهُمْ فِي وَجَعِ رَسُولِ اللهِ ﷺ الَّذِي تُوُفِّيَ فِيهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمُ الاِثْنَيْنِ وَهُمْ صُفُوفٌ فِي الصَّلاَةِ كَشَفَ رَسُولُ اللهِ ﷺ سِتْرَ الْحُجْرَةِ فَنَظَرَ إِلَيْنَا وَهُوَ قَائِمٌ كَأَنَّ وَجْهَهُ وَرَقَةُ مُصْحَفٍ[(٢)] ثُمَّ تَبَسَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ ضَاحِكًا، قَالَ: فَبُهِتْنَا وَنَحْنُ فِي الصَّلاَةِ مِنْ فَرَحٍ بِخُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ وَنَكَصَ أَبُو بَكْرٍ عَلَى عَقِبَيْهِ لِيَصِلَ الصَّفَّ وَظَنَّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ خَارِجٌ لِلصَّلاَةِ فَأَشَارَ إِلَيْهِمْ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ أَنْ «أَتِمُّوا صَلاَتَكُمْ». قَالَ: ثُمَّ دَخَلَ رَسُولُ اللهِ

(١) رواه البخاري (٣٦٢٣)، ومسلم (٢٤٥٠).

(٢) عبارة عن الجمال البارع، وحُسن البشرة وصفاء الوجه واستنارته.

ﷺ فَأَرْخَى السِّتْرَ. قَالَ: فَتُوُفِّيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ مِنْ يَوْمِهِ ذَلِكَ»[١].

قَالَ الشيخ مُحَمَّد الغزالي - رَحِمَهُ الله -: «كأن الله تَعَالى أراد أن يطمئنه عَلَى كمال انقياد أُمَّته وحُسن اتباعها، فأشهده آخر وقت حضره وهو في الدنيا» ا.هـ[٢].

ولما اشتدّ الوجع برسول الله ﷺ وهزم المرضُ عافيته، أسنَدَتْهُ عائشةُ رَضِيَ الله عَنْهُ إلى صَدرِها، ونترك الحديث لها:

«قالت رَضِيَ الله عَنْهَا: دَخَلَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ وَأَنَا مُسْنِدَتُهُ إِلَى صَدْرِي، وَمَعَ عَبْدِ الرَّحْمَنِ سِوَاكٌ رَطْبٌ يَسْتَنُّ بِهِ[٣]، فَأَبَدَّهُ[٤] رَسُولُ اللهِ ﷺ بَصَرَهُ، فَأَخَذْتُ السِّوَاكَ فَقَصَمْتُهُ[٥]، وَنَفَضْتُهُ وَطَيَّبْتُهُ، ثُمَّ دَفَعْتُهُ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَاسْتَنَّ بِهِ، فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ اسْتَنَّ اسْتِنَانًا قَطُّ أَحْسَنَ مِنْهُ[٦]، فَمَا عَدَا أَنْ فَرَغَ رَسُولُ اللهِ ﷺ رَفَعَ يَدَهُ أَوْ إِصْبَعَهُ ثُمَّ قَالَ: «**فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى**» ثَلَاثًا ثُمَّ قَضَى[٧]، وَكَانَتْ تَقُولُ: «مَاتَ بَيْنَ حَاقِنَتِي[٨] وَذَاقِنَتِي[٩]»[١٠].

وفي رواية: «بَين سَحري[١١] ونَحري[١٢]». رواه البخاري.

قال أَنَسٍ رضي الله عنه: «لَـمَّا ثَقُلَ النَّبِيُّ ﷺ جَعَلَ يَتَغَشَّاهُ، فَقَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَامُ: وَاكَرْبَ أَبَاهُ، فَقَالَ لَهَا: «**لَيْسَ عَلَى أَبِيكِ كَرْبٌ بَعْدَ اليَوْمِ**». فَلَمَّا مَاتَ قَالَتْ: يَا أَبَتَاهُ أَجَابَ رَبًّا دَعَاهُ، يَا أَبَتَاهْ مَنْ جَنَّةُ الفِرْدَوْسِ مَأْوَاهْ، يَا أَبَتَاهْ إِلَى جِبْرِيلَ

---

(١) أخرجه البخاري (٦٨٠)، ومسلم (٤١٩).

(٢) «فقه السيرة» (٤٨٩).

(٣) يستاك.

(٤) فأبدّه: مدّ نظره إليه.

(٥) قضمته: مضغتهُ.

(٦) استنان المتهيئ لملاقاة مولاه.

(٧) أي: خرجت روحه الطيبة المعطّرة.

(٨) **الحاقنة**: ما سفل من الذّقن.

(٩) **الذاقنة**: ما علا منه.

(١٠) رواه البخاري.

(١١) **السَّحر**: الصَّدر.

(١٢) **النَّحر**: المراد موضع النحر، والمراد أنه مات ورأسه بين حَنَكِها وصَدرِها.

نَنْعَاهْ، فَلَمَّا دُفِنَ قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ التُّرَابَ»[١].

عباد الله...

وعَن اللحظات الأخيرة من حياته ﷺ تحدِّثنا عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا عمَّا سمعته من كلامه، وعمَّا رأته من أحواله:

عَنْ عُرْوَةَ عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: كُنْتُ أَسْمَعُ لَا يَمُوتُ نَبِيٌّ إِلَّا خُيِّرَ بَيْنَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، قَالَتْ: فَأَصَابَتْهُ بُحَّةٌ[٢] فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَسَمِعْتُهُ يَقُولُ: ﴿مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩]، فَظَنَنْتُ أَنَّهُ خُيِّرَ»[٣].

وقالت عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: «كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَهُوَ صَحِيحٌ يَقُولُ: «إِنَّهُ لَمْ يُقْبَضْ نَبِيٌّ قَطُّ حَتَّى يَرَى مَقْعَدَهُ مِنْ الجَنَّةِ ثُمَّ يُحَيَّا أَوْ يُخَيَّرَ»، فَلَمَّا اشْتَكَى وَحَضَرَهُ القَبْضُ وَرَأْسُهُ عَلَى فَخِذِ[٤] عَائِشَةَ غُشِيَ عَلَيْهِ، فَلَمَّا أَفَاقَ شَخَصَ بَصَرُهُ نَحْوَ سَقْفِ البَيْتِ ثُمَّ قَالَ: «اللَّهُمَّ فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى»، فَقُلْتُ: إِذًا لَا يُجَاوِرُنَا، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ حَدِيثُهُ الَّذِي كَانَ يُحَدِّثُنَا وَهُوَ صَحِيحٌ»[٥].

عَنْ عَبَّادِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ أَنَّ عَائِشَةَ أَخْبَرَتْهُ أَنَّهَا: سَمِعَتْ النَّبِيَّ ﷺ وَأَصْغَتْ إِلَيْهِ قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ وَهُوَ مُسْنِدٌ إِلَيَّ ظَهْرَهُ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي وَارْحَمْنِي وَأَلْحِقْنِي بِالرَّفِيقِ»[٦].

عن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: أن رسول الله ﷺ كان بين يَدَيْهِ رَكْوَةٌ فِيهَا مَاءٌ، فَجَعَلَ يُدْخِلُ يَدَيْهِ فِي المَاءِ فَيَمْسَحُ بِهِمَا وَجْهَهُ يَقُولُ: «لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، إِنَّ لِلْمَوْتِ سَكَرَاتٍ». ثُمَّ

(١) رواه البخاري (٤٤٦٢).
(٢) البُحَّة: شيء يعرض في الحلق فيتغير له الصَّوت فيغلظ. «فتح الباري» (٧/ ٧٤٤).
(٣) رواه البخاري (٤٤٣٥).
(٤) قائل هذه العبارة هو عروة بن الزبير، الراوي عن عائشة.
(٥) رواه البخاري (٤٤٣٧).
(٦) رواه البخاري (٤٤٤٠).

نَصَبَ يَدَهُ فَجَعَلَ يَقُولُ: «فِي الرَّفِيقِ الأَعْلَى». حَتَّى قُبِضَ وَمَالَتْ يَدُهُ [(١)].

وعَنْ عَائِشَةَ أيضًا، قَالَتْ: أُغْمِيَ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ وَرَأْسُهُ فِي حِجْرِي، فَجَعَلْتُ أَمْسَحُهُ وَأَدْعُو لَهُ بِالشِّفَاءِ، فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ ﷺ: «لاَ بَلْ أَسْأَلُ اللهَ الرَّفِيقَ الأَعْلَى مَعَ جِبْرِيلَ، وَمِيكَائِيلَ، وإِسْرَافِيلَ» [(٢)].

ولما خرجت روحُه ﷺ خرجت معها رائحةٌ طيبة.

قالت عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا: «قُبِضَ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَرَأْسُهُ بَيْنَ سَحْرِي وَنَحْرِي، قَالَتْ: فَلَمَّا خَرَجَتْ نَفْسُهُ لَمْ أَجِدْ رِيحًا قَطُّ أَطْيَبَ مِنْهَا» [(٣)].

فما أطيبك حيًّا، وما أطيبك ميّتًا يا رسول الله.

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وتسَّرب النبأ الفادح من البيت المحزون، وله طنين في الآذان، وثقل ترزح تحته النفوس، وتدور به البصائر والأبصار.

وشعر المؤمنون أن آفاق المدينة أظلمت، فتركتهم لوعة الثكل حيارى، لا يدرون ما يفعلون. ا.هـ[(٤)].

وهذه بعضُ أقوالهم، ووصف أحوالهم:

عَنْ أَنَسٍ قَالَ: «لَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ المَدِينَةَ أَضَاءَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، فَلَمَّا كَانَ اليَوْمُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ أَظْلَمَ مِنْهَا كُلُّ شَيْءٍ، وَمَا نَفَضْنَا[(٥)] عَنْ

---

(١) رواه البخاري (٤٤٤٩).

(٢) **صحيح**: رواه ابن حبان (٦٥٩١)، وغيره، وصححه الشيخ محمد بيومي في «وفاة الرسول» (١٧).

(٣) **صحيح**: رواه أحمد (٦/ ١٢١)، وصححه الشيخ محمد بيومي في «وفاة الرسول» (١٧).

(٤) «فقه السيرة» للغزالي (٤٩٠).

(٥) **وما نفضنا**: من النفض، وهو تحريك الشيء ليزول ما عليه من التراب والغبار ونحوهما.

النَّبِيِّ ﷺ الأَيْدِيَ، وإنا لفي دفنه (١) حَتَّى أَنْكَرْنَا قُلُوبَنَا(٢)» (٣).

وعن عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا: «أَنَّ أَبَا بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَقْبَلَ عَلَى فَرَسٍ مِنْ مَسْكَنِهِ بِالسُّنْحِ(٤) حَتَّى نَزَلَ فَدَخَلَ المَسْجِدَ فَلَمْ يُكَلِّمْ النَّاسَ حَتَّى دَخَلَ عَلَى عَائِشَةَ فَتَيَمَّمَ(٥) رَسُولَ اللهِ ﷺ وَهُوَ مُغَشًّى بِثَوْبِ حِبَرَةٍ، فَكَشَفَ عَنْ وَجْهِهِ، ثُمَّ أَكَبَّ عَلَيْهِ فَقَبَّلَهُ وَبَكَى ثُمَّ قَالَ: بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي وَاللهِ لَا يَجْمَعُ اللَّهُ عَلَيْكَ مَوْتَتَيْنِ، أَمَّا المَوْتَةُ الَّتِي كُتِبَتْ عَلَيْكَ فَقَدْ مُتَّهَا» (٦).

وقال أهل السِّير: ولما تُوفِّي ﷺ اضطرب المسلمون، فمنهم مَن دهش فخولط، ومنهم مَن أُقعد فلم يطق القيام، ومَن اعتقل لسانُه فلم يطق الكلام، ومنهم مَن أنكر موته بالكلية، ثم أيقن بموته بعد أن ذهب عنه هول المفاجأة.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ(٧)، فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ وَتَرَكُوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: أَمَّا بَعْدُ...

«فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا ﷺ فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ**﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿**الشَّاكِرِينَ**﴾ [آل عمران: ١٤٤].

وَقَالَ: وَاللهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنْ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا.

---

(١) أي: مشغولون بدفنه بعد.
(٢) تعبير عن اللوعة بفقده صلوات ربي وسلامه عليه.
(٣) صحيح: رواه الترمذي، وابن ماجه، وصححه ابن كثير والألباني.
(٤) كان مسكن زوجته.
(٥) تيمم: قصد.
(٦) رواه البخاري (٤٤٥٢).
(٧) أي: يقول لهم: ما مات رسول الله ﷺ. «فتح الباري» (٧/ ٧٥٢).

قَالَ عمر: وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقِرْتُ[١] حَتَّى مَا تُقِلُّنِي[٢] رِجْلَايَ، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَدْ مَاتَ»[٣].

عباد الله...

وبهذا القدر أكتفي، وأسأل الله تَعَالى أن يَرزُقَنا رؤيةَ نَبِيِّنا، وشفاعته، ومُرافَقته في الجَنَّة.

۞۞۞۞۞

(١) عقرت: دُهشتُ وتحيّرتُ.
(٢) ما تُقلّني: ما تحملني.
(٣) رواه البخاري (٤٤٥٤).

الخطبة الحادية والعشرون بعد المائة:

غُسل النَّبيِّ ﷺ

الحمد لله ربِّ العالمين، ﴿يَقُصُّ الحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الفَاصِلِينَ﴾ [الأنعام: ٥٧].

وأشهد أن لَا إله إِلَّا الله، وَحْدَه لَا شريك لَهُ، وأشهد أن محمدًا عَبْدُه وَرَسُولُهُ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

اللَّهمَّ صَلِّ عَلَى سيدنا محمد وعلى آله وصحبه، ومن سار عَلَى نهجِهِ، واقتفى أثره، واتبع هداه إلى يوم الدين.

أَمَّا بَعْدُ:

فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ الله عَنْهَا قالت: «لَمَّا أَرَادُوا غَسْلَ النَّبِيِّ ﷺ قَالُوا: وَاللَّهِ مَا نَدْرِي أَنُجَرِّدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مِنْ ثِيَابِهِ كَمَا نُجَرِّدُ مَوْتَانَا أَمْ نُغَسِّلُهُ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ؟

فَلَمَّا اخْتَلَفُوا أَلْقَى اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّوْمَ حَتَّى مَا مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلاَّ وَذَقْنُهُ فِي صَدْرِهِ، ثُمَّ كَلَّمَهُمْ مُكَلِّمٌ مِنْ نَاحِيَةِ البَيْتِ لاَ يَدْرُونَ مَنْ هُوَ(١): أَنِ اغْسِلُوا النَّبِيَّ ﷺ وَعَلَيْهِ ثِيَابُهُ، فَقَامُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَغَسَلُوهُ وَعَلَيْهِ قَمِيصُهُ يَصُبُّونَ المَاءَ فَوْقَ القَمِيصِ

---

(١) أي: المكلِّم.

وَيُدَلِّكُونَهُ[١] بِالقَمِيصِ دُونَ أَيْدِيهِمْ.

وَكَانَتْ عَائِشَةُ تَقُولُ: لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِى مَا اسْتَدْبَرْتُ[٢] مَا غَسَّلَهُ إِلاَّ نِسَاؤُهُ[٣].

عباد الله...

ها هو النبيُّ ﷺ مُسجّى في بيت عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا بعد أن صعدت رُوحُهُ الطيّبةُ الزكيّةُ إلى الرفيق الأعلى.

وها هم أصحاب النبي ﷺ قَدْ اجتمعوا، وقَدْ خيَّم عَلَى المكان السُّكون، وعلى الوجوه الوجوم.

لقد عظم المصاب، وأحس الجميع بلوعة الفِراق.

والكل يتساءل في دهشة: هل حقًا مات رسولُ الله ﷺ ؟

هل حقًا لم نعد نراه؟

أبعد هذا اليوم سينقطع الوحي؟

وما أَمَرّ عيش من فارق الأحباب، خصوصًا مَن كانت رؤيته حياة الألباب.

لو ذاق طَعْمَ الفِراقِ رَضوى ... لكان من وَجدِه يَمِيد

قَدْ حمّلوني عَذَاب شوقٍ ... يَعجَز عن حَمْله الحَديد[٤]

نعم، لقد مات الحبيبُ أيُّها الأصحاب.

ألم يقل الله تَعَالى له: ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الخَالِدُونَ * كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤، ٣٥].

---

(١) في «المصباح» دَلَّكت الشيء دَلْكًا من باب قتل: مرسته بيدك.

(٢) أي: لو عملتُ أولًا ما علمتُ آخرًا وظهر لي أولاً ما ظهر لي آخرًا، ما غسّل رسول الله ﷺ إلا نساؤه. «عون المعبود» (٨/ ٢٨٨).

(٣) حسن: رواه أبو داود (٢٦٩٣)، والحاكم (٣/ ٥٩، ٦٠)، وصححه، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في «صحيح سنن أبي داود» (٢٦٩٣): حسن.

(٤) «لطائف المعارف» (١/ ١٨٢).

ألم يقل له: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ألم يقل له: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

نعم، لقد مات الحبيب، و﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦].

نعم، لقد مات سيد الرُّسل أجمعين، و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨].

لا شيء مِمَّا ترى تبقى بَشَاشَتُه ... يَبقى الإلهُ وَيُودِي المالُ والوَلَدُ
لَم تُغْنِ عَنْ هُرمز يَومًا خَزائنُهُ ... والخُلد قَدْ حاولت عَادٌ فَمَا خلدوا
ولا سليمان إذ تَجْري الرياح له ... والإنس والجن فيما بينهما تَرِدُ
أين الملوكُ التي كانت لعزّتها ... مِن كُلِّ أوْبٍ إليها وَافِدٌ يَفِدُ
حَوض هُنَالِك مَورود بلا كَذِبٍ ... لابدّ مِن ورده يَومًا كَمَا وَرَدُوا

نعم، لقد مات سَيِّدُ الخلق، وحبيبُ الحق، وها هو جسده الطَّاهر مُسجّى.

فيا ترى كيف يُغسَّل؟

هل سَيُجَرَّدَ من ثيابه كما نفعل مع موتانا؟

هذا السؤال طرحه أصحاب النبيّ ﷺ وهم حول جسده الطاهر، كما ذكرت أُمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

واختلفوا فيما بينهم، وكان معهم عليُّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ، تقول عائشة: ولما اختلفوا ألقى اللَّهُ عليهم النوم، حَتَّى ما منهم من رجلٍ إلا وذقنه في صدره، ثم كلّمهم مُكلِّم من ناحية البيت لا يَدرون من هو: أن اغسلوا النبيَّ ﷺ وعليه ثيابه.

إنها القدرة الإلهية، والمنحة الربانية، والتكريم الكريم، لهذا النبيِّ العظيم.

قالت عائشة: فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسّلوه وعليه قميصه، يصبّون الماء فوق القميص، ويدلكونُه والقميص دون أيديهم.

وعن جَعْفَرِ بن مُحَمَّد عن أبيه، قَالَ: «غُسِّلَ النَّبِيُّ ﷺ ثَلاَثًا بِالسِّدْرِ، وَغُسِّلَ وَعَلَيْهِ قَمِيصٌ، وَغُسِّلَ مِنْ بِئْرٍ يُقَالَ لَهُ «الغَرْسُ» بِقُبَاءٍ كَانَتْ لِسَعْدِ بْنِ خَيْثَمَةَ، وَكَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُشْرَبُ مِنْهَا وَوَلِيَ سَفِلَتَهُ(١) عَلِيٌّ وَالفَضْلُ(٢) مُحْتَضِنُهُ، وَالعَبَّاسُ يَصُبُّ المَاءَ»(٣).

وروى الحاكم عن عبد الله بن الحارث، قَالَ: «غُسِّل النبيَّ ﷺ عليٌّ وعلى يده خِرقة، فغسَّله فأدخل يَدَه تحت القميص فغسّله والقميص عليه».

ثم ماذا؟

ثم يُحدِّثنا عليّ بن أبي طالب رَضِيَ الله عَنْهُ أَنَّهُ: «غَسَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَذَهَبْتُ أَنْظُرُ مَا يَكُونَ مِنَ المَيِّتِ فَلَمْ أَرَ شَيْئًا. وَكَانَ طَيِّبًا حَيًّا وَمَيِّتًا ﷺ»(٤).

ولما فرغوا من غسله، كَفّنوه فِي ثَلَاثَةِ أَثْوَابٍ يَمَانِيَةٍ بِيضٍ سَحُولِيَّةٍ(٥) مِنْ كُرْسُفٍ(٦) لَيْسَ فِيهِنَّ قَمِيصٌ وَلَا عِمَامَةٌ(٧).

قَالَ ابن إسحاق: «فلمَّا فرغَ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء وضع في سريره في بيته، وقَدْ كان المسلمون اختلفوا في دفنه، فقال قائل: ندفنه في مسجده، وقال قائل: بل ندفنه مع أصحابه، فقال أبو بكر: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**ما قُبض نَبيٌّ إلَّا دُفِن حيث يُقْبض**»(٨).

فرفع فراش رسول الله ﷺ الذي تُوفِّي عليه، فحفر تحته، ثم دخل النَّاس عَلَى رسول الله ﷺ يصلون عليه أرسالًا(٩)، دخل الرجال حَتَّى إذا فرغوا، أدخل

---

(١) أي أسفل منه.

(٢) هو الفضل بن عباس.

(٣) رواه ابن أبي شيبة، والبيهقي، وغيرهما، وقال الحافظ: هو مرسل جيد.

(٤) **صحيح**: رواه ابن ماجه، وغيره، وانظر «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢٠٧).

(٥) **سُحُولية**: نسبة إلى قرية باليمن.

(٦) **الكُرسُف**: القطن.

(٧) رواه البخاري (١٢٦٤)، ومسلم (٢١٤٤).

(٨) أي: يدفن في المكان الذي مات فيه، والحديث صحيح، رواه الترمذي، وانظر «صحيح الجامع» (٥٦٤٩).

(٩) **أرسالًا**: فرادى.

النساء [illegible] الصبيان، ولم يؤمّ النَّاس عَلَى رسول الله ﷺ أحدٌ[١].

قَالَ الحافظ ابن كث[illegible] الله -: «وهذا الصنيع - وهو صلاتهم عليه فرادى لم يؤمّهم أحد عليه - [illegible] عليه لا خلاف فيه، وقَدْ اختلف في تعليله، وليس لأحدٍ أن يقول: لأنه لم يكن لهم إمام، لأنَّا قَدْ قدّمنا أنهم إنَّما شرعوا في تجهيزه ﷺ بعد تمام بيعة أبي بكر رَضِيَ الله عَنْهُ، وقَدْ قَالَ بعض العلماء: إنَّما لم يؤمّهم أحدٌ ليباشر كلّ واحد من النّاس الصّلاة عليه منه إليه، ولتكرّر صلاة المسلمين عليه مرّة بعد مرّة من كلّ فرد من آحاد الصّحابة، رجالهم ونساءهم، وصبيانهم حَتَّى العبيد والإماء.

وأمَّا السّهيلي[٢]: فقال ما حاصله: إن الله قَدْ أخبر أَنَّهُ وملائكته يصلّون عليه، وأمر كل واحد من المؤمنين أن يصلّي عليه، فوجب عَلَى كل واحد أن يباشر الصَّلاة عليه منه إليه، والصلاة عليه بعد موته من هذا القبيل، قَالَ: وأيضًا فإن الملائكة لنا في ذَلِكَ أئمة، فالله أعلم». ا.هـ[٣].

ولما فرغوا من الصَّلاة عليه، شرعوا في تهيئة مكانه الذي سيدفن فيه.

عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: «لَمَّا مَاتَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ اخْتَلَفُوا فِي اللَّحْدِ[٤] وَالشَّقِّ[٥] حَتَّى تَكَلَّمُوا فِي ذَلِكَ وَارْتَفَعَتْ أَصْوَاتُهُمْ فَقَالَ عُمَرُ لَا تَصْخَبُوا[٦] عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَيًّا وَلَا مَيِّتًا أَوْ كَلِمَةً نَحْوَهَا، فَأَرْسَلُوا إِلَى الشَّقَّاقِ وَاللَّاحِدِ جَمِيعًا فَجَاءَ

---

(١) ذكره ابن هشام في «السيرة النبوية» (٤/ ٢٥٦).

(٢) انظر «الروض الأنف» (٤/ ٢٧٣، ٢٧٤).

(٣) «البداية» (٤/ ٢٤٣) ط. دار الفكر.

(٤) اللَّحد: هو الشَّق في عرض القبر من جهة القبلة.

(٥) الشَّق: هو الضريح، وهو أن يحفر إلى أسفل كالنَّهر.

قال الإمام النووي: «أجمع العلماء عَلَى أن الدّفن في اللَّحد والشّق جائزان، ولكن إن كانت الأرض صلبة لا ينهار ترابها فاللّحد أفضل، وإن كانت رخوة تنهار، فالشّق أفضل» ا.هـ. «المجموع» (٥/ ٢٨٧).

(٦) لا تصخبوا: لا تصيحوا.

اللَّاحِدُ فَلَحَدَ لِرَسُولِ اللهِ ﷺ ثُمَّ دُفِنَ ﷺ»[(١)].

قال ابن عباس: «وجعل في قبر رسول الله ﷺ قطيفة حمراء»[(٢)].

قلت: والذي ألحد النبيَّ ﷺ أبو طلحة الأنصاري رضي الله عنه.

فعن مُحَمَّدِ بن جعفر عن أبيه قَالَ: الَّذِي أَلْحَدَ قَبْرَ رَسُولِ اللهِ ﷺ «أَبُو طَلْحَةَ»، وَالَّذِي أَلْقَى القَطِيفَةَ تَحْتَهُ «شُقْرَانُ» مَوْلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ[(٣)].

وذكر ابنُ عبد البرّ: أن تلك القطيفة استخرجت قبل أن يُهال التراب.

قلت: وهذا أثبت[(٤)].

والذي دخل قبره ليتولّى دفنه: الذين غسّلوه وهم: العبّاس، والفضل، وعليّ.

فعن ابن عباس رَضِيَ الله عَنْهُمَا قَالَ: «دخل قبر رسول الله ﷺ: العباس، وعليّ، والفضل»[(٥)].

وكانت هَذِهِ اللحظة لحظة دفنه وإهالة التراب عليه أشق لحظة مرّت عَلَى المسلمين بعد تلقيهم نبأ وفاته ﷺ.

عن أنس قَالَ: «لَمَّا دُفِنَ ﷺ قَالَتْ فَاطِمَةُ عَلَيْهَا السَّلَام: يَا أَنَسُ أَطَابَتْ أَنْفُسُكُمْ أَنْ تَحْثُوا عَلَى رَسُولِ اللهِ ﷺ التُّرَابَ»[(٦)].

والله ما طابت نفوسُهم بذلك يا فاطمة، ولكن جَرَت المقادير بذلك، قَالَ المَلِك جَلّ وعلا: ﴿**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى**﴾ [طه: ٥٥].

نعم يا فاطمة، ما طابت النفوس بذلك، ولكن لا سبيل غير الرضا بالقضاء، والله إن العين لتدمع، وإن القلب ليحزن، وإنَّا عَلَى فراقه لمحزونون، ولكن لا

---

(١) حسن: «صحيح سنن ابن ماجه» (١٢٧٥).
(٢) رواه مسلم (٢٢٠٦).
(٣) رواه الترمذي (١٠٤٧).
(٤) انظر «تحفة الأحوذي» (٤/ ١٤٩).
(٥) صحيح: أخرجه البيهقي، وابن حبان.
(٦) رواه البخاري (٤٤٦٢).

نقول إلا ما يرضى ربنا.

وإن كان قد غاب جسدُه عن أعيننا، فحبُّه يملأ أقطار نفوسنا، ويهيّج دائمًا أشواقنا.

وهل هناك مؤمن ينساه؟!!

أقول قولي هذا، وأستغفر الله العظيم لي ولكم...

الخطبة الثانية

الحمد لله وكفى، وسلامٌ على عِبادِهِ الذين اصطفى.

وبعد...

وبقيت في القصّة بقيّة، وهي: قولُ عائشة رضي الله عنها: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا غَسَّلَهُ إِلاَّ نِسَاؤُهُ».

والمعنى: لو علمتُ أولًا ما علمتُ آخرًا، وظهر لي أوّلًا ما ظهر لي آخرًا، ما غسله إلا نساؤه.

وكأن عائشة رَضِيَ الله عَنْهَا تفكرت في الأمر بعد أن مضى، وذكرت قول النبي ﷺ لها: «مَا ضَرَّكِ لَوْ مِتِّ قَبْلِي فَغَسَّلْتُكِ وَكَفَّنْتُكِ ثُمَّ صَلَّيْتُ عَلَيْكِ وَدَفَنْتُكِ؟»[١].

قال الشوكاني: «فيه متمسك لمذهب الجمهور، أي: في جواز غسل أحد الزوجين للآخر، ولكنه لا يدل عَلَى عدم جواز غسل الجنس لجنسه مع وجود الزوجة، ولا عَلَى أنها أوّلى من الرجال» ا.هـ.

قلت: غاية ما فيه: أنه يجوز للمرأة أن تتولى غسل زوجها بنفسها، كما يجوز للزوج فعل ذلك، والله أعلم.

❖❖❖❖❖

---

(١) صحيح: رواه أحمد، وغيره.

الفهرس